صفحة : 4500

وجملة)ألا يعلم من خلق(استئناف بياني ناشئ عن قوله)إنه عليم بذات الصدور(بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور فإنه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالا لتعلق علمه بما يختلج فيها وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خلدها، فالإتيان ب)من(الموصولة لإفادة التعليل بالصلة.

فيجوز أن يكون)من خلق(مفعول)يعلم(، فيكون) يعلم(و)خلق(رافعين ضميرين عائدين إلى ما عاد إليه ضمير)إنه عليم بذات الصدور(، فيكون)من(الوصولة صادقة على المخلوقين وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير نصب يكثر حذفه. والتقدير: من خلفهم.

ويجوز أن يكون)من خلق(فاعل)يعلم(والمراد الله تعالى، وحذف مفعول)يعلم(لدلالة قوله)وأسروا قولكم أو اجهروا به(. والتقدير: ألا يعلم خالقكم سركم وجهركم وهو الموصوف بلطيف خبير.

والعلق يتعلق بذوات الناس وأحوالهم لأن الخلق إيجاد وإيجاد الذوات على نظام مخصوص دال على إرادة ما أودع فيه من النظام وما ينشأ عن قوى ذلك النظام، فالآية دليل على عموم علمه تعالى ولا دلالة فيها على أنه تعالى خالق أفعال العباد للانفكاك الظاهر بين تعلق العلم وتعلق القدرة.

وجملة)وهو اللطيف الخبير(الأحسن أن تجعل عطفا على جملة) ألا يعلم من خلق(لتفيد تعليما للناس بأن علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها فبعد أن أنكر ظنهم انتفاء على الله بما يسرون، أعلمهم أنه يعلم ما هو أعم من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.

واللطيف: العالم بخبايا الأمور والمدبر لها برفق وحكمة.

والخبير: العليم الذي لا تعزب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها فلذلك اشتق هذا الوصف من مادة الخبر، وتقدم عند قوله تعالى)وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير(في الأنعام وعند قوله)إن الله لطيف خبير(في سورة لقمان.

)هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[15](استئناف فيه عود إلى الاستدلال، وإدماج للامتنان، فإن خلق الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدل على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان إذ ما الإنسان إلا جزء من الأرض أو كجزء منها قال تعالى)منها خلقناكم(، فلما ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلا على علمه الدال على وحدانيته شفعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المنة بأنه خلقها هينة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم، وذيل ذلك بأن النشور منها وأن النشور إليه لا إلى غيره.

والذلول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقدم في قوله تعالى)أنها بقرة لا ذلول(الآية في سورة البقرة، فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة.

والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها.

وفرع على هذه الاستعارة الأمر في)فامشوا في مناكبها(فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخر الله لهم في المشي في الأرض امتنانا بذلك.

ومناسبة)وكلوا من رزقه(أن الرزق من الأرض. والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها. فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل مما تنبته الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان ونحو ذلك. وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأن الذلول لها منكبان والأرض ذات متسعات كثيرة.

وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإنعام ليتدبروا فيتركوا العناد، قال تعالى)كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون(.

وأما عطف)وإليه النشور(فهو تتميم وزيادة عبر استطرون لمناسبة ذكر الأرض فإنها مثوى الناس بعد الموت.

والمعنى: إليه النشور منها، وذلك يقتضي حذفا، أي وفيها تعودون.

وتعريف)النشور(تعريف الجنس فيعم أي كل نشور، ومنه نشور المخاطبين فكان قوله)وإليه النشور(بمنزلة التذييل.

والقصر المستفاد من تعريف جزأي)هو الذي جعل لكم الأرض(قصر قلب بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أن الأصنام خلقت الأرض لأن اعتقادهم إلهيتها يقتضي إلزامهم بهذا الظن الفاسد وإن لم يقولوه.

وتقديم المجرور في جملة)وإليه النشور(للاهتمام.

ومناسبة ذكر النشور هو ذكر خلق الأرض فإن البعث يكون من الأرض.

)ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور[16] (انتقال من الاستدلال إلى التخويف لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذللها للناس وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض. فالجملة معترضة والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير.

و)من(اسم موصول وصلته صادق على موجود ذي إدراك كائن في السماء. وظاهر وقوع هذا الموصول عقب جمل)هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا(إلى قوله)وإليه النشور(أن الإتيان بالموصول من قبيل الإظهار في مقام الإضمار، وأن مقتضى الظاهر أن يقال أأمنتموه أن يخسف بكم الأرض؛ فيتأتى أن الإتيان بالموصول لما تؤذن به الصلة من عظيم تصرفه في العالم العلوي الذي هو مصدر القوى والعناصر وعجائب الكائنات فيصير قوله)من في السماء(في الموضعين من قبيل المتشابه الذي يعطي ظاهره معنى الحلول في مكان وذلك لا يليق بالله، ويجيء فيه ما في أمثاله من طريقتي التفويض للسلف والتأويل للخلف رحمهم الله أجمعين.

وقد أولوه بمعنى: من في السماء عذابه أو قدرته أو سلطانه على نحو تأويل قوله تعالى)وجاء ربك(وأمثاله، وخص ذلك بالسماء لأن إثباته لله تعالى ينفيه عن أصنامهم.

ولكن هذا الموصول غير مكين في باب المتشابه لأنه مجمل قابل للتأويل بما يحتمله)من(أن يكون ما صدقه مخلوقات ذات إدراك مقرها السماء وهي الملائكة فيصح أن تصدق)من(على طوائف من الملائكة الموكلين بالأمر التكويني في السماء والأرض قال تعالى) يتنزل الأمر بينهن(، ويصح أن يراد باسم الموصول ملك واحد معين وظيفته فعل هذا الخسف، فقد قيل: إن جبريل هو الملك الموكل بالعذاب.

وإسناد فعل)يخسف(إلى)الملائكة(أو إلى واحد منهم حقيقة لأنه فاعل الخسف قال تعالى حكاية عن الملائكة)قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين(إلى)إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء(.

وإفراد ضمير)يخسف(مراعاة للفظ)من(إذا أريد طائفة من الملائكة أو مراعاة للفظ والمعنى إذا كان ما صدق)من(ملكا واحدا.

والمعنى: توبيخهم على سوء معاملتهم ربهم كأنهم آمنون من أن يأمر الله ملائكته بأن يخسفوا الأرض بالمشركين.

والخسف: انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض باطنا وباطنه ظاهرا وهو شدة الزلزال.

وفعل خسف يستعمل قاصرا ومتعديا وهو من باب ضرب، وتقدم عند قوله تعالى)أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض(سورة النحل.

والباء في قوله)بكم(للمصاحبة، أي يخسف الأرض مصاحبة لذواتكم. وفي الجمع بين السماء والأرض محسن الطباق.

والمصدر المنسبك من)أن يخسف(يجوز أن يكون بدل اشتمال من اسم الموصول لأن الخسف من شأن من في السماء، ويجوز أن يكون منصوبا على نزع الخافض وهو مطرد مع)أن(، والخافض المحذوف حرف)من(.

صفحة : 4502

وفرع على الخسف المتوقع المهدد به أن تمور الأرض تفريع الأثر على المؤثر لأن الخسف يحدث المور، فإذا خسفت الأرض فاجأها المور لا محالة، لكن نظم الكلام جرى على ما يناسب جعل التهديد بمنزلة حادث وقع فلذلك جيء بعده بالحرف الدال على المفاجأة لأن حق المفاجأة أن تكون حاصلة زمن الحال لا الاستقبال كما في مغني اللبيب فإذا أريد تحقيق حصول الفعل المستقبل نزل منزلة الواقع في الحال كقوله تعالى)ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون(، وإذا أريد احتضار حالة فعل حصل فيما مضى نزل كذلك منزلة المشاهد في الحال كقوله تعالى)وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا(فكان قوله) فإذا هي تمور(مؤذنا بتشبيه حالة الخسف المتوقع المهدد به بحالة خسف حصل بجامع التحقق كما قالوا في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وحذف المركب الدال على الحالة المشبه بها ورمز إليه بما هو من آثاره ويتفرع عنه فكان في الكلام تمثيلية مكنية.

والمور: الارتجاج والاضطراب وتقدم في قوله تعالى)يوم تمور السماء مورا(في سورة الطور.

)أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير[17]( )أم(لاضطراب الانتقال من غرض إلى غرض، وهو انتقال من الاستفهام الإنكاري التعجيبي إلى آخر مثله باعتبار اختلاف الأثرين الصادرين عن مفعول الفعل المستفهم عنه اختلافا يوجب تفاوتا بين كنهي الفعلين وإن كانا متحدين في الغاية، فالاستفهام الأول إنكار على أمنهم الذي في السماء من أن يفعل فعلا أرضيا.

والاستفهام الواقع من)أم(إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يرسل عليهم من السماء حاصب وذلك أمكن لمن في السماء وأشد وقعا على أهل الأرض. والكلام على قوله)من في السماء(تقدم في الآية قبلها ما يغني عنه.

وتفريع جملة)فستعلمون كيف نذير(على الاستفهام الإنكاري كتفريع جملة)فإذا هي تمور(أي فحين يخسف بكم أو يرسل عليهم حاصب تعلمون كيف نذير، وحرف التنفيس حقه الدخول على الأخبار التي ستقع في المستقبل، وإرسال الحاصب غير مخبر بحصوله وإلا لما تخلف لأن خبر الله لا يتخلف، وإنما هو تهديد وتحذير فإنهم ربما آمنوا وأقلعوا فسلموا من إرسال الحاصب عليهم ولكن لما أريد تحقيق هذا التهديد شبه بالأمر الذي وقع فكان تفريع صيغة الإخبار على هذا مؤذنا بتشبيه المهدد به بالأمر الواقع على طريقة التمثيلية الكنية، وجملة)فستعلمون(قرينتها لأنها من روادف المشبه به كما تقدم.

و)كيف نذير(استفهام معلق فعل)تعلمون(عن العمل، وهو استفهام للتهديد والتهويل، والجملة مستأنفة.

وحذفت ياء المتكلم من)نذيري(تخفيفا وللرعي على الفاصلة.

والنذير مصدر بمعنى الإنذار مثل النكير بمعنى الإنكار.

وقدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب لأن الخسف من أحوال الأرض، والكلام على أحوالها أقرب هنا فسلك شبه طريق النشر المعكوس، ولأن إرسال الحاصب عليهم جزاء على كفرهم بنعمة الله التي منها رزقهم في الأرض المشار إليه بقوله)وكلوا من رزقه(فإن منشأ الأرزاق الأرضية من غيوث السماء قال تعالى)وفي السماء رزقكم(.

)ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير[18](بعد أن وجه الله إليهم الخطاب تذكيرا واستدلالا وامتنانا وتهديدا وتهويلا ابتداء من قوله)واسروا قولكم أو اجهروا به(التفت عن خطابهم إلى الإخبار عنهم بحالة الغيبة، تعريضا بالغضب عليهم بما أتوه من كل تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانوا جديرين بإبعادهم عز الحضور للخطاب، فلذلك لم يقل ولقد كذب الذين من قبلكم ولم يقطع

توجيه التذكير إليهم والوعيد لعلهم يتدبرون في أن الله لم يدخرهم نصحا.
فالجملة عطف على جملة)أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا(لمناسبة أن مما عوقب به بعض الأمم المكذبين من خسف أو إرسال حجارة من السماء وهم قوم لوط، ومنهم من خسف بهم مثل أصحاب الرس.
ولك أن تجعل الواو للحال، أي كيف تأمنون ذلك عندما تكذبون الرسول في حال أنه قد كذب الذين من قبلكم فهل علمتم ما أصابهم على تكذيبهم الرسل.

صفحة : 4503

ضرب الله لهم مثلا بأمم من قبلهم كذبوا الرسل فأصابهم من الاستئصال ما قد علموا أخباره لعلهم أن يتعضوا بقياس التمثيل إن كانت عقولهم لم تبلغ درجة الانتفاع بأقيسة الاستنتاج، فإن المشركين من العرب عرفوا آثار عاد وثمود وتناقلوا أخبار قوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرس وفرع)فكيف كان نكير(استفهاما تقريريا وتنكيريا وهو كناية عن تحقيق وقوعه وأنه وقع في حال فظاعة.
وقد أكد الخبر باللام و)قد(لتنزيل المعرض بهم منزلة من يظن أن الله عاقب الذين من قبلهم لغير جرم أو لجرم غير التكذيب. فهو مفرع مؤكد، فالمعنى: لقد كذب الذين من قبلهم ولقد كان نكيري عليهم بتلك الكيفية.
ونكير: أصله نكيري بالإضافة إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفا، كما في قوله)فستعلمون كيف نذير(، والمعنى: كيف رأيتم أثر نكيري عليهم فاعلموا أن نكيري عليكم صائر بكم إلى مثل ما صار بهم نكيري عليهم.
والمراد بالنكير المنظر بنكير الله على الذين من قبلهم، ما أفاده استفهام الإنكار في قوله)آمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض(وقوله)أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا(.
)أولم يروا إلى الطير فوقهم صفت ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير[19](عطف على جملة)هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا(استرسالا في الدلائل على انفراد الله تعالى بالتصرف في الموجودات، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات وهي أحوال الطير في نظام حركاتها في حال طيرانها إذ لا تمشي على الأرض كما هو

في حركات غيرها على الأرض، فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المنفرد به.
واشتمل التذكير بعجيب خلقة الطير في طيرانها على ضرب من الإطناب لأن الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله)فوقهم صافات ويقبضن(تصور صورة حركات الطيران للسامعين فتنبههم لدقائق ربما أغفلهم عن تدقيق النظر فيها نشأتهم بينها من وقت ذهول الإدراك في زمن الصبا، فإن المرء التونسي أو المغربي مثلا إذا سافر إلى بلاد الهند أو إلى بلاد السودان فرأى الفيلة وهو مكتمل العقل دقيق التمييز أدرك من دقائق خلقة الفيل ما لا يدركه الرجل من أهل الهند الناشئ بين الفيلة، وكم غفل الناس عن دقائق في المخلوقات من الحيوان والجماد ما لو تتبعوه لتجلى لهم منها ما يملأ وصفه الصحف قال تعالى)أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت(، وقال)وفي أنفسكم أفلا تبصرون(.
وقد رأيت بعض من شاهد البحر وهو كبير، ولم يكن شاهده من قبل، كيف امتلكه من العجب ما ليس لأحد ممن ألفوه معشاره.
وهذا الإطناب في هذه السورة مخالف لما في نظير هذه الآية من سورة النحل في قوله)ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله(. وذلك بحسب مقتضاه اختلاف المقامين فسورة النحل رابعة قبل سورة الملك، فلما أوقظت عقولهم فيها للنظر إلى ما في خلقة الطير من الدلائل فلم يتفطنوا وسلك في هذه السورة مسلك الإطناب بزيادة ذكر أوصاف ثلاثة: فالوصف الأول: ما أفاده قوله)فوقهم(فإن جميع الدواب تمشي على الأرض والطير كذلك فإذا طار الطائر انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات وهي السير في الجو بواسطة تحريك جناحيه ذلك سر قوله تعالى)يطير بجناحيه(بعد قوله)ولا طائر(في سورة الأنعام لقصد تصوير تلك الحالة.

والوصف الثاني:)صافات(وهو وصف بوزن اسم الفاعل مشتق من الصف، وهو كون أشياء متعددة متقاربة الأمكنة وباستواء، وهو قاصر ومتعد، يقال: صفوا بمعنى اصطفوا كما حكى الله عن الملائكة)وإنا لنحن الصافون(وقال تعالى في البدن)فاذكروا اسم الله عليها صواف(. ويقال: صفهم إذا جعلهم مستوين في الموقف، وفي حديث ابن عباس في الجنائز مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبر

منبوذ إلى قوله فصفنا خلفه وكبر . والمراد هنا أن الطير صافة أجنحتها فحذف المفعول لعلمه من الوصف الجاري على الطير إذ لا تجعل الطير أشياء مصفوفة إلا ريش أجنحتها عند الطيران فالطائر إذا طار بسط جناحيه، أي مدها فصف ريش الجناح فإذا تمدد الجناح ظهر ريشه مصطفا فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوصفت به، وتقدم عند قوله تعالى)والطير صافات(في سورة النور. وبسط الجناحين يمكن الطائر من الطيران فهو كمد اليدين للسابح في الماء.

الوصف الثالث:)ويقبضن(وهو عطف على)صافات(من عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق وإفادة الاتصاف بحدوث المصدر في فاعله، فلم يفت بعطفه تماثل المعطوفين في الاسمية والفعلية الذي هو من محسنات الوصل.

والقبض: ضد البسط. والمراد به هنا ضد الصف المذكور قبله، إذ كان ذلك الصف صادقا على معنى البسط ومفعوله المحذوف هنا هو عين المحذوف في المعطوف عليه، أي قابضات أجنحتهن حين يدنينها من جنوبهن للازدياد من تحريك الهواء للاستمرار في الطيران.

وأوثر الفعل المضارع في)يقبضن(لاستحضار تلك الحالة العجيبة وهي حالة عكس بسط الجناحين إذ بذلك العكس يزداد الطيران قوة امتداد زمان.

وجيء في وصف الطير ب)صافات(بصيغة الاسم لأن الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدال على الثبات، وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي ويجددن القبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران، ونظيره قوله تعالى في الجبال والطير)يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة(لأن التسبيح في وقتين والطير محشورة دوما.

وانتصب)فوقهم(على الحال من)الطير(وكذلك انتصب)صافات(.

وجملة)ويقبضن(في موضع نصب على الحال لعطفها على الوصف الذي هو حال فالرؤية بصرية مضمنة معنى النظر، ولذلك عديت إلى المرئي ب)إلى(.

والاستفهام في)أولم يروا(إنكاري، نزلوا منزلة من لم ير هاته الأحوال في الطير لأنهم لم يعتبروا بها ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهية.

وجملة)ما يمسكهن إلا الرحمان(مبينة لجملة)أولم يروا إلى الطير(وما فيها من استفهام إنكار، أي كان حقهم أن يعلموا أنهن

ما يمسكهن إلا الرحمان إذ لا ممسك لها ترونه كقوله تعالى)
ويمسك السماء أن تقع على الأرض(.
وفي هذا إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن الهوي المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبل هؤلاء فلو لم يشركوا به ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطير من الهوي.
ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح وما جعل لهن من القوادم، وهي ريشات عشر هي مقاديم ريش الجناح، وفي الخوافي وهي ما دونها من الجناح إلى منتهى ريشه، وما خلقه من شكل أجسادها المعين على نفوذها في الهواء فإن ذلك كله بخلق الله إياها مانعا لها من السقوط وليس ذلك بمعاليق يعلقها بها أحد كما يعلق المشعوذ بعض الصور بخيوط دقيقة لا تبدو للناظرين.
وإيثار اسم)الرحمان(هنا دون الاسم العلم بخلاف ما في سورة النحل)ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله(لعله للوجه الذي ذكرناه آنفا في خطابهم بطريقة الإطناب من قوله)أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات(الآية.
فمن جملة عنادهم إنكارهم اسم)الرحمان(فلما لم يرعووا عما هم عليه ذكر وصف)الرحمان(في هذه السورة أربع مرات.
وجملة)إنه بكل شيء بصير(تعليل لمضمون)ما يمسكهن إلا الرحمان(أي أمسكهن الرحمان لعموم علمه وحكمته ولا يمسكهن غيره لقصور علمه أو انتفائه.

صفحة : 4505

والبصير: العليم، مشتق من البصيرة، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو: السميع البصير، وإنما هو هنا من باب قولهم: فلان بصير بالأمور. وقوله تعالى)إن الله بصير بالعباد(، فهو خبر لا وصف ولا منزل منزلة الاسم. وتقديم)بكل شيء(على متعلقه لإفادة القصر الإضافي وهو قصر قلب ردا على من يزعمون أنه لا يعلم كل شيء كالذين قيل لهم)وأسروا قولكم أو اجهروا به(.
)أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور[20]( )أم(منقطعة وهي للاضطراب الانتقالي من غرض إلى غرض فبعد استيفاء غرض إثبات الإلهية الحق لله تعالى بالوحدانية وتذكيرهم بأنهم مفتقرون إليه، انتقل إلى إبطال أن

يكون أحد يدفع عنهم العذاب الذي توعدهم الله به فوجه إليهم استفهام أن يدلوا على أحد من أصنامهم أو غيرها يقال فيه هذا هو الذي ينصر من دون الله، فإنهم غير مستطيعين تعيين أحد لذلك إلا إذا سلكوا طريق البهتان وما هم بسالكيه في مثل هذا لافتضاح أمره.

وهذا الكلام ناشئ عن قوله)أأمنتم من في السماء(الآية فهو مثله معترض بين حجج الاستدلال.

و)أم(المنقطعة لا يفارقها معنى الاستفهام، والأكثر أن يكون مقدارا فإذا صرح به كما هنا فأوضح ولا يتوهم أن الاستفهام يقدر بعدها ولو كان يليها استفهام مصرح به فيشكل اجتماع استفهامين.

والاستفهام مستعمل في التعجيز عن التعيين فيؤول إلى الانتفاء، والإشارة مشار بها إلى مفهوم)جند(مفروض في الأذهان استحضر للمخاطبين، فجعل كأنه حاضر في الخارج يشاهده المخاطبون، فيطلب المتكلم منهم تعيين قبيله بأن يقولوا بنو فلان. ولما كان الاستفهام مستعملا في التعجيز استلزم ذلك أن هذا الجند المفروض غير كائن.

وقريب من ذلك قوله تعالى)من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه(ونحوه.

و)من(في موضع مبتدأ واسم الإشارة خبر عن المبتدأ.

وكتب في المصحف)أمن(بميم واحدة بعد الهمزة وهما ميم)أم(وميم)من(المدغمتين بجعلهما كالكلمة الواحدة كما كتب)عم يتساءلون(بميم واحدة بعد العين، ولا تقرأ إلا بميم مشددة إذ المعتبر في قراءة القرآن الرواية دون الكتابة وإنما يكتب القرآن للإعانة على مراجعته.

و)الذي هو جند(صفة لاسم الإشارة، و)لكم(صفة ل)جند(و)ينصركم(جملة في موضع الحال من)جند(أو صفة ثانية ل)جند(.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة مشارا به إلى جماعة الأصنام المعروفة عندهم الموضوعة في الكعبة وحولها الذي اتخذتموه جندا فمن هو حتى ينصركم من دون الله.

فتكون)من(استفهامية مستعملة في التحقير مثل قوله)من فرعون(في قراءة فتح ميم)من(ورفع فرعون، أي من هذا الجند فإنه أحقر من أن يعرف، واسم الإشارة صفة لاسم الاستفهام مبينة له، و)الذي هو جند لكم(صفة لاسم الإشارة. وجملة)ينصركم(خبر عن اسم الاستفهام، أي هو أقل من أن ينصركم من دون الرحمان. وجيء بالجملة الاسمية)الذي هو جند لكم(لدلالتها على الدوام والثبوت لأن الجند يكونوا على استعداد للنصر إذا دعي إليه سواء

قاتل أم لم يقاتل لأن النصر يحتاج إلى استعداد وتهيؤ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها أي هيعة جهاد.
فالمعنى: ينصركم عند احتياجكم إلى نصره، فهذا وجه الجمع بين جملة)هو جند لكم(وجملة)ينصركم(ولم يستغن بالثانية عن الأولى.
و)دون(أصله ظرف للمكان الأسفل ضد فوق ، ويطلق على المغاير فيكون بمعنى غير على طريقة المجاز المرسل.
فقوله)من دون الرحمان(يجوز أن يكون ظرفا مستقرا في موضع الحال من الضمير المستتر في)ينصركم(. أي حالة كون الناصر من جانب غير جانب الله، أي من مستطيع غير الله يدفع عنكم السوء على نحو قوله تعالى)أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا(فتكون) من(زائدة مؤكدة للظرف وهي تزاد مع الظروف غير المتصرفة، ولا تجر تلك الظروف بغير)من(، قال الحريري في المقامة الرابعة والعشرين وما منصوب على الظرف لا يخفضه سوى حرف وفسره بظرف عند ولا خصوصية ل عند بل ذلك في جميع الظروف غير المتصرفة.
وتكرير وصف الرحمان عقب الآية السابقة للوجه الذي ذكرنا في إيثار هذا الوصف في الآية السابقة.

صفحة : 4506

وذيل هذا الاعتراض بقوله)إن الكافرون إلا في غرور(، أي ذلك شأن الكافرين كلهم وهم أهل الشرك من المخاطبين وغيرهم، أي في غرور من الغفلة عن توقع بأس الله تعالى، أو في غرور من اعتمادهم على الأصنام كما غر الأمم السالفة دينهم بأن الأوثان تنفعهم وتدفع عنهم العذاب فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة فكذلك سيقع لأمثالهم قال تعالى)وللكافرين أمثالها(وقال)أكفاركم خير من أولئكم(فتعريف)الكافرون(للاستغراق. وليس المراد به كافرون معهودون حتى يكون من وضع المظهر موضع الضمير.
والغرور: ظن النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهمها، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع.
وتقدم في قوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد(في آخر آل عمران وقوله)يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا(في الأنعام وقوله)فلا تغرنكم الحياة الدنيا(في سورة فاطر.
والظرفية مجازية مستعملة في شدة التلبس بالغرور حتى كأن الغرور محيط بهم إحاطة الظرف.

والمعنى: ما الكافرون في حال من الأحوال إلا في حال الغرور، وهذا قصر إضافي لقلب اعتقادهم أنهم في مأمن من الكوارث بحماية آلهتهم.

)أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه(انتقال آخر والكلام على أسلوب قوله)أم من هذا الذي هو جند لكم(، وهذا الكلام ناظر إلى قوله)وكلوا من رزقه(على طريقة اللف والنشر المعكوس.

والرزق: ما ينتفع به الناس، ويطلق على المطر، وعلى الطعام، كما تقدم في قوله تعالى)وجد عندها رزقا(.

وضمير)أمسك(وضمير)رزقه(عائدان إلى لفظ)الرحمان(الواقع في قوله)من دون الرحمان(.

وجيء بالصلة فعلا مضارعا لدلالته على التجدد لأن الرزق يقتضي التكرار إذ حاجة البشر إليه مستمرة. وكتب)أمن(في المصحف بصورة كلمة واحدة كما كتب نظيرتها المتقدمة آنفا.

)بل لجوا في عتو ونفور[21](استئناف بياني وقع جوابا عن سؤال ناشئ عن الدلائل والقوارع والزواجر والعظات والعبر المتقدمة ابتداء من قوله)الذي خلق الموت والحياة(إلى هنا، فيتجه للسائل أن يقول: لعلهم نفعت عندهم الآيات والنذر، واعتبروا بالآيات والعبر، فأجيب بإبطال ظنه بأنهم لجوا في عتو ونفور.

و)بل(للاضطراب أو الإبطال عما تضمنه الاستفهامان السابقان أو للانتقال من غرض التعجيز إلى الإخبار عن عنادهم.

يقال: لج في الخصومة من باب سمع، أي اشتد في النزاع والخصام، أي استمروا على العناد يكتنفهم العتو والنفور، أي لا يترك مخلصا للحق إليهم، فالظرفية مجازية، والعتو: التكبر والطغيان.

والنفور: هو الاشمئزاز من الشيء والهروب منه.

والمعنى: اشتدوا في الخصام متلبس بالكبر عن اتباع الرسول حرصا على بقاء سيادتهم وبالنفور عن الحق لكراهية ما يخالف أهواءهم وما ألفوه من الباطل.

)أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صرط مستقيم[22](هذا مثل ضربه الله للكافرين والمؤمنين أو لرجلين: كافر ومؤمن، لأنه جاء مفرعا على قوله)إن الكافرون إلا في غرور(وقوله)بل لجوا في عتو ونفور(وما اتصل ذلك به من الكلام الذي سيق مساق الحجة عليهم بقوله)أمن هذا الذي هو جند لكم( )أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه(، وذلك مما اتفق عليه المفسرون على اختلاف مناحيهم ولكن لم يعرج أحد منهم على بيان كيف يتعين التمثيل الأول للكافرين والثاني للمؤمنين حتى يظهر وجه إلزام الله المشركين بأنهم أهل المثل الأول مثل السوء، فإذا لم يتعين ذلك من الهيئة المشبهة لم يتضح إلزام المشركين بأن حالهم

حال التمثيل الأول، فيخال كل من الفريقين أن خصمه هو مضرب المثل السوء. ويتوهم أن الكلام ورد على طريقة الكلام المنصف نحو)وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين(بذلك ينبو عنه المقام هنا لأن الكلام هنا وارد في مقام المحاجة والاستدلال وهنالك في مقام المتاركة أو الاستنزال.

صفحة : 4507

والذي انقدح لي: أن التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بحالة مشي إنسان مختلفة وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله)على صراط مستقيم(فلا بد من اعتبار مشي المكب على وجهه مشيا على صراط معوج، وتعين أن يكون في قوله)مكبا على وجهه(استعارة أخرى بتشبيه حال السالك صراطا معوجا في تأمله وترسمه آثار السير في الطريق غير المستقيم خشية أن يضل فيه، بحال المكب على وجهه يتوسم حال الطريق وقرينة ذلك مقابلته بقوله)سويا(المشعر بأن مكبا أطلق على غير السوي وهو المنحني المطاطئ يتوسم الآثار اللائحة من آثار السائرين لعله يعرف الطريق الموصلة إلى المقصود.
فالمشرك يتوجه بعبادته إلى آلهة كثيرة لا يدري لعل بعضها أقوى من بعض وأعطف على بعض القبائل من بعض، فقد كانت ثقيف يعبدون اللات، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة ولكل قبيله إله أو آلهة فتقسم الحاجات عندها واستنصر كل قوم بآلهتهم وطمعوا في غنائها عنهم وهذه حالة يعرفونها فلا يمترون في نهم مضرب المثل الأول، وكذلك حال أهل الإشراك في كل زمان. ألا تسمع ما حكاه الله عن يوسف عليه السلام من قوله)أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار(. وينور هذا التفسير أنه يفسره قوله تعالى)وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله(وقوله)قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين(، فقابل في الآية الأولى الصراط المستقيم المشبه به الإسلام بالسبل المتفرقة المشبه بها تعداد الأصنام، وجعل في الآية الثانية الإسلام مشبها بالسبيل وسالكه يدعو ببصيرة ثم قابل بينه وبين المشركين بقوله)وما أنا من المشركين(.
فالآية تشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية فقوله)يمشي مكبا على وجهه(تشبيه لحال المشركين في تقسم أمره بين الآلهة طلبا للذي ينفعه منها الشاك في انتفاعه بها، بحال السائر قاصدا أرضا معينة

ليس لها طريق جادة فهو يتتبع بنيات الطريق الملتوية وتلتبس عليه ولا يوقن بالطريقة التي تبلغ إلى مقصده فيبقى حائرا متوسما يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل فيعلم بها أن الطريق مسلوكة أو متروكة.

وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليه بقوله)مكبا على وجهه(بتشبيه حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من الأرض.

وقوله)من يمشي سويا(تشبيه لحال الذي آمن برب واحد الواثق بنصر ربه وتأييده وبأنه مصادف للحق، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره.

وقد حصل في الآية إيجاز حذف إذ استغني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأول لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني.

والفاء في صدر الجملة للتفريع على جميع ما تقدم من الدلائل والعبر من أول السورة إلى هنا، والاستفهام تقريري.

والمكب: اسم فاعل من أكب، إذا صار ذا كب، فالهمزة فيه أصلها لإفادة المصير في الشيء مثل همزة: أقشع السحاب، إذا دخل في حالة القشع، ومنه قولهم: أنفض القوم إذا هلكت مواشيهم، وأرملوا إذا فني زادهم، وهي أفعال قليلة فيما جاء فيه المجرد متعديا والمهموز قاصرا.

و)أهدى(مشتق من الهدى، وهو معرفة الطريق وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة لأن الذي يمشي مكبا على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء فهو من باب قوله تعالى)قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه(في قول كثير من الأيمة. ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تمليح بحسب المقام.

والسوي: الشديد الاستواء فعيل بمعنى فاعل قال تعالى)أهدك صراطا سويا(. و)أم(في قوله)أمن يمشي سويا(حرف عطف وهي)أم(المعادلة لهمزة الاستفهام. و)من(الأولى والثانية في قوله)أفمن يمشي مكبا(أو قوله)أمن يمشي سويا(موصولتان ومحملهما أن المراد منهما فريق المؤمنين وفريق المشركين وقيل: أريد شخص معين أريد بالأولى أبو جهل، وبالثانية النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أو حمزة رضي الله عنهما.

)قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون[23](

هذا انتقال من توجيه الله تعالى الخطاب إلى المشركين للتبصير بالحجج والدلائل وما تخلل ذلك من الوعيد أو التهديد إلى خطابهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما سيذكر تفننا في البيان وتنشيطا للاذهان حتى كأن الكلام صدر من قائلين وترفيعا لقدر نبيه صلى الله عليه وسلم بإعطائه حظا من التذكير معه كما قال تعالى)فإنما يسرناه بلسانك(.

والانتقال هنا إلى الاستدلال بفروع المخلوقات بعد الاستدلال بأصولها، ومن الاستدلال بفروع أعراض الإنسان بعد أصلها، فمن الاستدلال بخلق السماوات والأرض والموت والحياة، إلى الاستدلال بخلق الإنسان ومداركه، وقد اتبع الأمر بالقول بخمسة مثله بطريقة التكرير بدون عاطف اهتماما بما بعد كل أمر من مقالة يبلغها إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم قال)هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار(الخ.

والضمير)هو(إلى الرحمان من قوله)من دون الرحمان(.

والإنشاء:الإيجاد.

وإفراد)السمع(لأن أصله مصدر، أي جعل لكم حالة السمع، وأما)الأبصار(فهو جمع البصر بمعنى العين، وقد تقدم وجه ذلك عند قوله تعالى)ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة(في سورة البقرة.

و)الأفئدة(القلوب، والمراد بها العقول، وهو إطلاق شائع في استعمال العرب.

والقصر المستفاد من تعريف المسند إليه والمسند في قوله)هو الذي أنشأكم(إلى آخره قصر إفراد بتنزيل المخاطبين لشركهم منزلة من يعتقد أن الأصنام شاركت الله في الإنشاء وإعطاء الإحساس والإدراك.

و)قليلا ما تشكرون(حال من ضمير المخاطبين، أي أنعم عليكم بهذه النعم في حال إهمالكم شكرها.

و)ما(مصدرية والمصدر المنسبك في موضع فاعل)قليلا(لاعتماد)قليلا(على صاحب حال. و)قليلا(صفة مشبهة.

وقد استعمل)قليلا(في معنى النفي والعدم. وهذا الإطلاق من ضروب الكناية والاقتصاد في الحكم على طريقة التمليح وتقدم عند قوله تعالى)فقليلا ما يؤمنون(في البقرة وقوله تعالى)فلا يؤمنون إلا قليلا(في سورة النساء، وتقول العرب: هذه أرض قلما تنبت.

)قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون[24](إعادة فعل)قل(من قبيل التكرير المشعر بالاهتمام بالغرض المسوقة فيه تلك الأقوال.

والذرء: الإكثار من الموجود، فهذا أخص من قوله)هو الذي أنشأكم(أي هو الذي كثركم على الأرض كقوله)هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها(أي أعمركم إياها.

والقول في صيغة القصر في قوله)هو الذي ذرأكم في الأرض(مثل القول في قوله)هو الذي أنشأكم(الآية.

وقوله)وإليه تحشرون(أي بعد أن أكثركم في الأرض فهو يزيلكم بموت الأجيال فكني عن الموت بالحشر لأنهم قد علموا أن الحشر الذي أنذروا به لا يكون إلا بعد البعث والبعث بعد الموت، فالكناية عن الموت بالحشر بمرتبتين من الملازمة، وقد أدمج في ذلك تذكيرهم بالموت الذي قد علموا أنه لابد منه، وإنذارهم بالبعث والحشر.

فتقديم المعمول في)وإليه تحشرون(للاهتمام والرعاية على الفاصلة، وليس للاختصاص لأنهم لم يكونوا يدعون الحشر أصلا فضلا عن أن يدعوه لغير الله.

)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين[25] قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين[26](لما لم تكن لهم معارضة للحجة التي في قوله)هو الذي أنشأكم(إلى)هو الذي ذرأكم في الأرض(انحصر عنادهم في مضمون قوله)وإليه تحشرون(فإنهم قد جحدوا البعث وأعلنوا بجحده وتعجبوا من إنذار القرآن به، وقال بعضهم لبعض)هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد افترى على الله كذبا أم به جنة(وكانوا يقولون)متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(واستمروا على قوله، فلذلك حكاه الله عنهم بصيغة المضارع المقتضية للتكرير.

والوعد مصدر بمعنى اسم المفعول، أي متى هذا الوعد فيجوز أن يراد به الحشر المستفاد من قوله)وإليه تحشرون(فالإشارة إليه بقوله)هذا(ظاهرة، ويجوز أن يراد به وعد آخر بنصر المسلمين، فالإشارة إلى وعيد سمعوه.

والاستفهام بقولهم)متى هذا الوعد(مستعمل في التهكم لأن من عادتهم أن يستهزئوا بذلك قال تعالى)فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو(.

صفحة : 4509

وأتوا بلفظ الوعد استنجازا له لأن شأن الوعد الوفاء.

وضمير الخطاب في)إن كنتم صادقين(للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لأنهم يلهجون بإنذارهم بيوم الحشر، وتقدم نظيره في سورة النبأ.
وأمر الله رسوله بأن يجيب سؤالهم بجلة على خلاف مرادهم بل على ظاهر الاستفهام عن وقت الوعد على طريقة الأسلوب الحكيم، بأن وقت هذا الوعد لا يعلمه إلا الله، فقوله)قل(هنا أمر بقول يختص بجواب كلامهم وفصل دون عطف يجريان المقول في سياق المحاورة، ولم يعطف فعل)قل(بالفاء جريا على سنن أمثاله الواقعة في المجاوبة والمحاورة، كما تقدم في نظائره الكثيرة وتقدم عند قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة.
ولام التعريف في)العلم(للعهد، أي العلم بهذا الوعد. وهذه هي اللام التي تسمى عوضا عن المضاف إليه. وهذا قصر حقيقي.
)وإنما أنا نذير مبين(قصر إضافي، أي ما أنا إلا نذير بوقوع هذا الوعد لا أتجاوز ذلك إلى كوني عالما بوقته.
والمبين: اسم فاعل من أبان المتعدي، أي مبين لما أمرت بتبليغه.
)فلما رأوه زلفة سيآت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون[27]( )لما(حرف توقيت، أي سيئت وجوههم في وقت رؤيتهم الوعد.
والفاء فصيحة لأنها اقتضت جملة محذوفة تقديرها: فحل بهم الوعد فلما رأوه الخ، أي رأوا الموعد به.
وفعل)رأوه(مستعمل في المستقبل، وجيء به بصيغة الماضي لشبهه بالماضي في تحقق الوقوع مثل)أتى أمر الله(لأنه صادر عمن لا إخلاف في أخباره فإن هذا الوعد لم يكن قد حصل حين نزول الآية بمكة سواء أريد بالوعد الوعد بالبعث كما هو مقتضى السياق أم أريد به وعد النصر، بقرينة قوله)ويقولون متى هذا الوعد(فإنه يقتضي أنهم يقولونه في الحال وأن الوعد غير حاصل حين قولهم لأنهم يسألون عنه ب)متى(.
ونظير هذا الاستعمال قوله تعالى)فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا(في سورة النساء وقوله تعالى) ويوم نبعث من كل أمة بشهيد وجئنا بك شهيدا على هؤلاء(في سورة النحل إذ جمع في الآيتين بين فعل)نبعث(مضارعا وفعل) جئنا(ماضيا.
وأصل المعنى: فإذا يرونه تساء وجوه الذين كفروا الخ، فعدل عن ذلك إلى صوغ الوعيد في صورة الإخبار عن أمر وقع فجيء بالأفعال الماضية.
وضمير)رأوه(عائد إلى الوعد بمعنى: رأوا الموعود به.

والزلفة بضم الزاي: اسم مصدر زلف إذا قرب وهو من باب تعب. وهذا إخبار بالمصدر للمبالغة، أي رأوه شديد القرب منهم، أي أخذ ينالهم.

و)سيئت(بني للنائب، أي ساء وجوههم ذلك الوعد بمعنى الموعد. وأسند حصول السوء إلى الوجوه لتضمينه معنى كلحت، أي سوء شديد تظهر آثار الانفعال منه على الوجوه، كما أسند الخوف إلى الأعين في قول الأعشى:

وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق)وقيل(أي لهم.

و)تدعون(بتشديد الدال مضارع ادعى. وقد حذف مفعوله لظهوره من قوله)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(، أي تدعون أنه لا يكون.

و)به(متعلق ب)تدعون(لأنه ضمن معنى)تكذبون(فإنه إذا ضمن عامل معنى عامل آخر يحذف معمول العامل المذكور ويذكر معمول ضمنه ليدل المذكور على المحذوف. وذلك ضرب من الإيجاز.

وتقديم المجرور على العامل للاهتمام بإخطاره وللرعاية على الفاصلة. والقائل لهم)هذا الذي كنتم به تدعون(ملائكة المحشر أو خزنة جهنم، فعدل عن تعيين القائل، إذ المقصود المقول دون القائل فحذف القائل من الإيجاز.

والقصر المستفاد من تعريف جزأي الإسناد تعريض بهم بأنهم من شدة جحودهم بمنزلة من إذا رأوا الوعد حسبوه شيئا آخر على نحو قوله تعالى)فلما رأوه عارضا مستقبل وديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا(.

وقرأ الجمهور)سيئت(بكسرة السين خالصة. وقرأه ابن عامر والكسائي ونافع بإشمال الكسرة ضمة، وهما لغتان في فاء كل ثلاثي معتل العين إذا بني للمجهول.

وقرا الجمهور)تدعون(بفتح الدال المشددة. وقرأه يعقوب بسكون الدال من الدعاء، أي الذي كنتم تدعون الله أن يصيبكم به تهكما وعنادا كما قالوا)فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم(.

)قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكفرين من عذاب أليم[28](هذا تكرير ثان لفعل)هو الذي أنشأكم(.

كان من بذاءة المشركين أن يجهروا بتمني هلاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلاك من معه من المسلمين، وقد حكى القرآن عنهم)أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون(وحكى عن بعضهم)ويتربص بكم الدوائر(، وكانوا يتآمرون على قتله، قال تعالى)وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك(فأمره الله بأن يعرفهم حقيقة تدحض أمانيهم، وهي أن موت أحد أو حياته لا يغني عن غيره ما جره إليه عمله، وقد جرت إليهم أعمالهم غضب الله ووعيده فهو نائلهم حيي الرسول صلى الله عليه وسلم أو بادره المنون، قال تعالى)فأما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون(وقال)وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون(وقال)إنك ميت وإنهم ميتون(أي المشركين، وقد تكرر هذا المعنى وما يقاربه في القرآن وينسب إلى الشافعي:

تمنى رجال أن أموت فإن أمت

فتلك سبيل لست فيها بأوحـد فقد يكون نزول هذه الآيات السابقة صادف مقالة من مقالاتهم هذه فنزلت الآية في أثنائها وقد يكون نزولها لمناسبة حكاية قولهم)متى هذا الوعد(بأن قارئه كلام بذيء، مثل أن يقولوا: أبعد هلاكك يأتي الوعد.د والإهلاك: الإماتة، ومقابلة) أهلكني(ب)رحمنا(يدل على أن المراد: أو رحمنا بالحياة، فيفيد أن الحياة رحمة، وأن تأخير الأجل من النعم، وإنما لم يؤخر الله أجل نبيه صلى الله عليه وسلم مع أنه أشرف الرسل لحكم أرادها كما دل عليه قوله حياتي خير لكم وموتي خير لكم ، ولعل حكمة ذلك أن الله أكمل الدين الذي أراد إبلاغه فكان إكماله يوم الحج الأكبر من سنة ثلاث وعشرين من البعثة، وكان استمرار نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم خصيصية خصت الله بها من بين الأنبياء، فلما أتم الله دنينه ربا برسوله صلى الله عليه وسلم أن يبقى غير متصل بنزول الوحي فنقله الله إلى الاتصال بالرفيق الأعلى مباشرة بلا واسطة، وقد أشارت إلى هذا سورة)إذا جاء نصر الله(من قوله)ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره(ولله در عبد بني الحسحاس في عبرته بقوله:

رأيت المنايا لم يدعن محمـدا ولا

باقيا إلا له الموت مرصدا وقد عوضه الله تعالى بحياة أعلى وأجل، إذ قال)ورفعنا لك ذكرك(، وبالحياة الأبدية العاجلة وهي أنه يرد عليه روحه الزكية كلما سلم عليه أحد فيرد عليه السلام كما ثبت بالحديث الصحيح.

وإنما سمى الحياة رحمة له ولمن معه، لأن في حياته نعمة له وللناس ما دام الله مقدرا حياته، وحياة المؤمن رحمة لأنه تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة.
والاستفهام في)أرأيتم(إنكاري أنكر اندفاعهم إلى أمنيات ورغائب لا يجتنون منها نفعا ولكنها مما تمليه عليهم النفوس الخبيثة من الحقد والحسد.
والرؤيا علمية، وفعلها معلق عن العمل فلذلك لم يرد بعده مفعولاه، وهو معلق بالاستفهام الذي هو في جملة جواب الشرط، فتقدير الكلام: أرأيتم أنفسكم ناجين من عذاب أليم إن هلكت وهلك من معي، فهلاكنا لا يدفع عنكم العذاب المعد للكافرين.
وأقحم الشرط بين فعل الرؤيا وما سد مسد مفعوليه.
والفاء في قوله)فمن يأتيكم(رابطة الجواب الشرط لأنه لما وقع بعد ما أصله المبتدأ والخبر وهو المفعولان المقدران رجح جانب الشرط.
والمعية في قوله)ومن معي(معية مجازية، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى)محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار(الآية، أي الذين آمنوا معه، وقوله)والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم(، كما أطلقت الموافقة على الرأي والفهم في قول أبي هريرة أنا مع ابن أخي يعني موافق لأبي سلمة بن عبد الرحمان، وذلك حين اختلف أبو سلمة وابن عباس في المتوفي عنها الحامل إذا وضعت حملها قبل مضي عدة الوفاة.
والاستفهام بقوله)فمن يجير الكافرين(الخ إنكاري، أي لا يجيرهم منه مجير، أي أظننتم أن تجدوا مجيرا لكم إذا هلكنا فذلك متعذر فماذا ينفعكم هلاكنا.

صفحة : 4511

والعذاب المذكور هنا ما عبر عنه بالوعد في الآية قبلها.
وتنكير)عذاب(للتهويل.
والمراد ب)الكافرين(جميع الكافرين فيشمل المخاطبين.
والكلام بمنزلة التذييل، وفيه حذف، تقديره: من يجيركم من عذاب فإنكم كافرون ولا مجير للكافرين.
وذكر وصف)الكافرين(لما في من الإيماء إلى علة الحكم لأنه وصف إذا علق به حكم أفاد تعليل ما منه اشتقاق الوصف.
وقرأ الجمهور بفتحة على ياء)أهلكني(، وقرأها حمزة بإسكان الياء.

وقرأ الجمهور ياء)معي(بفتحة. وقرأها أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء.
)قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلل مبين[29](هذا تكرير ثالث لفعل)قل(من قوله)قل هو الذي أنشأكم(الآية.
وجاء هذا الأمر بقول يقوله لهم بمناسبة قوله)أو رحمنا(فأنه بعد أن سوى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم في أن أي الحالين فرض لا يجيرهم معه أحد من العذاب، أعقبه بأن المسلمين آمنوا بالرحمن، فهم مظنة أن تتعلق بهم هذه الصفة فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أي الفريقين في ضلال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاءه عن المشركين في الدنيا وخاصة في الآخرة.
وضمير)هو(عائد إلى الله تعالى الواقع في الجملة قبله، أي الله هو الذي وصفه)الرحمن(فهو يرحمنا، وأنكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرياء بأن تحرموا آثار رحمته. ونحن توكلنا عليه دون غيره غركم عزكم وجعلتم الأصنام معتمدكم ووكلاءكم.
وبهذه التوطئة يقع الإيماء إلى جانب المهتدي والجانب الضال من قوله)فستعلمون من هو في ضلال مبين(لأنه يظهر بادئ تأمل أن الذين في ضلال مبين هم الذين جحدوا وصف)الرحمن(وتوكلوا على الأوثان.
و)من(موصولة، وما صدق)من(فريق مبهم متردد من فريقين تضمنها قوله)إن أهلكني الله ومن معي(وقوله)فمن يجير الكافرين(، فأحد الفريقين فريق النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، والآخر فريق الكافرين، أي فستعلمون اتضاح الفريق الذي هو في ضلال مبين.
وتقديم معمول)توكلنا(عليه لإفادة الاختصاص، أي توكلنا عليه دن غيره تعريضا بمخالفة حال المشركين إذ توكلوا على أصنامهم وأشركوا في التوكل مع الله، أو نسوا التوكل على الله باشتغال فكرتهم بالتوجه إلى الأصنام.
وإنما لم يقدم معمول)آمنا(عليه فلم يقل: به آمنا، لمجرد الاهتمام إلى الإخبار عن إيمانهم بالله لوقوعه عقب وصف الآخرين بالكفر في قوله)فمن يجير الكافرين من عذاب أليم(فإن هذا جواب آخر على تمنيهم له الهلاك وسلك به طريق التبكيت، أي هو الرحمان يجيرنا من سوء ترومونه لنا لأننا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم، فلم يكن المقصود في إيراده نفي الإشراك وإثبات التوحيد، إذ الكلام في الإهلاك والإنجاء المعبر عنه ب)رحمنا(، فجيء بجملة)آمنا(على أصل مجرد معناها دون قصد الاختصاص، بخلاف قوله)

وعليه توكلنا(لأن التوكل يقتضي منجيا وناصرا، والمشركون متوكلون على أصنامهم وقوتهم وأموالهم، فقيل: نحن لا نتكل ما أنتم متوكلون عليه، بل على الرحمن وحده توكلنا.
وفعل)فستعلمون(معلق عن العمل لمجيء الاستفهام بعده.
وقرأ الجمهور)فستعلمون(بتاء الخطاب على أنه مما أمر بقوله الرسول صلى الله عليه وسلم. وقرأه الكسائي بياء الغائب على أن يكون إخبارا من الله لرسوله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالين.
)قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين[30](إيماء إلى أنهم يترقبهم عذاب الجوع بالقحط والجفاف فإن مكة قليلة المياه ولم تكن بها عيون ولا آبار قبل زمزم، كما دل عليه خبر تعجب القافلة من جرهم التي مرت بموضع مكة حين أسكنها إبراهيم عليه السلام هاجر بابنه إسماعيل ففجر الله لها زمزم ولمحت القافلة الطير تحوم حول مكانها فقالوا: ما عهدنا بهذه الأرض ماء، ثم حفر ميمون بن خالد الحضرمي بأعلاها بئرا تسمى بئر ميمون في عهد الجاهلية قبيل البعثة، وكانت بها بئر أخرى تسمى الجفر بالجيم لبني تيم بن مرة، وبئر تسمى الجم ذكرها ابن عطية وأهملها القاموس وتاجه، ولعل هاتين البئرين الأخيرتين لم تكونا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

صفحة : 4512

فماء هذه الآبار هو الماء الذي أنذروا به بأنه يصبح غورا، وهذا الإنذار نظير الواقع في سورة القلم)إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة(إلى قوله)لو كانوا يعلمون(.
والغور: مصدر غارت البئر، إذا نزح ماؤها فلم تنله الدلاء.
والمراد: ماء البير كما في قوله)أو يصبح ماؤها غورا(في ذكر جنة سورة الكهف.
وأصل الغور: ذهاب الماء في الأرض، مصدر غار الماء إذا ذهب في الأرض. والإخبار به عن الماء من باب الوصف بالمصدر للمبالغة مثل: عدل، ورضى. والمعين: الظاهر على وجه الأرض، والبئر المعينة: القريبة الماء على وجه التشبيه.
والاستفهام في قوله)فمن يأتيكم بماء(استفهام إنكاري، أي لا يأتيكم أحد بماء معين: أي غير الله، وأكتفي عن ذكره لظهوره من سياق الكلام ومن قوله قبله)أمن هذا هو الذي جند لكم ينصركم من دون الرحمن(الآيتين.

وقد أصيبوا بقحط شديد بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو المشار إليه في سورة الدخان. ومن المعلوم أن انحباس المطر يتبعه غور مياه الآبار لأن استمدادها من الماء النازل على الأرض، قال تعالى)ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض(وقال)وأن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء(.

ومن النوادر المتعلقة بهذه الآية ما أشار إليه في الكشاف مع ما نقل عنه في بيانه، قال: وعن بعض الشطار هو محمد بن زكريا الطبيب كما بينه المصنف فيما نقل عنه أنها أي هذه الآية تليت عنده فقال تجيء به أي الماء الفؤوس والمعاول فذهب ماء عينيه. نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته. والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القلم

سميت هذه السورة في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري) سورة ن~ والقلم(على حكاية اللفظين الواقعين في أولها، أي سورة هذا اللفظ.

وترجمها الترمذي في جامعه وبعض المفسرين سورة) ن~(بالاقتصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به مثل ما سميت سورة)ص~(وسورة)ق~(.

وفي بعض المصاحف سميت)سورة القلم(وكذلك رأيت تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس.

وهي مكية قال ابن عطية: لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

وذكر القرطبي عن الماوردي: أن ابن عباس وقتادة قالا: أولها مكي، إلى قوله)على الخرطوم(، ومن قوله)إنا بلوناهم(إلى)لو كانوا يعلمون(مدني، ومن قوله)إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم(إلى قوله)فهم يكتبون(مكي ومن قوله)فاصبر لحكم ربك(إلى قوله) من الصالحين(مدني، ومن قوله)وإن يكاد الذين كفروا(إلى آخر السورة مكي.

وفي الإتقان عن السخاوي: أن المدني منها من قوله)إنا بلوناهم(إلى)لو كانوا يعلمون(ومن قوله)فاصبر لحكم ربك(إلى قوله)من الصالحين(فلم يجعل قوله)إن للمتقين عند ربهم(إلى قوله)فهم يكتبون(مدنيا خلافا لما نسبه الماوردي إلى ابن عباس.

وهذه السورة عدها جابر بن زيد ثانية السور نزولا قال: نزلت بعد سورة)اقرأ باسم ربك(وبعدها سورة المزمل ثم سورة المدثر، والأصح حديث عائشة أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر(.

وما في حديث جابر بن عبد الله أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي يحمل على أنها نزلت بعد سورة)اقرأ ياسم ربك(جمعا بينه وبين حديث عائشة رضي الله عنها.
وفي تفسير القرطبي: أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.
واتفق العادون على عد آيها ثنتين وخمسين.

أغراضها
جاء في هذه السورة بالإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح.
وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله)والقلم وما يسطرون(.
وابتدئت بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم تأنيسا له وتسلية عما لقيه من أذى المشركين.
وإبطال مطاعن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم.
وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته.

وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن.
ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذمات كثيرة وتوعدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلا بمن غرهم عزهم وثراؤهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.
وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله اجتباهم بالإسلام، وأن آلهتهم لا يغنون عنهم شيئا من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.
ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم.
وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبي صلى الله عليه وسلم من طغيانهم ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.

وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر في تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه، وأن لا يضجر في ذلك ضجرا عاتب الله عليه نبيه يونس عليه السلام.

)ن~(افتتاح هذه السورة بأحد حروف الهجاء جار على طريقة أمثالها من فواتح السور ذوات الحروف المقطعة المبينة في سورة البقرة وهذه أول سورة نزلت مفتتحة بحرف مقطع من حروف الهجاء.

ورسموا حرف)ن(بصورته التي يرسم بها في الخط وهي مسمى اسمه الذي هو نون بنون بعدها واو ثم نون وكان القياس أن تكتب الحروف الثلاثة لأن الكتابة تبع للنطق والمنطوق به وهو اسم الحرف لا ذاته، لأنك إذا أردت كتابة سيف مثلا فإنما ترسم سينا، وياء، وفاء، ولا ترسم صورة سيف.

وإنما يقرأ باسم الحرف لا بهجائه كما تقدم في أول سورة البقرة.

وينطق باسم نون ساكن الآخر سكون الكلمات قبل دخول العوامل عليها.وكذلك قرئ في القراءات المتواترة.

) والقلم وما يسطرون[1] ما أنت بنعمة ربك بمجنون[2] وإن لك لأجرا غير ممنون[3] وإنك لعلى خلق عظيم[4](يجري القسم هنا على سنن الأقسام الصادرة في كلام الله تعالى أن تكون بأشياء معظمة دالة على آثار صفات الله تعالى.

والقلم المقسم به قيل هو ما يكنى عنه بالقلم من تعلق علم الله بالموجودات الكائنة والتي ستكون، أو هو كائن غيبي لا يعلمه إلا الله. وعن مجاهد وقتادة: أنه القلم الذي في قوله تعالى)الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم(. قلت: وهذا هو المناسب لقوله)وما يسطرون(في الظاهر وهو الذي يقتضيه حال المشركين المقصودين بالخطاب الذين لا يعرفوا إلا القلم الذي هو آلة الكتابة عند أهل الكتاب وعند الذين يعرفون الكتابة من العرب.

ومن فوائد هذا القسم أن هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنه سيكون مكتوبا مقروءا بين المسلمين، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى به إليه. وتعريف)القلم(تعريف الجنس.

فالقسم بالقلم لشرفه بأنه يكتب به القرآن وكتبت به الكتب المقدسة وتكتب به كتب التربية ومكارم الأخلاق والعلوم وكل ذلك مما له حظ شرف عند الله تعالى.

وهذا يرجحه أن الله نوه بالقلم في أول سورة نزلت من القرآن لقوله)اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم(.

و)ما يسطرون(هي السطور المكتوبة بالقلم و)ما(يجوز أن تكون موصولة، أي وما يكتبونه من الصحف، ويجوز أن تكون مصدرية. والمعنى: وسطرهم الكتابة سطورا.
ويجوز أن يكون قسما بالأقلام التي يكتب بها كتاب الوحي القرآن،)وما يسطرون(قسما بكتابتهم، فيكون قسما بالقرآن على أن القرآن ما هو بكلام مجنون كما تقدم في قوله تعالى)والكتاب المبين إنا جعلناه قرءانا عربيا(في سورة الزخرف. وتنظيره بقول أبي تمام:
وثناياك إنها أغريض... البيت ويسطرون: مضارع سطر، يقال: سطر من باب نصر، إذا كتب كلمات عدة تحصل منها صفوف من الكتابة. وأصله مشتق من السطر وهو القطع، لأن صفوف الكتابة تبدو كأنها قطع.

صفحة : 4514

وضمير)يسطرون(راجع إلى غير مذكور في الكلام وهو معلوم للسامعين لأن ذكر القلم ينبئ بكتبة يكتبون به فكان لفظ القسم متعلقا بآلة الكتابة والكتابة، والمقصود: المكتوب في إطلاق المصدر على المفعول. فهو بمنزلة الفعل المبني للمجهول لأن الساطرين غير معلومين، فكأنه قيل: والمسطور، نضير قوله تعالى)وكتاب مسطور في رق منشور(.
ومن فسر)القلم(بمعنى تعلق علم الله تعالى بما سيكون جعل ضمير)يسطرون(راجعا إلى الملائكة فيكون السطر رمزا لتنفيذ الملائكة ما أمر الله بتنفيذه حين تلقي ذلك، أي يكتبون ذلك للعمل به أو لإبلاغه من بعضهم إلى بعض على وجه لا يقبل الزيادة ولا النقصان، فشبه ذلك الضبط بضبط الكاتب ما يريد إبلاغه بدون تغيير.
وأوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أن باعث الطاعنين على الرسول صلى الله عليه وسلم واللامزين له بالجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب.
والمقسم عليه نفي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم مجنونا والخطاب له بهذا تسلية له لئلا يحزنه قول المشركين لما دعاهم إلى الإسلام: هو مجنون، وذلك ما شافهوا به النبي صلى الله عليه وسلم وحكاه الله عنهم في آخر السورة)وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون(. وهكذا كل ما ورد فيه نفي صفة الجنون عنه فإنما هو رد على أقوال

المشركين كقوله)وما صاحبكم بمجنون(. وقد زل فيه صاحب الكشاف زلة لا تليق بعلمه.
والمقصود من نفي الجنون عنه إثبات ما قصد المشركون نفيه وهو أن يكون رسولا من الله لأنهم لما نفوا عنه صفة الرسالة وضعوا موضعها صفة الجنون، فإذا نفي ما زعموه فقد ثبت ما ادعاه.
وقد أجيب قولهم وتأكيدهم ذلك بحرف)إن(ولام الابتداء إذ قالوا)إنه لمجنون(بمؤكدات أقوى مما في كلامهم إذ أقسم عليه وجيء بعد النفي بالباء التي تزاد بعد النفي لتأكيده، وبالجملة الاسمية منفية لدلالة الجملة الاسمية على ثبات الخبر، أي تحققه فهذه ثلاثة مؤكدات.
وقوله)بنعمة ربك(جعله في الكشاف حالا من الضمير الذي في مجنون المنفي. والتقدير: انتفى وصف المجنون بنعمة ربك عليك. والباء للملابسة أو السببية، أي بسبب إنعام الله إذ برأك من النقائص. والذي أرى أن تكون جملة معترضة وأن الباء متعلقة بمحذوف يدل عليه المقام وتقديره: أن ذلك بنعمة ربك، على نحو ما قيل في تعلق الباء في قوله باسم الله وهو الذي يقتضيه استعمالهم كقول الحماسي الفضل بن عباس اللهبي:
كل له نية في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلـونـا وذهب ابن الحاجب في أماليه أن)بنعمة ربك(متعلق ما يتضمنه حرف)ما(النافية من معنى الفعل وقدره: انتفى أن تكون مجنونا بنعمة ربك. ولا يصح تعلقه بقوله)مجنون(إذ لو علق به لأوهم نفي جنون خاص وهو الجنون الذي يكون من نعمة الله وليس ذلك بمستقيم. واستحسن هذا ابن هشام في مغني اللبيب في الباب الثالث لولا أنه مخالف لاتفاق أن النحاة على عدم صحة تعلق الظرف بالحرف ولم يخالفهم في ذلك إلا أبو علي وأبو الفتح في خصوص تعلق المجرور والظرف بمعنى الحرف النائب عن فعل مثل حرف النداء في قولك: يا لزيد يريد في الاستغاثة ، وتقدم نظيره في قوله)فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون(في سورة الطور.
ولما ثبت الله رسوله صلى الله عليه وسلم فدفع بهتان أعدائه أعقبه بإكرامه بأجر عظيم على ما لقيه من المشركين من أذى بقوله)وإن لك لأجرا غير ممنون(بقرينة وقوعه عقب قوله)ما أنت بنعمة ربك بمجنون(، مؤكدا ذلك بحرف)إن(وبلام الابتداء وبتقديم المجرور وهو في قوله)لك(.
وهذا الأجر هو ثواب الله في الآخرة وعناية الله به ونصره في الدنيا.

و)ممنون(يجوز أن يكون مشتقا من من المعطي على المعطى إذا عد عليه عطاءه وذكر له، أو افتخر عليه به فإن ذلك يسوء المعطى، قال النابغة:

علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب أي ليس فيها أذى،والمن من الأذى قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى(.

وقد انتزع من هذه الآية عبد الله بن الزبير)بكسر الموحدة(أو غيره في قوله:

أيادي لم تمنن وإن هي جلت قبله:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي

صفحة : 4515

ويجوز أن يكون)ممنون(مشتقا من قولهم: من الحبل، أي أجرا غير مقطوع عنك، وهو الثواب المتزايد كل يوم، أو أجرا أبديا في الآخرة، ولهذا كان لإيثار كلمة)ممنون(هنا من الإيجاز بجمع معنيين بخلاف قوله)عطاء غير مجذوذ(في سورة هود لأن ما هنا تكرمة للرسول صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن آنس نفس رسوله صلى الله عليه وسلم بالوعد عاد إلى تسفيه قول الأعداء فحقق أنه متلبس بخلق عظيم وذلك ضد الجنون مؤكدا ذلك بثلاثة مؤكدات مثل ما في الجملة قبله.

والخلق: طباع النفس، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذا لم تتبع بنعت، وقد تقدم عند قوله تعالى)إن هذا إلا خلق الأولين(في سورة الشعراء.

والعظيم: الرفيع القدر وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.

و)على(للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله)أولئك على هدى من ربهم(ومنه قوله تعالى)إنك على الحق المبين(،)إنك على صراط مستقيم(،)إنك لعلى هدى مستقيم(.

وفي حديث عائشة أنها سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن أي ما تضمنه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم والنهي عن أضدادها.

والخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي صلى الله عليه وسلم فهو حسن معاملته الناس إلى اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن.

ولهذا قالت عائشة كان خلقه القرآن، ألست تقرأ)قد أفلح المؤمنون(الآيات العشر . وعن علي الخلق العظيم: هو أدب القرآن ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن محامد الأخلاق وما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم من نحو قوله)فبما رحمة من الله لنت لهم(وقوله)خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين(وغير ذلك من آيات القرآن. وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكبر مظهر لما في شرعه قال تعالى)ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها(وأمره أن يقول)وأنا أول المسلمين(.

فكما جعل الله رسوله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهى الاستطاعة.

وبهذا يزداد وضوحا معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله)وإنك لعلى خلق عظيم(فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية.

واعلم أن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجمود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومن لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي ذلك كله وفي سياسيته أمته، وفيما خص به من فصاحة كلامه وجوامع كلمه.

)فستبصر و يبصرن[5] بأييكم المفتون[6](الفاء للتفريع على قوله) ما أنت بنعمة ربك بمجنون(باعتبار ما اقتضاه قوله)بنعمة ربك(من إبطال مقالة قيلت في شأنه قالها أعداؤه في الدين، ابتدأ بإبطال بهتانهم، وفرع عليه أنهم إذا نظروا الدلائل وتوسموا الشمائل علموا أي الفريقين المفتون أهم مفتونون بالانصراف عن الحق والرشد، أم هو باختلال العقل كما اختلقوا.

والمقصود هو ما في قوله)ويبصرون(ولكن أدمج فيه قوله) فستبصر(ليأتي بذر الجانبين إيقاع كلام منصف أي داع إلى

الإنصاف على طريقة قوله)وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين(لأن القرآن يبلغ مسامعهم ويتلى عليهم.

صفحة : 4516

وفعلا)تبصر ويبصرون(، بمعنى البصر الحسي. وروي عن ابن عباس: إن معناه فستعلم ويعلمون، فجعله مثل استعمال فعل الرؤيا في معنى الضن، فلعله أراد تفسير حاصل المعنى إذ قد قيل إن الفعل المشتق من أبصر لا يستعمل بمعنى الضن والاعتقاد عند جمهور اللغويين والنحاة خلافا لهشام كذا في التسهيل فالمعنى: سترى ويرون رأي العين أيكم المفتون فإذا كان بمعنى العلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى ذلك فالسين في قوله) فستبصر(للتأكيد وأما المشركون فسيرون ذلك، أي يعلمون آثار فتونهم وذلك فيما يرونه يوم بدر ويوم الفتح.

وإن كان بمعنى البصر الحسي فالسين والتاء في كلا الفعلين للاستقبال.

وضمير)يبصرون(عائد إلى معلوم مقدر عند السامع وهم المشركون القائلون: هو مجنون.

و)أي(اسم مبهم يتعرف بما يضاف هو إليه، ويظهر أن مدلول) أي(فرد أو طائفة متميز عن مشارك في طائفته من جنس أو وصف بمييز واقعي أو جعلي. فهذا مدلول)أي(في جميع مواقعه. وله مواقع كثيرة في الكلام، فقد يشرب)أي(معنى الموصول، ومعنى الشرط، ومعنى الاستفهام، ومعنى التنويه بكامل، ومعنى المعرف ب)ال(إذا وصل بندائه. وهو في جميع ذلك يفيد شيئا متميزا عما يشاركه في طائفته المدلولة بما أضيف هو إليه، فقوله تعالى) بأيكم المفتون(معناه: أي رجل، أو أي فريق منكم المفتون، ف)أي(في موقعه هنا اسم في موقع المفعول ل)تبصر ويبصرون(أو متعلق به تعلق المجرور.

المفتون: اسم مفعول وهو الذي أصابته فتنة، فيجوز أن يراد بها الجنون فإن الجنون يعد في كلام العرب من قبيل الفتنة يقولون للمجنون فتنته الجن(ويجوز أن يراد مايصدق على المضطرب في أمره المفتون في عقله حيرة وتقلقلا، بإيثار هذا اللفظ، دون لفظ المجنون من الكلام الموجه أو التورية ليصح فرضه للجانبين.

فإن لم يكن بعض المشركين بمنزلة المجانين الذين يندفعون إلى مقاومة النبي صلى الله عليه وسلم بدون تبصر يكن في فتنة اضطراب أقواله وأفعاله كأبي جهل والوليد ابن المغيرة وأضرابهما

الذين أغروا العامة بالطعن في النبي صلى الله عليه وسلم بأقوال مختلفة.
والباء على هذا الوجه مزيدة لتأكيد تعلق الفعل بمفعوله والأصل: أيكم المفتون، فهي كالباء في قوله)وامسحوا برؤوسكم(. ويجوز أن تكون الباء للظرفية. والمعنى: في أي الفريقين منكم يوجد المجنون، أي من يصدق عليه هذا الوصف فيكون تعريضا بأبي جهل والوليد ابن المغيرة وغيرهما من مدبري السوء على دهماء قريش بهذه الأقوال الشبيهة بأقوال المجانين ذلك أنهم وصفوا رجلا معروفا بين العقلاء مذكورا برجاحة العقل والأمانة في الجاهلية فوصفوه بأنه مجنون فكانوا كمن زعم أن النهار ليل ومن وصف اليوم الشديد البرد بالحرارة، فهذا شبه بالمجنون ولذلك يجعل)المفتون(في الآية وصفا ادعائيا على طريقة التشبيه البليغ كما جعل المتنبي القوم الذين تركوا نزيلهم يرحل عنهم مع قدرتهم على إمساكه راحلين عن نزيلهم في قوله:
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لاتفارقهم فالراحلون همو ويجوز أن يكون)المفتون(مصدرا على وزن المفعول مثل المعقول بمعنى العقل والمجلود بمعنى الجلد: والميسور لليسر، والمعسور لضده، وفي المثل خذ من ميسوره ودع معسوره .
والباء على هذا للملابسة في محل خبر مقدم على)المفتون(وهو مبتدأ.
يضمن فعل)تبصر ويبصرون(معنى: توقن ويوقنون، على طريق الكناية بفعل الإبصار عن التحقق لأن أقوى طرق الحس حاسة البصر ويكون الإتيان بالباء للإشارة إلى هذا التضمين. والمعنى: فستعلم يقينا ويعلمون يقينا بأيكم المفتون، فالباء على أصلها من التعدية متعلقة ب)يبصر ويبصرون(.
)إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين[7](

صفحة : 4517

تعليل لجملة)فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون(باعتبار ما تضمنته من التعريض بأن الجانب المفتون هو الجانب القائل له)إنك لمجنون(وأن ضده بضده هو الراجع العقل أي الذي أخبرك بما كنى عنه قوله)فستبصر ويبصرون(من أنهم المجانين هو الأعلم بالفريقين وهو الذي أنبأك بأن سيتضح الحق لأبصارهم فتعين أن المفتون هو الفريق الذين وسموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون المردود عليهم بقوله تعالى)ما أنت بنعمة ربك بمجنون(إذ هم

الضالون عن سبيل رب النبي صلى الله عليه وسلم لا محالة، وينتظم بالتدرج من أول السورة إلى هنا أقيسة مساواة مندرج بعضها في بعض تقتضي مساواة حقيقة من ضل عن سبل رب النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقة المفتون. ومساواة حقيقة المفتون بحقيقة المجنون، فتنتج أن فريق المشركين هم المتصفون بالجنون بقاعدة قياس المساواة أن مساوي المساوي لشيء مساو لذلك الشيء.

وهذا الانتقال تضمن وعدا ووعيدا، بإضافة السبيل إلى الله ومقابلة من ضل عنه بالمهتدين.

وعموم من ضل عن سبيله وعموم المهتدين يجعل هذه الجملة مع كونها كالدليل هي أيضا من التذييل.

وهو بعد هذا كله تمهيد وتوطئة لقوله)فلا تطع المكذبين(.

)فلا تطع المكذبين[8] ودوا لو تدهن فيدهنون[9](تفريع على جملة)إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله(إلى آخرها، باعتبار ما تضمنته من أنه على هدى، وأن الجانب الآخر في ضلال السبيل، فإن ذلك يقتضي المشادة معهم وأن لا يلين لهم في شيء، فإن أذاهم إياه آل إلى محاربة الحق والهدى، وتصلب فيما هم عليه من الضلال عن سبيل الله فلا يستأهلون به لينا ولكن يستأهلون إغلاظا.

روي عن الكلبي وزيد بن أسلم والحسن بألفاظ متقاربة تحوم حول أن المشركين ودوا أن يمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن مجاهرتهم بالتضليل والتحقير فيمسكوا عن أذاه، ويصانع بعضهم بعضا فنهاه الله عن إجابتهم لما ودوا.

ومعنى ودوا: أحبوا.

وليس المراد أنهم ودوا ذلك في نفوسهم فأطلع الله عليه رسوله صلى الله عليه وسلم لعدم مناسبته لقوله)فلا تطع المكذبين(.

وورد في كتب السيرة أن المشركين تقدموا للنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذا العرض ووسطوا في ذلك عمه أبا طالب وعتبة بن ربيعة.

فينتظم في هذا أن قوله)فلا تطع المكذبين(نهي عن إجابتهم إلى شيء عرضوه عليه عندما قرعهم بأول هذه السورة وبخاصة من وقع معنى التعريض البديع الممزوج بالوعيد بسوء المستقبل من قوله)فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون(إلى قوله)المهتدين(فلعلهم تحدثوا أو أوعزوا إلى من يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أو صارحوه بأنفسهم بأنه إن ساءه قولهم فيه)إنه لمجنون(فقد ساءهم منه تحقيرهم بصفات الذم وتحقير أصنامهم وآبائهم من جانب الكفر فإن أمسك عن ذلك أمسكوا عن أذاه وكان الحال صلحا بينهم ويترك كل فريق فريقا وما عبده.

والطاعة: قبول ما يبتغى عمله، ووقوع فعل تطع في حيز النهي يقتضي النهي عن جنس الطاعة لهم فيعم كل إجابة لطلب منهم، فالطاعة مراد بها المصالحة والملاينة كما في قوله تعالى)فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا(، أي لا تلن لهم.
واختير تعريفهم بوصف المكذبين دون غيره من طرق التعريف لأنه بمنزلة الموصول في الإيماء إلى وجه بناء الحكم وهو حكم النهي عن طاعتهم فأن النهي عن طاعتهم لأنهم كذبوا رسالته.
ومن هنا يتضح أن جملة)ودوا لو تدهن فيدهنون(بيان لمتعلق الطاعة المنهي عنها ولذلك فصلت ولم تعطف.
وفعل)تدهن(مشتق من الإدهان وهو الملاينة والمصانعة، وحقيقة هذا الفعل أن يجعل لشيء دهنا إما لتليينه وإما لتلوينه، ومن هذين المعنيين تفرعت معاني الإدهان كما أشار إليه الراغب، أي ودوا منك أن تدهن لهم فيدهنوا لك، أي لو تواجههم بحسن المعاملة فيواجهونك بمثلها.

صفحة : 4518

والفاء في)فيدهنون(للعطف، والتسبب عن جملة)لو تدهن(جوابا لمعنى التمني المدلول علي بفعل)ودوا(بل قصد بيان سبب ودادتهم ذلك، فلذلك لم ينصب الفعل بعد الفاء بإضمار)أن(لأن فاء المتسبب كافية في إفادة ذلك، فالكلام بتقدير مبتدأ محذوف تقديره: فهم يدهنون. وسلك هذا الأسلوب ليكون الاسم المقدر مقدما على الخبر الفعلي فيفيد معنى الاختصاص، أي فالإدهان منهم لا منك، أي فاترك الإدهان لهم ولا تتخلق أنت به. وهذه طريقة في الاستعمال إذا أريد بالترتبات أنه ليس تعليق جواب كقوله تعالى)فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا(، أي فهو لا يخاف بخسا ولا رهقا.
وحرف)لو(يحتمل أن يكون شرطيا ويكون فعل)تدهن(شرطا، وأن يكون جواب الشرط محذوفا ويكون التقدير: لو تدهن لحصل لهم ما يودون. ويحتمل أن يكون)لو(حرفا مصدريا على رأي طائفة من علماء العربية أن)لو(يأتي حرفا مصدريا مثل)أن(فقد قال بذلك الفراء والفارسي والتبريزي وابن مالك فيكون التقدير: ودوا إدهانك.
ومفعول)ودوا(محذوف دل عليه)لو تدهن(، أو هو المصدر بناء على أن)لو(تقع حرفا مصدريا، وتقدم في قوله تعالى)يود أحدهم لو يعمر ألف سنة(في سورة البقرة. وقد يفيد موقع الفاء تعليلا

لمودتهم منه أن يدهن، أي ودوا ذلك منك لأنهم مدهنون، وصاحب النية السيئة يود أن يكون الناس مثله.

)ولا تطع كل حلاف(إعادة فعل النهي عن الطاعة لمن هذه صفاتهم للاهتمام بهذا الأدب فلم يكتف بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال: ولا كل حلاف، بل جيء في جانبهم بصيغة نهي أخرى مماثلة للأولى.

وليفيد تسليط الوعيد الخاص وهو في مضمون قوله)سنسمه على الخرطوم(على أصحاب هذه الصفات الخاصة زيادة على وعيد المكذبين.

وقريب منه قول الحارث بن همام السيباني:

أيا ابن زيابة إن تلقـني لا تلقني في النعم العازب

وتلقني يشتد بـي أجـرد مستقدم البركة كالراكب فلم يكتف بعطف: ب)بل(أو)لكن(بأن يقول: بل تلقني يشتد بي أجرد، أو لكن تلقني يشتد بي أجرد، وعدل عن ذلك فأعاد فعل)تلقني(.

وكلمة)كل(موضوعة لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد الاسم التي تضاف هي إليه، فهي هنا تفيد النهي العام عن طاعة كل فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها)كل(بالمباشرة وبالنعوت.

وقد وقعت كلمة)كل(معمولة للفعل الداخلة عليه أداة النهي ولا يفهم منه أن النهي منصب إلى طاعة من اجتمعت فيه هذه الصفات بحيث لو أطاع بعض أصحاب هذه الصفات لم يكن مخالفا للنهي إذ لا يخطر ذلك بالبال ولا يجري على أساليب الاستعمال، بل المراد النهي عن طاعة كل موصوف بخصلة من هذه الخصال بله من اجتمع له عدة منها.

وفي هذا ما يبطل ما أصله الشيخ عبد القادر في دلائل الإعجاز من الفرق بين أن تقع)كل(في حيز النفي، أي أو النهي فتفيد ثبوت الفعل أو الوصف لبعض مما أضيف إليه)كل(إن كانت) كل(مسندا إليها، أو تفيد تعلق الفعل أو الوصف ببعض ما أضيف إليه)كل(إن كانت معمولة للمنفي أو المنهي عنه، وبين أن تقع) كل(في غير حيز النفي، وجعل رفع لفظ)كله(في قول أبي النجم:

قد أصبحت أم الخيار تدعي علي ذنبا كله لم أصنـع متعينا، لأنه لو نصبه لأفاد تنصله من أن يكون صنع مجموع ما ادعته عليه من الذنوب، فيصدق بأنه صنع بعض تلك الذنوب وهو لم يقصد ذلك كما صرح بإبطاله العلامة التفتزاني في

المطول، واستشهد للإبطال بقوله تعالى)والله لا يحب كل كفار أثيم(وقوله)ولا تطع كل حلاف مهين(.
وأجريت على المنهي عن الإطاعة بهذه الصفات الذميمة لأن أصحابها ليسوا أهلا لأن يطاعوا إذ لا ثقة بهم ولا يأمرون إلا بسوء.

صفحة : 4519

قال جمع من المفسرين المراد بالحلاف المهين: الوليد بن المغيرة، وقال بعضهم: الأخنس بن شريق، وقال آخرون: الأسود بن عبد يغوث، ومن المفسرين من قال المراد: أبو جهل، وإنما عنوا أن المراد التعريض بواحد من هؤلاء، وإلا فإن لفظ)كل(المفيد للعموم لا يسمح بأن يراد النهي عن واحد معين، وأما هؤلاء فلعل أربعتهم اشتركوا في معظم هذه الأوصاف فهم ممن أريد بالنهي عن إطاعته ومن كان على شاكلتهم من أمثالهم.
وليس المراد من جمع هذه الخلال بل من كانت له واحدة منها، والصفة الكبيرة منها هي التكذيب بالقرآن الذي ختم بها قوله)الذي تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين(، لكن الذي قال في القرآن) إنه أساطير الأولين(هو الوليد بن المغيرة، فهو الذي اختلف هذا البهتان في قصة معلومة، فلما تلقف الآخرون منه هذا البهتان وأعجبوا به أخذوا يقولونه فكان جميعهم ممن يقوله ولذلك أسند الله إليهم هذا القول في آية)وقالوا أساطير الأولين(.
وذكرت عشر خلال من مذامهم التي تخلقوا بها: الأولى حلاف، والحلاف: المكثر من الأيمان على وعوده وأخباره، وأحسب أنه أريد به الكناية عن عدم المبالاة بالكذب وبالأيمان الفاجرة فجعلت صيغة المبالغة كناية عن تعمد الحنث، وإلا لم يكن ذمه بهذه المثابة، ومن المفسرين من جعل)مهين(قيدا ل)حلاف(على جعل النهي عن طاعة صاحب الوصف مجتمعين.
)مهين[10](هذه خصلة ثانية وليست قيدا لصفة)حلاف(.
والمهين: بفتح الميم فعيل من مهن بمعنى حقر وذل، فهو صفة مشبهة، وفعله مهن بضم الهاء، وميمه أصلية وياؤه زائدة، وهو فعيل بمعنى فاعل، أي لا تطع الفاجر الحقير. وقد يكون)مهين(هنا بمعنى ضعيف الرأي والتمييز، وكل ذلك من المهانة.
و)مهين(: نعت ل)حلاف(، وكذلك بقية الصفات إلى)زنيم(فهو نعت مستقل. وبعضهم جعله قيدا ل)حلاف(وفسر المهين بالكذاب أي في حلفه.

)هماز(الهماز كثير الهمزة. وأصل الهمز: الطعن بعود أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة وفي التنزيل)ويل لكل همزة(.

وصيغة المبالغة راجعة إلى قوة الصفة، فإذا كان أذى شديدا فصاحبه هماز، وإذا تكرر الأذى فصاحبه هماز.

)مشاء بنميم[11](المشاء بالنميم: الذي ينم بين الناس، ووصفه بالمشاء للمبالغة. والقول في هذه المبالغة مثل القول في) هماز(وهذه رابعة المذام.

والمشي: استعارة لتشويه حاله بأنه يتجشم المشقة لأجل النميمة مثل ذكر السعي في قوله تعالى)ويسعون في الأرض فسادا(. ذلك أن أسماء الأشياء المحسوسة أشد وقعا في تصور السامع من أسماء المعقولات، فذكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمام، ألا ترى أن قولك: قطع رأسه أوقع في النفس من قولك: قتل. ويدل لذلك أنه وقع مثله في قول النبي صلى الله عليه وسلم وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة .

والنميم: اسم مرادف للنميمة، وقيل: النميم جمع نميمة، أي اسم جمع لنميمة إذا أريد بها الواحدة وصيرورتها اسما.

)مناع للخير(هذه مذمة خامسة.

)مناع(: شديد المنع. والخير: المال، أي شحيح، والخير من أسماء المال قال تعالى)وإنه لحب الخير لشديد(وقال)إن ترك خيرا(وقد روعي تماثل الصيغة في هذه الصفات الأربع وهي حلف، هماز، مشاء، مناع وهو ضرب من محسن الموازنة.

والمراد بمنع الخير: منعه عمن أسلم من ذويهم وأقاربهم، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا، وهذه شنشنة عرفوا بها من بعد، قال الله تعالى في شن المنافقين)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا(. وأيضا فمن منع الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة فلا يعطون الضعفاء وإنما يعطون في المجامع والقبائل قال تعالى)ولا تحضون على طعام المسكين(. قيل: كان الوليد ابن المغيرة ينفق في الحج في كل حجة عشرين ألفا يطعم أهل منى، ولا يعطي المسكين درهما واحدا.

)معتد أثيم[12](هما سادسة وسابعة قرن بينهما لمناسبة الخصوص والعموم.

والاعتداء: مبالغة في العدوان فالافتعال فيه للدلالة على الشدة.

والأثيم: كثير الإثم وهو فعيل من أمثلة المبالغة قال تعالى)إن شجرة الزقوم طعام الأثيم(. والمراد بالإثم هنا ما يعد خطيئة وفسادا عند أهل العقول والمروءة وفي الأديان المعروفة.

قال أبو حيان: وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ونوسب فيها فجاء)حلاف(وبعده)مهين(لأن النون فيها تواخ مع الميم، أي ميم) أثيم(، ثم جاء)هماز مشاء(بصفتي المبالغة، ثم جاء)مناع للخير معتد أثيم(صفات مبالغة اه. يرد أن الافتعال في)معتد(للمبالغة.

)عتل بعد ذلك زنيم[13](ثامنة وتاسعة.

والعتل: بضمتين وتشديد اللام اسم وليس بوصف لكنه يتضمن معنى صفة لأنه مشتق من العتل بفتح فسكون، وهو الدفع بقوة قال تعالى)خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(ولم يسمع عاتل . ومما يدل على أنه من قبيل الأسماء دون الأوصاف مركب من وصفين في أحوال مختلفة أو من مركب أوصاف في حالتين مختلفتين.

وفسر العتل بالشديد الخلقة الرحيب الجوف، وبالأكول الشروب، وبالغشوم الظلوم، وبالكثير اللحم المختال. روى الماوردي عن شهر بن حوشب هذا التفسير عن ابن مسعود وعن شداد بن أوس وعن عبد الرحمان بن غنيم، يزيد بعضهم على بعض عن النبي صلى الله عليه وسلم بسند غير قوي، وهو على هذا التفسير إتباع لصفة) مناع للخير(أي يمنع السائل ويدفعه ويغلظ له على نحو قوله تعالى)فذلك الذي يدع اليتيم(.

ومعنى)بعد ذلك(علاوة على ما عدد له من الأوصاف هو سيء الخلقة سيء المعاملة، فالبعدية هنا بعدية في الارتقاء في درجات التوصيف المذكورة، فمفادها مفاد التراخي الرتبي كقوله تعالى) والأرض بعد ذلك دحاها(على أحد الوجهين فيه.

وعلى تفسير العتل بالشديد الخلقة والرحيب الجوف يكون وجه ذكره أن قباحة ذاته مكملة لمعائبه لأن العيب المشاهد أجلب إلى الاشمئزاز وأوغل في النفرة من صاحبه.

وموقع)بعد ذلك(موقع الجملة المعترضة، والظرف خبر لمحذوف تقديره: هو بعد ذلك.

ويجوز اتصال)بعد ذلك(بقوله)زنيم(على أنه حال من)زنيم(.

والزنيم: اللصيق وهو من يكون دعيا في قومه ليس من صريح نسبهم: إما بمغمز في نسبه، وإما بكونه حليفا في قوم أو مولى، مأخوذ من الزنمة بالتحريك وهي قطعة من أذن البعير لا تنزع بل تبقى معلقة بالأذن علامة على كرم البعير. والزنمتان بضعتان في رقاب المعز.

قيل أريد بالزنيم الوليد بن المغيرة لأنه ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده. وقيل أريد الخنس بن شريق لأنه كان من ثقيف محالف قريشا وحل بينهم، وأياما كان فإن المراد به خاص فدخوله في المعطوف على ما أضيف إليه)كل(إنما هو على فرض وجود أمثال هذا الخاص وهو ضرب من الرمز كما يقال: ما بال أقوام يعملون كذا، ويراد واحد كعين. قال الخطيم التميمي جاهلي، أو حسام بن ثابت:

زنـيم تـداعـاه الـرجـال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع ويطلق الزنيم على من في نسبة غضاضة من قبل الأمهات، ومن ذلك قول حسان في هجاء أبي سفيان بن حرب، قبل إسلام أبي سفيان، وكانت أمه مولاة خلافا لسائر بني هاشم إذ كانت أمهاتهم من صريح نسب قومهن:

وأنت زنيم نيط فـي آل هـاشـم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وإن سنام المجد مـن آل هـاشـم بنو بنت مخزوم ووالدك العـبـد يريد جده أبا أمه وهو موهب غلام عبد مناف وكانت أم أبي سفيان سمية بنت موهب هذا.

والقول في هذا الإطلاق والمراد به مماثل للقول في الإطلاق الذي قبله.

)أن كان ذا مال وبنين[14] إذا تتلى عليه ءاياتنا قال أساطير الأولين[15](يتعلق قوله)إن كان ذا مال وبنين(بفعل)قال(بتقدير لام التعليل محذوفة قبل)أن(، وهو حذف مطرد تعلق بذلك الفعل ظرف هو)إذا تتلى(ومجرور هو)إن كان ذا مال(، ولا بدع في ذلك وليست)إذا(بشرطية هنا فلا يهولنك قولهم: إن)ما(بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، على أنها لو جعلت شرطية لما امتنع ذلك لأنهم يتوسعون في المجرورات ما لا يتوسعون في غيرها وهذا مجرور باللام المحذوفة.

صفحة : 4521

والمراد: كل من كان ذا مال وبنين من كبراء المشركين كقوله تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة(. وقيل: أريد به الوليد بن المغيرة إذ هو الذي أختلق أن يقول في القرآن)أساطير الأولين(وقد علمت ذلك عند تفسير قوله تعالى)ولا تطع كل حلاف مهين(. وكان الوليد بن المغيرة ذا سعة من المال كثير الأبناء وهو المعني بقوله تعالى)ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا

وبنين شهودا(إلى قوله)إن هذا قول البشر(. والوجه أن لا يختص هذا الوصف به. وأن يكون تعريضا به.

والأساطير: جمع أسطورة وهي القصة، والأسطورة كلمة معربة عن الرومية كما تقدم عند قوله تعالى)يقول الذين كفرو إن هذا إلا أساطير الأولين(في الأنعام وقوله)وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين(في سورة النحل.

وختمت الأوصاف المحذر عن إطاعة أصحابها بوصف التكذيب ليرجع إلى صفة التكذيب التي انتقل الأسلوب منها من قوله)فلا تطع المكذبين(.

وقرأ الجمهور)إن كان ذا مال(بهمزة واحدة على أنه خبر. وقرأه حمزة وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بهمزتين مخففتين فهو استفهام إنكاري. وقرأه ابن عامر بهمزة ومدة بجعل الهمزة الثانية ألفا للتخفيف.

)سنسمه على الخرطوم[16](استئناف بياني جوابا لسؤال ينشأ عن الصفات الذميمة التي وصفوا بها أن يسأل السامع: ما جزاء أصحاب هذه الأوصاف من الله على ما أتوه من القبائح والاجتراء على ربهم.

وضمير المفرد الغائب في قوله)سنسمه(عائد إلى كل حلاف باعتبار لفظه وإن كان معناه الجماعات فإفراد ضميره كإفراد ما أضيف إليه)كل(من الصفات التي جاءت بحالة الإفراد.

والمعنى: سنسم كل هؤلاء على الخراطيم، وقد علمت آنفا أن ذلك تعريض بمعين بصفة قوله)أساطير الأولين(وبأنه ذو مال وبنين.

والخرطوم: أريد به الأنف. والظاهر أن حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما من كل أنف مستطيل. وقد خلط أصحاب اللغة في ذكر معانيه خلطا لم تتبين منه حقيقته من مجازه.

وذكر الزمخشري في الأساس معانيه المجازية ولم يذكر معناه الحقيقي، وانبهم كلامه في الكشاف إلا أن قوله فيه: وفي لفظ الخرطوم استخفاف وإهانة، يقتضي أن إطلاقه على أنف الإنسان مجاز مرسل. وجزم ابن عطية: أن حقيقة الخرطوم مخطم السبع، أي أنف مثل الأسد، فإطلاق الخرطوم على أنف الإنسان هنا استعارة كإطلاق المشفر وهو شفة البعير على شفة الإنسان في قول الفرزدق.

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكن زنجي غليظ المشافر وكإطلاق الجحفلة على شفة الإنسان وهي للخيل والبغال والحمير في قول النابغة يهجو لبيد ابن ربيعة:

ألا من مبلغ عني لبـيدا   أبا الورداء
جحفلة الأتان والوسم للإبل ونحوها، جعل سمة لها أنها من مملوكات القبيلة أو المالك المعين.

فالمعنى: سنعامله معاملة يعرف بها أنه عبدنا وأنه لا يغني عنه ماله وولده منا شيئا.

فالوسم: تمثيل تتبعه كناية عن التمكن منه وإظهار عجزه.

وأصل)نسمه(نوسمه مثل: يعد ويصل.

وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة فإن الوسم يقتضي التمكن وكونه في الوجه إذلالا وإهانة، وكونه على الأنف أشد إذلالا. والتعبير عن الأنف بالخرطوم تشويه، والضرب والوسم ونحوهما على الأنف كناية عن قوة التمكن وتمام الغلبة وعجز صاحب الأنف عن المقاومة لأن الأنف أبرز ما في الوجه وهو مجرى النفس، ولذلك غلب ذكر الأنف في التعبير عن إظهار العزة في قولهم: شمخ بأنفه، وهو أشم الأنف، وهم شم العرانين. وعبر عن ظهور الذلة والاستكانة بكسر الأنف، وجدعه، ووقوعه في التراب في قولهم: رغم أنفه، وعلى رغم أنفه، قال جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي
وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل ومعظم المفسرين على أن المعني بهذا الوعيد هو الوليد بن المغيرة، وقال أبو مسلم الأصفهاني في تفسيره قوله)سنسمه على الخرطوم(هو ما ابتلاه الله به في نفسه وماله وأهله من سوء وذل وصغار. يريد: ما نالهم يوم بدر وما بعده إلى فتح مكة. وعن ابن عباس معنى)سنسمه على الخرطوم(سنخطمه بالسيف قال: وقد خطم الذي نزلت فيه بالسيف يوم بدر فلم يزل مخطوما إلى أن مات ولم يعين ابن عباس من هو.

وقد كانوا إذا ضربوا بالسيوف قصدوا الوجوه والرؤوس. قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر لعمر بن الخطاب لما بلغه قول أبي حذيفة لئن لقيت العباس لألجمنه بالسيف، فقال رسول الله يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف? .

وقيل هذا وعيد بتشويه أنفه يوم القيامة مثل قوله)يوم تبيض وجوه وتسود وجوه(وجعل تشويهه يومئذ في أنفه لأنه إنما بالغ في عداوة الرسول والطعن في الدين بسبب الأنفة والكبرياء، وقد كان

الأنف مظهر الكبر ولذلك سمي الكبر أنفة اشتقاقا من اسم الأنف فجعلت شوهته في مظهر آثار كبريائه.
)إنا بلوناهم كما بلونا أصحب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين[17] ولا يستثنون[18] فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون[19] فأصبحت كالصريم[20] فتنادوا مصبحين[21] أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين[22] فانطلقوا وهم يتخافتون[23] أن لا يدخلنها اليوم مسكين[24] وغدوا على حرد قدرين[25](ضمير الغائبين في قوله) بلوناهم(يعود إلى)المكذبين(في قوله)فلا تطع المكذبين(. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعت إليه مناسبة قوله)إن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين(فإن الازدهار والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقع من قديم الزمان أصحابهما في بطر النعمة وإهمال الشكر فجر ذلك عليهم شر العواقب، فضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم. كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف، وضرب مثلا بقارون في سورة القصص.
والبلوى حقيقتها: الاختبار وهي هنا تمثل بحال المبتلى في إرخاء الحبل له بالنعمة ليشكر أو يكفر، فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكرهم بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا بالنظر إلى النعم السالفة ولا النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم.
ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته.
وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعم والقحط بعد الخصب، وأن اختلف السبب في نوعه فقد احتد جنسه. وقد حصل ذلك بعد سنين إذ أخذهم الله بسبع سنين بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.
وهذه القصة المضروب بها المثل قصة معروفة بينهم وهي أنه كانت ببلد يقال له: ضروان بضاد معجمة وراء وواو مفتوحات وألف ونون من بلاد اليمن بقرب صنعاء. وقيل: ضروان اسم هذه الجنة، وكانت جنة عظيمة غرسها رجل من أهل الصلاح والإيمان من أهل الكتاب قاله ابن عباس. ولم يبين من أي أهل الكتاب هو: أمن اليهود أم من النصارى؟ فقيل: كان يهوديا، أي لأن أهل اليمن كانوا تدينوا باليهودية في عهد بلقيس كما قيل أو بعدها بهجرة بعض جنود

سليمان، وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة كما في الإصلاح السادس والعشرين من سفر اللاويين.

صفحة : 4523

وقال بعض المفسرين: كان أصحاب هذه الجنة بعد عيسى بقليل، أي قبل انتشار النصرانية في اليمن لأنها ما دخلت اليمن إلا بعد دخول الأحباش إلى اليمن في قصة القليس وكان ذلك زمان عام الفيل. وعن عكرمة: كانوا من الحبشة كانت لأبيهم جنة وجعل في ثمرها حقا للمساكين وكان يدخل معه المساكين ليأخذوا من ثمرها فكان يعيش منها اليتامى والأرامل والمساكين وكان له ثلاثة بنين، فلما توفي صاحب الجنة وصارت لأولاده أصبحوا ذوي ثروة وكانوا أشحة أو كان بعضهم شحيحا وبعضهم دونه فتمالؤوا على حرمان اليتامى والمساكين والأرامل وقالوا: لنغدون إلى الجنة في سدفة من الليل قبل انبلاج الصباح مثل وقت خروج الناس إلى جناتهم للجذاذ فلنجذنها قبل أن يأتي المساكين. فبيتوا ذلك وأقسموا أيمانا على ذلك، ولعلهم أقسموا ليلزموا أنفسهم بتنفيذ ما تداعوا إليه. وهذا يقتضي أن بعضهم كان مترددا في موافقتهم على ما عزموا عليه وأنهم ألجموه بالقسم وهذا الذي يلتئم مع قوله تعالى)قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون(، قيل كان يقول لهم اتقوا الله واعدلوا عن خبث نيتكم من منع المساكين، وذكرهم انتقام الله من المجرمين، أي فغلبوه ومضوا إلى ما عزموا عليه، ولعلهم أقسموا على أن يفعلوا وأقسموا عليه أن يفعل معهم ذلك فأقسم معهم أو وافقهم على ما أقسموا عليه، ولهذا الاعتبار أسند القسم إلى جميع أصحاب الجنة.

فلما جاءوا جنتهم وجدوها مسودة قد أصابها ما يشبه الاحتراق فلما رأوها بتلك الحالة علموا أن ذلك أصابهم دون غيرهم لعزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء من قومهم وأنابوا إلى الله رجاء أن يعطيهم خيرا منها.

قيل: كانت هذه الجنة من أعناب.

والصرم: قطع الثمرة وجذاذها ومعنى)مصبحين(داخلين في الصباح أي في أوائل الفجر.

ومعنى لا يستثنون: أنهم لا يستثنون من الثمرة شيئا للمساكين، أي أقسموا ليصرمن جميع الثمر ولا يتركون منه شيئا. وهذا التعميم مستفاد مما في الصرم من معنى الخزن والانتفاع بالثمرة وإلا فإن الصرم لا ينافي إعطاء شيء من المجذوذ لمن يريدون. وأجمل ذلك

اعتمادا على ما هو معلوم للسامعين من تفصيل هذه القصة على عادة القرآن في إيجاز حكاية القصص بالاقتصار على موضع العبرة منها.
وقيل معناه: لا يستثنون لإيمانهم بأن يقولوا إن شاء الله كما قال تعالى)ولا تقولن لشيء إني فتعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله(. ووجه تسميته استثناء أن أصل صيغته فيها حرف الاستثناء وهو)إلا(، فإذا اقتصر أحد على)إن شاء الله(دون حرف الاستثناء أطلق على قوله ذلك استثناء لأنه على تقدير: إلا أن يشاء الله. على أنه لما كان الشرط يؤول إلى معنى الاستثناء أطلق عليه استثناء نظرا إلى المعنى وإلى مادة اشتقاق الاستثناء.
وعلى هذا التفسير يكون قوله)ولا يستثنون(من قبيل الإدماج، أي لمبلغ غرورهم بقوة أنفسهم صاروا إذا زعموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقا. والجملة في موضع الحال، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالتهم العجيبة من بخلهم على الفقراء والأيتام.
وعلى الروايات كلها يعلم أن أهل هذه الجنة لم يكونوا كفارا، فوجه الشبه بينهم وبين المشركين المضروب لهم هذا المثل هو بطر النعمة والاغترار بالقوة.
وقوله)فطاف عليها طائف من ربك(، الطواف: المشي حول شيء من كل جوانبه يقال: طاف بالكعبة، وأريد هنا تمثيل حالة الإصابة لشيء كله بحال من يطوف بمكان، قال تعالى)إذا مسهم طائف من الشيطان(الآية.
وعدي)طاف(بحرف)على(لتضمينه معنى: تسلط أو نزل.
ولم يعين جنس الطائف لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه لأن العبرة في الحاصل به، فإسناد فعل)طاف(إلى)طائف(بمنزلة إسناد الفعل المبني للمجهول كأنه قيل: فطيف عليها وهم نائمون.
وعن الفراء: أن الطائف لا يكون إلا بالليل، يعني ومنه سمي الخيال الذي يراه النائم في نومه طيفا. قيل هو مشتق من الطائفة وهي الجزء من الليل. وفي هذا نظر.
فقوله)وهم نائمون(تقييد لوقت الطائف على التفسير الأول، وهو تأكيد لمعنى طائف على تفسير الفراء، وفائدته تصوير الحالة.
وتنوين طائف للتعظيم، أي أمر عظيم وقد بينه بقوله)فأصبحت كالصريم(فهو طائف سوء، قيل: أصابها عنق من نار فاحترقت.

و)من ربك(أي جائيا من قبل ربك، ف)من(للابتداء يعني: إنه عذاب أرسل إليهم عقابا لهم على عدم شكر النعمة.

وعجل العقاب لهم قبل التلبس بمنع الصدقة لأن عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه حقق أنهم مانعون صدقاتهم فكانوا مانعين ويؤخذ من الآية موعظة إلى الذين لا يواسون بأموالهم.

وإذ كان عقاب أصحاب هذه الجنة دنيويا لم يكن في الآية ما يدل على أن أصحاب الجنة منعوا صدقة واجبة.

والصريم قيل: هو الليل، والصريم من أسماء الليل ومن أسماء النهار لأن كل واحد منهما ينصرم عن الآخر كما سمي كل من الليل والنهار ملوا فيقال: الملوان، وعلى هذا ففي الجمع بين) أصبحت(و)الصريم(محسن الطباق.

وقيل الصريم الرماد الأسود بلغة جذيمة أو خزيمة.

وقيل الصريم اسم رملة معروفة باليمن لا تنبت شيئا.

وإيثار كلمة الصريم هنا لكثرة معانيها وصلاحية جميع تلك المعاني لأن تراد في الآية.

وبين)يصرمنها(و)الصريم(الجناس.

وفاء)فتنادوا(للتفريع على)أقسموا ليصرمنها مصبحين(، أي فلما أصبحوا تنادموا لإنجاز ما بيتوا عليه أمرهم.

والتنادي: أن ينادي بعضهم بعضا وهو مشعر بالتحريض على الغدو إلى جنتهم مبكرين.

والغدو: الخروج ومغادرة المكان في غدوة النهار، أي أوله.

وليس قولهم)إن كنتم صارمين(بشرط تعليق ولكنه مستعمل في الاستبطاء فكأنهم لإبطاء بعضهم في الغدو قد عدل عن الجذاذ ذلك اليوم. ومنه قول عبد الله ابن عمر للحجاج عند زوال عرفة يحرضه على التهجير بالرواح إلى الموقف الرواح إن كنت تريد السنة . ونظير ذلك كثير في الكلام.

و)على(من قوله)على حرثكم(مستعملة في تمكن الوصول إليه كأنه قيل: اغدوا تكونوا على حرثكم، أي مستقرين عليه.

ويجوز أن يضمن فعل الغدو معنى الإقبال كما يقال: يغدى عليه بالجفنة ويراح.

قال الطيبي: ومثله قيل في حق المطلب تغدو درته التي يضرب بها على السفهاء، وجفنته على الحلماء .

والحرث: شق الأرض بحديدة ونحوها ليوضع فيها الزريعة أو الشجر وليزال منها العشب.

ويطلق الحرث على الجنة لأنهم يتعاهدونها بالحرث لإصلاح شجرها، وهو المارد هنا في قوله تعالى)وحرث حجر(في سورة الأنعام، وتقدم في قوله)والأنعام والحرث(في سورة آل عمران.

والتخافت: تفاعل من خفت إذا أسر الكلام.
و)أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين(تفسير لفعل)يتخافتون(، و)أن(تفسيرية لأن التخافت في معنى القول دون حروفه.
وتأكيد فعل النهي بنون التوكيد لزيادة تحقيق ما تقاسموا عليه.
وأسند إلى)مسكين(فعل النهي عن الدخول والمراد نهي بعضهم بعضا عن دخول المسكين إلى جنتهم، أي لا يترك أحد مسكينا يدخلها. وهذا من قبيل الكناية وهو كثير في استعمال النهي كقولهم: لا أعرفنك تفعل كذا.
وجملة)وغدوا على حرد قادرين(في موضع الحال بتقدير)قد(، أي انطلقوا في حال كونهم غادين قادرين على حرد.
وذكر فعل)غدوا(في جملة الحال لقصد التعجيب من ذلك الغدو النحس كقول امرئ القيس:
وبات وباتت لـه لـيلة كليلة ذي العائر الأرمد بعد قوله
تطاول ليلك بالأثمـد وبات الخلي ولم ترقد يخاطب نفسه على طريقة فيها التفات أو التفاتان.
والحرد: يطلق على المنع وعلى القصد القوي، أي السرعة وعلى الغضب.
وفي إيثار كلمة)حرد(في الآية نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته من حيث المعنى، ومن جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه، أي بأن يتعلق)على حرد(ب)قادرين(، أو بقوله)غدوا(، فإذا علق ب)قادرين(، فتقديم المتعلق يفيد تخصيصا، أي قادرين على المنع، أي منع الخير أو منع ثمر جنتهم غير قادرين على النفع.
والتعبير بقادرين على الحرد دون أن يقول: وغدوا حادرين تهكم لأن شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها قال تعالى)لا يقدرون على شيء مما كسبوا(وقال)بلى قادرين على أن نسوي بنانه(فقوله)على حرد قادرين(على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.

وإذا حمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان على حرد متعلقا ب)غدوا(مبينا لنوع الغدو، أي غدوا غدو سرعة واعتناء، فتكون)على(بمعنى باء المصاحبة، والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط،

ويكون قادرين حالا من ضمير)غدوا(حالا مقدرة، أي مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا.
وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا دل عليه قوله بعده)فلما رأوها قالوا إنا لضالون(، وقوله قبله)فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون(.
وإذا أريد بالحرد الغضب والحنق فإنه يقال: حرد بالتحريك وحرد بسكون الراء ويتعلق المجرور ب)قادرين(وتقديمه للحصر، أي غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها، أي لم يقدروا إلا على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة.
وعن السدي: أن حرد اسم قريتهم، أي جنتهم. وأحسب أنه تفسير ملفق وكأن صاحبه تصيده من فعلي)اغدوا(و)غدوا(.
)فلما رأوها قالوا إنا لضالون[26] بل نحن محرومون[27] قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون[28] قالوا سبحن ربنا إنا كنا ظالمين[29] فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون[30] قالوا يا ويلتنا إنا كنا طغين[31] عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون[32](أي استفاقوا من غفلتهم ورجعوا إلى أنفسهم باللائمة على بطرهم وإهمال شكر النعمة التي سيقت إليهم، وعلموا أنهم أخذوا بسبب ذلك، قال تعالى)وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون(. ومن حكم الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .
وأفادت)لما(اقتران جوابها بشرطها بالفور والبداهة. والمقصود من هذا التعريض للمشركين بأن يكون حالهم في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة إذ بادروا بالندم وسألوا الله عوض خير.
وإسناد هذه المقالة إلى ضمير)أصحاب الجنة(يقتضي أنهم قالوه جميعا، أي اتفقوا على إدراك سبب ما أصابهم.
ومعنى)إنا لضالون(أنهم علموا أنهم كانوا في ضلال أي عن طريق الشكر، أي كانوا غير مهتدين وهو كناية عن كون ما أصابهم عقابا على إهمال الشكر فالضلال مجاز.
وأكدوا الكلام لتنزيل أنفسهم منزلة من يشك في أنهم ضالون طريق الخير لقرب عهدهم بالغفلة عن ضلالهم ففيه إيذان بالتحسر والتندم.
و)بل نحن محرومون(إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبيينهم إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم فكانوا هم

المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم.
والكلام يفيد ذلك إما بطريق تقديم المسند إليه بأن أتي به ضمير بارز مع أن مقتضى الظاهر أن يكون ضميرا مستترا في اسم المفعول مقدرا مؤخرا عنه لأنه لا يتصور إلا بعد سماع متحمله. فلما أبرز الضمير وقدم كان تقديمه مؤذنا بمعنى الاختصاص، أي القصر، وهو قصر إضافي. وهذا من مستتبعات التراكيب والتعويل على القرائن.
ويحتمل أن يكون الضلال حقيقيا، أي ضلال طريق الجنة، أي قالوا إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا لأنهم توهموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها، قالوا ذلك تحيرا في أمرهم.
ويكون الإضراب إبطاليا، أي أبطلوا أن يكونوا ضلوا طريق جنتهم، وأثبتوا أنهم محرومون من خير جنتهم فيكون المعنى أنها هي جنتهم ولكنها هلكت فحرموا خيراتها بأن أتلفها الله.
و)أوسطهم(أفضلهم وأقربهم إلى الخير وهو أحد الإخوة الثلاثة.
والوسط: يطلق على الأخير الأفضل، قال تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(، وقال)حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى(ويقال هو من سطة قومه، وأعطني من سطة مالك.
وحكي هذا القول بدون عاطف لأنه قول في مجرى المحاورة جوابا عن قولهم)بل نحن محرومون(قاله لهم على وجه توقيفهم على تصويب رأيه وخطأ رأيهم. والاستفهام تقريري و)لولا(حرف تحضيض. والمراد ب)تسبحون(تنزيه الله عن أن يعصى أمره في شأن إعطاءه زكاة ثمارهم.

وكان جوابهم يتضمن إقرار بأنه وعظهم فعصوه ودلوا على ذلك بالتسبيح حين ندمهم على عدم الأخذ بنصيحته فقالوا)سبحان ربنا إنا كنا ظالمين(أرادوا إجابة تقريره بإقرار تسبيح الله عن أن يعصى أمره في إعطاء حق المساكين فإن من أصول التوبة تدارك ما يمكن تداركه، واعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة لأنه خبر مستعمل في التندم، والتسبيح مقدمة الاستغفار من الذنب قال تعالى)فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا(.
وجملة)إنا كنا ظالمين(قرار بالذنب، والتأكيد لتحقيق الإقرار والاهتمام به. ويفيد حرف)إن(مع ذلك تعليلا للتسبيح الذي قبله.
وحذف مفعول)ظالمين(ليعم ظلمهم أنفسهم بما جروه على

أنفسهم من سلب النعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال.

وجرت حكاية جوابهم على طريقة المحاورة فلم تعطف وهي الطريقة التي نبهنا عليها عند قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة.

ولما استقر حالهم على المشاركة في منع المساكين حقهم أخذ بعضهم يلوم بعضا على ما فرط من فعلهم: كل يلوم غيره بما كان قد تلبس به في هذا الشأن من ابتكار فكرة منع المساكين ما كان حقا لهم في حياة الأب، ومن الممالاة على ذلك، ومن الاقتناع بتصميم البقية، ومن تنفيذ جميعهم ذلك العزم الذميم، فصور قوله) فأقبل بعضهم على يعض يتلاومون(هذه الحالة والتقاذف الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز، ألا ترى أن إقبال بعضهم على بعض يصور حالة تشبه المهاجمة والتقريع، وأن صيغة التلاوم مع حذف متعلق التلاوم تصور في ذهن السامع صورا من لوم بعضهم على بعض.

وقد تلقى كل واحد منهم لوم غيره عليه بإحقاق نفسه بالملامة وإشراك بقيتهم فيها فقال كل واحد منهم)يا ويلنا إنا كنا طاغين(إلى آخره، فأسند هذا القول إلى جميعهم لذلك.

فجملة)قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين(إلى آخرها يجوز أن تكون مبينة لجملة)يتلاومون(أي يلوم بعضهم بعضا بهذا الكلام فتكون خبرا مستعملا في التقريع على طريقة التعريض بغيره والإقرار على نفسه، مع التحسر والتندم بما أفاده)يا ويلنا(. وذلك كلام جامع للملامة كلها ولم تعطف الجملة لأنها مبينة.

ويجوز أن تكون جواب بعضهم بعضا عن لومه غيره، فكما أجمعوا على لوم بعضهم بعضا كذلك أجمعوا على إجابة بعضهم بعضا عن ذلك الملام فقال كل ملوم للائمه)يا ويلنا إنا كنا طاغين(الخ جوابا بتقرير ملامة والاعتراف بالذنب ورجاء العفو من الله وتعويضهم عن جنتهم خيرا منها إذ قبل توبتهم وجعل لهم ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة، فيكون ترك العطف لأن فعل القول جرى في طريقة المحاورة.

والإقبال: حقيقة المجيء إلى الغير من جهة وجهه وهو مشتق من القبل وهو ما يبدو من الإنسان من جهة وجهة ضد الإدبار، وهو هنا تمثيل لحال العناية باللوم.

واللوم: إنكار متوسط على فعل أو قول وهو دون التوبيخ وفوق العتاب، وتقدم عند قوله تعالى)فإنهم غير ملومين(في سورة المؤمنين.

والطغيان: تجاوز الحد المتعارف في الكبر والتعاظم والمعنى: إنا كنا طاغين على حدود الله.
ثم استأنفوا عن ندامتهم وتوبتهم رجاءهم من الله أن يتوب عليهم فلا يؤاخذهم بذنبهم في الآخرة ولا في الدنيا فيمحو عقابه في الدنيا محوا كاملا بأن يعوضهم عن جنتهم التي قدر إتلافها بجنة أخرى خيرا منها.
وجملة)إنا إلى ربنا راغبون(بدل من جملة الرجاء، أي هو رجاء مشتمل على رغبة إليه بالقبول والاستجابة.
والتأكيد في)إنا إلى ربنا راغبون(للاهتمام بهذا التوجه.
والمقصود من الإطناب في قولهم بعد حلول العذاب بهم تلقين الذين ضرب لهم هذا المثل بأن في مكنتهم الإنابة إلى الله بنبذ الكفران لنعمته إذ أشركوا به من لا إنعام لهم عليه.
روي عن ابن مسعود أنه قال: بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم جنة يقال لها: الحيوان، ذات عنب يحمل العنقود الواحد منه على بغل.
وعن أبي خالد اليماني أنه قال: دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم.
وقرأ الجمهور:)أن يبدلنا(بسكون الموحدة وتخفيف الدال. وقرأه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر)يبدلنا(بفتح الموحدة وتشديد الدال وهما بمعنى واحد.

قال ابن الفرس في أحكام القرآن: استدل بهذه الآية أبو محمد عبد الوهاب على أن من تعمد إلى نقص النصاب قبل الحول قصدا للفرار من الزكاة أو خالط غيره، أو فارقه بعد الخلطة فإن ذلك لا يسقط الزكاة عنه خلافا للشافعي.
ووجه الاستدلال بالآية أن أصحاب الجنة قصدوا بجذ الثمار إسقاط حق المساكين فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم.
)كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون[33](رجوع إلى تهديد المشركين المبدوء من قوله)إنا بلوناهم(فالكلام فذلك وخلاصة لما قبله وهو استئناف ابتدائي.
والمشار إليه باسم الإشارة هو ما تضمنته القصة من تلف جنتهم وما أحسوا به عند رؤيتها على تلك الحالة، وتندمهم وحسرتهم، أي مثل ذلك المذكور يكون العذاب في الدنيا، فقوله)كذلك(مسند

مقدم و)العذاب(مسند إليه. وتقديم المسند للاهتمام بإحضار صورته في ذهن السامع.

والتعريف في)عذاب(تعريف الجنس وفيه توجيه بالعهد الذهني، أي عذابكم الموعد مثل عذاب أولئك والمماثلة في إتلاف الأرزاق والإصابة بقطع الثمرات.

وليس التشبيه في قوله)كذلك العذاب(مثل التشبيه في قوله) وكذلك جعلناكم أمة وسطا(، ونحوه ما تقدم في سورة البقرة بل ما هنا من قبيل التشبيه المتعارف، لوجود ما يصلح لأن يكون مشبها به العذاب وهو كون المشبه به غير المشبه، ونظيره قوله تعالى) وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة(بخلاف ما في سورة البقرة فإن المشبه به هو عين المشبه لقصد المبالغة في بلوغ المشبه غاية ما يكون فيه وجه الشبه بحيث أريد تشبهه لا يلجأ إلا إلى تشبيهه بنفسه فيكون كناية عن بلوغه أقصى مراتب وجه الشبه.

والمماثلة بين المشبه والمشبه به مماثلة في النوع وإلا فإن ما توعدوا به من القحط أشد مما أصاب أصحاب الجنة وأطول.

وقوله)ولعذاب الآخرة أكبر(دال على أن المراد بقوله)كذلك العذاب(عذاب الدنيا.

وضمير)لو كانوا يعلمون(عائد إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله)بلوناهم(، وهم المشركون فإنهم كانوا ينكرون عذاب الآخرة فهددوا بعذاب الدنيا، ولا يصح عوده إلى)أصحاب الجنة(لأنهم كانوا مؤمنين بعذاب الآخرة وشدته.

)إن للمتقين عند ربهم جنت النعيم[34](استئناف بياني لأن من شأن ما ذكر من عذاب الآخرة للمجرمين أن ينشأ عنه سؤال في نفس السامع بقول: فما جزاء المتقين؟ وهو كلام معترض بين أجزاء الوعيد والتهديد وبين قوله)سنسمه على الخرطوم(وقوله)كذلك العذاب(. وقد أشعر بتوقع هذا السؤال قوله بعده)افنجعل المسلمين كالمجرمين(كما سيأتي.

وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بشأن المتقين ليسبق ذكر صفتهم العظيمة ذكر جزاءها.

واللام للاستحقاق. و)عند(ظرف متعلق بمعنى الكون الذي يقتضيه حرف الجر، ولذلك قدم متعلقه معه على المسند إليه لأجل ذلك الاهتمام. وقد حصل من تقديم المسند بما معه طول يثير تشويق السامع إلى المسند إليه. والعندية هنا عندية وإضافة)جنات(إلى) النعيم(تفيد أنها عرفت به فيشار بذلك إلى ملازمة النعيم لها لأن أصل الإضافة أنها بتقدير لام الاستحقاق ف)جنات النعيم(مفيد أنها استحقها النعيم لأنها ليس في أحوالها إلا حال نعيم أهلها، فلا يكون

فيها ما يكون من جنات الدنيا من المتاعب مثل الحر في بعض الأوقات أو شدة البرد أو مثل الحشرات والزنابير، أو ما يؤذي مثل شوك الأزهار والأشجار وروث الدواب وذرق الطير.
)أفنجعل المسلمين كالمجرمين[35] ما لكم كيف تحكمون[36](فاء التفريغ تقتضي أن هذا الكلام متفرع على ما قبله من استحقاق المتقين جنات النعيم، ومقابلته بتهديد المشركين بعذاب الدنيا والآخرة، ولكن ذلك غير مصرح فيه بما يناسب إن يتفرغ عليه هذا الإنكار والتوبيخ فتعين تقدير إنكار من المعرض بهم ليتوجه إليهم هذا الاستفهام المفرع، وهو ما أشرنا إليه آنفا من توقع أو وقوع سؤال.
والاستفهام وما بعده من التوبيخ، والتخطئة،والتهكم على إدلالهم الكاذب، مؤذن بأن ما أنكر عليهم ووبخوا عليه وسفهوا على اعتقاده كان حديثا قد جرى في نواديهم أو استسخروا به على المسلمين في معرض جحود أن يكون بعث، وفرضهم أنه على تقدير وقوع البعث والجزاء لا يكون للمسلمين مزية وفضل عند وقوعه.

صفحة : 4528

وعن مقاتل لما نزلت آية)إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم(قالت قريش: إن كان ثمة جنة نعيم فلنا فيها مثل حظنا وحظهم في الدنيا، وعن ابن عباس أنهم قالوا: إنا نعطى يومئذ خيرا مما تعطون فنزل قوله)أفنجعل المسلمين كالمجرمين(الآية.
والهمزة للاستفهام الإنكاري، فرع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين فالإنكار متسلط على ما دار بين المشركين من القول عند نزول الآية السابقة أو عند نزول ما سبقها من آي القرآن التي قابلت بين جزاء المؤمنين وجزاء المشركين كما يقتضيه صريحا قوله)ما لكم كيف تحكمون(إلى قوله)إن لكم لما تحكمون(.
وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الأخوة وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب قال تعالى)أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون(، وقال)لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة(، وقال)أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار(وقال السموأل أو الحارثي:
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالـم وجـهـول وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في

جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظا في الآخرة من المسلمين كما هو حالهم في الدنيا بطريق فحوى الخطاب.

وقوله)أفنجعل المسلمين كالمجرمين(كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود ب)المجرمين(، عبر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما في وصف)المجرمين(من المقابلة ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين.

فلذلك لم يكن ضمير الخطاب في قوله)مالكم كيف تحكمون(التفاتا عن ضمائر الغيبة من قوله)ودوا لو تدهن فيدهنون(وقوله)إنا بلوناهم(.

وإنما تغير الضمير إلى ضمير الخطاب تبعا لتغير توجيه الكلام، لأن شرط الالتفات أن يتغير الضمير في سياق واحد.

و)مالكم(استفهام إنكاري لحالة حكمهم،)فما لكم(مبتدأ وخبر وقد تقدم في قوله تعالى)قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله(في سورة البقرة.

و)كيف تحكمون(استفهام إنكاري ثان في موضع الحال من ضمير)لكم(، أي انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم، أي فإن ثبت لهم كان منكرا باعتبار حالة حكمهم.

والمعنى: لا تحكمون أنكم مساوون للمسلمين في جزاء الآخرة أو مفضلون عليهم.

)أم لكم كتب فيه تدرسون[37] إن لكم فيه لما تخيرون[38] (إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم.

والاستفهام المقدر مع)أم(إنكار لأن يكون لهم كتاب إنكارا مبنيا على الفرض وإن كانوا لم يدعوه.

وحاصل هذا الانتقال والانتقالات الثلاثة بعده وهي)أم لكم أيمان علينا(الخ،)سلهم أيهم بذلك زعيم( )أم لهم شركاء(الخ أن حكمكم هذا لا يخلو من أن يكون سنده كتابا سماويا نزل من لدنا، وإما أن يكون سنده عهدا منا بأنا نعطيكم ما تقترحون، وإما أن يكون لكم كفيل علينا، وإما أن يكون تعويلا على نصر شركائكم.

وتقديم)لكم(على المبتدأ وهو)كتاب(لأن المبتدأ نكرة ونكيره مقصود للنوعية فكان تقديم الخبر لازما.

وضمير)فيه(عائد إلى الحكم المفاد من قوله)كيف تحكمون(، أي كتاب في الحكم.

و)في(للتعليل أو الظرفية المجازية كما تقول ورد كتاب في الأمر بهذا أو في النهي عن كذا فيكون)فيه(ظرفا مستقرا صفة ل)كتاب(. ويجوز أن يكون الضمير عائد إلى)كتاب(ويتعلق المجرور بفعل)تدرسون(. جعلت الدراسة العميقة بمزيد التبصر في ما

يتضمنه الكتاب بمنزلة الشيء المظروف في الكتاب كما تقول: لنا درس في كتاب سيبويه.
وفي هذا إدماج بالتعريض بأنهم أميون ليسوا أهل كتاب وأنهم لما جاءهم كتاب لهديهم وإلحاقهم بالأمم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذبوه قال تعالى)لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون(وقال)أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة(.
وجملة)إن لكم فيه لما تخيرون(في موضع مفعول)تدرسون(على أنها محكي لفظها، أي تدرسون هذه العبارة كما جاء قوله تعالى) وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين(، أي تدرسون جملة)إن لكم لما تخيرون(.

صفحة : 4529

ويكون)فيه(توكيدا لفظيا لنظيرها من قوله)فيه تدرسون(، قصد من إعادتها مزيد ربط الجملة بالتي قبلها كما أعيدت كلمة)من(في قوله تعالى)ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا(وأصله: تتخذون سكرا.
و)تخيرون(أصله تتخيرون بتاءين، حذفت إحداهما تخفيفا. والتخير: تكلف الخير، أي تطلب ما هو في أخير. والمعنى: إن في ذلك الكتاب لكم ما تختارون من خير الجزاء.
)أم لكم أيمن علينا بلغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون[39]( )أم(للانتقال إلى دليل آخر وهو نفي أن يكون مستند زعمهم عهدا أخذوه على الله لأنفسهم أن يعامله يوم القيامة بما يحكمون به لأنفسهم، فالاستفهام اللازم تقديره بعد)أم(إنكاري
و)بالغة(مؤكدة. وأصل البالغة: الواصلة إلى ما يطلب بها، وذلك استعارة لمعنى مغلظة، شبهت بالشيء المبالغ إلى نهاية سيره. وذلك كقوله تعالى)قل فلله الحجة البالغة(.
وقوله)علينا(صفة ثانية ل)أيمان(أي أقسمناها لكم لإثبات حقكم علينا.
و)إلى يوم القيامة(صفة ثالثة ل)أيمان(، أي أيمان مؤبدة لا تحلة منها فحصل من الوصفين أنها عهود مؤكدة ومستمرة طول الدهر، فليس يوم القيامة منتهى الأخذ بتلك الأيمان بل هو تنصيص على التأييد كما في قوله تعالى)ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة(في سورة الأحقاف.

ويتعلق إلى يوم القيامة بالاستقرار الذي في الخبر في قوله)لكم أيمان(ولا يحسن تعلقه ب)اللغة(تعلق الظرف اللغو لأنه يصير) بالغة(مستعملا في معنى مشهور قريب من الحقيقة، ومحمل)بالغة(على الاستعارة التي ذكرنا أجزل وجملة)إن لكم لما تحكمون(بيان ل)أيمان(، أي أيمان بهذا اللفظ.

ومعنى ما تحكمون تأمرون به دون مراجعة، يقال: نزلوا على حكم فلان، أي لم يعينوا طلبة خاصة ولكنهم وكلوا تعيين حقهم إلى فلان، قال خطاب أو حطان بن المعلى:

أنزلني الدهر على حكمـه من شامخ عال إلى خفض أي دون اختيار لي ولا عمل عملته فكأنني حكمت الدهر فأنزلني من معاقلي وتصرف في كما شاء.

ومن أقوالهم السائرة مسرى الأمثال حكمك مسمطا بضم الميم وفتح السين وفتح الميم الثانية مشددة أي لك حكمك نافذا لا اعتراض عليك فيه. وقال ابن عثمة:

لك المرباع منها والصفـايا وحكمك والنشيطة والفضول)سلهم أيهم بذلك زعيم[40](استئناف بياني عن جملة)أم لكم أيمان علينا بالغة(، لأن الأيمان وهي العهود تقتضي الكفلاء عادة قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه العـهـود والـكـفـلاء فلما ذكر إنكار أن يكون لهم عهود، كمل ذلك بأن يطلب منهم أن يعينوا من هم الزعماء بتلك الأيمان.

فالاستفهام في قوله)سلهم أيهم بذلك زعيم(مستعمل في التهكم زيادة على الإنكار عليهم.

والزعيم: الكفيل وقد جعل الزعيم أحدا منهم زيادة في التهكم وهو أن جعل الزعيم لهم واحدا منهم لعزتهم ومناغاتهم لكبرياء الله تعالى.

)أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين[41]( ) أم(إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم: إنا نعطى مثل ما يعطى المسلمون أو خيرا مما يعطونه، وهو أن يفرض أن أصنامهم تنصرهم وتجعل لهم حظا من جزاء الخير في الآخرة.

والمعنى: بل أثبتت لهم، أي لأجلهم ونفعهم شركاء، أي شركاء لنا في الإلهية في زعمهم، فحذف متعلق)شركاء(لشهرته عندهم فصار شركاء بمنزلة اللقب، أي أم آلهتهم لهم فليأتوا بهم لينفعوهم يوم القيامة.

واللام في)لهم(لام الأجل، أي لأجلهم بتقدير مضاف، أي لأجل نصرهم، فاللام كاللام في قول أبي سفيان يوم أحد لنا العزى ولا عزى لكم .
وتنكير شركاء في حيز الاستفهام المستعمل في الإنكار يفيد انتفاء أن يكون أحد من الشركاء، أي الأصنام لهم، أي لنفعهم فيعم أصنام جميع قبائل العرب المشترك في عبادتها بين القبائل، والمخصوصة ببعض القبائل.

وقد نقل أسلوب الكلام من الخطاب إلى الغيبة لمناسبة وقوعه بعد)سلهم أيهم بذلك زعيم(، لأن أخص الناس بمعرفة أحقية هذا الإبطال هو النبي صلى الله عليه وسلم وذلك يستتبع توجيه هذا الإبطال إليهم بطريقة التعريض.
والتفريع في قوله)فليأتوا بشركائهم(تفريع على نفي أن تنفعهم آلهتهم، فتعين أن أمر)فليأتوا(أمر تعجيز.
وإضافة)شركاء(إلى ضميرهم في قوله)فليأتوا بشركائهم(لإبطال صفة الشركة في الإلهية عنهم، أي ليسوا شركاء في الإلهية إلا عند هؤلاء فإن الإلهية الحق لا تكون نسبية بالنسبة إلى فريق أو قبيلة.
ومثل هذا الإطلاق كثير في القرآن ومنه قوله)قل ادعوا شركائكم ثم كيدون فلا تنظرون(.
)يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون[42] خاشعة أبصرهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سلمون[43](يجوز أن يكون)يوم يكشف(متعلقا بقوله)فليأتوا بشركائهم(أي فليأتوا بالمزعومين يوم القيامة. وهذا من حسن التخلص إلى ذكر أهوال القيامة عليهم.
ويجوز أن يكون استئنافا متعلقا بمحذوف تقديره: اذكر يو يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود الخ للتذكير بأهوال ذلك اليوم.
وعلى كلا الوجهين في تعلق)يوم(فالمراد باليوم يوم القيامة.
والكشف عن ساق: مثل لشدة الحال لصعوبة الخطب والهول، وأصله أن المرء إذا هلع أن يسرع في المشي ويشمر ثيابه فيكشف عن ساقه كما يقال: شمر عن ساعد الجد، وأيضا كانوا في الروع والهزيمة تشمر الحرائر عن سوقهن في الهرب أو في العمل فتنكشف سوقهن في الهرب أو في العمل فتنكشف سوقهن بحيث يشغلهن هول الأمر عن الاحتراز من إبداء ما لا تبدينه عادة، فيقال:

كشفت عن ساقها أو شمرت عن ساقها، أو أبدت عن ساقها. قال عبد الله بن قيس الرقيات:
كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعـواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبـدي عن خدام العقيلة الـعـذراء وفي حديث غزوة أحد قال أنس بن مالك انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها إلخ، فإذا قالوا: كشف المرء عن ساقه فهو كناية عن هول أصابه وإن لم يكن كشف ساق. وإذا قالوا: كشف الأمر عن ساق، فقد مثلوه بالمرأة المروعة، وكذلك كشفت الحرب عن ساقها، كل ذلك تمثيل إذ ليس ثمة ساق قال حاتم:
فتى الحرب غضت به لحرب الحرب عضها
وإن شمرت عن ساقها الحـرب شـمـرا وقال جد طرفة من الحماسة:
كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر البواح وقرأ ابن عباس)يوم تكشف(بمثناة فوقية وبصيغة البناء للفاعل على تقدير تكشف الشدة عن ساقها أو تكشف القيامة، وقريب من هذا قولهم: قامت الحرب على ساق.
والمعنى: يوم تبلغ أحوال الناس منتهى الشدة والروع، قال ابن عباس: يكشف عن ساق: عن كرب وشدة، وهي أشد ساعة في يوم القيامة.
وروى عبد بن حميد وغيره عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن هذا، فقال إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:
صبرا عنـاق إنـه لـشـربـاق قد سن لي قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق وقال مجاهد: يكشف عن ساق: شدة الأمر.
وجملة)ويدعون(ليس عائدا إلى المشركين مثل ضمير)إنا بلوناهم(إذ لا يساعد قوله)وقد كانوا يدعون إلى السجود(فإن المشركين لم يكونوا في الدنيا يدعون إلى السجود. فالوجه أن يكون عائدا إلى غير مذكور، أي ويدعى مدعوون فيكون تعريضا بالمنافقين بأنهم يحشرون مع المسلمين ويمتحن الناس بدعائهم إلى السجود ليتميز المؤمنون الخلص عن غيرهم تميز تشريف فلا يستطيع المنافقون السجود فيفتضح كفرهم. قال القرطبي عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود: فمن كان يعبد الله مخلصا يخر

ساجدا له ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد اه. فيكون قوله تعالى)ويدعون إلى السجود(إدماجا لذكر بعض ما يحصل من أحوال ذلك اليوم.

صفحة : 4531

وفي صحيح مسلم من حديث الرؤية وحديث الشفاعة عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد رياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه الحديث، فيصلح ذلك تفسيرا لهذه الآية.

وقد اتبع فريق من المفسرين هذه الرواية وقالوا يكشف الله عن ساقه، أي عن مثل الرجل ليراها الناس ثم قالوا هذا من المتشابه على أنه روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى)عن ساق(قال يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا.

ورويت أخبار أخرى ضعيفة لا جدوى في ذكرها.

والسجود الذي يدعون إليه: سجود الضراعة والخضوع لأجل الخلاص من أهوال الموقف.

وعدم استطاعتهم السجود لسلب الله منهم الاستطاعة على السجود ليعلموا أنهم لا رجاء لهم في النجاة.

والذي يدعوهم إلى السجود الملائكة الموكلون بالمحشر بأمر الله تعالى كقوله تعالى)يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر(إلى قوله) مهطعين إلى الداعي(، أو يدعو بعضهم بعضا بإلهام من الله تعالى، وهو نضير الدعوة إلى الشفاعة في الأثر المروي فيقول بعضهم لبعض لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من موقفنا هذا .

وخشوع الأبصار: هيئة النظر بالعين بذلة وخوف، استعير له وصف) خاشعة(لأن الخاشع يكون مطأطئا مختفيا.

و)ترهقهم(: تحل بهم وتقترب منهم بحرص على التمكن منهم، رهق من باب فرح قال تعالى)ترهقها قترة(.

وجملة)ترهقهم ذلة(حال ثانية من ضمير)يستطيعون(.

وجملة)وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون(معترضة بين ما قبلها وما تفرع عنها، أي كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود لله وحده وهم سالمون من مثل الحالة التي هم عليها في يوم الحشر. والواو للحال وللاعتراض.

وجملة)وهم سالمون(حال من ضمير)يدعون(، أي وهم قادرون لا علة تعوقهم في أجسادهم. والسلامة: انتفاء العلل والأمراض بخلاف حالهم يوم القيامة فإنهم ملجأون لعدم السجود.

)فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون[44] وأملي لهم إن كيدي متين[45](الفاء لتفريع الكلام الذي عطفته على الكلام الذي قبله لكون الكلام الأول سببا في ذكر ما بعده، فيعد أن استوفي الغرض من موعظتهم ووعيدهم وتزييف أوهامهم أعقب بهذا الاعتراض تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله تكفل بالانتصاف من المكذبين ونصره عليهم.

وقوله)فذرني ومن يكذب(ونحوه يفيد تمثيلا لحال مفعول)ذر(في تعهده بأن يكفي مؤونة شيء دون استعانة بصاحب المؤونة بحال من يرى المخاطب قد شرع في الانتصار لنفسه ورأى أنه لا يبلغ بذلك مبلغ مفعول)ذر(لأنه أقدر من المعتدى عليه في الانتصاف من المعتدي فيتفرغ له ولا يطلب من صاحب الحق إعانة له على أخذ حقه، ولذلك يؤتى بفعل يدل على طلب الترك ويؤتى بعده بمفعول معه ومنه قوله تعالى)وذرني والمكذبين( )ذرني ومن خلقت وحيدا(وقال السهيلي في الروض الأنف في قوله تعالى)ذرني ومن خلقت وحيدا(فيه تهديد ووعيد، أي دعني وإياه فسترى ما أصنع وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه وكره أن يشفع لمن اغتاض عليه فمعنى الكلام لا شفاعة في هذا الكافر.

والواو: واو المعية وما بعدها مفعول معه، ولا يصح أن تكون الواو عاطفة لأن المقصود: اتركني معهم.

و)الحديث(يجوز أن يراد به القرآن وتسميته حديثا لما فيه من الإخبار عن الله تعالى، وما فيه من أخبار الأمم وأخبار المغيبات، وقد سمي بذلك في قوله تعالى)فبأي حديث بعده يؤمنون(في سورة الأعراف وقوله تعالى)أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون(الآية في سورة النجم، وقوله)أفبهذا الحديث أنتم مدهنون(في سورة الواقعة.

واسم الإشارة على هذا للإشارة إلى مقدر في الذهن مما سبق نزوله من القرآن.

ويجوز أن يكون المراد بالحديث الإخبار عن البعث وهو ما تضمنه قوله تعالى)يوم يكشف عن ساق(الآية.

ويكون اسم الإشارة إشارة إلى ذلك الكلام والمعنى: حسبك إيقاعا بهم أن تكل أمرهم إلي فأنا أعلم كيف أنتصف منهم فلا تشغل نفسك بي وتوكل علي.

ويتضمن هذا تعريضا بالتهديد للمكذبين لأنهم يسمعون هذا الكلام.

وهذا وعد للنبي صلى الله عليه وسلم بالنصر ووعيد لهم بانتقام في الدنيا لأنه تعجيل لتسلية الرسول.
وجملة)سنستدرجهم من حيث لا يعلمون(، بيان لمضمون)ذرني ومن يكذب بهذا الحديث(باعتبار أن الاستدراج والإملاء يعقبها الانتقام فكأنه قال: سنأخذهم بأعمالهم فلا تستبطئ الانتقام فإنه محقق وقوعه ولكن يؤخر لحكمة تقتضي تأخيره.
والاستدراج: استنزال الشيء من درجة إلى أخرى في مثل السلم، وكان أصل السين والتاء فيه للطلب أي محاولة التدرج، أي التنقل في الدرج، والقرينة تدل على إرادة النزول إذ التنقل في الدرج يكون صعودا ونزولا، ثم شاع إطلاقه على معاملة حسنة لمسيء إلى إبان مقدر عند حلوله عقابه ومعنى من حيث لا يعلمون أن استدراجهم المفضي إلى حلول العقاب بهم يأتيهم من أحوال وأسباب لا يتفطنون إلى أنها مفضية بهم إلى الهلاك، وذلك أجلب لقوة حسرتهم عند حدوث المصائب بهم، ف)من(ابتدائية، و)حيث(للمكان المجازي، أي الأسباب والأفعال والأحوال التي يحسبونها تأتيهم بخير فتنكشف لهم عن الضر. ومفعول)لا يعلمون(ضمير محذوف عائد إلى)حيث(.
وأملي: مضارع أملي، مقصور بمعنى أمهل وأخر وهو مشتق من الملا مقصورا، وهو الحين والزمن، ومنه قيل الليل والنهار، الملوان، فيكون أملى بمعنى طول في الزمان، ومصدره إملاء.
ولام)لهم(هي اللام المسماة لام التبيين، وهي التي تبين اتصال مدخولها لخفاء فيه فإن اشتقاق فعل أملى من الملوو وهو الزمان اشتقاق غير بين لخفاء معنى الحدث فيه.
ونون)سنستدرجهم(نون المتكلم المشارك، والمراد الله وملائكته الموكلون بتسخير الموجودات وربط أحوال بعضها ببعض على وجه يتم به مراد الله فلذلك جيء بنون المتكلم فالاستدراج تعلق تنجيزي لقدرة الله فيحصل بواسطة الملائكة الموكلين كما قال تعالى)إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق(الآية.
وأما الإملاء فهو علم الله بتأجيل أخذهم. وتعلق العلم ينفرد به الله فلذلك جيء معه بضمير المفرد. وحصل في هذا الاختلاف تفنن في الضميرين.
ونظير هذه الآية قوله في الأعراف)والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين(باعتبار

أنهما وعد للنبي صلى الله عليه وسلم بالنصر وتثبيت له بأن استمرار الكافرين في نعمة إنما هو استدراج وإملاء وضرب يشبه الكيد وأن الله بالغ أمره فيهم، وهذا كقوله)لا يغرنك تلقب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(.

وموقع)إن(موقع التسبب والتعليل كما تقدم عند قوله تعالى)إن أول بيت وضع للناس(في سورة آل عمران.

وإطلاق الكيد على إحسان الله لقوم مع إرادة إلحاق السوء بهم إطلاق على وجه الاستعارة لمشابهته فعل الكائد من حيث تعجيل الإحسان وتعقيبه بالإساءة.

)أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون[46](إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المبتدئ من قوله)ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب( )أم لكم أيمان( )أم لهم شركاء(فإنه بعد أن نفى أن تكون لهم حجة تؤيد صلاح حالهم. أو وعد لهم بإعطاء ما يرغبون، أو أولياء ينصرونهم، عطف الكلام إلى نفي أن يكون عليهم ضر في إجابة دعوة الإسلام، استقصاء لقطع ما يحتمل من المعاذير بافتراض أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم أجرا على هديه إياهم فصدهن عن إجابته ثقل غرم المال على نفوسهم.

فالاستفهام الذي تؤذن به)أم(استفهام إنكار لفرض أن يكون ذلك مما يخامر نفوسهم فرضا اقتضاه استقراء نواياهم من مواقع الإقبال على دعوة الخير والرشد.

والمغرم: ما يفرض على المرء أداؤه من ماله لغير عوض ولا جناية.

والمثقل: الذي حمل عليه شيء ثقيل، وهو هنا مجاز في الإشفاق.

والفاء للتفريع والتسبب، أي فيتسبب على ذلك أنك شققت عليهم فيكون ذلك اعتذارا منهم عن عدم قبول ما تدعوهم إليه.

و)من غرم(متعلق ب)مثقلون(و)من(ابتدائية وهو ابتداء مجازي بمعنى التعليل، وتقديم المعمول على عامله للاهتمام بموجب المشقة قبل ذكرها مع الرعاية على الفاصلة.

)أم عندهم الغيب فهم يكتبون[47](

صفحة : 4533

إضراب آخر انتقل به من مدارج إبطال معاذير مفروضة لهم أن يتمسكوا بها تعلة لإعراضهم عن قبول دعوة القرآن، قطعا لما عسى أن ينتحلوه من المعاذير على طريقة الاستقراء ومنع الخلو.

وقد جاءت الإبطالات السالفة متعلقة بما يفرض لهم من المعاذير التي هي من قبيل مستندات من المشاهدات، وانتقل الآن إلى إبطال من نوع آخر، وهو إبطال حجة مفروضة يستندون فيها إلى علم شيء من المعلومات المغيبات عن الناس. وهي مما استأثر الله بعلمه وهو المعبر عنه بالغيب، كما تقدم في قوله تعالى)الذين يؤمنون بالغيب(في سورة البقرة. وقد استقر عند الناس كلهم أن أمور الغيب لا يعلمها إلا الله أو من اطلع من عباده على بعضها.

والكلام هنا على حذف مضاف، أي أعندهم علم الغيب كما قال تعالى)أعنده علم الغيب فهو يرى(في سورة النجم.
فالمراد بقوله)عندهم الغيب(أنه حصل في علمهم ومكنتهم، أي باطلاع جميعهم عليه أو بإبلاغ كبرائهم إليهم وتلقيهم ذلك منهم.
وتقديم)عندهم(على المبتدأ وهو معرفة لإفادة الاختصاص، أي صار علم الغيب عندهم لا عند الله.
ومعنى يكتبون: يفرضون ويعينون كقوله)كتب عليكم القصاص في القتلى(وقوله)كتاب الله عليكم(، أي فهم يفرضون لأنفسهم أن السعادة في النفور من دعوة الإسلام ويفرضون ذلك على الدهماء من اتباعهم.
ومجيء جملة)فهم يكتبون(متفرعة عن جملة)أم عندهم الغيب(، بناء على أن ما في الغيب مفروض كونه شاهدا على حكمهم لأنفسهم المشار إليه بقوله)ما لكم كيف تحكمون(كما علمته آنفا.
)فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم[48] لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم[49] فاجتباه ربه فجعله من الصالحين[50](تفريع على ما تقدم من إبطال مزاعم المشركين ومطاعنهم في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم، وما تبعه من تكفل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعاقبة النصر، وذلك أن شدته على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من شأنها أن تدخل عليه يأسا من حصول رغبته ونجاح سعيه، ففرع عليه تثبيته وحثه على المصابرة واستمراره على الهدي. وتعريفه بأن ذلك التثبيت يرفع درجته في مقام الرسالة ليكون من أولي العزم، فذكره بمثل يونس عليه السلام إذ استعجل عن أمر ربه، فأدبه الله ثم اجتباه وتاب عليه وجعله من الصالحين تذكيرا مرادا به التحذير.
والمراد بحكم الرب هنا أمره وهو ما حمله إياه من الإرسال والاضطلاع بأعباء الدعوة. وهذا الحكم هو المستقرأ من آيات الأمر بالدعوة التي أولها)يا أيها المدثر قم فأنذر(إلى قوله)ولربك فاصبر(فهذا هو الصبر المأمور به في هذه الآية أيضا. ولا جرم أن

الصبر لذلك يستدعي انتظار الوعد بالنصر وعدم الضجر من تأخره إلى أمده المقدر في علم الله.
وصاحب الحوت: هو يونس بن متى، وقد تقدم ذكره عند قوله تعالى)ووهبنا له إسحاق(إلى قوله)ويونس(في سورة الأنعام.
والصاحب: الذي يصحب غيره، أي يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها، وإطلاقه على يونس لأن الحوت التقمه ثم قذفه فصار)صاحب الحوت(لقبا له على تلك الحالة معية قوية.
وقد كانت مؤاخذة يونس عليه السلام على ضجره من تكذيب قومه وهم أهل نينوى كما تقدم في سورة الصافات.
و)إذ(ظرف زمان وهو وجملته متعلق باستقرار منصوب على الحال أي في حالة وقت ندائه ربه، فإنه ما نادى ربه إلا لإنقاذه من كربه الذي وقع فيه بسبب مغاضبته وضجره من قومه، أي لا يكن منك ما يلجئك إلى مثل ندائه.
والمكظوم: المحبوس المسدودة عليه يقال: كظم الباب أغلقه وكظم النهر إذا سده. والمعنى: نادى في حال حبسه في بطن الحوت.
وجيء بهذه الحال جملة اسمية لدلالتها على الثبات، أي هو في حبس لا يرجى لمثله سراح، وهذا تمهيد للامتنان عليه بالنجاة من مثل ذلك الحبس.
وقوله)لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء(الخ استئناف بياني ناشئ عن مضمون النهي من قوله)ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى(الخ لأنه يتضمن التحذير من الوقوع في كرب من قبيل كرب يونس ثم لا يدري كيف يكون انفراجه.

و)أن(يجوز أن تكون مخففة من)أن(، واسمها ضمير شأن محذوف، وجملة)تداركه نعمة من ربه(خبرها. ويجوز أن تكون مصدرية، أي لولا تدارك رحمة من ربه.
والتدارك: تفاعل من الدرك بالتحريك وهو اللحاق، أي أن يلحق بعض السائرين بعضا وهو يقتضي تسابقهم وهو هنا مستعمل في مبالغة إدراك نعمة الله إياه.
والنبذ: الطرح والترك. والعراء ممدودا: الفضاء من الأرض الذي لا نبات فيه ولا بناء.
والمعنى: لنبذه الحوت أو البحر بالفضاء الخالي لأن الحوت الذي ابتلعه من النوع الذي يرضع فراخه فهو يقترب من السواحل الخالية المترامية الأطراف خوفا على نفسه وفراخه.

والمعنى: أن الله أنعم عليه بأن أنبت عليه شجرة اليقطين كما في سورة الصافات.
وأدمج في ذلك فضل التوبة والضراعة إلى الله، وأنه لولا توبته وضراعته إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة لقذفه الحوت من بطنه ميتا فأخرجه الموج إلى الشاطئ فلكان مثلة للناظرين أو حيا منبوذا بالعراء لا يجد إسعافا، أو لنجى بعد لأي والله غاضب عليه فهو مذموم عند الله مسخوط عليه. وهي نعم كثيرة عليه إذ أنقذه من هذه الورطات كلها إنقاذا خارقا للعادة.
وهذا المعنى طوي طيا بديعا وأشير إليه إشارة بليغة بجملة)لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم(.
وطريقة المفسرين في نشر هذا المطوي أن جملة)وهو مذموم(في موضع الحال وأن تلك الحال قيد في جواب)لولا(، فتقدير الكلام: لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء نبذا ذميما، أي ولكن يونس نبذ بالعراء غير مذموم.
والذي حملهم على هذا التأويل أن نبذه بالعراء واقع فلا يستقيم أن يكون جوابا للشرط لأن)لولا(تقتضي امتناعا لوجود، فلا يكون جوابها واقعا فتعين اعتبار تقييد الجواب بجملة الحال، أي انتفى ذمه عند نذبه بالعراء.
ويلوح لي في تفصيل النظم وجه آخر وهو أن يكون جواب)لولا(محذوفا دل عليه قوله)وهو مكظوم(مع ما تفيده صيغة الجملة الاسمية من تمكن الكظم كما علمت آنفا، فتلك الحالة إذا استمرت لم يحصل نبذه بالعراء، ويكون الشرط ب)لولا(لاحقا لجملة)إذ نادى وهو مكظوم(، أي لبقي مكظوما، أي محبوسا في بطن الحوت أبدا وهو معنى قوله في سورة الصافات)فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون(، وتجعل جملة)لنبذ بالعراء وهو مذموم(استئنافا بيانيا ناشئا عن الإجمال الحاصل من موقع)لولا(.
واللام فيها لام القسم للتحقيق لأنه خارق للعادة فتأكيده لرفع احتمال المجاز. والمعنى: لقد نبذ بالعراء وهو مذموم. والمذموم: إما بمعنى المذنب لأن الذنب يقتضي الذم في العاجل والعقاب في الآجل، وهو معنى قوله في آية الصافات)فالتقمه الحوت وهو مليم(وإما بمعنى العيب وهو كونه عاريا جائعا فيكون في معنى قوله) فنبذناه بالعراء وهو سقيم(فإن السقم عيب أيضا.
وتنكير)نعمة(للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة.
وفرع على هذا النفي الإخبار بأن الله اجتباه وجعله من الصالحين.
والمراد ب)الصالحين(المفضلون من الأنبياء، وقد قال إبراهيم عليه السلام)رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين(وذلك إيماء إلى أن

الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات، وقد تقدم في قوله)كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين(في سورة التحريم.
قال ابن عباس رد الله إلى يونس الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه.
)وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون[51] وما هو إلا ذكر للعالمين[52](عطف على جملة)فذرني ومن يكذب بهذا الحديث(، عرف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحو النبي صلى الله عليه وسلم من الحقد والغيظ وإضمار الشر عندما يسمعون القرآن.
والزلق: بفتحتين زلل الرجل من ملاسة الأرض من طين عيها أو دهن، وتقدم في قوله تعالى)فتصبح صعيدا زلقا(في سورة الكهف.
ولما كان الزلق يفضي إلى السقوط غالبا أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والاندحاض على وجه الكناية، ومنه قوله هنا) ليزلقونك(، أي يسقطونك ويصرعونك.

صفحة : 4535

وعن مجاهد: أن ينفذونك بنظرهم. وقال القرطبي: يقال زلق السهم وزهق، إذا نفذ، ولم أراه لغيره، قال الراغب قال يونس: لم يسمع الزلق والإزلاق إلا في القرآن اه.
قلت: وعلى جميع الوجوه فقد جعل الإزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة المكنية، شبهت الأبصار بالسهام ورمز إلى المشبه به بما هو من روادفه وهو فعل)يزلقونك(. وهذا مثل قوله تعالى)إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا(.
وقرأ نافع وأبو جعفر)يزلقونك(بفتح المثناة مضارع زلق بفتح اللام يزلق متعديا، إذا نحاه من مكانه. وقرأه الباقون بضم المثناة.
وجاء)يكاد(بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل وجاء فعل)سمعوا(ماضيا لوقوعه مع)لما(وللإشارة إلى أنه قد حصل منهم ذلك وليس مجرد فرض.
واللام في)ليزلقونك(لام الابتداء التي تدخل كثيرا في خبر) إن(المكسورة وهي أيضا تفرق بين)إن(المخففة وبين)إن(النافية.
وضمير)إنه لمجنون(عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حكاية لكلامهم بينهم، فمعاد الضمير كائن في كلام بعضهم، أو ليس للضمير معاد في كلامهم لأنه منصرف إلى من يتحدثون عنه في غالب مجالسهم.

والمعنى: يقولون ذلك اعتلالا لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلا للطعن فيه فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون لينتقلوا من ذلك إلى الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دهماءهم عن سماعه، فلذلك أبطل الله قولهم)إنه لمجنون(بقوله)وما هو إلا ذكر للعالمين(، أي ما القرآن إلا ذكر للناس كلهم وليس بكلام المجانين، وينتقل من ذلك إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء.

والذكر: التذكير بالله والجزاء هو أشرف أنواع الكلام لأنه فيه صلاح للناس.

فضمير)هو(عائد إلى مذكور بل إلى معلوم من المقام، وقرينة السياق ترجع كل ضمير من ضميري الغيبة إلى معاده، كقول عباس بن مرداس:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم
بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا أي لأحرز الكفار ما جمعه المسلمون.

وفي قوله)ويقولون إنه لمجنون(مع قوله في أول السورة)ما أنت بنعمة ربك بمجنون(محسن رد العجز على الصدر.

وقوله)وما هو إلا ذكر للعالمين(إبطالا لقولهم)إنه لمجنون(لأنهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن فإذا ثبت أن القرآن ذكر بطل أن يكون مبلغه مجنونا. وهذا من قبيل الاحتباك إذ التقدير: ويقولون إنه لمجنون وإن القرآن كلام مجنون، وما القرآن إلا ذكر وما أنت إلا مذكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحاقة

سميت)سورة الحاقة(في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. وروى أحمد بن حنبل أن عمر ابن الخطاب قال خرجت يوما بمكة أتعرض لرسول الله قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر، أي قلت في خاطري ، فقرأ)وما هو بقل شاعر قليل ما تؤمنون(قلت: كاهن، فقرأ)ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون تنزيل من رب العالمين(إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع .

وباسم)الحاقة(عنونت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير. وقال الفيروز أبادي في بصائر ذوي التمييز: إنها تسمى أيضا سورة السلسلة لقوله)ثم في سلسلة(وسماها الجعبري في منظومته في ترتيب نزول السور الواعية ولعله أخذه من وقوع قوله)وتعيها أذن واعية(ولم أر سلفا في هذه التسمية.

ووجه تسميتها)سورة الحاقة(وقوع هذه الكلمة في أولها ولم تقع في غيرها من سور القرآن.
وهي مكية بالاتفاق. ومقتضى الخبر المذكور عن عمر بن الخطاب أنها نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة فإن عمر أسلم بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة وكانت الهجرة إلى الحبشة سنة خمس قبل الهجرة إلى المدينة.
وقد عدت هذه السورة السابعة والسبعين في عداد ترتيب النزول. نزلت بعد سورة تبارك وقبل سورة المعارج.
وانفق العادون من أهل الأمصار على عد آيها إحدى وخمسين آية.

أغراضها
اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة. وتهديد المكذبين بوقوعه.
وتذكيرهم بما حل بالأمم التي كذبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة وتهديد المكذبين برسل الله تعالى بالأمم التي أشركت وكذبت.

وأدمج في ذلك أن الله نجى المؤمنين من العذاب، وفي ذلك تذكير بنعمة الله على البشر إذ أبقى نوعهم بالإنجاء من الطوفان.
ووصف أهوال من الجزاء وتفاوت الناس يومئذ فيه، ووصف فظاعة حال العقاب على الكفر وعلى نبذ شريعة الإسلام، والتنويه بالقرآن.
وتنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أن يكون غير رسول.
وتنزيه الله تعالى عن أن يقر من يتقول عليه.
وتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم.
وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن.
)الحاقة[1] ما الحاقة[2] وما أدراك ما الحاقة[3](الحاقة صيغة فاعل من: حق الشيء، إذا ثبت وقوعه، والهاء فيها لا تخلو عن أن تكون هاء تأنيث فتكون الحاقة وصفا لموصوف مقدر مؤنث اللفظ، أو أن تكون هاء مصدر على وزن فاعلة مثل الكاذبة للكذب، والخاتمة للختم، والباقية للبقاء، والطاغية للطغيان، والنافلة، والخاطئة، وأصلها تاء المرة، ولكنها لما أريد المصدر قطع النظر عن المرة مثل كثير من المصادر التي على وزن فعلة غير ما رد به المرة مثل قولهم ضربة لازب. فالحاقة إذن بمعنى الحق كما يقال من حاق كذا ، أي من حقه.

وعلى الوجهين فيجوز أن يكون المراد بالحاقة المعنى الوصفي، أي حاثة تحقق أو حق يحق.
ويجوز أن يكون المراد بها لقبا ليوم القيامة، وروي ذلك عن ابن عباس وأصحابه وهو الذي درج عليه المفسرون فلقب بذلك يوم القيامة لأنه يوم محقق وقوعه، كما قال تعالى)وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه(، أو لأنه تحقق فيه الحقوق ولا يضاع الجزاء عليها، قال تعالى)ولا تظلمون فتيلا(وقال)فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره(.
وإيثار هذه المادة وهذه الصيغة يسمح باندراج معان صالحة بهذا المقام فيكون ذلك من الإيجاز البديع لتذهب نفوس السامعين كل مذهب ممكن من مذاهب الهول والتخويف بما يحق حلوله بهم.
فيجوز أيضا أن تكون)الحاقة(وصفا لموصوف محذوف تقديره: الساعة الحاقة، أو الواقعة الحاقة، فيكون تهديدا بيوم أو وقعة يكون فيها عقاب شديد للمعرض بهم مثل يوم بدر أو وقعته وأن ذلك حق لا ريب في وقوعه؛ أو وصفا للكلمة، أي كلمة الله التي حقت على المشركين من أهل مكة، قال تعالى)وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار(، أو التي حقت للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينصره الله، قال تعالى)ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين(.
ويجوز أن تكون مصدرا بمعنى الحق، فيصح أن يكون وصفا ليوم القيامة بأنه حق كقوله تعالى)واقترب الوعد الحق(أو وصفا للقرآن كقوله)إن هذا لهو القصص الحق(، أو أريد به الحق كله كما جاء به القرآن من الحق قال تعالى)هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق(وقال)إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق(.
وافتتاح السورة بهذا اللفظ ترويع للمشركين.
و)الحاقة(مبتدأ و)ما(مبتدأ ثان. و)الحاقة(المذكورة ثانيا خبر المبتدأ الثاني والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول.
و)ما(اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم كأنه قيل: أتدري ما الحاقة? أي ما هي الحاقة، أي شيء عظيم الحاقة. وإعادة اسم المبتدأ في الجملة الواقعة خبرا عنه تقوم مقام ضميره في ربط الجملة المخبر بها. وهو من الإظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الاسم من التهويل. ونظيره في ذلك قوله تعالى)وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين(.
وجملة)وما أدراك ما الحاقة(يجوز أن تكون معترضة بين جملة) ما الحاقة(وجملة)كذبت ثمود وعاد بالقارعة(، والواو اعتراضية.

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة)ما الحاقة(.
و)ما(الثانية استفهامية، والاستفهام بها مكنى به عن تعذر إحاطة علم الناس بكنه الحاقة لأن الشيء الخارج عن الحد المألوف لا يتصور بسهولة فمن شأنه أن يتساءل عن فهمه.
والخطاب في قوله)وما أدراك(لغير معين. والمعنى: الحاقة أمر عظيم لا تدركون كنهه.

صفحة : 4537

وتركيب)ما أدراك(كذا مما جرى مجرى المثل فلا يغير عن هذا اللفظ وهو تركيب مركب من)ما(الاستفهامية وفعل)أدرى(الذي يتعدى بهمزة التعدية إلى ثلاثة مفاعيل من باب أعلم وأرى، فصار فاعل فعله المجرد وهو)درى(مفعولا أول بسبب التعدية. وقد علق فعل)أدراك(عن نصب مفعولين ب)ما(الاستفهامية الثانية في قوله)ما الحاقة(. وصل الكلام قبل التركيب بالاستفهام أن تقول: أدركت الحاقة أمرا عظيما، ثم صار أدركني فلان الحاقة أمرا عظيما.
و)ما(الأولى استفهامية مستعملة في التهويل والتعظيم على طريقة المجاز المرسل في الحرف، لأن الأمر العظيم من شأنه أن يستفهم عنه فصار التعظيم والاستفهام متلازمين. ولك أن تجعل الاستفهام إنكاريا، أي لا يدري أحد كنه هذا الأمر.
والمقصود من ذلك على كلا الاعتبارين هو التهويل.
هذا السؤال كما تقول: علمت هل يسافر فلان.
و)ما(الثالثة علقت فعل)أدراك(عن العمل في مفعولين.
وكاف الخطاب فيه خطاب لغير معين فلذلك لا يقترن بضمير تثنية أو جمع أو تأنيث إذا خوطب به غير المفرد المذكر.
واستعمال)ما أدراك(غير استعمال)ما يدريك(في قوله تعالى)وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا(وقوله)وما يدريك لعل الساعة قريب(في سورة الشورى.
روي عن ابن عباس كل شيء من القرآن من قوله)ما أدراك(فقد أدراه وكل شيء من قوله)وما يدريك(فقد طوي عنه . وقد روي هذا أيضا عن سفيان ابن عيينة وعن يحيى بن سلام فإن صح هذا المروي فإن مرادهم أن مفعول)ما أدراك(محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للتهويل وإن مفعول)ما يدريك(غير محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للإنكار وهو في معنى نفي الدراية.
وقال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن من قوله)وما أدراك(فقد عقب ببيانه نحو)وما أدراك ما هي نار حامية(،)وما

أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر(،)وما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا(،)وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة(. وكأنه يريد تفسير ما نقل عن ابن عباس وغيره.

ولم أرى من اللغويين من وفى هذا التركيب حقه من البيان وبعضه لم يذكره أصلا.

)كذبت ثمود وعاد بالقارعة[4](إن جعلت قوله)وما أدراك ما الحاقة(نهاية كلام فموقع قوله)كذبت ثمود وعاد بالقارعة(وما اتصل به استئناف، وهو تذكير لما حل بثمود وعاد لتكذيبهم بالبعث والجزاء تعريضا بالمشركين من أهل مكة بتهديدهم أن يحق عليه مثل ما حل بثمود وعاد فإنهم سواء في التكذيب بالبعث وعلى هذا يكون قوله)الحاقة(الخ توطئة له وتمهيدا لهذه الموعظة العظيمة استرهابا لنفوس السامعين.

وإن جعلت الكلام متصلا بجملة)كذبت ثمود وعاد بالقارعة(وعينت لفظ)الحاقة(يوم القيامة وكانت هذه الجملة خبرا ثالثا عن) الحاقة(.

والمعنى: الحاقة كذبت بها ثمود وعاد، فكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير)الحاقة(فيقال: كذبت ثمود وعاد بها، فعدل إلى إظهار اسم)القارعة(لأن)القارعة(مرادفة)الحاقة(في أحد محملي لفظ) الحاقة(وهذا كالبيان للتهويل الذي في قوله)وما أدراك ما الحاقة(.

و)القارعة(مراد منها ما أريد ب)الحاقة(.

وابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهما أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة لأنهما من الأمم العربية ولأن ديارهما مجاورة شمالا وجنوبا.

والقارعة: اسم فاعل من قرعه، إذا ضربه ضربا قويا، يقال: قرع البعير. وقالوا: العبد يقرع بالعصا، وسميت المواعظ التي تنكسر لها النفس قوارع لما فيها من زجر الناس عن أعمال. وفي المقامة الأولى ويقرع الأسماع بزواجر وعظة ، ويقال للتوبيخ تقريع، وفي المثل لا تقرع له العصا ولا يقلقل له الحصى ، ومورده بعامر بن الضرب العدواني في قصة أشار إليها المتلمس في بيت.

ف)القارعة(هنا صفة لموصوف محذوف يقدر لفظه مؤنثا ليوافق وصفه المذكور نحو الساعة أو القيامة. القارعة: أي التي تصيب الناس بالأهوال والأفزاع، أو التي تصيب الموجودات بالقرع مثل دك الحبال، وخسف الأرض، وطمس النجوم، وكسوف الشمس كسوفا لا انجلاء له فشبه ذلك بالقرع.

ووصف الساعة أو القيامة بذلك مجاز عقلي من إسناد الوصف إلى غير ما هو له بتأول لملابسته ما هو له إذ هي زمان القرع قال تعالى)القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث(الآية. وهي ما سيأتي بيانها في قوله)فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة(الآيات.

وجيء في الخبر عن هاتين الآيتين بطريقة اللف والنشر لأنهما اجتمعا في موجب العقوبة ثم فصل ذكر عذابهما.

)فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية[5](ابتدئ بذكر ثمود لأن العذاب الذي أصابهم من قبيل القرع إذ أصابتهم الصواعق المسماة في بعض الآيات بالصيحة. والطاغية: الصاعقة في قول ابن عباس وقتادة: نزلت عليهم صاعقة أو صواعق فأهلكتهم، ولأن منازل ثمود كانت في طريق أهل مكة إلى الشام في رحلتهم فهم يرونها، قال تعالى)فتلك بيوتهم خالية بما ظلموا(، ولأن الكلام على مهلك عاد أنسب فأخر لذلك أيضا.

وإنما سميت الصاعقة أو الصيحة بالطاغية لأنها كانت متجاوزة الحال المتعارف في الشدة فشبه فعلها بفعل الطاغي المتجاوز الحد في العدوان والبطش.

والباء في قول)بالطاغية(للاستعانة.

وثمود: أمة من العرب البائدة العاربة، وهم أنساب عاد. وثمود: اسم جد تلك الأمة ولكن غلب إلى الأمة فلذلك منع من الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار الأمة أو القبيلة.

وتقدم ذكر ثمود عند قوله تعالى)وإلى ثمود أخاهم صالحا(في سورة الأعراف.

)ولأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية[6] سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[7](الصرصر: الشديدة يكون لها صوت كالصرير وقد تقدم عند قوله تعالى)فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات(في سورة فصلت. والعاتية: الشديدة العصف، وأصل العتو والعتي: شدة التكبر فاستعير للشيء المتجاوز الحد المعتاد تشبيها بالتكبر الشديد في عدم الطاعة والجري على المعتاد.

والتسخير: الغصب على عمل واستعير لتكوين الريح الصرصر تكوينا متجاوزا المتعارف في قوة جنسها فكأنها مكرهة عليه.

وعلق به)عليهم(لأنه ضمن معنى أرسلها.

و)حسوما(يجوز أن يكون جمع حاسم مثل قعود جمع قاعد، وشهود جمع شاهد، غلب فيه الأيام على الليالي لأنها أكثر عددا إذ هي

ثمانية أيام وهذا له معان: أحدهما أن يكون المعنى: يتابع بعضها بعضا، أي لا فصل بينها كما يقال: صيام شهرين متتابعين، وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

ففرق بين بينهم زمان تتابع فيه

أعوام حسوم قيل: والحسوم مشتق من حسم الداء بالمكواة إذ يكوى ويتابع الكي أياما، فيكون إطلاقه استعارة، ولعلها من مبتكرات القرآن، وبيت عبد العزيز الكلابي من الشعر الإسلامي فهو متابع لاستعمال القرآن.

والمعنى الثاني: أن يكون من الحسم وهو القطع، أي حاسمة مستأصلة. ومنه سمي السيف حساما لأنه يقطع، أي حسمتهم فلم تبق منهم أحدا. وعلى هذين المعنيين فهو صفة ل)سبع ليال وثمانية أيام(أو حال منها.

والمعنى الثالث: أن يكون حسوم مصدرا كالشكور والدخول فينتصب على المفعول لأجله وعامله)سخرها(، أي سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم.

وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه.

وقد سمي أصحاب الميقات من المسلمين أياما ثمانية منصفة بين أواخر فبراير وأوائل مارس معروفة في عادة نظام الجو بأن تشتد فيها الرياح غالبا، أيام الحسوم على وجه التشبيه، وزعموا أنها تقابل أمثالها من العام الذي أصيبت فيه عاد بالرياح، وهو من الأوهام، ومن ذا الذي رصد تلك الأيام.

ومن أهل اللغة من زعم أن أيام الحسوم هي الأيام التي يقال لها: أيام العجوز أو العجز، وهي آخر فصل الشتاء ويعدها العرب خمسا أو سبعة لها أسماء معروفة مجموعة في أبيات تذكر في كتب اللغة، وشتان بينها وبين حسوم عاد في العدة والمدة.

وفرع على)سخرها عليهم(أنهم صاروا صرعى كلهم يراهم الرائي لو كان حاضرا تلك الحالة.

صفحة : 4539

والخطاب في قوله)فترى(خطاب لغير معين، أي فيرى الرائي لو كان راء، وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة ويتخيل في المقام سامع حاضر شاهد مهلكهم أو شاهدهم بعده، وكلا المشاهدتين منتف في هذه الآية، فيعتبر خطابا فرضيا فليس هو بالتفات ولا هو من خطاب غير

المعين، وقريب منه قوله تعالى)وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل(، وقوله)وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا(، وعلى دقة هذا الاستعمال أهمل المفسرون التعرض له عدا كلمة للبيضاوي.

والتعريف في)القوم(للعهد الذكري، والقوم: القبيلة، وهذا تصوير لهلاك جميع القبيلة.

وضمير)فيها(عائد إلى الليالي والأيام.

وصرعى: جمع صريع وهو الملقى على الأرض ميتا وشبهوا بأعجاز نخل، أي أصول النخل، وعجز النخلة: هو الساق التي تتصل بالأرض من النخلة وهو أغلظ النخلة وأشدها.

ووجه التشبيه بها أن الذين يقطعون النخل إذا قطعوه للانتفاع بأعواده في إقامة البيوت للسقف والعضادات انتقوا منه أصوله لأنها أغلظ وأملأ وتركوها على الأرض حتى تيبس وتزول رطوبتها ثم يجعلوها عمدا وأساطين.

والنخل: اسم جمع نخلة.

والخاوي: الخالي مما كان مالئا له وحالا فيه.

وقوله)خاوية(مجرور باتفاق القراء، فتعين أن يكون صفة)نخل(.

ووصف)نخل(بأنها)خاوية(باعتبار إطلاق اسم)النخل(على مكانه بتأويل الجنة أو الحديقة، ففيه استخدام. والمعنى: خالية من الناس. وهذا الوصف لتشويه المشبه به بتشويه مكانه، ولا أثر له في المشابهة وأحسنه ما كان فيه مناسبة للغرض من التشبيه كما في الآية فإن لهذا الوصف وقعا في التنفير من حالتهم ليناسب الموعظة والتحذير من الوقوع في مثل أسبابها، ومنه قول كعب بن زهير:

لذاك أهيب عندي إذ أكـلـمـه وقيل إنك منسوب ومـس}ول

من خادر من ليوث الأسد مسكنه من بطن عثر غيل دونه غـيل الأبيات الأربعة، وقول عنترة:

فتركته جزر السباع ينشنـه يقضمن حسن بنانه والمعصم)فهل ترى لهم من باقية[8](تفريع على مجموع قصتي ثمود وعاد، فهو فذلكه لما فصل من حال إهلاكهما، وذلك من قبيل الجمع بعد التفريق، فيكون في أول الآية جمع ثم تفريق ثم جمع وهو كقوله تعالى)وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى(، أي فما أبقاهما.

والخطاب لغير معين والباقية: إما اسم فاعل على بابه، والهاء: إما للتأنيث بتأويل نفس، أي فما ترى منهم نفس باقية أو بتأويل فرقة، أي ما ترى فرقة منهم باقية.

ويجوز أن تكون)باقية(مصدرا على وزن فاعلة مثل ما تقدم في الحاقة، أي فما ترى لهم بقاء، أي هلكوا عن بكرة أبيهم.

واللام في قوله)لهم(يجوز أن تجعل لشبه الملك، أي باقية لأجل النفع. ويجوز أن يكون اللام بمعنى)من(مثل قولهم: سمعت له صراخا، وقول الأعشى:

نسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت

كما استعان بريح عشرق زجل وقول جرير:

ونحن لكم يوم القيامة أفضل أي ونحن منكم أفضل.

ويجوز أن تكون اللام التي تنوى في الإضافة إذا لم تكن الإضافة على معنى)من(. والأصل: فهل ترى باقيتهم، فلما قصد التنصيص على عموم النفي واقتضى ذلك جلب)من(الزائدة لزم تنكير مدخول)من(الزائدة فأعطي حق معنى الإضافة بإظهار اللام التي الشأن أن تنوى كما في قوله تعالى)بعثنا عليكم عبادا لنا(فإن أصله عبادنا.

)وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة[9] فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية[10](عطف على جملة)كذبت ثمود وعاد بالقارعة(.

وجمع في الذكر هنا أمم تقدمت قبل بعثة موسى عليه السلام إجمالا وتصريحا، وخص منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكرا عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم.

وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربهم فحصل في الكلام احتباك.

والمراد بفرعون فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام وهو منفطاح الثاني . وإنما أسند الخطء إليه لأن موسى أرسل إليه ليطلق بني إسرائيل من العبودية قال تعالى)اذهب إلى فرعون إنه طغى(فهو المؤاخذ بهذا العصيان وتبعه القبط امتثالا لأمره وكذبوا موسى وأعرضوا عن دعوته.

وشمل قوله)ومن قبله(أمما كثيرة منها قوم نوح وقوم إبراهيم.

وقرأ الجمهور)ومن قبله(بفتح القاف وسكون الباء. وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر القاف وفتح الباء، أي ومن كان من جهته، أي قومه وأتباعه.

والمؤتفكات: قرى قوم لوط الثلاث، وأريد بالمؤتفكات سكانها وهم قوم لوط خصوا بالذكر لشهرة جريمتهم ولكونهم كانوا مشهورين عند العرب إذ كانت قراهم في طريقهم إلى الشام، قال تعالى)

وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون(وقال)ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرنها(.
ووصفت قرى قوم لوط ب)المؤتفكات(جمع مؤتفكة اسم فاعل أئتفك مطاوع أفكه، إذا قلبه، فهي المنقلبات، أي قلبها قالب أي خسف بها قال تعالى)فجعلنا عاليها سافلها(.
والخاطئة: أما مصدر بوزن فاعلة وهاؤه هاء المرة الواحدة فلما استعمل مصدرا قطع النظر عن المرة، كما تقدم في قوله)الحاقة(وهو مصدر خطئ، إذا أذنب. والذنب: الخطء بكسر الخاء، وأما اسم فاعل خطئ وتأنيثه بتأويل: الفعلة ذات الخطء فهاؤه هاء التأنيث.
والتعريف في تعريف الجنس على كلا الوجهين، فالمعنى: جاء كل منهم بالذنب المستحق للعقاب. وفرع عنهم تفصيل ذنبهم المعبر عنه بالخاطئة فقال)فعصوا رسول ربهم(وهذا التفريع للتفصيل نظير التفريع في قوله)كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا وازدجر(في أنه تفريع بيان على المبين.
وضمير)عصوا(يجوز أن يرجع إلى)فرعون(باعتباره رأس قومه، فالضمير عائد إليه وإلى قومه، والقرينة ظاهرة على قراءة الجمهور، وأما على قراءة أبي عمرو والكسائي فالأمر أظهر وعلى هذا الاعتبار في محل ضمير)عصوا(يكون المراد ب)رسول ربهم(موسى عليه السلام. وتعريفه بالإضافة لما في لفظ المضاف إليه من الإشارة إلى تخطئتهم في عبادة فرعون وجعلهم إياله إلها لهم.
ويجوز أن يرجع ضمير)عصوا(إلى)فرعون ومن قبله والمؤتفكات(.
و)رسول ربهم(هو الرسول المرسل إلى كل قوم من هؤلاء.
فإفراد)رسول(مراد به التوزيع على الجماعات، أي رسول الله لكل جماعة منهم، والقرينة ظاهرة، وهو أجمل نظما من أن يقال: فعصوا رسل ربهم، لما في إفراد)رسول(من التفنن في صيغ الكلم من جمع وإفراد تفاديا مع تتابع ثلاثة جموع لأن صيغ الجمع لا تخلوا من ثقل لقلة استعمالها وعكسه قوله في سورة الفرقان)وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم(، وإنما كذبوا رسولا واحدا، وقوله) كذبت قوم نوح المرسلين(وما بعده في سورة الشعراء، وقد تقدم تأويل ذلك في موضعه.
والأخذ: مستعمل في الإهلاك، وقد تقدم عند قوله تعالى)أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون(في سورة الأنعام وفي مواضع أخرى.
و)أخذة(: واحدة من الأخذ، فيراد بها أخذ فرعون وقومه بالغرق، كما قال تعالى)فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر(، وإذا أعيد ضمير الغائب إلى)فرعون ومن قبله والمؤتفكات(كان إفراد الآخذة كإفراد)رسول ربهم(، أي أخذنا كل أمة منهم أخذة.

والرابية: اسم فاعل من ربا يربو إذا زاد فلما صيغ منه وزن فاعلة، قلبت الواو ياء لوقوعها متحركة أثر كسرة.
واستعير الربو هنا للشدة كما تستعار الكثرة للشدة في نحو قوله تعالى)وادعوا ثبورا كثيرا(.
والمراد بالآخذة الرابية: إهلاك الاستئصال، أي ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم.
)إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية[11] لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية[12](إن قوله تعالى)ومن قبله(لما شمل قوم نوح وهم أول الأمم كذبوا الرسل حسن اقتضاب التذكير بأخذهم لما فيه من إدماج امتنان على جميع الناس الذين تناسلوا من الفئة الذين نجاهم الله من الغرق ليتخلص من كونه عظة وعبرة إلى التذكير بأنه نعمة، وهذا من قبيل الإدماج.

وقد بني على شهرة مهلك قوم نوح اعتباره كالمذكور في الكلام فجعل شرطا ل)لما(في قوله)إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية(، أي في ذلك الوقت المعروف بطغيان الطوفان.
والطغيان: مستعار لشدته الخارقة للعادة تشبيها لها بطغيان الطاغي على الناس تشبيه تقريب فإن الطوفان أقوى شدة من طغيان الطاغي.
والجارية صفة لمحذوف وهو السفينة وقد شاع هذا الوصف حتى صار بمنزلة الاسم قال تعالى)وله الجوار المنشئات في البحر(.
وأصل الحمل وضع جسم فوق جسم لنقله، وأطلق هنا على الوضع في ظرف متنقل على وجه الاستعارة.
وإسناد الحمل إلى اسم الجلالة مجاز عقلي بناء على أنه أوحى إلى نوح بصنع الحاملة ووضع المحمول قال تعالى)فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين(الآية.
وذكر إحدى الحكم والعلل لهذا الحمل وهي حكمة تذكير البشر به على تعاقب الإعصار ليكون لهم باعثا على الشكر، وعظة لهم من أسواء الكفر، وليخبر بها من علمها قوما لم يعلموها فتعيها أسماعهم.
والمراد بإذن: آذان واعية. وعموم النكرة في سياق الإثبات لا يستفاد إلا بقرينة التعميم كقوله تعالى)ولتنظر نفس ما قدمت لغد(.

والوعي: العلم بالمسموعات، أي ولتعلم خبرها إذن موصوفة بالوعي، أي من شأنها أن تعي.
وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يتعظوا بخبر الطوفان والسفينة التي نجا بها المؤمنون فتلقوه كما يتلقون القصص الفكاهية.
)فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة[13] وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة[14] فيومئذ وقعت الواقعة[15] وانشقت السماء فهي يومئذ واهية[16] والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية[17] يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية[18](الفاء لتفريع ما بعدها على التهويل الذي صدرت به السورة من قوله) الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة(فعلم أنه تهويل لأمر العذاب الذي هدد به المشركون من أمثال ما نال أمثالهم في الدنيا. ومن عذاب الآخرة الذي ينتظرهم، فلما أتم تهديدهم بعذاب الدنيا فرع عليه إنذارهم بعذاب الآخرة الذي يحل عند القارعة التي كذبوا بها كما كذبت بها ثمود وعاد، فحصل من هذا بيان للقارعة بأنها ساعة البعث وهي الواقعة.
والصور: قرن ثور يقعر ويجعل في داخله سداد يسد بعض فراغه حتى إذا نفخ فيه نافخ انضغط الهواء فصوت صوتا قويا، وكانت الجنود تتخذه لنداء بعضهم بعضا عند إرادة النفير أو الهجوم، وتقدم عند قوله تعالى)وله الملك يوم ينفخ في الصور(في سورة الأنعام.
والنفخ في الصور: عبارة عن أمر التكوين بإحياء الأجساد للبعث مثل الإحياء بنداء طائفة الجند المكلفة بالأبواق لنداء بقية الجيش حيث لا يتأخر جندي عن الحضور إلى موضع المناداة، وقد يكون للملك الموكل موجود يصوت صوتا مؤثرا.
و)نفخة(: مصدر نفخ مقترن بهاء دالة على المرة، أي الوحدة فهو في الأصل مفعول مطلق، أو تقع على النيابة عن الفاعل للعلم بأن فاعل النفخ الملك الموكل بالنفخ بالصور وهو إسرافيل.
ووصف)نفخة(ب)واحدة(تأكيد لإفادة الوحدة من صيغة الفعلة تنصيصا على الوحدة المفادة من التاء.
والتنصيص على هذا للتنبيه على التعجيب من تأثر جميع الأجساد البشرية بنفخة واحدة دون تكرير تعجيبا عن عظيم قدرة الله ونفوذ أمره لأن سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل يوم القيامة فتعداد أهواله مقصود، ولأجل القصد إليه هنا لم يذكر وصف واحدة في قوله تعالى)ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون(في سورة الروم.
فحصل في ذكر)نفخة واحدة(تأكيد معنى النفخ وتأكيد معنى الوحدة، وهذا يبين ما روي عن صاحب الكشاف في تقريره بلفظ مجمل نقله الطيبي، فليس المراد بوصفها ب)واحدة(أنها غير متبعة

بثانية فقد جاء في آيات أخرى أنهما نفختان، بل المراد أنها غير محتاج حصول المراد منها إلى تكررها كناية عن سرعة وقوع الواقعة، أي يوم الواقعة.

صفحة : 4542

وأما ذكر كلمة)نفخة(فليتأتى إجراء وصف الوحدة عليها فذكر)نفخة(تبع غير مسوق له الكلام فتكون هذه النفخة هي الأولى وهي المؤذنة بانقراض الدنيا ثم تقع النفخة الثانية التي تكون عند بعث الأموات.
وجملة)وحملت الأرض والجبال(الخ في موضع الحال لأن دك الأرض والجبال قد يحصل قبل النفخ في الصور لأن به فناء الدنيا.
ومعنى)حملت(: أنها أزلت من أماكنها بأن أبعدت الأرض بجبالها عن مدارها المعتاد فارتطمت بأجرام أخرى في الفضاء)فدكتا(، فشبهت هذه الحالة بحمل الحامل شيئا ليلقيه على الأرض، مثل حمل الكرة بين اللاعبين، ويجوز أن يكون تصرف الملائكة الموكلين بنقض نظام العالم في الكرة الأرضية بإبعادها عن مدارها مشبها بالحمل وذلك كله عند اختلال الجاذبية التي جعلها الله لفظ نظام العالم إلى أمد معلوم لله تعالى.
والدك: دق شديد يكسر الشيء المدقوق، أي فإذا فرقت أجزاء الأرض وأجزاء جبالها.
وبنيت لأفعال نفخت، وحملت، ودكتا للمجهول لأن الغرض متعلق ببيان المفعول لا الفاعل وفاعل تلك الأفعال إما الملائكة أو ما أودعه الله من أسباب تلك الأفعال، والكل بإذن الله وقدرته.
وجملة)فيومئذ وقعت الواقعة(مشتملة على جواب)إذا(، أعني قوله)وقعت الواقعة(، وأما قوله)فيومئذ(فهو تأكيد لمعنى)فإذا نفخ في الصور(الخ لأن تنوين يومئذ عوض عن جملة تدل عليها جملة)نفخ في الصور(إلى قوله)دكة واحدة(، أي فيوم إذ نفخ في الصور إلى آخره وقعت الواقعة وهو تأكيد لفظي بمرادف المؤكد، فإن المراد ب)يوم(من قوله)فيومئذ وقعت الواقعة(، مطلق الزمان كما هو الغالب في وقوعه مضافا إلى)إذا(.
ومعنى)وقعت الواقعة(تحقق ما كان متوقعا وقوعه لأنهم كانوا يتوعدون بواقعة عظيمة فيومئذ يتحقق ما كانوا يتوعدون به.
فعبر عنه بفعل المضي تنبيها على تحقيق حصوله.
والمعنى: فحينئذ تقع الواقعة.

والواقعة: مرادفة للحاقة والقارعة، فذكرها إظهار في مقام الإضمار لزيادة التهويل وإفادة ما تحتوي عليه من الأحوال التي تنبئ عنها موارد اشتقاق أوصاف الحاقة والقارعة والواقعة.
و)الواقعة(صار علما بالغلبة في اصطلاح القرآن يوم البعث قال تعالى)إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة(.
وفعل)انشقت السماء(يجوز أن يكون معطوفا على جملة)نفخ في الصور(فيكون ملحقا بشرط)إذا(، وتأخير عطفه لأجل ما اتصل بهذا الانشقاق من وصف الملائكة المحيطين بها، ومن ذكر العرش الذي يحيط بالسماوات والأرض وذكر حملته.
ويجوز أن يكون جملة في موضع الحال بتقدير: وقد انشقت السماء.
وانشقاق السماء: مطاوعتها لفعل الشق، والشق: فتح منافذ في محيطها، قال تعالى)ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملم يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا(.
ثم يحتمل أنه غير الذي في قوله تعالى)فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان(ويحتمل أنه عينه.
وحقيقة)واهية(ضعيفة ومتفرقة، ويستعار الوهي للسهولة وعدم الممانعة، يقال: وهي عزمه، إذا تسامح وتساهل، وفي المثل أوهى من بيت العنكبوت يضرب لعدم نهوض الحجة.
وتقييده)يومئذ(أن الوهي طرأ عليها بعد أن كانت صلبة بتماسك أجزاءها وهو المعبر عنه في القرآن بالرتق كما عبر عن الشق بالفتق، أي فهي يومئذ مطروقة مسلوكة.
والوهي قريب من الوهن، والأكثر أن الوهي يوصف به الأشياء غير العاقلة، والوهن يوصف به الناس.
والمعنى: أن الملائكة يترددون إليها صعودا ونزولا خلافا لحالها من قبل، قال تعالى)فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان(.
وجملة)والملك على أرجائها(، حال من ضمير فهي، أي يومئذ الملك على أرجائها.
والملك: أصله الواحد من الملائكة، وتعريفه هنا تعريف الجنس وهو في معنى الجمع، أي جماعة من الملائكة أو جميع من الملائكة إذا أريد الاستغراق، واستغراق المفرد أصرح في الدلالة على الشمول، ولذلك قال ابن عباس: الكتاب أكثر من الكتب، ومنه)رب إني وهن العظم مني(.
وضمير)أرجائها(عائد إلى)السماء(.
والمعنى: أن الملائكة يعملون في نواحي السماء ينفذون إنزال أهل الجنة بالجنة وسوق أهل النار إلى النار.

وعرش الرب: اسم لما يحيط بالسماوات وهو أعظم من السماوات.

صفحة : 4543

والمراد بالثمانية الذين يحملون العرش: ثمانية من الملائكة، فقيل: ثمانية شخوص، وقيل: ثمانية صفوف، وقيل ثمانية أعشار، أي نحو ثمانين من مجموع عدد الملائكة، وقيل غير ذلك. وهذا من أحوال الغيب التي لا يتعلق الغرض بتفصيلها، إذ المقصود من الآية تمثيل عظمة الله تعالى وتقريب ذلك إلى الأفهام كما قال في غير آية.

ولعل المقصود بالإشارة إلى ما زاد على الموعظة، هو تعليم الله نبيه صلى الله عليه وسلم شيئا من تلك الأحوال بطريقة رمزية يفتح عليه بفهم تفصيلها ولم يرد تشغيلنا بعلمها.

وكأن الداعي إلى ذكرهم إجمالا هو الانتقال إلى الأخبار عن عرش الله لئلا يكون ذكره اقتضابا بعد ذكر الملائكة.

وروى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا ذكر فيه أبعاد ما بين السماوات، وفي ذكر جملة لعرش رموز ساقها الترمذي مساق التفسير لهذه الآية، وأحد رواته عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس قال البخاري: لا نعلم له سماعا عن الأحنف.

وهنالك أخبار غير حديث العباس لا يعبأ بها، وقال ابن العربي فيها: إنها متلفقات من أهل الكتاب أو من شعر لأمية بن أبي الصلت، ولم يصح أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد بين يديه فصدقه. اه.

وضمير)فوقهم(يعود إلى الملك.

ويتعلق)فوقهم(ب)يحمل عرش ربك(وهو تأكيد لما دل عليه يحمل من كون العرش عاليا فهو بمنزلة القيدين في قوله)وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه(.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وإضافة عرش إلى الله إضافة تشريف مثل إضافة الكعبة إليه في قوله)وطهر بيتي للطائفين(الآية، والله منزه من الجلوس على العرش وعن السكنى في بيت.

والخطاب في قوله)تعرضون(لجميع الناس بقرينة المقام وما بعد ذلك من التفصيل.

والعرض: أصله إمرار الأشياء على من يريد التأمل منها مثل عرض السلعة على المشتري وعرض الجيش على أميره وأطلق هنا كناية عن لازمه وهو المحاسبة مع جواز إرادة المعنى الصريح.

ومعنى)لا تخفى منكم خافية (: لا تخفى على الله ولا على ملائكته.وتأنيث)خافية (لأنه وصف لموصوف مؤنث يقدر بالفعلة من أفعال العباد، أو يقدر بنفس،أي لا تختبئ من الحساب نفس أي أحد، ولا يلتبس كافر بمؤمن، ولا بار بفاجر.

وجملة)يومئذ تعرضون (مستأنفة، أو هي بيان لجملة)فيومئذ وقعت الواقعة (، أو بدل اشتمال منها.

و)منكم(صفة ل)خافية(قدمت علية فتكون حالا.

وتكرير)يومئذ(أربع مرات لتهويل ذلك اليوم الذي مبدؤه النفخ في الصور ثم يعقبه ما بعده مما ذكر في الجمل بعده، فقد جرى ذكر ذلك اليوم خمس مرات لأن)فيومئذ وقعت الواقعة(تكرير ل)إذا(من قوله)فإذا نفخ في الصور(إذ تقدير المضاف إليه في)يومئذ(هو مدلول جملة)فإذا نفخ في الصور(، فقد ذكر زمان النفخ أولا وتكرر ذكره بعد ذلك أربع مرات.

وقرأ الجمهور)لا تخفى(بمثناة فوقية. وقرأه حمزة والكسائي وخلف بالتحتية لأن تأنيث خافية غير حقيقي، مع وقوع الفصل بين الفعل وفاعله.

)فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه[19] إني ظننت أني ملاق حسابيه[20] فهو في عيشة راضية[21] في جنة عالية[22] قطوفها دانية[23] كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية[24](الفاء تفصيل ما يتضمنه)تعرضون(إذ العرض عرض للحساب والجزاء فإيتاء الكتاب هو إيقاف كل واحد على صحيفة أعماله. و)أما(حرف تفصيل وشرط وهو يفيد مفاد مهما يكن من شيء ، والمعنى: مهما يكن عرض)فمن أوتي كتابه بيمينه فهو في عيشة راضية(، وشأن الفاء الرابطة لجوابها أن يفصل بينها وبين) أما(بجزء من جملة الجواب أو بشيء من متعلقات الجواب مهتم به لأنهم لما التزموا حذف فعل الشرط لاندماجه في مدلول) أما(كرهوا اتصال فاء الجواب بأداة الشرط ففصلوا بينهما بفاصل تحسينا لصورة الكلام، فقوله)من أوتي كتابه بيمينه(أصله صدر جملة الجواب، وهو مبتدأ خبره)فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه(كما سيأتي.

صفحة : 4544

ودل قوله)فأما ما أوتي كتابه بيمينه(على كلام محذوف للإيجاز تقديره فيؤتى كل أحد كتاب أعماله، فأما من أوتي كتابه الخ على طريقة قوله تعالى)أن اضرب بعصاك البحر فانفلق(.

والباء في قوله)بيمينه(للمصاحبة أو بمعنى)في(.
وإيتاء الكتاب باليمين علامة على أنه إيتاء كرامة وتبشير، والعرب يذكرون التناول باليمين كناية عن الاهتمام بالمأخوذ والاعتزاز به، قال الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمـين

وقال تعالى)وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود(الآية ثم قال)وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم(الآية.

وجملة)فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه(جواب شرط)أما(وهو مغني عن خبر المبتدأ، وهذا القول قول ذي بهجة وحبور يبعثان على اطلاع الناس على ما في كتاب أعماله من جزاء في مقام الاغتباط والفخار، ففيه كناية عن كونه من حبور ونعيم فإن المعنى الكنائي هو الغرض الأهم من ذكر العرض.

و)هاؤم(مركب من هاء ممدودة ومقصورة والممدود مبني على فتح الهمزة إذا تجرد عن علامات الخطاب ما عدا الموجه إلى امرأة فهو بكسر الهمزة دون ياء. وإذا خوطب به أكثر من واحد التزم مدة ليتأنى الحاق علامة خطاب كالعلامة التي تلحق ضمير المخاطب وضموا همزته ضمة كضمة ضمير الخطاب إذ لحقته علامة التثنية والجمع، فيقال: هاؤما، كما يقال: أنتما، وهاؤم كما يقال: أنتم وهاؤن كما يقال: أنتن، ومن أهل اللغة من ادعى أن)هاؤم(أصله: ها أموا مركبا من كلمتين)ها(وفعل أمر للجماعة من فعل أم، إذا قصد، ثم خفف لكثرة الاستعمال، ولا يصح لأنه لم يسمع هاؤمين في خطاب جماعة النساء، وفيه لغات أخرى واستعمالات في اتصال كاف الخطاب به تقصاها الرضي في شرح الكافية وابن مكرم في لسان العرب.

و)هاؤم(بتصاريفه معتبر اسم فعل أمر بمعنى: خذ كما في الكشاف وبمعنى تعال، أيضا كما في النهاية.

والخطاب في قوله)هاؤم اقرأوا(للصالحين من أهل المحشر.

و)كتابيه(أصله: كتابي بتحريك ياء المتكلم على أحد وجوه في ياء المتكلم إذا وقعت مضافا إليها وهو تحريك أحسب أنه يقصد به إظهار إضافة المضاف إلى تلك الياء للوقوف، محافظة على حركة الياء المقصود اجتلابها.

و)اقرأوا(بيان للمقصود من اسم الفعل من قوله)هاؤم(.

وقد تنازع كل من)هاؤم(و)اقرأوا(قوله)كتابيه(. والتقدير: هاؤم كتابيه اقرأوا كتابيه ونظائرها للسكت حين الوقت.

وحق هذه الهاء أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل. وقد أثبتت في هذه الآية في الحالين عند جمهور القراء وكتبت في

المصاحف، فعلم أنها للتعبير عن الكلام المحكي بلغة ذلك القائل بما يرادفه في الاستعمال العربي لأن الاستعمال أن يأتي القائل بهذه الياء بالوقف على كلتا الجملتين.

ولأن هذه الكلمات وقعت فواصل والفواصل مثل الأسجاع تتبر بحالة الوقف مثل القوافي، فلو قيل: اقرأوا كتابي إني ظننت أني ملاق حسابي، سقطت فاصلتان وذلك تفريط في محسنين.

وقرأها يعقوب ذا وصلها بحذف الهاء والقراء يستحبون أن يقف عليها القارئ ليوافق مشهور رسم المصحف ولئلا يذهب حسن السجع.

وأطلق الظن في قوله)إني ظننت أني ملاق حسابيه(، على معنى اليقين وهو أحد معنييه. وعن الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك.

وحقيقة الظن: علم لم يتحقق؛ إما لأن المعلوم به لم يقع بعد ولم يخرج إلى عالم الحس، وإما لأن علم صاحبه مخلوط بشك. وبهذا يكون إطلاق الظن على المعلوم المتيقن إطلاقا حقيقيا. وعلى هذا جرى الأزهري في التهذيب وأبو عمرو واقتصر على هذا المعنى ابن عطية.

وكلام الكشاف يدل على أن أصل الظن: علم غير متيقن ولكنه قد يجري مجرى العلم لآن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، وقال: يقال: أظن ظنا كاليقين أن الأمر كيت وكيت، فهو عنده إذا أطلق على اليقين كان مجازا. وهذا أيضا رأي الجوهري وابن سيده والفيروز ابادي، وأما قوله تعالى)إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين(فلا دلالة فيه لأن تنكير)ظنا(أريد به التقليل، وأكد ب)ما نحن بمستيقنين(فاحتمل الاحتمالين، وقد تقدم عند قوله تعالى)وإنا لنظنك من الكاذبين(في سورة الأعراف وقوله)وظنوا أن ل ملجأ من الله إلا إليه(في سورة براءة.

صفحة : 4545

والمعنى: إني علمت في الدنيا أني ألقي الحساب، أي آمنت بالبعث. وهذا الخبر مستعمل كناية عن استعداده للحساب بتقديم الإيمان والأعمال الصالحة مما كان سبب سعادته.

وجملة)إني ظننت أني ملاق حسابيه(في موقع التعليل للفرح والبهجة التي دل عليها قوله)هاؤم اقرأوا كتابيه(وبذلك يكون حرف)إن(لمجرد الاهتمام وإفادة التسبب.

وموقع)فهو في عيشة راضية(موقع التفريع على ما تقدم من إيتائه كتابه بيمينه وما كان لذلك من أثر المسرة والكرامة في الحشر، فتكون الفاء لتفريع ذكر هذه الجملة على ذكر ما قبلها. ولك أن تجعلها بدل اشتمال من جملة)فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه(فإن ذلك القول اشتمل على أن قائله في نعيم كما تقدم وإعادة الفاء مع الجملة من إعادة العامل في المبدل منه مع البدل للتأكيد كقوله تعالى)تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا(.

والعيشة: حالة العيش وهيئته.

ووصف)عيشة(ب)راضية(مجاز عقلي لملابسة العيشة حالة صاحبها وهو العائش ملابسة الصفة لموصوفها.

والراضي: هو صاحب العيشة لا العيشة، لأن)راضية(اسم فاعل رضيت إذا حصل لها الرضى وهو الفرح والغبطة.

والعيشة ليست راضية ولكنها لحسنها رضي صاحبها، فوصفها ب)راضية(من إسناد الوصف إلى غير ما هو له، وهو من المبالغة لأنه يدل على شدة الرضى بسببها حتى سرى إليها، ولذلك الاعتبار أرجع السكاكي ما يسمى بالمجاز العقلي إلى الاستعارة المكنية كما ذكر في علم البيان.

و)في(للظرفية المجازية وهي الملابسة.

وجملة)في جنة عالية(بدل اشتمال من جملة)فهو في عيشة راضية(.

والعلو: الارتفاع وهو من محاسن الجنات لأن صاحبها يشرف على جهات من متسع النظر ولأنه يبدو له كثير من محاسن جنته حين ينظر إليها من أعلاها أو وسطها مما لا يلوح لنظره لو كانت جنته في أرض منبسطة، وذلك من زيادة البهجة والمسرة، لأن جمال المناظر من مسرات النفس ومن النعم. ووقع في شعر زهير:

كأن عيني في غربي مقتـلة من النواضح تسقي جنة سحقا فقد قال أهل اللغة: يجوز أن يكون سحقا، نعتا للجنة بدون تقدير كما قالوا: ناقة علط وامرأة عطل. ولم يعرجوا على معنى السحق فيها وهو الارتفاع لأن المرتفع بعيد، وقالوا: سحقت النخلة ككرم إذا طالت. وفي القرآن)كمثل جنة بربوة(.

وجوزوا أن يراد أيضا بالعلو علو القدر مثل فلان ذو درجة رفيعة، وبذلك كان للفظ)عالية(هنا ما ليس لقوله)كمثل جنة بربوة(لأن المراد هنالك جنة من الدنيا.

والقطوف: جمع قطف بكسر القاف وسكون الطاء، وهو الثمر، سمي بذلك لأنه يقطف وأصله فعل بمعنى مفعول مثل ذبح.

ومعنى دنوها: قربها من أيدي المتناولين لأن ذلك أهنأ إذ لا كلفة فيه، قال تعالى)وذللت قطوفها تذليلا(.
وجملة)كلوا واشربوا(إلى آخر مقول قول محذوف وهو ومقوله في موضع صفة ل)جنة(. إذ التقدير: يقال للفريق الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم حين يستقرون في الجنة: كلوا واشربوا الخ.
ويجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا عن الضمير في قوله)فهو في عيشة راضية(.
وإنما أفردت ضمائر الفريق الذي أوتي كتابه بيمينه فيما تقدم ثم جاء الضمير ضمير جمع عند حكاية خطابهم لأن هذه الضمائر السابقة حكيت معها أفعال مما يتلبس بكل فرد من الفريق عند إتمام حسابه. وأما ضمير)كلوا واشربوا(فهو خطاب لجميع الفريق بعد حلولهم في الجنة، كما يدخل الضيوف إلى المأدبة فيحيي كل داخل منهم بكلام يخصه فإذا استقروا أقبل عليهم مضيفهم بعبارات الإكرام.
و)هنيئا(يجوز أن يكون فعيلا بمعنى فاعل إذا ثبت له الهناء فيكون منصوبا على النيابة عن المفعول المطلق لأنه وصفه وإسناد الهناء للأكل والشرب مجاز عقلي لأنهما متلبسان بالهناء للآكل والشارب.
ويجوز أن يكون اسم فاعل من غير الثلاثي بوزن ما للثلاثي. والتقدير: مهنئا، أي سبب هناء، كما قال عمرو بن معد يكرب:
أمن ريحانة الداعي السميع أي المسمع، وكما وصف الله تعالى بالحكيم بمعنى الحكم المصنوعات. ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول، أي مهنيئا به.

وعلى الاحتمالات كلها فإفراد)هنيئا(في حال أنه وصف لشيئين بناء على أن فعيلا بمعنى فاعل لا يطابق موصوفه أو على أنه إذا كان صفة لمصدر فهو نائب عن موصوفه، والوصف بالمصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث.
و)بما أسلفتم(في موضع الحال من ضمير)كلوا واشربوا(. والباء للسببية.
وما صدق)ما(الموصولة هو العمل، أي الصالح.
والإسلاف: جعل الشيء سلفا، أي سابقا.
والمراد أنه مقدم سابق لإبانه لينتفع به عند الحاجة إليه، ومنه اشتق السلف للقرض، والإسلاف للإقراض، والسلفة للسلم.

والأيام الخالية: الماضية البعيدة مشتق من الخلو وهو الشغور والبعد.
)وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه[25] ولم أدر ما حسابيه[26] يا ليتها كانت القاضية[27] ما أغنى عني ماليه[28] هلك عني سلطانيه[29](هذا قسيم)من أوتي كتابه بيمينه(فالقول في إيتاء كتابه بشماله قد عرف وجهه مما تقدم.
وتمني كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يؤت كتابه، لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب فيتمنى أن لا يكون علم بذلك إبقاء على نفسه من حزنها زمنا فإن ترقب السوء عذاب.
وجملة)ولم أدر ما حسابيه(في موضع الحال من ضمير)ليتني(.
والمعنى: إنه كان مكذبا بالحساب وهو مقابل قول الذي أوتي كتابه بيمينه: أني ظننت أني ملاق حسابيه.
وجملة الحال معترضة بين جملتي التمني.
ويجوز أن يكون عطفا على التمني، أي يا ليتني لم أدر ما حسابيه، أي لم أعرف كنه حسابي، أي نتيجته، وهذا وإن كان في معنى التمني الذي قبله فإعادته تكرير لأجل التحسر والحزن.
و)ما(استفهامية، والاستفهام بها هو الذي علق فعل)أدر(عن العمل، و)يا ليتها كانت القاضية(تمن آخر ولم يعطف على التمني الأول لأن المقصود التحسر والتندم.
وضمير)ليتها(عائد إلى معلوم من السياق، أي ليت حالتي، أو ليت مصيبتي كانت القاضية.
والقاضية: الموت وهو معنى قوله تعالى)ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا(. أي مقبورا في التراب.
وجملة)يا ليتها كانت القاضية(من الكلام الصالح لأن يكون مثلا لإيجازه ووفرة دلالته ورشاقة معناه عبر بها عما يقوله من أوتي كتابه بشماله من التحسر بالعبارة التي يقولها المتحسر في الدنيا بكلام عربي يودي المعنى المقصود. ونظيره ما حكي عنهم في قوله تعالى)دعوا هنالك ثبورا(وقوله)يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا(وقوله)يا ويلتنا ما لهذا الكتاب(الآية.
ثم أخذ يتحسر على ما فرط من الخير في الدنيا بالإقبال على ما لم يجده في العالم الأبدي فقال)ما أغنى عني ماليه(، أي يقول ذلك من كان ذا مال وذا سلطان من ذلك الفريق من جميع أهل الإشراك والكفر، فما ظنك بحسرة من اتبعوهم واقتدوا بهم إذا رأوهم كذلك. وفي هذا تعريض بسادة مشركي العرب مثل أبي جهل وأمية بن خلف قال تعالى)ذرني والمكذبين أولي النعمة(.
وفي)أغنى عني(الجناس الخطي ولو مع اختلاف قليل كما في قولهم غرك عزك فصار قصارى ذلك ذلك .

ومعنى هلاك السلطان: عدم الانتفاع به يومئذ فهو هلاك مجازي. وضمن)هلك(معنى غاب فعدي ب)عن(، أي لم يحضرني سلطاني الذي عهدته.

والقول في هاءات كتابيه، وحسابيه، وماليه، وسلطانيه كالقول فيما تقدم إلا أن حمزة وخلفا قرآ هنا)ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه(بدون هاء في حالة الوصل.

)خذوه فغلوه[30] ثم الجحيم صلوه[31] ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه[32] إنه كان لا يؤمن بالله العظيم[33] ولا يحض على طعام المسكين[34] فليس له اليوم ها هنا حميم[35] ولا طعام إلا من غسلين[36] لا يأكله إلا الخاطئون[37]( )خذوه(مقول لقول محذوف موقعه في موقع الحال من ضمير)فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه(، والتقدير: يقال: خذوه.

ومعلوم من المقام أن المأمورين بأن يأخذوه هم الملائكة الموكلون بسوق أهل الحساب إلى ما أعد لهم.

والأخذ: الإمساك باليد.

صفحة : 4547

وغلوه: أمر من غله إذا وضعه في الغل وهو القيد الذي يجعل في عنق الجاني أو الأسير فهو فعل مشتق من اسم جامد، ولم يسمع إلا ثلاثيا ولعل قياسه أن يقال غلله بلامين لأن الغل مضاعف اللام، فحقه أن يكون مثل عمم، إذا جعل له عمامة، وأزر، إذا ألبسه إزارا، ودرع الجارية، إذا ألبسها الدرع، فلعلهم قالوا: غله تخفيفا، وعطف بفاء التعقيب لإفادة الإسراع بوضعه في الأغلال عقب أخذه.

و)ثم(في قوله)ثم الجحيم صلوه(للتراخي الرتبي لأن مضمون الجملة المعطوفة بها أشد في العقاب من أخذه ووضعه في الأغلال.

وصلي: مضاعف تضعيف تعدية لأن صلي بالنار معناه أصابه حرقها أو تدفأ بها، فإذا عدي قيل: أصلاه نارا، وصلاه نارا.

و)ثم(من قوله)ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه(للتراخي الرتبي بالنسبة لمضمون الجملتين قبلها لأن مضمون)في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا(أعظم من مضمون)فغلوه(.

ومضمون)فاسلكوه(دل على إدخالهم الجحيم فكان إسلاكه في تلك السلسلة أعظم من مطلق إسلاكه الجحيم.

ومعنى)اسلكوه(: اجعلوه سالكا، أي داخلا في السلسلة وذلك بأن تلف عليه السلسلة فيكون في وسطعا، ويقال: سلكه، إذا أدخله في شيء، أي اجعلوه في الجحيم مكبلا في أغلاله.
وتقديم)الجحيم(على عامله لتعجيل المساءة مع الرعاية على الفاصلة وكذلك تقديم)في سلسلة(على عامله.
واقترن فعل)اسلكوه(بالفاء إما لتأكيد الفاء التي اقترنت بفعل)فغلوه(، وإما للإيذان بأن الفعل منزل منزلة جزاء شرط محذوف، وهذا الحذف يشعر به تقديم المعمول غالبا كأنه قيل: مهما فعلتم به شيئا فاسلكوه في سلسلة، أو مهما يكن شيء فاسلكوه.
والمقصود تأكيد وقوع ذلك والحث على عدم التفريط في الفعل وأنه لا يرجى له تخفيف، ونظيره قوله تعالى)وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر(، وتقدم عند قوله تعالى)قل بفضل الله وبرحمته بذلك فليفرحوا(في سورة يونس.
والسلسلة: اسم لمجموع حلق من حديد داخل بعض تلك الحلق في بعض تجعل لوثاق شخص كي لا يزول من مكانه، وتقدم في قوله تعالى)إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل(في سورة غافر.
وجملة)ذرعها سبعون ذراعا(صفة)سلسلة(وهذه الصفة وقعت معترضة بين المجرور ومتعلقه للتهويل على المشركين المكذبين بالقارعة، وليست الجمل مما خوطب الملائكة الموكلون بسوق المجرمين إلى العذاب، ولذلك فعدد السبعين مستعمل في معنى الكثرة على طريقة الكناية مثل قوله تعالى)إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم(.
والذرع: كيل طول الجسم بالذراع وهو مقدار من الطول مقدر بذراع الإنسان، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة، والقدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل الشبر، والفتر، والرتب بفتح الراء والتاء ، والعتب، والبصم والخطوة.
وجملة)إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين(في موضع العلة للأمر بأخذه وإصلائه الجحيم.
ووصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا.
والحض على الشيء: أن يطلب من أحد فعل شيء ويلح في ذلك الطلب.
ونفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى أنه لا يطعم المسكين من ماله لأنه إذا كان لا يأمر غيره بإطعام المسكين فهو لا يطعمه من ماله، فالمعنى لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه، وقد كان أهل الجاهلية يطعمون في الولائم، والميسر، والأضياف، والتحابب، رياء وسمعة. ولا يطعمون الفقير إلا قليل منهم.

وقد جعل عدم الحض على طعام المسكين مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشح عنهم بماله، كما جعل الحرص على إطعام الضيف كناية عن الكرم في قول زينب بنت الطفرية ترثي أخاها يزيد:
إذا نزل الأضياف كان عـذورا على الحي حتى تستقيل مراجله تريد أنه يحضر الحي ويستعجلهم على نصف القدور للأضياف حتى توضع قدور الحي على الأثافي ويشرعوا في الطبخ، والعذورة بعين مهملة وذال معجمة كعملس: الشكس الخلق.
إلا أن كناية ما في الآية عن البخل أقوى من كناية ما في البيت عن الكرم لأن الملازمة في الآية حاصلة بطريق الأولوية بخلاف البيت.

صفحة : 4548

وإذ قد جعل عدم حضه على طعام المسكين جزء علة لشدة عذابه، علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم في الأموال وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها.
وقوله)فليس له اليوم ها هنا حميم(من تمام الكلام الذي ابتدئ بقوله)خذوه(، وتفريع عليه.
والمقصود منه أن يسمعه من أوتي كتابه بشماله فييأس من أن يجد مدافعا ويدفع عنه بشفاعة، وتنديم له على ما أضاعه في حياته من التزلف إلى الأصنام وسدنتها وتمويههم عليه أنه يجدهم عند الشدائد وإلمام المصائب. وهذا وجه تقييد نفي الحميم ب)اليوم(تعريضا بأن أحمائهم في الدنيا لا ينفعونهم اليوم كما قال تعالى)ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون(وقوله عنهم)فهل من شفعاء فيشفعوا لنا(وغير ذلك مما تفوق في آي القرآن.
فقوله)له(هو خبر)ليس(لأن المجرور بلام الاختصاص هو محط الأخبار دون ظرف المكان. وقوله)ههنا(ظرف متعلق بالكون المنوي في الخبر بحرف الجر. وهذا أولى من جعل)ههنا(خبرا عن)ليس(وجعل)له(صفة ل)حميم(إذ لا حاجة لهذا الوصف.
والحميم: القريب، وهو هنا كناية عن النصير إذ المتعارف عند العرب أن أنصار المرء هم عشيرته وقبيلته.
)ولا طعام(عطف على)حميم(.

والغسلين: بكسر الغين ما يدخل في أفواه أهل النار من المواد السائلة من الأجساد وماء النار ونحو ذلك مما يعلمه الله فهو علم على ذلك مثل سجين، وسرقين، وعرنين، فقيل أنه فعلين من الغسل لأنه سال من الأبدان فكأنه غسل عنها. ولا موجب لبيان اشتقاقه.

و)الخاطئون(: أصحاب الخطايا يقال: خطئ، إذا أذنب.

والمعنى: لا يأكله إلا هو وأمثاله من الخاطئين.

وتعريف)الخاطئون(للدلالة على الكمال في الوصف، أي المرتكبون أشد الخطأ وهو الإشراك.

وقرأ الجمهور)الخاطئون(بإظهار الهمزة، وقرأ أبو جعفر)الخاطون(بضم الطاء بعدها واو على حذف الهمزة تخفيفا بعد إبدالها ياء تخفيفا. وقال الطيبي: قرأ حمزة عند الوقف الخاطيون بإبدال الهمزة عنه غير الطيبي.

)فلا أقسم بما تبصرون[38] وما لا تبصرون[39] إنه لقول رسول كريم[40] وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون[41] ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون[42] تنزيل من رب العلمين[43](الفاء هناء لتفريع إثبات أن القرآن منزل من عند الله ونفي ما نسبه المشركون إليه، تفريعا على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من التعريض بتكذيب القرآن الذي أخبر بوقوعه، وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم القائل إنه موحى به إليه من الله تعالى.

وابتدئ الكلام بالقسم تحقيقا بمضمونه على طريقة الأقسام الواردة في القرآن، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)والصافات صفا(.

وضمير)أقسم(عائد إلى الله تعالى.

جمع الله في هذا القسم كل ما الشأن أن يقسم به من الأمور العظيمة من صفات الله تعالى ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته إذ يجمع ذلك كله الصلتان)بما تبصرون وما لا تبصرون(، فمما يبصرون: الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسماوات والكواكب، وما لا يبصرون: الأرواح والملائكة وأمور الآخرة.

و)لا أقسم(صيغة تحقيق قسم، وأصلها أنها امتناع من القسم امتناع تحرج من أن يحلف بالمقسم به خشية الحنث، فشاع استعمال ذلك في كل قسم يراد تحقيقه، واعتبر حرف)لا(في هذا القسم إبطالا لكلام سابق وأن فعل)أقسم(بعدها مستأنف، ونقض هذا بوقوع مثله في أوائل السور مثل:)لا أقسم بيوم القيامة(و)لا أقسم بهذا البلد(.

وضمير)إنه(عائد إلى القرآن المفهوم من ذكر الحشر والبعث، فإن ذلك مما جاء به القرآن ومجيئه بذلك من أكبر أسباب تكذيبهم

به، على أن إرادة القرآن من ضمائر الغيبة التي لا معاد لها قد تكرر غير مرة فيه.
وتأكيد الخبر بحرف)إن(واللام للرد على الذين كذبوا أن يكون القرآن من كلام الله ونسبوه إلى غير ذلك.
والمراد بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم كما يقتضيه عطف قوله)ولو تقول علينا بعض الأقاويل(، وهذا كما وصف موسى ب)رسول كريم(في قوله تعالى)ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم(.

وإضافة)قول(إلى)رسول(لأنه الذي بلغه فهو قائله، والإضافة لأدنى ملابسة وإلا فالقرآن جعله الله تعالى وأجراه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، كما صدر من جبريل بإيحائه بواسطته قال تعالى)فإنما يسرناه بلسانك(.
روى مقاتل أن سبب نزولها: أن أبا جهل قال: إن محمد شاعر، وأن عقبة بن أبي معيط قال: هو كاهن، فقال الله تعالى)إنه لقول رسول كريم(الآية.
ويجوز أن يراد ب)رسول كريم(جبريل عليه السلام كما أريد به في سورة التكوير إذ الظاهر أن المراد به هنالك جبريل كما يأتي.
وفي لفظ)رسول(إيذان بأن القول قول مرسله، أي الله تعالى. وقد أكد هذا المعنى بقوله عقبه)تنزيل من رب العالمين(.
ووصف الرسول ب)كريم(لأنه الكريم في صنفه، أي النفيس الأفضل مثل قوله)أني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل.
وقد أثبت للرسول صلى الله عليه وسلم الفضل على غيره من الرسل بوصف)كريم(، ونفي أن يكون شاعرا أو كاهنا بطريق الكناية عند قصد رد أقوالهم.
وعطف)ولا بقول كاهن(على جملة الخبر في قوله)بقول شاعر(، و)لا(النافية تأكيد لنفي)ما(.
وكني بنفي أن يكون قول شاعر، أو قول كاهن عن تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعرا أو كاهنا، رد لقولهم: هو شاعر أو هو كاهن.
وإنما خص هذان بالذكر دون قولهم: إفتراه، أو هو مجنون، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنونا أو كاذبا إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف.

والمعنى: ما هو قول شاعر ولا قول كاهن تلقاه من أحدهما ونسبه إلى الله تعالى.

و)قليلا(في قوله)قليلا ما تؤمنون( )قليلا ما تذكرون(مراد به انتفاء ذلك من أصله على طريقة التمليح القريب من التهكم كقوله)فلا يؤمنون إلا قليلا(، وهو أسلوب عربي، قال ذو الرمة:

أنيحت ألقت بلدة فوق بلـدة قليل بها الأصوات إلا بغامها فإن استثناء بغام راحلته دال على أنه أراد من قليل عدم الأصوات.

المعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون، أي عندما تقولون هو شاعر وهو مجنون، ولا نظر إلى إيمان من آمن منهم من بعد. وقد تقدم في سورة البقرة قوله)فقليلا ما يؤمنون(.

وانتصب)قليلا(في الموضعين على الصفة لمصدر محذوف يدل عليه)تؤمنون(و)تذكرون(، أي تؤمنون إيمانا قليلا، وتذكرون تذكرا قليلا.

و)ما(مزيدة للتأكيد كقول حاتم الطائي:

قليلا به ما يحمـدنـك وارث إذا نال مما كنت تجمع مغنما وجملتا)قليلا ما تؤمنون( )قليلا ما تذكرون(معترضتان، أي انتفى أن يكون قول شاعر، وانتفى أن يكون قول كاهن، وهذا الانتفاء لا يحصل إيمانكم ولا تذكركم لأنكم أهل عناد.

وقرأ الجمهور)ما تؤمنون(، و)ما تذكرون(كليهما بالمثناة الفوقية، وقرأهما ابن كثير وهشام عن ابن عامر واختلف الرواة عن ابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب بالياء التحتية على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وحسن ذلك كونهما معترضتين.

وأوثر نفي الإيمان عنهم في جانب انتفاء أن يكون قول شاعر، ونفي التذكر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن، لأن نفي كون القرآن قول شاعر بديهي إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزاءه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في جميع أواخر الأجزاء، فادعاؤهم أن قول شاعر بهتان متعمد ينادي على أنهم لا يرجى إيمانهم، وأما انتفاء كون القرآن قول كاهن فمحتاج إلى أدنى تأمل إذ قد يشبه في بادئ الرأي على السامع من حيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصل ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه ومعانيه علم أنه ليس بقول كاهن، فنظمه مخالف لنظم كلام الكهان إذ ليست فقراته قصيرة ولا فواصله مزدوجة ملتزم فيها السجع، ومعانيه ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإخبار عما يحدث لبعض الناس من أحداث، أو ما يلم بقوم من مصائب متوقعة

ليحذروها، فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفيا عنهم التذكر والتدبر، وإذا بطل هذا وذاك بطل مدعاهم فحق أنه تنزيل من رب العالمين كما ادعاه الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم.
وقوله)تنزيل من رب العالمين(خبر ثان عن اسم)إن(وهو تصريح بعد الكناية.

صفحة : 4550

ولك أن تجعل)تنزيل من رب العالمين(خبر مبتدأ محذوف جرى حذفه على النوع الذي سماه السكاكي بمتابعة الاستعمال في أمثاله وهو كثير في الكلام البليغ، وتجعل الجملة استئنافا بيانيا لأن القرآن لما وصف بأنه)قول رسول كريم(ونفي عنه أن يكون قول شاعر أو قول كاهن، ترقب السامع معرفة كنهه، فبين بأنه منزل من رب العالمين على الرسول الكريم ليقوله للناس ويتلوه عليهم.
و)تنزيل(وصف بالمصدر للمبالغة.
والمعنى: إنه منزل من رب العالمين على الرسول الكريم.
وعبر عن الجلالة بوصف)رب العالمين(دون اسمه العلم للتنبيه على أنه رب المخاطبين ورب الشعراء والكهان الذين كانوا بمحل التعظيم والإعجاب عندهم نظير قول موسى لفرعون)ربكم ورب آبائكم الأولين(.
)ولو تقول علينا بعض الأقاويل[44] لأخذنا منه باليمين[45] ثم لقطعنا منه الوتين[46] فما منكم من أحد عنه حاجزين[47](هذه الجملة عطف على جملة)لا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون(فهي مشمولة لما أفادته الفاء من التفريع على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من تكذيبهم القرآن ومن جاء به وقال: إنه وحي من الله تعالى.
فمفاد هذه الجملة استدلال ثان على أن القرآن منزل من عند الله تعالى على طريقة المذهب الكلامي، بعد الاستدلال الأول المستند إلى القسم والمؤكدات على طريقة الاستدلال الخطابي.
وهو استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله واسع القدرة، وأنه عليم فلا يقدر أحدا على أن يقول عنه كلاما لم يقله، أي لو لم يكن القرآن منزل من عندنا ومحمد ادعى أنه منزل منا، لما أقررناه على ذلك، ولعجلنا بإهلاكه. فعدم هلاكه صلى الله عليه وسلم دال على أنه لم يتقوله على الله، فإن)لو(تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاء مضمون جوابها.

فحصل من هذا الكلام غرضان مهمان: أحدهما يعود إلى ما تقدم أي زيادة إبطال لمزاعم المشركين أن القرآن شعر أو كهانة إبطالا جامعا لإبطال النوعين، أي ويوضح مخالفةالقرآن لهذين النوعين من الكلام إن الآتي به ينسبه إلأى وحي الله وما علمتم شاعرا ولا كاهنا يزعم أن كلامه من عند الله.

وثانيهما: إبطال زعم لهم لم يسبق التصريح بإبطاله وهو قول فريق منهم)افترى(، أي نسبه إلى الله افتراء وتقوله على الله قال تعالى)أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون(فبين لهم أنه لو افترى على الله لما أقره على ذلك.

ثم أن هذا الغرض يستتبع غرضا آخر وهو تيأسهم من أن يأتي بقرآن لا يخالف دينهم ولا يسفه أحلامهم وأصنامهم، قال تعالى)قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله(وهذه الجملة معطوفة عطف اعتراض فلك أن تجعل الواو اعتراضية فإنه لا معنى للواو الاعتراضية إلا ذلك.

والتقول: نسبة قول لمن لم يقله، وهو تفعل من القول صيغت هذه الصيغة الدالة على التكلف لأن الذي ينسب إلى غيره قولا لم يقله يتكلف ويختلق ذلك الكلام، ولكونه في معنى كذب عدي ب)على(.

والمعنى: لو كذب علينا فأخبر أنا قلنا قولا لم نقله الخ.

و)بعض(اسم يدل على مقدار من نوع ما يضاف هو إليه، وهو هنا منصوب على المفعول به ل)تقول(.

والأقاويل: جمع أقوال الذي هو جمع قول، أي بعضا من جنس الأقوال التي هي كثيرة فلكثرتها جيء لها بجمع الجمع الدال على الكثرة، أي ولو نسب إلينا قليلا من أقوال كثيرة صادقة يعني لو نسب إلينا شيئا قليلا من القرآن لم ننزله لأخذنا منه باليمين، إلى آخره.

ومعنى)لأخذنا منه باليمين(لأخذناه بقوة، أي دون إمهال فالباء للسببية.

واليمين: اليد اليمنى كني بها عن الاهتمام بالتمكن من المأخوذ، لأن اليمين أقوى عملا من الشمال لكثرة استخدامها فنسبة التصرف إليها شهيرة.

وتقدم ذلك في مواضع منها قوله تعالى)ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم(في سورة البقرة وقوله)وعن أيمانهم وعن شمائلهم(في سورة الأعراف وقوله)ولا تخطه بيمينك(في سورة العنكبوت.

وقال أبو الغول الطغوي:

فدت نفسي وما ملكت يميني

فوارس صدقوا فيهم ظنوني والمعنى: لأخذناه أخذا عاجلا فقطعنا

وتينه، وفي هذا تهويل لصورة الأخذ فلذلك لم يقتصر على نحو: لأهلكناه.

صفحة : 4551

و)منه(متعلق ب)أخذنا(تعلق المفعول بعامله. و)من(زائدة في الإثبات على رأي الأخفش والكوفيين وهو الراجح. وقد بينته عند قوله تعالى)فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل(، فإن)النخل(معطوف على)خضرا(بزيادة)من(ولولا اعتبار الزيادة لما استقام الإعراب إلا بكلفة، وفائدة)من(الزائدة في الكلام أن أصلها التبعيض المجازي على وجه التمليح كأنه يقول: نأخذ بعضه.

والوتين: عرق معلق به القلب ويسمى النياط، وهو الذي يسقي الجسد بالدم ولذلك يقال له: نهر الجسد، وهو إذا قطع مات صاحبه وهو يقطع عند نحر الجزور.

فقطع الوتين من أحوال الجزور ونحرها، فشبه عقاب من يفرض تقوله على الله بجزور تنحر فيقطع وتينها.

ولم أقف على أن العرب كانوا يكنون عن الإهلاك بقطع الوتين، فهذا من مبتكرات القرآن.

و)منه(صفة للوتين، أو متعلق ب)قطعنا(أي أنزلناه منه.

وبين)منه(الأولى و)منه(الثانية محسن الجناس.

وأما موقع تفريع قوله)فما منكم من أحد عنه حاجزين(فهو شديد الاتصال بما استتبعه فرض التقول من تأييسهم من أن يتقول على الله كلاما لا يسوءهم، ففي تلك الحالة من أحوال التقول لو أخذنا عنه باليمين فقطعنا منه الوتين، لا يستطيع أحد منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب، وبدون هذا الاتصال لا يظهر معنى تعجيزهم عن نصره إذ ليسوا من الولاء له بمظنة نصره، فمعنى هذه الآية يحوم حول معنى قوله)وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا سبيلا(.

والخطاب في قوله)منكم(للمشركين.

وإنما أخبر عن)أحد(وهو مفرد ب)حاجزين(جمعا لأن)أحد(هنا وإن كان لفظه مفردا فهو في معنى الجمع لأن)أحد(إذا كان بمعنى ذات أو شخص لا يقع إلا في سياق النفي ثم عريب، وديار ونحوهما من النكرات التي لا تستعمل إلا منفية فيفيد العموم، أي كل واحد لا يستطيع الحجز عنه ويستوي في لفظه الواحد والجمع

والمذكر والمؤنث قال تعالى)لا نفرق بين أحد من رسله(وقال) لستن كأحد من النساء(.

والمعنى: ما منكم أناس يستطيعون الحجز عنه.
والحجز: الدفع والحيلولة، أي لا أحد منكم يحجزنا عنه. والضمير عائد إلى)الرسول الكريم(.
و)من(في قوله)من أحد(مزيدة لتأكيد النفي وللتنصيص على العموم.
وذكر)منكم(مع)عنه(تجنيس محرف.
وهذه الآية دليل على أن الله تعالى لا يبقي أحدا يدعي أن الله أوحى إليه كلاما يبلغه إلى الناس، وأنه يعجل بهلاكه.
فأما من يدعي النبوة دون ادعاء قول أوحي إليه، فإن الله قد يهلكه بعد حين كما كان في أمر الأسود العنسي الذي ادعى النبوة باليمن، ومسيلمة الحنفي الذي ادعى النبوة في اليمامة، فإنهما لم يأتيا بكلام ينسبانه إلى الله تعالى، فكان إهلاكهما بعد مدة، ومثلهما من ادعى النبوة في الإسلام مثل)بابك ومازيار(.
وقال الفخر: قيل: اليمين بمعنى القوة والقدرة، والمعنى: لأخذنا منه باليمين، أي سلبنا عنه القوة، والباء على هذا التقدير صلة زائدة. واعلم أن حاصل هذا أنه لو نسب إلينا قولا لم نقله لمنعناه عن ذلك: إما بواسطة إقامة الحجة فإنا نقيض له من يعارضه فيه وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه فيكون ذلك إبطالا لدعواه وهدما لكلامه، وإما بأن نسلب عنه القدرة على التكلم بذلك القول، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب اه. فركب من تفسير اليمين بمعنى القوة، أن المراد قوة المتقول لا قوة الله وانتزع من ذلك تأويل الباء على معنى الزيادة ولم يسبقه بهذا التأويل أحد من المفسرين ولا تبعه فيه من بعده فيما رأينا. وفيه نظر، وقد تبين بما فسرنا به الآية عدم الاحتجاج إلى تأويل الفخر.
)وإنه لتذكرة للمتقين[48](عطف على)إنه لقول رسول كريم(، والضمير عائد إلى القرآن الذي تقدم ضميره في قوله 0إنه لقول رسول كريم(، فلما أبطل طعنهم في القرآن بأنه قول شاعر، أو قول كاهن أعقب ببيان شرفه ونفعه، إمعانا في إبطال كلامهم بإظهار الفرق البين بينه وبين شعر الشعراء وزمزمة الكهان، إذ هو تذكرة وليس ما ألحقوه به من أقوال أولئك من التذكير في شيء.

والتذكرة: اسم مصدر التذكير وهو التنبيه إلى مغفول عنه.
والإخبار: ب)أنه تذكرة(إخبار بالمصدر للمبالغة في الوصف. والمعنى: أنه مذكر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله وما يليق بجلاله لينتشلهم من هوة التمادي في الغفلة حتى يفوت الفوات، فالقرآن في ذاته تذكرة لمن يريد أن يتذكر سواء تذكر أم لم يتذكر، وقد تقدم تسمية القرآن بالذكر والتذكير في آيات عديدة منها قوله تعالى في سورة طه)غلا تذكرة لمن يخشى(وقوله)وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر(في سورة الحجر.
والمراد بالمتقين المؤمنون فإنهم المتصفون بتقوى الله لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء دون المشركين. فالقرآن كان هاديا إياهم للإيمان كما قال تعالى)هدى للمتقين(وكلما نزل منه شيء أو تلوا منه شيئا ذكرهم بما عملوا لئلا تعتريهم غفلة أو نسيان فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل، فإن الإخبار عنهم باسم المصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة إذ المصدر لا إشعار له بوقت بخلاف الفعل وما أشبهه.
وإنما علق)للمتقين(بكونه تذكرة لأن المتقين هم الذين أدركوا مزيته.
)وإنا لنعلم أن منكم مكذبين[49] وإنه لحسرة على الكافرين[50] (هاتان جملتان مرتبطتان، وأولاهما تمهيد وتوطئة للثانية، وهي معترضة بين التي قبلها والتي بعدها، والثانية منها معطوفة على جملة)وإنه لتذكرة للمتقين(، فكان تقديم الجملة الأولى على الثانية اهتماما بتنبيه المكذبين إلى حالهم وكانت أيضا بمنزلة التتميم لجملة)وإنه لتذكرة للمتقين(.
والمعنى: إنا بعثنا إليكم الرسول بهذا القرآن ونحن نعلم أنه سيكون منكم مكذبون له وبه، وعلمنا بذلك لم يصرفنا عن توجيه التذكير إليكم وإعادته عليكم ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، فقوبلت صفة القرآن التي تنفع المتقين بصفته التي تضر بالكافرين على طريقة التضاد، فبين الجملتين المتعاطفتين محسن الطباق.
والحسرة: الندم الشديد المتكرر على شيء فائت مرغوب فيه، ويقال لها التلهف، اشتقت من الحسر وهو الكشف لأن سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده، فالقرآن حسرة على الكافرين أي سبب حسر عليهم في الدنيا لأنه فضح ترهاتهم ونقض عماد دينهم الباطل وكشف حقارة أصنامهم، وهو حسرة عليهم في الآخرة لأنهم يجدون مخالفته سبب عذابهم، ويقفون على

اليقين بأن ما كان يدعوهم إليه هو سبب النجاح لو اتبعوه لا سيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين صدقوا به.
والمكذبون: هم الكافرون. وإنما عدل عن الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر لأن الحسرة تعم المكذبين يومئذ والذين سيكفرون به من بعد.
)وإنه لحق اليقين[51](عطف على)وإنه لحسرة على الكافرين(فيحتمل أن يكون الضمير عائدا على القرآن لأن هذه من صفات القرآن، ويحتمل أن يكون مرادا به المذكور وهو كون القرآن حسرة على الكافرين، أي أن ذلك حق لا محالة أي هو جالب لحسرتهم في الدنيا والآخرة.
وإضافة حق إلى اليقين يجوز أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي إنه لليقين الحق الموصوف بأنه يقين لا يشك في كونه حقا إلا من غشي على بصيرته وهذا أولى من جعل الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي لليقين الحق، أي الذي لا تعتريه شبهة.
واعلم أن حق اليقين، وعين اليقين، وعلم اليقين وقعت في القرآن.
فحق اليقين وقع في هذه السورة وفي آخر سورة الواقعة. وعلم اليقين وعين اليقين وقعا في سورة التكاثر، وهذه الثلاثة إضافتها من إضافة الصفة إلى الموصوف أو من إضافة الموصوف إلى الصفة كما ذكرنا. ومعنى كل مركب منها هو محصل ما تدل عليه كلمتاه وإضافة إحداهما إلى الأخرى.

وقد اصطلح العلماء على جعل كلمة)علم اليقين(اسما اصطلاحيا لما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ما هي عليه حسب كلام السيد الجرجاني في كتاب التعريفات. ووقع في كلام أبي البقاء في الكليات ما يدل على أن بعض هذه المركبات نقلت في بعض الاصطلاحات العلمية فصارت ألقابا لمعان، وقال: علم اليقين لأصحاب البرهان، وعين اليقين وحق اليقين أيضا لأصحاب الكشف والعيان كالأنبياء والأولياء على حسب تفاوتهم في المراتب، قال: وقد حقق المحققون من الحكماء بأن بعد المراتب الأربع للنفس يعني مراتب تحصيل العلم للنفس المذكورة في المنطق الأوليات، والمشاهدات الباطنية، والتجريبات، والمتواترات مرتبتين: إحداهما مرتبة عين اليقين وهي أن تصير النفس بحيث تشاهد المعقولات في المعارف التي تفيضها

النفس كما هي، والثانية مرتبة حق اليقين وهي أن تصير النفس بحيث تتصل بالمعقولات اتصالا عقليا وتلاقي ذاتها تلاقيا روحانيا. واصطلح علماء التصوف على جعل كل مركب من هذه الثلاثة لقبا لمعنى من الانكشاف العقلي وجرت في كتاب الفتوحات المكية للشيخ محيي الدين بن عربي.

)فسبح باسم ربك العظيم[52](تفريع على جميع ما تقدم من وصف القرآن وتنزيهه على المطاعن وتنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عما افتراه عليه المشركون، وعلى ما أيده الله به من ضرب المثل للمكذبين به بالأمم التي كذبت الرسل، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسبح الله تسبيح ثناء وتعظيم شكرا له على ما أنعم به عليه من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه.

واسم الله هو العلم الدال على الذات.

والباء للمصاحبة، أي سبح الله تسبيحا بالقول لأنه يجمع اعتقاد التنزيه والإقرار به وإشاعته.

والتسبيح: التنزيه عن النقائص بالاعتقاد والعبادة والقول، فتعين أن يجري في التسبيح القولي اسم المنزه فلذلك قال)فسبح باسم ربك(ولم يقل فسبح ربك العظيم. وقد تقدم في الكلام على البسملة وجه إقحام اسم في قوله)بسم الله الرحمن الرحيم(.

وتسبيح المنعم بالاعتقاد والقول وهما مستطاع شكر الشاكرين إذ لا يبلغ إلى شكره بأقصى من ذلك، قال ابن عطية: وفي ضمن ذلك استمرار النبي صلى الله عليه وسلم على أداء رسالته وإبلاغها. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية اجعلوها في ركوعكم(. واستحب التزام ذلك جماعة من العلماء، وكره مالك التزام ذلك لئلا يعد واجبا فرضا اه.

وتقدم نظير هذه الآية في آخر سورة الواقعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المعارج

سميت هذه السورة في كتب السنة وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي، وفي تفسير الطبري وان عطية وابن كثير)سورة سأل سائل(. وكذلك رأيتها في بعض المصاحف المخطوطة بالخط الكوفي بالقيروان في القرن الخامس.

وسميت في معظم المصاحف المشرقية والمغربية وفي معظم التفاسير)سورة المعارج(. وذكر في الإتقان أنها تسمى)سورة الواقع(.

وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في أولها، وأخصها بها جملة)سال سائل(لأنها لم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن إلا أنها غلب عليها اسم)سورة المعارج(لأنه أخف.

وهي مكية بالاتفاق. وشذ من ذكر أن آية)والذين في أموالهم حق معلوم(مدنية.
وهي السورة الثامنة والسبعون في عداد نزول سور القرآن عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الحاقة وقبل سورة النبأ.
وعد جمهور الأمصار آيها أربعا وأربعين. وعدها أهل الشام ثلاثا وأربعين.

أغراضها
حوت من الأغراض تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة، وإثبات ذلك اليوم ووصف أهواله.
ووصف شيء من جلال الله فيه، وتهويل دار العذاب وهي جهنم. وذكر أسباب استحقاق عذابها.
ومقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة وهي أضداد صفات الكافرين.
وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم. وتسليته على ما يلقاه من المشركين.
ووصف كثير من خصال المسلمين التي بثها الإسلام فيهم، وتحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم.
)سال سائل بعذاب واقع[1] للكافرين ليس له دافع[2] نن الله ذي المعارج[3](

صفحة : 4554

كان كفار قريش يستهزئون فيسألون النبي صلى الله عليه وسلم: متى هذا العذاب الذي تتوعدنا به، ويسألونه تعجيله قال تعالى) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين( )ويستعجلونك بالعذاب(وكانوا أيضا يسألون الله أن يوقع عليهم عذابا إذا كان القرآن حقا من عنده قال تعالى)وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم(.
وقيل: إن السائل شخص معين هو النضر بن الحارث إن كان هذا أي القرآن هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل الله أن يعينه على المشركين بالقحط فأشارت الآية إلى ذلك كله، ولذلك فالمراد ب)سائل(فريق أو شخص.

والسؤال مستعمل في معنيي الاستفهام عن شيء والدعاء، على أن استفهامهم مستعمل في التهكم والتعجيز. ويجوز أن يكون (سأل سائل) بمعنى استعجل وألح.

وقرأ الجمهور (سأل) بإظهار الهمزة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (سال) بتخفيف الهمزة ألفا. قال في الكشاف: وهي لغة قريش وهو يريد قريشا قد يخففون المهموز في مقام الثقل وليس ذلك قياسا في لغتهم بل لغتهم تحقيق الهمزة ولذلك قال سيبويه: وليس ذا بقياس متلب أي مطرد مستقيم وإنما يحفظ عن العرب قال: ويكون قياسا متلئبا إذا اضطر الشاعر، قال الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال عـشـية فارعي

فزارة لا هناك المرتع يريد لا هنأك بالهمز. وقال حسان:

سالت هذيل رسول الله فاحـشة

ضلت هذيل بما سالت ولم تصب يريد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إباحة الزنى. وقال القرشي زيد بن عمرو بن نفيل يذكرر زوجيه :

سألتاني الطلاق أن رأتاني قل مالي

قد جيتماني بنكر فهؤلاء ليس لغتهم سال ولا يسال وبلغنا أن سلت تسال لغة اه. فجعل إبدال الهمز ألفا للضرورة مطردا ولغير الضرورة يسمع ولا يقاس عليه فتكون قراءة التخفيف سماعا. وذكر الطيبي عن أبي علي في الحجة: أن من قرأ (سال) غير مهموز جعل الألف منقلبة عن الواو التي هي عين الكلمة مثل: قال وخاف. وحكى أو عثمان عن أبي زيد أنه سمع من يقول: هما متساولان. وقال في الكشاف: يقولون أي أهل الحجاز : سلت تسال وهما يتسايلان ، أي فهو أجوف يائي مثل هاب يهاب. وكل هذه تلتقي في أن نطق أهل الحجاز (سال) غير مهموز سماعي، وليس بقياس عندهم وأنه إما تخفيف للهمزة على غير قياس مطرد وهو رأي سيبويه، وإما لغة لهم في هذا الفعل وأفعال أخرى جاء هذا الفعل أجوف واويا كما هو رأي أبي علي أو أجوف يائيا كما هو رأي الزمخشري. وبذلك يندحض تردد أبي حيان جعل الزمخشري قراءة (سال) لغة أهل الحجاز إذ قد يكون لبعض القبائل لغتان في فعل واحد.

وإنما اجتلب هنا لغة المخفف لثقل المفتوح بتوالي حركات قبله وبعده وهي أربع فتحات، ولذلك لم يرد في القرآن مخففا في بعض القراءات إلا في هذا الموضع إذ لا نظير له في توالي حركات، وإلا فإنه لم يقرأ أحد بالتخفيف في قوله (وإذا سألك عبادي) وهو يساوي (سال سائل بعذاب) به قوله: سالتهم وتسالهم ولا يسالون.

وقوله)سال سائل(بمنزلة سئل لأن مجيء فاعل الفعل اسم فاعل من لفظ فعله لا يفيد زيادة علم بفاعل الفعل ما هو، فالعدول عن أن يقول: سئل بعذاب، إلى قوله)سال سائل بعذاب(، لزيادة تصوير هذا السؤال العجيب، ومثل قول يزيد بن عمرو بن خويلد يهاجي النابغة:

وإن الغدر قد علمت معد بناه في بني ذبيان باني ومن بلاغة القرآن تعدية)سال(بالباء ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال، لأن الباء تأتي بمعنى)عن(وهو من معاني الباء الواقعة بعد فعل السؤال نحو)فاسال به خبيرا(، وقول علقمة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب أي إن تسألوني عن النساء، وقال الجوهري عن الأخفش: يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. وجعل في الكشاف تعدية فعل سأل بالباء لتضمينه معنى عني واهتم. وقد علمت احتمال أن يكون سال بمعنى استعجل، فيكون تعديته بالباء كما في قوله تعالى)ويستعجلونك بالعذاب(وقوله)يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها(.

صفحة : 4555

وقوله)للكافرين(يجوز أن يكون ظرفا لغوا متعلقا ب)واقع(، ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو للكافرين.

واللام لشبه الملك، أي عذاب من خصائصهم كما قال تعالى)فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين(.

ووصف العذاب بأنه واقع، وما بعده من أوصافه إلى قوله)إنهم يرونه بعيدا(إدماج معترض ليفيد تعجيل الإجابة عما سأل عنه سائل بكلا معنيي السؤال لأن السؤال لم يحك فيه عذاب معين وإنما كان مجملا لأن السائل سأل عن عذاب غير موصوف، أو الداعي دعا بعذاب غير موصوف، فحكي السؤال مجملا ليرتب عليه وصفه بهذه الأوصاف والتعلقات، فينتقل إلى ذكر أحوال هذا العذاب وما يحف به من الأهوال.

وقد طويت في مطاوي هذه التعلقات جمل كثيرة كان الكلام بذلك إيجازا إذ حصل خلالها ما يفهم منه جواب السائل، واستجابة الداعي، والإنباء بأنه عذاب واقع عليهم من الله لا يدفعه عنهم دافع، ولا يغرهم تأخره.

وهذه الأوصاف من قبيل الأسلوب الحكيم لأن ما عدد فيه من أوصاف العذاب وهوله ووقته هو الأولى لهم أن يعلموه ليحذروه، دون أن يخوضوا في تعيين وقته، فحصل من هذا كله معنى: أنهم سألوا عن العذاب الذي هددوا به عن وقته ووصفه سؤال استهزاء، ودعوا الله أن يرسل عليهم عذابا إن كان القرآن حقا، إظهارا لقلة اكتراثهم بالإنذار بالعذاب. فأعلمهم أن العذاب الذي استهزأوا به واقع لا يدفعه عنهم تأخر وقته، فإن أرادوا النجاة فليحذروه.

وقوله)من الله(يتنازع تعلقه وصفا)واقع(و)دافع(. و)من(للابتداء المجازي على كلا التعلقين مع اختلاف العلاقة بحسب ما يقتضيه الوصف المتعلق به.

فابتداء الواقع استعارة لإذن الله بتسليط العذاب على الكافرين وهي استعارة شائعة تساوي الحقيقة. وأما ابتداء الدافع فاستعارة لتجاوزه مع المدفوع عنه من مكان مجازي تتناوله قدرة القادر مثل)من(في قوله تعالى)وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه(وقوله) يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله(.

وبهذا يكون حرف)من(مستعملا في معنيين مجازيين متقاربين.

وإجراء وصف)ذي المعارج(على اسم الجلالة لاستحضار عظمة جلاله ولإدماج الإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء قال تعالى)لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون(. ولكل درجة المعارج قوم عملوا لنوالها قال تعالى)يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات(، وليكون من هذا الوصف تخلص إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين.

والمعارج: جمع معرج بكسر الميم وفتح الراء وهو ما يعرج به، أي يصعد من سلم ومدرج.

)تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[4](اعتراض لبيان أن المعارج منازل من الرفعة الاعتبارية ترتقي فيها الملائكة وليست معارج يعرج إليه فيها، أي فهي معارج جعلها الله للملائكة فقرب بها من منازل التشريف، فالله معرج إليه بإذنه لا عارج، وبذلك الجعل وصف الله بأنه صاحبها، أي جاعلها، ونظيره قوله تعالى)ذو العرش(.

والروح: هو جبريل عليه السلام الموكل بإبلاغ إرادة الله تعالى وإذنه وتخصيصه بالذكر لتمييزه بالفضل على الملائكة. ونظير هذا قوله)تنزل الملائكة والروح فيها(أي في ليلة القدر.

والروح: يطلق على ما به حياة الإنسان وتصريف أعماله وهو المذكور في قوله تعالى)ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر

ربي(. فيجوز أن يكون مما شمله قوله)تعرج الملائكة والروح إليه(، أي أرواح أهل الجنة على اختلاف درجاتها في المعارج.
وهذا العروج كائن يوم القيامة وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة.
وهذه تقريبات لنهاية عظمة تلك المنازل وارتقاء أهل العالم الأشرف إليها وعظمة يوم وقوعها.
وضمير)إليه(عائد إلى الله على تأويل مضاف على طريقة تعلق بعض الأفعال بالذوات، والمراد أحوالها مثل)حرمت عليكم الميتة(أي أكلها و)في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة(يتنازع تعلقه كل من قوله)واقع(وقوله)تعرج(.
)فاصبر صبرا جميلا[5](اعتراض مفرع: أما على ما يومئ إليه) سأل سائل(من أنه سؤال استهزاء، فهذا تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم، وأما على)سأل سائل(بمعنى: دعا داع.

صفحة : 4556

فالفاء لتفريع الأمر بالصبر على جملة)سأل سائل(إذا كان ذلك السؤال بمعنييه استهزاء وتعريضا بالتكذيب فشأنه أن لا تصبر عليه النفوس في العرف.
والصبر الجميل: الصبر الحسن في نوعه وهو الذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقة الصبر، أي اصبر صبرا محضا، فإن جمال الحقائق الكاملة بخلوصها عما يعكر معناها من بقايا أضدادها، وقد مضى قوله تعالى عن يعقوب)فصبر جميل(في سورة يوسف وسيجيء قوله تعالى)واهجرهم هجرا جميلا(في المزمل.
)إنهم يرونه بعيدا[6] ونراه قريبا[7](تعليل لجملتي)سأل سائل بعذاب واقع(ولجملة)فاصبر صبرا جميلا(، أي سألوا استهزاء لأنهم يرونه محالا وعليك بالصبر لأنا نعلم تحققه، أي وأنت تثق بأنه قريب، أي محقق الوقوع، وأيضا هو تجهيل لهم إذا اغتروا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم ومن الحياة الناعمة فرأوا العذاب الموعود بعيدا، إن كان في الدنيا فلأمنهم، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث، والمعنى: وأنت لا تشبه حالهم وذلك يهون الصبر عليك فهو من باب)ولا تتبع أهوائهم(،)ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه(.
و)بعيدا(هنا كناية عن معنى الإحالة لأنهم لا يؤمنون بوقوع العذاب الموعود به، ولكنهم عبروا عنه ببعيد تشكيكا للمؤمنين فقد حكى الله عنهم أنهم قالوا)أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد(.

واستعمل)قريبا(كناية عن تحقق الوقوع على طريق المشاكلة التقديرية والمبالغة في التحقيق. وبين)بعيدا(و)قريبا(محسن الطباق.
)يوم تكون السماء كالمهل[8] وتكون الجبال كالعهن[9] ولا يسئل حميما حميما[10] يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه[11] وصاحبته وأخيه[12] وفصيلته التي تئويه[13] ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه[14] كلا إنها لظى[15] نزاعة للشوى[16] تدعوا من أدبر وتولى[17] وجمع فأوعى[18](يجوز أن يتعلق ب)يوم تكون السماء(بفعل)تعرج(، وأن يتعلق ب)يود المجرم(قدم عليه للاهتمام بذكر اليوم فيكون قوله)يوم تكون السماء كالمهل(ابتداء الكلام، والجملة المجعولة مبدأ كلام تجعل بدل اشتمال من جملة)لا يسأل حميم حميما(لأن عم المسائلة مسبب عن شدة الهول، ومما يشتمل عليه ذلك أن يود المول لو يفتدي من ذلك العذاب.
و)المهل(: دردي الزيت.
والمعنى: تشبيه السماء في انحلال أجزائها بالزيت، وهذا كقوله في سورة الرحمن)فكانت وردة كالدهان(.
والعهن: الصوف المصبوغ، قيل المصبوغ مطلقا، وقيل المصبوغ ألوانا مختلفة وهو الذي درج عليه الراغب والزمخشري، قال زهير:
كان فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطـم والفنى بالقصر: حب في البادية، يقال له: عنب الثعلب، وله ألوان بعضه أخضر وبعضه أصفر وبعضه أحمر.
والعهنة: شجر بالبادية لها ورد أحمر.
ووجه الشبه بالعهن تفرق الأجزاء كما جاءت في آية القارعة) وتكون الجبال كالعهن المنفوش(فإيثار العهن بالذكر لإكمال المشابهة لأن الجبال ذات ألوان قال تعالى)ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه(. وإنما تكون السماء والجبال بهاته الحالة حين ينحل تماسك أجزائهما عند انقراض هذا العالم والمصير إلى عالم الآخرة.
ومعنى)لا يسأل حميم حميما(لشدة ما يعتري الناس من الهول فمن شدة ذلك أن يرى الحميم حميمه في كرب وعناء فلا يتفرغ لسؤاله عن حاله لأنه في شاغل عنه، فحذف متعلق)يسأل(لظهوره من المقام ومن قوله)يبصرونهم(أي يبصر الأخلاء أحوال أخلائهم من الكرب فلا يسأل حميم حميما، قال كعب بن زهير:
وقال كل خليل كنت آملـه لا ألهينك إني عنك مشغول والحميم: الخليل الصديق.
وقرأ الجمهور بفتح ياء)يسأل(على البناء للفاعل، وقرأه أبو جعفر والبزي عن ابن كثير بضم الياء على البناء للمجهول. فالمعنى: لا يسأل حميم عن حميم بحذف حرف الجر.

  وموقع يبصرونهم الاستئناف البياني لدفع احتمال أن يقع في نفس السامع أن الأحماء لا يرى بعضهم بعضا لأن كل أحد في شاغل، فأجيب بأنهم يكشف لهم عنهم ليروا ما هم فيه من العذاب فيزدادوا عذابا فوق العذاب.
  ويجوز أن تكون جملة)يبصرونهم(في موضع الحال، أي لا يسأل حميم حميما في حال أن كل حميم يبصر حميمه يقال له: انظر ماذا يقاسي فلان. و)يبصرونهم(مضارع بصره بالأمر إذا جعله مبصرا له، أي ناظرا فأصله: يبصرون بهم فوقع فيه حذف الجار وتعدية الفعل.
  والضميران راجعان إلى)حميم(المرفوع وإلى)حميما(المنصوب، أي يبصر كل حميم حميمه فجمع الضميران نظرا إلى عموم)حميم(و)حميما(في سياق النفي.
  ويود: يحب، أي يتمنى، وذلك إما بخاطر يخطر في نفسه عند رؤية العذاب. وإما بكلام يصدر منه نظير قوله)ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا(، وهذا هو الظاهر، أي يصرخ الكافر يومئذ فيقول: افتدي من العذاب ببني وصاحبتي وفصيلتي فيكون ذلك فضيحة له يومئذ بين أهله.
  والمجرم: الذي أتى الجرم، وهو الذنب العظيم، أي الكفر لأن الناس في صدر البعثة صنفان كافر ومؤمن مطيع.
  و)يومئذ(هو)يوم تكون السماء كالمهل(فإن كان قوله)يوم تكون السماء(متعلقا ب)يود(فقوله)يومئذ(تأكيد ل)يوم تكون السماء كالمهل(، وإن كان متعلقا بقوله)تعرج الملائكة(فقوله)يومئذ(إفادة لكون ذلك اليوم هو يوم يود المجرم لو يفتدي من العذاب بمن ذكر بعده.
  و)لو(مصدرية فما بعدها في حكم المفعول ل)يود(، أي يوم الافتداء من العذاب ببنيه إلى آخره.
  وقرأ الجمهور)يومئذ(بكسر ميم)يوم(مجرورا بإضافة)عذاب الله(. وقرأه نافع والكسائي بفتح الميم على بنائه لإضافة)يوم(إلى)إذ(، وهي اسم غير متمكن والوجهان جائزان.
  والافتداء: إعطاء الفداء، وهو ما يعطى عوضا لإنقاذ من تبعة، ومنه قوله تعالى)وإن يأتوكم أسارى تفادوهم(في البقرة وقوله)ولو افتدى به(في آل عمران، والمعنى: لو يفتدي نفسه، والباء بعد مادة الفداء تدخل على العوض المبذول فمعنى الباء التعويض.
  ومعنى)من(الابتداء المجازي لتضمين فعل يفتدي معنى يتخلص.
و)صاحبته(: زوجه.

والفصيلة: الأقرباء الأدنون من القبيلة، وهم الأقرباء المفصول منهم، أي المستخرج منهم، فشملت الآباء والمهات قال ابن العربي: قال أشهب سألت مالكا عن قول الله تعالى)وفصيلته التي تؤويه(فقال هي أمه اه، أي ويفهم منها الأب بطريق لحن الخطاب فيكون قد استوفى ذكر أقرب القرابة بالصراحة والمفهوم، وأما على التفسير المشهور فالفصيلة دلت على الآباء باللفظ وتستفاد الأمهات بدلالة لحن الخطاب.

وقد رتبت الأقرباء على حسب شدة الميل الطبيعي إليهم في العرف الغالب لأن الميل الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة.

ولم يذكر الأبوان لدخولهما في الفصيله قصدا للإيجاز.

والإيواء: الضم والانحياز. قال تعالى)آوى إليه أخاه(وقال)سآوي إلى جبل(.

و)التي تؤويه(: إن كانت القبيلة، فالإيواء مجاز في الحماية والنصر، أي ومع ذلك يفتدي بها لعلمه بأنها لا تغني عنه شيئا يومئذ.

وإن كانت الأم فالإيواء على حقيقته باعتبار الماضي وصيغة المضارع لاستحضار الحالة كقوله)والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا(أي يود لو يفتدي بأمه، مع شدة تعلق نفسه بها إذا كانت تؤويه، فإيثار لفظ فصيلته وفعل تؤويه هنا من إيجاز القرآن وإعجازه ليشمل هذه المعاني.

)ومن في الأرض جميعا(عطف على)بنيه(، أي ويفتدي بمن في الأرض، أي ومن له في الأرض مما يعز عليه من أخلاء وقرابة ونفائس الأموال مما شأن الناس الشح ببذله والرغبة غي استبقائه على نحو قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(.

و)من(الموصولة لتغليب العاقل على غيره لأن منهم الأخلاء.

و)ثم(في قوله)ثم ينجيه(للتراخي الرتبي، أي يود بذل ذلك وأن ينجيه الفداء من العذاب، فالإنجاء من العذاب هو الأهم عند المجرم في ودادته والضمير البارز في قوله)ينجيه(عائد إلى الافتداء المفهوم من)يفتدي(على نحو قوله تعالى)اعدلوا هو أقرب للتقوى(.

صفحة : 4558

والمعطوف ب)ثم(هو المسبب عن الودادة فلذلك كان الظاهر أن يعطف بالفاء وهو الأكثر في مثله كقوله تعالى)ودوا لو تكفرون

كما كفروا فتكونون سواء(وقوله)ودوا لو تدهن فيدهنون(، فعدل عن عطفه بالفاء هنا إلى عطفه ب)ثم(للدلالة على شدة اهتمام المجرم بالنجاة بأية وسيلة.

ومتعلق)ينجيه(محذوف يدل عليه قوله)من عذاب يومئذ(.

و)كلا(حرف ردع وإبطال بكلام سابق، ولا يخلو من أن يذكر بعده كلام، وهو هنا لإبطال ما يخامر نفوس المجرم من الودادة، نزل منزلة الكلام لأن الله مطلع عليه أو لإبطال ما يتفوه به من تمني ذلك. قال تعالى)ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا(، ألا ترى أنه عبر عن قوله بذلك في الودادة، في قوله تعالى)يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض(أي يصيرون من ترابها.

فالتقدير: يقال له كلا، أي لا افتداء ولا إنجاء.

وجملة)إنها لظى(استئناف بياني ناشئ عما أفاده حرف)كلا(من الإبطال. وضمير)إنها(عائد إلى ما يشاهده المجرم قبالته من مرأى جهنم فأخبر بأن ذلك لظى. ولما كان)لظى(مقترنا بألف التأنيث أنث الضمير باعتبار تأنيث الخبر واتبع اسمها بأوصاف، والمقصود التعريض بأنها أعدت له، أي أنها تحرقك وتنزع شواك، وقد صرح بما وقع التعريض به في قوله)تدعو من أدبر وتولى فجمع فأوعى(، أي تدعوك يا من أدبر عن دعوة التوحيد وتولى عنها ولم يعبأ إلا بجمع المال.

فحرف)إن(للتوكيد للمعنى التعريضي من الخبر، إلا إلى الإخبار بأن ما يشاهده لظى إذ ليس بذلك بمحل التردد. و)لظى(خبر)إن(.

ويجوز أن يكون ضمير)إنها(ضمير القصة وهو ضمير الشأن، أي أن قصتك وشأنك لظى، فتكون)لظى(مبتدأ.

وقرأ الجمهور)نزاعة(بالرفع فهو خبر ثان عن)إن(أن جعل الضمير ضميرا عائدا إلى النار المشاهدة، أو هو خبر عن)لظى(إن جعل الضمير ضمير القصة وجعل)لظى(مبتدأ.

وقرأه حفص بالنصب على الحال فيتعين على قراءة حفص أن الضمير ليس ضمير قصة. والتعريض هو هو، وحرف)إن(أما للتوكيد متوجها إلى المعنى التعريضي كما تقدم، وإما لمجرد الاهتمام بالجملة التي بعده لأن الجمل المفتتحة بضمير الشأن من الأخبار المهتم بها.

ولظى: علم منقول من اسم اللهب، جعل علما ل)جهنم(، وألفه ألف تأنيث، وأصله: لظى بوزن فتى منونا اسم جنس للهب النار. فنقل اسم الجنس إلى جعله علما على واحد من جنسه، فقرن بألف تأنيث تنبيها بذلك التغيير على نقله إلى العلمية.

والعرب قد يدخلون تغيير على الاسم غير العلم إذا نقلوه إلى العلمية كما سموا شمس بفتح الشين. كما قال ابن جني في شرح قول تأبط شرا:

إني لمهدي من ثنائي فـقـاصـد به
لابن عم الصدق شمس بن مالك وليس من العلم بالغلبة إذ ليس معرفا ولا مضافا، ولاجتماع العلمية والتأنيث فيه كان ممنوعا من الصرف فلا تقول: لظى بالتنوين إلا إذا أردت جنس اللهب، ولا تقول: اللظى إلا إذا أردت لهبا معينا، فأما إذا أردت اسم جهنم فتقول لظى بألف التأنيث دون تنوين ودون تعريف.

والنزاعة: المبالغة في النزع وهو الفصل والقطع.

والشوى: اسم جمع شواة بفتح الشين وتخفيف الواو، وهي العضو غير الرأس مثل اليد والرجل فالجمع باعتبار ما لكم أحد من شوى، وقيل الشواة: جلدة الرأس فالجمع باعتبار كثرة الناس.

وجملة)تدعوا(إما خبر ثان حسب قراءة)نزاعة(بالرفع، وإما حال على القراءتين. والدعاء في قوله)تدعوا(يجوز أن يكون غير حقيقة بأن يعتبر استعارة مكنية، شبهت لظى في انهيال الناس إليها بضائف لمأدبة، ورمز إلى ذلك ب)تدعوا(وذلك على طريقة التهكم.

ويكون)من أدبر وتولى وجمع فأوعى(قرينة، أو تجريدا، أي من أدبر وتولى عن الإيمان بالله. وفيه الطباق لأن الإدبار والتولي يضادان الدعوة في الجملة إذ الشأن أن المدعو يقبل ولا يدبر، ويكون)تدعوا(مشتقا من الدعوة المضمومة الدال، أو أن يشبه إحضار الكفار عندها بدعوتها إياهم للحضور على طريقة التبعية، لأن التشبيه بدعوة المنادي، كقول ذي الرمة يصف الثور الوحشي:

أمسى بوهبين مختارا لمـرتـعـه من
ذي الفوارس تدعو أنفه الربب

الربب بكسر الراء وبموحدتين: جمع ربة بكسر الراء وتشديد الموحدة: نبات ينبت في الصيف أخضر.

ويجوز أن يكون)تدعوا(مستعملا حقيقة، و)الذين يدعون(: هم الملائكة الموكلون بجهنم، وإسناد الدعاء إلى جهنم إسنادا مجازيا لأنها مكان الداعين أو لأنها سبب الدعاء، أو جهنم تدعوا حقيقة بأن يخلق الله فيها أصواتا تنادي الذين تولوا أن يردوا عليها فتلتهمهم.

و)من أدبر وتولى وجمع فأوعى(جنس الموصوفين بأنهم أدبروا وتولوا وجمعوا وهم المجرمون الذين يودون أن يفتدوا من العذاب

يومئذ. وهذه الصفات خصائص المشركين، وهي من آثار دين الشرك التي هي أقوى باعث لهم على إعراضهم عن دعوة الإسلام.

وهي ثلاثة: الإدبار، والإعراض، وجمع المال، أي الخشية على أموالهم.

والإدبار: ترك شيء في جهة الوراء لأن الدبر هو الظهر، فأدبر: جعل شيئا وراءه بأن لا يعرج عليه أصلا أو بأن يقبل عليه ثم يفارقه.

والتولي: والإدبار عن الشيء والبعد عنه، وأصله مشتق من الولاية وهي الملازمة قال تعالى)فول وجهك شطر المسجد الحرام(، ثم قالوا: ولى عنه، أرادوا اتخذ غيره وليا، أي ترك ولايته إلى ولاية غيره مثل ما قالوا: رغب فيه ورغب عنه، فصار)ولي(بمعنى: أدبر وأعرض، قال تعالى)فاعرض عمن تولى عن ذكرنا(أي عامله بالإعراض عنه.

ففي التولي معنى إيثار غير المتولى عنه، ولذلك يكون بين التولي والإدبار فرق، وباعتبار ذلك الفرق عطف و)تولى(على)أدبر(، أي تدعو من ترك الحق وتولى عنه إلى الباطل. وهذه دقيقة من إعجاز القرآن بأن يكون الإدبار مرادا به إدبار غير تول، أي إدبارا من أول وهلة، ويكون التولي مرادا به الإعراض بعد ملابسة، ولذلك يكون الإدبار مستعارا لعدم قبول القرآن ونفي استماع دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وحال الذين قال الله فيهم)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن(، والتولي مستعار للإعراض عن القرآن بعد سماعه وللنفور عن دعوة الرسول كما قال تعالى)وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين(وكلا الحالين حال كفر ومحقة للعذاب وهما مجتمعتان في جميع المشركين.

والمقصود من ذكرهما معا تفظيع أصحابهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون متعلق)أدبر وتولى(متحدا يتنازعه، ملا الفعلين، ويقدر بنحو: عن الحق، وفي الكشاف: أدبر عن الحق وتولى عنه، إذ العبرة باختلاف معنيي الفعلين وإن كان متعلقهما متحدا.

ويجوز أن يقدر لكل فعل متعلق هو أشد مناسبة لمعناه، فقدر البيضاوي: أدبر عن الحق وتولى عن الطاعة، أي لم يقبل الحق وهو الإيمان من أصله، وأعرض عن طاعة الرسول بعد سماعه دعوته، وعن قتادة عكسه: أدبر عن طاعة الله وتولى عن كتاب الله، وتبعه الفخر والنبسابوري.

والجمع والإيعاء في قوله)وجمع فأوعى(مرتب ثانيهما على أولهما، فيدل ترتيب الثاني على الأول أن مفعول)جمع(المحذوف هو شيء مما يوعى، أي يجعل في وعاء.

والوعاء: الظرف، أي المال فكنزه ولم ينفع به المحاويج، ومنه جاء فعل)أوعى(إذا شح. وفي الحديث ولا توعي فيوعى عليك .
وفي قوله)جمع(إشارة إلى الحرص، وفي قوله)فأوعى(إشارة إلى طول الأمل. وعن قتادة)جمع فأوعى(كان جموعا للخبيث، وهذا تفسير حسن، أي بأن يقدر ل)جمع(مفعول يدل عليه السياق، أي وزاد على إدباره وتوليه أنه جمع الخبائث. وعليه يكون) فأوعى(مستعارا لملازمته ما فيه من خصال الخبائث واستمراره عليها فكأنها مختزنة لا يفرط فيها.
)إن الإنسان خلق هلوعا[19] إذا مسه الشر جزوعا[20] وإذا مسه الخير منوعا[21](معترضة بين)من أدبر وتولى وجمع فأوعى(وبين الاستثناء)إلا المصلين(الخ.
وهي تذليل لجملة)جمع فأوعى(تنبيها على خصلة تخامر نفوس البشر فتحملهم على الحرص لنيل النافع وعلى الاحتفاظ به خشية نفاذه لما فيهم من خلق الهلع. وهذا تذييل لوم وليس في مسافة عذر لمن جمع فأوعى، ولا هو تعليل لفعله.
وموقع حرف التوكيد ما تتضمنه الجملة من التعجيب من هذه الخصلة البشرية، فالتأكيد لمجرد الاهتمام بالخبر ولفت الأنظار إليه والتعريض بالحذر منه.

صفحة : 4560

والمقصود من التذييل هو قوله)وإذا مسه الخير منوعا(. وأما قوله)وإذا مسه الشر جزوعا(فتمهيد وتتميم لحالتيه.
فالمراد بالإنسان: جنس الإنسان لا فرد معين كقوله تعالى)إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى(وقوله)خلق الإنسان من عجل(، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.
وهلوع: فعول مثال مبالغة للاتصاف بالهلع.
والهلع لفظ غامض من غوامض اللغة قد تساءل العلماء عنه، قال الكشاف وعن أحمد بن يحيى وهو ثعلب قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع? فقلت: قد فسره الله ولا يكون تفسير أبين من تفسيره وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس اه. فسارت كلمة ثعلب مسيرا أقنع كثيرا من اللغويين عن زيادة الضبط لمعنى الهلع. وهي كلمة لا تخلو عن تسامح وقلة تحديد للمعنى لأنه إذا كان قول الله تعالى)إذا مسه الشر كان جزوعا وإذا مسه الخير كان منوعا(تفسيرا لمدلول الجزع، تعين أن يكون مدلول الكلمة معنى مركبا من معنيي الجملتين

لتكون الجملتان تفسيرا له، وظاهر أن المعنيين ليس بينهما تلازم، وكثيرا من أيمة اللغة فسر الهلع بالجزع، أو بشدة الجزع، أو بأفحش الجزع، والجزع: أثر من آثار الهلع وليس عينه، فإن ذلك لا يستقيم في قول عمرو بن معد يكرب:

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكـاي زنـدا إذ عطف النفي الهلع على نفي الجزع، ولو كان الهلع هو الجزع لم يحسن العطف، ولو كان أشد الجزع كان عطف نفيه على نفي الجزع حشوا. ولذلك تكلف المرزوقي في شرح الحماسة لمعنى البيت تكلفا لم يغن عنه شيئا قال: فكأنه قال: ما حزنت عليه حزنا هينا قريبا ولا فظيعا شديدا، وهذا نفي للحزن رأسا كقولك: ما رأيت صغيرهم ولا كبيرهم اه.

والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه. وأما الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشره، وبعضهم بالضجر، وبعضهم بالشح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء. وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني ويريك أنها آثار لصفة الهلع. ومعنى)خلق هلوعا(: أن الهلع طبيعة كامنة فيه مع خلقة تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والمضار فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعها البشرية، إذ ليس في تعلق الحال بعاملها دلالة على قصر العامل عليها، ولا في اتصاف صاحب الحال بالحال دلالة على أنه لا صفة له غيرها، وقد تكون للشيء الحالة وضدها باختلاف الأزمان والدواعي، وبذلك يستقيم تعلق النهي عن حال مع تحقيق تمكن ضدها من المنهي لأن عليه أن يروض نفسه على مقاومة النقائص وإزالتها عنه، وإذ ذكر الله الهلع هنا عقب مذمة الجمع والإيعاء، فقد أشعر بأن الإنسان يستطيع أن يكف عن هلعه إذا تدبر في العواقب فيكون في قوله)خلق هلوعا(كناية بالخلق عن تمكن ذلك الخلق منه وغلبته على نفسه.

المعنى: أن من مقتضى تركيب الإدراك البشري أن يحدث فيه الهلع.

صفحة : 4561

بيان ذلك أن تركيب المدارك البشرية ركز بحكمة دقيقة تجعلها قادرة على الفعل والكف، وساعية إلى الملائم ومعرضة عن المنافر. وجعلت فيها قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يجب في حدود المقدرة البدنية التي أعطاها النوع

والتي أعطيها إفراد النوع، كل ذلك ليصلح الإنسان لإعمار هذا العالم الأرضي الذي جعله الله خليفة فيه ليصلحه إصلاحا يشمله ويشمل من معه في هذا العالم إعدادا لصلاحيته لإعمار عالم الخلود، ثم جعل له إدراكا يميز الفرق بين آثار الموجودات وآثار أفعالها بين النافع منها والضار والذي لا نفع فيه ولا ضر. وخلق فيه إلهاما يحب النافع ويكره الضار، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال وبعض الذوات قد يريه الحال النافع منها ولا يريه الحال الضار فيبتغي ما يظنه نافعا غير شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل، أو شاعرا بذلك ولكن شغفه بحصول النفع العاجل يرجح عنده تناوله الآن لعدم صبره على تركه مقدرا معاذير أو حيلا يقتحم بها ما فيه من ضر آجل. وإن اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تستر عنه ضر الضار ونفع النافع فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكه أو تجنبه، وقد لا تستر عنه ذلك ولكنها تحدث فيه إيثارا لاتباع الضار لملائمة فيه ولو في وقت أو عند عارض، إعراضا عن اتباع النافع لكلفة في فعله أو منافرة لوجدانه، وذلك من اشتمال تركيب قواه الباعثة والصارفة وآلاتها التي بها تعمل وتدفع على شيء من التعاكس في أعمالها، فحدثت من هذا التركيب والبديع صلاحية للوفاء بالتدبير الصالح المنوط بعهدة الإنسان، وصلاحية لإفساد ذلك أو بعثرته.

غير أن الله جعل للإنسان عقلا وحكمة إن هو أحسن استعمالها نخلت صفاته، وثقفت من قناته، ولم يخله من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يريض جامح نفسه، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء.

فإذا أخبر عن الإنسان بشدة تلبسه ببعض النقائص وجعل ذلك في قالب أنه جبل عليه فالمقصود من ذلك: إلقاء تبعة ذلك عليه لأنه فرط في إراضة نفسه على ما فيها من جبلة الخير، وأرخى لها العنان إلى غاية الشر، وفرط في نصائح الشرائع والحكماء.

وإذا أسند ما يأتيه الإنسان من الخير إلى الله تعالى فالمقصود: التنبيه إلى نعمة الله عليه بخلق القوة الجالبة للخير فيه، ونعمة إرشاده وإيقاظه إلى الحق، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى)ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك(عقب قوله)قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا(. وفي هذا المجال زلت أفهام المعتزلة، وحلكت عليهم الأجواء، ففكروا وقدروا وما استطاعوا مخلصا وما قدروا.

واعلم أن كلمة)خلق الإنسان(إذا تعلق بها ما ليس من المواد مثل)إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج(بل كان من الأخلاق والغرائز قد يعنى بها التنبيه على جبلة الإنسان وأنها تسرع إلى

الاعتلاق بمشاعره عند تصرفاته تعريضا بذلك لوجوب الحذر من غوائلها نحو)خلق الإنسان من عجل( )إن الإنسان خلق هلوعا(، وقد ترد للعذر والرفق نحو قوله)يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا(، وقد ترد لبيان أصل ما فطر عليه الإنسان وما طرأ عليه من سوء تصرفه في أفعاله كما في قوله تعالى)لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين(ففعل الخلق من كذا مستعار لكثرة الملابسة. قال عروة بن أذينة:

إن التي زعمت فؤادك مـلـهـا خلقت هواك كما خلقت هوى لها أراد إبطال أن يكون ملها بحجة أنها خلقت حبيبة له كما خلق محبوبها، أي أن محبته إياها لا تنفك عنه.

والهلع: صفة غير محمودة، فوصف الإنسان هنا بها لوم عليه في تقصيره عن التخلق بدفع آثارها، ولذلك ذيل به قوله)وجمع فأوعى(على كلا معنييه.

وانتصب)جزوعا(على الحال في الضمير المستتر في)هلوعا(، أو على البدل بدل اشتمال لأن حال الهلع يشتمل على الجزع عند مس الشر.

وقوله)منوعا(عطف على)جزوعا(، أي خلق هلوعا في حال كونه جزوعا إذا مسه الشر، ومنوعا إذا مسه الخير.

والشر: الأذى مثل المرض والفقر.

والخير: ما ينفع الإنسان ويلائم رغباته مثل الصحة والغنى.

والجزوع: الشديد الجزع، والجزع: ضد الصبر.

والمنوع: الكثير المنع، أي شديد المنع لبذل شيء مما عنده من الخير.

و)إذا(في الموضعين ظرفان يتعلقان كل واحد بما اتصل به من وصفي)جزوعا(و)منوعا(.

)إلا المصلين[22] الذين هم على صلاتهم دائمون[23] والذين في أموالهم حق معلوم[24] للسائل والمحروم[25] والذين يصدقون بيوم الدين[26] والذين هم من عذاب ربهم مشفقون[27] إن عذاب ربهم غير مأمون[28] والذين هم لفروجهم حافظون[29] إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين[30] فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون[31] والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون[32] والذين هم بشهادتهم قائمون[33] والذين هم على صلاتهم يحافظون[

34] أولئك في جناتمكرمون[35](استثناء منقطع ناشئ عن الوعيد المبتدأ، من قوله)يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ(الآية.
فالمعنى على الاستدراك، والتقدير: لكن المصلين الموصوفين بكيت وكيت أولئك في جنات مكرمون.
فجملة)أولئك في جنات مكرمون(حيث وقعت بعد)إلا(المنقطعة وهي بمعنى)لكن(فلها حكم الجملة المخبر بها عن اسم) لكن(المشددة أو عن المبتدأ الواقع بعد)لكن(المخففة وهو ما حققه الدماميني، وإن كان ابن هشام رأى عد الجملة بعد الاستثناء المنقطع في عداد الجمل التي لا محل لها من الإعراب.
والكلام استئناف بياني لمقابلة أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين، ووعدهم بوعيدهم على عادة القرآن في أمثال هذه المقابلة.
وهذه صفات ثمان هي من أشعار المسلمين، فعدل عن إحضارهم بوصف المسلمين إلى تعداد خصال من خصالهم إطنابا في الثناء عليهم لأن مقام الثناء مقام إطناب، وتنبيها على أن كل صلة من هذه الصلات الثمان هي من أسباب الكون في الجنات.
وهذه الصفات لا يشاركه المشركون في معظمها بالمرة، وبعضها قد يتصف به المشركون ولكنهم لا يراعونه حق مراعاته باطراد، وذلك حفظ الأمانات والعهد، فالمشرك يحفظ الأمانة والعهد اتقاء مذمة الخيانة والغدر، مع أحلافه دون أعدائه، والمشرك يشهد بالصدق إذا لم يكن له هوى في الكذب، وإذا خشي أن يوصم بالكذب. وقد غدر المشركون بالمسلمين في عدة حوادث، وغدر بعضهم بعضا، فلو علم المشرك أنه لا يطلع على كذبه وكان له هوى لم يؤد الشهادة.
ولما كان وصف)المصلين(غلب على المسلمين كما دل عليه قوله تعالى)ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين(الآية، أتبع وصف المصلين في الآية هذه بوصف)الذين هم على صلاتهم دائمون(أي مواظبون على صلاتهم لا يتخلفون عن أدائها ولا يتركونها.
والدوام على الشيء: عدم تركه، وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دواما فيه كما تقرر في أصول الفقه في مسألة إفادة الأمر التكرار.
وفي إضافة)صلاة(إلى ضمير)المصلين(تنويه باختصاصها بهم، وهذا الوصف للمسلمين مقابل وصف الكافرين في قوله)بعذاب واقع للكافرين(.
ومجيء الصلة جملة اسمية دون أن يقال: الذين يدومون. لقصد إفادتها الثبات تقوية كمفاد الدوام.

وإعادة اسم الموصول مع الصلات المعطوفة على قوله)الذين هم على صلاتهم دائمون(لمزيد العناية بأصحاب تلك الصلات.
وتسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم)الحق(للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم من مواساة إخوانهم إذ لم تكن الصدقة يومئذ واجبة ولم تكن الزكاة قد فرضت.
ومعنى كون الحق معلوما أنه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم.
ومجيء الصلة جملة اسمية لإفادة ثبات هذه الخصلة فيهم وتمكنها منهم دفعا لتوهم الشح في بعض الأحيان لما هو معروف بين غالب الناس من معاودة الشح للنفوس.
والسائل: هو المستعطي، والمحروم: الذي لا يسأل الناس تعففا مع احتياجه فلا يتفطن له كثير من الناس فيبقى كالمحروم.
وأصل المحروم: الممنوع من مرغوبه، وتقدم في سورة الذاريات في قوله)وفي أموالهم حق للسائل والمحروم(. وهذه الصفة للمؤمنين مضادة صفة الكافرين المتقدمة في قوله)وجمع فأوعى(.

والتصديق بيوم الدين هو الإيمان بوقوع البعث والجزاء، والدين: الجزاء. وهذا الوصف مقابل وصف الكافرين بقوله)إنهم يرونه بعيدا(.
ولما كان التصديق من عمل القلب ولم يتصور أ، يكون فيه تفاوت أتي بالجملة الفعلية على الأصل في صلة الموصول، وأوثر فيها الفعل المضارع لدلالته على الاستمرار.
ووصفهم بأنهم من عذاب ربهم مشفقون مقابل قوله في حق الكافرين)سال سائل بعذاب واقع للكافرين(لأن سؤالهم سؤال مستخف بذلك ومحيله.
والإشفاق: توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه.
وصوغ الصلة بالجملة الاسمية لتحقيق وثبات اتصافهم بهذا الإشفاق لأنه من المغيبات، فمن شأن كثير من الناس التردد فيه.
وجملة)إن عذاب ربهم غير مأمون(معترضة، أي غير مأمون لهم، وهذا تعريض بزعم المشركين الأمن إذ قالوا)وما نحن بمعذبين(.
ووصفهم بأنهم لفروجهم حافظون مقابل قوله في تهويل حال المشركين يوم الجزاء بقوله)ولا يسأل حميم حميما(إذا أخص الأحماء بالرجل وزوجه، فقصد التعريض بالمشركين بأن هذا الهول خاص بهم بخلاف المسلمين فإنهم هم وأزواجهم يحبرون لأنهم اتقوا

الله في العفة من غير الأزواج، قال تعالى)الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين(.

وتقدم نظير هذا في سورة المؤمنين، أي ليس في المسلمين سفاح ولا زنى ولا مخالة ولا بغاء، ولذلك عقب بالتفريع بقوله)فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون(.

والعادي: المفسد، أي هم الذين أفسدوا فاختلطت أنسابهم وتطرقت الشكوك إلى حصانة نسائهم، ودخلت الفوضى في نظم عائلاتهم، ونشأت بينهم الإححن من الغيرة.

وذكر رعي الأمانات والعهد لمناسبة وصف ما يود الكافر يوم الجزاء أن يفتديه من العذاب بفصيلته التي تؤويه فيذهب منه رعي العهود التي يجب الوفاء بها للقبيلة وحسبك من تشويه حاله أنه قد نكث العهود التي كانت عليه لقومه من الدفاع عن حقيقتهم بنفسه وكان يفديهم بنفسه، والمسلم لما كان يرعى العهد بما يمليه عليه دينه جازاه الله بأن دفع عنه خزي ودادة فدائه نفسه بواليه وأهل عهده.

والقول في اسمية الصلة كالقول في الذي قبله.

والرعي: الحفظ والحراسة. وأصله رعي الغنم والإبل.

وقرأ الجمهور:)لأمانتهم(بصيغة الجمع. وقرأه ابن كثير)لأماناتهم(بالإفراد، والمراد الجنس.

وقوله)والذين هم بشهادتهم قائمون(ذكر لمناسبة ذكر رعي الأمانات إذ الشهادة من جملة الأمانات لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له كانت في حفظ الشاهد.

ولذلك كان أداء الشهادة إذا طولب به الشاهد واجبا عليه، قال تعالى)ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا(.

والقيام بالشهادة: الاهتمام بها وحفظها إلى أن تؤدى، وهذا قيام مجازي كما تقدم عند قوله تعالى)ويقيمون الصلاة(في سورة البقرة.

وباء)بشاهدتهم(للمصاحبة، أي يقومون مصاحبين للشهادة، ويصير معنى الباء في الاستعارة معنى التعدية.

فذكر القيام بالشهادة إتمام لخصال أهل الإسلام فلا يتطلب له مقابل من خصال أهل الشرك المذكورة فيما تقدم.

والقول في اسمية جملة الصلة للغرض الذي تقدم لأن أداء الشهادة يشق على الناس إذ قد يكون المشهود عليه قريبا أو صديقا، وقد يثير الشهادة على المرء إحنة منه وعداوة.

وقرأ الجمهور)بشهادتهم(بصيغة الإفراد، وهو اسم جنس يعم جميع الشهادات التي تحملوها. وقرأ حفص ويعقوب)شهاداتهم(بصيغة الجمع. وذلك على اعتبار جمع المضاف إليه.
وقوله)والذين هم على صلاتهم يحافظون(ثناء عليهم بعنايتهم بالصلاة من أن يعتريها شيء يخل بكمالها، لأن مادة المفاعلة هنا للمبالغة في الحفظ مثل: عافاه الله، وقاتله الله، فالمحافظة راجعة إلى استكمال أركان الصلاة وشروطها وأوقاتها. وإيثار الفعل المضارع لإفادة تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون به، بذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجردا تأكيد لجملة)الذين هم على صلاتهم دائمون(بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين.
وفي الأخبار النبوية أخبار كثيرة عن فضيلة الصلاة، وأن الصلوات تكفر الذنوب كحديث)ما يدريكم ما بلغت به صلاته(.
وقد حصل بين أخرى هذه الصلات وبين أولاها محسن رد العجز على الصدر.

صفحة : 4564

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله)والذين هم على صلاتهم يحافظون(يفيد تقوية الخبر مع إفادة التجدد من الفعل المضارع.
ولما أجريت عليهم هذه الصفات الجليلة أخبر عن جزائهم عليها بأنهم مكرمون في الجنة.
وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنهم استحقوا ما بعد اسم الإشارة من أجل ما سبق قبل اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(في سورة البقرة.
والإكرام: التعظيم وحسن اللقاء، أي هم من جزائهم بنعيم الجنات يكرمون بحسن اللقاء والثناء، قال تعالى)والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار(وقال) ورضوان من الله أكبر(.
وهذا يقتضي أن يكون قوله)في جنات(خبرا عن اسم الإشارة، وقوله)مكرمون(خبرا ثانيا.
)فمال الذين كفروا قبلك مهطعين[36] عن اليمين وعن الشمال عزين[37] أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم[38] كلا(فرع استفهام إنكاري وتعجيبي من تجمع المشركين إلى النبي صلى الله

عليه وسلم مستهزئين بما يسمعون من وعد المؤمنين بالجنة ووعيد المشركين بعذاب جهنم.

فرع ذلك على ما أفاده في قوله)أولئك في جنات مكرمون(.

والمعنى: أن الذين كفروا لا مطمع لهم في دخول الجنة فلماذا يحاولون بتجمعهم حولك بملامح استهزائهم.

وهذا وإن كان خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم فالمقصود به إبلاغه إليهم فيما يتلوا عليهم من القرآن فهو موجه إليهم في المعنى كما يدل عليه تنهيته بحروف الردع فهو لا يناسب أن يكون إعلاما للنبي صلى الله عليه وسلم لذلك لأنه شيء مقرر في علمه.

ومعنى)فما للذين كفروا(أي شيء ثبت للذين كفروا في حال كونهم عندك، أو في حال إهطاعهم إليك.

وقد تقدم عند قوله تعالى)قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا(في سورة البقرة. وتركيب)ماله(لا يخلوا من حال مفردة، أو جملة بعد الاستفهام تكون هي مصب الاستفهام. فيجوز أن تكون الحال المتوجه إليها الاستفهام هنا الظرف، أي) قبلك(فيكون ظرفا مستقرا وصاحب الحال هو)للذين كفروا(. ويجوز أن تكون)مهطعين(فيكون)قبلك(ظرفا لغوا متعلقا ب)مهطعين(. وعلى كلا الوجهين هما مثار التعجيب من حالهم فأيهما جعل محل التعجيب أجري الآخر المجرى اللائق به في التركيب. وكتب في المصحف اللام الداخلة على)الذين(مفصولة عن مدخولها وهو رسم نادر.

والإهطاع: مد العنق عند السير كما تقدم في قوله تعالى)مهطعين إلى الداع(في سورة القمر.

قال الواحدي والبغوي وابن عطية وصاحب الكشاف: كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه ويكذبونه ويستهزئون بالمؤمنين، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله هذه الآية.

وقبل: اسم بمعنى)عند(.

وتقديم الظرف على)مهطعين(للاهتمام به لأن التعجيب من حالهم في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم أقوى لما فيهم من الوقاحة.

وموقع قوله)عن اليمين وعن الشمال(مثل موقع)قلبك(وموقع) مهطعين(. والمقصود: كثرة الجهات، أي واردين إليك.

والتعريف في)اليمين(و)الشمال(تعريف الجنس أو الآلف واللام عوض عن المضاف إليه.

والمقصود في ذكر اليمين والشمال: الإحاطة بالجهات فاكتفي بذكر اليمين والشمال، لأنهما الجهتان اللتان يغلب حولهما، ومثله قول قطري بن الفجاءة:

فلقد أراني للرمـاح دريئة   من عن يميني مرة وأمامي يريد: من كل جهة.

و)عزين(حال من)الذين كفروا(. وعزين: جمع عزة بتخفيف الزاي، وهي الفرقة من الناس، اسم بوزن فعله. وأصله عزوة بوزن كسوة، وليست بوزن عدة. وجرى جمع عزة على الإلحاق بجمع المذكر السالم على غير قياس وهو من باب سنة من كل اسم ثلاثي حذفت لامه وعوض عنها هاء التأنيث ولم يكسر مثل عضة) للقطعة(.

صفحة : 4565

وهذا التركيب في قوله تعالى)فما للذين كفروا قبلك مهطعين(إلى قوله)جنة نعيم(يجوز أن يكون استعارة تمثيلية شبه حالهم في إسراعهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم بحال من يضن بهم الاجتماع لطلب الهدى والتحصيل على المغفرة ليدخلوا الجنة لأن الشأن أن لا يلتف حول النبي صلى الله عليه وسلم إلا طالبوا الاهتداء بهديه.

والاستفهام على هذا مستعمل في أصل معناه لأن التمثيلية تجري في مجموع الكلام مع بقاء كلماته على حقائقها.

ويجوز أن يكون الكلام استفهاما مستعملا في التعجيب من حال إسراعهم ثم تكذيبهم واستهزائهم.

وجملة)أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم(بدل اشتمال عن جملة)فمال الذين كفروا قبلك مهعطعين(الآية، لأن التفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم شأنه أن يمون لطلب الهدى والنجاة فشبه حالهم بحال طالبي النجاة والهدى فأورد استفهام عليه.

وحكى المفسرون أن المشركين قالوا مستهزئين: نحن ندخل الجنة قبل المسلمين، فجاز أن يكون الاستفهام إنكارا لتظاهرهم بالطمع في الجنة بحمل استهزائهم على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم، أو بالتعبير بفعل)يطمع(عن التظاهر بالطمع كما في قوله تعالى)يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم(أي يتظاهرون بأنهم يحذرون.

وأسند الطمع إلى كل امرئ منهم دون أن يقال: أيطمعون أن يدخلوا الجنة، تصويرا لحالهم بأنها حال جماعة يريد كل واحد منهم أن يدخل الجنة لتساويهم، يرون أنفسهم سواء في ذلك، ففي قوله)كل امرئ منهم(تقوية التهكم بهم.

ثم بني على التهكم ما يبطل ما فرض لحالهم بما نبي عليه التمثيل التهكمي بكلمة الردع وهي)كلا(أي لا يكون ذلك. وذلك انتقال من المجاز إلى الحقيقة ومن التهكم بهم إلى توبيخهم دفعا لتوهم من يتوهم أن الكلام السابق لم يكن تهكما.

وهنا تم الكلام على إثبات الجزاء.

)إنا خلقناكم مما يعلمون[39] فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون[40] على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين[41] (كلام مستأنف استئنافا ابتدائيا للانتقال من إثبات الجزاء إلى الاحتجاج على إمكان البعث لشبهتهم الباعثة على إنكاره، وهو الإنكار الذي ذكر إجمالا بقوله المتقدم آنفا)إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا(فالخبر بقوله)إنا خلقناكم مما لا يعلمون(مستعمل في لازم معناه وهو إثبات إعادة خلقهم بعد فنائهم.

فهذا من تمام الخطاب الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه أن يبلغ إلى أسماع المشركين كما تقدم آنفا.

والمعنى: أنا خلقنا الإنسان من نطفة حتى صارت إنسانا عاقلا مناظرا فكذلك نعيد خلقه بكيفية لا يعلمونها.

فما صدق)ما يعلمون(هو ما يعلمه كل أحد من أنه كون في بطن أمه من نطفة وعلقة، ولكنهم علموا هذه النشأة الأولى فألهاهم التعود بها عن التدبر في دلالتها على إمكان إعادة المكون منها بتكوين آخر.

وعدل عن أن يقال: إنا خلقناهم من نطفة، كما قال في آيات أخرى)إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج(وقال)أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هم خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم(، وغيرها من آيات كثيرة، عدل عن ذلك إلى الموصول في قوله)مما يعلمون(توجيها للتهكم بهم إذ جادلوا وعاندوا، وعلم ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون، ومنه قوله تعالى)ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون(. وكان في قوله تعالى)مما يعلمون(إيماء إلى أنهم يخلقون الخلق الثاني)مما لا يعلمون(كما قال في الآية الأخرى)سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون(وقال)وننشئكم فيما لا تعلمون(فكان في الخلق الأول سر لا يعلمونه.

ومجيء)إنا خلقناهم(موكدا بحرف التأكيد لتنزيلهم فيما صدر منهم من الشبهة الباطلة منزلة من لا يعلمون أنهم خلقوا من نطفة وكانوا معدومين، فكيف أحالوا إعادة خلقهم بعد أن عدم بعض أجزائهم وبقي بعضها ثم أتبع هذه الكناية عن إمكان إعادة الخلق بالتصريح بذلك بقوله)فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم(مفرعا على قوله)إنا خلقناهم مما يعلمون(والتقدير: فإنا لقادرون الآية.

وجملة)لا أقسم برب المشارق(الخ معترضة بين الفاء وما عطفته.
والقسم بالله بعنوان ربوبيته المشارق والمغارب معناه: ربوبيته العالم كله لأن العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها.
وجمع)المشارق والمغارب(باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته من عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات، ولذلك لم يذكر في القرآن قسم بجهة غير المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب مع أن الشمال والجنوب جهتان مشهورتان عند العرب. أقسم الله به على سنة أقسام القرآن.
وفي إيثار المشارق والمغارب بالقسم بربها رعي لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها لتمثيل الإحياء بعد الموت.
وتقدم القول في دخول حرف النفي مع)لا أقسم(عند قوله)فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون(في سورة الحاقة، وقوله)فلا أقسم بمواقع النجوم(في سورة الواقعة.
وقوله)على أن نبدل خيرا منهم(يحتمل معنيين: أولهما وهو المناسب للسياق أن يكون المعنى على أن نبدلهم خيرا منهم، أي نبدل ذواتهم خلقا خيرا من خلقهم الذي هم عليه اليوم. والخيرية في الإتقان والسرعة ونحوهما وإنما كان خلقا أتقن من النشأة الأولى لأنه خلق مناسب لعالم الخلود، وكان الخلق الأول مناسبا لعالم التغير والفناء، وعلى هذا الوجه يكون)نبدل(مضمنا معنى: نعوض، ويكون المفعول الأول ل)نبدل(ضميرا مثل ضمير)منهم(أي نبدلهم والمفعول الثاني)خيرا منهم(.
و)من(تفضيلية، أي خيرا في الخلقة، والتفضيل باعتبار اختلاف زماني الخلق الأول والخلق الثاني، أو اختلاف عالميهما.

والمعنى الثاني: أن نبدل هؤلاء بخير منهم، أي بأمة خير منهم، والخيرية في الإيمان، فيكون)نبدل(على أصل معناه، ويكون مفعوله محذوفا مثل ما في المعنى الأول، ويكون)خيرا(منصوبا على نزع الخافض وهو باء البدلية كقوله)تستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير(، ويكون هذا تهديدا لهم بأن سيستأصلهم ويأتي بقوم آخرين كما قال تعالى)إن يشا يذهبكم ويأت بخلق جديد(وقوله)وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم(.

وفي هذا تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم وتذكير بأن الله عالم بحالهم.

وذيل بقوله)وما نحن بمسبوقين(، والمسبوق مستعار للمغلوب عن أمره، شبه بالمسبوق بالحلبة، أو بالمسبوق في السير، وقد تقدم في قوله تعالى)أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون(، ومنه قول مرة بن عداء الفقعسي:

كأنك لم تسبق من الدهـر مـرة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب يريد: كأنك لم تغلب إذ تداركت أمرك وأدركت طلبتك.

و)على أن نبدل أمثالكم(متعلق ب)مسبوقين(، أي ما نحن بعاجزين على ذلك التبديل بأمثالكم كما قال في سورة الواقعة)إنا لقادرون على أن نبدل أمثالكم(.

)فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلقوا يومهم الذي يوعدون[42] يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون[43] خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون[44](تفريع على ما تضمنه قوله)فما للذين كفروا قبلك مهطعين(من إرادتهم بفعلهم ذلك وقولهم: إننا ندخل الجنة، الاستهزاء بالقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم. وبعد إبطاله إجمالا وتفصيلا فرع عن ذلك أمر الله رسوله بتركهم للعلم بأنهم لم يجد فيهم الهدي والاستدلال وأنهم مصرون على العناد والمناواة.

ومعنى الأمر بالترك في قوله)فذرهم(أنه أمر بترك ما أهم النبي صلى الله عليه وسلم من عنادهم وإصرارهم على الكفر مع وضوح الحجج على إثبات البعث ولما كان أكبر أسباب إعراضهم وإصرارهم على كفرهم هو خوضهم ولعبهم كني به عن الإعراض بقوله) يخوضوا ويلعبوا(.

فجملة)يخوضوا(وجملة)ويلعبوا(حالان من الضمير الظاهر في قوله)فذرهم(. وتلك الحال قيد للأمر في قوله)فذرهم(. والتقدير: فذر خوضهم ولعبهم ولا تحزن لعنادهم وإصرارهم.

وتعدية فعل)ذر(إلى ضميرهم من قبيل توجه الفعل إلى الذات. والمراد توجهه إلى بعض أحوالها التي لها اختصاص بذلك الفعل، مثل قوله تعالى)حرمت عليكم الميتة(أي حرم عليكم أكلها، وقوله)وإن تجمعوا بين الأختين(أي أن تجمعوهما معا في عصمة نكاح والاعتماد في هذا على قرينة السياق كما في الآيتين المذكورتين وقوله تعالى)فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون(في سورة الطور، أو على ذكر ما يدل على حالة خاصة مثل قوله) يخوضوا ويلعبوا(في هذه الآية، فقد يكون المقدر مختلفا كما في قوله تعالى)إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه(إذ التقدير: فاجتنبوا شرب الخمر والتقامر بالميسر وعبادة الأنصاب والاستقسام بالأزلام.

وهذا الاستعمال هو المعنون في أصول الفقه بإضافة التحليل والتحريم إلى الأعيان، أو إسناد التحريم والتحليل إلى الأعيان، ولوضوح دلالة ذلك على المراد لم يعده جمهور علماء الأصول من قبيل المجمل خلافا للكرخي وبعض الشافعية.

وقد يتوسل من الأمر بالترك إلى الكناية عن التحقير وقلة الاكتراث كقول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب تلهب أخاها عمرا للأخذ بثأر أخيه عبد الله وكان قد قتل:

ودع عنك عمرا ان عمرا مسالـم

وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم وما في هذه الآية من ذلك الأسلوب أي لا تكترث بهم فإنهم دون أن تصرف همتك في شأنهم مثل قوله تعالى)فلا تذهب نفسك عليهم حسرات(.

وبهذا تعلم أن قوله تعالى)فذرهم(لا علاقة له بحكم القتال، ولا هو من الموادعة ولا هو منسوخ بآيات السيف كما توهمه بعض المفسرين.

والخوض: الكلام الكثير، والمراد خوضهم في القرآن وشأن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

واللعب: الهزل والهزء وهو لعبهم في تلقي الدعوة الإسلامية وخروجهم عن حدود التعقل والجد في الأمر لاستطارة رشدهم حسدا وغيظا وحنقا.

وجزم)يخوضوا ويلعبوا(في جواب الأمر للمبالغة في ارتباط خوضهم ولعبهم بقلة الاكتراث بهم إذ مقتضى جزمه في الجواب أن يقدر: أن تذرهم يخوضوا ويلعبوا، أي يستمروا في خوضهم ولعبهم وذلك لا يضيرك، ومثل هذا الجزم كثير نحو)قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون(ونحو)قل

لعبادي يقولوا التي هي أحسن(. وبعض المفسرين والنحويين يجعل أمثالهم مجزوما بلام الأمر مقدرة على أن ذلك مقول القول وهو يفيد نكتة المبالغة.
و)حتى(متعلقة ب)ذرهم(لما فيه من معنى، أمهلهم وانتظرهم، فإن اليوم الذي وعدوه وهو يوم النشور حين يجازون على استهزائهم وكفرهم، فلا يكون غاية ل)يخوضوا ويلعبوا(والغاية هنا كناية عن دوام تركهم.
وإضافة)يوم(إلى ضميرهم لأدنى ملابسة.
وقرأ الجمهور)يلاقوا(بألف بعد اللام من الملاقاة. وقرأه أبو جعفر بدون ألف من اللقاء.
واللقاء: مجاز على كل تقدير: فعلى قراءة الجمهور وهو مجاز من جهتين لأن اليوم لا يلقي ولا يلقى. وعلى قراءة أبي جعفر وهو مجاز من جهة واحدة لأن اللقاء إنما يقع بين الذوات.
و)يوم يخرجون من الأجداث(بدل من)يومهم(ليس ظرفا.
والخروج: بروز أجسادهم من الأرض.
وقرأ الجمهور)يخرجون(بفتح التحتية على البناء للفاعل. وقرأه أبو بكر عن عاصم بضمها على البناء للمفعول.
والأجداث: جمع جدث بفتحتين وهو القبر، والقبر: حفير يجعل لمواراة الميت.
وضمير)يخرجون(عائد إلى المشركين المخبر عنه بالأخبار السابقة. وجميعهم قد دفنوا في قبور أو وضعوا في قليب بدر.
والنصب بفتح فسكون: الصنم، ويقال: نصب بضمتين، ووجه تسميته نصبا أنه ينصب للعبادة، قال الأعشى:
وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ولا تعبد الشيطان والله فاعبـدا و)يوفضون(مضارع أوفض، إذا أسرع وعدا في سيره، أي كأنهم ذاهبون إلى صنم، شبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها لأن لهذا الإسراع اختصاصا بهم، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام وإيماء إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دع، ودفع جزاء على إسراعهم للأصنام.
وقرأ الجمهور)نصب(بفتح النون وسكون الصاد. وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم بضم النون والصاد.

وخشوع الأبصار استعارة للنظر إلى أسفل من الذل، كما قال تعالى)ينظرون من طرف خفي(وقال)خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر(. وأصل الخشوع: ضهور الطاعة أو المخافة على الإنسان.

والرهق: الغشيان، أي التغطية بساتر، وهو استعارة هنا لأن الذل لا تغشى.

وجملة)ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون(فذلكه لما تضمنته السورة في أول أغراضها من قوله)بعذاب واقع(إلى قوله)في يوم كان مقداره(الآيات، وهي مفيدة مع ذلك تأكيد جملة)حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون(. وفيها محسن رد العجز على الصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح

بهذا الاسم سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير، وترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه بترجمة)سورة إنا أرسلنا نوحا(. ولعل ذلك كان الشائع في كلام السلف ولم يترجم لها الترمذي في جامعه.

وهي مكية بالاتفاق.

وعدت الثالثة والسبعين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد نزول أربعين آية من سورة النحل وقبل سورة الطور.

وعد العادون بالمدينة ومكة آيها ثلاثين آية، وعدها أهل البصرة والشام تسعا وعشرين آية، وعدها أهل الكوفة ثمانا وعشرين آية.

أغراضها

أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا، وهو أعظم عقاب أعني الطوفان. وفي ذلك تمثيل لحال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه بحالهم.

وفيها تفصيل كثير من دعوة نوح عليه السلام إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام وإنذاره قومه بعذاب أليم واستدلاله لهم ببدائع صنع الله تعالى وتذكيرهم بيوم البعث.

وتصميم قومه على عصيانه وعلى تصلبهم في شركهم.

وتسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها.

ودعوة نوح على قومه بالاستئصال.

وأشارت إلى الطوفان.

ودعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين، وبالتبار للكافرين كلهم.

وتخلل ذلك إدماج وعد المطيعين بسعة الأرزاق وإكثار النسل ونعيم الجنة.

)إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم[1](افتتاح الكلام بالتوكيد للاهتمام بالخبر إذ ليس المقام لرد إنكار منكر، ولا دفع شك عن متردد في هذا الكلام. وكثيرا ما يفتتح بلغاء العرب أول الكلام بحرف التوكيد لهذا الغرض وربما جعلوا)إن(داخلة على ضمير الشأن في نحو قوله تعالى)إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علي(الآية.

وذكر نوح عليه السلام مضى في سورة آل عمران. وتقدم أن هذا الاسم غير عربي، وأنه مشتق من مادة النوح.

و)أن أنذر قومك(إلى آخره هو مضمون ما أرسل به نوح إلى قومه، ف)أن(تفسيرية لأنها وقعت بعد)أرسلنا(. وفيه معنى القول دون حروفه. ومعنى)من قبل أن يأتيهم عذاب أليم(أنه يخوفهم غضب الله تعالى عليهم إذ عبدوا الأصنام ولم يتقوا الله ولم يطيعوا ما جاءهم به رسوله، فأمره الله أن ينذرهم عذابا يأتيهم من الله ليكون إنذاره مقدما على حلول العذاب. وهذا يقتضي أنه أمر بأن يعلمهم بهذا العذاب، وأن الله وقته بمدة بقائهم بعد الشرك بعد إبلاغ نوح إليهم ما أرسل به في مدة يقع الإبلاغ في مثلها، فحذف متعلق فعل)أنذر(لدلالة ما يأتي بعده من قوله)أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون(.

وحرف)من(زائد للتوكيد، أي قبل أن يأتيهم عذاب فهي قبلية مؤكدة وتأكيدها باعتبار تحقيق ما أضيف إليه)قبل(.

و)قوم نوح(هم الناس الذين كانوا عامرين الأرض يومئذ، إذ لا يوجد غيرهم على الأرض كما هو ظاهر حديث الشفاعة وذلك صريح ما في التوراة.

والقوم: الجماعة من الناس الذين يجمعهم موطن واحد أو نسب واحد برجالهم ونسائهم وأطفالهم.

وإضافة)قوم(إلى ضمير)نوح(لأنه أرسل إليهم فلهم مزيد اختصاص به، ولأنه واحد منهم وهم بين أبناء له وأنسباء فإضافتهم إلى ضميره تعريف لهم إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم الواقعة من بعد.

وعدل عن أن يقال له: أنذر الناس إلى قوله)أنذر قومك(إلهابا لنفس نوح ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته، وهم عدد تكون بالتوالد في بني آدم في مدة ستمائة سنة من حلول جنس الإنسان على الأرض. ولعل عددهم يوم أرسل نوح إليهم لا يتجاوز بضعة آلاف.

)قال يا قوم إني لكم نذير مبين[2] أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون[3] يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى[3](لم تعطف جملة)قال يا قوم(بالفاء التفريعية على جملة)أرسلنا نوحا إلى قومه(لأنها في معنى البيان لجملة)أنذر قومك(لدلالتها على أنه أنذر قومه بما أمره الله أن يقوله لهم، وإنما أدمج فيه فعل قول نوح للدلالة على أنه أمر أن يقول فقال، تنبيها على مبادرة نوح لإنذار قومه في حين بلوغ الوحي إليه من الله بأن ينذر قومه.

ولك أن تجعلها استئنافا بيانيا لجواب سؤال السامع أن يسأل ماذا فعل نوح حين أرسل الله إليه)أن أنذر قومك(، وهما متقاربان.

وافتتاح دعوته قومه بالنداء لطلب إقبال أذهانهم، ونداؤهم بعنوان: أنهم قومه، تمهيد لقبول نصحه إذ لا يريد الرجل لقومه إلا ما يريد لنفسه. وتصدير دعوته بحرف التوكيد لأن المخاطبين يترددون في الخبر.

والنذير: المنذر غير جار على القياس، وهو مثل بشير، ومثل حكيم بمعنى محكم، وأليم بمعنى مؤلم، وسميع بمعنى مسمع، في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع وقد تقدم في أول سورة البقرة عند قوله)ولم عذاب أليم(. وحذف متعلق)نذير(لدلالة قوله)أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون(عليه. والتقدير: إني لكم نذير بعذاب أليم إن لم تعبدوا الله ولم تتقوه ولم تطيعوني.

والمبين: يجوز أن يكون من أبان المتعدي الذي مجرده بان، أي موضح أو من أبان القاصر، الذي هو مرادف بان المجرد، أي نذير واضح لكم أني نذير، لأني لا أجتني من دعوتكم فائدة من متاع لدنيا وإنما فائدة ذلك لكم، وهذا مثل قوله في سورة الشعراء)وما أسألكم عليه من أجر إن أجرس إلا على رب العامين فاتقوا الله وأطيعون(.

وتقديم)لكم(على عامله وهو)نذير(للاهتمام بتقديم ما دلت عليه اللام من كون النذارة لفائدتهم لا لفائدته.

فجمع في صدر دعوته خمسة مؤكدات، وهي: النداء، وجعل المنادى لفظ)يا قوم(المضاف إلى ضميره، وافتتاح كلامه بحرف التأكيد، واجتلاب لام التعليل، وتقديم مجرورها.

و)أن(في)أن اعبدوا(تفسيرية لأن وصف)نذير(فيه معنى القول دون حروفه، وأمرهم بعبادة الله لأنهم أعرضوا عنها ونسوها بالتمحض لأصنامهم، وكان قوم نوح مشركين كما دل عليه قوله تعالى في سورة يونس)فأجمعوا أمركم وشركاءكم(. وبذلك كان تمثيل حال المشركين من العرب بحال قوم نوح تمثيلا تاما.

واتقاء الله اتقاء غضبه، فهذا من تعليق الحكم باسم الذات. والمراد: حال من أحوال الذات من باب)حرمت عليكم الميتة(أي أكلها، أي بأن يعلموا أنه لا يرضى لعباده الكفر به. وطاعتهم لنوح هي امتثالهم لما دعاهم إليه من التوحيد وقد قال المفسرون: لم يكن في شريعة نوح إلا الدعوة إلى التوحيد فليس في شريعته أعمال تطلب الطاعة فيها لكن لم تخل شريعة إلهية من تحريم الفواحش مثل قتل الأنفس وسلب الأموال، فقوله)يغفر لكم من ذنوبكم(ينصرف بادئ ذي بدء إلى ذنوب الإشراك اعتقادا وسجودا.
وجزم)يغفر لكم من ذنوبكم(في جواب الأوامر الثلاثة)اعبدوا الله واتقوه وأطيعون(، أي إن تفعلوا ذلك يغفر الله لكم من ذنوبكم. وهذا وعد بخير الآخرة.
وحرف)من(زائد للتوكيد(، وهذا من زيادة)من(في الإيجاب على رأي كثير من أيمة النحو مثل الخفش وأبي علي الفارسي وابن جني من البصريين وهو قول الكسائي وجميع نحاة الكوفة. فيفيد أن الإيمان يجب ما قبله في شريعة نوح مثل شريعة الإسلام.
ويجوز أن تكون)من(للتبعيض، عند من أثبت ذلك وهو اختيار التفتزاني، أي يغفر لكم بعض ذنوبكم، أي ذنوب الإشراك وما معه، فيكون الإيمان في شرع نوح لا يقتضي مغفرة جميع الذنوب السابقة، وليس يلزم تماثل الشرائع في جميع الأحكام الفرعية، ومغفرة الذنوب من تفاريع الدين وليست من أصوله. وقال ابن عطية: معنى التبعيض: مغفرة الذنوب السابقة دون ما يذنبون من بعد. وهذا يتم ويحسن إذا قدرنا أن شريعة نوح تشمل على أوامر ومنهيات عملية فيكون ذكر)من(التبعيضية اقتصادا في الكلام بالقدر المحقق.

وأما قوله)يؤخركم إلى أجل مسمى(فهو وعد بخير دنيوي يستوي الناس في رغبته، وهو طول البقاء فإنه من النعم العظيمة لأن في جبلة الإنسان حب البقاء في الحياة على ما في الحياة من عوارض ومكدرات. وهذا ناموس جعله الله تعالى في جبلة الإنسان لتجري أعمال الناس على ما يعين على حفظ النوع. قال المعري:
وكل يريد العيش والعيش حتفه
ويستعذب اللذات وهي سمام والتأخير: ضد التعجيل، وقد أطلق التأخير على التمديد والتوسيع من أجل الشيء.

وقد أشعر وعده إياهم بالتأخير أنه تأخير مجموعهم، أي مجموع قومه لأنه جعل جزاء لكل من عبد الله منهم واتقاه وأطاع الرسول، فدل على أنه أنذرهم في خلال ذلك باستئصال القوم كلهم، وأنهم كانوا على علم بذلك كما أشار إليه قوله)أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم(كما تقدم آنفا، وكما يفسره قوله تعالى في سورة هود)ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه(أي سخروا من الأمر الذي يصنع الفلك للوقاية منه. وهو أمر الطوفان، فتعين أن التأخير المراد هنا هو عدم استئصالهم. والمعنى: ويؤخر القوم كلهم إلى أجل مسمى وهو آجال إشخاصهم وهي متفاوتة.

والأجل المسمى: هو الأجل المعين بتقدير الله عند خلقه كل أحد منه، فالتنوين في)أجل(للنوعية، أي الجنس، وهو صادق على آجال متعددة بعدد أصحابها كما قال تعالى)ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر(ومعنى)مسمى(أنه محدد معين وهو ما في قوله تعالى)وأجل مسمى عنده(في سورة الأنعام.

فالأجل المسمى: هو عمر كل واحد، المعين له في ساعة خلقه المشار إليه في الحديث أن الملك يؤمر بكتب أجل المخلوق عندما ينفخ فيه الروح ، واستعيرت التسمية للتعيين لشبه عدم الاختلاط بين أصحاب الآجال.

والمعنى: ويؤخركم فلا يعجل بإهلاككم جميعا فيؤخر كل أحد إلى أجله المعين له على تفاوت آجالهم.

فمعنى هذه الآية نظير معنى آية سورة هود)وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى(وهي على لسان محمد صلى الله عليه وسلم.

)إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون[4](يحتمل أن تكون هذه الجملة تعليلا لقوله)ويؤخركم إلى أجل مسمى(، أي تعليلا للربط الذي بين الأمر وجزائه من قوله)أن اعبدوا الله(إلى قوله)ويؤخركم(الخ لأن الربط بين الأمر وجوابه يعطي بمفهومه معنى: إن لا تعبدوا الله ولا تتقوه ولا تطيعوني لا يغفر لكم ولا يؤخركم إلى أجل مسمى، فعلل هذا الربط والتلازم بين هذا الشرط المقدر وبين جزائه بجملة)إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر(، أي أن الوقت الذي عينه الله لحلول العذاب بكم إن لم تعبدوه ولم تطيعون إذا جاء إبانه باستمراركم على الشرك لا ينفعكم الإيمان ساعتئذ، كما قال تعالى)فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين(، فيكون هذا حثا على التعجيل بعبادة الله وتقواه.

فالأجل الذي في قوله)إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر(غير الأجل الذي في قوله)ويؤخركم إلى أجل مسمى(ويناسب ذلك قوله عقبه)لو كنتم تعلمون(المقتضي أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة المتعلقة بآجال الأمم المعينة لاستئصالهم، وأما عدم تأخير آجال الأعمار عند حلولها فمعلوم للناس مشهور في كلام الأولين. وفي إضافة)
أجل(إلى اسم الجلالة في قوله)إن أجل الله إذا جاء لا
يؤخر(إيماء إلى أنه ليس الأجل المعتاد بل هو أجل عينه الله إنذارا لهم ليؤمنوا بالله. ويحتمل أن تكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تحديد غاية تأخيرهم إلى أجل مسمى فيسأل السامع في نفسه عن علة تنهية تأخيرهم بأجل آخر فيكون أجل الله غير الأجل الذي في قوله)إلى أجل مسمى(.

وإضافته إلى الله إضافة كشف، أي الأجل الذي عينه الله وقدره لكل أحد.

وبهذا تعلم أنه لا تعارض بين قوله)ويؤخركم إلى أجل
مسمى(وبين قوله)إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر(إما لاختلاف المراد بلفظي)الأجل(في قوله)إلى أجل مسمى(وقوله)إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر(، وإما لاختلاف معنيي التأخير في قوله)إذا جاء لا يؤخر(فانفكت جهة التعارض.

صفحة : 4571

أما مسألة تأخير الآجال والزيادة في الأعمار والنقص منها وتوحيد الأجل عندنا واضطراب أقوال المعتزلة في هل للإنسان أجل واحد أو أجلان فتلك قضية أخرى ترتبط بأصلين: أصل العلم الإلهي بما سيكون، وأصل تقدير الله للأسباب وترتب مسبباتها عليها.

فأما ما في علم الله فلا يتغير قال تعالى)وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب(أي في علم الله، والناس لا يطلعون على ما في علم الله.

وأما وجود الأسباب كلها كأسباب الحياة، وترتب مسبباتها عليها فيتغير بإيجاد الله مغيرات لم تكن موجودة إكراما لبعض عباده أو إهانة لبعض آخر. وفي الحديث صدقة المرء المسلم تزيد في العمر . وهو حديث حسن مقبول. وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن يمد في عمره فليتق الله وليصل رحمه . وسنده جيد، فآجال الأعمار المحددة بالزمان أو بمقدار قوة الأعضاء وتناسب حركتها قابلة للزيادة والنقص. وآجال العقوبات الإلهية المحددة بحصول الأعمال المعاقب عليها بوقت قصير أو فيه مهلة

غير قابلة للتأخير وهي ما صدق قوله)إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر(وقد قال الله تعالى)يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب(على أظهر التأويلات فيه وما في علم الله من ذلك لا يخالف ما يحصل في الخارج.

فالذي رغب نوح قومه فيه هو سبب تأخير آجالهم عند الله فلو فعلوه تأخرت آجالهم وبتأخيرها يتبين أن قد تقرر في علم الله أنهم يعملون ما يدعوهم إليه نوح وأن آجالهم تطول، وإذ لم يفعلوه فقد كشف للناس أن الله علم أنهم لا يفعلون ما دعاهم إليه نوح وأن الله قاطع آجالهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم اعملوا فكل ميسر إلى ما خلق إليه ، وقد استعصى فهم هذا على كثير من الناس فخلطوا بين ما هو مقرر في علم الله وما أظهره قدر الله في الخارج الوجودي.

وفي إقحام فعل)كنتم(قبل)تعلمون(إيذان بأن عملهم بذلك المنتفي لوقوعه شرطا لحرف)لو(محقق انتفاؤه كما بيناه في قوله تعالى)أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم(في سورة يونس.

وجواب)لو(محذوف دل عليه قوله)لا يؤخر(. والتقدير: لأيقنتم أنه لا يؤخر.

)قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا[5] فلم يزدهم دعائي إلا فرارا[6](جرد فعل)قال(هنا، من العاطف لأنه حكاية جواب نوح عن قول الله له)أنذر قومك(عومل معاملة الجواب الذي يتلقى به الأمر على الفور على طريقة المحاورات التي تقدمت في قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة، تنبيها على مبادرة نوح بإبلاغ الرسالة إلى قومه وتمام حرصه في ذلك كما أفاده قوله)ليلا ونهارا(وحصول يأسه منهم، فجعل مراجعته ربه بعد مدة مستفادة من قوله)ليلا ونهارا(بمنزلة المراجعة في المقام الواحد بين المتحاورين. ولك أن تجعل جملة)قال رب(الخ مستأنفة استئنافا بيانيا لأن السامع يترقب معرفة ماذا أجاب قوم نوح دعوته فكان في هذه الجملة بيان ما يترقبه السامع مع زيادة مراجعة نوح ربه تعالى.

وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه وهو الشكاية والتمهيد لطلب النصر عليهم لأن المخاطب به عالم بمدلول الخبر. وذلك ما سيفضي إليه بقوله)وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا(الآيات.

وفائدة حكاية ما ناجى به نوج ربه إظهار توكله على الله، وانتصار الله له، والإتيان على مهمات من العبرة بقصته، بتلوين لحكاية

أقواله وأقوال قومه وقول الله له. وتلك ثمان مقالات هي: 1-)أن أنذر قومك(الخ.
2-)قال يا قوم إني لكم نذير مبين(الخ.
3-)قال رب إني دعوت قومي(الخ.
4-)فقلت استغفروا ربكم(الخ.
5-)قال نوح رب إنهم عصوني(الخ.
6-)ولا تزد الظالمين إلا ضلالا(الخ.
7-)وقال نوح رب لا تذر على الأرض(الخ.
8-)رب اغفر لي(الخ.

وجعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم في أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره، من أوقات النشاط وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدو وراحة البال وهي أوقات الليل.

صفحة : 4572

ومعنى)لم يزدهم دعائي إلا فرارا(أن دعائي لهم بأن يعبدوا الله وبطاعتهم لي لم يزدهم ما دعوتهم إليه إلا بعدا منه، فالفرار مستعار لقوة الإعراض، أي فلم يزدهم دعائي إياهم قربا مما أدعوهم إليه.

واستثناء الفرار من عموم الزيادات استثناء منقطع. والتقدير: فلم يزدهم دعائي قربا من الهدى لكن زادهم فرارا كما في قوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام)فما يزيدونني غير تخسير(.

وإسناد زيادة الفرار إلى الدعاء مجاز لأن دعاءه إياهم كان سببا في تزايد إعراضهم وقوة تمسكهم بشركهم.

وهذا من الأسلوب المسمى في علم البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم، أو تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وهو هنا تأكيد إعراضهم المشبه بالابتعاد بصورة تشبه ضد الإعراض.

ولما كان فرارهم من التوحيد ثابتا لهم من قبل كان قوله)لم يزدهم دعاءي إلا فرارا(من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

وتصدير كلام نوح بالتأكيد لإرادة الاهتمام بالخير.

)وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا[7]( )كلما(مركبة من كلمتين كلمة)كل(وهي اسم يدل على استغراق أفراد ما تضاف هي إليه، وكلمة)ما(المصدرية وهي حرف يفيد أن الجملة بعده في تأويل مصدر.

وقد يراد بذلك المصدر زمان حصوله فيقولون)ما(ظرفية مصدرية لأنها نائبة عن اسم الزمان.

والمعنى: أنهم لم يظهروا مخيلة من الإصغاء إلى دعوته ولم يتخلفوا عن الإعراض والصدود عن دعوته طرفة عين، فلذلك جاء بكلمة)كلما(الدالة على شمول كل دعوة من دعواته مقترنة بدلائل الصد عنها، وقد تقدم عند قوله تعالى)كلما أضاء لهم مشوا فيه(.

وحذف متعلق)دعوتهم(لدلالة ما تقدم عليه من قوله)أن اعبدوا الله(.

والتقدير: كلما دعوتهم إلى عبادتك وتقواك وطاعتي فيما أمرتهم به.

واللام في قوله)لتغفر(لام التعليل، أي دعوتهم بدعوة التوحيد فهو سبب المغفرة، فالدعوة إليه معللة بالغفران.

ويتعلق قوله)كلما دعوتهم(بفعل)جعلوا أصابعهم(على أنه ظرف زمان.

وجملة)جعلوا أصابعهم(خبر)إن(والرابط ضمير)دعوتهم(.

وجعل الأصابع في الآذان يمنع بلوغ أصوات الكلام إلى السامع.

وأطلق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة البعضية فإن الذي يجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كله فعبر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها، وتقدم في قوله تعالى)يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق(في سورة البقرة.

واستغشاء الثياب: جعلها غشاء، أي غطاء على أعينهم، تعضيدا لسد آذانهم بالأصابع لئلا يسمعوا كلامه ولا ينظروا إشاراته، وأكثر ما يطلق الغشاء على غطاء العينين، قال تعالى)وعلى أبصارهم غشاوة(. والسين والتاء في)استغشوا(للمبالغة.

فيجوز أ، يكون جعل الأصابع في الآذان واستغشاء الثياب هنا حقيقة بأن يكون ذلك من عادات قوم نوح إذا أراد أحد أن يظهر كراهية لكلام من يتكلم معه أن يجعل إصبعيه في أذنيه ويجعل من ثوبه ساترا لعينيه.

ويجوز أن يكون تمثيلا لحالهم في الإعراض عن قبول كلامه ورؤية مقامه بحال من يسك سمعه بأنملتيه ويحجب عينيه بطرف ثوبه.

وجعلت الدعوة معللة بمغفرة الله لهم لأنها دعوة إلى سبب المغفرة وهو الإيمان بالله وحده وطاعة أمره على لسان رسوله.

وفي ذلك تعريض بتحميقهم وتعجب من خلقهم ذ يعرضون عن الدعوة لما فيه نفعهم فكان مقتضى الرشاد أن يسمعوها ويتدبروها.

والإصرار: تحقيق العزم على فعل، وهو مشتق من الصر وهو الشد على شيء والعقد عليه، وتقدم عند قوله تعالى)ولم يصروا على ما فعلوا(في سورة آل عمران.

وحذف متعلق)أصروا(لظهوره، أي أصروا على ما هم عليه من الشرك.
)واستكبروا(مبالغة في تكبروا، أي جعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم)قالوا ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادئ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل(.
وتأكيد)استكبروا(بمفعوله المطلق للدلالة على تمكن الاستكبار.
وتنوين)استكبارا(للتعظيم، أي استكبارا شديدا لا يفله حد الدعوة.

صفحة : 4573

)ثم إني دعوتهم جهارا[8] ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا[9] فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا[10] يرسل السماء عليكم مدرارا[11] ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا[12](ارتقى في شكواه واعتذاره بأن دعوته كانت مختلفة الحالات في القول من جهر وإسرار، فعطف الكلام ب)ثم(التي تفيد في عطفها الجمل أن مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليها، لأن اختلاف كيفية الدعوة ألصق بالدعوة من أوقات إلقائها لأن الحالة أشد ملابسة بصاحبها من ملابسة زمانه. فذكر أنه دعاهم جهارا، أي علنا.
وجهار: اسم مصدر جهر، وهو هنا وصف لمصدر)دعوتهم(، أي دعوة جهارا.
وارتقى فذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار لأن الجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة وأغلظ من إفراد إحداهما. فقوله)أعلنت لهم(تأكيد لقوله)دعوتهم جهارا(ذكر ليبني عليه عطف)وأسررت لهم إسرارا(.
والمعنى: أنه توخى ما يضنه أوغل إلى قلوبهم من صفات الدعوة فجهير حينما يكون الجهر أجدى مثل مجامع العامة، وأسر للذين يظنهم متجنبين لوم قومهم عليهم في التصدي لسماع دعوته وبذلك تكون ضمائر الغيبة في قوله)دعوتهم(، وقوله)أعلنت لهم وأسررت(موزعة على مختلف الناس.
وانتصب)جهارا(بالنيابة عن المفعول المطلق المبين لنوع الدعوة.
وانتصب)إسرارا(على أنه مفعول مطلق مفيد للتوكيد، أي إسرارا خفيا.
ووجه توكيد الإسرار أن إسرار الدعوة كان في حال دعوته سادتهم وقادتهم لأنهم يمتعضون من إعلان دعوتهم بمسمع من أتباعهم.

وفصل دعوته بفاء التفريع فقال)فقلت استغفروا ربكم(فهذا القول هو الذي قال لهم ليلا ونهارا وجهارا وإسرارا.
ومعنى)استغفروا ربكم(، آمنوا إيمانا يكون استغفارا لذنبكم فإنكم إن فعلتم غفر الله لكم.
وعلل ذلك لهم بأن الله موصوف بالغفران صفة ثابتة تعهد الله بها لعباده المستغفرين، فأفاد التعليل بحرف)إن(وأفاد ثبوت الصفة لله بذكر فعل)كان(. وأفاد كمال غفرانه بصيغة المبالغة بقوله)غفارا(.
وهذا وعد بخير الآخرة ورتب عليه وعدا بخير الدنيا بطريق جواب الأمر، وهو)يرسل السماء عليكم(الآية.
وكانوا أهل فلاحة فوعدهم بنزول المطر الذي به السلامة من القحط وبالزيادة في الأموال.
والسماء: هنا المطر، ومن أسماء المطر السماء. وفي حديث الموطأ والصحيحين عن زيد بن خالد الجهني: أنه قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل الحديث. وقال معاوية بن مالك بن جعفر:
إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه
وإن كانوا غضابا والمدرار: الكثيرة الدر والدرور، وهو السيلان، يقال: درت السماء بالمطر، وسماء مدرار.
ومعنى ذلك: أن يتبع بعض الأمطار بعضا.
ومدرار، زنة مبالغة، وهذا الوزن لا تلحقه علامة التأنيث إلا نادرا كما في قول سهل بن مالك الفزاري:
أصبح يهوى حرة معطارة فلذلك لم تلحق التاء هنا مع أن اسم السماء مؤنث.
والإرسال: مستعار للإيصال والإعطاء، وتعديته ب)عليكم(لأنه إيصال من علو كقوله)وأرسل عليهم طيرا أبابيل(.
و)أموال(: جمع مال وهو يشمل كل مكسب يبذله المرء في اقتناء ما يحتاج إليه.
والمراد بالجنات في قوله)ويجعل لكم جنات(النخيل والأعناب، لأن الجنات تحتاج إلى السقي.
وإعادة فعل يجعل بعد واو العطف في قوله)ويجعل لكم أنهارا(للتوكيد اهتماما بشأن المعطوف لأن الأنهار قوام الجنات وتسقي المزارع والأنعام.
وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش قال تعالى)من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة(وقال)ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض(وقال)وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا(.

)ما لكم لا ترجون لله وقارا[13] وقد خلقكم أطوارا[14](بدل خطابه مع قومه من طريقة النصح والأمر إلى طريقة التوبيخ بقوله)ما لكم لا ترجون لله وقارا(.

وهو استفهام صورته صورة السؤال عن أمر ثبت لهم في حال انتفاء رجائهم توقير الله.

والمقصود أنه لا شيء يثبت لهم صارف عن توقير الله فلا عذر لكم في عدم توقيره.

وجملة)لا ترجون(في موضع الحال من ضمير المخاطبين، وكلمة)ما لك(ونحوها تلازمها حال بعدها نحو)فما لهم عن التذكرة معرضين(.

وقد اختلف في معنى قوله)ما لكم لا ترجون لله وقارا(في تعلق معمولاته بعوامله على أقوال: بعضها يرجع إلى إبقاء معنى الرجاء على معناه المعروف وهو ترقب الأمر، وكذلك معنى الوقار على المتعارف وهو العظمة المقتضية للإجلال، وبعضها يرجع إلى تأويل معنى الرجاء، وبعضها إلى تأويل معنى الوقار، ويتركب من الحمل على الظاهر ومن التأويل أن يكون التأويل في كليهما، أو أن يكون التأويل في أحدهما مع إبقاء الآخر على ظاهر معناه.

فعلى حمل الرجاء على المعنى المتعارف الظاهر وحمل الوقار كذلك. قال ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح وبن كيسان: ما لكم لا ترجون ثوابا من الله ولا تخافون عقابا، أي فتعبدوه راجين أن يثيبكم على عبادتكم وتوقيركم إياه. وهذا التفسير ينحو إلى أن يكون في الكلام اكتفاء، أي ولا تخافون عقابا. وإن نكتة الاكتفاء بالتعجب من عدم رجاء الثواب: أن ذلك هو الذي ينبغي أن يقصده أهل الرجاء والتقوى. وإلى هذا المعنى قال صاحب الكشاف: إذ صدر بقوله: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب.

وهذا يقتضي أن يكون الكلام كناية تلويحية عن حثهم على الإيمان بالله الذي يستلزم رجاء ثوابه وخوف عقابه لأن من رجا تعظيم الله إياه آمن به وعبده وعمل الصالحات.

وعلى تأويل معنى الرجاء قال مجاهد والضحاك: معنى)لا ترجون(لا تبالون لله عظمة. قال قطرب: هذه لغة حجازية لمضر وهذيل وخزاعة يقولون: لم أرج أي لم أبال، وقال الوالبي والعوفي عن ابن عباس: معنى)لا ترجون(لا تعلمون، وقال مجاهد أيضا: لا

ترون، وعن ابن عباس أنه سأله عنها نافع بن الأزرق، فأجابه أن الرجاء بمعنى الخوف، وأنشد قول أبي ذؤيب: إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل أي لم يخف لسعها واستمر على اشتيار العسل. قال الفراء: إنما يوضع الرجاء موضع الخوف لأن مع الرجاء طرفا من الخوف من الناس ومن ثم استعمل الخوف بمعنى العلم كقوله تعالى)فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله(الآية. والمعنى: لا تخافون عظمة الله وقدرته بالعقوبة.

وعلى تأويل الوقار قال قتادة: الوقار: العاقبة، أي ما لكم لا ترجون لله عاقبة، أي عاقبة الإيمان، أي أن الكلام كناية عن التوبيخ على تركهم الإيمان بالله، وجعل أبو مسلم الأصفهاني: الوقار بمعنى الثبات، قال: ومنه قوله تعالى)وقرن في بيوتكن(أي اثبتن، ومعناه: ما لكم لا تثبتون وحدانية الله.

وتتركب من هذين التأويلين معان أخرى من كون الوقار مسندا في التقرير إلى فاعله أو إلى مفعوله، وهي لا تخفى.

وأما قوله)لله(فالأظهر أنه متعلق ب)ترجون(، ويجوز في بعض التأويلات الماضية أن يكون متعلقا ب)وقارا(: إما تعلق فاعل المصدر بمصدره فتكون اللام في قوله)لله(لشبه الملك، أي الوقار الذي هو تصرف الله في خلقه إن شاء أن يوقركم، أي يكرمكم بالنعيم، وأما تعلق مفعول المصدر، أي أن توقروا الله وتخشوه ولا تتهاونوا بشأنه تهاون من لا يخافه فتكون اللام لام التقوية.

وجملة)وقد خلقكم أطوارا(حال من ضمير)لكم(أو ضمير)ترجون(، أي في حال تحققكم أنه خلقكم أطوارا.

فأما أنه خلقهم فموجب للاعتراف بعظمته لأنه مكونهم وصانعهم فحق عليهم الاعتراف بجلاله.

وأما كون خلقهم أطوارا فلأن الأطوار التي يعلمونها دالة على رفقه بهم في ذلك التطور، فذلك تعريض بكفرهم النعمة، ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته، فإن تطور الخلق من طور النطفة إلى طور الجنين إلى طور خروجه طفلا إلى طور الصبا إلى طور بلوغ الأشد إلى طور الشيخوخة وطور الموت على الحياة وطور البلى على الأجساد بعد الموت، كل ذلك والذات واحدة، فهو دليل على تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنى التفات الذهن، فكانوا محقوقين بأن يتوصلوا به إلى معرفة عظمة الله وتوقع عقابه لأن الدلالة على

ذلك قائمة بأنفسهم وهل التصرف فيهم بالعقاب والإثابة إلا دون التصرف فيهم بالكون والفساد.

والأطوار: جمع طور بفتح فسكون، والطور: التارة، وهي المرة من الأفعال أو من الزمان، فأريد من الأطوار هنا ما يحصل في المرات والأزمان من أحوال مختلفة، لأنه لا يقصد من تعدد المرات والأزمان إلا تعدد ما يحصل فيها، فهو تعدد بالنوع لا بالتكرار كقول النابغة:

فإن أفاق لقد طالت عمـايتـه والمرء يخلق طورا بعد أطوار وانتصب)أطوارا(على الحال من ضمير المخاطبين، أي تطور خلقهم لأن)أطوارا(صار في تأويل أحوالا في أطوار.

)ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا[15] وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا[16](إن كان هذا من حكاية كلام نوح عليه السلام لقومه كما جرى عليه كلام المفسرين، كان تخلصا من التوبيخ والتعريض إلى الاستدلال عليهم بآثار وجود الله ووحدانيته وقدرته، مما في أنفسهم من الدلائل، إلى ما في العالم منها، لما علمت من إيذان قوله)وقد خلقكم أطوارا(من تذكير بالنعمة وإقامة للحجة، فتخلص منه لذكر حجة أخرى فمان قد نبههم على النظر في أنفسهم أولا لأنها أقرب ما يحسونه ويشعرون به ثم على النظر في العالم وما سوي فيه من العجائب الشاهدة على الخالق العليم القدير.

وإن كان من خطاب الله تعالى للأمة وهو ما يسمح به سياق السورة من الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المساوية لأحوال المشركين كان هذا الكلام اعتراضا للمناسبة.

والهمزة في)ألم تروا للاستفهام التقريري(مكنى به عن الإنكار عن عدم العلم بدلائل ما يرونه.

والرؤيا بصرية. ويجوز أن تكون علمية أي ألم تعلموا فيدخل فيه المرئي من ذلك. وانتصب)كيف(على المفعول به ل)تروا(، ف)كيف(هنا مجردة عن الاستفهام متمحضة للدلالة على الكيفية، أي الحالة.

والمعنى: ألستم ترون هيئة وحالة خلق الله السماوات.

والسماوات: هنا هي مدارات بمعنى الكواكب فإن لكل كوكب مدارا قد يكون هو سماؤه.

وقوله)سبع سماوات(يجوز أن يكون وصف)سبع(معلوما للمخاطبين من قوم نوح، أو من أمة الدعوة الإسلامية بأن يكونوا علموا ذلك من قبل؛ فيكون مما شمله فعل)ألم تروا(. ويجوز أن يكون تعليما للمخاطبين على طريقة الإدماج، ولعلهم كانوا سلفا للكلدانيين في ذلك.

و)طباقا(: بعضها أعلى من بعض، وذلك يقتضي أنها منفصل بعضها عن بعض وأن بعضها أعلى من بعض سواء كانت متماسة أو كان بينها ما يسمى بالخلاء.

وقوله)وجعل القمر فيهن نورا(صالح لاعتبار القمر من السماوات، أي الكواكب على الاصطلاح القديم المبني على المشاهدة، لأن ظرفي)في(تكون لوقوع المحوي في حاوية مثل الوعاء، وتكون لوقوع الشيء بين جماعته، كما في حديث الشفاعة وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، وقول النميري:

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت
به زينب في نسـوة خـفـرات والقمر كائن في السماء المماسة للأرض وهي المسماة بالسماء الدنيا، والله أعلم بأبعادها.

وقوله)وجعل الشمس سراجا(هو بتقدير: وجعل الشمس فيهن سراجا، والشمس من الكواكب.

والإخبار عن القمر بأنه نور مبالغة في وصفه بالإنارة بمنزلة الوصف بالمصدر. والقمر ينير ضوءه الأرض إنارة مفيدة بخلاف غيره من نجوم الليل فإن إنارتها لا تجدي البشر.

والسراج: المصباح الزاهر نوره الذي يوقد بفتيلة في الزيت يضيء التهابها المعدل بمقدار بقاء مادة الزيت تغمرها.

صفحة : 4576

والإخبار عن الشمس من التشبيه البليغ وهو تشبيه، والقصد منه تقريب المشبه من إدراك السامع، فإن السراج كان أقصى ما يستضاء به في الليل وقل من العرب من يتخذوه وإنما كانوا يرونه في أديرة الرهبان أو قصور الملوك وأضرابهم، قال امرؤ القيس:

يضي سناه أو مصابيح راهب أمال
الذبال بالسليط المفتـل ووصفوا قصر غمدان بالإضاءة على الطريق ليلا.

ولم يخبر عن الشمس بالضياء كما في آية سورة يونس)هو الذي جعل الشمس ضياء(، والمعنى واحد وهو الإضاءة، فلعل إيثار السراج هنا لمقاربة تعبير نوح في لغته، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة، لأن الفواصل التي قبلها جاءت على حروف صحيحة ولو قيل ضياء لصارت الفاصلة همزة والهمزة قريبة من حروف العلة فيثقل الوقف عليها.

وفي جعل القمر نورا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته فإن القمر مظلم ووفي جعل القمر نورا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس

من ذاته فإن القمر مظلم وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام وهو أثر ظهوره هلالا ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق. وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة.

وقد اجتمع في قوله)وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا(استدلال وامتنان.

)والله أنبتكم من الأرض نباتا[17] ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا[18](أنشأ الاستدلال بخلق السماوات حضور الأرض في الخيال فأعقب نوح به دليله السابق، استدلالا بأعجب ما يرونه من أحوال ما على الأرض وهو حال الموت وإقبار، ومهد لذلك ما يتقدمه من إنشاء الناس.

وأدمج في ذلك تعليمهم بأن الإنسان مخلوق من عناصر الأرض مثل النبات وإعلامهم بأن بعد الموت حياة أخرى.

وأطلق على معنى: أنشأكم، فعل)أنبتكم(للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوين كما قال تعالى)وأنبتها نباتا حسنا(، أي أنشأها وكما يقولون: زرعك الله للخير، ويزيد وجه الشبه هنا قربا من حيث إن إنشاء الإنسان مركب من عناصر الأرض، وقيل التقدير: أنبت أصلكم، أي آدم عليه السلام، قال تعالى)كمثل آدم خلقه من تراب(.

ونباتا: اسم من أنبت، عومل معاملة المصدر فوقع مفعولا مطلقا ل)أنبتكم(للتوكيد، ولم يجر على قياس فعله فيقال: إنباتا، لأن نباتا أخف فلما تسنى الإتيان به لأنه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالا في الفصاحة، بخلاف قوله بعده)إخراجا(فإنه لم يعدل عنه إلى: خروجا، لعدم ملاءمته لألفاظ الفواصل قبله المبنية على ألف مثل ألف التأسيس فكما تعد مخالفتها في القافية عيبا كذلك تعد المحافظة عليها في الأسجاع والفواصل كمالا.

وقد أدمج الإنذار بالبعث في خلال الاستدلال، ولكونه أهم رتبة في الاستدلال عليهم بأصل الإنشاء عطفت الجملة ب)ثم(الدالة على التراخي الرتبي في قوله)ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا(لأن المقصود من الجملة هو فعل)يخرجكم(، وأما قوله)ثم يعيدكم(فهو تمهيد له.

وأكد يخرجكم بالمفعول المطلق لرد إنكارهم البعث.

)والله جعل لكم الأرض بساطا[19] لتسلكوا منها سبلا فجاجا[20](هذا استدلال وامتنان، ولذلك علق بفعل)جعل(مجرور بلام التعليل وهو)لكم(أي لأجلكم.
والبساط: ما يفرش للنوم عليه والجلوس من ثوب أو زربية فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ، أي كالبساط. ووجه الشبه تناسب سطح الأرض في تعادل أجزاءه بحيث لا يوجع أرجل الماشين ولا يقض جنوب المضطجعين، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط لأن حجم الأرض كروي، وقد نبه على ذلك بالعلة الباعثة في قوله)لكم(، والعلة الغائبة في قوله) لتسلكوا منها سبلا(وحصل من مجموع العلتين الإشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع، وإلى نعمه خاصة وهي السير في الأرض وخصت بالذكر لأنها أهم لاشتراك كل الناس في الاستفادة منها.

والسبل :جمع سبيل وهو الطريق، أي لتتخذوا لأنفسكم سبلا من الأرض تهتدون بها في أسفاركم.
والفجاج: جمع فج، والفج: الطريق الواسع، وأكثر ما يطلق على الطريق بين جبلين لأنه يكون أوسع من الطريق المعتاد.
)قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده ،إلا خسارا[21] ومكروا مكرا كبارا[22] وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا[23](هذه الجملة بدل من جملة)قال رب إني دعوت قومي(بدل اشتمال لأن حكاية عصيان قومه إياه مما اشتملت عليه حكاية أنه دعاهم فيحتمل أن تكون المقالتان في وقت واحد جاء فيه نوح إلى مناجاة ربه بالجواب عن أمره له بقوله)انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم(فتكون إعادة فعل)قال(من قبيل ذكر عامل المبدل منه في البدل كقوله تعالى)تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا(، للربط بين كلاميه لوط الفصل بينهما.
ويحتمل أن تكون المقالتان في وقتين جمعها القرآن حكاية لجوابيه لربه، فتكون إعادة فعل)قال(لما ذكرنا مع الإشارة إلى تباعد ما بين القولين.
ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما سبقها من قوله)قال ربي إني دعوت قومي(إلى هنا مما يشير عجبا في حال قومه المحكي بحيث يتساءل السامع عن آخر أمرهم، فابتدئ ذكر

ذلك بهذه الجملة وما بعدها إلى قوله)أنصارا(. وتأخير هذا بعد عن قوله)قال ربي إني دعوت قومي ليلا ونهارا(ارتقاء في التذمر منهم لأن هذا حكاية حصول عصيانهم بعد تقديم الموعظة إليهم بقوله) يرسل السماء عليكم مدرارا(إلى قوله)سبلا فجاجا(.

وإظهار اسم)نوح(مع القول الثاني دون إضمار لبعد معاد الضمير لو تحمله الفعل، وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه، كما تقدم في قوله)قال رب(الخ. وتأكيد الخبر ب)إن(للاهتمام بما استعمل فيه من التحسر والاستنصار.

ثم ذكر أنهم أخذوا بقول الذين يصدونهم عن قبول دعوة نوح، أي اتبعوا سادتهم وقادتهم. وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد. فقلبوا النعمة عندهم موجب خسار وضلال.

وأدمج في الصلة أنهم أهل أموال وأولاد إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في قومهم وائتمار القوم بأمرهم: فأموالهم إذا أنفقوها لتأليف أتباعهم قال تعالى)إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله(، وأولادهم أرهبوا بهم من يقاومهم.

والمعنى: واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلا خسارا لأنهم استعملوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خسارا إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكابا للفساد قال تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا(.

والخسار: مستعار لحصول الشر من وسائل شأنها أن تكون سبب خير كخسارة التاجر من حيث أراد الربح، فإذا كان هؤلاء خاسرين فالذين يتبعونهم يكونون مثلهم في الخسارة وهم يحسبون أنهم أرشدوهم إلى النجاح.

وما صدق)من(فريق من القوم أهل مال وأولاد ازدادوا بذلك بطرا دون الشكر وهم سادتهم، ولذلك أعيد عليه ضمير الجمع في قوله)ومكروا(، وقوله)وقالوا(، وقوله)وقد أضلوا كثيرا(.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر)وولده(بفتح الواو وفتح اللام، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف) وولده(بضم الواو وسكون اللام، فأما الولد بفتح الواو وفتح اللام فاسم يطلق على الواحد من الأولاد وعلى الجمع فيكون اسم جنس، وأما ولد بضم فسكون فقيل: هو لغة في ولد فيستوي فيه الواحد والجمع مثل الفلك. وقيل: هو جمع ولد مثل أسد جمع أسد.

والمكر: إخفاء العمل، أو الرأي الذي يراد به ضر الغير، أي مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضر قيل كانوا يدبرون الحيلة على قتل نوح وتحريش الناس على أذاه وأذى أتباعه.

و)كبارا(: مبالغة، أي كبيرا جدا وهو وارد بهذه الصيغة في ألفاظ قليلة مثل طوال، أي طويل جدا، وعجاب، أي عجيب، وحسان، وجمال، أي جميل وقراء لكثير القراءة، ووضاء، أي وضيء. قال عيسى بن عمر: هي لغة يمانية.

صفحة : 4578

)وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا(الخ، أي قال بعضهم لبعض: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، هذه أصنام قوم نوح، وبهذا تعلم أن أسماءها غير جارية على اشتقاق الكلمات العربية، وفي واو)ود(لغتان للعرب منهم من يضم الواو، وبه قرأ نافع وأبو جعفر. ومنهم من يفتح الواو وكذلك قرأ الباقون.
وروى البخاري عن ابن عباس: ود وسواع وغوث ويعوق ونسر: أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت ، وعن محمد بن كعب: هي أسماء أبناء خمسة لآدم عليه السلام وكانوا عبادا. وعن الماوردي أن)ودا(أول صنم معبود.
والآية تقتضي أن هذه الأنصاب عبدت قبل الطوفان وقد قال بعض المفسرين: كانوا أصناما بين زمن آدم وزمن نوح.
ولا يلتئم هذا مع حدوث الطوفان إذ لا بد أن يكون جرفها وخلص البشر من الإشراك بعد الطوفان، ومع وجود هذه الأسماء في قبائل العرب إلى زمن البعثة المحمدية، فقد كان في دومة الجندل بلاد كلب صنم اسمه ود . قيل كان على صورة رجل وكان من صفر ورصاص وكان على صورة امرأة، وكان لهذيل صنم اسمه سواع وكان لمراد وغطيف بغين معجمة وطاء مهملة بطن من مراد بالجوف عند سبأ صنم اسمه يغوث ، وكان أيضا لغطفان وأخذته أنعم وأعلى وهما من طيء وأهل جرش من مذحج فذهبوا به إلى مراد فعبدوه، ثم إن بني ناجية راموا نزعه من أعلى وأنعم ففروا به إلى الحصين أخي بني الحارث من خزاعة. قال أبو عثمان النهدي: رأيت يغوث من رصاص وكانوا يحملونه على جمل أحرد بالحاء المهملة، أي يخبط بيديه إذا مشى ويسيرون معه ولا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا قد رضي لكم المنزل فيضربون عليه بناء ينزلون حوله.
وكان يغوث على صورة أسد.

وكان لهمدان صنم اسمه يعوق وهو على صورة فرس، وكان لكهلان من سبأ ثم توارثه بنوه حتى صار إلى همدان.
وكان لحمير ولذي الكلاع منهم صنم اسمه نسر على صورة النسر من الطير. وهذا مروي في صحيح البخاري عن ابن عباس. وقال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح إلى العرب اه. فيجوز أن تكون انتقلت بأعيانها ويجوز أن يكون العرب سموا عليها ووضعوا لها صورا.
ولقد اضطر هذا بعض المفسرين إلى تأويل نظم الآية بأن معاد ضمير)قالوا(إلى مشركي العرب، وأن ذكر ذلك في أثناء قصة قوم نوح بقصد التنظير، أي قال العرب بعضهم لبعض: لا تذرن آلهتكم ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا كما قال قوم نوح لأتباعهم)لا تذرن آلهتكم(، ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح، وهو تكلف بين وتفكيك لأجزاء نظم الكلام. فالأحسن ما رآه بعض المفسرين وما نريده بيانا: أن أصنام قوم نوح قد دثرت وغمرها الطوفان وأن أسماءها بقيت محفوظة عند الذين نجوا مع نوح من المؤمنين فكانوا يذكرونها ويعظون ناشئتهم بما حل بأسلافهم من جراء عبادة تلك الأصنام، فبقيت تلك الأسماء يتحدث بها العرب الأقدمون في أثارات عملهم وأخبارهم، فجاء عمر بن لحي الخزاعي الذي أعاد للعرب عبادة الأصنام فسمى لهم الأصنام بتلك الأسماء وغيرها فلا حاجة بالمفسر إلى التطوع إلى صفات الأصنام التي كانت لها هذه الأسماء عند العرب ولا إلى ذكر تعيين القبائل التي عبدت مسميات هذه الأسماء.
ثم يحتمل أن يكون لقوم نوح أصنام كثيرة جمعها قوم كبراءهم: لا تذرن ألهتكم، ثم خصوا بالذكر أعظمها وهي هذه الخمسة، فيكون ذكرها من عطف الخاص على العام للاهتمام به كقوله تعالى)من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال(. ويحتمل أن لا يكون لهم غير تلك الأصنام الخمسة فيكون ذكرها مفصلة بعد الإجمال للاهتمام بها ويكون العطف من قبيل عطف المرادف.
ولقصد التوكيد أعيد فعل النهي)ولا تذرن(ولم يسلك طريق الإبدال، والتوكيد اللفظي قد يقرن بالعاطف كقوله تعلى)وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين(.

صفحة : 4579

ونقل عن الآلوسي في طرة تفسيره لهذه الآية هذه الفقرة قد أخرج الإفرنج في حدود الألف والمائتين والستين أصناما وتماثيل من

أرض الموصل كانت منذ نحو من ثلاثة آلاف سنة . وتكرير)لا(النافية في قوله)ولا سواعا ولا يغوث(لتأكيد النفي الذي في قوله)ولا تذرن آلهتكم(وعدم إعادة)لا(مع قوله)ويعوق ونسرا(لأن الاستعمال جار على أن لا يزاد في التأكيد على ثلاث مرات.

وقرأ نافع وأبو جعفر)ودا(بضم الواو. وقرأها غيرهما بفتح الواو، وهو اسم عجمي يتصرف فيه لسان العرب كيف شاؤا.

)وقد أضلوا كثيرا(عطف على)وقالوا لا تذرن آلهتكم(، أي أضلوا بقولهم هذا وبغيره من تقاليد الشرك كثيرا من الأمة بحيث ما آمن مع نوح إلا قليل.

)ولا تزد الظالمين إلا ضلالا[24](يجوز أن تكون هذه الجملة تتمة كلام نوح متصلة بحكاية كلامه السابق، فتكون الواو عاطفة جزء جملة مقولة لفعل)قال(على جزئها الذي قبلها عطف المفاعيل بعضها على بعض كما تقول قال امرؤ القيس قفا نبك . ختم نوح شكواه إلى الله بالدعاء على الضالين المتحدث عنهم بأن يزيدهم الله ضلالا.

ولا يريبك عطف الإنشاء على الخبر لأن منع عطف الإنشاء على الخبر على الإطلاق غير وجيه والقرآن طافح به.

ويجوز أن تكون جملة)ولا تزد الظالمين إلا ضلالا(غير متصلة بحكاية كلامه في قوله)قال نوح رب إنهم عصوني(بل هو حكاية كلام آخر له صدر في موقف آخر فتكون الواو عاطفة جملة مقولة قول على جملة مقولة قول آخر، أي نائبة عن فعل قال كما تقول: قال امرؤ القيس: قفا نبك و: ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وقد نحا هذا المعنى من يأبون عطف الإنشاء على الخبر.

والمراد ب)الظالمين(: قومه الذين عصوه فكان مقتضى الظاهر التعبير عنهم بالضمير عائدا على قومي من قوله)دعوت قومي ليلا ونهارا(فعدل عن الإضمار إلى الإظهار على خلاف مقتضى الظاهر لما يؤذن به وصف)الظالمين(من استحقاقهم لحرمان من عناية الله بهم لظلمهم، أي إشراكهم بالله، فالظلم هنا الشرك)إن الشرك لظلم عظيم(.

والضلال، مستعار لعدم الاهتداء إلى طرائق المكر الذي خشي نوح غائلته في قوله)ومكروا مكرا كبارا(، أي حل بيننا وبين مكرهم ولا تزدهم إمهالا في طغيانهم علينا إلا أن تضللهم عن وسائله، فيكون الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، أو أراد إبهام طرق النفع عليهم حتى تنكسر شوكتهم وتلين شكيمتهم نظير قول موسى عليه السلام)ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم(.

وليس المراد بالضلال الضلال عن طريق الحق والتوحيد لظهور أنه ينافي دعوة نوح قومه إلى الاستغفار والإيمان بالبعث فكيف يسأل الله أن يزيدهم منه.
ويجوز أن يكون الضلال أطلق على العذاب المسبب عن الضلال، أي في عذاب يوم القيامة وهو عذاب الإهانة والآلام.
ويجوز أن تكون جملة معترضة وهي من كلام الله تعالى لنوح فنكون الواو اعتراضية ويقدر قول محذوف: وقلنا لا تزد الظالمين. والمعنى: ولا تزد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلا ضلالا، فالزيادة منه تزيدهم كفرا وعنادا. وبهذا يبقى الضلال مستعملا في معناه المشهور في اصطلاح القرآن، فصيغة النهي مستعملة في التأييس من نفع دعوته إياهم. وأعلم الله نوحا أنه مهلكهم بقوله)أغرقوا فأدخلوا نارا(الآية وهذا في معنى قوله)وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتأس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون(.
ألا ترى إن ختام كلتا الآيتين متحد المعنى من قوله هنا) أغرقوا(وقوله في الآية الأخرى)إنهم مغرقون(.
)مما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا[25](جملة معترضة بين مقالات نوح عليه السلام وليست من حكاية قول نوح فهي إخبار من الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه قدر النصر لنوح والعقاب لمن عصوه من قوله قبل أن يسأله نوح استئصالهم فإغراق قوم نوح معلوم للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما قصد إعلامه بسببه.

صفحة : 4580

والغرض من الاعتراض بها التعجيل بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه مما يماثل ما لاقاه نوح من قومه على نحو قوله تعالى)ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون(.
ويجوز أن تكون متصلة بجملة)ولا تزد الظالمين إلا ضلالا(على الوجه الثاني المتقدم فيها من أن تكون من كلام الله تعالى الموجه إلى نوح بتقدير: وقلنا لا تزد الظالمين إلا ضلالا، وتكون صيغة المضي في قوله)أغرقوا(مستعملة في تحقق الوعد لنوح بإغراقهم، وكذلك قوله)فأدخلوا نارا(.
وقدم)مما خطيئاتهم(على عامله بإفادة القصر، أي أغرقوا فأدخلوا نارا من أجل مجموع خطيئاتهم لا لمجرد استجابة دعوة نوح التي

ستذكر عقب هذا ليعلم أن الله لا يقر عباده على الشرك بعد أن يرسل إليهم رسولا وإنما تأخر عذابهم إلى ما بعد دعوة نوح لإظهار كرامته عند ربه بين قومه ومسرة له وللمؤمنين معه وتعجيلا لما يجوز تأخيره.

و)من(تعليلية، و)ما(مؤكدة لمعنى التعليل.

وجمع الخطيئات مراد بها الإشراك، وتكذيب الرسول، وأذاه، وأذى المؤمنين معه، والسخرية منه حين توعدهم بالطوفان، وما ينطوي عليه ذلك كله من الجرائم والفواحش.

وقرأ الجمهور)خطيئاتهم(بصيغة جمع خطيئة بالهمزة. وقرأه أبو عمرو وحده)خطاياهم(جمع خطية بالياء المشددة مدغمة فيها الياء المنقلبة عن همزة للتخفيف.

وفي قوله)أغرقوا فأدخلوا نارا(محسن الطباق لأن بين النار والغرق المشعر بالماء تضادا.

وتفريع)فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا(تعريض بالمشركين من العرب الذين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الكوارث يعني في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالبعث، أي كما لم تنصر الأصنام عبدتها من قوم نوح كذلك لا تنصركم أصنامكم.

وضمير)يجدوا(عائد إلى)الظالمين(من قوله)ولا تزد الظالمين إلا ضلالا(وكذلك ضمير)لهم(.

والمعنى: فلم يجدوا لأنفسهم أنصارا دون عذاب الله.

)وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا[26] إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا[27](عطف على)قال نوح ربي إنهم عصوني(أعقبه بالدعاء عليهم بالإهلاك والاستئصال بأن لا يبقي منهم أحدا، أي لا تبق منهم أحدا على الأرض.

وأعيد فعل)قال(لوقوع الفصل بين أقوال نوح بجملة)مما خطيئاتهم(الخ، أوبها وبجملة)ولا تزد الظالمين إلا ضلالا(.

وقرنت بواو العطف لتكون مستقلة فلا تتبع جملة)إنهم عصوني(للإشارة إلى أن دعوة نوح حصلت بعد شكايته بقوله)إنهم عصوني(.

وديار: اسم مخصوص بالوقوع في النفي يعم كل إنسان، وهو اسم من وزن فيعال مشتق من اسم الدار فعينه واو لأن عين دار مقدرة واوا، فأصل ديار: ديوار فلما اجتمعت الواو والياء واتصلتا وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء ثم أدغمت بالياء الزائدة كما فعل بسيد وميت. ومعنى ديار: من يحل بدار القوم كناية عن إنسان.

ونظير)ديار(في العموم والوقوع في النفي أسماء كثيرة في كلام العرب أبلغها أبن السكيت في إصلاح المنطق إلى خمسة وعشرين،

وزاد كراع النمل سبعة فبلغت اثنين وثلاثين اسما، وزاد ابن مالك في التسهيل ستة فصارت ثمانية وثلاثين.
ومن أشهرها: آحد، وديار، وعريب وكلها بمعنى الإنسان، ولفظ) بد(بضم الموحدة وتشديد الدال المهملة وهو المفارقة.
وجملة)إنك إن تذرهم يضلوا عبادك(تعليل لسؤاله أن لا يترك الله على الأرض أحدا من الكافرين يريد أنه خشي أن يضلوا بعض المؤمنين وأن يلدوا أبناء ينشأون على كفرهم.
والأرض يجوز أن يراد بها جميع الكرة الدنيوية، وأن يراد أرض معهودة للمتكلم والمخاطب كما في قوله تعالى)قال اجعلني على خزائن الأرض(يعني أرض مصر في سورة يوسف.
ويحتمل أن يكون البشر يومئذ منحصرين في قوم نوح، ويجوز خلافه، وعلى هذه الاحتمالات ينشأ احتمال أن يكون الطوفان قد غمر جميع الكرة الأرضية، واحتمال أن يكون طوفانا قاصرا على ناحية كبيرة من عموم الأرض، والله أعلم. وقد تقدم ذلك عند تفسير قوله تعالى)فأنجيناه والذين معه في الفلك(في سورة الأعراف.

وخبر)إنك(مجموع الشرط مع جوابه الواقع بعد)إن(لأنه إذا اجتمع مبتدأ وشرط رجح الشرط على المبتدأ فأعطي الشرط الجواب ولم يعط المبتدأ خبرا لدلالة جملة الشرط وجوابه عليه.
وعلم نوح أنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا بأن أولادهم ينشأون فيهم فيلقنونهم دينهم ويصدون نوحا عن أن يرشدهم فحصل له علم بهذه القضية بدليل التجربة.
والمعنى: ولا يلدوا إلا من يصير فاجرا كفارا عند بلوغه سن العقل.
والفاجر: المتصف بالفجور، وهو العمل الشديد الفساد.
والكفار: مبالغة في الموصوف بالكفر، أي إلا من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد، قال تعالى)أولئك هم الكفرة الفجرة(.
وفي كلام نوح دلالة على أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحي. وقد انتزع عمر بن الخطاب من قوله تعالى)والذين جاءوا من بعدهم(دليلا على إبقاء أرض سواد العراق غير مقسومة بين الجيش الذي فتح العراق وجعلها خراجا لأهلها قصدا لدوام الرزق منها لمن سيجيء من المسلمين.

)رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا[28](جعل الدعاء لنفسه ووالديه خاتمة مناجاته فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس به وهما والداه، ثم عمم أهله وذويه المؤمنين فدخل أولاده وبنوه والمؤمنات من أزواجهم وعبر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سكناهم معه، فالمراد بقوله)دخل بيتي(دخول مخصوص وهو الدخول المتكرر الملازم. ومنه سميت بطانة المرء دخيلته ودخلته ثم عمم المؤمنين والمؤمنات، ثم عاد بالدعاء على الكفرة بأن يحرمهم الله النجاح وهو على حد قوله المتقدم)ولا تزد الظالمين إلا ضلالا(.

والتبار: الهلاك والخسار، فهو تخصيص للظالمين من قومه بسؤال استئصالهم بعد أن شملهم وغيرهم بعموم قوله)لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا(حرصا على سلامة المجتمع الإنساني من شوائب المفاسد وتطهيره من العناصر الخبيثة.

ووالداه: أبوه وأمه، وقد ورد اسم أبيه في التوراة لمك وأما أمه فقد ذكر الثعلبي أن اسمها شمخى بنت آنوش.

وقرأ الجمهور)بيتي(بسكون ياء المتكلم. وقرأه حفص عن عاصم بتحريكها.

واستثناء)إلا تبارا(منقطع لأن التبار ليس من الزيادة المدعو بنفيها فإنه أراد لا تزدهم من الأموال والأولاد لأن في زيادة ذلك لهم قوة لهم على أذى المؤمنين. وهذا كقول موسى عليه السلام)ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك(الآية. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده كقوله)فلم يزدهم دعائي إلا فرارا(.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

سميت في كتب التفسير وفي المصاحف التي رأيناها ومنها لكوفي المكتوب بالقيروان في القرن الخامس)سورة الجن(. وكذلك ترجمها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وترجمها البخاري في كتاب التفسير)سورة قل أوحي ألي(.

واشتهر على ألسنة المكتبين والمتعلمين في الكتاتيب القرآنية باسم)قل أوحي(.

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم ووجه التسميتين ظاهر.

وهي مكية بالاتفاق.

ويظهر أنها نزلت في حدود سنة عشر من البعثة. ففي الصحيحين وجامع الترمذي من حديث ابن عباس أنه قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق

عكاظ بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر وأنه استمع فريق من الجن إلى قراءته فرجعوا إلى طائفتهم فقالوا)إنا سمعنا قرآنا عجبا(وأنزل اله على نبيه)قل أوحي ألي أنه أستمع نفر من الجن(.
وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة بعد سفر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف، أي وذلك يكون في سنة عشر بعد البعثة وسنة ثلاث قبل الهجرة.
وقد عدت السورة الأربعين في نزول السور نزلت بعد الأعراف وقبل يس~.
واتفق أهل العدد على عد آيها ثمانا وعشرين.

أغراضها

صفحة : 4582

إثبات كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم بأن دعوته بلغت إلى جنس الجن وإفهامهم فهم معان من القرآن الذي استمعوا للنبي صلى الله عليه وسلم وفهم ما يدعوا إليه من التوحيد والهدى، وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد.
وإبطال عبادة ما يبعد من الجن.
وإبطال الكهانة وبلوغ علم الغيب إلى غير الرسل الذين يطلعهم الله على ما يشاء.
وإثبات أن لله خلقا يدعون الجن وأنهم أصناف منهم الصالحون ومنهم دون ذلك بمراتب، وتضليل الذين يقولون على الله ما لم يقله، والذين يعبدون الجن، والذين ينكرون البعث، وأن الجن لا يفلتون من سلطان الله تعالى.
وتعجبهم من الإصابة برجوم الشهب المانعة من استراق السمع، وفي المراد من هذا المنع والتخلص من ذلك إلى ما أوحي الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من في شأن القحط الذي أصاب المشركين لشركهم ولمنعهم مساجد الله، وإنذارهم بأنهم سيندمون على تألبهم على النبي صلى الله عليه وسلم ومحاولتهم منهم العدول عن الطعن في دينهم.
)قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا[1] يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا[2](افتتاح السورة بالأمر بالقول يشير إلى أن ما سيذكر بعده حدث غريب وخاصة بالنسبة للمشركين الذين هم مظنة التكذيب به كما يقتضيه قوله)كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا(حسبما يأتي.

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعلم المسلمين وغيرهم بأن اله أوحى إليه وقوع حدث عظيم في دعوته أقامه الله تكريما لنبيه وتنويها بالقرآن وهو أن سخر بعض من النوع المسمى جنا لاستماع القرآن وألهمهم أو علمهم فهم ما سمعوه واهتداءهم إلى مقدار إرشاده إلى الحق والتوحيد وتنزيه الله والإيمان بالبعث والجزاء فكانت دعوة الإسلام في أصولها بالغة إلى عالم من العوالم المغيبة لا علاقة لموجوداته بالتكاليف ولا بالعقائد بل هو عالم مجهول أهله على ما جبلوا عليه من خير أو شر لا يعدوا أحدهم في مدة الدنيا جبلته فيكون على معيارها مصيره الأبدي في الحياة الآخرة ولذلك لم يبعث إليهم بشرائع.

وقد كشف الله لهذا الفريق منهم حقائق من عقيدة الإسلام وهديه ففهموه.

هذا العالم هو عالم الجن وهو بحسب ما يستخلص من ظواهر القرآن ومن صحاح الأخبار النبوية وحسنها نوع من المجردات أعني الموجودات اللطيفة غير الكثيفة، الخفيفة عن حاسة البصر والسمع، منتشرة في أمكنة مجهولة ليست على سطح الأرض ولا في السماوات بل هي في أجواء غير محصورة وهي من مقولة الجوهر من الجواهر المجردات أي ليست أجساما ولا جسمانيات بل هي موجودات روحانية مخلوقة من عنصر ناري ولها حياة واردة وإدراك خاص بها لا يدرى مداه. وهذه المجردات النارية جنس من أجناس الجواهر تحتوي على الجن وعلى الشياطين فهما نوعان لجنس المجردات النارية لها إدراكات خاصة وتصرفات محدودة وهي مغيبة عن الأنظار ملحقة بعالم الغيب لا تراها الأبصار ولا تدركها أسماع الناس إلا إذا أوصل الله الشعور بحركاتها وإرادتها إلى البشر على وجه المعجزة خرقا للعادة لأمر قضاه الله وأراده.

وبتعاضد هذه الدلائل وتناصرها وإن كان كل واحد منها لا يعدوا أنه ظني الدلالة وهي ظواهر القرآن، أو ظني المتن والدلالة وهي الأحاديث الصحيحة، حصل ما يقتضي الاعتقاد بوجود موجودات خفية تسمى الجن فتفسر بذلك معاني آيات من القرآن وأخبار من السنة.

وليس ذلك مما يدخل في أصول عقيدة الإسلام ولذلك لم نكفر منكري وجود موجودات معينة من هذا النوع إذ لم تثبت حقيقتها بأدلة قطعية، بخلاف حال من يقول: إن ذكر الجن لم يذكر في القرآن بعد علمه بآيات ذكره.

وأما ما يروى في الكتب من أخبار جزئية في ظهورهم للناس وإتيانهم بأعمال عجيبة فذلك من الروايات الخيالية.

وإنا لم نلق أحدا من إثبات العلماء الذين لقيناهم من يقول: إنه رأي أشكالهم أو آثارهم وما نجد تلك القصص إلا على ألسنة الذين يسرعون إلى التصديق بالأخبار أو تغلب عليهم التخيلات.
وإن كان فيهم من لا يتهم بالكذب ولكنه مما يضرب له مثل قول المعري:
ومثلك من تخيل ثم خالا

فظهور الجن للنبي صلى الله عليه وسلم تارات كما في حديث الجني الذي تفلت ليفسد عليه صلاته وهو من معجزاته مثل رؤيته الملائكة ورؤيته الجنة والنار في حائط القبلة وظهور الشيطان لأبي هريرة في حديث زكاة الفطر.
وقد مضى ذكر الجن عند قوله)وجعلوا لله شركاء الجن(في سورة الأنعام، وقوله)ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس(في سورة الأعراف.
والذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم أنه أوحي إليه بخبر الجن: هم جميع الناس الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يبلغهم القرآن من المسلمين والمشركين أراد الله إبلاغهم هذا الخبر لما له من دلالة على شرف هذا الدين وشرف كتابه وشرف من جاء به، وفيه إدخال مسرة على المسلمين وتعريض بالمشركين إذ كان الجن قد أدركوا شرف القرآن وفهموا مقاصده وهم لا يعرفون لغته ولا يدركون بلاغته فأقبلوا عليه، والذين جاء بلسانهم وأدركوا خصائص بلاغته أنكروه وأعرضوا عنه.
وفي الإخبار عن استماع الجن للقرآن بأنه أوحي إليه ذلك إيماء إلى أنه ما علم بذلك إلا بإخبار الله إياه بوقوع هذا الاستماع، فالآية تقتضي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم بحضور الجن لاستماع القرآن قبل نزول هذه الآية.
وأما آية الأحقاف)وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن(الآيات، فتذكير بما في هذه الآية أو هي إشارة إلى قصة أخرى رواها عبد الله بن مسعود وهي في صحيح مسلم في أحاديث القراءة في الصلوات ولا علاقة لها بهذه الآية.
وقوله)أنه أستمع نفر من الجن(في موضع نائب فاعل)أوحي(أي أوحي إلي استماع نفر. وتأكيد الخبر الموحى بحرف)أن(للاهتمام به ولغرابته.
وضمير)أنه(ضمير الشأن وخبره جملة)استمع نفر من الجن(وفي ذلك زيادة اهتمام بالخبر الموحى به.

ومفعول)استمع(محذوف دل عليه)إنأ سمعنا قرآنا(، أي استمع القرآن نفر من الجن.
والنفر: الجماعة من واحد إلى عشرة وأصله في اللغة لجماعة من البشر فأطلق على جماعة من الجن على وجه التشبيه إذ ليس في اللغة لفظ آخر كما أطلق رجال في قوله)يعوذون برجال من الجن(على شخوص الجن. وقولهم)إنا سمعنا قرآنا عجبا(قالوه لبعض منهم لم يحضر لاستماع القرآن ألهمهم الله أن ينذروهم ويرشدوهم إلى الصلاح قال تعالى في سورة الأحقاف)وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا(الآيات.
ومعنى القول هنا: إبلاغ مرادهم إلى من يريدون أن يبلغوه إليهم من نوعهم بالكيفية التي يتفاهمون بها، إذ ليس للجن ألفاظ تجري على الألسن، فيما يظهر فالقول هنا مستعار للتعبير عما في النفس مثل قوله تعالى)قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم(فيكون ذلك تكريما لهذا الدين أن جعل الله له دعاة من الثقلين.
ويجوز أن يكون قولا نفسيا، أي خواطر جالت في مدركاتهم جولان القول الذي ينبعث عن إرادة صاحب الإدراك به إبلاغ مدركاته لغيره، فإن مثل ذلك يعبر عنه بالقول كما في بيت النابغة يتحدث عن كلب صيد:

قالت له النفس إني لا أرى طمعا
وإن مولاك لم يسلم ولـم يصـد ومنه قوله تعالى)ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول(.

وتأكيد الخبر ب)أن(لأنهم أخبروا به فريقا منهم يشكون في وقوعه فأتوا بكلامهم بما يفيد تحقيق ما قالوه وهو الذي يعبر عن مثله في العربية بحرف)إن(.
ووصف القرآن بالعجب وصف بالمصدر للمبالغة في قوة المعنى، أي يعجب منه، ومعنى ذلك أنه بديع فائق في مفاده.
وقد حصل لهم العلم بمزايا القرآن بانكشاف وهبهم الله إياه. قال المازري في شرح صحيح مسلم لا بد لمن آمن عند سماع القرآن أن يعلم حقيقة الإعجاز وشروط المعجزة. وبعد ذلك يقع العلم بصدق الرسول؛ فإما أن يكون الجن قد علموا ذلك أو علموا من كتب الرسل المتقدمة ما دلهم على أنه هو النبي الأمي الصادق المبشر به اه. وأنا أقول حصل للجن علم جديد بذلك بإلهام من الله لأدلة كانوا لا يشعرون بها إذ لم يكونوا مطالبين بمعرفتها، وأن فهمهم للقرآن من قبيل الإلهام خلقه الله فيهم على وجه خرق العادة كرامة للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن.

والإيمان بالقرآن يقتضي الإيمان بمن جاء به وبمن أنزله ولذلك قالوا)ولن نشرك بربنا أحدا(.
وقد حصل لهؤلاء النفر من الجن شرف المعرفة بالله وصفاته وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن وما احتوى عليه ما سمعوه منه فصاروا من خيرة المخلوقات، وأكرموا بالفوز في الحياة الآخرة فلم يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم من الجن والإنس.
ومتعلق)استمع(محذوف دل عليه قوله بعده)فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا(.
والرشد: بضم الراء وسكون الشين أو يقال بفتح الراء وفتح الشين هو الخير والصواب والهدى. واتفقت القراءات العشر على قراءته بضم فسكون.
وقولهم)ولن نشرك بربنا أحدا(، أي ينتفي ذلك في المستقبل. وهذا يقتضي أنهم كانوا مشركين ولذلك أكدوا نفي الإشراك بحرف التأييد فكما أكد خبرهم عن القرآن والثناء عليه ب)إن(أكد خبرهم عن إقلاعهم عن الإشراك ب)لن(.
)وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا[3](هذا محكي عن كلام الجن، قرأه الجمهور بكسر همزة)إنه(على اعتباره معطوفا على قولهم)إنا سمعنا قرآنا عجبا(إذ يجب كسر همزة)إن(إذا حكيت بالقول.
وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة على أنه معطوف على الضمير المجرور بالباء في قوله) فآمنا به(أي آمنا بأنه تعالى جد ربنا. وعدم إعادة الجار مع المعطوف على المجرور بالحرف مستعمل، وجوزه الكوفيون، على أنه حرف الجر كثير حذفه مع)أن(فلا ينبغي أن يختلف في حذفه هنا على التأويل.
قال في الكشاف:)أنه استمع(بالفتح لأنه فاعل أوحي أي نائب الفاعل)وإنا سمعنا(بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ثم تحمل عليها البواقي فما كان من الوحي فتح وما كان من قول الجن كسر، وكلهن من قولهم إلا الثنتين الأخريين:)وأن المساجد لله(،)وأنه لما قام عبد الله(ومن فتح كلهن فعطفا على محل الجار والمجرور في)آمنا به(كأنه قيل: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا، وأنه كان يقول سفيهنا، وكذلك البواقي اه.
والتعالي: شدة العلو، جعل شديد العلو كالمتكلف العلو لخروج علوه عن غالب ما تعارفه الناس فأشبه التكلف والجد: بفتح الجيم

العظمة والجلال، وهذا تمهيد وتوطئة لقوله)ما اتخذ صاحبة ولا ولدا(لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها، وكل ذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق، وتعالى جده بفناه المطلق، والولد يرغب فيه للاستعانة والأنس به، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه وكل ذلك من الافتقار والانتقاص.
وضمير)إنه(ضمير شأن وخبره جملة)تعالى جد ربنا(.
وجملة)ما اتخذ صاحبة(إلى آخرها بدل اشتمال من جملة)تعالى جد ربنا(.
وتأكيد الخبر ب)ان(سواء كانت مكسورة أو مفتوحة لأنه مسوق إلى فريق يعتقدون خلاف ذلك من الجن.
والاقتصار في بيان تعالي جد الله على انتفاء الصاحبة عنه والولد ينبئ بأنه كان شائعا في علم الجن ما كان يعتقده المشركون أن الملائكة بنات الله من سروات الجن وما اعتقاد المشركين إلا ناشئ عن تلقين الشيطان وهو من الجن، ولأن ذلك مما سمعوه من القرآن مثل قوله تعالى)سبحانه أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة(في سورة الأنعام.
وإعادة)لا(النافية مع المعطوف للتأكيد للدلالة على أن المعطوف منفي باستقلاله لدفع توهم نفي المجموع.
وضمير الجماعة في قوله)ربنا(عائد إلى كل متكلم مع تشريك غيره، فعلى تقدير أنه من كلام الجن فهو قول كل واحد منهم عن نفسه ومن معه من بقية النفر.
)وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططا[4](قرأه الجمهور بكسرة همزة)وإنه(. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة كما تقدم في قوله)وأنه تعالى جد ربنا(فقد يكون إيمانهم بتعالي الله عن أن يتخذ صاحبة وولدا ناشئا على ما سمعوه من القرآن وقد يكون ناشئا عن إدراكهم ذلك بأدلة نظرية.
والسفيه: هنا جنس، وقيل: أرادوا به إبليس، أي كان يلقنهم صفات الله بما لا يليق بجلاله، أي كانوا يقولون على الله شططا بل نزول القرآن بتسفيههم في ذلك.

والشطط: مجاوزة الحد وما يخرج عن العدل والصواب، وتقدم في قوله تعالى)ولا تشطط(في سورة ص~. والمراد بالشطط إثبات ما نفاه قوله)ولن نشرك بربنا أحدا(وقوله)ما اتخذ صاحبة ولا ولدا(.
وضمير)وإنه(ضمير الشأن.

والقول فيه وفي التأكيد ب)إن(مكسورة أو مفتوحة كالقول في قوله)وإنه تعالى جد ربنا(الخ.
)وإنا ظننا أن لن الإنس والجن على الله كذبا[5](قرأ همزة)أن(بالكسر الجمهور وأبو جعفر، وقرأها بالفتح ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف.
فعلى قراءة كسر)إن(هو من المحكي بالقول، ومعناه الاعتذار عما اقتضاه قولهم)فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا(من كونهم كانوا مشركين لجهلهم وأخذهم قول سفهائهم يحسبونهم لا يكذبون على الله.
والتأكيد ب)إن(لقصد تحقيق عذرهم فيما سلف من الإشراك، وتأكيد المظنون ب)لن(المفيدة لتأييد النفي يفيد أنهم كانوا متوغلين في حسم ظنهم بمن ضللوهم ويدل على أن الظن هنا بمعنى اليقين وهو يقين مخطئ.
وعلى قراءة الفتح هو عطف على المجرور بالباء في قوله)فآمنا به(فالمعنى: وآمنا فإنما ظننا ذلك فأخطأنا في ظننا.
وفي هذه الآية إشارة إلى خطر التقليد في العقيدة، وأنها لا يجوز فيها الأخذ بحسن الظن بالمقلد بفتح اللام بل يتعين النظر واتهام رأي المقلد حتى ينهض دليله.
وقرأ الجمهور)تقول(بضم القاف وسكون الواو. وقرأه يعقوب بفتح القاف والواو مشددة، من التقول وهو نسبة كلام إلى من يقله وهو في معنى الكذب وأصله تتقول بتائين فعلى هذه القراءة يكون)كذبا(مصدرا مؤكدا لفعل)تقول(لأنه مرادفه.
)وإنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا[6](قرأ الجمهور همزة)وإنه(بالكسر. وقرأها ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة عطفا على المجرور بالباء، والمقصود منه هو قوله)فزادوهم رهقا(وأما قوله)كان رجال من الإنس(الخ، فهو تمهيد لما بعده.
وإطلاق الرجال على الجن عن طريق التشبيه والمشاكلة لوقوعه مع رجال من الإنس فإن الرجل اسم للذكر البالغ من بني آدم.
والتأكيد ب)إن(مكسورة أو مفتوحة راجع إلى ما تفرع على خبرها من قولهم)فزادوهم رهقا(.
والعوذ: الالتجاء إلى ما ينجي من شيء يضر، قال تعالى)وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين(، فإذا حمل العوذ على حقيقته كان المعنى أنه كان رجال يلتجئون إلى الجن ليدفع الجن عنهم بعض الأضرار فوقع تفسير ذلك بما كان يفعله المشركون في الجاهلية إذا سار أحدهم في مكان، قفر ووحش أو تعزب في الرعي كانوا يتوهمون أن الجن تسكن القفر ويخافون تعرض الجن

والغيلان لهم وعبثها بهم في الليل فكان الخائف يصيح بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك، فيخال أن الجني الذي بالوادي يمنعه، قالوا: وأول من سن ذلك لهم قوم من أهل اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا ذلك في العرب وهي أوهام وتخيلات.
وزعم أهل هذا التفسير أن معنى)فزادوهم رهقا(أن الجن كانوا يحتقرون الإنس بهذا الخوف فكانوا يكثرون من التعرض لهم والتخيل إليهم فيزدادون بذلك مخافة.
والرهق: الذل.
والذي أختاره في معنى الآية أن العوذ هنا هو الالتجاء إلى الشيء والالتفاف حوله. وأن المراد أنه كان قوم من المشركين يعبدون الجن اتقاء شرها. ومعنى)فزادوهم رهقا(فزادتهم عبادتهم إياهم ضلالا. والرهق: يطلق على الإثم.
)وإنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا[7](قرأ الجمهور ووافقهم أبو جعفر بكسر همزة)وإنهم(. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتح الهمزة على اعتبار ما تقدم في قوله تعالى)وإنه تعالى جد ربنا(.
والمعنى: أن رجالا من الإنس ظنوا أن الله لا يبعث أحدا، أو أنا آمنا بأنهم ظنوا كما ظننتم الخ، أي آمنا بأنهم أخطأوا في ظنهم.
والتأكيد ب)إن(المكسورة أو المفتوحة للاهتمام بالخبر لغايته.
والبعث يحتمل بعث الرسل ويحتمل بعث الأموات للحشر، أي حصل لهم مثلما حصل لكم من إنكار إرسال الرسل.
والإخبار عن هذا فيه تعريض بالمشركين بأن فساد اعتقادهم تجاوز عالم الإنس إلى عالم الجن.

صفحة : 4586

وجملة)كما ظننتم(معترضة بين)ظنوا(ومعموله، فيجوز أن تكون من القول المحكي يقول الجن بعضهم لبعض يشبهون كفارهم بكفار الإنس.
ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى المخاطب به المشركون الذي أمر رسوله بأن يقوله لهم، وهذا الوجه يتعين إذا جعلنا القول في قوله تعالى)فقالوا إنا سمعنا(عبارة عما جال في نفوسهم على أحد الوجهين السابقين هنالك.
و)أن(من قوله)أن لن يبعث(مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف.

وجملة)لن يبعث الله أحدا(خبره. والتعبير بحرف تأييد النفي للدلالة على أنهم كانوا غير مترددين في إحالة وقوع البعث.

)وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا[8] وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا[9](قرأ الجمهور ووافقهم أبو جعفر بكسر الهمزة. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتح الهمزة عطفا على المجرور بالباء فيكون من عطفه على المجرور بالباء هو قوله)فمن يستمع الآن يجد له شهبا رصدا(.

والتأكيد ب)إن(في قولهم)وإنا لمسنا السماء(لغرابة الخبر باعتبار ما يليه من قوله)وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع(الخ.

واللمس: حقيقة الجس باليد، ويطلق مجازا على اختبار أمر لأن إحساس اليد أقوى إحساس، فشبه به الاختبار عن طريق الاستعارة كما أطلق مرادفه وهو المس على الاختبار في قول يزيد بن الحكم الكلابي:

مسسنا من الآباء شيئا فكـلـنـا إلى نسب في قومه غير واضع أي اختبرنا نسب آبائنا وآبائكم فكنا جميعا كرام الآباء.

وملئت: مستعمل في معنى كثر فيها. وحقيقة الملء غمر فراغ المكان أو الإناء بما يحل فيه، فأطلق هنا على كثرة الشهب والحراس على وجه الاستعارة.

والحرس: اسم جمع للحراس ولا واحد له من لفظه مثل خدم، وإنما يعرف الواحد منه بالحرسي. ووصف بشديد وهو مفرد نظرا إلى لفظ حرس كما يقال: السلف الصالح، ولو نظر إلي ما يتضمنه من الآحاد لجاز أن يقال: شداد. والطوائف من الحرس أحراس.

والشهب: جمع شهاب وهو القطعة التي تنفصل عن بعض النجوم فتسقط في الجو أو في الأرض أو البحر وتكون مضاءة عند انفصالها ثم يزول ضوؤها ببعدها عن مقابلة شعاع الشمس وتسمى الواحد منها عند علماء الهيئة نيزكا باسم الرمح القصير، وقد تقدم الكلام عليها في أول سورة الصافات.

والمعنى: إننا اختبرنا حال السماء لاستراق السمع فوجدناها كثيرة الحراس من الملائكة وكثيرة الشهب للرجم، فليس في الآية ما يؤخذ منه أن الشهب لم تكن قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم كما ظنه الجاحظ فإن العرب ذكروا تساقط الشهب في بعض شعرهم في الجاهلية. كما قال في الكشاف وذكر شواهد من الشعر الجاهلي.

نعم يؤخذ منها أن الشهب تكاثرت في مدة الرسالة المحمدية حفظا للقرآن من دسائس الشياطين كما دل عليه قوله عقبه)وإنا

كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا(وسيأتي بيان ذلك.
وهذا الكلام توطئة وتمهيد لقولهم بعده)وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع(إلى آخره، إذ المقصود أن يخبروا من لا خبر عنده من نوعهم بأنهم قد تبينوا سبب شدة حراسة السماء وكثرة الشهب فإن المخبرين بفتح الباء يشاهدونه.
وقوله)وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع(الخ قرأه بكسر الهمزة الذين قرأوا بالكسر قوله)وإنا لمسنا السماء(وبفتح الهمزة الذين قرأوا بالفتح وهذا من تمام قولهم)وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا(. وغنما أعيد معه كلمة)وإنا(للدلالة على أن الخبر الذي تضمنه هو المقصود وأن ما قبله للتوطئة له فإعادة)وإنا(توكيد لفظي.
وحقيقة القعود الجلوس وهو ضد القيام، أي هو جعل النصف الأسفل مباشرا للأرض مستقرا عليها وانتصاف النصف الأعلى. وهو هنا مجاز في ملازمة المكان زمنا طويلا لأن ملازمة المكان من لوازم القعود ومنه قوله تعالى)واقعدوا لهم كل مرصد(.
والمقاعد: جمع مقعد وهو مفعل للمكان الذي يقع فيه القعود، وأطلق هنا على مكان الملازمة فإن القعود يطلق على ملازمة الحصول كما في قول امرؤ القيس:
فقلت يمين الله أبرح قاعدا

صفحة : 4587

واللام في قوله)للسمع(لام العلة أي لأجل السمع، أي لأن نسمع ما يجري في العالم العلوي من تصاريف الملائكة بالتكوين والتصريف، ولعل الجن منساقون إلى ذلك بالجبلة كما تنساق الشياطين إلى الوسوسة، وضمير)منها(للسماء.
و)من(تبعيضية، أي من ساحاتها وهو متعلق ب)نقعد(، وليس المجرور حالة من)مقاعد(مقدما على صاحبه لأن السياق في الكلام على حالهم في السماع فالعناية بمتعلق فعل القعود أولى، ونظيره قول كعب:
يمشي القراد عليها ثم يزلقه منها
لبان وأقرب زهاليل فقوله)منها(متعلق بفعل)يزلقه(وليس حالا من)لبان(.
واعلم أنه قد جرى على قوله تعالى)مقاعد للسمع(مبحث في مباحث فصاحة الكلمات نسبه ابن الأثير في المثل السائر إلى ابن

سنان الخفاجي فقال: إنه قد يجيء من الكلام ما معه قرينه فأوجب قبحه كقول الرضي في رثاء الصابي:

أعزز علي بأن أراك وقد خلا عن جانبيك مقاعد العـواد فإن إيراد هذه اللفظة أي)مقاعد(في هذا الموضع صحيح إلا أنه يوافق ما يكره ذكره لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته أي ما يكره إليه وهم العواد. ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلا. قال ابن الأثير: هذه اللفظة المعيبة في شعر الرضي قد جاءت في القرآن فجاءت حسنة مرضية في قوله تعالى)تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال(وقوله)وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع(، ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافتها إليه ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد مقاعد الزيارة لزالت تلك الهجنة اه. وأقوال: إن لمصطلحات الناس في استعمال الكلمات أثر في وقع الكلمات عند الأفهام.

والفاء التي فرعت)من يستمع الآن يجد له شهابا رصدا(تفريع على محذوف دل عليه فعل)كنا(وترتب الشرط وجزائه عليه. وتقديره: كنا نقعد منها أي من السماء مقاعد للسمع فنستمع أشياء فمن يستمع الآن لا يتمكن من السماع.

وكلمة)الآن(مقابل كلمة)كنا(، أي كان ذلك ثم انقضى.

وجيء بصيغة الشرط وجوابه في التفريع لأن الغرض تحذير إخوانهم من التعرض للاستماع لأن المستمع يتعرض لأذى الشهب.

والجن لا تنكف عن ذلك لأنهم منساقون إليه بالطبع مع ما ينالهم من أذى الرجم والاحتراق، شأن انسياق المخلوقات إلى ما خلقت له مثل تهافت الفراش على النار، لاحتمال ضعف القوة المفكرة في الجن بحيث يغلب عليها الشهوة، ونحن نرى البشر يقتحمون الأخطار والمهالك تبعا للهوى مثل مغامرات الهواة في البحار والجبال والثلوج.

ووقوع)شهابا(في سياق الشرط يفيد العموم لأن سياق الشرط بمنزلة سياق النفي في إفادة عموم النكرة.

والرصد: اسم جمع راصد وهو الحافظ للشيء وهو وصف ل)شهابا(، أي شهبا راصدة، ووصفها بالرصد استعارة شبهت بالحراس الراصدين. وهذا إشارة إلى انقراض الكهانة إذ الكاهن يتلقى من الجني أنباء مجملة بما يتلقفه الجني من خبر الغيب تلقف اختطاف ناقصا فيكمله الكاهن بحدسه بما يناسب مجاري أحوال قومه وبلده. وفي الحديث فيزيد على تلك الكلمة مائة كذبة .

وأما اتصال نفوس الكهان بالنفوس الشيطانية فيجوز أن يكون من تناسب بين النفوس، ومعظمه أوهام. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال ليسوا بشيء .

أخرج البخاري عن ابن عباس قال كان الجن يستمعون الوحي أي وحي الله إلى الملائكة بتصاريف الأمور فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا، قالوا: ما هذا إلا لأمر حدث فضربوا في الأرض يتحسسون السبب فلما وجدوا رسول الله قائما يصلي بمكة قالوا: هذا الذي حدث في الأرض فقالوا لقومهم:)إنا سمعنا قرآنا عجبا(الآية وأنزل على نبيه)قل أوحي أنه استمع نفر من الجن(وإنما أوحي إليه قول الجن اه.

ولعل كيفية حدوث رجم الجن بالشهب كان بطريقة تصريف الوحي إلى الملائكة في مجار تمر على مواقع انقضاض الشهب حتى إذا اتصلت قوى الوحي بموقع أحد الشهب انفصل الشهاب بقوة ما يغطه من الوحي فسقط مع مجرى الوحي ليحرسه من اقتراب المسترق حتى يبلغ إلى الملك الموحى إليه فلا يجد في طريقه قوة شيطانية أو جنية إلا أحرقها وبخرها فهلكت أو استطيرت وبذلك بطلت الكهانة وكان ذلك من خصائص الرسالة المحمدية.

صفحة : 4588

)وإنا لاندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا[10](قرأه الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة وهو ظاهر المعنى. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها عطفا على المجرور بالباء كما تقدم فيكون المعنى: وآمنا بأنا انتفى علمنا بما يراد بالذين في الأرض، أي الناس، أي لأنهم كانوا يسترقون علم ذلك فلما حرست السماء انقطع علمهم بذلك. هذا توجيه القراءة بفتح همزة)أنا(ومحاولة غير هذا تكلف.

وهذه نتيجة ناتجة عن قولهم)وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع(الخ لأن ذلك السمع كان لمعرفة ما يجري به الأمر من الله للملائكة ومما يخبرهم به مما يريد إعلامهم به فكانوا على علم من بعض ما يتلقفونه فلما منعوا السمع صاروا لا يعلمون شيئا من ذلك فأخبروا إخوانهم بهذا عساهم أن يعتبروا بأسباب هذا التغير فيؤمنوا بالوحي الذي حرسه الله من أن يطلع عليه أحد قبل الذي يوحى به إليه والذي يحمله إليه.

فحاصل المعنى: إنا الآن لا ندري ماذا أريد بأهل الأرض من شر أو خير بعد أن كنا نتجسس الخبر في السماء.

وهذا تمهيد لما سيقولونه من قولهم)وإنا منا الصالحون(ثم قولهم)وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض(ثم قولهم)وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به(إلى قوله)فكانوا لجهنم حطبا(.

ومفعول)ندري(هو ما دل عليه الاستفهام بعده من قوله)أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا(وهو الذي علق فعل)ندري(عن العمل. والاستفهام حقيقي وعادة المعربين لمثله أن يقدروا مفعولا يستخلص من الاستفهام تقديره: لا ندري جواب هذا الاستفهام، وذلك تقدير معنى لا تقدير إعراب. هذا هو تفسير الآية على المعنى الأكمل وهي من قبيل قوله تعالى)وما أدري ما يفعل بي ولا بكم(.

وليس المراد منها فيما نرى أنهم ينفون أن يعلموا ماذا أراد الله بهذه الشهب، فإن ذلك لا يناسب ما تقدم من أنهم آمنوا بالقرآن إذ قالوا)إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به(وقولهم)فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا(فذلك صريح في أنهم يدرون أن الله أراد بمن في الأرض خيرا بهذا الدين وبصرف الجن عن استراق السمع.

وتكرير)إن(واسمها للتأكيد لكون هذا الخبر معرضا لشك السامعين من الجن الذين لم يختبروا حراسة السماء.

والرشد: إصابة المقصود النافع وهو وسيلة للخير، فلهذا الاعتبار جعل مقابلا للشر وأسند فعل إرادة الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى مع أن مقابلة أسند إليه بقوله)أم أراد بهم ربهم رشدا(، جريا على واجب الأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه.

)وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا[11](قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها وهو من قول الجن.

وقراءة فتح الهمزة عطف على المجرور بالباء، أي آمنا بأنا منا الصالحون، أي أيقنا بذلك وكنا في جهالة عن ذلك.

ظهرت عليهم آثار التوفيق فعلموا أنهم أصبحوا فريقين فريق صالحون وفريق ليس بصالحين، وهم يعنون بالصالحين أنفسهم وبمن دون الصلاح بقية نوعهم، فلما قاموا مقام دعوة إخوانهم إلى اتباع طريق الخير لم يصارحوهم بنسبتهم إلى الإفساد بل ألهموا وقالوا منا الصالحون، ثم تلطفوا فقالوا: ومنا دون ذلك، الصادق بمراتب متفاوتة في الشر والفساد ليتطلب المخاطبون دلائل التمييز بين الفريقين، على أنهم تركوا لهم احتمال أن يعنى بالصالحين الكاملون في الصلاح فيكون المعني بمن دون ذلك من هم دون مرتبة الكمال في الصلاح، وهذا من بليغ العبارات في الدعوة والإرشاد إلى الخير.

ودون: اسم بمعنى)تحت(، وهو ضد فوق ولذلك كثر نصبه على الظرفية المكانية، أي في مكان منحط من الصالحين.
والتقدير: ومنا فريق في مرتبة دونهم.
وظرفية)دون(مجازية. ووقع الظرف هنا ظرفا مستقرا في محل الصفة لموصوف محذوف تقديره: فريق، كقوله تعالى)وما منا إلا له مقام معلوم(ويطرد حذف الموصوف إذا كان بعض اسم مجرور بحرف)من(مقدم عليه وكانت الصفة ظرفا كما هنا، أو جملة كقول العرب: منا ظعن ومنا مقام.
وقوله)كنا طرائق قددا(تشبيه بليغ، شبه تخالف الأحوال والقائد بالطرائق تفضي كل واحدة منها إلى مكان لا تفضي إليه الأخرى.

صفحة : 4589

وطرائق: جمع طريقة، والطريقة هي الطريق، ولعلها تختص بالطريق الواسع الواضح لأن التاء للتأكيد مثل دار ودارة، ومثل مقام ومقامة، ولذلك شبه بها أفلاك الكواكب في قوله تعالى)ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق(ووصفت بالمثلى في قوله)ويذهبا بطريقتكم المثلى(.
ووصف)طرائق(ب)قددا(، وهو اسم جمع قدة بكسر القاف وتشديد الدال والقدة: القطعة من جلد ونحوه المقطوعة طولا كالسير، شبهت الطرائق في كثرتها بالقدد المقتطعة من الجلد يقطعها صانع حبال القد كانوا يقيدون بها الأسرى.
والمعنى: أنهم يدعون إخوتهم إلى وحدة الاعتقاد باقتفاء هدى الإسلام، فالخبر مستعمل في التعريض بذم الاختلاف بين القوم وأن على القوم أن يتحدوا ويتطلبوا الحق ليكون اتحادهم على الحق.
وليس المقصود منه فائدة الخبر لأن المخاطبين يعلمون ذلك، والتوكيد ب)إن(متوجهة إلى المعنى التعريضي.
)وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا[12](قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر همزة)وإنا(. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها عطفا على المجرور في قوله)فآمنا به(. والتقدير: وآمنا بأن لن نعجز الله في الأرض. وذكر فعل) ظننا(تأكيد لفظي لفعل)آمنا(المقدر بحرف العطف، لأن الإيمان يقين وأطلق الظن هنا على اليقين وهو إطلاق كثير.
لما كان شأن الصلاح أن يكون مرضيا عند الله تعالى وشأن ضده بعكس ذلك كما قال تعالى)والله لا يحب الفساد(أعقبوا لتعريض الإقلاع عن ضد الصلاح بما يقتضي أن الله قد أعد لغير الصالحين

عقابا فأيقنوا أن عقاب الله لا يفلت من أحد استحقه. وقدموه على الأمر بالإيمان الذي في قوله)وإنا لما سمعنا الهدى(الآية، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح والتخلية مقدمة على التحلية، وقد استفادوا علم ذلك مما سمعوا من القرآن ولم يكونوا يعلمون ذلك من قبل إذ يكونوا مخاطبين بتعليم في أصول العقائد، فلما ألهمهم الله لاستماع القرآن وعلموا أصول العقائد حذروا إخوانهم اعتقادا الشرك ووصف الله بما يليق به لأن الاعتقاد الباطل لا يقره الإدراك المستقيم بعد تنبيهه لبطلانه، وقد جعل الله هذا النفر من الجن نذيرا لإخوانهم ومرشدا إلى الحق الذي أرشدهم إليه القرآن، وهذا لا يقتضي أن الجن مكلفون بشرائع الإسلام.

وأما قوله تعالى)ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها(الآية فقد أشار إلى أن عقابهم على الكفر والإشراك، أو أريد بالجن الشياطين فإن الشياطين من جنس الجن.

والإعجاز: جعل الغير عاجزا، أي غير قادر عن أمر بذكر مع ما يدل على العجز وهو هنا كناية عن الإفلات والنجاة كقول إياس بن قبيصة الطائي:

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة فهل تعجزني بقعة من بقاعها أي لا تفوتني ولا تخرج عن مكنتي.

وذكر)في الأرض(يؤذن بأن المراد بالهرب في قوله)ولن نعجزه هربا(الهرب من الرجم بالشهب، أي لا تطمعوا أن تسترقوا السمع فإن رجم الشهب في السماء لا يخطئكم، فابتدأوا الإنذار من عذاب الدنيا استنزالا لقومهم.

ويجوز أن يكون)نعجز(الأول بمعنى مغالب كقوله تعالى)فما هم بمعجزين(أي لا يغلبون قدرتنا، ويكون)في الأرض(مقصودا به تعميم الأمكنة كقوله تعالى)وما أنتم بمعجزين في الأرض(، أي في مكان كنتم. والمراد: أنا لا نغلب الله بالقوة. ويكون)نعجز(الثاني، بمعنى الإفلات ولذلك بين ب)هربا(، والهرب مجاز في الانفلات مما أراد الله إلحاقه بهم من الرجم والاحتراق.

والظن هنا مستعمل في اليقين بقرينة تأكيد المضنون بحرف) لن(الدال على تأييد النفي وتأكيده.

)وإن لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا[13](قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها عطفا على المجرور في قوله)فآمنا به(.

والمقصود بالعطف قوله)فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا(، وأما جملة)لما سمعنا الهدى آمنا به(فتوطئة لذلك.

بعد أن ذكروا قومهم بعذاب الله في الدنيا أو اطمأنوا بتذكر ذلك في نفوسهم، عادوا إلى ترغيبهم في الإيمان بالله وحده، وتحذيرهم من الكفر بطريق المفهوم. وأريد بالهدى القرآن إذ هو المسموع لهم ووصفوه بالهدى للمبالغة في أنه هاد.

ومعنى)يؤمن بربه(، أي بوجوده وانفراده بالإلهية كما يشعر به إحضار اسمه بعنوان الرب إذ الرب هو الخالق فما لا يخلق لا يعبد.

وجملة)فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا(يجوز أن تكون من القول المحكي عن الجن. ويجوز أن تكون كلاما من الله موجها للمشركين وهي معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

والبخس: الغبن في الأجر ونحوه.

والرهق: الإهانة، أي لا يخشى أن يبخس في الجزاء على إيمانه ولا أن يهان. وفهم منه أن من لا يؤمن يهان بالعذاب. والخلاف في كسر همزة)إنا(وفتحها كالخلاف في التي قبلها.

وجملة)فلا يخاف بخسا ولا رهقا(جواب لشرط)من(جعلت بصورة الجملة الاسمية فقرنت بالفاء مع أن ما بعد الفاء فعل، وشأن جواب الشرط أن لا يقترن بالفاء إلا إذا كان غير صالح لأن يكون فعل الشرط فكان اقترانه بالفاء وهو فعل مضارع مشيرا إلى إرادة جعله خبر مبتدأ محذوف بحيث تكون الجملة اسمية، والاسمية تقترن بالفاء إذا وقعت جواب شرط، فكان التقدير هنا: فهو لا يخاف ليكون دالا على تحقيق سلامته من خوف البخس والرهق، وليدل على اختصاصه بذلك دون غيره الذي لا يؤمن بربه، فتقدير المسند إليه قبل الخبر الفعلي يقتضي التخصيص تارة والتقوي أخرى وقد يجتمعان كما تقدم في قوله تعالى)الله يستهزئ بهم(. واجتمعا هنا كما أشار إليه في الكشاف بقوله: فكان دالا على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره. وكلام الكشاف اقتصر على بيان مزية الجملة الاسمية وهو يقتضي توجيه العدول عن جزم الفعل لأجل ذلك.

وقد نقول: إن العدول عن تجريد الفعل من الفاء وعن جزمه لدفع إيهام أن تكون)لا(ناهية، فهذا العدول صراحة في إرادة الوعد دون احتمال إرادة النهي.

وفي شرح الدماميني على التسهيل أن جواب الشرط إذا كان فعلا منفيا ب)لا(يجوز الاقتران بالفاء وتركه. ولم أره لغيره وكلام الكشاف يقتضي أن الاقتران بالفاء واجب إلا إذا قصدت مزية أخرى.

)وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون(قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها وهو من قول الجن وهو عطف على المجرور بالباء. والمقصود بالعطف قوله)فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا(وما قبله توطئة له أي أصبحنا بعد سماع القرآن منا المسلمون، أي الذين اتبعوا ما جاء به الإسلام مما يليق بحالهم ومنا القاسطون، أي الكافرون المعرضون وهذا تفصيل لقولهم)وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك(لأن فيه تصريحا بأن دون ذلك هو ضد الصلاح.

والظاهر أن من منتهى ما حكي عن الجن من المدركات التي عبر عنها بالقول وما عطف عليه.

)فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا[14] وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا[15](الظاهر أن هذا خارج عن الكلام المحكي عن الجن، وأنه كلام من جانب الله تعالى لموعظة المشركين من الناس فهو في معنى التذييل. وإنما قرن بالفاء لتفريعه على القصة لاستغلال العبرة منها، فالتفريع تفريع كلام على كلام وليس تفريع معنى الكلام على معنى الكلام الذي قبله.

والتحري: طلب الحرا بفتحتين مقصورا واويا، وهو الشيء الذي ينبغي أن يفعل، يقال: بالحري أن تفعل كذا، وأحرى أن تفعل.

والرشد: الهدى والصواب، وتنوينه للتعظيم.

والمعنى: أن من آمن بالله فقد توخى سبب النجاة وما يحصل به الثواب لأن الرشد سبب ذلك.

والقاسط: اسم فاعل قسط من باب ضرب قسطا بفتح القاف وقسوطا بضمها، أي جار فهو كالظلم يراد به ظلم المرء نفسه بالإشراك. وفي الكشاف: أن الحجاج قال لسعيد بن جبير حين أراد قتله ما تقول في? قال: قاسط عادل، فقال القوم ما أحسن ما قال حسبوا أنه وصفه بالقسط بكسر القاف والعدل، فقال الحجاج: يا جهلة إنه سماني ظالما مشركا وتلا لهم قوله تعالى)وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا(وقوله تعالى)ثم الذين كفروا بربهم يعدلون(اه.

وشبه حلول الكافرين في جهنم بحلول الحطب في النار على طريقة التمليح والتحقير، أي هم لجهلهم كالحطب الذي لا يعقل كقوله تعالى)فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة(.

وإقحام فعل)كانوا(لتحقيق مصيرهم إلى النار حتى كأنهم كانوا كذلك من زمن مضى.
)وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا[16] لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابا صعدا[17](أتفق القراء العشرة على فتح همزة)أن لو استقاموا(، فجملة)أن لو استقاموا(معطوفة على جملة)أنه استمع نفر من الجن(، والواو من الحكاية لا من المحكي، فمضمونها شأن ثان مما أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمره الله أن يقوله للناس. والتقدير: وأوحي إلي أنه لو استقام القاسطون فأسلموا لما أصابهم الله بإمساك الغيث.
و)أن(مخففة من الثقيلة، وجيء ب)أن(المفتوحة الهمزة لأن ما بعدها معمول لفعل)أوحي(فهو في تأويل المصدر، واسمها محذوف وهو ضمير الشأن وخبره)لو استقاموا(إلى آخر الجملة. وسبك الكلام: أوحي إلي إسقاء الله إياهم ماء في فرض استقامتهم.
وضمير)استقاموا(يجوز أن يعود إلى القاسطين بدون اعتبار القيد بأنهم من الجن وهو من عود الضمير إلى اللفظ مجردا عن ما صدقه كقولك: عندي درهم ونصفه، أي نصف درهم آخر.
ويجوز أن يكون عائدا إلى غير مذكور في الكلام ولكنه معروف من المقام إذ السورة مسوقة للتنبيه على عناد المشركين وطعنهم في القرآن، فضمير)استقاموا(عائد إلى المشركين، وذلك كثير في ضمائر الغيبة التي في القرآن، وكذلك أسماء الإشارة كما تنبهنا إليه ونبهنا عليه، ولا يناسب أن يعاد على القاسطين من الجن إذ لا علاقة للجن بشرب الماء.
والاستقامة على الطريقة: استقامة السير في الطريق وهي السير على بصير بالطريق دون اعوجاج ولا اغترار ببنيات الطريق.
والطريقة: الطريق، ولعلها خاصة بالطريق الواسع الواضح كما تقدم آنفا في قوله)كنا طرائق قددا(.
والاستقامة على الطريقة تمثيل لهيئة المتصف بالسلوك الصالح والاعتقاد الحق بهيئة السائر سيرا مستقيما على طريقة، ولذلك فالتعريف في)الطريقة(للجنس لا للعهد.
وقوله)لأسقيناهم ماء غدقا(: وعد بالجزاء على الاستقامة في الدين جزاءا حسنا في الدنيا يكون عنوانا على رضى الله تعالى وبشارة بثواب الآخرة قال تعالى)من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(.
وفي هذا إنذار بأنه يوشك أن يمسك عنهم المطر فيقعوا في القحط والجوع وهو ما حدث عليهم بعد هجرة النبي صلى الله عليه

وسلم إلى المدينة ودعائه عليهم بسنين كسني يوسف فإنه دعا بذلك في المدينة في القنوت كما في حديث الصحيحين عن أبي هريرة وقد بينا ذلك في سورة الدخان. وقد كانوا يوم نزول هذه الآية في بحبوة من العيش وفي نخيل وجنات فكان جعل ترتب الإسقاء على الاستقامة على الطريقة كما اقتضاه الشرط بحرف)لو(مشيرا إلى أن المراد: لأدمنا عليهم الإسقاء بالماء الغدق، وإلى أنهم ليسوا بسالكين سبيل الاستقامة فيوشك أن يمسك عنهم الري ففي هذا إنذار بأنهم إن استمروا على اعوجاج الطريقة أمسك عنهم الماء. وبذلك يتناسب التعليل بالإفتان في قوله)لنفتنهم فيه(مع الجملة السابقة إذ يكون تعليلا لما تضمنه معنى إدامة الإسقاء فإنه تعليل للإسقاء الموجود حين نزول الآية وليبس تعليلا للإسقاء المفروض في جواب)لو(لأن جواب)لو(منتف فلا يصلح لأن يعلل به، وإنما هم مفتونون بما هم فيه من النعمة فأراد الله أن يوقظ قلوبهم بأن استمرار النعمة عليهم فتنة لهم فلا تغرنهم. فلام التعليل في قوله)لنفتنهم فيه(ظرف مستقر في موضع الحال من)ماء غدقا(وهو الماء الجاري لهم في العيون ومن السماء تحت جناتهم وفي زروعهم فهي حال متقاربة.

وبهذا التفسير تزول الحيرة في استخلاص معنى الآية وتعليلها.

والغدق: بفتح الغين المعجمة وفتح الدال الماء الغزير الكثير.

وجملة)لنفتنهم فيه(إدماج فهي معترضة بين جملة)وأن لو استقاموا على الطريقة(الخ وبين جملة)ومن يعرض عن ذكر ربه(الخ.

صفحة : 4592

ثم اكدت الكناية عن الإنذار المأخوذة من قوله)وأن لو استقاموا على الطريق لأسقيناهم(الآية، بصريح الإنذار بقوله)ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابا صعدا(، أي فإن أعرضوا أنقلب حالهم إلى العذاب فسلكنا بهم مسالك العذاب.

والسلك: حقيقته الإدخال، وفعله قاصر ومتعد، يقال: سلكه فسلك، قال الأعشى:

كما سلك السكي في الباب فيتق أي أدخل المسمار في الباب نجار.

وتقدم عند قوله تعالى)كذلك نسلكه في قلوب المجرمين(في سورة الحجر.

واستعمل السلك هنا في معنى شدة وقوع الفعل على طريق الاستعارة وهي استعارة عزيزة. والمعنى: نعذبه عذابا لا مصرف عنه.
وانتصب)عذابا(على نزع الخافض وهو حرف الظرفية، وهي ظرفية مجازية تدل على أن العذاب إذا حل به يحيط به إحاطة الظرف بالمظروف.
والعدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله)عن ذكر ربه(دون أن يقول: عن ذكرنا، أو عن ذكري، لاقتضاء الحال الإيماء إلى وجه بناء الخبر فإن المعرض عن ربه الذي خلقه وأنشأه ودبره حقيق بأن يسلك عذابا صعدا.
والصعد: الشاق الغالب، وكأنه جاء من مصدر صعد كفرح إذا علا وأرتفع، أي صعد على مفعوله وغلبه، كما يقال: علاه بمعنى تمكن منه،)وأن لا تعلوا على الله(.
وقرأ الجمهور)نسلكه(بنون العظمة ففيه التفات. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف يسلكه بياء الغائب فالضمير المستتر يعود إلى ربه.
)وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا[18](اتفق القراء العشرة على فتح الهمزة في)وأن المساجد لله(فهي معطوفة على مرفوع)أوحي إلي أنه أستمع نفر من الجن(، ومضمونها مما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بأن يقوله. والمعنى: قل أوحي إلي أن المساجد لله فالمصدر المنسبك مع)أن(واسمها وخبرها نائب فاعل)أوحي(.
والتقدير: أوحي إلي اختصاص المساجد بالله، أي بعبادته لأن بناءها إنما كان ليعبد الله فيها، وهي معالم التوحيد.
وعلى هذا الوجه حمل سيبويه الآية وتبعه أبو علي بالحجة.
وذهب الخليل أن الكلام على حذف لام جر قبل)أن(، فالمجرور مقدم على متعلقه للاهتمام. والتقدير: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا.
واللام في قوله)الله(للاستحقاق، أي الله مستحقها دون الأصنام والأوثان فمن وضع الأصنام في مساجد الله فقد اعتدى على الله.
والمقصود هنا هو المسجد الحرام لأن المشركين كانوا وضعوا فيه الأصنام وجعلوا الصنم)هبل(على سطح الكعبة، قال تعالى)ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها(يعني بذلك المشركين من قريش.
وهذا توبيخ للمشركين على اعتدائهم على حق الله وتصرفهم فيما ليس لهم أن يغيروه قال تعالى)وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه(، وإنما عبر في هذه الآية وفي آية)ومن أظلم ممن منع مساجد الله(بلفظ)مساجد(ليدخل الذين يفعلون مثل

فعلهم معهم في هذا الوعيد ممن شاكلهم ممن غيروا المساجد، أو لتعظيم المسجد الحرام. كما جمع)رسلي(في قوله)فكذبوا رسلي فكيف كان نكير(، على تقدير أن يكون ضمير)كذبوا(عائد إلى) الذين كفروا(في قوله)وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين(أي كذبوا رسولي.

ومنه قوله تعالى)وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم(يريد نوحا، وهو أول رسول فهو مقصود بالجمع.

وفرع على اختصاص كون المساجد بالله النهي عن أن يدعوا مع الله أحدا، وهذا إلزام لهم بالتوحيد بطريق القول بالموجب لأنهم كانوا يزعمون أنهم أهل بيت الله فعبادتهم غير الله منافية بزعمهم ذلك.

)وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا[19] قال إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا[20](قرأ نافع وحده وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة. وقرأه بقية العشرة في رواياتهم المشهورة بالفتح.

ومآل القراءتين سواء في كون هذا خارجا عما صدر عن الجن وفي كونه مما أوحى الله به.

فكسر الهمزة على عطف الجملة على جملة)أوحي إلي(، والتقدير: وقل أنه لما قام عبد الله يدعوه بأن همزة)إن(إذا وقعت في محكي في القول تكثر، ولا يليق أن يجعل من حكاية مقالة الجن لأن ذلك قد انقضى وتباعد ونقل الكلام إلى أغراض أخرى ابتداء من قوله)وأن المساجد لله(.

وأما الفتح فعلى اعتباره معطوف على جملة)إنه استمع نفر(، أي وأوحي إلي أنه لما قام عبد الله، أي أوحى الله إلي اقتراب المشركين من أن يكونوا لبدا على عبد الله لما قام يدعو ربه.

وضمير)إنه(ضمير الشأن وجملة)لما قام عبد الله(إلى آخرها خبره.

وضمير)كادوا يكونون(عائدان إلى المشركين المنبئ عنهم المقام غيبة وخطابا ابتداء من قوله)وأن لو استقاموا على الطريقة(إلى قوله)فلا تدعو مع الله أحدا(.

و)عبد الله(هو محمد صلى الله عليه وسلم، وضع الاسم الظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: وأنه لما قمت تدعو الله كادوا يكونون عليك، أو لما قمت أدعو الله كادوا يكونون علي. ولكن

عدل إلى الاسم الظاهر لقصد تكريم النبي صلى الله عليه وسلم بوصف)عبد الله(لما في هذه الإضافة من التشريف مع وصف) عبد(كما تقدم غير مرة منها عند قوله)سبحان الذي أسرى بعبده(.

و)لبدا(بكسر اللام وفتح الموحدة اسم جمع: لبدة، وهي ما تلبد بعضه على بعض ومنه لبدة الأسد للشعر المتراكم في رقبته.

والكلام على التشبيه، أي كاد المشركون يكونون مثل اللبد متراصين مقتربين منه يستمعون قراءته ودعوته إلى توحيد الله. وهو التفاف غيض وغضب وهم بالأذى كما يقال: تألبوا عليه.

ومعنى)قام(: اجتهد في الدعوة إلى الله، كقوله تعالى)إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض(في سورة الكهف، وقال النابغة:

بأن حصنا وحيا مـن بـنـي أسـد

قاموا فقالوا حمانا من غير مقروب وقد تقدم عن قوله تعالى) ويقيمون الصلاة(في أول سورة البقرة.

ومعنى قيام النبي صلى الله عليه وسلم إعلانه بالدعوة وظهور دعوته قال جزء بن كليب الفقعسي:

فلا تبغينها يا بن كـوز فـإنـه غذا

الناس مذ قام النبي الجواريا أي قام يعبد الله وحده، كما دل عليه بيانه بقوله بعده)قال إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا(، فهم لما لم يعتادوا دعاء غير الأصنام تجمعوا لهذا الحدث العظيم عليهم وهو دعاء محمد صلى الله عليه وسلم الله تعالى.

وجملة)قل إنما أدعو ربي ولا أشرك بربي أحدا(بيان لجملة) يدعوه(.

وقرأ الجمهور)قال(بصيغة المضي. وقرأه حمزة وعاصم وأبو جعفر)قل(بدون ألف على صيغة الأمر، فتكون الجملة استئنافا. والتقدير: أوحي إلي أنه لما قام عبد الله إلى آخره قل إنما أدعو ربي، فهو من تمام ما أوحي به إليه.

و)إنما أدعو ربي(يفيد قصرا، إلى أدعو غيره، أي لا أعبد غيره دونه.

وعطف عليه)ولا أشرك به أحدا(تأكيدا لمفهوم القصر، وأصله أن لا يعطف فعطفه لمجرد التشريك للعناية باستقلاله بالإبلاغ.

)قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا[21] قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا[22] إلا بلاغا من الله ورسالاته(هذا استئناف ابتدائي، وهو انتقال من ذكر ما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى توجيه خطاب مستأنف إليه، فبعد أن حكي في هذه السورة ما أوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مما خفي عليه من الشؤون المتعلقة به من اتباع متابعين

وإعراض معرضين، انتقل إلى تلقينه ما يرد على الذين أظهروا له العناد والتورك.
ويجوز أن يكون)قل(إني لا أملك الخ، تكريرا لجملة)قل إنما أدعو ربي(على قراءة حمزة وعاصم وأبي جعفر.
والضر: إشارة إلى ما يتوركون به من طلب إنجاز ما يتوعدهم بن من النصر عليهم.
وقوله)ولا رشدا(تتميم.
وفي الكلام احتباك لأن الضر يقابله النفع، والرشد يقابله الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ولا ضلالا ولا رشدا.
والرشد بفتحتين: مصدر رشد، والرشد، بضم فسكون: الاسم، وهو معرفة الصواب، وقد تقدم قريبا في قوله)يهدي إلى الرشد(.

صفحة : 4594

وتركيب لا أملك لكم معناه: لا أقدر قدرة لأجلكم على ضر ولا نفع، وقد تقدم عند قوله تعالى)وما أملك لك من الله من شيء(في سورة الممتحنة، وتقدم أيضا في سورة الأعراف.
وجملتا)قل إني لن يجيرني(إلى)ملتحدا(معترضتان بين المستثني منه والمستثنى، وهو اعتراض رد لما يحاولونه منه أن يترك ما يؤذيهم فلا يذكر القرآن إبطال معتقدهم وتحقير أصنامهم، قال تعالى)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم(.
والملتحد: اسم مكان الالتحاد، والالتحاد: المبالغة في اللحد، وهو العدول إلى مكان غير الذي هو فيه، والأكثر أن يطلق ذلك على اللجأ، أي العياذ بمكان يعصمه. والمعنى: لن أجد مكانا يعصمني.
و)من دونه(حال من)ملتحدا(أي ملتحدا كائنا من دون الله، أي بعيدا عن الله غير داخل من ملكوته، فإن الملتحد مكان فلما وصف بأنه من دون الله كان المعنى أنه مكان من غير الأمكنة في ملك الله، وذلك متعذر، ولهذا جاء لنفي وجدانه حرف)لن(الدال على تأييد النفي.
و)من(في قوله)من دونه(مزيدة جارة للظرف وهو)دون(.
وقوله)إلا بلاغا من الله ورسالاته(استثناء منقطع من) ضرا(و)رشدا(، وليس متصلا لأن الضر والرشد المنيفين في قوله)لا أملك لكم ضرا ولا رشدا(هما الضر والرشد الواقعان في النفس بالإلجاء.

ويجوز أن يكون مع ذلك استثناء من)ملتحدا(، أي بتأويل) ملتحدا(بمعنى: مخلص أو مأمن.
وهذا الاستثناء من أسلوب تأكيد الشيء بما يشبه ضه.
والبلاغ: اسم مصدر بلغ، أي أوصل الحديث أو الكلام، ويطلق على الكلام المبلغ من إطلاق المصدر على المفعول مثل)هذا خلق الله(.
ومن ابتدائية صفة)بلاغا(، أي بلاغا كائنا من جانب الله، أي إلا كلاما أبلغه من القرآن الموحى من الله.
ورسالاته: جمع رسالة: وهي ما يرسل من كلام أو كتاب فالرسالات بلاغ خاص بألفاظ مخصوصة، فالمراد منها هنا تبليغ القرآن.
)ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا[23] (لما كان قوله)قال إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا(إلى هنا كلاما متضمنا أنهم أشركوا وعاندوا الرسول صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى التوحيد واقترحوا عليه ما توهموه تعجيزا له من ضروب الاقتراح، أعقب ذلك بتهديدهم ووعيدهم بأنهم إن داموا على عصيان الله ورسوله سيلقون نار جهنم لأن كل من يعصي الله ورسوله كانت له نار جهنم.
و)من(شرطية وجواب الشرط قوله)فإن له نار جهنم(.
)حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا[24](كانوا إذا سمعوا آيات الوعد بنصر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في الدنيا والآخرة، وآيات الوعيد للمشركين بالانهزام وعذاب الآخرة وعذاب الدنيا استسخروا من ذلك وقالوا: وما نحن بمعذبين، ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وقالوا: ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب، فهم مغرورون بالاستدراج والإمهال فلذلك عقب وعيدهم بالغاية المفادة من)حتى(، فالغاية هنا متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام من سخرية الكفار من الوعيد واستضعافهم المسلمين في العدد والعدد فإن ذلك يفهم منه أنهم لا يزالون يحسبون أنهم غالبون فائزون حتى إذا رأوا ما يوعدون تحققوا إخفاق آمالهم.
و)حتى(هنا ابتدائية وكلما دخلت)حتى(في جملة مفتتحة ب)إذا(ف)حتى(للابتداء وما بعدها جملة ابتدائية. وذهب الأخفش وابن مالك إلى أن)حتى(في مثله جارة وأن)إذا(في محل جر وليس ببعيد.
و)إذا(اسم زمان للمستقبل مضمن معنى الشرط وهو في محل نصب بالفعل الذي في جوابه وهو)فسيعلمون(.
وعلى رأي الأخفش وابن مالك)إذا(محل جر ب)حتى(. واقتران جملة)سيعلمون(بالفاء دليل على أن)إذا(ضمن معنى الشرط، واقتران الجواب بسين الاستقبال يصرف الفعل الماضي بعد)إذا(إلى

زمن الاستقبال. وجيء بالجملة المضاف إليها)إذا(فعلا ماضيا للتنبيه على تحقيق وقوعه.

صفحة : 4595

وفعل)سيعلمون(معلق عن العمل بوقوع الاستفهام بعده وهو استعمال كثير في التعليق لأن الاستفهام بما فيه من الإبهام يكون كناية عن الغرابة بحيث يسأل الناس عن تعيين الشيء بعد البحث عنه.

وضعف الناصر وهن لهم من جهة وهن أنصارهم، وقلة العدد وهن لهم من جانب أنفسهم، وهذا وعيد لهم بخيبة غرورهم بالأمن من غلب المسلمين في الدنيا فإنهم كانوا يقولون: نحن جميع منتصر. وقالوا: نحن أكثر أموالا وأولادا.

)قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا[25] عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا[26] إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا[27] ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم(كان المشركون يكثرون أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم متى هذا الوعد، وعن الساعة أيان مرساها، وتكررت نسبة ذلك إليهم في القرآن، فلما قال الله تعالى)حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا(الآية علم أنهم سيعيدون ما اعتادوا قوله من السؤال عن وقت الوعيد فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعيد عليهم ما سبق من جوابه.

فجملة)قل إن أدري أقريب ما توعدون(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن القول المأمور بأن يقوله جواب لسؤالهم المقدر.

والأمد: الغاية وأصله في الأمكنة. ومنه قول ابن عمر في حديث الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي لم تضمر وجعل أمدها ثنية الوداع أي غاية المسابقة . ويستعار الأمد لمدة من الزمان معينة قال تعالى)فطال عليهم الأمد(وهو كذلك هنا. ومقابلته ب)قريب(يفيد أن المعنى أن يجعل له أمدا بعيدا.

وجملة)عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا(في موضع العلة لجملة)إن أدري أقريب ما توعدون(الآية.

وعالم الغيب: خبر مبتدأ محذوف، أي هو عالم الغيب والضمير المحذوف عائد إلى قوله)ربي(. وهذا الحذف من قبيل حذف المسند إليه حذفا اتبع فيه الاستعمال إذا كان الكلام قد اشتمل على ذكر المسند إليه وصفاته كما نبه عليه السكاكي في المفتاح.

والغيب: مصدر غاب إذا استتر وخفي عن الأنظار وتعريفه تعريف الجنس وإضافة صفة)عالم(إلى)الغيب(تفيد العلم بكل الحقائق المغيبة سواء كانت ماهيات أو أفرادا فيشمل المعنى المصدري للغيب مثل علم الله بذاته وصفاته، ويشمل الأمور الغائبة بذاتها مثل الملائكة والجن. ويشمل الذوات المغيبة عن علم الناس مثل الوقائع المستقبلة التي يخبر عنها أو التي لا يخبر عنها، فإيثار المصدر هنا لأنه اشتمل لإحاطة علم الله بجميع ذلك.

وتقدم ذلك عند قوله تعالى)الذين يؤمنون بالغيب(في سورة البقرة.

وتعريف المسند مع تعريف المسند إليه المقدر يفيد القصر، أي هو عالم الغيب لا أنا.

وفرع على معنى تخصيص الله تعالى بعلم الغيب جملة)فلا يظهر على غيبه أحدا(، فالفاء لتفريع حكم على حكم والحكم المفرع إتمام للتعليل وتفصيل لأحوال عدم الاطلاع على غيبه.

ومعنى)لا يظهر على غيبه أحدا(: لا يطلع ولا ينبئ به، وهو أقوى من يطلع لأن)يظهر(جاء من الظهور وهو المشاهدة، ولتضمينه معنى: يطلع، عدي بحرف)على(.

ووقوع الفعل في حيز النفي يفيد العموم، وكذلك وقوع مفعوله وهو نكرة في حيزه يفيد العموم.

وحرف)على(مستعمل في التمكن من الاطلاع على الغيب وهو كقوله تعالى)وأظهره الله عليه(فهو استعلاء مجازي.

واستثني من هذا النفي من ارتضاه ليطلعه على بعض الغيب، أي على غيب أراد إظهاره من الوحي فإنه من غيب الله، وكذلك ما أراد الله أن يؤيد به رسوله صلى الله عليه وسلم من إخبار بما سيحدث أو إطلاع على ضمائر بعض الناس.

فقوله)ارتضى(مستثنى من عموم)أحدا(. والتقدير: إلا أحدا ارتضاه، أي اختاره للاطلاع على شيء من الغيب لحكمة أرادها الله تعالى.

والإتيان بالموصول والصلة في قوله)إلا من ارتضى من رسول(لقصد ما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى تعليل الخبر، أي يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس، فيعلم من هذا الإيمان أن الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة، وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه أو يفعلوه، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد

من أمور الآخرة، أو أمور الدنيا، وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة كقوله تعالى)غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين(.

والمراد بهذا الإطلاع المحقق المفيد علما كعلم المشاهدة. فلا تشمل الآية ما قد يحصل لبعض الصالحين من شرح صدر بالرؤيا الصادقة، ففي الحديث الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوءة، أو بالإلهام قال النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم رواه مسلم. قال مسلم: قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون.

وقد قال مالك في الرؤيا الحسنة: أنها تسر ولا تغر، يريد لأنها قد يقع الخطأ في تأويلها.

و)من رسول(بيان لإبهام)من(الموصولة فدل على ما صدق)من(جماعة من الرسل، أي إلا الرسل الذين ارتضاهم، أي اصطفاهم.

وشمل)رسول(كل مرسل من الله تعالى فيشمل الملائكة المرسلين إلى الرسل لإبلاغ وحي إليهم مثل جبريل عليه السلام. وشمل الرسل من البشر المرسلين إلى الناس بإبلاغ أمر الله تعالى إليهم من شريعة أو غيرها مما به صلاحهم.

وهنا أربعة ضمائر غيبة: الأول ضمير)فإنه(وهو عائد إلى الله تعالى.

والثاني الضمير المستتر في)يسلك(وهو لا محالة عائد إلى الله تعالى كما عاد إليه ضمير)فإنه(.

والثالث والرابع ضميرا)من بين يديه ومن خلفه(، وهما عائدان إلى)رسول(أي فإن الله يسلك أي يرسل للرسول رصدا من بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصدا، أي ملائكة يحفظون الرسول صلى الله عليه وسلم من إلقاء الشياطين إليه ما يخلط عليه ما أطلعه الله عليه من غيبة.

والسلك حقيقته: الإدخال كما في قوله تعالى)كذلك نسلكه في قلوب المجرمين(في سورة الحجر.

وأطلق السلك على الإيصال المباشر تشبيها له بالدخول في الشيء بحيث لا مصرف له عنه كما تقدم آنفا في قوله)ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابا صعدا(أي يرسل إليه ملائكة متجهين إليه لا يبتعدون عنه حتى يبلغ أليه ما أوحي إليه من الغيب، كأنهم شبه اتصالهم به وحراستهم إياه بشيء داخل في أجزاء جسم. وهذا من جملة الحفظ الذي حفظ الله به ذكره في قوله)إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(.

والمراد ب)من ين يديه ومن خلفه(الكناية عن جميع الجهات، ومن تلك الكناية ينتقل إلى كناية أخرى عن السلامة من التغيير والتحريف.
والرصد: اسم جمع كما تقدم آنفا في قوله)يجد له شهابا رصدا(. وانتصب)رصدا(على أنه مفعول به لفعل)يسلك(.
ويتعلق)ليعلم(بقوله)يسلك(، أي يفعل الله ذلك ليبلغ الغيب إلى الرسول كما أرسل إليه لا يخالطه شيء مما يلبس عليه الوحي فيعلم الله أن الرسل أبلغوا ما أوحي إليهم كما بعثه من دون تغيير، فلما كان علم الله بتبليغ الرسول الوحي مفرعا ومسببا عن تبليغ الوحي كما أنزل الله، جعل المسبب علة وأقيم مقام السبب إيجازا في الكلام لأن علم الله بذلك لا يكون إلا على وفق ما وقع، وهذا كقول إياس بن قبيصة:

وأقبلت والخطي يخطر بيننـا لأعلم من جبانها من شجاعها

أي ليظهر من هو شجاع ومن هو جبان فأعلم ذلك. وهذه العلة هي المقصد الأهم من اطلاع من ارتضى من رسول على الغيب، وذكر هذه العلة لا يقتضي انحصار علل الاطلاع فيها.
وجيء بضمير الإفراد في قوله)من بين يديه ومن خلفه(مراعاة للفظ)رسول(، ثم جيء له بضمير الجمع في قوله)أن قد أبلغوا(مراعاة لمعنى رسول وهو لجنس، أي الرسل على طريقة قوله الله تعالى السابق آنفا)فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا(.
والمراد: ليعلم الله أن قد أبلغوا رسالات الله أدوا الأمانة علما يترتب عليه جزاؤهم الجزيل.

صفحة : 4597

وفهم من قوله)أن قد أبلغوا رسالات ربهم(أن الغيب المتحدث عنه في هذه الآية هو الغيب المتعلق بالشريعة وأصولها من البعث والجزاء، لأن الكلام المستثنى منه هو نفي علم الرسول صلى الله عليه وسلم بقرب ما يوعدون به أو بعده وذلك من علائق الجزاء والبعث.
ويلحق به ما يوحى به إلى الأنبياء الذين ليسوا رسلا لأن ما يوحى إليهم لا يخلو من أن يكون تأييدا لشرع سابق كأنبياء بني إسرائيل والحواريين أو أن يكون لإصلاح أنفسهم وأهليهم مثل آدم وأيوب.
واعلم أن الاستثناء من النفي ليس بالمقتض أن يثبت للمستثنى جميع نقائض أحوال الحكم الذي للمستثنى منه، بل قصارى ما

يقتضيه أنه كالنقض في المناظرة يحصل بإثبات جزئي من جزئيات ما نفاه الكلام المنقوص، فليس قوله تعالى)إلا من ارتضى من رسول(بمقتض أن الرسول يطلع على جميع غيب الله، وقد بين النوع المطلع عليه بقوله)ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم(.

وقرأ رويس عن يعقوب)ليعلم(بضم الياء وفتح اللام مبنيا للمفعول على أن)أن قد أبلغوا(نائب عن الفاعل، والفاعل المحذوف حذف للعلم به، أي ليعلم الله أن قد أبلغوا.

)وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا[28](الواو واو الحال أو اعتراضية لأن مضمونها تذييل لجملة)ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم(، أي أحاط بجميع ما لدى الرسل من تبليغ وغيره، وأحاط بكل شيء مما عدا ذلك، فقوله)وأحاط بما لديهم(تعميم بعد تخصيص ما قبله بعلمه بتبليغهم ما أرسل إليهم، وقوله)وأحصى كل شيء عددا(تعميم أشمل بعد تعميم ما.

وعبر عن العلم بالإحصاء على طريق الاستعارة تشبيها لعلم الأشياء بمعرفة الأعداد لأن معرفة الأعداد أقوى، وقوله)عددا(ترشيح للاستعارة.

والعدد: بالفك اسم لمعدود وبالإدغام مصدر عد، فالمعنى هنا: وأحصى كل شيء معدودا، وهو نصب على الحال، بخلاف قوله تعالى)وعدهم عدا(. وفرق العرب بين المصدر والمفعول لأن المفعول أوغل في الاسمية من المصدر فهو أبعد عن الإدغام لأن الأصل في الإدغام للأفعال.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المزمل

ليس لهذه السورة إلا أسم)سورة المزمل(عرفت بالإضافة لهذا اللفظ الواقع في أولها، فيجوز أن يراد حكاية اللفظ، ويجوز أن يراد به النبي صلى الله عليه وسلم موصوفا بالحال الذي نودي به في قوله تعالى)يا أيها المزمل(.

قال ابن عطية: هي في قول الجمهور مكية إلا قوله تعالى)إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل(إلى نهاية السورة فذلك مدني. وحكى القرطبي مثل هذا عن الثعلبي.

وقال في الإتقان: إن استثناء قوله)إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل(إلى آخر السورة يرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة نزل بعد نزول صدر السورة بسنة وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس اه.

يعني وذلك كله بمكة، أي فتكون السورة كلها مكية فتعين أن قوله)قم الليل(أمر به في مكة.

والروايات تظاهرت على أن قوله)إن ربك يعلم أنك تقوم(إلى آخر السورة نزل مفصولا عن نزول ما قبله بمدة مختلف في قدرها، فقالت عائشة نزل بعد صدر السورة بسنة . ومثله روى الطبري عن ابن عباس، وقال الجمهور: نزل صدر السورة بمكة ونزل)إن ربك يعلم(إلى آخرها بالمدينة، أي بعد نزول أولها بسنين. فالظاهر أن الأصح أن نزول)إن ربك يعلم(إلى آخر السورة نزل بالمدينة لقوله تعالى)وآخرون يقاتلون في سبيل الله(إن لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة.

وروى الطبري عن سعيد بن جبير قال لما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يا أيها المزمل مكث النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله بعد عشر سنين)إن ربك يعلم أنك تقوم(إلى)وأقيموا الصلاة(اه، أي نزلت الآيات الأخيرة في المدينة بناء على أن مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة كان عشر سنين وهو قول جم غفير.

صفحة : 4598

والروايات عن عائشة مضطربة بعضها يقتضي أن السورة كلها مكية وأن صدرها نزل قبل آخرها بسنة قبل فرض الصلاة وهو ما رواه الحاكم في نقل صاحب الإتقان. وذلك يقتضي أن أول السورة نزل بمكة، وبعض الروايات يقولون فيها: إنها كانت تفرش لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا فصلى عليه من الليل فتسامع الناس فخرج مغضبا وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل ونزل)يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا(فكتب عليهم بمنزلة الفريضة ومكثوا على ذلك ثمانية أشهر ثم وضع الله ذلك عنهم، فأنزل)إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل(إلى)فتاب عليكم(، فردهم إلى الفريضة ووضع عنهم النافلة. وهذا ما رواه الطبري بسندين إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة، وهو يقتضي أن السورة كلها مدنية لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبن بعائشة إلا في المدينة، ولأن قولها فخرج مغضبا يقتضي أنه خرج من بيته المفضي إلى مسجده، ويؤيده أخبار ثبت قيام الليل في مسجده. ولعل سبب هذا الاضطراب اختلاط في الرواية بين فرض قيام الليل وبين الترغيب فيه.

ونسب القرطبي إلى تفسير الثعلبي قال: قال النخعي في قوله تعالى)يا أيها المزمل(كان النبي صلى الله عليه وسلم متزملا

بقطيفة عائشة، وهي مرط نصفه عليها وهي نائمة ونصفه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي اه، وإنما بنى النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة في المدينة، فالذي نعتمد عليه أن أول السورة نزل بمكة لا محلة كما سنبينه عند قوله تعالى)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا(، وأن قوله)إن ربك يعلم أنك تقوم(إلى آخر السورة نزل بالمدينة بعد سنين من نزول أول السورة لأن فيه ناسخا لوجوب قيام الليل وإنه ناسخ لوجوب قيام الليل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن ما رووه عن عائشة أن أول ما فرض قيام الليل قبل فرض الصلاة غريب.

وحكى القرطبي عن الماوردي: أن ابن عباس وقتادة قالا: إن آيتين وهما)وأصبر على ما يقولون(إلى قوله)ومهلهم قليلا(نزلتا بالمدينة.

واختلف في عد هذه السورة في ترتيب نزول السور، والأصح التي تضافرت عليه الأخبار الصحيحة: أن أول ما نزل سورة العلق واختلف فيما نزل بعد سورة العلق، فقيل: سورة ن والقلم، وقيل نزل بعد العلق سورة المدثر، ويظهر أنه الأرجح ثم قيل نزلت سورة المزمل بعد القلم فتكون ثالثة. وهذا قول جابر بن زيد في تعداد نزول السور، وعلى القول بأن المدثر هي الثانية. يحتمل أن تكون القلم ثالثة والمزمل رابعة، ويحتمل أن تكون المزمل هي الثالثة والقلم رابعة، والجمهور على أن المدثر نزلت قبل المزمل، وهو ظاهر حديث عروة بن الزبير عن عائشة في بدء الوحي من صحيح البخاري وسيأتي عند قوله تعالى)يا أيها المزمل(.

والأصح أن سبب نزول)يا أيها المزمل(ما في حديث جابر بن عبد الله الآتي عند قوله تعالى)يا أيها المزمل(الآية.

وعدت آيها في عد أهل المدينة ثمان عشرة آية، وفي عد أهل البصرة تسع عشرة وفي عد من عداهم عشرون.

أغراضها الإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بندائه بوصفه بصفة تزمله.

واشتملت على الأمر بقيام النبي صلى الله عليه وسلم غالب الليل والثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل.

وعلى تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم بتحمل إبلاغ الوحي.

والأمر بإدامة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإعطاء الصدقات.

وأمره بالتمحض للقيام بما أمره الله من التبليغ وبأن يتوكل عليه.

وأمره بالإعراض عن تكذيب المشركين.

وتكفل الله له بالنصر عليهم وأن جزاءهم بيد الله.

والوعيد لهم بعذاب الآخرة.

ووعظهم مما حل بقوم فرعون لما كذبوا رسول الله إليهم.

وذكر يوم القيامة ووصف أهواله.

ونسخ قيام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه رعيا للأعذار الملازمة.
والوعد بالجزاء العظيم على أفعال الخيرات.
والمبادرة بالتوبة وأدمج في ذلك أدب قراءة القرآن وتدبره.
وأن أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل.
وفي هذه السورة مواضع عويصة وأساليب غامضة فعليك تدبرها.
)يا أيها المزمل[1] قم الليل إلا قليلا[2] نصفه أو انقص منه قليلا[3] أو زد عليه(

صفحة : 4599

افتتاح الكلام بالنداء إذ كان المخاطب واحدا ولم يكن بعيدا يدل على الاعتناء بما سيلقي إلى المخاطب من كلام.
والأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو)يا أيها النبي(، أو تلطف وتقرب نحو: يا بني ويا أبت، أو قصد تهكم نحو) وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون(فإذا نودي المنادي بوصف هيئته من لبسه أو لبسه أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب وقد وجده مضطجعا في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه قم أبا تراب وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق قم يا نومان وقوله لعبد الرحمن بن صخر الدوسي وقد رءاه حاملا هرة صغيرة في كمه)يا أبا هريرة(.
فنداء النبي ب)يا أيها المزمل(ناء تلطف وارتفاق ومثله قوله تعالى)يا أيها المدثر(.
والمزمل: اسم فاعل من تزمل، إذا تلفف بثوبه كالمقرور، أو مريد النوم وهو مثل لمدثر في مآل المعنى وإن كان بينهما اختلاف في أصل الاشتقاق فالتزمل مشتق من معنى التلفف، والتدثر مشتق من معنى اتخاذ الدثار للتدفؤ. وأصل التزمل مشتق من الزمل بفتح فسكون وهو الإخفاء ولا يعرف ل تزمل فعل مجرد في معناه فهو من التفعل الذي تنوسي منه معنى التكلف للفعل، وأريد في إطلاقه معنى شدة التلبس، وكثر مثل هذا في الاشتمال على اللباس، فمنه التزمل ومنه التعمم والتأزر والتقمص، وربما صاغوا له صيغة الافتعال مثل: ارتدى وائتزر.
وأصل المزمل: المتزمل، أدغمت التاء في الزاي بعد قلبها زايا لتقارهما.

وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية قال الزهري وجمهور المفسرين: إنه التزمل الذي جرى في قول النبي صلى الله عليه وسلم زملوني زملوني حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه)اقرأ باسم ربك(الآيات كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذ، وعليه فهو حقيقة.

وقيل هو ما في حديث جابر بن عبد الله قال لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه أي صفوه وصفا تتفق عليه الناس فقالوا: كاهن، وقالوا:مجنون، وقالوا: ساحر، فصدر المشركون على وصفه ب ساحر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحزن وتزمل في ثيابه وتدثر، فأتاه جبريل فقال)يا أيها المزمل( )يا أيها المدثر(.

وسيأتي في سورة المدثر: أن سبب نزولها رؤيته الملك جالسا على كرسي بين السماء والأرض فرجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال دثروني فيتعين أن سبب ندائه ب)يا أيها المزمل(كان عند قوله زملوني ، فذلك عندما اغتم من وصف المشركين إيه بالجنون وأن ذلك غير سبب ندائه ب)يا أيها المدثر(في سورة المدثر.

وقيل: هو تزمل للاستعداد للصلاة فنودي)يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا(وهذا مروي عن قتادة. وقريب منه عن الضحاك وهي أقوال متقاربة.

ومحملها على أن التزمل حقيقة، وقال عكرمة: معناه زملت هذا الأمر فقم به، يريد أمر النبوءة فيكون قوله)الليل إلا قليلا(مع قوله)إن لك في النهار سبحا طويلا(تحريضا على استفراغ جهده في القيام بأمر التبليغ في جميع الأزمان من ليل ونهار إلا قليلا من الليل وهو ما يضطر إليه من الهجوع فيه. ومحمل التزمل عنده على المجاز.

فإذا كانت سورة المزمل قد أنزلت قبل سورة المدثر كان ذلك دالا على أن الله تعالى بعد أن أبتدأ رسوله بالوحي بصدر سورة) أقرأ باسم ربك(ثم أنزل عليه سورة القلم لدحض مقالة المشركين فيه التي دبرها الوليد بن المغيرة أن يقولوا: إنه مجنون.

أنزل عليه التلطف به على تزمله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين فأمره الله بأن يدفع ذلك عنه بقيام الليل، ثم فتر الوحي فلما رأى الملك الذي أرسل إليه بحراء تدثر من شدة وقع تلك الرؤية فأنزل عليه)يا أيها المدثر(.

فنداء النبي صلى الله عليه وسلم بوصف)المزمل(باعتبار حالته وقت ندائه ليس المزمل معدودا من أسماء النبي صلى الله عليه

وسلم، قال السهيلي: ولم يعرف به وذهب بعض الناس إلى عده من أسمائه.

صفحة : 4600

وفعل)قم(منزل منزلة اللازم فلا يحتاج إلى تقدير متعلق لأن القيام مراد به الصلاة، فهذا القيام مغاير للقيام المأمور به في سورة المدثر بقوله)قم فأنذر(فإن ذلك بمعنى الشروع كما يأتي هنالك.

والليل: زمن الظلمة من بعد العشاء إلى الفجر. وأنتصب) الليل(على الظرفية فاقتضى الأمر بالصلاة في جميع وقت الليل، ويعلم استثناء أوقات قضاء الضرورات من إغفاء بالنوم ونحوه من ضرورات الإنسان.

وقيام الليل لقب في اصطلاح القرآن والسنة للصلاة فيه ما عدا صلاة المغرب والعشاء ورواتبهما.

وأمر الرسول بقيام الليل أمر إيجاب وهو خاص به لأن الخطاب موجه إليه وحده مثل السور التي سبقت نزول هذه السورة، وأما قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا فيه بالرسول صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في قوله تعالى:)إن ربك يعلم إنك تقوم(إلى قوله:)وطائفة من الذين معك(الآيات قال الجمهور وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس في أوقات النهار والليل ولعل حكمة هذا القيام الذي فرض على الرسول صلى الله عليه وسلم في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاء يقوي استعداده لتلقي الوحي حتى لا يخرجه الوحي كما ضغطه عند نزوله كما ورد في حديث البخاري)فغطني حتى بلغ مني الجهد(ثم قال)اقرأ باسم ربك(الحديث، ويدل هذه الحكمة قوله تعالى عقبه)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث في غار حراء قبيل بعثته بإلهام من الله تعالى، فالذي ألهمه ذلك قبل أن يوحى إليه يجدر بأن يأمره به بعد أن أوحى إليه فلا يبقى فترة من الزمن غير متعبد لعبادة، ولهذا نرجح أن قيام الليل فرض عليه قبل فرض الصلوات الخمس عليه وعلى الأمة.

وقد استمر وجوب قيام الليل على رسوله صلى الله عليه وسلم بعد فرض الصلوات الخمس تعظيما لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شؤون المسلمين وهو وقت الليل كما يدل عليه قوله تعالى)ومن الليل فتهجد به نافلة

لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا(، أي زيادة قرب لك. وقد تقدم في سورة الإسراء. فكان هذا حكما خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكره الفقهاء في باب خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن واجبا على غيره ولم تفرض على المسلمين صلاة قبل الصلوات الخمس. وإنما كان المسلمون يقتدون بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرهم على ذلك فكانوا يرونه لزاما عليهم، وقد أثنى الله عليهم بذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى)تتجافى جنوبهم عن المضاجع(، وسيأتي ذلك عند قوله تعالى)إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل(الآية، قالت عائشة إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام النبي وأصحابه ، على أنه لا خلاف في رفع فرض القيام عن المسلمين. وتقرر أنه مندرب مندوب فيه. واختلف في استمرار وجوبه على النبي صلى الله عليه وسلم ولا طائل وراء الاستدلال على ذلك أو عدمه.

وقوله)إلا قليلا(استثناء من)الليل(أي إلا قليلا منه، فلم يتعلق إيجاب القيام عليه بأوقات الليل كلها.

و)نصفه(بدل من)قليلا(بدلا مطابقا وهو تبيين لإجمال)قليلا(فجعل القيام هنا النصف أو أقل منه بقليل.

وفائدة هذا الإجمال الإيماء إلى أن الأولى أن يكون القيام أكثر من مدة نصف الليل رحمة ورخصة للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدل ذلك تعقيبه بقوله)أو انقص منه قليلا(أي انقص من النصف قليلا، فيكون زمن قيام الليل أقل من نصفه، وهو حينئذ قليل فهو رخصة من الرخصة.

وقال)أو زد عليه(وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقد)وزد عليه(بمثل ما قيد به)أو انقص منه(لتكون الزيادة على النصف متسعة، وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بالعزيمة فقام حتى تورمت قدماه وقيل له في ذلك إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: أفلا أكون عبدا شكورا .

والتخيير المستفاد من حرف)أو(منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر لأن ذلك ارتباطا بسعة النهار للعمل ولأخذ الحظ الفائت من النوم.

وبعد فذلك توسيع على النبي صلى الله عليه وسلم لرفع حرج تحديده لزمن القيام فسلك به مسلك التقريب.

وجعل ابن عطية)الليل(اسم جنس يصدق على جميع الليالي، وأن المعنى: إلا قليلا من الليالي، وهي الليالي التي يكون فيها عذر يمنعه من قيامها، أي هو استثناء من الليالي باعتبار جزيئاتها لا باعتبار الأجزاء، ثم قال)نصفه(إلى آخره.

وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقت النوم عادة فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله: ولأن الليل وقت سكون الأصوات وإشغال الناس فتكون نفس القائم فيه أقوى استعدادا لتلقي الفيض الرباني.

)ورتل القرآن ترتيلا[4](يجوز أن يكون متعلقا بقيام الليل، أي رتل قراءتك في القيام.

ويجوز أن يكون أمرا مستقلا بكيفية قراءة القرآن جرى ذكره بمناسبة الأمر بقيام الليل، وهذا أولى لأن القراءة في الصلاة تدخل في ذلك. وقد كان نزول هذه السورة في أول العهد بنزول القرآن فكان جملة القرآن حين نزول هذه السورة سورتين أو ثلاث سور بناء على أصح الأقوال في أن هذا المقدار من السور مكي، وفي أن هذه السورة من أوائل السور، وهذا مما أشعر به قوله)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا(أي سنوحي إليك قرآنا.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ القرآن بمهل وتبيين.

والترتيل: جعل الشيء مرتلا، أي مفرقا، وأصله من قولهم: ثغر مرتل، وهو المفلج الأسنان، أي المفرق بين أسنانه تفريقا قليلا بحيث لا تكون النواجذ متلاصقة. وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته، أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحة مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع. ووصفت عائشة الترتيل فقالت لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها لا كسردكم هذا .

وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقاه السامعون فيعلق بحوافظهم، ويتدبر قارئه وسامعه معانيه كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم. قال قائل لعبد الله بن مسعود: قرأت المفصل في ليلة فقال عبد الله هذا كهذ الشعر لأنهم كانوا إذا أنشدوا القصيدة أسرعوا ليظهر ميزان بحرها، وتتعاقب قوافيها على الأسماع. والهذ: إسراع القطع.

وأكد هذا المر بالمفعول المطلق لإفادة تحقيق صفة الترتيل. وقرأ الجمهور)أو انقص(بضم الواو للتخلص من التقاء الساكنين عند سقوط همزة الوصل، حركة الواو بضمة لمناسبة ضمة قاف)انقص(بعدها. وقرأه حمزة وعاصم بكسر الواو على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.

ووقع في قوله)أو زد عليه ورتل القرآن(إذا شبعت فتحة نون القرآن محسن الاتزان بأن يكون مصراعا من بحر الكامل أحد دخله الإضمار مرتين.

)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا[5](تعليل للأمر بقيام الليل وقع اعتراضا بين جملة)قم الليل(وجملة)إن ناشئة الليل هي أشد وطئا(، وهو جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئة نفس النبي صلى الله عليه وسلم ليحمل شدة الوحي، وفي هذا إيماء إلى أن الله يسر عليه ذلك كما قال تعالى)إن علينا جمعه وقرآنه(، فتلك مناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة) قم الليل إلا قليلا(فهذا إشعار بأن نزول هذه الآية كان في أول عهد النبي صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن فلما قال له)ورتل القرآن ترتيلا(أعقب ببيان علة الأمر بترتيل القرآن.

والقول الثقيل هو القرآن وإلقاؤه عليه: إبلاغه له بطريق الوحي بواسطة الملك.

وحقيقة الإلقاء: رمي الشيء من اليد إلى الأرض وطرحه، ويقال: شيء لقى، أي مطروح، استعير الإلقاء للإبلاغ دفعة على غير ترقب.

والثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيرا على الرسول الأمي تنوء الطاقة عن تلقيه.

وأشعر قوله)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا(أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لقوله قبله)إنا سنلقي عليك(وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقيل صعب تلقيه ممن أنزل عليه. قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده أي تغير بمثل القشعريرة وقالت عائشة رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا .

ويستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه. قال الفراء ثقيلا ليس بالكلام السفساف . وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغويين وحكماء فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه.

وتأكيد هذا الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به وإشعار الرسول صلى الله عليه وسلم بتأكيد قربه واستمراره، ليكون وروده أسهل عليه من ورود الأمر المفاجيء.
)إن ناشئة الليل هي أشد وطئا واقوم قيلا[6](تعليل لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه فهي مرتبطة بجملة)قم الليل(، أي قم الليل لأن ناشئته أشد وطئا وأقوم قيلا.

والمعنى: أن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرك وارتقاء بك إلى المراقي الملكية.
و)ناشئة(وصف من النشء وهو الحدوث. وقد جرى هذا الوصف هنا على غير موصوف، وأضيف إلى الليل إضافة على معنى)في(مثل) مكر الليل(، وجعل من أقوم القيل، فعلم أن فيه قولا وقد سبقه الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن، فتعين أن موصوفه المحذوف هو صلاة، أي الصلاة الناشئة في الليل، فإن الصلاة تشتمل على أفعال وأقوال وهي قيام.
ووصف الصلاة بالناشئة لأنها أنشأها المصلي فنشأت بعد هدأة الليل فأشبهت السحابة التي تتنشأ من الأفق بعد صحو، وإذا كانت الصلاة بعد نوم فمعنى النشء فيها أقوى، ولذلك فسرتها عائشة بالقيام بعد النوم. وفسر ابن عباس)ناشئة الليل(بصلاة الليل كلها. واختاره مالك. وعن علي بن الحسين: أنها ما بين المغرب والعشاء. وعن ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير: أن أصل هذا معرب عن الحبشة، وقد عدها السبكي في منظومته في معربات القرآن.
وإيثار لفظ ناشئة في هذه الآية دون غيره من نحو: قيام، أو تهجد، لأجل ما يحتمله من هذه المعاني ليأخذ الناس فيه بالاجتهاد.
وقرأ جمهور العشرة)وطئا(بفتح الواو وسكون الطاء بعدها همزة، والوطء: أصله وضع الرجل على الأرض، وهو هنا مستعار لمعنى يناسب أن يكون شأنا للظلام بالليل، فيجوز أن يكون الوطء استعير لفعل من أفعال المصلي على نحو إسناد المصدر إلى فاعله، أي واطئا أنت، فهو مستعار لتمكن المصلي من الصلاة في الليل بتفرغه لها وهدوء باله من الأشغال النهارية تمكن الواطئ على الأرض فهو أمكن للفعل. والمعنى: أشد وقعا، وبهذا فسره جابر بن زيد والضحاك وقاله الفراء.
ويجوز أن يكون الوطء مستعارا لحالة صلاة الليل وأثرها في المصلي، أي أشد أثر خير في نفسه وأرسخ خيرا وثوابا، وبهذا فسره قتادة.
وقرأه ابن عامر وأبو عمرو وحده)وطاء(بكسر الواو وفتح الطاء ومدها مصدر واطأ من مادة الفعال. والوطاء: الوفاق والملائمة، قال

تعالى)ليواطئوا عدة ما حرم الله(. والمعنى: أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل وبحاصل هذا فسر مجاهد.

وضمير)هي(ضمير فصل، وانظر ما سيأتي عند قوله تعالى)وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا(في وقوع ضمير الفصل بين معرفة واسم تفضيل. وضمير الفصل هنا لتقوية الحكم لا للحصر.

والأقوم: الأفضل في التقوي الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء واستعير)أقوم(للأفضل الأنفع.

وقيلا: القول، وأريد به قراءة القرآن لتقدم قوله)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا(. فالمعنى: أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر. قال ابن عباس)وأقوم قيلا(: أدنى من أن يفقهوا القرآن. وقال قتادة: أحفظ للقراءة، وقال ابن زيد: أقوم قراءة لفراغه من الدنيا.

وانتصب)وطئا(و)قيلا(نسبة تمييزي ل)أشد(، ول)أقوم(.

)إن لك في النهار سبحا طويلا[7](فصل هذه الجملة دون عطف على ما قبلها يقتضي أن مضمونها ليس من جنس حكم ما قبلها، فليس المقصود تعيين صلاة النهار إذ لم تكن الصلوات الخمس قد فرضت يومئذ على المشهور، ولم يفرض حينئذ إلا قيام الليل.

فالذي يبدو أن موقع هذه الجملة موقع العلة لشيء مما في جملة)إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا(وذلك دائر: بين أن يكون تعليلا لاختيار الليل لفرض القيام عليه فيه، فيفيد تأكيد للمحافظة على قيام الليل لأن النهار لا يغني غناءه فيتحصل من المعنى: قم الليل لأن قيامه أشد وقعا وأرسخ قولا، لأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك. وشغل النبي صلى الله عليه وسلم في النهار بالدعوة إلى الله وإبلاغ القرآن وتعليم الدين ومحاجة المشركين وافتقاد المؤمنين المستضعفين، فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل، وبين أن يكون تلطفا واعتذارا عن تكليفه بقيام الليل، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإيقاع ما عسى أن يكلفه قيام الليل من فتور بالنهار لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه.

ويجوز أن يكون تعليلا لما تضمنه)أو انقص منه قليلا(أي إن نقصت من نصف الليل شيئا لا يفتك ثواب علمه، فإن لك في النهار متسعا للقيام والتلاوة مثل قوله تعالى)وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا(.

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في النهار من أول البعثة قبل فرض الصلوات الخمس كما دل عليه قوله تعالى) أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى(. وقد تقدم في سورة الجن أن استماعهم القرآن كان في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في نخلة في طريقهم إلى عكاظ. ويظهر أن يكون كل هذا مقصودا لأنه مما تسمح به دلالة كلمة)سبحا طويلا(وهي من بليغ الإيجاز.

والسبح: أصله العوم، أي السلوك بالجسم في ماء كثير، وهو مستعار هنا للتصرف السهل المتسع الذي يشبه حركة السابح في الماء فإنه لا يعترضه ما يعوق جولانه على وجه الماء ولا إعياء السير في الأرض.

وقريب من هذه الاستعارة استعارة السبح لجري الفرس دون كلفة في وصف امرئ القيس الخيل السابحات في قوله في مدح فرسه:

مسح إذا ما السابحات على الونى

أثرن الغبار في الكديد المركل فعبر عن الجاريات بالسابحات.

وفسر ابن عباس السبح بالفراغ، أي لينام في النهار، وقال ابن وهب عن ابن زيد قال: فراغا طويلا لحوائجك فافرغ لدينك في الليل.

والطويل: وصف من الطول، وهو ازدياد امتداد القامة أو الطريق أو الثوب على مقادير أكثر من أمثاله. فالطول من صفات الذوات، وشاع وصف الزمان به يقال: ليل طويل وفي الحديث الشتاء ربيع المؤمن قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه .

أما وصف السبح ب)طويل(في هذه الآية فهو مجاز عقلي لأن الطويل هو مكان السبح وهو الماء المسبوح فيه. وبعد هذا ففي قوله)طويلا(ترشيح لاستعارة السبح للعمل في النهار.

)واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا[8] رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا[9](عطف على)قم الليل(وقصد بإطلاق الأمر عن تعيين زمان إلى إفادة تعميمه، أي ذكر اسم ربك في الليل وفي النهار كقوله)واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا(.

وإقحام كلمة)اسم(لأن المأمور به ذكر اللسان وهو الجامع للتذكر بالعقل لأن الألفاظ تجري على حسب ما في النفس، ألا ترى إلى قوله تعالى)واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول(.

والتبتل: شدة البتل، وهو مصدر تبتل القاصر الذي هو مطاوع بتله ف)تبتل(وهو هنا للمطاوعة المجازية يقصد من صيغتها المبالغة في حصول الفعل حتى كأنه فعله غيره به فطاوعه، والتبتل: الانقطاع وهو هنا انقطاع مجازي، أي تفرغ البال والفكر إلى ما يرضي الله، فكأنه انقطع عن الناس وانحاز إلى جانب الله فعدي ب)إلى(الدالة على الانتهاء، قال امرؤ القيس:

منارة ممسى راهب متبتل والتبتيل: مصدر بتل المشدد الذي هو فعل متعد مثل التقطيع.

وجيء بهذا المصدر عوضا عن التبتل للإشارة إلى حصول التبتل، أي الانقطاع يقتضي التبتيل أي القطع. ولما كان التبتيل قائما بالمتبتل تعين أن تبتيله قطع نفسه عن غير من تبتل هو إليه فالمقطوع عنه هنا هو من عدا الله تعالى فالجمع بين) تبتل(و)تبتيلا(مشير إلى إراضة النفس عن ذلك التبتل. وفيه مع ذلك وفاء برعي الفواصل التي قبله.

صفحة : 4604

والمراد بالانقطاع المأمور به انقطاع خاص وهو الانقطاع عن الأعمال التي تمتعه من قيام الليل ومهام النهار في نشر الدعوة ومحاجة المشركين ولذلك قيل)وتبتل إليه(أي إلى الله فكل عمل يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم من أعمال الحياة فهو لدين الله فإن طعامه وشرابه ونومه وشؤونه للاستعانة على نشر دين الله. وكذلك منعشات الروح البريئة من الإثم مثل الطيب، وتزوج النساء، والأنس إلى أهله وأبنائه وذويه، وقد قال حبب إلي من دنياكم النساء والطيب .

وليس هو التبتل المفضي إلى الرهبانية وهو الإعراض عن النساء وعن تدبير أمور الحياة لأن ذلك لا يلاقي صفة الرسالة.

وفي حديث سعد في الصحيح رد رسول الله على عثمان ابن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا يعني رد عليه استشارته في الإعراض عن النساء.

ومن أكبر التبتل إلى الله الانقطاع عن الإشراك، وهو معنى الحنيفية، ولذلك عقب قوله)وتبتل إليه تبتيلا(بقوله)رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو(.

وخلاصة المعنى: أن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور أن لا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة الله ومراقبته والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد كان النبي صلى الله عليه وسلم من قبل غير غافل

عن هذا الانقطاع بإرشاد من الله كما ألهمه التحنث في غار حراء ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة. فالأمر في قوله)واذكر اسم ربك وتبتل إليه(مراد به الدوام على ذلك فإنه قد كان يذكر الله فيما قبل فإن في سورة القلم وقد نزلت قبل المزمل)وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر(على أن القرآن الذي أنزل أولا أكثره إرشاد للنبي صلى الله عليه وسلم إلى طرائق دعوة الرسالة فلذلك كان غالب ما في السور الأول منه مقتصرا على سن التكاليف الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ووصف الله بأنه)رب المشرق والمغرب(لمناسبة الأمر بذكره في الليل وذكره في النهار وهما وقتا ابتداء غياب الشمس وطلوعها، وذلك يشعر بامتداد كل زمان منهما إلى أن يأتي ضده؛ فيصح أن يكون المشرق والمغرب جهتي الشروق والغروب فيكون لاستيعاب جهات الأرض، أي رب جميع العالم وذلك يشعر بوقتي الشروق والغروب.

ويصح أن يراد بهما وقتا الشروق والغروب أي مبدأ ذينك الوقتين ومنتهاهما، كما يقال: سبحوا الله كل مشرق شمس، وكما يقال: صلاة المغرب.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر برفع)رب(على أنه خبر لمبتدأ محذوف حذفا جرى على الاستعمال في مثله مما يسبق في الكلام حديثا عنه. ثم أريد الإخبار عنه بخبر جامع لصفاته، وهو من قبيل النعت المقطوع المرفوع بتقدير مبتدأ. وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف بخفض)رب(على البدل من)ربك(.

وعقب وصف الله ب)رب المشرق والمغرب(، بالإخبار عنه أو بوصفه بأنه لا إله إلا هو لأن تفرده بالإلهية بمنزلة النتيجة لربوبية المشرق والمغرب فلما كانت ربوبيته للعالم لا ينازع فيها المشركون أعقبت بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدد الآلهة بقوله)لا إله إلا هو(تعريضا بهم في أثناء الكلام وإن كان الكلام مسوقا إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك فرع عليه قوله)فاتخذه وكيلا(، وإذا كان الأمر باتخاذ وكيلا مسببا عن كونه لا إله إلا هو كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلا.

والوكيل: الذي يوكل إليه الأمور، أي يفوض إلى تصرفه، ومن أهم التفويض أمر الانتصار لمن توكل عليه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه قول المشركين فيه اغتم لذلك، وقد روي أن ذلك سبب تزمله من موجدة الحزن فأمره الله بأن لا يعتمد إلا عليه، وهذا تكفل بالنصر ولذلك عقب بقوله)واصبر على ما يقولون(.

)واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا[10](عطف على قوله)فاتخذه وكيلا(، والمناسبة أن الصبر على الأذى يستعان عليه بالتوكل على الله.
وضمير)يقولون(عائد إلى المشركين، ولم يتقدم له معاد فهو من الضمائر التي استغني عن ذكر معادها بأنه معلوم للسامعين كما تقدم غير مرة، ومن ذلك عند قوله تعالى)وأن لو استقاموا على الطريقة(الآيات من سورة)قل أوحي إلي(، ولأنه سيأتي عقبه قوله)وذرني والمكذبين(فيبين المراد من الضمير.

صفحة : 4605

وقد مضى في السور التي نزلت قبل سورة المزمل مقالات أذى من المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففي سورة العلق)أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى(. قيل هو أبو جهل تهدد رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن صلى في المسجد الحرام ليفعلن ويفعلن. وفيها)إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى(. قيل هو الأخنس بن شريق تنكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان حليفه ، وفي سورة القلم)ما أنت بنعمة ربك بمجنون(إلى قوله)فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون(، وقوله)ولا تطع كل حلاف مهين(إلى قوله)قال أساطير الأولين(ردا لمقالاتهم. وفي سورة المدثر إن كانت نزلت قبل سورة المزمل)ذرني ومن خلقت وحيدا(إلى قوله)إن هذا إلا قول البشر(، قيل: قائل ذلك الوليد بن المغيرة فلذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقولون.
والهجر الجميل: هو الحسن في نوعه، فإن الأحوال والمعاني منها حسن ومنها قبيح في نوعه، وقد يقال: كريم، وذميم، وخالص، وكدر، ويعرض الوصف للنوع بما من شأنه أن يقترن به من عوارض تناسب حقيقة النوع فإذا جردت الحقيقة عن الأعراض التي قد تتعلق بها كان نوعه خالصا، وإذا ألصق بالحقيقة ما ليس من خصائصها كان النوع مكدرا قبيحا، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى)لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى(. وتقدم عند قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل، ومن هذا المعنى قوله)فصبر جميل(في سورة يوسف، وقوله)فاصبر صبرا جميلا(في سورة المعارج.
فالهجر الجميل هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بعض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرضا لأن يتعلق به أذى

من سب أو ضرب أو نحو ذلك. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجرا جميلا، أي أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبا أو انتقاما.

وهذا الهجر: هو إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله تعالى)واصبر على ما يقولون(.

وليس منسحبا على الدعوة للدين فإنها مستمرة ولكنها تبليغ عن الله تعالى فلا ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد انتزع فخر الدين من هذه الآية منزعا خلقيا بأن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطة الناس في هاتين الكلمتين لأن المرء إما أن يكون مخالطا فلا بد له من الصبر على أذاهم وإيحاشهم لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة فيقع في الغموم إن لم يرض نفسه بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل.

)وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا[11](القول فيه كالقول في)فذرني ومن يكذب بهذا الحديث(في سورة القلم، أي دعني وإياهم، أي لا تهتم بتكذيبهم ولا تشتغل بتكرير الرد عليهم ولا تغضب ولا تسبهم فأنا أكفيكهم.

وانتصب)المكذبين(على المفعول معه، والواو واو المعية.

والمكذبون هم من عناهم بضمير)يقولون(و)اهجرهم(، وهم المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم من أهل مكة، فهو إظهار في مقام الإضمار لإفادة أن التكذيب هو سبب هذا التهديد.

ووصفهم ب)أولي النعمة(توبيخا لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم، وتهديدا لهم بأن الذي قال)ذرني والمكذبين(سيزيل عنهم ذلك التنعم.

وفي هذا الوصف تعريض بالتهكم، لأنهم كانوا يعدون سعة العيش ووفرة المال كمالا، وكانوا يعيرون الذين آمنوا بالخصاصة قال تعالى)إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون(الآيات، وقال تعالى)والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام(.

والنعمة: هنا بفتح النون باتفاق القراء. وهي اسم للترفه، وجمعها أنعم بفتح الهمزة وضم العين.

وأما النعمة بكسر النون فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية، وأمن ورزق، ونحو ذلك من الغائب. وجمعها: نعم بكسر النون وفتح العين، وتجمع جمع سلامة على نعمات بكسر النون وبفتح العين لجمهور العرب. وتكسر العين في لغة أهل الحجاز كسرة إتباع.

والنعمة بضم النون اسم للمسرة فيجوز أن تجمع على نعم على أنه اسم جمع، ويجوز أن تجمع على نعم بضم ففتح مثل: غرفة وغرف، وهو مطرد في الوزن.

وجعلهم ذوي النعمة المفتوحة النون للإشارة إلى قصارى حظهم في هذه الحياة هي النعمة، أي الانطلاق في العيش بلا ضيق، والاستظلال بالبيوت والجنات، والإقبال على لذيذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة قال تعالى)أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا(وتعريف) النعمة(للعهد.

والتمهيل: الإمهال الشديد، والإمهال: التأجيل وتأخير العقوبة، وهو مترتب في المعنى على قوله)وذرني والمكذبين(، أي وانتظر أن ننتصر لك كقوله تعالى)ولا تستعجل لهم(.

و)قليلا(وصف لمصدر محذوف، أي تمهيلا قليلا. وانتصب على المفعول المطلق.

)إن لدينا أنكالا وجحيما[12] وطعاما ذا غصة وعذابا أليما[13] يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا[14](وهذا تعليل لجملة)وذرني والمكذبين(، أي لأن لدينا ما هو أشد عليهم من ردك عليهم، وهذا التعليل أفاد تهديدهم بأن هذه النقم أعدت لهم لأنها لما كانت من خزائن نقمة الله تعالى كانت بحيث يضعها الله في المواضع المستأهلة لها، وهم الذين بدلوا نعمة الله كفرا، فأعد الله ما يكون عليهم في الحياة الأبدية ضدا لأصول النعمة التي خولوها، فبطروا بها وقابلوا المنعم بالكفران، فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة لأن الأنكال القيود. والجحيم: هو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد. والطعام: ذو الغصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد. والأنكال: جمع نكل بفتح النون وبكسرها وبسكون الكاف، وهو القيد الثقيل.

والغصة بضم الغين: اسم لأثر الغص في الحلق وهو تردد الطعام والشراب في الحلق بحيث لا يسيغه الحلق من مرض أو حزن وعبرة.

وإضافة الطعام إلى الغصة إضافة مجازية وهي من الإضافة لأدنى ملابسة، فإن الغصة عارض في الحلق سببه الطعام أو الشرب الذي لا يستساغ لبشاعة أو يبوسة.

والعذاب الأليم: مقابل ما في النعمة من ملاذ البشر، فإن الألم ضد اللذة. وقد عرف الحكماء اللذة بأنها الخلاص من الألم.

وقد جمع الأخير جمع ما يضاد معنى النعمة)بالفتح(.

وتنكير هذه الأجناس الأربعة لقصد تعظيمها وتهويلها، و)لدى(يجوز أن يكون على حقيقته ويقدر مضاف بينه وبين نون العظمة.
والتقدير: لدى خزائننا، أي خزائن العذاب، ويجوز أن يكون مجازا في القدرة على إيجاد ذلك متى أراد الله.

ويتعلق)يوم ترجف(بالاستقرار الذي يتضمنه خبر)إن(في قوله) إن لدينا أنكالا(.

والرجف: الزلزلة والاضطراب، والمراد: الرجف المتكرر المستمر، وهو الذي يكون به انفراط أجزاء الأرض وانحلالها.

والكثيب: الرمل المجتمع كالربوة، أي يصير حجارة الجبال دقاقا.

ومهيل: اسم مفعول من هال الشيء هيلا، إذا نثره وصبه. وأصله مهيول، استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الساكن قبلها فالتقى ساكنان فحذفت الواو، ولأنها زائدة ويدل عليها الضمة.

وجيء بفعل)كانت(في قوله)وكانت الجبال كثيبا(، للإشارة إلى تحقيق وقوعه حتى كأنه وقع في الماضي. ووجه مخالفته لأسلوب) ترجف(أن صيرورة الجبال كثبا أمر عجيب غير معتاد، فلعله يستبعده السامعون وأما رجف الأرض فهو معروف، إلا أن هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه.

)إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا[15] فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا[16](نقل الكلام إلى مخاطبة المشركين بعد أن كان الخطاب، موجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

والمناسبة لذلك التخلص إلى وعيدهم بعد أن أمره بالصبر على ما يقولون وهجرهم هجرا جميلا إذ قال له)وذرني والمكذبين(إلى قوله)وعذابا أليما(.

فالكلام استئناف ابتدائي، ولا يعد هذا الخطاب من الالتفات لأن الكلام نقل إلى غرض غير الغرض الذي كان قبله.

فالخطاب فيه جار على مقتضى الظاهر على كلا المذهبين: مذهب الجمهور ومذهب السكاكي.

والمقصود من هذا الخبر التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ممن كذبوا الرسل فهو مثل مضروب للمشركين.

وهذا أول مثل ضربه الله للمشركين للتهديد بمصير أمثالهم على قول الجمهور في نزول هذه السورة.

واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام، لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول وهو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطع مثله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله) فقالوا أن}من لبشر مثلنا وقومهما لنا عابدون(وقد قال أهل مكة) لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا)لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا(. وقد تكرر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل وهو زعيم المناوين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤلبين عليه وأشد صناديد قريش كفرا.

وأكد الخبر ب)أن(لأن المخاطبين منكرون أن الله أرسل إليهم رسولا.

ونكر)رسولا(لأنهم يعلمون المعني به في هذا الكلام، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو صفة الإرسال.

وأدمج في التنظير والتهديد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بكونه شاهدا عليهم.

والمراد بالشهادة هنا: الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس وبذلك يكون وصف)شاهدا(موافقا لاستعمال الوصف باسم الفاعل في زمن الحال، أي هو شاهد عليكم الآن بمعاودة الدعوة والإبلاغ.

وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأن رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربهم، وذلك قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا(كما ورد تفصيل تفسيرها في الحديث الصحيح، وقد تقدم في سورة البقرة.

وتنكير)رسولا(المرسل إلى فرعون لأن الاعتبار بالإرسال لا بشخص المرسل إذ التشبيه تعلق بالإرسال في قوله)كما أرسلنا إلى فرعون(إذ تقديره كإرسالنا إلى فرعون رسولا.

وتفريع)فعصى فرعون الرسول(إيماء إلى أن ذلك هو الغرض من هذا الخبر وهو التهديد بأن يحل بالمخاطبين لما عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ما حل بفرعون.

وفي إظهار اسم فرعون في قوله)فعصى فرعون(دون أن يؤتى بضميره للنداء عليه بفظاعة عصيانه الرسول.
ولما جرى ذكر الرسول المرسل إلى فرعون أول مرة جيء به في ذكره ثاني مرة معرفا بلام العهد وهو العهد الذكري، أي الرسول المذكور آنفا فإن النكرة إذا أعيدت معرفة باللام كان مدلولها عين الأولى.
والأخذ مستعمل في الإهلاك مجازا لأنه لما أزالهم من الحياة أشبه فعله أخذ الآخذ شيئا من موضعه وجعله عنده.
والوبيل: فعيل صفة مشبهة من وبل المكان، إذا وخم هواؤه أو مرعى كلئه، وقال زهير:
إلى كلا مستوبل متوخم وهو هنا مستعار لسيء العاقبة شديد السوء وأريد به الغرق الذي أصاب فرعون وقومه.
)فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا[17] السماء منفطر به كان وعده مفعولا[18](الاستفهام ب)كيف(مستعمل في التعجيز والتوبيخ وهو متفرع بالفاء على ما تضمنه الخطاب السابق من التهديد على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وما أدمج فيه من التسجيل بأن الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم فليس بعد الشهادة إلا المؤاخذة بما شهد به. وقد انتقل بهم من التهديد بالأخذ في الدنيا المستفاد من تمثيل حالهم بحال فرعون مع موسى إلى الوعيد بعقاب أشد وهو عذاب يوم القيامة وقد نشأ هذا الاستفهام عن اعتبارهم أهل اتعاظ وخوف من الوعيد بما حل بأمثالهم مما شأنه أن يثير فيهم تفكيرا من النجاة من الوقوع فيما هددوا به، وأنهم إن كانوا أهل جلادة على تحمل عذاب الدنيا فماذا يصنعون في اتقاء عذاب الآخرة، فدلت فاء التفريع واسم الاستفهام على هذا المعنى.
فالمعنى: هبكم أقدمتم على تحمل عذاب الدنيا فكيف تتقون عذاب الآخرة، ففعل الشرط من قوله)إن كفرتم(مستعمل في معنى الدوام على الكفر لأن ما يقتضيه الشرط من الاستقبال قرينة على إرادة معنى الدوام من فعل)كفرتم(وإلا فإن كفرهم حاصل من قبل نزول هذه الآية.

صفحة : 4608

و)يوما(منصوب على المفعول به ل)تتقون(. واتقاء اليوم اتقاء ما يقع فيه من عذاب أي على الكفر.

ووصف اليوم بأنه)يجعل الولدان شيبا(وصف له باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان، لأنه شاع أن ألهم مما يسرع به الشيب فلما أريد وصفهم هم ذلك اليوم بالشدة البالغة أقواها أسند إليه يشيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده. وهذه مبالغة عجيبة وهي من مبتكرات القرآن فيما أحسب، لأني لم أر هذا المعنى في كلام العرب وأما البيت الذي يذكر في شواهد النحو وهو:

إذم والله نرميهـم بـحـرب تشيب الطفل من قبل المشيب فلا ثبوت لنسبته إلى من كانوا قبل نزول القرآن ولا يعرف قائله، ونسبه بعض المؤلفين إلى حسان بن ثابت. وقال العيني: لم أجده في ديوانه. وقد أخذ المعنى الصمة بن عبد الله القشيري في قوله:

دعاني من نجد فإن سنينه لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا وهو من شعراء الدولة الأموية وإسناد)يجعل الولدان شيبا(إلى اليوم مجاز عقلي بمرتبتين لأن ذلك اليوم زمن الأهوال التي تشيب لمثلها الأطفال، والأهوال سبب للشيب عرفا.

والشيب كناية عن هذا الهول فاجتمع في الآية مجازان عقليان وكناية ومبالغة في قوله)يجعل الولدان شيبا(.

وجملة)السماء منفطر به(صفة ثانية.

والباء بمعنى في وهو ارتقاء في وصف اليوم بحدوث الأهوال فيه فإن لانفطار السماء أشد هولا ورعبا مما كني عنه بجملة) يجعل الولدان شيبا(. أي السماء على عظمها وسمكها تنفطر لذلك اليوم فما ظنكم بأنفسكم وأمثالكم من الخلائق فيه.

والانفطار: التشقق الذي يحدث في السماء لنزول الملائكة وصعودهم كما تقدم في قوله تعالى)تعرج الملائكة والروح إليه(في سورة المعارج.

وذكر انفطار السماء في ذلك اليوم زيادة في تهويل أحواله لأن ذلك يزيد المهددين رعبا وإن لم يكن انفطار السماء من آثار أعمالهم ولا له أثر في زيادة نكالهم.

ويجوز أن تجعل جملة)السماء منفطر به(مستأنفة معترضة بين جملة)فكيف تتقون(الخ، وجملة)كان وعده مفعولا(والباء للسببية ويكون الضمير المجرور بالباء عائد إلى الكفر المأخوذ من فعل) كفرتم(.

ويجوز أن يكون الإخبار بانفطار السماء على طريقة التشبيه البليغ أي كالمنفطر به فيكون المعنى كقوله تعالى)وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا(.

ووصف السماء بمنفطر بصيغة التذكير مع أن السماء في اللغة من الأسماء المعتبرة مؤنثة في الشائع. قال الفراء: السماء تذكر على التأويل بالسقف لأن أصل سميتها سماء على أصل التشبيه بالسقف، أي والسقف مذكر والسماء مؤنث. وتبعه الجوهري وابن بري. وأنشد الجوهري على ذلك قول الشاعر:

فلو رفع السماء إليه قوما   لحقنا بالسماء مع السحاب وأنشد ابن بري أيضا في تذكير السماء بمعنى السقف قول الآخر:

وقالت سماء البيت فوقك مخلق

ولما تيسر اجتلاء الـركـائب ولا ندري مقدار صحة هذين الشاهدين من العربية على أنه قد يكونان من ضرورة الشعر. وقيل إذا كان الاسم غير حقيقي التأنيث جاز إجراء وصفه على التذكير فلا تلحقه هاء التأنيث قياسا على الفعل المسند للمؤنث غير حقيقي التأنيث في جواز اقترانه بتاء التأنيث وتجريده منها، إجراء للوصف مجرى الفعل وهو وجيه.

ولعل العدول في الآية عن الاستعمال الشائع في الكلام الفصيح في إجراء السماء على التأنيث، إلى التذكير إيثارا لتخفيف الوصف لأنه لما جيء به بصيغة منفعل بحفي زيادة وهما الميم والنون كانت الكلمة معرضة للثقل إذا ألحق بها حرف زائد آخر ثالث، وهو هاء التأنيث فيحصل فيها ثقل يجنبه الكلام البالغ غاية الفصاحة ألا ترى أنها لم تجر على التذكير في قوله)إذا السماء انفطرت(إذ ليس في الفعل إلا حرف مزيد واحد وهو النون إذ لا اعتداد بهمزة الوصل لأنها ساقطة في حالة الوصل، فجاءت بعدها تاء التأنيث.

وجملة)كان وعده مفعولا(صفة أخرى ل)يوما(، وهذا الوصف إدماج للتصريح بتحقيق وقوع ذلك اليوم بعد الإنذار به الذي هو مقتض لوقوعه بطريق الكناية استقصاء في إبلاغ ذلك إلى علمهم وفي قطع معذرتهم.

صفحة : 4609

وضمير)وعده(عائد إلى)يوما(الموصوف، وإضافة)وعد(إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله على التوسع، أي الوعد به، أي بوقوعه.

)إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا[19](تذييل أي تذكرة لمن يتذكر فإن كان من منكري البعث آمن به وإن كان مؤمنا استفاق من بعض الغفلة التي تعرض للمؤمن فاستدرك ما

فاته، وبهذا العموم الشامل لأحوال المتحدث عنهم وأحوال غيرهم كانت الجملة تذييلا.
والإشارة ب)هذه(إلى الآيات المتقدمة من قوله)إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم(.
وتأكيد الكلام بحرف التأكيد لأن المواجهين به ابتداء هم منكرون كون القرآن تذكرة وهدى فإنهم كذبوا بأنه من عند الله ووسموه بالسحر وبالأساطير، وذلك من أقوالهم التي أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبر عليها قال تعالى)واصبر على ما يقولون(.
والتذكرة: اسم لمصدر الذكر بضم الذال، الذي هو خطورة الشيء في البال، فالتذكرة: الموعظة لأنه تذكر الغافل عن سوء العواقب، وهذا تنويه بآيات القرآن وتجديد للتحريض على التدبر فيه والتفكر على طريقة التعريض.
وفرع على هذا التحريض التعريضي تحريض صريح بقوله)فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا(أي من كان يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة فلم تبق للمتغافل معذرة.
والإتيان بموصول)من شاء(من قبيل التحريض لأنه يقتضي أن هذا السبيل موصول إلى الخير فلا حائل يحول بين طالب الخير وبين سلوك هذا السبيل إلا مشيئته، لأن قوله)إن هذه تذكرة(قرينة على ذلك. ومن هذا القبيل قوله تعالى)وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر(. فليس ذلك إباحة للإيمان والكفر ولكنه تحريض على الإيمان، وما بعده تحذير من الكفر، أي تبعة التفريط في ذلك على المفرط. ولذلك قال ابن عطية: ليس معناه إباحة الأمر وضده بل يتضمن معنى الوعد والوعيد.
وفي تفسير ابن عرفة الذي كان بعض شيوخنا يحملها على أنه مخير في تعيين السبيل فمتعلق التخيير عنده أن يبين سبيلا ما من السبل قال: وهو حسن، فيبقى ظاهر الآية في حالة من التخيير اه.
وقد علمت مما قررناه أنه لا حاجة إليه وأن ليس في الآية شيء بمعنى التخيير.
وفي قوله)إلى ربه(تمثيل لحال طالب الفوز والهدى بحال السائر إلى ناصر أو كريم قد أري السبيل الذي يبلغه إلى مقصده فلم يبقى له ما يعوقه عن سلوكه.
)إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن(من هنا يبتدئ ما نزل من هذه السورة بالمدينة كما تقدم ذكره في أول السورة.

وصريح هذه الآية ينادي على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل قبل نزول الآية وأن طائفة من أصحابه كانوا يقومون عملا بالأمر الذي في أول السورة من قوله)قم الليل إلا قليلا(الآية، فتعين أن هذه الآية نزلت للتخفيف عنهم جميعا لقوله فيها)فتاب عليكم(فهي ناسخة للأمر الذي في أول السورة.

واختلف السلف في وقت نزولها ومكانه وفي نسبة مقتضاها من مقتضى الآية التي قبلها. والمشهور الموثوق به أن صدر السورة نزل بمكة.

ولا يغتر بما رواه الطبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة مما يوهم أن صدر السورة نزل بالمدينة. ومثله ما روي عن النخعي في التزمل بمرط لعائشة.

صفحة : 4610

ولا ينبغي أن يطال القول في أن القيام الذي شرع في صدر السورة كان قياما واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وأن قيام من قام من المسلمين معه بمكة إنما كان تأسيا به وأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم عليه ولكن رأت عائشة أن فرض الصلوات الخمس نسخ وجوب قيام الليل، وهي تريد أن قيام الليل كان فرضا على المسلمين، وهو تأويل، كما لا ينبغي أن يختلف في أن أول ما أوجب الله على المة هو الصلوات الخمس التي فرضت ليلة المعراج وأنها لم يكن قبلها وجوب صلاة على الأمة ولو كان لجرى ذكر تعريضه بالصلوات الخمس في حديث المعراج، وأن وجوب الخمس على النبي صلى الله عليه وسلم مثل وجوبها على المسلمين. وهذا قول ابن عباس لأنه قال: إن قيام الليل لم ينسخه إلا آية)إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل(الآية، ولا أن يختلف في أن فرض الصلوات الخمس لم ينسخ فرض القيام على النبي صلى الله عليه وسلم سوى أنه نسخ استيعاب نصف الليل أو دونه بقليل فنسخه)فاقرأوا ما تيسر من القرآن(.

وقد بين ذلك حديث ابن عباس ليلة بات في بيت خالته ميمونة أم المؤمنين قال فيه نام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهله حتى إذا كان نصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ثم وصف وضوءه وأنه صلى ثلاث عشرة ركعة ثم نام حتى جاءه المنادي لصلاة الصبح. وابن عباس يومئذ غلام فيكون ذلك في حدود سنة سبع أو ثمان من الهجرة.

ولم ينقل أن المسلمين كانوا يقومون معه إلا حين احتجز موضعا من المسجد لقيامه في ليالي رمضان فتسامع أصحابه به فجعلوا ينسلون إلى المسجد ليصلوا بصلاة نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى احتبس عنهم في إحدى الليالي وقال لهم لقد خشيت أن تفرض عليكم وذلك بالمدينة وعائشة عنده كما تقدم في أول السورة.

وهو صريح في أن القيام الذي قاموه مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن فرضا عليهم وأنهم لم يدوموا عليه وفي أنه ليس شيء من قيام الليل بواجب على عموم المسلمين وإلا لما كان لخشية أن يفرض عليهم موقع لأنه لو قدر أن بعض قيام الليل كان مفروضا لكان قيامهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أداء لذلك المفروض، وقد عضد ذلك حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحفصة وقد قصت عليه رؤيا رآها عبد الله بن عمر أن عبد الله رجل صالح لو كان يقوم الليل .

وافتتاح الكلام ب)أن ربك يعلم أنك تقوم(يشعر بالثناء عليه لوفائه بحق القيام الذي أمر به وأنه كان يبسط إليه ويهتم به ثم يقتصر على القدر المعين فيه النصف أو أنقص منه قليلا أو زائد عليه بل أخذ بالأقصى وذلك ما يقرب من ثلثي الليل كما هو شأن أولي العزم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى)فلما قضى موسى الأجل(أنه قضى أقصى الأجلين وهو العشر السنون.

وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه .

وتأكيد الخبر ب)إن(للاهتمام به، وهو كناية عن أنه أرضى ربه بذلك وتوطئة للتخفيف الذي سيذكر في قوله)فتاب عليكم(ليعلم أنه تخفيف رحمة وكرامة ولإفراغ بعض الوقت من النهار للعمل والجهاد.

ولم تنزل تكثر بعد الهجرة أشغال النبي صلى الله عليه وسلم بتدبير مصالح المسلمين وحماية المدينة وتجهيز الجيوش ونحو ذلك، فلم تبق في نهاره من السعة ما كان له فيه أيام مقامه بمكة، فظهرت حكمة الله في التخفيف عن رسوله صلى الله عليه وسلم من قيام الليل الواجب منه والرغيبة.

وفي حديث علي بن أبي طالب أنه سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا آوى إلى منزله فقال: كان إذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءا لله، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك بالخاصة على العامة ولا يدخر عنهم شيئا فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم .

وإيثار المضارع في قوله)يعلم(للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدده إيذان بأنه بمحمل الرضى منه.
وفي ضده قوله)قد يعلم الله المعوقين منكم(لأنه في معرض التوبيخ، أي لم يزل عالما بذلك حينا فحينا لا يخفى عليه منه حصة.

صفحة : 4611

و)أدنى(أصله أقرب، من الدنو، استعير للأقل لأن المسافة التي بين الشيء والأدنى منه قليلة، وكذلك يستعار الأبعد للأكثر.
وهو منصوب على الظرفية لفعل)تقوم(، أي تقوم في زمان يقدر أقل من ثلثي الليل وذلك ما يزيد على نصف الليل وهو ما اقتضاه قوله تعالى)أو زد عليه(.
وقرأ الجمهور)ثلثي(بضم اللام على الأصل. وقرأه هشام عن ابن عامر بسكون اللام على التخفيف لأنه عرض له بعض الثقل بسبب التثنية.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب)ونصفه وثلثه(بخفضهما عطفا على)ثلثي الليل(، أي أدنا من نصفه وأدنى من ثلثه.
وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب)ونصفه وثلثه(على أنهما منصوبان على المفعول ل)تقوم(أي تقوم ثلثي الليل، وتقوم نصف الليل، وتقوم ثلث الليل، بحيث لا ينقص عن النصف وعن الثلث. وهذه أحوال مختلفة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالليل تابعة لاختلاف أحوال الليالي والأيام في طول بعضها وقصر بعض وكلها داخلة تحت التخيير الذي خيره الله في قوله)قم الليل إلا قليلا(إلى قوله)أو زد عليه(.
وبه تظهر مناسبة تعقيب هذه الجملة بالجملة المعترضة، وهي جملة)والله يقدر الليل والنهار(أي قد علمها الله كلها وأنبأه بها. فلا يختلف المقصود باختلاف القراءات. فمن العجاب قول الفراء أن النصب أشبه بالصواب.
و)طائفة(عطف على اسم)إن(بالرفع وهو وجه جائز إذا كان بعد ذكر خبر)إن(لأنه يقدر رفعه حينئذ على الاستئناف كما في قوله تعالى)إن الله بريء من المشركين ورسوله(. وهو من اللطائف إذا كان اتصاف الاسم والمعطوف بالخبر مختلفا فإن بين قيام النبي صلى الله عليه وسلم وقيام الطائفة التي معه تفاوتا في الحكم والمقدار، وكذلك براءة الله من المشركين وبراءة رسوله. فإن

الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن ويعاملهم، وأما الله فغاضب عليهم ولاعنهم. وهذا وجه العدول عن أن يقول: إن الله يعلم أنكم تقومون. إلى قوله)إنك تقوم(ثم قوله)وطائفة(الخ.

ووصف)طائفة(بأنهم)من الذين معك(، فإن كان المراد بالمعية المعية الحقيقية، لأي المصاحبة في عمل مما سيق له الكلام، أي المصاحبين لك في قيام الليل، لم يكن في تفسيره تعيين لناس بأعيانهم، ففي حديث عائشة في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح قال قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان .

وإن كانت المعية معية مجازية وهي الانتساب والصحبة والموافقة فقد عددنا منهم: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي وأبا الدرداء، وزينب بنت جحش، وعبد الله بن عمر، والحولاء بنت تويت الأسدية ، فهؤلاء ورد ذكرهم مفرقا في أحاديث التهجد من صحيح البخاري.

واعلم أن صدر هذه الآية إيماء إلى الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم في وفائه بقيام الليل حق الوفاء وعلى الطائفة الذين تابعوه في ذلك.

فالخبر بأن الله يعلم أنك تقوم مراد به الكناية عن الرضى عنه فيما فعلوا.

والمقصود: التمهيد لقوله)علم أن لن تحصوه(إلى آخر الآية.

ولأجل هذا الاعتبار أعيد فعل)علم(في جملة)علم أن سيكون منكم مرضى(الخ ولم يقل: وأن سيكون منكم مرضى بالعطف.

وجملة)والله يقدر الليل والنهار(معترضة بين جملتي)إن ربك يعلم أنك تقوم(وجملة)علم أن لن تحصوه(وقد علمت مناسبة اعتراضها آنفا.

وجملة)علم أن لن تحصوه(يجوز أن تكون خبرا ثانيا عن)أن(بعد الخبر في قوله)يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل(الخ.

ويجوز أن تكون استئنافا بيانيا لما ينشأ عن جملة)إن ربك يعلم أنك تقوم(من ترقب السامع لمعرفة ما مهد له بتلك الجملة، فبعد أن شكرهم على عملهم خفف عنهم منه.

والضمير المنصوب في)تحصوه(عائد إلى القيام المستفاد من)أنك تقوم(.

والإحصاء حقيقته: معرفة عدد شيء معدود مشتق من اسم الحصى جمع حصاة لأنهم كانوا إذا عدوا شيئا كثيرا جعلوا لكل واحد حصاة وهو هنا مستعار للإطاقة. شبهت الأفعال الكثيرة من ركوع وسجود وقراءة في قيام الليل، بالأشياء المعدودة، وبهذا فسر الحسن وسفيان، ومنه قوله في الحديث استقيموا ولن تحصوا أي ولن تطيقوا تمام الاستقامة، أي فخذوا منها بقدر الطاقة.

و)أن(مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف وخبره الجملة، وقد وقع الفصل بين)أن(وخبرها بحرف النفي لكون الخبر فعلا غير دعاء ولا جامد حسب المتبع في الاستعمال الفصيح.

و)أن(وجملتها سادة مسد مفعولي علم إذ تقديره علم عدم إحصائكموه واقعا.

وفرع على ذلك)فتاب عليكم(وفعل)تاب(مستعار لعدم المؤاخذة قبل حصول التقصير لأن التقصير متوقع فشابه الحاصل فعبر عن عدم التكليف بما يتوقع التقصير فيه، بفعل)تاب(المفيد رفع المؤاخذة بالذنب بعد حصوله.

والوجه أن يكون الخطاب في قوله)تحصوه(وما بعده موجها إلى المسلمين الذين كانوا يقومون الليل: إما على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب بعد قوله)وطائفة من الذين معك(، وإما على طريقة العام المراد به الخصوص بقرينة أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يضن تعذر الإحصاء عليه، وبقرينة قوله)أن سيكون منكم مرضى(الخ.

ومعنى)فاقرأوا ما تيسر من القرآن(فصلوا ما تيسر لكم، ولما كانت الصلاة لا تخلوا عن قراءة القرآن اتبع ذلك بقوله هنا)فاقرأوا ما تيسر من القرآن(، أي صلوا كقوله تعالى)وقرآن الفجر(أي صلاة الفجر وفي الكناية عن الصلاة بالقرآن جمع بين الترغيب في القيام والترغيب في تلاوة القرآن فيه بطريقة الإيجاز.

والمراد القرآن الذي كان نزل قبل هذه الآية المدنية وهو شيء كثير من القرآن المكي كله وشيء من المدني، وليس مثل قوله في صدر السورة)ورتل القرآن ترتيلا(كما علمت هنالك.

وقوله)ما تيسر من القرآن(أي ما تيسر لكم من صلاة الليل فلا دلالة في هذه الآية على مقدار ما يجزئ من القراءة في الصلاة إذ ليس سياقها في هذا المهيع، ولئن سلمنا، فإن ما تيسر مجمل وقد بينة قول النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة بمن يقرأ بفاتحة الكتاب ، وأما السورة مع الفاتحة فإنه لم يروا عنه أنه قرأ في

الصلاة أقل من سورة، وهو واجب عند جمهور الفقهاء فيكره أن يقرأ المصلي بعض سورة في الفريضة. ويجوز في القيام بالقرآن في الليل وفي قيام رمضان، وعند الضرورة، ففي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فأخته بحة فركع أي في أثناء السورة.

وقال أو حنيفة وأحمد في رواية عنه: تجزئ قراءة آيه من القرآن ولو كانت قصيرة ومثلة الحنفية بقوله تعالى)مدهامتان(ولا تتعين فاتحة الكتاب وخالفه صاحباه في الأمرين.

وتعيين من تجنب له القراءة من منفرد وإمام ومأموم مبين في كتب الفقه.

وفعل)تاب(إذا أريد به قبول توبة التائب عدي بحرف) على(لتضمينه معنى من وإذا كان بمعنى الرجوع عن الذنب والذنب منه عدي بما يناسب.

وقد نسخت هذه الآية تحديد مدة قيام الليل بنصفه أو أزيد أو أقل ثلثه، وأصحب التحديد بالمقدار المتيسر من غير ضبط، أما حكم ذلك القيام فهو على ما تقدم شرحه.

)علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأقرضوا الله قرضا حسنا(هذه الجملة بدل اشتمال من جملة)علم أن لم تحصوه(، وهذا تخفيف آخر لأجل أحول أخرى اقتضت التخفيف.

وهذه حكمة أخرى لنسخ تحديد الوقت في قيام الليل وهي مراعاة أحوال طرأت على المسلمين من ضروب ما تدعو إليه حالة الجماعة الإسلامية. وذكر من ذلك ثلاثة أضرب هي أصول الأعذار:
الضرب الأول: أعذار اختلال الصحة وقد شملها قوله)أن سيكون مرضى(.

الضرب الثاني: الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش في تجارة وصناعة وحراثة وغير ذلك، وقد أشار إليها قوله)وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله(. وفضل الله هو الرزق.

صفحة : 4613

الضرب الثالث: أعمال لمصالح الأمة وأشار إليه بقوله)وآخرون يقاتلون في سبيل الله(ودخل في ذلك حراسة الثغور والرباط بها، وتدبير الجيوش، وما يرجع إلى نشر دعوة الإسلام من إيفاد الوفود وبعث السفراء. وهذا كله من شؤون الأمة على الإجمال فيدخل في

بعضها النبي صلى الله عليه وسلم كما في القتال في سبيل الله، والمرض ففي الحديث اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقيم ليلة أو ليلتين.

وإذا كانت هذه الآية مما نزل بمكة ففيها بشارة بأن أمر المسلمين صائر إلى استقلال وقترة على أعدائهم فيقاتلون في سبيل الله وإن كانت مدنية فهو عذر لهم بما ابتدأوا فيه من السرايا والغزوات.

وقد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر للتجر حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، يعني أن الله ما ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلا تنويها بهما لأن في غيرهما من الأعذار ما هو أشبه بالمرض، ودقائق القرآن ولطائفه لا تنحصر.

روي عن ابن مسعود أنه قال أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين محتسبا فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء، وقرأ)وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله(.

وعن ابن عمر ما خلق الله موتا بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحلي أبتغي من فضل الله ضاربا في الأرض .

فإذا كانت هذه الآية مما نزل بمكة ففيها بشارة بأن أمر المسلمين صائر إلى قترة على عدوهم وإن كانت مدنية فهي عذر لهم بما عرض لهم.

ومعنى)يضربون في الأرض(يسيرون في الأرض.

وحقيقة الضرب: قرع جسم بجسم آخر، وسمي السير في الأرض ضربا في الأرض لتضمين فعل)يضربون(معنى يسيرون فإن السير ضرب للأرض بالرجلين لكنه تنوسي منه معنى الضرب وأريد المشي فلذلك عدي بحرف)في(لأن الأرض ظرف للسير كما قال تعالى)فسيروا في الأرض(وقد تقدم عند قوله)وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة(في سورة النساء.

والابتغاء من فضل الله طلب الرزق قال تعالى)ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم(أي التجارة في مدح الحج، فقوله تعالى)يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله(مراد بالضرب في الأرض فيه السفر للتجارة لأن السير في الأسفار يكون في الليل كثير ويكون في النهار فيحتاج المسفر للنوم في النهار.

وفرع عليه مثل ما فرع على الذي قبله فقال)فاقرأوا ما تيسر منه(أي من القرآن.

وقد نيط مقدار القيام بالتيسير على جميع المسلمين وإن اختلفت الأعذار.
وهذه الآية اقتضت رفع وجوب قيام الليل عن المسلمين إن كان قد وجب عليهم من قبل على أحد الاحتمالين، أو بيان لم يوجب عليهم وكانوا قد التزموه فبين لهم أن ما التزموه من التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك غير لازم لهم. وعلل عدم وجوبه عليهم بأن الأمة يكثر فيها أصحاب الأعذار التي يشق معها قيام الليل فلم يجعله الله واجبا عليهم أو رفع وجوبه. ولولا اعتبار المظنة العامة لأبقي حكم القيام ورخص لأصحاب العذر في مدة العذر فقط فتبين أن هذا تعليل الحكم الشرعي على قول عائشة أم المؤمنين: إن الصلاة فرضت ركعتين ثم زيد في ثلاث من الصلوات في الحضر وأبقيت صلاة السفر ، وعلة بقاء الركعتين هو مظنة المشقة في السفر.
وأوجب الترخص في قيام الليل أنه لم يكن ركنا من أركان الإسلام فلم تكن المصلحة الدينية قوية فيه.
وأما حكم القيام فهو ما دل عليه قوله)قم الليل إلا قليلا(وما دلت عليه أدلة التحريض عليه من السنة. وقد مضى ذلك كله. فهذه الآية صالحة أن تكون أصلا للتعليل بالمظنة وصالحة لأن تكون أصلا تقاس عليه الرخصة العامة التي تراعى فيها مشقة غالب الأمة مثل رخصة بيع السلم دون الأحوال الفردية والجزئية.
وقوله)وأقيموا الصلاة(تذكير بأن الصلوات الواجبة هي التي تحرصون على إقامتها وعدم التفريط فيها كما قال تعالى)إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا(.
وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة إيماء إلى أن الصلوات الخمس ما يرفع التبعة عن المؤمنين وأن قيام الليل نافلة لهم وفيه خير كثير وقد تضافرت الآثار على هذا ما هو في كتب السنة.

وعطف)وآتوا الزكاة(تتميم لأن الغالب أنه لم يحل ذكر الصلاة من ذكر الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه لأقاتلن بين من فرق بين الصلاة والزكاة .
وإقراض الله هو الصدقات غير الواجبة، شبه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يقرضه الله لأن الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل

فشابه حال معطي الصدقة مستجيبا رغبة الله فيه بحال من أقرض مستقرضا في أنه حقيق بأن يرجع إليه ما أقرضه، وذلك في الثواب الذي يعطاه يوم الجزاء.

ووصف القرض بالحسن يفيد الصدقة المراد بها وجه الله تعالى والسالمة من المن والأذى، والحسن متفاوت.

والحسن في كل نوع هو ما فيه الصفات المحمودة في ذلك النوع في بابه، ويعرف المحمود من الصدقة من طريق الشرع بما وصفه القرآن في حسن الصدقات وما ورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك.

وقد تقدم في سورة البقرة قوله)من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة(وفي سورة التغابن)إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم(.

)وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا(تذييل لما سبق من الأمر في قوله)فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا(، فإن قوله) من خير(يعم جميع فعل الخير.

وفي الكلام إيجاز حذف. تقدير المحذوف: وافعلوا الخير وما تقدموا لأنفسكم منه تجدوه عند الله، فاستغني عن المحذوف بذكر الجزاء على الخير.

و)ما(شرطية. ومعنى تقديم الخير: فعله في الحياة، شبه فعل الخير في مدة الحياة لرجاء الانتفاع بثوابه في الحياة الآخرة بتقديم العازم على السفر ثقله وأدواته وبعض أهله إلى المحل الذي يروم الانتهاء إليه ليجد ما ينتفع به وقت حصوله.

و)من خير(بيان لإبهام)ما(الشرطية.

والخير: هو ما وصفه الدين بالحسن ووعد على فعله بالثواب.

ومعنى)تجدوه(يجدوا جزاءه وثوابه، وهو الذي قصده فاعله، فكأنه وجد نفس الذي قدمه، وهذا استعمال كثير في القرآن والسنة أن يعبر عن عوض الشيء وجزائه باسم المعوض عنه والمجازى به، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الذي يكنز المال ولا يؤدي حقه مثل له ثوم القيامة شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك أنا كنزك   .

وضمير الغائب في)تجدوه(هو المفعول الأول ل)تجدوا(ومفعوله الثاني)خيرا(.

والضمير المنفصل الذي بينهما ضمير فعل، وجاز وقوعه بين معرفة ونكرة خلافا للمعروف في حقيقة ضمير الفصل من وجوب وقوعه بين معرفتين لأن أفعل من كذا أشبه المعرفة في أنه لا يجوز دخول حرف التعريف عليه.

و)خيرا(: اسم تفضيل، أي خيرا مما تقدمونه إذ ليس المراد أنكم تجدونه من جنس الخير، بل المراد مضاعفة الجزاء، لما دل عليه قوله تعالى)إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم(وغير ذلك من كثير من الآيات.

وأفاد ضمير الفصل هنا لمجرد التأكيد لتحقيقه.

وعطف)وأعظم أجرا(على)خيرا(أو هو منسحب عليه تأكيد ضمير الفصل.

وانتصب)أجرا(على أنه تمييز نسبة ل)أعظم(لأنه في معنى الفعل. فالتقدير: وأعظم أجره، كما تقول: وجدته منبسطا كفا، والمعنى: أن أجره خير وأعظم مما قدمتموه.

)واستغفروا الله إن الله غفور رحيم[20](يجوز أن تكون الواو للعطف فيكون معطوفا على جملة)وما تقدموا لأنفسكم(الخ، فيكون لها حكم التذييل إرشاد لتدارك ما عسى أن يعرض من التفريط في بعض ما أمره الله بتقديمه من خير فإن ذلك يشمل الفرائض التي يقتضي التفريط في بعضها توبة منه.

ويجوز أن تكون الواو للاستئناف وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن الترخيص في ترك بعض القيام إرشادا من الله لما يسد مسد قيام الليل الذي يعرض تركه بأن يستغفر المسلم ربه إذا انتبه من أجزاء الليل، وهو مشمول لقوله تعالى)وبالأسحار هم يستغفرون(، وقال النبي صلى الله عليه وسلم ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له . وقال من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا هو إلا بالله العلي العظيم ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له .

وجملة)إن الله غفور رحيم(تعليل للآمر بالاستغفار، أي لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة. والمقصود في هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنه مرجو الإجابة. وفي الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المدثر

تسمى في كتب التفسير)سورة المدثر(وكذلك سميت في المصاحف التي رأيناها ومنها كتب في القيروان في القرن الخامس.
وأريد بالمدثر النبي صلى الله عليه وسلم موصوفا بالحالة التي ندي بها، كما سميت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذكروا فيها.
وأما تسمية باللفظ الذي وقع فيها، ونظيره ما تقدم في تسمية) سورة المزمل(، ومثله ما تقدم في سورة المجادلة من احتمال فتح الدال أو كسرها.
وهي مكية حكى الاتفاق على ذلك ابن عطية والقرطبي ولم يذكرها في الإتقان في السور التي بعضها مدني. وذكر الآلوسي أن صاحب التحرير محمد بن النقيب المقدسي المتوفى سنة 698 له تفسير ذكر قول مقاتل أو قوله تعالى)وما جعلنا عدتهم إلا فتنة(الخ نزل بالمدينة اه. ولم نقف على سنده في ذلك ولا رأينا ذلك لغيره وسيأتي.
قيل إنها ثانية السور نزولا وإنها لم ينزل قبلها إلا سورة)اقرأ باسم ربك(وهو الذي جاء في حديث عائشة في الصحيحين في صفة بدأ الوحي أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال)اقرأ باسم ربك الذي خلق(إلى) ما لم يعلم(ثم قالت: ثم فتر الوحي . فلم تذكر نزول وحي بعد آيات)اقرأ باسم ربك(.
وكذلك حديث جابر بن عبد الله من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن من طرق كثيرة وبألفاظ يزيد بعضها على بعض. وحاصل ما يجتمع من طرقه: قال جابر بن عبد الله وهو يحدث عن فترة الوحي قال في حديثه إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رعبا فأتيت خديجة فقلت: دثروني فدثروني زاد غير ابن شهاب من روايته وصبوا علي ماء باردا فدثروني وصبوا علي ماء باردا . قال النووي: صب الماء لتسكين الفزع. فأنزل الله)يا أيها المدثر(إلى)والرجز فأهجر(ثم حمي الوحي وتتابع اه.
ووقع في صحيح مسلم عن جابر أنها أول القرآن سورة المدثر وهو الذي يقول في حديثه أن رسول الله يحدث عن فترة الوحي وإنما تقع الفترة بين شيئين فتقتضي وحيا نزل قبل سورة المدثر وهو ما بين في حديث عائشة.
وقد تقدم في صدر سورة المزمل قول جابر بن زيد: أن سورة القلم نزلت بعد سورة العلق وأن سورة المزمل ثالثة وأن سورة المدثر رابعة.

وقال جابر بن زيد: نزلت بعد المدثر سورة الفاتحة. ولا شك أن سورة المدثر نزلت قبل المزمل وأن عناد المشركين كان قد تزايد بعد نزول سورة المدثر فكان التعرض لهم في سورة المزمل أوسع.
وقد وقع في حديث جابر بن عبد الله في صحيح البخاري وجامع الترمذي من طريق ابن شهاب إن نزول هذه السورة كان قبل أن تفرض الصلاة.

والصلاة فرضت بعد فترة الوحي سواء كانت خمسة أو أقل وسواء كانت واجبة كما هو ظاهر قولهم: فرضت أم كانت مفروضة بمعنى مشروعة وفترة الوحي مختلف في مدتها اختلافا كثيرا فقيل كانت سنتين ونصفا، وقيل: أربعين يوما، وقيل: خمسة عشر يوما، والأصح أنها كانت أربعين يوما. فيظهر أن المدثر نزلت في السنة الأولى من البعثة وأن الصلاة فرضت عقب ذلك كما يشعر به ترتيب ابن إسحاق في سوق حوادث سيرته.
وعد أهل المدينة في عدهم الأخير الذي أرسوا عليه وأهل الشام آيها خمس وخمسين وعدها أهل البصرة والكوفة وأهل المدينة في عدهم الأول الذي رجعوا عنه ستا وخمسين.

أغراضها
جاء فيها من الأغراض تكريم النبي صلى الله عليه وسلم والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة.
وإعلان وحدانية الله بالإلهية.
والأمر بالتطهر الحسي والمعنوي.
ونبذ الأصنام.
والإكثار من الصدقات.
والأمر بالصبر.
وإنذار المشركين بهول البعث.
وتهديد من تصدى للطعن في القرآن وزعم أنه قول البشر وكفر الطاعن نعمة الله عليه فأقدم على الطعن في آياته مع علمه بأنها حق.
ووصف أهوال جهنم.
والرد على المشركين الذين استخفوا بها وزعموا قلة عدد حفظتها.
وتحدي أهل الكتاب بأنهم جهلوا عدد حفظتها.
وتأييسهم من التخلص من العذاب.

وتمثيل ضلالهم في الدنيا.
ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء.
)يا أيها المدثر[1] قم فأنذر[2](نودي النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه حالة خاصة تلبس بها حين نزول السورة وهي أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فرق من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال: دثروني دثروني، أو قال زملوني، أو قال: زملوني فدثروني، على اختلاف الروايات، والجمع بينها ظاهر فدثرته فنزلت)يا أيها المدثر(.
وقد مضى عند قوله تعالى)يا أيها المزمل(ما في هذا النداء من التكرمة والتلطف.
والمدثر: اسم فاعل من تدثر، إذا لبس الدثار، فأصله المتدثر أدغمت التاء في الدال لتقاربهما في النطق كما وقع في فعل ادعى.
والدثار: بكسر الدال: الثوب الذي يلبس فوق الثوب الذي يلبس مباشرا للجسد الذي يسمى شعارا. وفي الحديث الأنصار شعار والناس دثار .
فالوصف ب)المدثر(حقيقة، وقيل هو مجاز على معنى: المدثر بالنبوة، كما يقال ارتدى بالمجد وتأزر به على نحو ما قيل في قوله تعالى)يا أيها المزمل(، أي يا أيها اللابس خلعة النبوة ودثارها.
وقيام المأمور به ليس مستعملا في حقيقته لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن حين أوحي إليه بهذا نائما ولا مضطجعا ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمم بالإنذار مجازا أو كناية.
وشاع هذا الاستعمال في فعل القيام حتى صار معنى الشروع في العمل من معاني مادة القيام مساويا للحقيقة وجاء بهذا المعنى في كثير من كلامهم، وعد ابن مالك في التسهيل فعل قام من أفعال الشروع. فاستعمال فعل القيام في معنى الشروع قد يكون كناية عن لازم القيام من العزم والتهمم كما في الآية، قال في الكشاف: قم قيام عزم وتصميم.
وقد يراد المعنى الصريح مع المعنى الكنائي نحو قول مرة بن محكان التميمي من شعراء الحماسة:
يا ربة البيت قومي غير صاغرة
ضمي إليك رجال الحي والغربا فإذا اتصلت بفعل القيام الذي هو بهذا المعنى الاستعمال جملة حصل من مجموعهما معنى الشروع في الفعل بجد وأنشدوا قول حسان بن المنذر:

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير
تمرغ في رماد وقول الشاعر، وهو من شواهد النحو ولم يعرف قائله:
فقام يذود الناس عنها بسيفه وقال
ألا لا من سبيل إلى هند وأفادت فاء)فأنذر(تعقيب إفادة التحفز والشروع في الأمر بإيقاع الإنذار.
ففعل)قم(منزل منزلة اللازم، وتفريع)فأنذر(عليه يبين المراد من الأمر بالقيام.
والمعنى: يا أيها المدثر من الرعب لرؤية ملك الوحي لا تخف وأقبل على الإنذار.

صفحة : 4617

والظاهر: أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة لأن سورة العلق لم تتضمن أمرا بالدعوة. وصدر سورة المزمل تضمن أنه مسبوق بالدعوة لقوله فيه)إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم(، وقوله)وذرني والمكذبين(. وإنما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنه رسول من الله إليهم وابتدئ بالأمر بالإنذار لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال لأن التخلية مقدمة على التحلية ودرء المفاسد مقدم جلب المصالح، ولأن غالب أحوال الناس يومئذ محتاجة إلى الإنذار والتحذير.
ومفعول)أنذر(محذوف لإفادة العموم، أي أنذر الناس كلهم وهم يومئذ جميع الناس ما عدا خديجة رضي الله عنها فإنها آمنت فهي جديرة بالبشارة.
)وربك فكبر[3](انتصب)ربك(على المفعولية لفعل)كبر(قدم على عامله إفادة الاختصاص، أي لا تكبر غيره، وهو قصر إفراد، أي دون الأصنام.
والواو عطفت جملة)ربك فكبر(على جملة)قم فأنذر(.
ودخلت الفاء على)كبر(إيذانا بشرط محذوف يكون)كبر(جوابه، وهو شرط عام إذ لا دليل على شرط مخصوص وهيئ لتقدير الشرط بتقدم المفعول. لأن تقديم المعمول قد ينزل منزلة الشرط كقول النبي صلى الله عليه وسلم ففيهما فجاهد يعني الأبوين .
فالتقدير: مهما يكن شيء فكبر ربك.

والمعنى: أن لا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده في كل زمان وكل حال وهذا من الإيجاز. وجوز ابن جني أن تكون الفاء زائدة قال: هو كقولك زيدا فاضرب، تريد: زيدا اضرب.

وتكبير الرب تعظيمه ففعل)كبر(يفيد معنى نسبة مفعوله إلى أصل مادة اشتقاقه وذلك من معاني صيغة فعل، أي أخبر عنه بخبر التعظيم، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظم بشيء كبير في نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله.

فمعنى)وربك فكبر(: صف ربك بصفات التعظيم، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها.

ومعنى)كبر(: كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحا وتعليما. ويشمل هذا المعنى أن يقول الله أكبر لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجل وأنزه من كل جليل، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة.

وأحسب أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله)وثيابك فطهر(فإنه إيماء إلى شرع الطهارة، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة، ووقع في رواية معمر عن الزهري عند مسلم أن قال: وذلك قبل أن تفرض الصلاة. فالظاهر أن الله فرض عليه الصلاة عقب هذه السورة وهي غير الصلوات الخمس فقد ثبت أنه صلى في المسجد الحرام.

)وثيابك فطهر[4](هو في النظم مثل نظم)وربك فكبر(أي لا تترك تطهير ثيابك.

وللثياب إطلاق صريح وهو ما يلبسه اللابس، وإطلاق كنائي فيكنى بالثياب عن ذات صاحبها كقول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه كناية عن طعنه بالرمح.

وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات وإطلاق مجازي وهو التزكية قال تعالى)إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(.

والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معا فتحصل أربعة معان لأنه مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه إبطالا لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم الاكتراث بذلك. وقد وردت أحاديث في ذلك يقوي بعضها بعضا وأقواها ما رواه الترمذي إن الله نظيف يحب النظافة . وقال: هو غريب.

والطهارة لجسده بالأولى.

ومناسبة التطهير بهذا المعنى لأنه يعطف على)وربك فكبر(لأنه لما أمر بالصلاة أمر بالتطهر لها لأن الطهارة مشروعة للصلاة.

وليس في القرآن ذكر طهارة الثوب إلا في هذه الآية في أحد محاملها وهو مأمور بتزكية نفسه.
والمعنى المركب من الكنائي والمجازي هو الأعلق بإضافة النبوة عليه. وفي كلام العرب: فلان نقي الثياب. وقال غيلان بن سلمة الثقفي:
وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع وأنشدوا قول أبي كبشة وينسب إلى امرئ القيس: ثياب عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غران
ودخول الفاء على فعل)فطهر(كما تقدم عند قوله)وربك فكبر(.

صفحة : 4618

وتقديم)ثيابك(على فعل)طهر(للاهتمام به في الأمر بالتطهير.
)والرجز فاهجر[5](الرجز: يقال بكسر الراء وضمها وهما لغتان فيه والمعنى واحد عند جمهور أهل اللغة. وقال أبو العلية والربيع والكسائي: الرجز بالكسر العذاب والنجاسة والمعصية، وبالضم الوثن. ويحمل الرجز هنا على ما يشتمل الأوثان وغيرها من أكل الميتة والدم.
وتقديم)الرجز(على فعل)اهجر(للاهتمام مهيع الأمر بتركه.
والقول في)والرجز فاهجر(كالقول في)وربك فكبر(.
والهجر: ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء. والهجر هنا كناية عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بأنواع الرجز لكل نوع بما يناسبه في عرف الناس.
والأمر بهجر الرجز يستلزم أن لا يعبد الأصنام وأن ينفي عنها الإلهية.
)ولا تمنن تستكثر[6](مناسبة عطف)ولا تمنن تستكثر(على الأمر بهجر الرجز أن المن في العطية كثير من خلق أهل الشرك فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهيا يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية فكأنه قال: وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعد ما عطيته كثيرا فتمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت.
والسين والتاء في قوله)تستكثر(للعد، أي بعد ما أعطيته كثيرا.
وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جعلت الصدقة كالحاصلة، أي لأنها من خلقه صلى الله عليه وسلم إذ كان أجود الناس وقد عرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هيأه لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي إنك تحمل الكل وتكسب

المعدوم . ففي هذه الآية إيماء إلى التصديق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة.
والمن: تذكير المنعم المنعم عليه بإنعامه.
والاستكثار: عد الشيء كثيرا، أي لا تستعظم ما تعطيه.
وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة. وللأسبقين من المفسرين تفسيرات لمعناه)ولا تمنن تستكثر(ليس شيء منها بمناسب، وقد أنهاها القرطبي إلى حد عشر.
و)تستكثر(جملة في وضع في موضع الحال من ضمير)تمنن(وهي حال مقدورة.
)ولربك فاصبر[7](تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم على ما تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاق الدعوة.
والصبر: ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها.
ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمل للشيء الشاق.
ويعدى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف)على(، يقال: صبر على الأذى. ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدي إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام. ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله. فيجوز أن تكون اللام في قوله)لربك(لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف. أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال)اصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا(في سورة الطور وقوله)واصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا(في سورة الإنسان فيناسب نداءة ب)يا أيها المدثر(لأنه تدثر من شدة وقع رؤية الملك، وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب.
ويجوز أن تكون اللام للتعليل، وحذف متعلق فعل الصبر، أي اصبر لأجل ربك على كل ما يشق عليك.
وتقديم)لربك(على)اصبر(للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة، وجعل بعضهم اللام في)لربك(لام التعليل، أي اصبر على أذاهم لأجله، فيكون في معنى: إنه يصبر توكلا على أن الله يتولى جزاءهم، وهذا مبني على أن سبب نزول السورة ما لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.
والصبر تقدم عند قوله تعالى)واستعينوا بالصبر والصلاة(في البقرة.
وفي التعبير أن الله بوصف)ربك(إيماء إلى أن هذا الصبر بر بالمولى وطاعة له.

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدأ رسالته وهي من جوامع كلامه أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.
)فإذا نقر في الناقور[8] فذلك يومئذ يوم عسير[9] على الكافرين غير يسير[10](

صفحة : 4619

الفاء لتسبب هذا الوعيد عن الأمر بالإنذار في قوله)فأنذر(، أي فأنذر المنذرين وأنذرهم وقت النقر في الناقور وما يقع يومئذ بالذين انذروا فأعرضوا عن التذكرة، إذ الفاء يجب أن تكون مرتبطة بالكلام الذي قبلها.
ويجوز أن يكون معطوفا على)فاصبر(بناء على أنه أمر بالصبر على أذى المشركين.
والناقور: البوق الذي ينادى به الجيش ويسمى الصور وهو قرن كبير، أو شبهه ينفخ فيه النافخ لنداء ناس يجتمعون إليه من جيش ونحوه، وقال خفاف بن ندبة:
إذا نـاقـورهـم يوم تـبـدى أجاب الناس من غرب وشرق ووزنه فاعول وهو زنة لما يقع به الفعل من النقر وهو صوت اللسان مثل الصفير فقوله نقر، أي صوت، أي صوت مصوت. وتقدم ذكر الصور في سورة الحاقة.
و)إذا(اسم زمان أضيف إلى جملة)نقر في الناقور(وهو ظرف وعامله ما دل عليه قوله)فذلك يومئذ يوم عسير(لأنه من قوة فعل، أي عسر الأمر على الكافرين.
وفاء)فذلك(لجزاء)إذا(لأن)إذا(يتضمن معنى شرط.
والإشارة إلى مدلول)إذا نقر(، أي فذلك الوقت يوم عسير.
و)يومئذ(بدل من اسم الإشارة وقع لبيان اسم الإشارة على نحو ما يبين بالاسم المعروف ب)ال(في نحو)ذلك الكتاب لا ريب فيه(.
ووصف اليوم بالعسير باعتبار ما يحصل فيه من العسر على الحاضرين فيه، فهو وصف مجازي عقلي. وإنما العسير ما يقع فيه من الأحداث.
و)على الكافرين(متعلق ب)عسير(.
ووصف اليوم ونحوه من أسماء الزمان بصفات أحداثه مشهور في كلامهم، قال السموأل، أو الحارثي:
وأيامنا مشهورة في عدونا لها غرر معلومة وحجول وإنما الغرر و الحجول مستعارة لصفات لقائهم العدو في أيامهم. وفي المقامة الثلاثين لا عقد هذا العقد المبجل، في

هذا اليوم الأخر المحجل، إلا الذي جال وجاب، وشب في الكدية وشاب وقال تعالى)فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات(في سورة فصلت.
و)غير يسير(تأكيد لمعنى)عسير(بمرادفه. وهذا من غرائب الاستعمال كما يقال: عاجلا غير آجل، قال طالب بن أبي طالب:
فليكن المغلوب غير الغالـب وليكن المسلوب غير السالب وعليه من غير التأكيد قوله تعالى)قد ضلوا وما كانوا مهتدين( )قد ضللت إذن ما أنا من المهتدين(. وأشار الزمخشري إلى أن فائدة هذا التأكيد يشعر به لفظ)غير(من المغايرة فيكون تعريضا بأن له حالة أخرى، وهي اليسر، أي على المؤمنين، ليجمع بين وعيد الكافرين وإغاظتهم، وبشارة المؤمنين.
)ذرني ومن خلقت وحيدا[11] وجعلت له مالا ممدودا[12] وبنين شهودا[13] ومهدت له تمهيدا[14] ثم يطمع أن أزيد[15] كلا(لما جرى ذكر الكافرين في قوله)فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين(. وأشير إلى ما يلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من الكافرين بقوله)ولربك فاصبر(انتقل الكلام إلى ذكر زعيم من زعماء الكافرين ومدبر مطاعنهم في القرآن ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

صفحة : 4620

وقوله)ذرني ومن خلقت وحيدا(الخ. استئناف يؤذن بأن حدثا كان سببا لنزول هذه الآية عقب الآيات التي قبلها، وذلك حين فشا في مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاوده الوحي بعد فترة وأنه أمر بالإنذار، ويدل على هذا ما رواه ابن إسحاق أنه اجتماع نفر من قريش فيهم أبو لهب، وأبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، والعصي بن وائل، والمطعم بن عدي. فقالوا: إن وفود العرب ستقدم عليكم في الموسم وهم يتساءلون عن أمر محمد وقد اختلفتم في الإخبار عنه. فمن قائل يقول: مجنون وآخر يقول: كاهن، وآخر يقول: شاعر، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فسموا محمد باسم واحد تجتمعون عليه وتسميه العرب به فقام رجل منهم فقال: شاعر، فقال الوليد بن المغيرة: سمعت كلام أبي الأبرص يعني عبيد بن الأبرص وأمية بن أبي الصلت، وعرفت الشعر كلهو وما يشبه كلام محمد كلام شاعر، فقالوا: كاهن فقال الوليد: ما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه. والكاهن يصدق ويكذب وما كذب محمد قط، فقام آخر

فقال: مجنون، فقال الوليد: لقد عرفنا الجنون فإن المجنون يخنق فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، فقالوا: ساحر، قال الوليد: لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده، وانصرف الوليد إلى بيته فدخل عليه أبو جهل فقال: ما لك يا أبا عبد شمس أصبأت؟ فقال الوليد: فكرت في أمر محمد وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: سحر جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته فقال ابن إسحاق: فأنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله)ذرني ومن خلقت وحيدا(الآيات.

وعن أبي نصر القشيري أنه قال: قيل بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قول كفار مكة: أنت ساحر فوجد من ذلك غما وحم فتدثر بثيابه فقال الله تعالى)قم فأنذر(.

وأيا ما كان فقد وقع الاتفاق على أن هذا القول صدر عن الوليد بن المغيرة وأنه المعني بقوله تعالى)ومن خلقت وحيدا(فإن كان قول الوليد صدر منه بعد نزول صدر هذه السورة فجملة)ذرني ومن خلقت وحيدا(مستأنفة استئنافا ابتدائيا ولمناسبة ظاهرة، وإن كان قول الوليد هو سبب نزول السورة، كان متصلا بقوله)ولربك فاصبر(على أنه تعليل للأمر بالصبر بأن الله يتولى جزاء هذا القائل، وما بينهما اعتراض، ويؤيد هذا أن ابتداء الوحي كان في رمضان وأن فترة الوحي دامت أربعين يوما على الأصح سواء نزل وحي بين بدء الوحي وفترته مدة أيام، أو لم ينزل بعد بدئه شيء ووقعت فترته فيكون قد أشرف شهر ذي القعدة على الانصرام فتلك مدة اقتراب الموسم فاخذ المشركون بالاستعداد لما يقولونه للوفود إذا استخبروهم خبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وتصدير الجملة بفعل)ذرني(إيماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كان مهتما ومغتما مما اختلقه الوليد بن المغيرة، فاتصاله بقوله)ولربك فاصبر(يزداد وضوحا.

وتقدم ما في النحو)ذرني(وكذا، من التهديد والوعيد للمذكور بعد واو المعية، في تفسير قوله تعالى)فذرني ومن يكذب بهذا الحديث(في سورة القلم.

وجيء بالموصول وصلته في قوله)ومن خلقت وحيدا(لإدماج تسجيل كفران الوليد النعمة في الوعيد والتهديد.

وانتصب)وحيدا(على الحال من)من(الموصولة.

والوحيد: المنفرد عن غيره في مكان أو حال مما يدل عليه سياق الكلام، أو شهرة أو قصة، وهو فعيل من وحد من باب كرم وعلم، إذا انفرد.

وكان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش بالوحيد لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته وهو كثرة الولد وسعة المال، ومجده ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش في أمورهم لأنه كان أسن من أبي جهل وأبي سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به. وجاء هذا الوصف بعد فعل)خلقت(ليصرف هذا الوصف عما كان مرادا به فينصرف إلى ما يصلح لأن يقارن فعل)خلقت(أي أوجدته وحيدا عن المال والبنين والبسطة، فيغير عن غرض المدح والثناء الذي كانوا يخصونه به، إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حال كل مخلوق فتكون من قبيل قوله)والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا(الآية.

وعطف على ذلك)وجعلت له مالا(عطف الخاص على العام.

صفحة : 4621

والممدود: اسم مفعول من مد الذي بمعنى: أطال، بأن شبهت كثرة المال بسعة مساحة الجسم، أو من مد الذي بمعنى: زاد في الشيء من مثله، كما يقال: مد الوادي النهر، أي مالا مزيدا في مقداره ما يكتسبه صاحبه من المكاسب. وكان الوليد من أوسع قريش ثراء. وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان وكانت غلة ماله ألف دينار أي في السنة .

وامتن الله عليه بنعمة البنين ووصفهم بشهود جمع شاهد، أي حاضر، أي لا يفارقونه بل مستأنس بهم لا يشتغل باله بمغيبهم وخوف معاطب السفر عليهم فكانوا بغنى عن طلب الرزق بتجارة أو غارة، وكانوا يشهدون معه المحافل فكانوا فخرا له، قيل: كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر ابنا، والمذكور منهم سبعة، وهم: الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام، والعاصي، وقيس أو أبو قيس، وعبد شمس وبه يكنى . ولم يذكر ابن حزم في جمهرة الأنساب: العاصي، واقتصر على ستة.

والتمهيد: مصدر مهد بتشديد الهاء الدال على قوة المهد. والمهد: تسوية الأرض وإزالة ما يقض جنب المضطجع عليها، ومهد الصبي تسمية بالمصدر.

والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر.

وأكد)مهدت(بمصدره على المفعولية المطلقة ليتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد وليس يطرد أن يكون التأكيد لرفع احتمال المجاز.

ووصف في هذه الآية بما له من النعمة والسعة لأن الآية في سياق الامتنان عليه توطئة لتوبيخه وتهديده بسوء في الدنيا وبعذاب النار في الآخرة. فأما في آية سورة القلم فقد وصفه بما فيه من النقائص في قوله تعالى)ولا تطع كل حلاف مهين(الخ بناء على قول من قال: إن المراد به الوليد بن المغيرة وقد علمت أنها احتمال لأن تلك الآية في مقام التحذير من شره وغدره.

و)ثم(في قوله)ثم يطمع(للتراخي الرتبي، أي وأعظم من ذلك أنه يطمع في الزيادة من تلك النعم وذلك بما يعرف من يسر أموره. وهذا مشعر باستبعاد حصول المطموع فيه وقد صرح به بقوله)كلا(.

والطمع: طلب الشيء العظيم وجعل متعلق طمعه زيادة مما جعل الله له لأنهم لم يكونوا يسندون الرزق إلى الأصنام أو لأنه طمع في زيادة النعمة غير متذكر أمها من عند الله فيكون إسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجا بتذكيره بأن ما طمع فيه هو من عند الذي كفر هو بنعمته فأشرك به غيره في العبادة.

ولهذه النكتة عدل عن أن يقال: يطمع في الزيادة، أو يطمع أن يزاد.

و)كلا(ردع وإبطال لطمعه في الزيادة من النعم وقطع لرجائه.

والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبي صلى الله عليه وسلم بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق لئلا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين فيغريهم حاله بأن عنادهم لا يضرهم لأنهم لا يحسبون حياة بعد هذه كما حكى الله من قول موسى عليه السلام)ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم(.

وفي هذا الإبطال والردع إيذان بأن كفران النعمة سبب لقطعها قال تعالى)لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد(. ولهذا قال الشيخ ابن عطاء الله من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

)إنه كان لآياتنا عنيدا[16](يجوز أن تكون هذه الجملة تعليلا للردع والإبطال، أي لأن شدة معاندته لآياتنا كانت كفرانا للنعمة فكانت سببا لقطعها عنه إذ قد تجاوز حد الكفر إلى المناواة والمعاندة فإن الكافر يكون منعما عليه على المختار وهو قول الماتريدي والمعتزلة خلافا للأشعري، واختار المحققون أنه خلاف لفظي.

ويجوز أن تكون مستأنفة ويكون الوقف عند قوله تعالى)كلا(.

والعنيد: الشديد العناد وهو المخالفة للصواب وهو فعيل من: عند يعند كضرب، إذا نازع وجادل الحق البين.
وعناده: هو محاولته الطعن في القرآن ومحاولته للتمويه بأنه سحر، أو شعر، أو كلام كهانة، مع تحققه بأنه ليس في شيء من ذلك كما أعلن به لقريش، قبل أن يلومه أبو جهل ثم أخذه بأحد تلك الثلاثة، وهو أن يقول: هو سحر، تشبثا بأن فيه خصائص الشعر من التفريق بين المرء ومن هو شديد الصلة.

صفحة : 4622

)سأرهقه صعودا[17] إنه فكر وقدر[18] فقتل كيف قدر[19] ثم قتل كيف قدر[20] ثم نظر[21] ثم عبس وبسر[22] ثم أدبر واستكبر[23] فقال إن هذا إلا سحر يؤثر[24] إن هذا إلا قول البشر[25](جملة)سأرهقه صعودا(معترضة بين)إنه كان لآياتنا عنيدا(وبين)إنه فكر وقدر(، قصد بهذا الاعتراض تعجيل الوعيد له مساءة له وتعجيل المسرة للنبي صلى الله عليه وسلم.
وجملة)إنه فكر وقدر(مبينة لجملة)إنه كان لآياتنا عنيدا(فهي تكملة وتبيين لها.
والإرهاق: الإتعاب وتحميل ما لا يطاق، وفعله رهق كفرح، قال تعالى)ولا ترهقني من أمري عسرا(في سورة الكهف.
والصعود: العقبة الشديدة التصعد الشاقة على الماشي وهي فعول مبالغة من صعد، فإن العقبة صعدة، فإذا كانت عقبة أشد تصعدا من العقبات المعتادة قيل لها: صعود.
وكأن أصل هذا الوصف أن العقبة وصفت بأنها صاعدة على طريقة المجاز العقلي ثم جعل ذلك الوصف اسم جنس لها.
وقوله)سأرهقه صعودا(تمثيل لضد الحالة المجملة في قوله) ومهدت له تمهيدا(، أي سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى حالة سوأى في الدنيا ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة، وكل ذلك إرهاق له.
قيل: إنه طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا.
وقد وزع وعيده على ما تقتضيه أعماله فإنه لما ذكر عناده وهو من مقاصده السيئة الناشئة عن محافظته على رئاسته وعن حسده النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من الأغراض الدنيوية عقب بوعيده بما يشمل عذاب الدنيا ابتداء. ولما ذكر طعنه في القرآن

بقوله)إن هذا إلا سحر يؤثر(وأنكر أنه وحي من الله بقوله)إن هذا إلا قول البشر(أردف بذكر عذاب الآخرة بقوله)سأصليه سقر(.
وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن صعودا جبل في جهنم يتصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي فيه كذلك أبدا . رواه الترمذي وأحمد عن أبي سعيد الخدري. وقال الترمذي: هو حديث غريب. فجعل الله صفة صعود علما على ذلك الجبل في جهنم. وهذا تفسير بأعظم ما دل عليه قوله تعالى)سأرهقه صعودا(.
وجملة)إنه فكر وقدر(إلى آخرها بدل من جملة)إنه كان لآياتنا عنيدا(بدل اشتمال.
وقد وصف حاله في تردده وتأمله بأبلغ وصف. فابتدئ بذكر تفكيره في الرأي الذي سيصدر عنه وتقديره.
ومعنى)فكر(أعمل فكره وكرر نظر رأيه ليبتكر عذرا يموهه ويروجه على الدهماء في وصف القرآن بوصف كلام الناس ليزيل منهم اعتقاد أنه وحي أو حي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
و)قدر(جعل قدرا لما يخطر بخاطره أن يصف به القرآن ليعرضه على ما يناسب ما ينحله القرآن من أنواع كلام البشر أو ما يسم به النبي صلى الله عليه وسلم من الناس المخالفة أحوالهم للأحوال المعتادة في الناس مثال ذلك أن يقول في نفسه، نقول: محمد مجنون، ثم يقول: المجنون يخنق ويتخالج ويوسوس وليس محمد كذلك، ثم يقول في نفسه: هو شاعر، فيقول في نفسه: لقد عرفت الشعر وسمعت كلام الشعراء، ثم يقول في نفسه: كاهن، فيقول في نفسه: ما كلامه بزمزمة كاهن ولا بسجعه، ثم يقول في نفسه: نقول هو ساحر فإن السحر يفرق بين المرء وذويه ومحمد يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فقال للناس: نقول إنه ساحر. فهذا معنى)قدر(.
وقوله)فقتل كيف قدر(كلام معترض بين)فكر(و)قدر(وبين)ثم نظر(وهو إنشاء شتم مفرع على الإخبار عنه بأنه فكر وقدر لأن الذي ذكر يوجب الغضب عليه.
فالفاء لتفريع ذمه عن سيئ فعله ومثله في الاعتراض قوله تعالى)وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر(.
والتفريع لا ينافي الاعتراض لأن الاعتراض وضع الكلام بين كلامين متصلين مع قطع النظر عما تألف منه الكلام المعترض فإن ذلك يجري على ما يتطلبه معناه. والداعي إلى الاعتراض هو التعجيل بفائدة الكلام للاهتمام بها. ومن زعموا: أن الاعتراض لا يكون بالفاء فقد توهموا.

وقتل: دعاء عليه بأن يقتله قاتل، أي دعاء عليه بتعجيل موته لأن حياته حياة سيئة. وهذا الدعاء مستعمل في التعجيب من ماله والرثاء له كقوله)قاتلهم الله(وقولهم: عدمتك، وثكلته أمه، وقد يستعمل مثله في التعجيب من حسن الحال يقال: قاتله الله ما أشجعه. وجعله الزمخشري كناية عن كونه بلغ مبلغا يحسده عليه المتكلم حتى يتمنى له الموت. وأنا أحسب أن معنى الحسد غير ملحوظ وإنما ذلك مجرد اقتصار على ما في تلك الكلمة من التعجب أو التعجيب لأنها صارت في ذلك كالأمثال. والمقام هنا متعين للكناية عن سوء حاله لأن ما قدره ليس مما يغتبط ذوو الألباب على إصابته إذ هو قد ناقض قوله ابتداء إذ قال: ما هو بعقد السحرة ولا نفثهم وبعد أن فكر قال)إن هذا إلا سحر يؤثر(فناقض نفسه.

وقوله)ثم قتل كيف قدر(تكيد لنظيره المفرع بالفاء. والعطف ب)ثم(يفيد أن جملتها أرقى رتبة من التي قبلها في الغرض المسوق له الكلام. فإذا كان المعطوف بها عين المعطوف عليه أفادت أن معنى المعطوف عليه ذو درجات متفاوتة مع أن التأكيد يكسب الكلام قوة. وهذا كقوله)كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون(.

و)كيف قدر(في الموضعين متحد المعنى وهو اسم استفهام دال على الحالة التي يبينها متعلق)كيف(.

والاستفهام موجه إلى سامع غير معين يستفهم المتكلم سامعه استفهاما عن حالت تقديره، وهو استفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالإنكار على وجه المجاز المرسل.

و)كيف(في محل نصب على الحال مقدمة على صاحبها لأن لها الصدر وعاملها)قدر(.

وقوله)ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر(عطف على) وقدر(وهي ارتقاء متوال فيما اقتضى التعجيب من حاله والإنكار عليه. فالتراخي تراخي رتبة لا تراخي زمن لأن نظره وعبوسه وبسره وإدباره واستكباره مقارنة لتفكيره وتقديره.

والنظر هنا: نظر العين ليكون زائدا على ما أفاده)فكر وقدر(. والمعنى: نظر في وجوه الحاضرين يستخرج آرائهم في انتحال ما يصفون به القرآن.

وعبس: قطب وجهه لما استعصى عليه ما يصف به القرآن ولم يجد مغمزا مقبولا.

وبسر: معناه كلح وجهه وتغير لونه خوفا وكمدا حين لم يجد ما يشفي غليله من مطعن في القرآن لا ترده العقول، قال تعالى) ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة(في سورة القيامة.
والإدبار: هنا يجوز أن يكون مستعارا لتغيير التفكير الذي كان يفكره ويقدره يائسا من أن يجد ما فكر في انتحاله فانصرف إلى الاستكبار والأنفة من أن يشهد للقرآن بما فيه من كمال اللفظ والمعنى.
ويجوز أن يكون مستعارا لزيادة إعراضه عن تصديق النبي صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى)ثم أدبر يسعى(حكاية عن فرعون في سورة النازعات.
وصفت أشكاله التي تشكل بها لما أجهد نفسه لاستنباط ما يصف به القرآن وذلك تهكم بالوليد.
وصيغة الحصر في قوله)إن هذا إلا سحر يؤثر(مشعرة بأن استقراء أحوال القرآن بعد السبر والتقسيم أنتج له أنه من قبيل السحر، فهو قصر تعيين لأحد الأقوال التي جالت في نفسه لأنه قال: ما هو بكلام شاعر ولا بكلام كاهن ولا بكلام مجنون، كما تقدم في خبره.
ووصف هذا السحر بأنه مأثور، أي مروي عن الأقدمين، يقول هذا ليدفع به اعتراضا يرد عليه أن أقوال السحرة وأعمالهم ليست مماثلة للقرآن ولا لأحوال الرسول فزعم أنه أقوال سحرية غير مألوفة.
وجملة)إن هذا إلا قول البشر(بدل اشتمال من جملة)إن هذا إلا سحر يؤثر(بأن السحر يكون أقوالا وأفعالا فهذا من السحر القولي.
وهذه الجملة بمنزلة النتيجة لما تقدم، لأن مقصوده من ذلك كله أن القرآن ليس وحيا من الله.
وعطف قوله)فقال(بالفاء لأن هذه المقالة لما خطرت بباله بعد اكتداد فكره لم يتمالك أن نطق بها فكان نطقه بها حقيقا بأن يعطف بحرف التعقيب.
)سأصليه سقر[26] وما أدريك ما سقر[27] لا تبقي ولا تذر[28] لواحة للبشر[29] عليها تسعة عشر[30](جملة)سأصليه سقر(مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله)إنه فكر وقدر(إلى آخر الآيات فذكر وعيده بعذاب الآخرة.

ويجوز أن تكون بدلا من جملة)سأصليه سقر(. والإصلاء: جعل الشيء صاليا، أي مباشرا حر النار. وفعل صلي يطلق على إحساس حرارة النار، فيكون لأجل التدفئ كقول الحارث بن حلزة:

فتنورت نارها من بـعـيد بخزازى أيان منك الصلاء أي أنت بعيد من التدفئ بها وكما قال حميد بن ثور:

لا تصطلي النار إلا مجمرا أرجا قد كسرت في يلنجوج له وقصا ويطلق على الاحتراق بالنار قال تعالى)سيصلى نارا ذات لهب(في سورة أبي لهب وقال)فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى(في سورة الليل، وقال)وسيصلون سعيرا(في سورة النساء والأكثر إذا ذكر لفعل هذه المادة مفعول ثان من أسماء النار أن يكون الفعل بمعنى الإحراق كقوله تعالى)فسوف نصليه نارا(في سورة النساء. ومنه قوله هنا)سأصليه سقر(.

وسقر: علم لطبقة من جهنم، عن ابن عباس: أنه الطبق السادس من جهنم. قال ابن عطية: سقر هو الدرك السادس من جهنم على ما روي اه. واقتصر عليه ابن عطية. وجرى كلام جمهور المفسرين بما يقتضي أنهم يفسرون سقر بما يرادف جهنم.

وسقر ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث لأنه اسم بقعة من جهنم أو اسم جهنم وقد جرى ضمير سقر على التأنيث في قوله تعالى)لا تبقي(إلى قوله)عليها تسعة عشر(. وقيل سقر معرب نقله في الإتقان عن الجواليقي ولم يذكر الكلمة المعربة ولا من أية لغة هو.

و)وما أدراك ما سقر(جملة حالية من)سقر(، أي سقر التي حالها لا ينبئك به منبئ وهذا تهويل لحالها.

و)ما سقر(في محل مبتدأ وأصله سقر ما، أي ما هي، فقدم)ما(لأنه اسم استفهام وله الصدارة.

فإن)ما(الأولى استفهامية. والمعنى: أي شيء يدريك، أي يعلمك.

و)ما(الثانية استفهامية في محل رفع خبر عن)سقر(.

وجملة)لا تبقي(بدل اشتمال من التهويل الذي أفادته جملة)وما أدراك ما سقر(، فإن من أهوالها أنها تهلك كل من يصلاها. والجملة خبر ثان عن سقر.

وحذف مفعول)تبقى(لقصد العموم، أي لا تبقي منهم أحدا أو لا تبقي من أجزائهم شيئا.

وجملة)ولا تذر(عطف على)لا تبقي(فهي في معنى الحال. ومعنى)لا تذر(، أي لا تترك من يلقى فيها، أي لا تتركه غير مصلي بعذابها. وهذه كناية عن إعادة حياته بعد إهلاكه كما قال تعالى)كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب(.

ولواحة: خبر ثالث عن)سقر(. و)لواحة(فعالة، من اللوح وهو تغيير الذات من ألم ونحوه وقال الشاعر، وهو من شواهد الكشاف ولم أقف على قائله:

تقول ما لاحك يا مسـافـر يا ابنة عمي لاحني الهواجر والبشر: يكون جمع بشرة، وهي جلد الإنسان، أي تغير ألوان الجلود فتجعلها سوداء، ويكون اسم جمع للناس لا واحد له من لفظه.

وقوله)عليها تسعة عشر(خبر رابع عن)سقر(من قوله)وما أدراك ما سقر(.

ومعنى)عليها(على حراستها، ف)على(للاستعلاء المجازي بتشبيه التصرف والولاية بالاستعلاء كما يقال: فلان على الشرطة، أو على بيت المال، أي يلي ذلك والمعنى: أن خزنة سقر تسعة عشر ملكا.

وقال جمع: إن عدد تسعة عشر: هم نقباء الملائكة الموكلين بجهنم.

وقيل: تسعة عشر صنفا من الملائكة وقيل تسعة عشر صفا. وفي تفسير الفخر: ذكر أرباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوها: أحدها قول أهل الحكمة إن سبب فساد النفس هو القوى الحيوانية والطبيعية أما الحيوانية فهي الخمس الظاهرة والخمس الباطنة، والشهوة والغضب، فمجموعها اثنتا عشرة. وأما القوى الطبيعية فهي: المجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمولدة، فهذه سبعة، فتلك تسعة عشرة. فلما كان منشأ الآفات هو هذه التسع عشرة كان عدد الزبانية كذلك اه.

والذي أراه أن الملائكة التسعة عشر موزعون على دركات سقر أو جهنم لكل درك ملك فلعل هذه الدركات معين كل درك منها لأهل شعبة من شعب الكفر، ومنها الدرك الأسفل الذي ذكره الله تعالى)إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار(في سورة النساء فإن الكفر أصناف منها إنكار وجود الله، ومنها الوثنية، ومنها الشرك بتعدد الآلهة، ومنها عبادة الكواكب، ومنها عبادة الشياطين والجن، ومنها عبادة الحيوان، ومنها إنكار رسالة الرسل، ومنها المجوسية المانوية والمزدكية والزندقة، وعبادة البشر مثل الملوك، والإباحية ولو مع إثبات الإله الواحد.

وفي ذكر هذا العدد تحد لأهل الكتابين يبعثهم على تصديق القرآن إذ كان ذلك مما استأثر به علماؤهم كما سيأتي قوله)ليستيقن الذين أوتوا الكتاب(.

وقرأ الجمهور)تسعة عشر(بفتح العين من)عشر(. وقرأ أبو جعفر)تسعة عشر(بسكون العين من)عشر(تخفيفا لتوالي الحركات فيما هو كالاسم الواحد. ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم هذه القراءة فإنها متواترة.

)وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا(روى الطبري عن ابن عباس وجابر بن زيد إن أبا جهل لما سمع قوله تعالى)عليها تسعة عشر(قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم? فقال الله تعالى)وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة(، أي ما جعلناهم رجالا فيأخذ كل رجل رجلا، فمن ذا يغلب الملائكة اه.

وفي تفسير القرطبي عن السدي: أن أبا الأشد بن كلدة الجمحي قال مستهزئا: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر تسعة ثم تمرون إلى الجنة، وقيل: قال الحارث بن كلدة: أنا أكفيكم سبعة عشرة واكفوني أنتم اثنين، يريد التهكم مع إظهار فرط قوته بين قومه.

فالمراد من)أصحاب النار(خزنتها، وهم المتقدم ذكرهم بقوله)عليها تسعة عشر(.

والاستثناء من عموم الأنواع، أي ما جعلنا خزنة النار من نوع إلا من نوع الملائكة.

وصيغة القصر تفيد قلب اعتقاد أبي جهل وغيره ما توهموه أو تظاهروا بتوهمه أن المراد تسعة عشر رجلا فطمع أن يخلص منهم هو وأصحابه بالقوة فقد قال أبو الأشد بن أسيد الجمحي: لا يبلغون ثوبي حتى أجهضهم عن جهنم، أي أنحيهم.

وقوله تعالى)وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا(تتميم في إبطال توهم المشركين حقارة عدد خزنة النار، وهو كلام جار على تقدير الأسلوب الحكيم إذ الكلام قد أثار في النفوس تساؤلا عن فائدة جعل خزنة جهنم تسعة عشر وهلا كانوا آلافا ليكون مرآهم أشد هولا على أهل النار، أو هلا كانوا ملكا واحدا فإن قوى الملائكة تأتي كل عمل يسخرها الله له، فكان جواب هذا السؤال: أن هذا العدد قد أظهر لأصناف الناس مبلغ فهم الكفار للقرآن. وإنما حصلت الفتنة من ذكر عددهم في الآية السابقة. فقوله)وما جعلنا عدتهم(تقديره: وما جعلنا ذكر عدتهم إلا فتنة، ولاستيقان الذين أوتوا الكتاب، وازدياد الذين آمنوا إيمانا، واضطراب الذين في قلوبهم

مرض فيظهر ضلال الضالين واهتداء المهتدين. فالله جعل عدة خزنة النار تسعة عشر لحكمة أخرى غير ما ذكر هنا اقتضت ذلك الجعل يعلمها الله.
والاستثناء مفرغ لمفعول ثان لفعل)جعلنا(تقديره جعلنا عدتهم فتنة لا غير، ولما كانت الفتنة حالا من أحوال الذين كفروا لم تكن مراد منها ذاتها بل عروضها للذين كفروا فكانت حالا لهم.
والتقدير: ما جعلنا ذكر عدتهم لعلة وغرض إلا لغرض فتنة الذين كفروا؛ فانتصب)فتنة(على أنه مفعول ثان لفعل)جعلنا(على الاستثناء المفرغ، وهو قصر قلب للرد على الذين كفروا إذ اعتقدوا أن عدتهم أمر هين.

صفحة : 4626

وقوله)ليستيقن الذين أوتوا الكتاب(الخ. علة ثانية لفعل)وما جعلنا عدتهم إلا فتنة(. ولولا أن كلمة)فتنة(منصوبة على المفعول به لفعل)جعلنا(. لكان حق)ليستيقن(أن يعطف على)فتنة(ولكنه جاء في نظم الكلام متعلقا بفعل)وما جعلنا عدتهم إلا فتنة(.
ويجوز أن يكون)للذين كفروا(متعلقا بفعل)جعلنا(وب)فتنة(، على وجه التنازع فيه، أي ما جعلنا عدتهم للذين كفروا إلا فتنة لهم إذ لم يحصل لهم من ذكرها إلا فساد التأويل، وتلك العدة مجعولة لفوائد أخرى لغير الذين كفروا الذين يفوضون معرفة ذلك إلى علم الله وإلى تدبر مفيد.
والاستيقان: قوة اليقين، فالسين والتاء فيه للمبالغة. والمعنى: ليستيقنوا صدق القرآن حيث يجدون هذا العدد مصدقا لما في كتبه.
والمراد ب)الذين أوتوا الكتاب(اليهود حين يبلغهم ما في القرآن متن مثل ما في كتبهم أو أخبارهم. فكان اليهود يترددون على مكة في التجارة ويتردد عليهم أهل مكة للميرة في خيبر وقريظة ويثرب فيسأل بعضهم بعضا عما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ويود المشركون لو يجدون عند اليهود ما يكذبون به أخبار القرآن ولكن ذلك لم يجدوه ولو وجدوه لكان أيسر ما يطعنون به في القرآن.
والاستيقان من شانه أن يعقبه الإيمان إذا صادف عقلا بريئا من عوارض الكفر كما وقع لعبد الله بن سلام وقد لا يعقبه الإيمان لمكابرة أو حسد أو إشفاق من فوات جاه أو مال كما كان شأن كثير من اليهود الذين قال الله فيهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن كثيرا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ولذلك اقتصرت الآية على حصول الاستيقان لهم.

روى الترمذي بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هل يعلم نبيكم عدد خزنة النار?. قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا. فجاء رجل إلي النبي فقال: يا محمد غلب أصحابكم اليوم، قال: وبم غلبوا قال سألهم اليهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنت النار، قال: فما قالوا? قال: قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا، قال: أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون? فقالوا: قالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا إلى أن قال جابر: فلما جاءوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنه جهنم? قال. هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة عشرة وفي مرة تسع بإشارة الأصابع قالوا: نعم إلخ. وليس في هذا ما يلجىء إلى اعتبار هذه الآية نازلة بالمدينة كما روي عن قتادة لأن المراجعة بين المشركين واليهود في أخبار القرآن مألوفة من وقت كون النبي صلى الله عليه وسلم في مكة.

قال أبو بكر ابن العربي في العارضة: حديث جابر صحيح والآية التي فيها)عليها تسعة عشر(مكية بإجماع، فكيف تقول اليهود هذا ويدعوهم النبي للجواب وذلك كان بالمدينة، فيحتمل أن الصحابة قالوا: لا نعلم، لأنهم لم يكونوا قرأوا الآية ولا كانت انتشرت عندهم أي لأنهم كانوا من الأنصار الذين لم يتلقوا هذه الآية من سورة المدثر لبعد عهد نزولها بمكة والذين كانوا يجتمعون باليهود ويسألهم اليهود هم الأنصار. قال: ويحتمل أن الصحابة لم يمكنهم لأن يعينوا أن التسعة عشر هم الخزنة دون أن يعينهم الله حتى صرح به النبي صلى الله عليه وسلم اه. فقد ظهر مصداق قوله تعالى) ليستيقن الذين أوتوا الكتاب(بعد سنين من وقت نزوله.

ومعنى)ويزداد الذين آمنوا إيمانا(أنهم لا يؤمنون به في جملة ما يؤمنون به من الغيب فيزداد في عقولهم جزئي في جزئيات حقيقية إيمانه بالغيب، فهي زيادة كمية لا كيفية لأن حقيقة الإيمان التصديق والجزم وذلك لا يقبل الزيادة، وبمثل هذا يكون تأويل كل ما ورد في زيادة الإيمان من أقوال الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

وقوله)ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون(عطف على) ليستيقن الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون(، أي لينتفي عنهم الريب فلا تعتروهم شبهة من بعد علمه لأنه إيقان عن دليل. وإن كان الفريقان في العمل بعلمهم متفاوتين، فالمؤمنون علموا وعملوا، والذين أوتوا الكتاب علموا وعاندوا فكان علمهم حجة عليهم وحسرة في نفوسهم.

والمقصود من ذكره التمهيد لذكر مكابرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين في سوء فهمهم لهذه العدة تمهيدا بالتعريض قبل التصريح، لأنه إذا قيل)ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون(شعر الذين في قلوبهم مرض والكافرون بأنهم لما ارتابوا في ذلك فقد كانوا دون مرتبة الذين أوتوا الكتاب لأنهم لا ينازعون في أن الذين أوتوا الكتاب أرجح منهم عقولا وأسد قولا، ولذلك عطف عليه)وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا(، أي ليقولوا هذا القول إعرابا عما في نفوسهم من الطعن في القرآن غير عالمين بتصديق الذين أوتوا الكتاب.

واللام لام العاقبة مثل التي في قوله تعالى)فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا(.

والمرض في القلوب: هو سوء النية في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء هم الذين لم يزالوا في تردد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون لأن المنافقين ما ظهروا إلا في المدينة بعد الهجرة والآية مكية.

و)ماذا أراد الله(استفهام إنكاري فإن)ما(استفهامية، و)ذا(أصله اسم إشارة فإذا وقع بعد)ما(أو)من(الاستفهاميتين أفاد معنى الذي، فيكون تقديره: ما الأمر الذي أراده الله بهذا الكلام في حال أنه مثل، والمعنى: لم يرد الله هذا العدد الممثل به، وقد كني بنفي إرادة الله العدد عن إنكار أن يكون الله قال ذلك، والمعنى: لم يرد الله العدد الممثل به فكنوا بنفي إرادة الله وصف هذا العدد عن تكذيبهم أن يكون هذا العدد موافقا للواقع لأنهم ينفون فائدته وإنما أرادوا تكذيب أن يكون هذا وحيا من عند الله.

والإشارة بهذا إلى قوله)عليها تسعة عشر(.

و)مثلا(منصوب على الحال من هذا، والمثل: الوصف، أي بهذا العدد وهو تسعة عشر، أي ما الفائدة في هذا العدد دون غيره مثل عشرين.

والمثل: وصف الحالة العجيبة، أي ما وصفه من عدد خزنة النار كقوله تعالى)مثل الجنة التي وعد المتقون(الآية.

وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى)وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا(في سورة البقرة.

)كذلك يضل الله من شاء ويهدي من يشاء(اسم الإشارة عائد إلى ما تضمنه الكلام المتقدم من قوله)ليستيقن الذين أوتوا الكتاب(إلى قوله)مثلا(بتأويل ما تضمنه الكلام، بالمذكور، أي مثل ذلك الضلال الحاصل للذين في قلوبهم مرض وللكافرين، والحاصل للذين أوتوا

الكتاب بعد أن استيقنوا فلم يؤمنوا يضل الله من يشاء أن يضله من عباده، مثل ذلك الهدى الذي اهتداه المؤمنون فزادهم إيمانا مع إيمانهم يهدي الله من يشاء.

والغرض من هذا التشبيه تقريب المعنى المعقول وهو تصرف الله تعالى بخلق أسباب الأحوال العارضة للبشر، إلى المعنى المحسوس المعروف في واقعة الحال، تعليما للمسلمين وتنبيها للنظر في تحصيل ما ينفع نفوسهم.

ووجه الشبه هو السببية في اهتداء من يهتدي وضلال من يضل، في أن كلا من المشبه والمشبه به جعله الله سببا وإرادة لحكمة اقتضاها علمه تعالى فتفاوت الناس في مدى إفهامهم فيه بين مهتد ومرتاب مختلف المرتبة في ريبه، ومكابر كافر وسيء فهم كافر.

وهذه الكلمة عظيمة في اختلاف تلقي العقول للحقائق وانتفاعهم بها أو ضده بحسب اختلاف قرائحهم وفهومهم وتراكيب جبلاتهم المتسلسلة من صواب إلى مثله، أو من تردد واضطراب إلى مثله، أو من حنق وعناد إلى مثله، فانطوى التشبيه من قوله)كذلك(على أحوال وصور كثيرة تظهر في الخارج.

وإسناد الإضلال إلى الله تعالى باعتبار أنه موجد الأسباب الأصلية في الجبلات، واقتباس الأهواء وارتباط أحوال العالم بعضها ببعض، ودعوة الأنبياء والصلحاء إلى الخير، ومقاومة أيمة الضلال لتلك الدعوات. تلك الأسباب التي دلت بالضالين إلى ضلالهم وبالمهتدين إلى هداهم. وكل من خلق الله. فما على الأنفس المريدة الخير والنجاة إلا التعرض لأحد المهيعين بعد التجرد والتدبر)لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت(.

ومشيئة الله في ذلك تعلق علمه بسلوك المهتدين والضالين.

صفحة : 4628

ومحل)كذلك(نصب بالنيابة عن المفعول المطلق لأن الجار والمجرور هنا صفة لمصدر محذوف دلت عليه الصفة، والتقدير: يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إضلالا وهديا وكذلك الإضلال والهدي. وليس هذا من قبيل قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(.

وقدم وصف المفعول المطلق للاهتمام بهذا التشبيه لما يرشد إليه من تفصيل عند التدبر فيه، وحصل من تقديمه محسن الجمع ثم التقسيم إذ جاء تقسيمه بقوله)يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء(.

)وما يعلم جنود ربك إلا هو(كلمة جامعة لإبطال التخرصات التي يتخرصها الضالون ومرضى القلوب عند سماع الأخبار عن عالم الغيب وأمور الآخرة من نحو: ما هذا به أبو جهل في أمر خزنة جهنم يشمل ذلك وغيره، فلذلك كان لهذه الجملة حكم التذييل.

والجنود: جمع جند وهو اسم لجماعة الجيش واستعير هنا للمخلوقات التي جعلها الله لتنفيذ أمره لمشابهتها الجنود في تنفيذ المراد.

وإضافة رب إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إضافة تشريف، وتعريض بأن من شأن تلك الجنود أن بعضها يكون به نصر النبي صلى الله عليه وسلم. ونفي العلم هنا نفي للعلم التفصيلي بأعدادها وصفاتها وخصائصها بقرينة المقام، فإن العلم بعدد خزنة جهنم قد حصل للناس بإعلام من الله لكنهم لا يعلمون ما وراء ذلك.

)وما هي إلا ذكرى للبشر[31](وفيه معان كثيرة أعلاها أن يكون هذا تتمة لقوله)وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا(على أن يكون جاريا على طريقة الأسلوب الحكيم، أي أن النافع لكم أن تعلموا أن الخبر عن خزنة النار بأنهم تسعة عشر فائدته أن يكون ذكرى للبشر ليتذكروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها لأن في ذكر الصفة عونا على زيادة استحضار الموصوف، فغرض القرآن الذكرى، وقد اتخذه الضالون ومرضى القلوب لهوا وسخرية ومراء بالسؤال عن جعلهم تسعة عشر ولم لم يكونوا عشرين أو مآت أو آلافا.

وضمير)هي(على هذا الوجه راجع إلى)عدتهم(.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الكلام السابق وتأنيث ضميره لتأويله بالقصة أو الصفة أو الآيات القرآنية.

والمعنى: نظير المعنى على الاحتمال الأول.

ويحتمل أن يرجع إلى)سقر(وإنما تكون)ذكرى(باعتبار الوعيد بها وذكر أهوالها.

والقصر متوجه إلى مضاف محذوف يدل عليه السياق تقديره: وما ذكرها أو وصفها أو نحو ذلك.

ويحتمل أن يرجع ضمير هي إلى)جنود ربك(والمعنى المعنى، والتقدير التقدير، أي وما ذكرها أو عدة بعضها.

وجوز الزجاج أن يكون الضمير راجعا إلى نار الدنيا، أي أنها تذكر الناس بنار الآخرة، يريد أنه من قبيل قوله تعالى)أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأته شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة(. وفيه محسن الاستخدام.

وقيل المعنى: وما عدتهم إلا ذكرى للناس ليعلموا غنى الله عن الأعوان والجند فلا يظلوا في استقلال تسعة عشر تجاه كثرة أهل

النار وإنما حملت الآية هذه المعاني بحسن موقعها في هذا الموضع وهذا من بلاغة نظم القرآن. ولو وقعت أثر قوله)لواحة للبشر(لتمحض ضمير)وما هي إلا ذكرى(للعود إلى سقر، وهذا من الإعجاز بمواقع جمل القرآن كما في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير.

وبين لفظ البشر المذكور هنا ولفظ البشر المتقدم في قوله) لواحة للبشر(لتجنيس التام.

)كلا( )كلا(حرف ردع وإبطال. والغالب أن يقع بعد كلام من متكلم واحد أو من متكلم وسامع مثل قوله تعالى)قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين(فيفيد الردع عما تضمنه الكلام المحكي قبله. ومنه قوله تعالى)كلا سنكتب ما يقول(في سورة مريم، ويجوز تقديمه على الكلام إذا أريد التعجيل بالردع والتشويق إلى سماع ما بعده، وهو هنا محتمل لأن يكون إبطالا لما قبله من قولهم: فإذا أراد الله بهذا مثلا، فيكون ما بينهما اعتراضا ويكون قوله)والقمر(ابتداء كلام فيحسن الوقوف على)كلا(. ويحتمل أن يكون حرف إبطال مقدما على الكلام الذي بعده من قوله)إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر(وتقديم اهتمام لإبطال ما يجيء بعده من مضمون قوله)نذيرا للبشر(، أي من حقهم أن ينتذروا بها فلم ينتذر أكثرهم على نحو معنى قوله)وأنى له الذكرى(فيحسن أن توصل في القراءة بما بعدها.

صفحة : 4629

)والقمر[32] والليل إذ أدبر[33] والصبح إذا أسفر[34] إنها إحدى الكبر[35] نذيرا للبشر[36] لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر[37] (الواو المفتتح بها هذه الجملة واو القسم، يجوز أن يكون تذييلا لما لما قبله مؤكدا لما أفادته)كلا(من الإنكار والإبطال لمقالتهم في شأن عدة خزنة النار، فتكون جملة)إنها لإحدى الكبر(تعليلا للإنكار الذي أفادته)كلا(ويكون ضمير)إنها(عائد إلى)سقر(أي هي جديرة بأن يتذكر بها فلذلك كان من لم يتذكر بها حقيقا بالإنكار عليه وردعه.

وجملة القسم على هذا الوجه معترضة وتعليلها، ويحتمل أن يكون القسم صدرا للكلام الذي بعده وجملة)إنها لإحدى الكبر(جواب القسم والضمير راجع إلى)سقر(، أي أن سقر لأعظم الأهوال، فلا تجزي في معاد ضمير)إنها(جميع الاحتمالات التي جرت في ضمير)وما هي إلا ذكرى(.

وهذه ثلاثة أيمان لزيادة التأكيد فإن التأكيد اللفظي إذا أكد بالتكرار يكرر ثلاث مرات غالبا، أقسم بمخلوق عظيم، وبحالين عظيمين من آثار قدرة الله تعالى.

ومناسبة القسم بالقمر وبالليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر: أن هذه الثلاثة تظهر بها أنوار في خلال الظلام فناسبت حالي الهدي والضلال من قوله)كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء(ومن قوله)وما هي إلا ذكرى للبشر(ففي هذا القسم تلويح إلى تمثيل حال الفريقين من الناس عند نزول القرآن بحال اختراق النور في الظلمة.

وإدبار الليل: اقتراب تقضيه عند الفجر، وإسفار الصبح: ابتداء ظهور ضوء الفجر.

وكل من)إذ(و)إذا(واقعان اسمي زمان منتصبان على الحال من الليل ومن الصبح، أي أقسم به في هذه الحالة العجيبة الدالة على النظام المحكم المتشابه لمحو الله ظلمات الكفر بنور الإسلام قال تعالى)كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور(.

وقد أجريت جملة)إنها لإحدى الكبر(مجرى المثل.

ومعنى)إحدى(أنها المتوحدة المتميزة من بين الكبر في العظم لا نظير لها كما يقال: هو أحد الرجال لا يراد: أنه واحد منهم، بل يراد: أنه متوحد فيهم بارز ظاهر، كما تقدم في قوله)ذرني ومن خلقت وحيدا(. وفي المثل هذة إحدى حظيات لقمان .

وقرأ نافع وحمزة وحفص ويعقوب وخلف)إذ أدبر(بسكون ذال) إذ(وبفتح همزة)أدبر(وإسكان داله، أقسم بالليل في حالة إدباره التي مضت وهي حالة متجددة تمضي وتحضر وتستقبل، فأي زمن اعتبر معها فهي حقيقة بأن يقسم بكونها فيه، ولذلك أقسم بالصبح إذا أسفر مع اسم الزمن المستقبل. وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم والكسائي وأبو جعفر)إذا دبر(بفتح الذال المعجمة من)إذا(بعدها ألف، وبفتح الدال المهملة من دبر على أنه فعل مضي مجرد ، يقال: دبر: بمعنى أدبر، ومنه وصفه بالدابر في قولهم:أمس الدابر، كما يقال: قبل بمعنى أقبل، فيكون القسم بالحالة المستقبلة من إدبار الليل بعد نزول الآية، على وزان)إذا أسفر(في قراءة الجميع، وكل ذلك مستقيم فقد حصل في قراءة نافع وموافقيه تفنن في القسم.

والكبر: جمع الكبرى في نوعها، جمعوه هذا الجمع على غير قياس بابه لأن فعلى حقها أن تجمع جمع سلامة على كبريات، وأما بنية فعل فإنها جمع تكسير لفعلة كغرفة وغرف، لكنهم حملوا المؤنث بالألف على المؤنث بالهاء لأنهم تأولوه بمنزلة اسم للمصيبة العظيمة ولم يعتبروه الخصلة الموصوفة بالكبر، أي أنثى الأكبر فلذلك جعلوا

ألف التأنيث التي فيه بمنزلة هاء التأنيث فجمعوه كجمع المؤنث بالهاء من وزن فعلة ولم يفعلوا ذلك في أخواته مثل عظمى.
وانتصب)نذيرا(على الحال من ضمير)إنها(، أي إنها لعظمى العظائم في حال إنذارها للبشر وكفى بها نذيرا.
والنذير: المنذر، وأصله وصف بالمصدر لأن)نذيرا(جاء في المصادر كما جاء النكير، والمصدر إذا وصف به أو أخبر به يلزم الإفراد والتذكير، وقد كثر الوصف ب)النذير(حتى صار بمنزلة الاسم للمنذر.

صفحة : 4630

وقوله)لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر(بدل مفصل من مجمل من قوله)للبشر(، وأعيد حرف الجر مع البدل للتأكيد كقوله تعالى)قال الذين استكبروا للذين استضعفوا لمن آمن منهم(، وقوله)إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم(وقوله تعالى)تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا(. والمعنى: إنها نذير لمن شاء أن يتقدم إلى الإيمان والخير لينتذر بها، ولمن شاء أن يتأخر عن الإيمان والخير فلا يرعوي بنذارتها لأن التقدم مشي إلى جهة الأمام فكأن المخاطب يمشي إلى جهة الداعي إلى الإيمان وهو كناية عن قبول ما يدعو إليه، وبعكسه التأخر، فحذف متعلق)يتقدم(و)يتأخر(لظهوره من السياق.
ويجوز أن يقدر: لمن شاء أن يتقدم إليها، أي إلى سقر بالإقدام على الأعمال التي تقدمه إليها، أو يتأخر عنها بتجنب ما من شأنه أن يقربه منها.
وتعليق)نذيرا(بفعل المشيئة إنذار لمن لا يتذكر بأن عدم تذكره ناشئ عن عدم مشيئته فتبعته عليه لتفريطه على نحو قول المثل يداك أوكتا وفوك نفخ ، وقد تقدم في سورة المزمل قوله)إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا(.
وفي ضمير)منكم(التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن مقتضى الظاهر أن يقال: لمن شاء منهم، أي من البشر.
)كل نفس بما كسبت رهينة[38] إلا أصحاب اليمين[39] في جنات يتساءلون[40] عن المجرمين[41] ما سلككم في سقر[42] قالوا لم نك من المصلين[43] ولم نك نطعم المسكين[44] وكنا نخوض مع الخائضين[45] وكنا نكذب بيوم الدين[46] حتى أتانا اليقين[47] فما تنفعهم شفاعة الشافعين[48](استئناف بياني للسامع عقبى الاختيار الذي في قوله)لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر(أي كل إنسان

رهن بما كسب من التقدم أو التأخر أو غير ذلك فهو على نفسه بصيرة ليكسب ما يفضي به إلى النعيم أو إلى الجحيم.

ورهينة: خبر عن)كل نفس(وهو بمعنى مرهونة.

والرهن: الوثاق والحبس ومنه الرهن في الدين، وقد يطلق على الملازمة والمقارنة، ومنه: فرسا رهان، وكلا المعنيين يصح الحمل عليه هنا على اختلاف الحال، وإنما يكون الرهن لتحقيق المطالبة بحق يخشى أن يتفلت من المحقوق به، فالرهن مشعر بالأخذ بالشدة ومنه رهائن الحرب الذين يأخذهم الغالب من القوم المغلوبين ضمانا لئلا يخيس القوم بشروط الصلح وحتى يعطوا ديات القتلى فيكون الانتقام من الرهائن.

وبهذا يكون قوله)كل نفس(مرادا به خصوص أنفس المنذرين من البشر فهو من العام المراد به الخصوص بالقرينة، أي قرينة ما تعطيه مادة رهينة من معنى الحبس والأسر.

والباء للمصاحبة لا للسببية.

وظاهر هذا أنه كلام منصف وليس بخصوص تهديد أهل الشر.

ورهينة: مصدر بزون فعيلة كالشتيمة فهو من المصادر المقترنة بهاء كهاء التأنيث مثل الفعولة والفعالة، وليس هو من باب فعيل الذي هو وصف بمعنى المفعول مثل قتيلة، إذ لو قصد الوصف لقيل رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا جرى على موصوفه كما هنا، والإخبار بالمصدر للمبالغة على حد قول مسور بن زيادة الحارثي:

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل ألا تراه أثبت الهاء في صفة المذكر وإلا لما كان موجب للتأنيث.

والاستثناء في قوله)إلا أصحاب اليمين(استثناء منقطع.

وأصحاب اليمين هم أهل الخير جعلت علاماتهم في الحشر بجهات اليمين في مناولة الصحف وفي موقف الحساب وغير ذلك. فاليمين هو جهة أهل الكرامة في الاعتبار كجهة يمين العرش أو يمين مكان القدس يوم الحشر لا يحيط بها وصفنا وجعلت علامة أهل الشر الشمال في تناول صحف أعمالهم وفي مواقفهم وغير ذلك.

وقوله)في جنات(يجوز أن يكون متعلقا بقوله)يتساءلون(قدم للاهتمام، و)يتساءلون(حال من)أصحاب اليمين(وهو مناط التفصيل الذي جيء لأجله بالاستثناء المنقطع.

ويجوز أن يكون في جنات خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم في جنات. والجملة استئناف بياني لمضمون جملة الاستثناء ويكون يتساءلون حالا من الضمير المحذوف.

ومعنى)يتساءلون(يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التفاعل للدلالة على صدور الفعل من جانبين، أي يسأل أصحاب اليمين بعضهم بعضا عن شأن المجرمين، وتكون جملة)ما سلككم في سقر(بيانا لجملة)يتساءلون(. وضمير الخطاب في قوله) سلككم(يؤذن بمحذوف. والتقدير: فيسألون المجرمين ما سلككم في سقر، وليس التفاتا، أو يقول بعض المسؤولين لأصحابهم جوابا لسائليهم قلنا لهم: ما سلككم في سقر.

ويجوز أن تكون صيغة التفاعل مستعملة في معنى تكرير الفعل أي يكثر سؤال كل أحد منهم سؤالا متكررا أو هو من تعداد السؤال لأجل تعداد السائلين.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى)واتقوا الله الذي تساءلون به(في أول سورة النساء: هو كقولك تداعينا . ونقل عنه أيضا أنه قال هنا إذا كان المتكلم مفردا يقال: دعوت، وإذا كان المتكلم متعددا يقال: تداعينا، ونظيره، رميته، وترامينا. ورأيت الهلال وتراءيناه ولا يكون هذا تفاعلا من الجانبين اه. ذكره صاحب الكشاف في سورة النساء، أي هو فعل من جانب واحد ذي عدد كثير؛ وعلى هذا يكون مفعول يتساءلون محذوفا يدل عليه قوله عن)المجرمين(.

والتقدير: يتساءلون المجرمين عنهم، أي عن سبب حصولهم في سقر، ويدل عليه بيان جملة)يتساءلون(بجملة)ما سلككم في سقر(، فإن ما سلككم في بيان للتساؤل.

وأصل معنى سلكه أدخله يبن أجزاء شيء حقيقة ومنه جاء سلك العقد، واستعير هنا للزج بهم، وتقدم في سورة الحجر قوله تعالى) كذلك نسلكه في قلوب المجرمين(وفي قوله)نسلكه عذابا صعدا(في سورة الجن. والمعنى: ما زج بكم في سقر.

فإن كان السؤال على حقيقته والاستفهام مستعملا في أصل معناه كان الباعث على السؤال: إما نسيان كانوا علموه في الدنيا من أسباب الثواب والعقاب فيبقى عموم يتساءلون الراجع إلى أصحاب اليمين وعموم المجرمين على ظاهره، فكل من أصحاب اليمين يشرف على المجرمين من أعالي الجنة فيسألهم عن سبب ولوجهم النار فيحصل جوابهم وذلك إلهام من الله ليحمده أهل الجنة على ما أخذوه به من أسباب نجاتهم مما أصاب المجرمين ويفرحوا بذلك.

وإما أن يكون سؤالا موجها من بعض أصحاب اليمين إلى ناس كانوا يظنونهم من أهل الجنة فرأوهم في النار من المنافقين أو المرتدين بعد موت أصحابهم، فيكون المراد بأصحاب اليمين بعضهم

وبالمجرمين بعضهم وهذا مثل ما في قوله تعالى)وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتونا عن اليمين(الآيات في سورة الصافات وقوله فيها)قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أءنك لمن المصدقين(إلى قوله)في سواء الجحيم(.

وإن كان السؤال ليس على حقيقته وكان الاستفهام مستعملا في التنديم، أو التوبيخ فعموم أصحاب اليمين وعموم المجرمين على حقيقته.

وأجاب المجرمون بذكر أسباب الزج بهم في النار لأنهم ما ظنوا إلا ظاهر الاستفهام، فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا وهي: أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله.

وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقهم في المال.

وأنهم كانوا يخوضون خوض المعهود الذي لا يعدو عن تأييد الشرك وأذى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

وأنهم كذبوا بالجزاء فلم يتطلبوا ما ينجيهم. وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب المناسب لمقام التحسر والتلهف على ما فات، فكأنهم قالوا لأنا لم نكن من المؤمنين لأن أهل الإيمان اشتهروا بأنهم أهل الصلاة، وبأنهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وبأنهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين ويصدقون الرسل وقد جمعها قوله تعالى في سورة البقرة)هدى للمتقين الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون(.

وأصل الخوض الدخول في الماء، ويستعار كثيرا للمحادثة المتكررة، وقد اشتهر إطلاقه في القرآن على الجدال واللجاج غير المحمود قال تعالى)فذرهم في خوضهم يلعبون(وغير ذلك، وقد جمع الإطلاقين قوله تعالى)وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره(.

وباعتبار مجموع الأسباب الأربعة في جوابهم فضلا عن معنى الكناية، لم يكن في الآية ما يدل للقائلين بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

ويوم الدين: يوم الجزاء والجزاء.

واليقين: اسم مصدر يقن كفرح، إذا علم علما لا شك معه ولا تردد.
وإتيانه مستعار لحصوله بعد إن لم يكن حاصلا، شبه الحصول بعد الانتفاء بالمجيء بعد المغيب.
والمعنى: حتى حصل لنا العلم بأن ما كنا نكذب به ثابت، فقوله)حتى أتانا اليقين(على هذا الوجه غاية لجملة)نكذب بيوم الدين(.
ويطلق اليقين أيضا على الموت لأنه معلوم حصوله لكل حي فيجوز أن يكون مرادا هنا كما في قوله تعال)وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين(. فتكون جملة)حتى أتانا اليقين(غاية للجمل الأربع التي قبلها من قوله)لم نك من المصلين(إلى)بيوم الدين(.
والمعنى: كنا نفعل ذلك مدة حياتنا كلها.
وفي الأفعال المضارعة في قوله لم نك، ونخوض، ونكذب إيذان بأن ذلك ديدنهم ومتجدد منهم طول حياتهم.
وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظا من سقر على مقدار إضاعته وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته، وظواهره وسرائره، وقبل الشفاعة وبعدها.
وقد حرم الله هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة فعسى أن تنفع الشفاعة المؤمنين على أقدارهم.
وفي قوله)فما تنفعهم شفاعة الشافعين(إيماء إلى ثبوت الشفاعة لغيرهم يوم القيامة على الجملة وتفصيلها في صحاح الأخبار.
وفاء)فما تنفعهم شفاعة الشافعين(تفريع على قوله)كل نفس بما كسبت رهينة(، أي فهم دائمون في الارتهان في سقر.
)فما لهم عن التذكرة معرضين[49] كأنهم حمر مستنفرة[50] فرت من قسورة[51](تفريع للتعجيب من إصرارهم على الإعراض على ما فيه تذكرة على قوله)وما هي إلا ذكرى للبشر(.
وجيء باسم التذكرة الظاهر دون أن يؤتى بضميره نحو: أن يقال: عنها معرضين، لئلا يختص الإنكار والتعجيب بإعراضهم عن تذكرة الإنذار بسقر، بل المقصود التعميم لإعراضهم عن كل تذكرة وأعظمها تذكرة القرآن كما هو المناسب للإعراض قال تعالى)إن هو إلا ذكر للعالمين(.
و)ما لهم(استفهام مستعمل في التعجيب من غرابة حالهم بحيث تجدر أن يستفهم عنها المستفهمون وهو مجاز مرسل بعلاقة الملازمة، و)لهم(خبر عن)ما(الاستفهامية. والتقدير: ما ثبت لهم، و)معرضين(حال من ضمير)لهم(، أي يستفهم عنهم في هذه الحالة العجيبة.

وتركيب: ما لك ونحوه، لا يخلو من حال تلحق بضميره مفردة أو جملة نحو)ما لك لا تأمنا على يوسف(في سورة يوسف. وقوله تعالى)فما لهم لا يؤمنون(في سورة الانشقاق. وقوله)ما لكم كيف تحكمون(في سورة الصافات وسورة القلم.)والتذكرة(متعلق ب)معرضين(.

وشبهت حالة إعراضهم المتخيلة بحالة فرار حمر نافرة مما ينفرها.

والحمر: جمع حمار، وهو الحمار الوحشي، وهو شديد النفار إذا أحس بصوت القانص وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس.

وقد كثر وصف النفرة وسرعة السير والهرب بالوحش من حمر أو بقر وحش إذا أحسسن بما يرهبنه كما قال لبيد في تشبيه راحلته في سرعة سيرها بوحشية لحقها الصياد:

فتوجست رز الأنيس فراعـهـا عن ظهر غيب والأنيس سقامها وقد كثر ذلك في شعر العرب في الجاهلية والإسلام كما في معلقة طرفة، ومعلقة لبيد، ومعلقة الحارث، وفي أراجيز الحجاج ورؤية ابنه وفي شعر ذي الرمة.

والسين والتاء في)مستنفرة(للمبالغة في الوصف مثل: استكمل واستجاب واستعجب واستسخر واستنبط، أي نافرة نفارا قويا فهي تعدو بأقصى سرعة العدو.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر)مستنفرة(بفتح الفاء، أي استنفرها مستنفر، أي أنفرها، فهو من استنفر المتعدي بمعنى أنفره. وبناء الفعل للنائب يفيد الإجمال ثم التفصيل بقوله)فرت من قسورة(.

وقرأها الجمهور بكسر الفاء، أي استفرت هي مثل: استجاب فيكون جملة)فرت من قسورة(بيانا لسبب نفورها.

وفي تفسير الفخر عن أبي علي الفارسي قال محمد بن سلام: سألت أبا سوار الغنوي وكان أعرابيا فصيحا فقلت: كأنهم حمر ماذا فقال: مستنفرة: بفتح الفاء فقلت له: إنما هو فرت من قسورة. فقال: أفرت? قلت: نعم قال: فمستنفرة إذن، فكسر الفاء.

و)قسورة(قيل هو اسم جمع قسور وهو الرامي، أو هو جمع على خلاف القياس إذ ليس قياس فعلل أن يجمع على فعللة. وهذا تأويل جمهور المفسرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهما فيكون التشبيه جاريا على مراعاة الحالة المشهورة في كلام العرب.

وقيل: القسورة مفرد، وهو الأسد، وهذا مروي عن أبي هريرة وزيد بن أسلم وقال ابن عباس: إنه الأسد بالحبشية، فيكون اختلاف قول ابن عباس اختلافا لفظيا، وعنه: أنه أنكر أن يكون قسور اسم الأسد، فلعله أراد أنه ليس في أصل العربية. وقد عده ابن السبكي في الألفاظ الواردة في القرآن بغير لغة العرب في أبيات ذكر فيها ذلك، وقال ابن سيده: القسور الأسد والقسورة كذلك، أنثوه كما قالوا: أسامة، وعلى هذا فهو تشبيه مبتكر لحالة إعراض مخلوط برعب مما تضمنته قوارع القرآن فاجتمع في هذه الجملة تمثيلان.

وإيثار لفظ)قسورة(هنا لصلاحيته للتشبيهين مع الرعاية على الفاصلة.

)بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة[52](إضراب انتقالي لذكر حالة أخرى من أحوال عنادهم إذ قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية وغيرهما من كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: لا نؤمن لك حتى يأتي إلى كل رجل منا كتاب فيه من الله إلى فلان بن فلان، وهذا من أفانين تكذيبهم بالقرآن أنه منزل من الله.

وجمع)صحف(إما لأنهم سألوا أن يكون كل أمر أو نهي تأتي الواحد منهم في شأن صحيفة باسمه وكانوا جماعة متفقين جمع لذلك فكأن الصحف جميعها جاءت لكل امرئ منهم.

والمنشرة: المفتوحة المقروءة أي لا نكتفي بصحيفة مطوية لا نعلم ما كتب فيها ومنشرة مبالغة في منشورة. والمبالغة واردة على ما يقتضيه فعل)نشر(المجرد من كون الكتاب مفتوحا واضحا من الصحف المتعارفة. وفي حديث الرجم فنشروا التوراة.

)كلا بل لا يخافون الآخرة[53]( )كلا(إبطال لظاهر كلامهم ومرادهم منه وردع عن ذلك، أي لا يكون لهم ذلك.

ثم أضرب على كلامهم بإبطال آخر بحرف الإضراب فقال)بل لا يخافون الآخرة(أي ليس ما قالوه إلا تنصلا فلو أنزل عليهم كتاب ما آمنوا وهم لايخافون الآخرة، أي لا يؤمنون بها فكني عن عدم الإيمان بالآخرة بعدم الخوف منها، لأنهم لو آمنوا بها لخافوها إذ الشأن أن يخاف عذابها إذا كانت إحالتهم الحياة الآخرة أصلا لتكذيبهم بالقرآن.

)كلا إنه تذكرة[54] فمن شاء ذكره[55] وما تذكرون إلا أن يشاء الله( )كلا(ردع ثان مؤكد للردع الذي قبله، أي لا يؤتون صحفا منشورة ولا يوزعون إلا بالقرآن.

وجملة)إنه تذكرة(تعليل للردع عن سؤالهم أن تنزل عليهم صحف منشرة، بأن هذا القرآن تذكرة عظيمة، وهذا كقوله تعالى)وقالوا لو أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير

مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون(. فضمير)إنه(للقرآن، وهو معلوم من المقام، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن. وتنكير)تذكرة(للتعظيم.

وقوله)فمن شاء ذكره(تفريع على أنه تذكرة ونظيره قوله تعالى)إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا(في سورة المزمل.

وهذا تعريض بالترغيب في التذكر، أي التذكر طوع مشيئتكم فإن شأتم فتذكروا.

والضمير الظاهر في)ذكره(يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير)إنه(وهو القرآن فيكون على الحذف والإيصال وأصله: ذكر به.

ويجوز أن يعود إلى الله تعالى وإن لم يتقدم لاسمه ذكر في هذه الآيات لأنه مستحضر من المقام على نحو قوله)إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا(.

وضمير)شاء(راجع إلى)من(، أي من أراد أن يتذكر ذكر بالقرآن وهو مثل قوله آنفا)لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر(وقوله في سورة المزمل)فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا(.

وهو إنذار للناس بأن التذكر بالقرآن يحصل إذا شاؤوا التذكر به. والمشيئة تستدعي التأمل فيما يخلصهم من المؤاخذة على التقصير وهم لا عذر لهم في إهمال ذلك، وقد تقدم في سورة المزمل.

وجملة)وما تذكرون لا أن يشاء الله(معترضة في آخر الكلام لإفادة تعلمهم بهذه الحقيقة، والواو اعتراضية.

صفحة : 4634

والمعنى: أن تذكر من شاءوا أن يتذكروا لا يقع إلا مشروطا بمشيئة الله أن يتذكروا. وقد تكرر هذا في القرآن تكررا ينبه على أنه حقيقة واقعة كقوله)وما تشاؤون إلا أن يشاء الله(وقال هنا)كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره(فعلمنا أن للناس مشيئة هي مناط التكاليف الشرعية والجزاء في الدنيا والآخرة وهي المعبر عنها عند أهل التحقيق من المتكلمين بالكسب كما حققه الأشعري، وعند المعتزلة بالقدرة الحادثة، وهما عبارتان متقاربتان، وأن لله تعالى المشيئة العظمى التي لا يمانعها مانع ولا يقسرها قاسر، فإذا لم يتوجه تعلقها إلى إرادة أحد عباده لم يحصل له مراد.

وهذه المشيئة هي المعبر عنها بالتوفيق إذا تعلقت بإقدار العبد على الداعية إلى الطاعة وامتثال الوصايا الربانية، وبالخذلان إذا تعرضت بتركه في ضلالة الذي أوبقته فيه آراؤه الضالة وشهواته الخبيثة الموبقة له في الإعراض عن شرائع الله ودعوة رسله، وإذا

تعلقت بانتشال العبد من أوحال الضلال وبإنارة سبيل الخير لبصيرته سميت لطفا مثل تعلقها بإيمان عمر بن الخطاب وصلاحه بعد أن كان في عناد، وهذا تأويل قوله تعالى)فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء(.

وهذا حاصل ما يتمخض من الجمع بين أدلة الشريعة المقتضية أن الأمر لله، والأدلة التي اقتضت المؤاخذة على الضلال، وتأويلها الأكبر في قوله تعالى)وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذا من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا فما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك(ولله في خلقه سر جعل بينهم وبين كنهه حجابا، ورمز إليه بالوعد والوعيد ثوابا وعقابا.

وقرأ نافع ويعقوب)وما تذكرون(بمثناة فوقية على الالتفات، وقرأه الجمهور بتحتية على الغيبة، فالمعنى: أنهم يغلب عليهم الاستمرار من عدم الذكرى بهذه التذكرة إلا أن يشاء الله التوفيق لهم ويلطف بهم فيخلق انقلابا في سجية من يشاء توفيقه واللطف به. وقد شاء الله ذلك فيمن آمنوا قبل نزول هذه الآية ومن آمنوا بعد نزولها.

)هو أهل التقوى وأهل المغفرة[56](جملة واقعة في موقع التعليل لمضمون جملة)فمن شاء ذكره(تقوية للتعريض بالترغيب في التذكر والتذكر يفضي إلى التقوى.

فالمعنى: فعليكم بالتذكر واتقوا الله تعالى لأن الله هو أهل التقوى.

وتعريف جزأي الجملة في قوله)هو أهل التقوى(يفيد قصر مستحق انتقاء العباد إياه على الله تعالى وأن غيره لا يستحق أن يتقى. ويتجنب غضبه كما قال)والله أحق أن تخشاه(.

فأما أن يكون القصر قصرا إضافيا للرد على المشركين الذين يخشون غضب الأصنام ويطلبون رضاها أو يكون قصرا ادعائيا لتخصيصه تعالى بالتقوى الكاملة الحق وإلا فإن بعض التقوى مأمور بها كتقوى حقوق ذوي الأرحام في قوله تعالى)واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام(وقد يقال: إن ما ورد الأمر به من التقوى في الشريعة راجع إلى تقوى الله، وهذا من متممات القصر الادعائي.

وأهل الشيء: مستحقه.

وأصله: أنه ملازم الشيء وخاصته وقرابته وزوجه ومنه)فاسر بأهلك(.

ومعنى أهل المغفرة: أن المغفرة من خصائصه وأنه حقيق بأن يغفر لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه ومنه بيت الكشاف في سورة المؤمن:

ألا يا ارحموني يا إله محمـد فإن لم أكن أهلا فأنت له أهل وهذا تعريض بالتحريض للمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن الله يغفر لهم ما أسلفوه قال تعالى)قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف(، وبالتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب قال تعالى)قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم(.

روى الترمذي عن سهيل عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية قال الله تعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها فأنا أهل أن أغفر له قال الترمذي: حسن غريب. وسهيل ليس بالقوي، وقد انفرد بهذا الحديث عن ثابت.

للإشارة وأعيدت كلمة)أهل(في الجملة المعطوفة دون أن يقال: والمغفرة، إلى اختلاف المعنى بين أهل الأول وأهل الثاني على طريقة إعادة فعل وأطيعوا في قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول(.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القيامة

عنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة ب)سورة القيامة(لوقوع القسم بيوم القيامة في أولها ولم يقسم به فيما نزل قبلها من السور.

وقال الآلوسي: يقال لها)سورة لا أقسم(، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وعدت الحادية والثلاثين في عداد نزول سور القرآن. نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهمزة.

وعدد آيها عند أهل العدد من معظم الأمصار تسعا وثلاثين آية، وعدها أهل الكوفة أربعين.

أغراضها

اشتملت على إثبات البعث.

والتذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه.

وإثبات الجزاء على الأعمال التي عملها الناس في الدنيا.

واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء وتكريم أهل السعادة.
والتذكير بالموت وأنه أول مراحل الآخرة.
والزجر عن إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة.
وفي تفسير أبن عطية عن عمر أبن الخطاب ولم يسنده: أنه قال من سأل عن القيامة أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة .
وأدمج في آيات لا تحرك به لسانك إلى)وقرأنه(لأنها في أثناء نزول هذه السورة كما سيأتي.
)لا أقسم بيوم القيامة[1] ولا أقسم بالنفس اللوامة[2] أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه[3] بلى قادرين على أن نسوي بنانه[4] (افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف له نفس السامع كما تقدم في عدة مواضع من أقسام القرآن.
وكونوا القسم بيوم القيامة براعة استهلال لأن غرض السورة بيوم القيامة.
وفيه أيضا كون المقسم به هو المقسم على أحواله تنبيها على زيادة مكانته عند المقسم في قول أبي تمام:
وثناياك إنهـا اغـريض ولئال تؤم وبرق وميض كما تقدم عند قوله تعالى)حم والكتاب المبين إنا جعلنا قرآنا عربيا(في سورة الزخرف.
وصيغة)لا أقسم(صيغة قسم، أدخل حرف النفي على فعل)أقسم(لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعز منه عندي، وذلك كناية عن تأكيد القسم وتقدم عند قوله تعالى)فلا أقسم بمواقع النجوم(في سورة الواقعة.
وفي محسن بديعي من قبيل ما يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم. وهذا لم نذكره في ما مضى ولم يذكره أحد.
والقسم)بيوم القيامة(باعتباره ظرفا بما يجري فيه من عدل الله وإفاضة فضله وما يحضره من الملائكة والنفوس المبارك.
وتقد الكلام على)يوم القيامة(غير مرة منها قوله تعالى)ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب(في سورة البقرة.
وجواب القسم يؤخذ من قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(لأنه دليل الجواب إذ التقدير: لنجمع عظام الإنسان أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه.

وفي الكشاف قالوا أنه)أي لا أقسم(في الإمام بغير ألف وتبرأ منه بلفظ)قالوا(لأنه مخالف للموجود في المصاحف. وقد نسب إلى البزي عن ابن كثير أنه قرأ)لا أقسم(الأول دون ألف وهي رواية عنه ذكره الشيخ علي النوري في غيث النفع ولم يذكرها الشاطبي. واقتصر ابن عطية على نسبتها إلى ابن كثير دون تقيد، فتكون اللام لام قسم. والمشهور عن ابن كثير خلاف ذلك، وعطف قوله)ولا أقسم(تأكيدا للجملة المعطوف عليها، وتعريف)النفس(تعريف الجنس، أي الأنفس اللوامة. والمراد نفوس المؤمنين. ووصف اللوامة مبالغة لأنها تكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة. وهذا اللوم هو المعبر عنه في الاصطلاح بالمحاسبة، ولومها يكون بتفكيرها وحديثها النفسي. قال الحسن ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه على ما فات ويندم، على الشر لم فعله وعلى الخير لم لا لم يستكثر منه فهذه نفوس خيرة حقيقة أن تشرف بالقسم بها وما كان يوم القيامة إلا لكرامتها.

صفحة : 4636

والمراد اللوامة في الدنيا لوما تنشأ عنه التوبة والتقوى وليس المراد لوم الآخرة إذ)يقول يا ليتني قدمت لحياتي(.

ومناسبة القسم بها مع يوم القيامة إنها النفوس ذات الفوز في ذلك اليوم. وعن بعض المفسرين أن)لا أقسم(مراد منه عدم القسم ففسر النفس اللوامة بالتي تلوم على فعل الخير.

وقوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(الخ دليل على جواب القسم إذ تقدير الجواب لنجمعن عظامكم ونبعثكم للحساب.

وتعريف)الإنسان(تعريف الجنس، ووقوعه في سياق الإنكار الذي هو في معنى النفي يقتضي العموم، وهو عموم عرفي منظور فيه إلا غالب الناس يومئذ إذ كان المؤمنون قليلا. فالمعنى: أيحسب الإنسان الكافر.

وجملة)أن لن نجمع عظامه(مركبة من حرف)أن(المفتوحة الهمزة المخففة النون التي هي أخت)إن(المكسورة.

واسم)أن(ضمير شأن محذوف.

والجملة الواقعة بعد)أن(خبر عن ضمير الشأن، فسيبويه يجعل)أن(مع اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي فعل الظن. والأخفش يجعل)أن(مع جزئيها في مقام المفعول الأول أي لأنه مصدر ويقدر مفعولا ثانيا. وذلك أن من خواص أفعال القلوب جواز دخول)

أن(المفتوحة المهمزة بعدها فيستغني الفعل ب)أن(واسمها وخبرها على مفعوليه.
وجيء بحرف)لن(الدال على تأكيد النفي لحكاية اعتقاد المشركين استحالة جمع العظام بعد رمامها وتشتتها.
قال القرطبي: نزلت في عدي بن ربيعة الصواب ابن أبي ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد حدثني عن يوم القيامة فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عدي: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك أو يجمع الله العظام فنزلت هذه الآية، ألا قلت: إن سبب النزول لا يخصص الإنسان بهذا السائل.
والعظام: كناية عن الجسد كله، وإنما خصت بالذكر لحكاية أقواله) من يحيي العظام وهو رميم( )أإذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون( )إذ كنا عظاما نخرة(فهم احتجوا باستحالة قبول العظام للإعادة بعض البلى، على أن استحالة إعادة اللحم والعصب والفؤاد بالأولى. فإثبات إعادة العظام اقتضى إلى إعادة بقية الجسم مساو لإعادة العظم وفي ذلك كفاية من الاستدلال مع الإيجاز.
ثم إن كانت إعادة الخلق لجمع أجزاء أجسامهم المتفرقة من ذرات الله أعلم بها، وهو أحد قولين لعلمائنا، ففعل)نجمع(محمول على حقيقته. وإن كان البعث بخلق أجسام أخرى على سور الأجسام الفانية سواء كان خلقا مستأنفا أو مبتدأ من إعجاب الأذناب على ما ورد في بعض الأخبار وهما قولان لعلمائنا. ففعل)نجمع(مستعار للخلق الذي هو على صورة الجسم الذي بلي. ومناسبة استعارته مشاكلة أقوال المشركين التي أريد إبطالها لتجنب الدخول معهم في تصوير كيفية البعث، ولذلك لا ترى في آيات القرآن إلا إجمالها ومن ثم اختلف علماء الإسلام في كيفية إعادة الأجسام عند البعث. واختار إمام الحرمين التوقف، وآيات القرآن ورد فيها ما يصلح للأمرين.
و)بلى(حرف إبطال للنفي الذي دل عليه لن نجمع عظامه فمعناه بل تجمع عظامه على اختلاف المحملين في معنى الجمع.
و)قادرين(حال من الضمير في الفعل المحذوف بعد)بلى(الذي يدل عليه قوله)أن لن نجمع(، أي بل نجمعها في حال قدرتنا على أن نسوي بنانه.
ويجوز أن يكون)بلى(إبطالا للنفيين: النفي الذي أفاده الاستفهام الإنكاري من قوله)أيحسب الإنسان(، والنفي الذي في مفعول) يحسب(، وهو إبطال بزجر، أي بل ليحسبنا قادرين، لأن مفاد)أن لن نجمع عظامه(أن لا نقدر على جمع عظامه فيكون) قادرين(مفعولا ثانيا ليحسبنا المقدر، وعدل في متعلق)قادرين(عن أن يقال: قادرين على جمع عظامه إلى قادرين على أن نسوي بنانه لأنه أوفر معنى وأوفق بإرادة إجمال كيفية البعث والإعادة.

ولمراعاة هذه المعاني عدل عن رفع: قادرون، بتقدير: نحن قادرون فلم يقرأ بالرفع.
والتسوية: تقويم الشيء وإتقان الخلق قال تعالى)ونفس وما سواها(وقال في هذه السورة)فخلق فسوى(. وأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقومة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق لأنها تستلزمه فإنه ما سوي إلا وقد أعيد خلقه قال تعالى)الذي خلق فسوى(.
والبنان أصابع اليدين والرجلين أو أطراف تلك الأصابع. وهو اسم جمع بنانه.

وذا كانت هي أصغر الأعضاء الواقعة في نهاية الجسد كانت تسويتها كناية عن تسوية جمع الجسد لظهور أن تسوية أطراف الجسد تقتضي تسوية ما قبلها كما تقول: قلعت الريح أوتاد الخيمة كناية عن قلعها الخيمة كلها فإنه قد يكنى بأطراف الشيء عن جميعه.
ومنه قولهم: لك هذا الشيء بأسره، أي مع الحبل الذي يشد به، كناية عن جمع الشيء. وكذلك قولهم: هو لك برمته، أي بحبله الذي يشد به.
)بل يريد الإنسان ليفجر أمامه[5](بل إضراب انتقالي إلى ذكر حال آخر من أحوال فجورهم، فموقع الجملة بعد)بل(بمنزلة الاستئناف الابتدائي للمناسبة بين معنى الجملتين، أي لما دعوا إلى الإقلاع عن الإشراك وما يستدعيه من الآثام وأنذروا بالعقاب عليه يوم القيامة كانوا مصممين على الاسترسال في الكفر.
والفجور: فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة، فيكون فجر بمعنى كذب وزنا ومعنى، فيكون قاصرا ومتعديا مثل فعل كذب. مخفف الذال روي عن ابن عباس أنه قال يعني الكافر يكذب بما أمامه. وعن ابن قتيبة: أن أعرابيا سأل عمر بن الخطاب أن يحمله على راحلة وشكا دبر راحلته فاتهمه عمر فقال الأعرابي:
ما مسها من نقب ولا دبر   أقسم بالله أبو حفص عمر فاغفر له اللهم إن كان فجر قال: يعني إن كان نسبني إلى الكذب.
وقوله)يريد الإنسان(يجوز أن يكون إخبارا عما في نفوس أهل الشرك من محبة الاسترسال فيما هم عليه من الفسق والفجور.

ويجوز أن يكون استفهاما إنكاريا موافقا لسياق ما قبله من قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(.
وأعيد لفظ)الإنسان(إظهارا في مقام الإضمار لأن المقام لتقريعه والتعجيب في ضلاله.
وكرر لفظ)الإنسان(في هذه السورة خمس مرات لذلك، مع زيادة ما في تكرره في المرة الثانية والمرتين والرابعة والخامسة من خصوصية لتكون تلك الجمل الثلاث التي ورد ذكره فيها مستقلة بمفادها.
واللام في قوله)ليفجر(هي اللام التي يكثر وقوعها بعد مادتي الأمر والإرادة نحو وأمرت لأعدل بينكم)يريد الله ليبين لكم(وقول كثير:
أريد لأنسى حبها فكأنما تمثل لي ليلى بكل مكان وينتصب الفعل بعدها ب)أن(مضمرة، لأن أصل هذه اللام لام التعليل ولذلك قيل هي لام التعليل وقيل زائدة. وعن سيبويه أن الفعل الذي قبل هذه اللام مقدر بمصدر مرفوع على الابتداء وأن اللام وما بعدها خبره، أي إرادتهم للفجور. واتفقوا على أن لا مفعول للفعل الواقع بعدها، ولهذا الاستعمال الخاص بها. قال النحاس سماها بعض القراء لام أن . وتقدم الكلام عليها في مواضع منها عند قوله تعالى)يريد الله ليبين لكم(في سورة النساء.
وأمام: أصله اسم الذي هو قبالة من أضيف هو إليه وهو ضد خلف، ويطلق مجازا على الزمان المستقبل. قال ابن عباس: يكذب بيوم الحساب، وقال عبد الرحمن بن زيد: يكذب بما أمامه سفط.
وضمير)أمامه(يجوز أن يعود إلى الإنسان، أي في مستقبله، أي من عمره فيمضي قدما راكبا رأسه لا يقلع عما هو فيه من الفجور فينكر البعث فلا يزع نفسه عما لا يريد أن يزعها من الفجور. وإلى هذا المعنى نحا ابن عباس وأصحابه.
ويجوز أن يكون)أمامه(أطلق على اليوم المستقبل مجازا. وإلى هذا نحا ابن عباس في رواية عنه وعبد الرحمن بن زيد، ويكون)يفجر(بمعنى يكذب، أي يكذب باليوم المستقبل.
)يسأل أيان يوم القيامة[6](يجوز أن تكون هذه الجملة متصلة بالتي قبلها على أنها بدل اشتمال منها لأن إرادته الاسترسال على الفجور يشتمل على التهكم بيوم البعث أو على أنها بدل مطابق على تفسير)يفجر أمامه(بالتكذيب بيوم البعث.
ويجوز أن تكون مستأنفة للتعجيب من حال سؤالهم عن وقت يوم القيامة وهو سؤال استهزاء لاعتقادهم استحالة وقوعه.

و)أيان(اسم استفهام عن الزمان البعيد لأن أصلها: أن آن كذا، ولذلك جاء في بعض لغات العرب مضمون النون وإنما فتحوا النون ونما فتحوا النون في اللغة الفصحى لأنهم جعلوا الكلمة كلها ظرفا فصارت)أيان(بمعنى)متى(. وتقدم عند قوله تعالى)يسألونك عن الساعة أيان مرساها(في الأعراف. فالمعنى أنهم يسألون تعيين وقت معروف مضبوط بعد السنين ونحوها، أو بما يتعين به عند السائلين من حدث يحل معه هذا اليوم. فهو طلب تعيين أمد لحلول اليوم يقوم فيه الناس.

)فإذا برق البصر[7] وخسف القمر[8] وجمع الشمس والقمر[9] يقول الإنسان يومئذ أين المفر[10] كلا لا وزر[11] إلى ربك يومئذ المستقر[12] ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر[13](عدل عن أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة إلى أن يهددوا بأهواله، لأنهم لم يكونوا جادين في سؤالهم فكان من مقتضى حالهم أن ينذروا بما يقع من الأهوال عند حلول هذا اليوم مع تضمين تحقيق وقوعه فإن كلام القرآن إرشاد وهدى ما يترك فرصة للهدي والإرشاد إلا انتهزها، وهذا تهديد في ابتدائه جاء في صورة التعيين لوقت يوم القيامة إيهاما بالجواب عن سؤالهم كأنه حمل لكلامهم على خلاف الاستهزاء على طريقة الأسلوب الحكيم. وفيه تعريض بالتوبيخ على أن فرطوا في التوقي من ذلك اليوم واشتغلوا بالسؤال عن وقته. وقريب منه ما روي أن رجلا من المسلمين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: متى الساعة? فقال له: ماذا أعددت لها .

فإن هذه الأحوال المذكورة في الآية مما يقع عند حلول الساعة وقيام القيامة فكان ذلك شيئا من تعيين وقته بتعيين أشراطه.

والفاء لتفريع الجواب عن السؤال.

و)برق(قرأه الجمهور بكسر الراء، ومعناه: دهش وبهت، يقال: برق يبرق فهو برق من باب فرح فهو من أحوال الإنسان.

وإنما أسند في الآية إلى البصر على سبيل المجاز العقلي تنزيلا له منزلة مكان البرق لأنه إذا بهت شخص بصره. كما أسند الأعشى البرق إلى الأعين في قوله:

كذلك فاعل ما حييت إذا شتوا

وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق وقرأه نافع وأبو جعفر بفتح الراء من البريق بمعنى اللمعان، أي لمع البصر من شدة شخوصه، ومضارعه يبرق بضم الراء. وإسناده إلى البصر حقيقة.

ومآل معنى القرائتين واحد وهو الكناية عن الفزع والرعب كقوله تعالى)واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا(،

فلا وجه لترجيح الطبري قراءة الجمهور على قراءة نافع وأبي جعفر، لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ولا من مقتضى التفسير.
والتعريف في)البصر(للجنس المراد به الاستغراق، أي أبصار الناس كلهم من الشدة الحاصلة في ذلك الوقت، على أنهم متفاوتون في الرعب الحاصل لهم على تفاوتهم فيما يعرضون عليه من طرائق منازلهم.
وخسوف القمر أريد به انطماس نوره انطماسا مستمرا بسبب تزلزله من مداره حول الأرض الدائرة حول الشمس بحيث لا ينعكس عليه نورها ولا يلوح للناس نيرا، وهو ما دل عليه قوله)وجمع الشمس والقمر(، فهذا الخسوف ليس هو خسوفه المعتاد عندما تحول الأرض بين القمر وبين مسامتته الشمس.
ومعنى جمع الشمس والقمر: التصاق القمر بالشمس فتلتهمه الشمس لأن القمر منفصل من الأرض التي هي من الأجرام الدائرة حول الشمس كالكواكب ويكون ذلك بسبب اختلال الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي.
و)إذا برق البصر(ظرف متعلق ب)يقول الإنسان(، وإنما قدم على عامله للاهتمام بالظرف المقصود من سياق مجاوبة قوله)يسأل أيان يوم القيامة(.
وطوي التصريح بأن ذلك حلول يوم القيامة اكتفاء بذكر ما يدل عليه وهو قولهم)أين المفر(فكأنه قيل:حل يوم القيامة وحضرت أهواله يقول الإنسان يومئذ ثم تأكد بقوله إلى)ربك يومئذ المستقر(.
و)يومئذ(ظرف متعلق ب)يقول(أيضا، أي يوم إذ يبرق البصر ويخسف القمر ويجمع الشمس والقمر، فتنوين)إذ(تنوين عوض عن الجملة المحذوفة التي دلت عليها الجملة التي أضيف إليها)إذ(.

وذكر)يومئذ(مع أن قوله)إذا برق البصر(الخ مغن عنه للاهتمام ذكر ذلك اليوم الذي كانوا ينكرون وقوعه)ويستهزئون(فيسألون عن وقته،وللتصريح بأن حصول هذه الأحوال الثلاثة في وقت واحد.
والإنسان: هو المتحدث عنه من قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(،أي يقول الإنسان الكافر يومئذ: أين المفر.
والمفر: بفتح الميم وفتح الفاء مصدر،والاستفهام مستعمل في التمني،أي ليت لي فرارا في مكان نجاة، ولكنه لا يستطيعه.

و)أين(ظرف مكان.
و)كلا(ردع وإبطال لما تضمنه)أين المفر(من الطمع في أن يجد للفرار سبيلا.
والوزر:المكان الذي يلجأ إليه للتوقي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون.
فيجوز أن يكون)كلا لا وزر(كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى جوابا لمقالة الإنسان، أي لا وزر لك، فينبغي الوقف على)المفر(.
ويجوز أن يكون من تمام مقالة الإنسان، أي يقول: أين المفر؟ ويجيب نفسه بإبطال طعمه فيقول)كلا لا وزر(أي لا وزر لي، وذلك بأن نظر في جهاته فلم يجد إلا النار كما ورد في الحديث، فيحسن أن يوصل)أين المفر(بجملة)كلا لا وزر(.
وأما قوله)إلى ربك يومئذ المستقر(فهو كلام من جانب الله تعالى خاطب به النبي)ص في الدنيا بقرينة قوله)يومئذ(، فهو اعتراض وإدماج للتذكير بملك ذلك اليوم.
وفي إضافة)رب(إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته.
والمستقر: مصدر ميمي من استقر إذا قر في المكان ولم ينتقل، والسين والتاء للمبالغة في الوصف.
وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي إلى ربك لا إلى ملجأ آخر.
والمعنى: لا ملجأ يومئذ للإنسان إلا منتهيا إلى ربك، وهذا كقوله تعالى)وإلى الله المصير(.
وجملة)ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر(مستأنفة استئنافا بيانيا أثاره قوله)إلى ربك يومئذ المستقر(، أو بدل اشتمال من مضمون تلك الجملة، أي إلى الله مصيرهم وفي مصيرهم ينبأون بما قدموا وما أخروا.
وينبغي أن يكون المراد ب)الإنسان(الكافر جريا على سياق الآيات السابقة لأنه المقصود بالكلام وإن كان كل إنسان ينبأ يومئذ بما قدم وأخر من أهل الخير ومن أهل الشر قال تعالى)يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء(الآية.واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد، فإن في القرآن فنونا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة. وهذا مما يغفل عن مراعاته بعض المفسرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة.
وتنبئة الإنسان بما قدم وأخر كناية عن مجازاته على ما فعله: إن خيرا فخير وإن سوءا فسوء، إذ يقال له: هذا جزاء الفعلة الفلانية فيعلم من ذلك فعلته ويلقى جزاءها، فكان الإنباء من لوازم الجزاء

قال تعالى)قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم(ويحصل في ذلك الإنباء تقريع وفضح لحاله.
والمراد ب)ما قدم(: ما فعله و ب)ما أخر(: ما تركه مما أمر بفعله أو نهي عن فعله في الحالين فخالف ما كلف به ومما علمه النبي صلى الله عليه وسلم من الدعاء فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت .
)بل الإنسان على نفسه بصيرة[14] ولو ألقى معاذيره[15](إضراب انتقالي، وهو للترقي من مضمون)ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر(إلى الإخبار بأن الكافر يعلم ما فعله لأنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، إذ هو قرأ كتاب أعماله فقال)يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه(،)وقالوا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا(. وقال تعالى)اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا(.
ونظم قوله)بل الإنسان على نفسه بصيرة(صالح لإفادة معنيين: أولهما أن يكون)بصيرة(بمعنى مبصر شديد المراقبة فيكون) بصيرة(خبرا عن)الإنسان(. و)على نفسه(متعلقا ب)بصيرة(، أي الإنسان بصير بنفسه. وعدي بحرف)على(لتضمينه معنى المراقبة وهو معنى قوله في الآية الأخرى)كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا(. وهاء)بصيرة(تكون للمبالغة مثل هاء علامة ونسابة، أي الإنسان عليم بصير قوي العلم بنفسه يومئذ.

صفحة : 4640

والمعنى الثاني: أن يكون)بصيرة(مبتدأ ثانيا، والمراد به قرين الإنسان من الحفظة وعلى نفسه خبر المبتدأ الثاني مقدما عليه، ومجموع الجملة خبرا عن)الإنسان(، و)بصيرة(حينئذ يحتمل أن يكون معنى بصير، أي مبصر والهاء للمبالغة كما تقدم في المعنى الأول، وتكون تعدية)بصيرة(ب)على(لتضمينه معنى الرقيب كما في المعنى الأول.
ويحتمل أن تكون)بصيرة(صفة لموصوف محذوف، تقديره: حجة بصيرة، وتكون)بصيرة(مجازا في كونها بينة كقوله تعالى)قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر(. ومنه قوله تعالى)وآتيبا ثمود الناقة مبصرة(والتأنيث لتأنيث الموصوف.
وقد جرت هذه مجرى المثل لإيجازها ووفرة معانيها.
وجملة)ولو ألقى معاذيره(في موضع الحال من المبتدأ وهو الإنسان، وهي حالة أجدر بثبوت معنى عاملها عند حصولها.

و)لو(هذه وصلية كما تقدم عند قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في آل عمران. والمعنى: هو بصيرة على نفسه حتى في حال إلقائه معاذيره.
والإلقاء: مراد به الإخبار الصريح على وجه الاستعارة، وقد تقدم عند قوله تعالى)فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون(في سورة النحل.
والمعاذير: اسم جمع معذرة، وليس جمعا لأن معذرة حقه أن يجمع على معاذر، ومثل المعاذير قولهم: المناكير، اسم جمع منكر. وعن الضحاك أن معاذير هنا جمع معذار بكسر الميم وهو الستر بلغة اليمن يكون الإلقاء مستعملا في المعنى الحقيقي، أي الإرخاء. وتكون الاستعارة في المعاذير بتشبيه جحد الذنوب كذبا بإلقاء الستر على الأمر المراد حجبه.
والمعنى: أن الكافر يعلم يومئذ أعماله التي استحق العذاب عليها ويحاول أن يتعذر وهو يعلم أن لا عذر له ولو أفصح عن جميع معاذيره.
و)معاذيره(: جمع معرف بالإضافة يدل على العموم. فمن هذه المعاذير قولهم)رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت(ومنها قولهم)وما جاءنا بشير(وقولهم)هؤلاء أضلونا(ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة.
)لا تحرك به لسانك لتعجل به[16] إن علينا جمعه وقرآنه[17] فإذا قرأناه فاتبع قرآنه[18] ثم إن علينا بيانه[19](هذه الآية وقعت هنا معترضة. وسبب نزولها ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه مخافة أن يتفلت منه، أو من شدة رغبته في حفظه فكان يلاقي من ذلك شدة فأنزل الله تعالى)لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه(. قال: جمعه في صدرك ثم نقرأه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه قال فاستمع له وأنصت، ثم إن علينا لنبينه بلسانك، أي تقرأه اه. فلما نزل هذا الوحي في أثناء السورة للغرض الذي نزل فيه ولم يكن سورة مستقلة كان ملحقا بالسورة وواقعا بين الآي التي نزل بينها.
فضمير)به(عائد على القرآن كما هو المعروف في آيات كثيرة.
وقوله)فإذا قرأناه(، أي إذا قرأه جبريل عنا، فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي، والقرينة واضحة.
ومعنى فاتبع قرآنه، أي أنصت إلى قراءتنا.
فضمير)قرآنه(راجع إلى ما رجع إليه ضمير الغائب في)لا تحرك به(وهو القرآن بالمعنى الاسمي، فيكون وقوع هذه الآية في هذه السورة مثل وقوع)وما نتنزل إلا بأمر ربك(في سورة مريم، ووقوع)حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى(في أثناء أحكام الزوجات

في سورة البقرة. قالوا: فنزلت هذه الآية في أثناء سورة القيامة: هذا ما لا خلاف فيه بين أهل الحديث وأيمة التفسير. وذكر الفخر عن القفال أنه قال: إن قوله)لا تحرك به لسانك(ليس خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله)ينبأ الإنسان(فكان ذلك للإنسان حالما ينبأ بقبائح أفعاله فيقال له: اقرأ كتابك، فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه فيقال له: لا تحرك به لسانك لتعجل به فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار، ثم أن علينا بيان مراتب عقوبته، قال القفال: فهذا وجهه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به اه.

صفحة : 4641

وأقول: إن كان العقل لا يدفعه فإن الأسلوب العربي ومعاني الألفاظ تنبو عنه.

والي يلوح لي في موقع هذه الآية هنا دون أن تقع فيما سبق نزوله من السور قبل هذه السورة: إن سور القرآن حين كانت قليلة كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يخشى تفلت بعض الآيات عنه فلما كثرت السور فبلغت زهاء ثلاثين حسب ما عده سعيد بن جبير في ترتيب نزول السور، صار النبي صلى الله عليه وسلم يخشى أن ينسى بعض آياتها، فلعله صلى الله عليه وسلم أخذ يحرك لسانه بألفاظ القرآن عند نزوله احتياطا لحفظه وذلك من حرصه على تبليغ ما أنزل إليه بنصه. فلما تكفل الله بحفظه أمره أن لا يكلف نفسه تحريك لسانه، فالنهي عن تحريك لسانه نهي رحمة وشفقة لما كان يلاقيه في ذلك من الشدة.

و)قرآن(في الموضعين مصدر بمعنى القراءة مثل الغفران والفرقان، قال حسان في رثاء عثمان بن عفان:

يقطع الليل تسبيحا وقرآنا ولفظ)علينا(في الموضعين للتكفل والتعهد.

و)ثم(في)ثم إن علينا بيانه(للتراخي في الرتبة، أي التفاوت في رتبة الجملة المعطوف عليها وهي قوله)إن علينا جمعه وقرآنه(، وبين رتبة الجملة المعطوفة وهي)إن علينا بيانه(. ومعنى الجملتين: أن علينا جمع الوحي وأن تقرأه وفوق ذلك أن تبينه للناس بلسانك، أي نتكفل لك بأن يكون جمعه وقرآنه بلسانك، أي عن ظهر قلب لا

بكتابة تقرأها بل أن يكون محفوظا في الصدور بينا لكل سامع لا يتوقف على مراجعة ولا على إحضار مصحف من قرب أو بعد.
فالبيان هنا بيان ألفاظه وليس بيان معانيه لأن بيان معانيه ملازم لورود ألفاظه.
وقد احتج بهذه الآية بعض علمائنا الذين يرون جواز تأخير البيان عن المبين متمسكين بأن)ثم(للتراخي وهو متمسك ضعيف لأن التراخي الذي أفادته)ثم(إنما هو تراخ في الرتبة لا في الزمن، ولأن)ثم(قد عطفت مجموع الجملة ولم تعطف لفظ)بيانه(خاصة، فلو أريد الاحتجاج بالآية للزم أن يكون تأخير البيان حقا لا يخلو عنه البيان وذلك غير صحيح.
)كلا بل تحبون العاجلة[20] وتذرون الآخرة[21](رجوع إلى مهيع الكلام الذي بنيت عليه السورة كما يرجع المتكلم إلى وصل كلامه بعد أن قطعه عارض أو سائل، فكلمة)كلا(ردع وإبطال. يجوز أن يكون إبطالا لما سبق في قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(إلى قوله)ولو ألقى معاذيره(فأعيد)كلا(تأكيدا لنظيره ووصلا للكلام بإعادة آخر كلمة منه.
والمعنى: أن مزاعمهم باطلة.
وقوله)بل يحبون العاجلة(إضراب أبطالي يفصل ما أجمله الرد ب)كلا(من إبطال ما قبلها وتكذيبه، أي لا معاذير لهم في نفس الأمر ولكنهم أحبوا العاجلة، أي شهوات الدنيا وتركوا الآخرة، والكلام مشعر بالتوبيخ ومناط التوبيخ هو حب العاجلة مع نبذ الآخرة فأما لو أحب أحد العاجلة وراعى الآخرة، أي جرى على الأمر والنهي الشرعيين لم يكن مذموما. قال تعالى فيما حكاه عن الذين أوتوا العلم من قوم قارون)وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا(.
ويجوز أن يكون إبطالا لما تضمنه قوله)ولو ألقى معاذيره(فهو استئناف ابتدائي. والمعنى: أن معاذيرهم باطلة ولكنهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، أي ثرا شهواتهم العاجلة ولم يحسبوا للآخرة حسابا.
وقرأ الجمهور)تحبون(و)تذرون(بتاء فوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في موعظة المشركين مواجهة بالتفريع لأنه ذلك أبلغ فيه. وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمر ويعقوب بياء تحتية على نسق ضمائر الغيبة السابقة، والضمير عائد إلى)الإنسان(في قوله) بل الإنسان على نفسه بصيرة(جاء ضمير جمع لأن الإنسان مراد به الناس المشركون، وفي قوله:)بل تحبون(ما يرشد إلى تحقيق معنى الكسب الذي وفق إلى بيانه الشيخ أبو الحسن الأشعري وهو الميل والمحبة للفعل أو الترك.

)وجه يومئذ ناظرة[22] إلى ربها ناظرة[23] ووجوه يومئذ باسرة[24] تظن أن يفعل بها فاقرة[25](المراد ب)يومئذ(يوم القيامة الذي تكرر ذكره بمثل هذا ابتداء من قوله)يقول الإنسان يومئذ أين المفر(وأعيد مرتين.
والجملة المقدرة المضاف إليها)إذ(، والمعوض عنها التنوين تقديرها: يوم إذ برق البصر.

وقد حصل من هذا تخلص إلى إجمال حال الناس يوم القيامة بين أهل سعادة وأهل شقاوة.
فالوجوه الناضرة وجوه أهل السعادة والوجوه الباسرة وجوه أهل الشقاء، وذلك بين من كلتا الجملتين.
وقد علم الناي المعني بالفريقين مما سبق نزوله من القرآن كقوله في سورة عبس)ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة(فعلم أن أصل أسباب السعادة الإيمان بالله وحده وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم والإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن أصل أسباب الشقاء الإشراك بالله وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونبذ ما جاء به. وقد تضمن صدر هذه السورة ما ينبئ بذلك كقوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(وقوله)بل يريد الإنسان ليفجر أمامه(.
وتنكير)وجوه(للتنويع والتقسيم كقوله تعالى)فريق في الجنة وفريق في السعير(وقول الشاعر وهو من أبيات كتاب الآداب ولم يعزه ولا عزاه صاحب العباب في شرحه:
فيوم علينا ويوم لنـا ويوم نساء ويوم نسر وقول أبي الطيب:
فيوما بخيل تطرد الروم عنهـم ويوم بجود تطرد الفقر والجدبا فالوجوه الناضرة الموصوفة بالنضرة بفتح النون وسكون الضاد هي حسن الوجه من أثر النعمة والفرح، وفعله كنصر وكرم وفرح، ولذلك يقال: ناضر ونضير ونضر، وكني بنضرة الوجوه عن فرح أصحابها ونعيمهم قال تعالى في أهل السعادة)تعرف في وجوههم نضرة النعيم(لأن ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره.
وأخبر عنها خبرا ثانيا بقوله)إلى ربها ناظرة(وظاهر لفظ)ناظرة(أنه من نظر بمعنى: عاين ببصره إعلانا بتشريف تلك الوجوه انها تنظر إلى جانب الله تعالى نظرا خاصا لا يشاركها فيه من

يكون دون رتبتهم، فهذا معنى الآية بإجماله ثابت بظاهر القرآن وقد أيدتها الأخبار الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة إن أناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارن في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا؟ قلنا: لا. قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارن في رؤيتهما .

وفي رواية فإنكم ترونه كذلك وساق الحديث في الشفاعة.

وروى البخاري بن جرير بن عبد الله قال كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته وربما قال سترون ربكم عيانا .

وروى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار، فيكشف الحجاب فما يعطون شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم .

فدلالة الآية على أن المؤمنين يرون بأبصارهم رؤية متعلقة بذات الله على الإجمال دلالة ضمنية لاحتمالها تأويلات تأولها المعتزلة بأن المقصود رؤية جلاله وبهجة قدسه التي لا تخول رؤيتها لغير أهل السعادة.

ويلحق هذا بمتشابه الصفات وإن كان مقتضاه ليس إثبات صفة، ولكنه يؤول إلى الصفة ويستلزمها بأنه آيل إلى اقتضاء جهة للذات، ومقدار يحاط بجميعه أو ببعضه، إذا كانت الرؤيا بصرية فلا جرم أن يعد الوعد برؤية أهل الجنة ربهم تعالى من قبيل المتشابه.

صفحة : 4643

ولعلماء الإسلام في ذلك أفهام مختلفة، فأما صدر الأمة وسلفها فإنهم جروا على طريقتهم التي تخلقوا بها في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان بما ورد من هذا القبيل على إجماله، وصرف أنظارهم عن التعمق في حقيقته وإدراجه تحت أقسام الحكم العقلي، وقد سمعوا هذا ونظائره كلها أو بعضها أو قليلا منها، فيما شغلوا أنفسهم به ولا طلبوا تفصيله، ولكنهم انصرفوا إلى ما هم أحق بالعناية وهو التهمم بإقامة الشريعة وبثها وتقرير سلطانها، مع الجزم بتنزيه الله تعالى على اللوازم العارضة لتلك الصفات، جاعلين أمامهم المرجوع إليه في كل هذا قوله تعالى)ليس كمثله شيء(،

أو ما يقارب هذا من دلائل التنزيه الخاصة بالتنزيه عن بعض ما ورد الوصف به مثل قوله)لا تدركه الأبصار(بالنسبة إلى مقامنا هذا، مع اتفاقهم على أن عدم العلم بتفصيل ذلك لا يقدح في عقيدة الإيمان، فلما نبع في علماء الإسلام تطلب معرفة حقائق الأشياء وألجأهم البحث العلمي إلى التعمق في معاني القرآن ودقائق عباراته وخصوصيات بلاغته، لم يروا طريقة السلف مقنعة لإفهام أهل العلم من الخلف لأن طريقتهم في العلم طريقة تحميص وهي اللائقة بعصرهم، وقارن ذلك ما حدث في فرق الأمة الإسلامية من النحل الاعتقادية، وإلقاء شبه الملاحدة من المنتمين إلى الإسلام وغيرهم وحدا بهم ذلك إلى الغوص والتعمق لإقامة المعارف على أعمدة لا تقبل التزلزل، ولدفع شبه المتشككين ورد مطاعن الملحين، فسلكوا مسالك الجمع بين المتعارضات من أقوال ومعان وإقرار كل حقيقة في نصابها، وذلك بالتأويل الذي يقتضيه المقتضي ويعضده الدليل.

فسلكت جماعات مسالك التأويل الإجمالي بأن يعتقدوا تلك المتشابهات على إجمالها ويوقنوا بالتنزيه عن ظواهرها ولكنهم لا يفصلون صرفها عن ظواهرها يجملون التأويل وهذه الطائفة تدعى السلفية لقرب طريقتها من طريقة السلف في المتشابهات، وهذه الجماعات متفاوتة في مقدار تأصيل أصولها تفاوتا جعلها فرقا فمنهم الحنابلة، والظاهرية، الخوارج الأقدمون غير الذين التزموا طريقة المعتزلة.

ومنهم أهل السنة الذين كانوا قبل الأشعري مثل المالكية وأهل الحديث الذين تمسكوا بظواهر ما جاءت به الأخبار الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم مع التقييد بأنها مؤولة عن ظواهرها بوجه الإجمال. وقد غلا قوم من الآخذين بالظاهر مثل الكرامية والمشبهة فألحقوا بالصنف الأول.

ومنهم فرق النظارين في التوفيق بين قواعد العلوم العقلية وبين ما جاءت به أقوال الكتاب والسنة وهؤلاء هم المعتزلة، والأشاعرة، والماتردية.

فأقوالهم في رؤية أهل الجنة ربهم ناسجة على هذا المنوال: فالسلف أثبتوها دون بحث والمعتزلة نفوها وتأولوا الأدلة بنحو المجاز والاشتراك، وتقدير محذوف لمعارضتها الأصول القطعية عندهم فرجحوا ما رأوه قطعيا وألغوها.

والأشاعرة أثبتوها وراموا الاستدلال لها بأدلة تفيد القطع وتبطل قول المعتزلة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك المبلغ المطلوب.

وما جاء به كل فريق من حجاج لم يكن سالما من اتجاه نقوض ومنوع ومعارضات، وكذلك ما أثاره كل فريق على مخالفيه من

معارضات لم يكن خالصا من اتجاه منوع مجردة أو مع المستندات، فطال الأخذ والرد. ولم يحصل طائل ولا انتهى إلى حد.
ويحسن أن نفوض كيفيتها إلى علم الله تعالى كغيرها من المتشابه الراجع إلى شؤون الخالق تعالى.
وهذا معنى قول سلفنا إنها رؤية بلا كيف وهي كلمة حق جامعة، وإن اشمأز منها المعتزلة.
هذا ما يتعلق بدلالة الآية على رؤية أهل الجنة ربهم وأما ما يتعلق بأصل جواز رؤية الله تعالى فقد مضى القول فيها عند قوله تعالى)قال لن تراني(في سورة الأعراف.
وتقديم المجرور من قوله)إلى ربها(على عامله للاهتمام بهذا العطاء العجيب وليس للاختصاص لأنهم ليرون بهجات كثيرة في الجنة.
وبين)ناضرة(و)ناظرة(جناس محرف قريب من التام.
وسوغ الابتداء بالنكرة في قوله)وجوه يومئذ ناظرة(أنها أريد بها التفصيل والتقسيم لمقابلته بقوله)ووجوه يومئذ باسرة(، على حد قول الشاعر:
فيوم علينا ويوم لنـا ويوم نساء ويوم نسر وأما الوجوه الباسرة فنوع ثان من وجوه الناس يومئذ هي وجوه أهل الشقاء. وأعيد لفظ)يومئذ(تأكيد للاهتمام بالتذكير بذلك اليوم.

صفحة : 4644

و)باسرة(: كالحة من تيقن العذاب، وتقدم عند قوله تعالى)ثم عبس وبسر(في سورة المدثر.
فجملة)تظن أن يفعل بها فاقرة(استئناف بياني لبيان سبب بسورها.
وفاقرة: داهية عظيمة، وهو نائب فاعل)يفعل بها(ولم يقترن الفعل بعلامة التأنيث لأن مرفوعه ليس مؤنثا حقيقيا، مع وقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه، وكلا الأمرين يسوغ ترك علامة التأنيث. وإفراد)فاقرة(إفراد الجنس، أي نوعا عظيما من الداهية.
والمعنى: أنهم أيقنوا بأن سيلاقوا دواهي لا يكتنه كنهها.
)كلا إذا بلغت التراقي[26] وقيل من راق[27] وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق[29] إلى ربك يومئذ المساق[30](ردع ثان على قول الإنسان)أيان يوم القيامة(، مؤكد للردع الذي قبله في قوله)كلا بل تحبون العاجلة(. ومعناه زجر عن إحالة البعث فإنه

واقع غير بعيد فكل أحد يشاهده حين الاحتضار للموت كما يؤذن به قوله)إلى ربك يومئذ المساق(، أتبع توصيف أشراط القيامة المباشرة لحلوله بتوصيف أشراط حلول التهيؤ الأول للقائه من مفارقة الحياة الأولى.

وعن المغيرة بن شعبة يقولون: القيامة القيامة، وإنما قيامة أحدهم موته، وعن علقمة أنه حضر جنازة فلما دفن قال:)أما هذا فقد قامت قيامته(، فحالة الاحتضار هي آخر أحوال الحياة الدنيا يعقبها مصير الروح إلى تصرف الله تعالى مباشرة.

وهو ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل: ارتدوا وتنهبوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة وتنتقلون إلى الآجلة، فيكون ردعا على محبة العاجلة وترك العناية في الآخرة، فليس مؤكدا للردع الذي في قوله)كلا بل تحبون العاجلة(بل هو ردع على ما تضمنه ذلك الردع من إيثار العاجلة على الآخرة.

و)إذا بلغت التراقي(متعلق بالكون الذي يقدر في الخبر وهو قوله)إلى ربك(. والمعنى: المساق يكون إلى ربك إذا بلغت التراقي.

وجملة)إلى ربك يومئذ المساق(بيان للردع وتقريب لإبطال الاستعباد المحكي عن منكري البعث بقوله)يسأل أيان يوم القيامة(.

و)إذا(ظرف مضمن معنى الشرط، وهو منتصب بجوابه أعنى قوله)إلى ربك يومئذ المساق(.

وتقديم)إلى ربك(على متعلقة وهو)المساق(للاهتمام به لأنه مناط الإنكار منهم.

وضمير)بلغت(راجع إلى غير مذكور في الكلام ولكنه معلوم من فعل)بلغت(ونم ذكر)التراقي(فإن فعل)بلغت التراقي(يدل أنها روح الإنسان. والتقدير: إذا بلغت الروح أو النفس. وهذا التقدير يدل عليه الفعل الذي أسند إلى الضمير بحسب عرف أهل اللسان، ومثله قول حاتم الطائي:

أماوي ما يغني الثراء عن الفـتـى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر أي إذا حشرجت النفس. ومن هذا الباب قول العرب أرسلت يريدون: أرسلت السماء المطر، ويجوز أن يقدر في الآية ما يدل عليه الواقع.

والأنفاس: جمع نفس بفتح الفاء، وهو أنسب بالحقائق.

والتراقي: جمع ترقوة بفتح الفوقية وسكون الراء وضم القاف وفتح الواو مخففة وهاء تأنيث وهي ثغرة النحر، ولكل إنسان ترقوتان عن يمينه وعن شماله.

فالجمع هنا مستعمل في التثنية لقصد تخفيف اللفظ وقد أمن اللبس، لأن في تثنية ترقوة شيئا من الثقل لا يناسب أفصح كلام،

وهذا مثل ما جلء في قوله تعالى)فقد صغت قلوبكما(في سورة التحريم.

ومعنى)بلغت التراقي(: أن الروح بلغت الحنجرة حيث تخرج الأنفاس الأخيرة فلا يسمع صوتها إلا في جهة الترقوة وهي آخر حالات الاحتضار، ومثله قوله تعالى)فلولا إذا بلغت الحلقوم(الآية.

واللام في)التراقي(مثل اللام في)المساق(فيقال: هي عوض عن المضاف إليه، أي بلغت روحه تراقيه، أي الإنسان.

ومعنى)وقيل من راق(وقال قائل: من يرقي هذا رقيات لشفائه؟ أي سأل أهل المريض عن وجدان أحد يرقي، وذلك عند توقع اشتداد المرض به. والبحث عن عارف برقية المريض عادة عربية ورد ذكرها في حديث السرية الذين أتوا على حي من أحياء العرب إذ لدغ سيد ذلك الحي فعرض لهم رجل من أهل الحي، فقال: هل فيكم من راق؟ إن في الماء رجلا لديغا أو سليما. رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس في الرقيا بفاتحة الكتاب.

صفحة : 4645

والرقيا بالقصر، ويقال بهاء تأنيث: هي كلام خاص معتقد نفعه يقول قائل عند المريض واضعا يده في وقت القراءة على موضع الوجع من المريض أو على رأس المريض، أو يكتبه الكاتب في خرقة، أو ورقة وتعلق على المريض، وكانت من خصائص التطبب يزعمون أنها تشفي من صرع الجنون ومن ضر السموم ومن الحمى.

ويختص بمعرفتها ناس يزعمون أنهم يتلقونها من عارفين فلذلك سموا الراقي ونحوه عرافا، قال رؤبة بن العجاج:

بذلت لعرافة اليمامة حكمـه وعرافي نجد إن هما شفياني

فما تركا من عوذة يعرفانهـا ولا رقية بـهـا رقـيانـي وقال النابغ يذكر حال من لدغته أفعى:

تناذرها الراقون من سوء سمعها تطلقه طورا وطورا تراجـع وكان الراقي ينفث على المرقي ويتفل، وشار إليه في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله ثم إنه طمس المكتوب على غفلة، وتفل عليه مائة تفلة .

وأصل الرقية: ما ورثه العرب من طلب البركة بأهل الصلاح والدعاء إلى الله، فأصلها وارد من الأديان السماوية، ثم طرأ عليها سوء الوضع عند أهل الضلالة فألحقوها بالسحر أو بالطب، ولذلك

يخلطونها من أقوال ربما كانت غير مفهومة، ومن أشياء كأحجار أو أجزاء من عظم الحيوان أو شعره، فاختلط أمرها بالأمم الجاهلة، وقد جاء في الإسلام الاستشفاء بالقرآن والدعوات المأثورة المتقلبة من أربابها وذلك من قبيل الدعاء.

والضمير المستتر في)ظن(عائد إلى الإنسان في قوله)بل يريد الإنسان(أي الإنسان الفاجر.

والظن: العلم المقارب لليقين، وضمير)أنه(ضمير شأن، أي وأيقن أنه، أي الأمر العظيم الفراق، أي فراق الحياة.

وقوله)والتفت الساق بالساق(إن حمل على ظاهره، فالمعنى التفاف ساقي المحتضر بعد موته إذ تلف الأكفان على ساقيه ويقرن بينهما في ثوب الكفن فكل ساق منها ملتفة صحبة الساق الأخرى، فالتعريف عوض عن المضاف إليه، وهذا نهاية وصف الحالة التي تهيأ بها لمصيره إلى القبر الذي هو أول مراحل الآخرة.

ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا فإن العرب يستعملون الساق مثلا في الشدة وجد الأمر تمثيلا بساق الساعي أو الناهض لعمل عظيم، يقولون: قامت الحرب على ساق.

وأنشد ابن عباس في قول الراجز:

صبرا عناق إنه لشرباق قد سن لي قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق وتقدم في قوله تعالى)يوم يكشف ساق(في سورة القلم.

فمعنى)والتفت الساق بالساق(طرأت مصيبة على مصيبة.

والخطاب في قوله)إلى ربك(التفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله)بل تحبون العاجلة(لأنه لما كان خطابا لغير معين حسن التفنن فيه.

والتعريف في)المساق(تعريف الجنس الذي يعم الناس كلهم بما فيهم الإنسان الكافر المردود عليه. ولك أن تعبر عن اللام بأنها عوض عن المضاف إليه، أي مساق الإنسان الذي يسأل: أيان يوم القيامة.

والمساق: مصدر ميمي ل)ساق(، وهو تسيير ماش أمام مسيره إلى حيث يريد مسيره، وضده القود، وهو هنا مجاز مستعمل في معنى الإحضار والإيصال إلى حيث يلقى جزاء ربه.

وسلك في الجمل التي بعد)إذا(مسلك الإطناب لتهويل حالة الاحتضار على الكافر وفي ذلك إيماء إلى أن الكافر يتراءى له مصيره في حالة احتضاره وقد دل عليه حديث عبادة بن الصامت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت. قال: ليس ذاك ولكن

المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه .

)فلا صدق ولا صلى[31] ولكن كذب وتولى[32] ثم ذهب إلى أهله يتمطى[33] أولى لك فأولى[34] ثم أولى لك فأولى[35](تفريع على قوله)يسأل أيان يوم القيامة(.

فالضمير عائد إلى الإنسان في قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(أي لجهله البعث لم يستعد له.

صفحة : 4646

وحذف مفعول)كذب(ليشمل كل ما كذب به المشركون، والتقدير: كذب الرسول والقرآن وبالبعث، وتولى عن الاستجابة لشرائع الإسلام.

ويجوز أن يكون الفاء تفريعا وعطفا على قوله)إلى ربك يومئذ المساق(، أي فقد فارق الحياة وسيق إلى لقاء الله خاليا من العدة لذلك اللقاء.

وفي الكلام على كلا الوجهين حذف يدل عليه السياق تقديره: فقد علم أنه قد خسر وتندم على ما أضاعه من الاستعداد لذلك اليوم.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى)إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمن لحياتي(.

وفعل)صدق(مشتق من التصديق، أي تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو المناسب لقوله)ولكن كذب(.

والمعنى: فلا آمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وبعض المفسرين فسر)صدق(بمعنى أعطى الصدقة، وهو غير الجار على قياس التصريف إذ حقه أن يقال: تصدق، على أنه لا يساعد الاستدراك في قوله)ولكن كذب(.

وعطف)ولا صلى(على نفي التصديق تشويها له بأن حاله مبائن لأحوال أهل الإسلام. والمعنى: فلم يؤمن ولم يسلم.

و)لا(نافية دخلت على الفعل الماضي والأكثر في دخولها على الماضي أن يعطف عليها نفي آخر وذلك حين يقصد المتكلم أمرين مثل ما هنا وقول زهير:

فلا هو أخفاها ولم يتقدم وهذا معنى قول الكسائي)لا(بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره يقول العرب: لا عبد الله خارج ولا فلان، ولا

يقولون: مررت برجل لا محسن حتى يقال: ولا مجمل اه فإذا يعطف عليه نفي آخر فلا يؤتى بعدها بفعل مضي إلا في إرادة الدعاء نحو لا فض فوك وشذ ما خالف ذلك. وأما قوله تعالى)فلا اقتحم العقبة(فإنه على تأويل تكرير النفي لأن مفعول الفعل المنفي بحرف)لا(وهو العقبة يتضمن عدة أشياء منفية بينها قوله)وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام(إلى قوله)من الذين آمنوا(. فلما كان ذلك متعلق الفعل المنفي كان الفعل في تأويل تكرير النفي كأنه قيل: فك رقبة ولا أطعم يتيما ولا أطعم مسكينا ولا آمن.

وجملة)ولكن كذب(معطوفة على جملة)فلا صدق(.

وحرف)لكن(المخفف النون بالأصالة أي الذي لم يكن مخفف النون المشددة أخت)إن(هو حرف استدراك، أي نقض لبعض ما تضمنته الجملة التي قبله إما لمجرد توكيد المعنى بذكر نقيضه مثل قوله تعالى)وليس عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم(، وأما لبيان إجمال في النفي الذي قبله نحو)ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله(.

وحرف)ولكن(المخفف لا يعمل إعرابا فهو حرف ابتداء ولذلك أكثر وقوعه بعد واو العطف وجملة)ولكن كذب وتولى(أفادت معنيين: أحدهما توكيد قوله)فلا صدق(بقوله)كذب(، وثانيهما زيادة بيان معنى)فلا صدق(بأنه تولى عمدا لأن عدم التصديق له أحوال، ونظيره في غير الاستدراك قوله تعالى)إلا إبليس أبى واستكبر(.

والتكذيب: تكذيبه بالبعث وبالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

والتولي: الإعراض عن دعوته إلى النظر والتدبر في القرآن.

وفاعل)صدق(والأفعال المذكورة بعده ضمائر عائدة على الإنسان المتقدم ذكره.

و)يتمطى(: يمشي المطيطاء بضم الميم وفتح الطاء بعدها ياء ثم طاء مقصورة وممدودة وهي تبختر.

وأصل يتمطى: يتمطط، أي لأن المتبختر يمد خطاه وهي مشية المعجب بنفسه. وهنا انتهى وصف الإنسان المكذب.

والمعنى: أنه أهمل الاستعداد للآخرة ولم يعبأ بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وذهب إلى أهله مزدهيا بنفسه غير مفكر في مصيره.

قال ابن عطية: قال جمهور المتأولين هذه الآية كلها من قوله)فلا صدق ولا صلى(نزلت في ابن جهل بن هشام، قال: ثم كادت هذه الآية تصرح به في قوله تعالى)يتمطى(فإنها كانت مشية بني مخزوم وكان أبو جهل يكثر منها اه. وفيه نظر سيأتي قريبا.

فقوله)أولى لك(وعيد، وهي كلمة توعد تجري مجرى المثل في لزوم هذا اللفظ لكن تلحقه علامات الخطاب والغيبة والتكلم، والمراد به ما يراد بقولهم: ويل لك، من دعاء على المجرور باللام بعدها، أي دعاء بأن يكون المكروه أدنى شيء منه.

صفحة : 4647

)فأولى(: اسم تفضيل من ولي، وفاعله ضمير محذوف عائد على مقدر معلوم في العرف، فيقدره كل سامع بما يدل على المكروه قال الأصمعي معناه: قاربك ما تكره، قالت الخنساء:

هممت بنفسي كل الهموم فأولى لنفسي أولى لها وكان القانص إذا أفلته الصيد يخاطب الصيد بقوله أولى لك وقد قيل: إن منه قوله تعالى)فأولى لهم(من قوله) فأولى لهم طاعة وقول معروف(في سورة القتال على أحد تأويلين يجعل)طاعة وقول معروف(مستأنفا وليس فاعلا لاسم التفضيل.

وذهب أبو علي الفارسي إلى أن)أولى(علم لمعنى الويل وأن وزنه أفعل من الويل وهو الهلاك، فأصل تصريفه أويل لك، أي أشد هلاكا لك فوقع فيه القلب لطلب التخفيف بأن أخرت الياء إلى آخر الكلمة وصار أولى بوزن أفلح، فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا فقالوا: أولى في صورة وزن فعلى.

والكاف خطاب للإنسان المصرح به غير مرة في الآيات السابقة بطريق الغيبة إظهارا وإضمارا، وعدل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات لمواجهة الإنسان بالدعاء لأن المواجهة أوقع في التوبيخ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: أولى له.

وقوله)فأولى(تأكيد لأولى لك جيء فيه بفاء التعقيب للدلالة على أنه يدعى عليه بأن يعقبه المكروه ويعقب بدعاء آخر.

قال قتادة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد فاستقبله أبو جهل على باب بني مخزوم فاخذ رسول الله فلبب أبا جهل بثيابه وقال له)أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى(قال أبو جهل يتهددني محمد أي يستعمل كلمة الدعاء في إرادة التهديد فوالله إني لأعز أهل الوادي. وأنزل الله تعالى)أولى لك فأولى(كما قال لأبي جهل.

وقوله)ثم أولى لك فأولى(تأكيد للدعاء عليه ولتأكيده السابق.

وجيء بحرف)ثم(لعطف الجملة دلالة على أن هذا التأكيد ارتقاء في الوعيد، وتهديد بأشد مما أفاده التهديد وتأكيده كقوله تعالى)كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون(.

وأحسب أن المراد: كل إنسان كافر كما يقتضيه أول الكلام من قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(إلى قوله)بل الإنسان على نفسه بصيرة(، وما أبو جهل إلا من أولهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم توعده باللفظ الذي أنزله الله تهديدا لأمثاله.

وكلمات المتقدمين في كون الشيء سبب نزول شيء من القرآن كلمات فيها تسامح.

)أيحسب الإنسان أن يترك سدى[36](استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وهو ما ابتدئ به فارتبط بقوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(فكأنه قيل: أيحسب أن لن نجمع عظامه ويحسب أن نتركه في حالة العدم.

وزيد هنا أن مقتضى الحكمة الإلهية إيقاعه بقوله)أن يترك سدى(كما ستعلمه.

والاستفهام إنكاري مثل الذي سبقه في قوله تعالى)أيحسب الإنسان ن لن نجمع عظامه(.

وأصل معنى الترك: مفارقة الشيء شيئا اختياريا من التارك، ويطلق مجازا على إهمال أحد شيئا وعدم عنايته بأحواله وبتعهده، وهو هنا مستعمل في المعنى المجازي.

والمراد بما يترك عليه الإنسان هنا ما يدل عليه السياق، أي حال العدم دون إحياء مما دل عليه قوله تعالى)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(وقوله)ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر(.

وعدل عن بناء فعل يترك للفاعل فبني للنائب إيجازا لأجل العلم بالفاعل من قوله السابق)أن لن نجمع عظامه(فكأنه قال: أيحسب الإنسان أن نتركه دون بعث وأن نهمل أعماله سدى.

فجاء ذكر)سدى(هنا على طريقة الإدماج فيما سبق له الكلام، إيماء إلى أن مقتضى حكمة خلق الإنسان أن لا يتركه خالقه بعد الموت فلا يحييه ليجازيه على ما عمله في حياته الأولى.

وفي إعادة)أيحسب الإنسان(تهيئة لما سيعقبه من دليل إمكان البعث من جانب المادة بقوله)ألم يك نطفة(إلى آخر السورة.

فقوله)أيحسب الإنسان أن يترك سدى(تكرير وتعداد للإنكار على الكافرين تكذيبهم بالبعث، ألا ترى أنه وقع بعد وصف يوم القيامة وما فيه من الحساب على ما قدم الإنسان وأخر.

ومعنى هذا مثل قوله تعالى)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(.

وسدى بضم السين والقصر: اسم بمعنى المهمل ويقال: سدى بفتح السين والضم أكثر وهو اسم يستوي فيه المفرد والجمع يقال: إبل سدى، وجمل سدى ويشتق منه فعل فيقال: أسدى إبله وأسديت إبلي، وألفه منقلبة عن الواو.

ولم يفسر صاحب الكشاف هذه الكلمة وكذلك الراغب في المفردات ووقع)سدى(في موضع الحال من ضمير يترك.

فإن الذي خلق الإنسان في أحسن تأويل وأبدع تركيبه ووهبه القوى العقلية التي لم يعطها غيره من أنواع الحيوان ليستعملها في منافع لا تنحصر أو في ضد ذلك من مفاسد جسيمة، ولا يليق بحكمته أن يهمله مثل الحيوان فيجعل الصالحين كالمفسدين والطائعين لربهم كالمجرمين، وهو العليم القدير المتمكن بحكمته وقدرته أن يجعل إليه المصير، فلو أهمله لفاز أهل الفساد في عالم كساد، ولم يلاق الصالحون من صلاحهم إلا الأنكاد، ولا يناسب حكمة الحكيم إهمال الناس يهيمون في كل وادي، وتركهم مضربا لقول المثل فإن الريح للعادي ولذلك قال في جانب الاستدلال على وقوع البعث)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(، أي لا نعيد خلقه ونبعثه للجزاء كما أبلغناهم، وجاء في جانب حكمته بما يشابه الأسلوب السابق فقال)أيحسب الإنسان أن يترك سدى(مع زيادة فائدة بما دلت عليه جملة)أن يترك سدى(، أي لا يحسب أن يترك غير مرعي بالتكليف كما تترك الإبل، وذلك يقتضي المجازاة. وعن الشافعي: لم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السدى الذي لا يؤمر ولا ينهى اه. وقد تبين من هذا أن قوله)أن يترك سدى(كناية عن الجزاء لأن التكليف في الحياة الدنيا مقصود منه الجزاء في الآخرة.

)ألم يك نطفة من مني يمنى[37] ثم كان علقة فخلق فسوى[38] فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى[39] أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى[40](استئناف هو علة وبيان للإنكار المسوق للاستدلال بقوله)أيحسب الإنسان أن يترك(الذي جعل تكريرا وتأييد لمضمون قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه(الآية، أي أن خلق الإنسان من مادة ضعيفة وتدرجه في أطوار كيانه دليل على إثبات القدرة على إنشائه إنشاء ثانيا بعد تفرق أجزائه واضمحلالها، فيتصل معنى الكلام هكذا: أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ويعد ذلك متعذرا. ألم نبدأ خلقه إذ كوناه نطفة ثم تطور خلقه أطوارا فماذا يعجزنا أن نعيد خلقه ثانيا كذلك، قال تعالى)كما بدأنا أول خلق نعيده(.

وهذه الجمل تمهيد لقوله)أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى(.
وهذا البيان خاص بأحد معنيي الترك في الآية وهو تركه دون إحياء وأكتفي ببيان هذا عن بيان المعنى الآخر الذي قيده قوله) سدى(،أي تركه بدون جزاء على أعماله لأن فائدة الإحياء أن يجازي على عمله.والمعنى: أيحسب أن يترك فانيا ولا تجدد حياته.
ووقع وصف)سدى(في خلال ذلك موقع الاستدلال على لزوم بعث الناس من جانب الحكمة، وانتقل بعده إلى بيان إمكان البعث من جانب المادة،فكان وقوعه إدماجا.
فالإنسان خلق من ماء وطور أطوارا حتى صار جسدا حيا تام الخلقة والإحساس فكان بعضه من صنف الذكور وبعضه من صنف الإناث،فالذي قدر على هذا الخلق البديع لا يعجزه إعادة خلق كل واحد كما خلقه أول مرة بحكمة دقيقة وطريقة أخرى لا يعلمها إلا هو.
والنطفة: القليل من الماء سمي بها ماء التناسل، وتقدم في سورة فاطر.
وأختلف في تفسير معنى)تمنى(فقال كثير من المفسرين معناه:تراق.ولم يذكر في كتب اللغة أن فعل: منى أو أمنى يطلق بمعنى أراق سوى أن بعض أهل اللغة قال في تسمية)منى(التي بمكة إنها سميت كذلك لأنها تراق بها دماء الهدي،ولم يبينوا هل هو فعل مجرد أو بهمزة التعدية.
وأحسب هذا من التلفيقات المعروفة من أهل اللغة من طلبهم إيجاد أصل لاشتقاق الأعلام وهو تكلف صراح ، فاسم)منى(علم مرتجل، وقال ثعلب:سميت من قولهم: منى الله عليه الموت، أي قدره لأنها تنحر فيها الهدايا ومثله عن أبن شميل وعن أبن عيينة. وفسر بعضهم تمنى بمعنى تخلق من قولهم منى الله الخلق،أي خلقهم. والأظهر قول بعض المفسرين أنه مضارع أمنى الرجل فيكون كقوله)أفرأيتم ما تمنون(في سورة الواقعة.
والعلقة :القطعة الصغيرة من الدم المتعقد.

وعطف فعل)كان علقة (بحرف ثم للدلالة على التراخي الرتبي فإن كونه علقة أعجب من كونه نطفة لأنه صار علقة بعد أن كان ماء فاختلط بما تفرزه رحم الأنثى من البويضات فكان من

البويضات فكان من مجموعهما علقة كما تقدم في فائدة التقييد بقوله في سورة النجم)من نطفة إذا تمنى(.

ولما كان تكوينه علقة هو مبدأ خلق الجسم عطف عليه قوله)فخلق(بالفاء، لأن العلقة يعقبها أن تصير مضغة إلى أن يتم خلق الجسد وتنفخ فيه الروح.

وضمير)خلق(عائد إلى)ربك(. وكذلك عطف)فسوى(بالفاء.

والتسوية: جعل الشىء سواء،أي معدلا مقوما قال تعالى)فسواهن سبع سماوات(وقال)الذي خلق فسوى(، أي فجعله جسدا من عظم ولحم.

ومفعول)خلق(ومفعول)سوى(محذوفان لدلالة الكلام عليهما، أي فخلقه فسواه.

وعقب ذلك بخلقه ذكرا أو أنثى زوجين ومنهما يكون التناسل أيضا.

وقرأ الجمهور)تمنى(بالفوقية على أنه وصف ل)نطفة(. وقرأه حفص ويعقوب بالتحتية على أنه وصف)مني(.

وجملة)أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى(واقعة موقع النتيجة من الدليل لأن خلق جسم الإنسان من عدم وهو أمر ثابت بضرورة المشاهدة، أحق بالاستبعاد من إعادة الحياة إلى الجسم بعد الموت سواء بقي الجسم غير ناقص أو نقص بعضه أو معظمه فهو إلى بث الحياة فيه وإعادة ما فني من أجزائه أقرب من إيجاد الجسم من عدم.

والاستفهام إنكار للمنفي إنكار تقرير بالإثبات وهذا غالب استعمال الاستفهام التقريري أن تقع على نفي ما يراد إثباته ليكون ذلك كالتوسعة على المقرر إن أراد إنكارا كناية عن ثقة المتكلم بأن المخاطب لا يستطيع الإنكار.

وقد جاء في هذا الختام بمحسن رد العجز على الصدر، فإن السورة افتتحت بإنكار أن يحسب المشركون استحالة البعث، ويسلسل الكلام في ذلك بأفانين من الإثبات والتهديد والتشريط والاستدلال، إلا أن أفضى إلى استنتاج أن الله قادر على أن يحيي الموتى وهو المطلوب الذي قدم في قوله)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه(.

وتعميم الموتى في قوله)أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى(بعد جريان أسلوب الكلام عل خصوص الإنسان الكافر أو خصوص كافر معين، يجعل جملة)أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى(تذييلا.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإنسان

سميت في زمن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم)سورة هل أتى على الإنسان(.
روى البخاري في باب القراءة في الفجر من صحيحه عن أبي هريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الفجر ب)ألم السجدة(و)هل أتى على الإنسان(.
واقتصر صاحب الإتقان على تسمية هذه السورة)سورة الإنسان(عند ذكر السور المكية والمدنية، ولم يذكرها في عداد السور التي لها أكثر من اسم.
وتسمى)سورة الدهر(في كثير من المصاحف.
وقال الخفاجي تسمى)سورة الأمشاج(، لوقوع لفظ الأمشاج فيها ولم يقع في غيرها من القرآن.
وذكر الطبرسي : أنها تسمى)سورة الأبرار(، لأن فيها ذكر نعيم الأبرار وذكرهم بهذا اللفظ ولم أره لتغييره.
فهذه خمسة أسماء لهذه السورة.
واختلف فيها فقيل هي مكية، وقيل مدنية، وقيل بعضها مكي وبعضها مدني، فعن أبن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل: هي مكية، وهو قول ابن مسعود لأنه كذلك رتبها في مصحفه فيما رواه أبو داود كما سيأتي قريبا.وعلى هذا اقتصر معظم التفاسير ونسبه الخفاجي إلى الجمهور.
وروى مجاهد عن أبن عباس: أنها مدنية، وهو قول جابر بن زيد وحكي عن قتادة أيضا. وقال الحسن وعكرمة والكلبي: هي مدنية إلا قوله)ولا تطع منهم آثما أو كفورا(إلى آخرها، أو قوله)فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم(الخ. ولم يذكر هؤلاء أن تلك الآيات من أية سورة كانت تعد في مكة إلى أن نزلت سورة الإنسان بالمدينة وهذا غريب. ولم يعينوا أنه في أية سورة كان مقروءا.

صفحة : 4650

والأصح أنها مكية فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية)يطعمون الطعام على حبه(نزلت في إطعام علي أبن أبي طالب بالمدينة مسكينا ليلة،ويتيما أخرى، وأسيرا أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملا للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي انه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري، وكثيرا ما حملوا نزول الآية على مثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول كما بيناه في المقدمة الخامسة.

وعدها جابر بن زيد الثامنة والتسعين في ترتيب نزول السور.
وقال: نزلت بعد سورة الرحمان وقبل سورة الطلاق. وهذا جري على ما رآه أنها مدنية.
فإذا كان الأصح أنها مكية أخذا بترتيب مصحف ابن مسعود فتكون الثلاثين أو الحادية والثلاثين وجديرة بأن تعد سورة القيامة أو نحو ذلك حسبما ورد في ترتيب أبن مسعود.
روى أبو داود في باب تحزيب القرآن من سننه عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال:)كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ النظائر السورتين وعد سورا فقال وهل أتى و لا أقسم بيوم القيامة في ركعة . قال أبو داود: هذا تأليف ابن مسعود)أي تأليف مصحفه(: واتفق العادون على عد آيها إحدى وثلاثين.

أغراضها
التذكير بأن كل إنسان كون بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.
وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرا لخالقه ومحذر من الإشراك به.
وإثبات الجزاء على الحلين مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالتيه والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.
وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره.
وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها اصطفاه له وبإقبال على عبادته.
والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار.
)هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا[1]
(استفهام تقريري والاستفهام من أقسام الخطاب وهو هنا موجه إلى غير معين ومستعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما تقرر به إلى إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين.
وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام.

فجملة)هل أتى على الإنسان(تمهيد وتوطئة للجملة التي بعدها وهي)إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج(الخ.
و)هل(حرف يفيد الاستفهام ومعنى التحقيق، وقال جمع أصل) هل(إنها في الاستفهام مثل)قد(في الخبر، وبملازمة)هل(الاستفهام كثر في الكلام حذف حرف الاستفهام معها فكانت فيه بمعنى)قد(، وخصت بالاستفهام فلا تقع في الخبر، ويتطرق إلى الاستفهام بها ما يتطرق إلى الاستفهام من الاستعمالات. وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى)هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ضلل من الغمام(في سورة البقرة.
وقد علمت أن حمل الاستفهام على معنى التقرير يحصل هذا المعنى.
والمعنى: هل يقر كل إنسان موجود أنه كان معدوما زمانا طويلا، فلم يكن شيئا يذكر، أي لم يكن يسمى ولا يتحدث عنه بذاته وإن كان قد يذكر بوجه العموم في نحو قول الناس: المعدوم متوقف وجوده على فاعل. وقول الواقف: حبست على ذريتي، ونحوه فإن ذلك ليس ذكرا لمعين ولكنه حكم على الأمر المقدر وجوده . وهم لا يسعهم إلا الإقرار بذلك، أكتفي بتوجيه هذا التقرير إلى كل سامع.
وتعريف)الإنسان(للاستغراق مثل قوله)إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا(الآية، أي هل أتى على كل إنسان حين كان فيه معدوما.
والدهر: الزمان الطويل أو الزمان المقارن لوجود العالم الدنيوي.
والحين: مقدار مجمل من الزمان يطلق على ساعة وعلى أكثر، وقد قيل إن أقصى ما يطلق عليه الحين أربعون سنة ولا أحسبه.

صفحة : 4651

وجملة)لم يكن شيئا مذكورا(يجوز أن تكون نعتا ل)حين(بتقدير ضمير رابط بمحذوف لدلالة لفظ)حين(على أن العائد مجرور بحرف الظرفية حذف مع جاره كقوله تعالى)واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا(إذ التقدير: لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئا، فالتقدير هنا: لم يكن فيه الإنسان شيئا مذكورا، أي كان معدوما في زمن سبق.
ويجوز أن تكون الجملة حالا من)الإنسان(، وحذف العائد كحذفه في تقدير النعت.
والشيء: اسم للموجود.

والمذكور: المعين الذي هو بحيث يذكر، أي يعبر عنه بخصوصه ويخبر عنه بالأخبار والأحوال. ويتعلق لفظه الدال عليه بالأفعال.
فأما المعدوم فلا يذكر لأنه لا تعين له فلا يذكر إلا بعنوانه العام كما تقدم آنفا، وليس هذا هو المراد بالذكر هنا .
ولهذا نجعل)مذكورا(وصفا ل)شيئا(أريد به تقييد)شيئا(، أي شيئا خاصا وهو الموجود المعبر عنه باسمه المعين له.
)إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا[2](استئناف بياني مترتب على التقرير الذي دل عليه)هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا(لما فيه من التشويق.
والتقرير يقتضي الإقرار بذلك لا محالة لأنه معلوم بالضرورة، فالسماع يتشوف لما يرد بعد هذا التقرير فقيل له إن الله خلقه بعد أن كان معدوما فأوجد نطفة كانت معدومة ثم استخرج منها إنسانا، فثبت تعلق الخلق بالإنسان بعد عدمه.
وتأكيد الكلم بحرف)إن(لتنزيل المشركين منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لعدم جريهم على موجب العلم حيث عبدوا أصناما لم يخلقوهم.
والمراد ب)الإنسان(مثل ما أريد به من قوله)هل أتى على الإنسان(أي كل نوع الإنسان.
وأدمج في ذلك كيفية خلق الإنسان من نطفة التناسل لما في تلك الكيفية من دقائق العلم الإلهي والقدرة والحكمة.
وقد تقدم معنى النطفة في سورة القيامة.
وأمشاج: مشتق من المشج وهو الخلط، أي نطفة مخلوطة قال تعالى)سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون(وذلك تفسير معنى الخلط الذي أشير إليه هنا.
وصيغة)أمشاج(ظاهرها صيغة جمع وعلى ذلك حملها الفراء وابن السكيت والمبرد، فهي إما جمع مشج بكسر فسكون بوزن عدل، أي ممشوج، أي مخلوط مثل ذبح، وهذا ما اقتصر عليه في اللسان والقاموس، أو جمع مشج بفتحتين مثل سبب وأسباب أو جمع مشج بفتح فكسر مثل كتف وأكتاف.
والوجه ما ذهب إليه صاحب الكشاف:أن)أمشاج(مفرد كقولهم: برمة أعشار وبرد أكياش بهمزة كاف وتحتية ألف وشين معجمة الذي أعيد غزله مرتين . قال ولا يصح أن يكون أمشاج جمع مشج بل هما أي مشج وأمشاج مثلان في الإفراد اه. وقال بعض الكاتبين: إنه خالف كلام سيبويه. وأشار البيضاوي إلى ذلك، وأحسب أنه لم ير كلام سيبويه صريحا في منع أن يكون)أمشاج(مفردا لأن

أثبت الإفراد في كلمة أنعام والزمخشري معروف بشدة متابعة سيبويه.
فإذا كان)أمشاج(في هذه الآية مفردا كان على سورة الجمع كما في الكشاف. فوصف نطفة به غير محتاج إلى تأويل، وإذا كان جمعا كما جرا عليه كلام الفراء وابن السكيت والمبرد، كان وصف النطفة به باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص، فلذلك يصير كل جزء من النطفة عضوا فوصفوا النطفة بجمع الاسم للمبالغة أي شديدة الاختلاط.
وهذه الأمشاج منها ما هو أجزاء كيميائية نباتية أو ترابية ومنها ما هو عناصر قوى الحياة.
وجملة)نبتليه(في موضع الحال من الإنسان وهي حالة مقدرة، أي مريدين ابتلاءه في المستقبل، أي بعد بلوغه طور العقل والتكليف، وهذه الحال كقولهم: مررت برجل معه صقر صائدا به غدا.
وقد وقعت هذه الحال معترضة بين جملة)خلقنا(وبين)فجعلناه سميعا بصيرا(لأن الابتلاء، أي التكليف الذي يظهر به امتثاله أو عصيانه إنما يكون بعد هدايته إلى السبيل الخير، فكان مقتضى الظاهر أن يقع)نبتليه(بعد جملة)إن هديناه السبيل(، ولكنه قدم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السعادة والشقاوة.
وجيء بجملة)إنا هديناه السبيل(بيانا لجملة)نبتليه(تفننا في نظم الكلام.

صفحة : 4652

وحقيقة الابتلاء: الاختبار لتعرف حال الشيء وهو هنا كناية عن التكليف بأمر عظم لأن الأمر العظيم يظهر تفاوت المكلفين به في الوفاء بإقامته.
وفرع على خلقه من نطفة أنه جعله سميعا بصيرا، وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التي كانت أصل تفكيره وتدبيره، ولذلك جاء وصفه بالسميع البصير بصيغة المبالغة ولم يقل فجعلناه: سامعا مبصرا، لأن سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلا وتمييزا في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان، فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه.
من سمع وبصر الحيوان، فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل وببصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه.

وهذا تخلص إلى ما ميز الله به الإنسان من جعله تجاه التكليف وأتباع الشرائع وتلك خصيصية الإنسان التي بها ارتكزت مدينته وأنتظم جامعاته، ولذلك أعقبت هذه الجملة بقوله)إنا هديناه السبيل(: الآيات.

)إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا[3](استئناف بياني لبيان ما نشأ عن جملة)نبتليه(ولتفصيل جملة)فجعلناه سميعا بصيرا(، وتخلص إلى الوعيد على الكفر والوعد على الشكر.

وهداية السبيل: تمثيل لحال المرشد. والسبيل: الطريق الجادة إلى ما فيه النفع بواسطة الرسل إلى العقائد الصحية والأعمال الصالحة التي هي سبب فوزه بالنعيم الأبدي، بحال من يدل السائر على الطريق المؤدية إلى مقصده من سيره.

وهذا التمثيل ينحل إلى تشبيهات أجزاء الحالة المركبة المشبهة بأجزاء الحالة المركبة المشبهة بأجزاء الحالة المشبه بها، فالله تعالى كالهادي، والإنسان يشبه السائر المتحير في الطريق، وأعمال الدين تشبه الطريق، وفوز المتتبع لهدي الله يشبه البلوغ إلى المكن المطلوب.

وفي هذا النداء على أن الله أرشد الإنسان إلى الحق وأن بعض الناس أدخلوا على أنفسهم ضلال الاعتقاد ومفاسد الأعمال فمن برأ نفسه من ذلك فهو الشاكر وغيره الكفور، وذلك تقسيم بحسب حال الناس في أول البعثة، ثم ظهر من خلطوا عملا صالحا وأخر سيئا.

وتأكيد الخبر ب)إن(للرد على المشركين الذين يزعمون أن ما يدعوهم إليه القران باطل.

و)إما شاكرا وإما كفورا(حالان من ضمير الغيبة فيه)هديناه(، وهو ضمير)الإنسان(.

و)إما(حرف تفصيل، وهو حرف بسيط عند الجمهور. وقال سيبويه: هو مركب من حرف)إن(الشرطية و)ما(النافية. وقد تجردت) إن(بالتركيب على الشرطية كما تجردت)ما(عن النفي، فصار مجموع)إما(حرف تفصيل ولا عمل لها في الاسم بعدها ولا تمنع العامل الذي قبلها عن العمل في معموله الذي بعدها فهي في ذلك مثل)آل(حرف التعريف. وقدر بعض النحاة)إما(الثانية حرف عطف وهو تحكم إذ جعلوا الثانية عاطفة وهي أخت الأولى، وإنما العاطف الواو وإما مقحمة بين الاسم ومعموله كما في قول تأبط شرا:

هما خطتا إما إسـار ومـنة وإما دم والموت بالحر أجدر فإن الاسمين بعد)إما(في موضوعين من البيت مجروران بالإضافة ولذلك حدثت النون من قوله: هما خطتا، وذلك أفصح كما جاء في هذه الآية.

قال ابن جني أما من جر)إسار(فإنه حذف النون للإضافة ولم يعتد)إما(فاصلا بين المضاف والمضاف إليه وعلى هذا تقول: هما إما غلاما زيد وإما عمروا وأجود من هذا أن تقول: هما خطتا إسار ومنة وإما خطتا دم ثم قال: وأما الرفع فطريق المذهب، وظاهره أمره أنه على لغة من حذف النون لغير الإضافة فقد حكي ذلك الخ.

ومقتضى كلامه أن البيت روي بالوجهين الجر والرفع وقريب منه كلام المرزوقي وزاد فقال وحذف النون إذا رفعت إسار استطالة للاسم كأنه استطال خطتا ببدله وهو قوله: إما إسار الخ.

والمعنى: إنا هديناه السبيل في حال أنه متردد أمره بين أحد هذين الوصفين وصف شاكر ووصف كفور، فأحد الوصفين على الترديد مقارن لحال إرشاده إلى السبيل، وهي مقارنة عرفية، أي عقب التبليغ والتأمل، فإن أخذ بالهدى كان شاكرا وإن أعرض كان كفورا كمن لم يأخذ بإرشاد من يهديه الطريق فيأخذ في طريق يلقي به السباع أو اللصوص، وبذلك تم التمثيل الذي في قوله)إنا هديناه السبيل(.

)إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا[4](

صفحة : 4653

أريد التخلص إلى جزاء الفريقين الشاكر والكفور.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن قوله)إما شاكرا وإما كفورا(يثير تطلع السامعين إلى معرفة آثار هذين الحالين المتردد حاله بينهما، فابتدأ بجزاء الكافر لأن ذكره أقرب.

وأكد الخبر عن الوعيد بحرف التأكيد لإدخال الروع عليهم لأن المتوعد إذا أكد كلامه بمؤكد فقد أذن بأنه لا هوادة له في وعيده.

وأصل)أعتدنا(أي أعددنا، بدالين، أي هيئنا للكافرين، يقال: اعتد كما يقال: أعد، قال تعالى)وأعتدت لهن متكئا(.

وقد تردد أيمة اللغة في أن أصل الفعل بدالين أو بتاء ودال فلم يجزموا بأيهما الأصل لكثرة ورود فعل: أعد وفعل اعتد في الكلام والأظهر أنهما فعلان نشئا من لغتين غير أن الاستعمال خص الفعل ذا التاء بعدة الحرب فقالوا: عتاد الحرب ولم يقولوا عداد.

وأما العدة بضم العين فتقع على كل ما يعد ويهيأ، يقال: أعد لكل حال عدة. ويطلق العتاد على ما يعد من الأمور.

والأكثر أنه إذا أريد الإدغام جيء بالفعل الذي عينه دال وإذا وجد مقتضى فك الإدغام لموجب مثل ضمير المتكلم جيء بالفعل الذي عينه تاء.

والسلاسل: القيود المصنوعة من حلق الحديد يقيد بها الجناة والأسرى.
والأغلال: جمع غل بضم الغين، وهو حلقة كبيرة من حديد توضع في رقبة المقيد، وتناط بها السلسلة قال تعالى)إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل(فالأغلال والسلاسل توضع لهم عند سوقهم إلى جهنم.
والسعير: النار المسعرة، أي التي سعرها الموقدون بزيادة الوقود ليشتد التهابها فهو في الأصل وصف بمعنى اسم المفعول جعل علما على جهنم. وقد تقدم عند قوله)كلما خبت زدناهم سعيرا(في سورة الإسراء.
وكتب)سلاسلا(في المصحف الإمام في جميع النسخ التي أرسلت إلى الأمصار بألف بعد اللام الثانية ولكن القراء اختلفوا في قراءتها، فنافع والكسائي وهشام عن ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر قرأوا)سلاسلا(منونا في الوصل ووقفوا عليه كما يوقف على المنون المنصوب، وإذا كان حقه أن يمنع من الصرف لأنه على صيغة منتهى الجمع تعين أن قراءته بالتنوين لمراعاة مزاوجته مع الاسمين الذين بعده وهما)أغلالا(و)سعيرا(، والمزاوجة طريقة في فصيح الكلام، ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم لنساء ارجعن مأزورات غير مأجورات فجعل مأزورات مهموزا وحقه أن يكون بالواو لكنه همز مزاوجة مأجورات، وكذلك قوله في حديث سؤال الملكين الكافر فيقال له: لا دريت ولا تليت ، وكان الأصل أن يقال: ولا تلوت. ومنه قول ابن مقبل أو القلاح:
هتاك أخبـية ولاج أبـوبة يخالط البر منه الجد واللينا فقوله أبوبه جمع باب وحقه أن يقول أبواب.
وهذه القراءة متينة يعضدها رسم المصحف وهي جارية على طريقة عربية فصيحة. وقرأه الباقون بدون تنوين في الوصل.
واختلفوا في قراءته إذا وقفوا عليه فأكثرهم قرأه في الوقف بدون ألف فيقول)سلاسل(في الوقف. وقرأه أبو عمرو ورويس عن يعقوب بالألف على اعتباره منون في الوصل.
قرأه البزي عن ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر وحفص عن عاصم في الوقف بجواز الوجهين بالألف وبتركها.
فأما الذين لم ينونوا)سلاسلا(في الوصل ووقفوا عليه بألف بعد لامه الثانية.
وهما أبو عمرو ورويس عن يعقوب فمخالفة روايتهم برسم المصحف محمولةعلى أن الرسم جرى على اعتبار حالة الوقف وذلك كثير فكتابة الألف بعد اللام لقصد التنبيه على إشباع الفتحة

عند الوقف لمزاوجة الفواصل في الوقف لأن الفواصل كثيرا ما تعطي أحكام القوافي والأسجاع.
وبعد فالقراءات روايات مسموعة ورسم المصحف سنة مخصوصة به وذكر الطيبي: أن بعض العلماء اعتذر عن اختلاف القراء في قوله)سلاسلا(بأنه من الاختلاف في كيفية الأداء كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة وأن الاختلاف في ذلك لا ينافي التواتر.
)إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا[5] عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا[6](هذا استئناف بياني ناشئ عن الاستئناف الذي قبله من قوله)إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا(الخ. فإن من عرف ما عد للكفور من الجزاء يتطلع إلى معرفة ما أعد للشاكر من الثواب.

صفحة : 4654

وآخر تفصيله عن تفصيل جزاء الكفور مع أن)شاكرا(مذكور قبل)كفورا(، على طريقة اللف والنشر المعكوس ليتسع المجال لإطناب الكلام على صفة جزاء الشاكرين وما فيه من الخير والكرامة، تقريبا للموصوف من المشاهدة المحسوسة.
وتأكيد الخبر عن جزاء الشاكرين لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنين خيرا منهم في عالم الخلود، والإفادة الاهتمام بهذه البشارة بالنسبة إلى المؤمنين.
والأبرار: هم الشاكرون، عبر عنهم بالأبرار زيادة في الثناء عليهم.
والأبرار: جمع بر بفتح الباء، وجمع بار أيضا مثل شاهد وإشهاد، والبار أو البر المكثر من البر بكسر الباء وهو فعل الخير، ولذلك كان البر من أوصاف الله تعالى قال تعالى)إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم(.
ووصف بر أقوى من بار في الاتصاف بالبر، ولذلك يقال: الله بر، ولم يقل: الله بار.
ويجمع بر على بررة. ووقع في مفردات الراغب: أن بررة أبلغ أبرار.
وابتدأ في وصف نعيمهم بنعيم لذة الشرب من خمر الجنة لما للذة الخمر من الاشتهار بين الناس، وكانوا يتنافسون في تحصيلها.
والكأس: بالهمز الإناء المجعول للخمر فلا يسمى كأسا إلا كان فيه خمر، وقد تسمى الخمر كأسا على وجه المجاز المرسل بهذا الاعتبار كما سيجيء قريبا قوله تعالى)ويسقون فيها كأسا كان

مزاجها زنجبيلا(فيجوز أن يراد هنا آنية الخمر فتكون)من(للابتداء وإفراد كأس للنوعية، ويجوز أن تراد الخمر فتكون)من(للتبعيض.
وعلى التقديرين فكأس مراد به الجنس وتنوينه لتعظيمه في نوعه.
والمزاج: بكسر الميم ما يمزج به غيره، أي يخلط وكانوا يمزجون الخمر بالماء إذا كانت الخمر معتقة شديدة ليخففوا من حدتها وقد ورد ذكر مزج الخمر في أشعار العرب كثيرا.
وضمير)مزاجها(عائد إلى)كأس(.
فإذا أريد بالكأس إناء الخمر فالإضافة لأدنى ملابسة، أي مزاج ما فيها، وإذا أريدت الخمر فالإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله.
والكافور: زيت يستخرج من شجرة تشبه الدفلة تنبت في بلاد الصين وجاوة يتكون فيها إذا طالت مدتها نحوا من مائتي سنة فيغلى حطبها ويستخرج منه زيت يسمى الكافور. وهو ثخن قد يتصلب فيصير كالزبد وإذا يقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذا يتخمر فيصير مسكرا.
والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش.
فقيل أن المزاج هنا مراد به الماء والإخبار عنه بأنه كافور من قبيل التشبيه البليغ، أي في اللون أو ذكاء الرائحة، ولعل الذي دعا بعض المفسرين إلى هذا إن المتعارف بين الناس في طيب الخمر أن يوضع المسك في جوانب الباطية قال النابغة:
وتسقى إذا ما شئت غير مصـرد
بزوراء في حافاتها المسك كارع ويختم على آنية الخمر بخاتم من مسك كما في قوله تعالى في صفة أهل الجنة)يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك(. وكانوا يجعلون الفلفل في الخمر لحسن رائحته ولذعة حرارته لذعة لذيذة في اللسان، كما قال أمرؤ القيس:
صبحن سلافا من رحيق مفلفل ويحتمل أن يكونوا يمزجون الخمر بماء فيه الكافور أوبزيته فيكون المزاج في الآية على حقيقته مما تمزج به الخمر ولعل ذلك كان من شأن أهل الترف لأن الكافور ثمين وهو معدود في العطور.
ومن المفسرين من قال: إن كافور اسم عين في الجنة لأجل قوله عقبه)عينا يشرب بها عباد الله(وستعلم حق المراد منه.
وإقحام فعل)كان(في جملة الصفة بقوله)كان مزاجها كافورا(لإفادة أن ذلك مزاجها لا يفارقها إذ كان معتاد الناس في الدنيا ندرة ذلك المزاج لغلاء ثمنه وقلة وجدانه.
وانتصب)عينا(عن البدل من)كافورا(أي ذلك الكافور تجري به عين في الجنة من ماء محلول فيه أو من زيته مثل قوله)وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى(. وعدي فعل)يشرب(بالباء وهي باء الإلصاق لأن

الكافور يمزج به شرابهم. فالتقدير: عينا يشرب عباد الله خمرهم بها، أي مصحوبا بمائها، وذهب الأصمعي إلى أن الباء في قوله تعالى)يشرب بها عباد الله(بمعنى)من(التبعيضية ووافقه الفارسي وابن قتيبة وابن مالك، وعد في كتبه ذلك من معاني الباء ونسب إلى الكوفيين.

و)عباد الله(مراد بهم: الأبرار. وهو إظهار في مقام الإضمار للتنويه بهم بإضافة عبوديتهم إلى الله تعالى إضافة تشريف.

صفحة : 4655

والفجير: فتح الأرض عن الماء أي استنباط الماء الغزير وأطلق هنا على الاستقاء منها بلا حد ولا نضوب فكان كل واحد يفجر لنفسه ينبوعا وهذا من الاستعارة .

وأكد فعل)يفجرونها تفجيرا(ترشيحا للاستعارة.

)يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا[7](اعتراض بين جملة)يشربون من كأس(الخ وبين جملة)ويطاف عليهم بآنية من فضة(الخ. وهذا الاعتراض استئناف بياني هو جواب عن سؤال من شأن الكلام السابق أن يثيره في نفس السامع المغتبط بأنه ينال مثل ما نالوا من النعيم والكرامة في الآخرة. فيهتم بأن يفعل مثلما فعلوا، فذكر بعض أعمالهم الصالحة التي هي من آثار الإيمان مع التعريض لهم بالاستزادة منها في الدنيا.

والكلام إخبار عنهم صادر في وقت نزول هذه الآيات، بعضه وصف لحالهم في الآخرة وبعضه وصف لبعض حالهم في الدنيا الموجب لنوال ما نالوه في الآخرة، فلا حاجة إلى قول الفراء: إن في الكلام إضمارا. وتقديره: كانوا يوفون بالنذر.

وليست الجملة حالا من)الأبرار(وضميرهم لأن الحال قيد لعاملها فلو جعلت حالا لكانت قيدا ل)يشربون(، وليس وفاؤهم بالنذر بحاصل في وقت شربهم من خمر الجنة بل هو بما أسلفوه في الحياة الدنيا.

والوفاء: أداء ما وجب على المؤدي وافيا دون نقص ولا تقصير فيه.

والنذر: ما يعتزمه المرء ويعقد عليه نيته، قال عنترة:

والناذرين إذ لم ألقهما دمي والمراد به هنا ما عقدوا عليه عزمهم من الإيمان والامتثال وهو ما استحقوا به صفة)الأبرار(.

ويجوز أن يراد ب)النذر(ما ينذرونه من فعل الخير المتقرب به إلى الله، أي ينشئون النذور بها ليوجبوها على أنفسهم.

وجيء بصيغة المضارع للدلالة على تجدد وفائهم بما عقدوا عليه ضمائرهم من الإيمان والعمل الصالح، وذلك مشعر بأنهم يكثرون نذر الطاعات وفعل القربات ولولا ذلك لما كان الوفاء بالنذر موجا الثناء عليهم.

والتعريف في)النذر(تعريف الجنس فهو يعم كل نذر.

وعطف على)يوفون بالنذر(قوله)ويخافون يوما كان شره مستطيرا(لأنهم لما وصفوا بالعمل بما ينذرونه أتبع ذلك بذكر حسن نيتهم وتحقق إخلاصهم في أعمالهم لأن الأعمال بالنيات فجمع لهم بهذا صحة الاعتقاد وحسن الأعمال.

وخوفهم اليوم مجاز عقلي جرى في تعليق اليوم بالخوف لأنهم إنما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب فعلق فعل الخوف بزمان الأشياء المخوفة.

وانتصب)يوما(على المفعول به ل)يخافون(ولا يصح نصبه على الظرفية لأن المراد بالخوف خوف في الدنيا من ذنوب تجر إليهم العقاب في ذلك اليوم. وليس المراد أنهم يخافون في ذلك اليوم فإنهم في ذلك اليوم آمنون.

ووصف اليوم بأن له شرا مستطيرا وصفا مشعرا بعلة خوفهم إياه. فالمعنى: إنهم يخافون شر ذلك اليوم فيتجنبون ما يفضي بهم إلى شره من الأعمال المتوعد عليها بالعقاب.

والشر: العذاب والجزاء السوء.

والمستطير: هو اسم فاعل من استطار القاصر، والسين والتاء في استطار للمبالغة وأصله طار مثل استكبر. والطيران مجازي مستعار لانتشار الشيء وامتداده تشبيها له بانتشار الطير في الجو، ومنه قولهم: الفجر المستطير وهو الفجر الصادق الذي ينتشر ضوءه في الأفق ويقال: استطار الحريق إذ انتشر وتلاحق.

وذكر فعل)كان(للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه وإلا فإن شر ذلك اليوم ليس واقعا في الماضي وإنما يقع بعد مستقبل بعيد، ويجوز أن يجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه.

وصيغة)يخافون(دالة على تجدد خوفهم شر ذلك اليوم على نحو قوله)يوفون بالنذر(.

)ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا[8] إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا[9] إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا[10](خصص الإطعام بالذكر لما في إطعام المحتاج من إيثاره على النفس كما أفاد قوله)على حبه(.

والتصريح بلفظ الطعام مع أنه معلوم من فعل)يطعمون(توطئة ليبنى عليه الحال وهو)على حبه(فإنه لو قيل: ويطعمون مسكينا ويتيما وأسيرا لفات في قوله)على حبه(من معنى إيثار المحاويج على النفس، على أن ذكر الطعام بعد)يطعمون(يفيد تأكيدا مع استحضار هيئة الإطعام حتى كأن السامع يشاهد الهيئة.

و)على حبه(في موضع الحال من ضمير)يطعمون(.

و)على(بمعنى)مع(، وضمير)حبه(راجع للطعام، أي يطعمون الطعام مصحوبا بحبه. أي مصاحبا لحبهم إياه وحب الطعام هو اشتهاؤه.

فالمعنى: أنهم يطعمون طعاما هم محتاجون إليه.

ومجيء)على(بمعنى)مع(ناشئ عن تمجز في الاستعلاء، وصورته أن مجرور حرف)على(في مثله أفضل من معمول متعلقها فنزل منزلة المعتلي عليه.

والمسكين: المحتاج. واليتيم: فاقد الأب وهو مظنة الحاجة لأن أحوال العرب كانت قائمة على اكتساب الأب للعائلة بكدحه فإذا فقد الأب تعرضت العائلة للخصاصة.

وأما الأسير فإذ قد كانت السورة كلها مكية قبل عزة المسلمين، فالمراد من الأسير العبد من المسلمين إذ كان المشركون قد أجاعوا عبيدهم الذين أسلموا مثل بلال وعمار وأمه وربما سيبوا بعضهم إذا أضجرهم تعذيبهم وتركوهم بلا نفقة.

والعبودية تنشأ من الأسر فالعبد أسير ولذلك يقال له العاني أيضا قال النبي صلى الله عليه وسلم فكوا العاني وقال عن النساء إنهن عوان عندكم على طريقة التشبيه وقال سحيم عبد بني الحسحاس:

رأت قتبا رثا وسحق عمامة وأسود

هما ينكر الناس عانيا يريد عبدا. وذكر القرطبي عن الثعلبي: قال أبو سعيد الخدري قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم)ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا(فقال: المسكين الفقير، واليتيم: الذي لا أب له، والأسير: المملوك والمسجون . ولم أقف على سند هذا الحديث.

وبهذا تعلم أن لا شاهد في هذه الآية لجعل السورة نزلت بالمدينة وفي الأسارى الذين كانوا في أسر المسلمين في غزوة بدر.

وجملة)إنما نطعمكم لوجه الله(إلى آخرها مقول قول محذوف تقديره: يقولون لهم، أي للذين يطعمونهم فهو في موضع الحال من

ضمير)يطعمون(، وجملة)لا نريد منكم جزاء ولا شكورا(مبينة لمضمون جملة)إنما نطعمكم لوجه الله(.
وجملة)إنا نخاف من ربنا(إلى آخرها واقعة موقع التعليل لمضمون جملة)لا نريد منكم جزاء ولا شكورا(.
والمعنى: إنهم يقولون ذلك لهم تأنيسا لهم ودفعا لانكسار النفس الحاصل عند الإطعام، أي ما نطعمكم إلا استجابة لما أمر الله، فالمطعم لهم هو الله.
فالقول قول باللسان، وهم ما يقولونه إلا وهو مضمر في نفوسهم. وعن مجاهد أنه قال: ما تكلموا به ولكن علمه الله فأثنى به عليهم.
فالقصر المستفاد من)إنما(قصر قلب مبني على تنزيل المطعمين منزلة من يضن أن من أطعمهم يمن عليهم ويريد منهم الجزاء والشكر بناء على المتعارف عندهم في الجاهلية. والمراد بالجزاء: ما هو عوض عن العطية من خدمة وإعانة، وبالشكور ذكرهم بالمزية.
والشكور: مصدر بوزن الفعول كالقعود والجلوس، وإنما اعتبر بوزن الفعول الذي هو مصدر فعل اللازم لأن فعل الشكر لا يتعدى للمشكور بنفسه غالبا بل باللام يقال: شكرت لك قال تعالى) واشكروا لي(.
وأما قوله)إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا(فهو مقول لقول يقولونه في نفوسهم أو ينطق به بعضهم مع بعض وهو حال من ضمير يخافون أي يخافون ذلك اليوم في نفوسهم قائلين)إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا(، فحكى وقوله)إنما نطعمكم لوجه الله(وقولهم)إنا نخاف(الخ. على طريقة اللف والنشر المعكوس والداعي إلى عكس النشر مراعاة حسن تنسيق النظم ليكون الانتقال من ذكر الإطعام إلى ما يقولونه للمطعمين والانتقال من ذكر خوف يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله إياهم من شر ذلك اليوم وما يلقونه فيه من النضرة والسرور والنعيم.
فيجوز أن يكون)من ربنا(ظرفا مستقرا وحرف)من(ابتدائية وهو من حال)يوما(قدم عليه، أي نخاف يوما عبوسا قمطريرا حال كونه من أيام ربنا، أي من أيام تصاريفه.
ويجوز أن تكون)من(تجريدية كقولك: لي من فلان صديق حميم. ويكون يوما منصوبا على الظرفية وتنويه للتعظيم، أي نخافه في يوم شديد.

وعبوسا: منصوبا على المفعول بفعل)نخاف(، أي نخاف غضبان شديد الغضب هو ربنا، فيكون في التجريد تقوية للخوف إذ هو كخوف من شيئين وتلك نكتة التجريد ، أو يكون)عبوسا(حالا) من ربنا(.

ويجوز أن تجعل)من(لتعدية فعل)نخاف(كما عدي في قوله تعالى)فمن خاف من موص جنفا(. وينتصب يوما على المفعول به لفعل)نخاف(فصار لفعل)نخاف(معمولان. و)عبوسا(صفة ل)يوما(، والمعنى: نخاف عذاب يوم هذه صفته، ففيه تأكيد الخوف بتكرير متعلقة ومرجع التكرير إلى كونه خوف الله لأن اليوم يوم عدل الله وحكمه.

والعبوس: صفة مشبهة لمن هو شديد العبس، أي كلوح الوجه وعدم انطلاقه، ووصف اليوم بالعبوس على معنى الاستعارة، شبه اليوم الذي تحدث فيه حوادث تسوءهم برجل يخالطهم شرس الأخلاق عبوسا في معاملته.

والقمطرير: الشديد الصعب من كل شيء. وعن ابن عباس القمطرير المقبض بين عينيه مشتق من قمطر القاصر إذا اجتمع، أو قمطر المتعدي إذا شد القربة بوكاء ونحوه، ومنه سمي السفط الذي توضع فيه الكتب قمطرا وهو كالمحفظة. وميم قمطرير أصلية فوزنه فعلليل مثل خندريس وزنجبيل، يقال: قمطر للشر، إذا تهيأ له وجمع نفسه.

والجمهور جعلوا)قمطريرا(وصف)يوما(ومنهم من جعلوه وصف) عبوسا(أي شديد العبوس.

وهذه الآية تعم جميع الأبرار وعلى ذلك التحم نسجها، وقد تلقفها القصاصون والدعاة ووضعوا لها قصصا مختلفة وجاؤوا بأخبار موضوعة وأبيات مصنوعة فمنهم من زعم أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما في قصة طويلة ذكرها الثعلبي والنقاش وساقها القرطبي بطولها ثم زيفها. وذكر عن الحكيم الترمذي أنه قال في نوادر الأصول: هذا حديث مزوق مزيف وأنه يشبه أن يكون من أحاديث أهل السجون.

وقيل نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصاري، وقيل في رجل غيره من الأنصار، وقد استوفي ذلك كله القرطبي في تفسيره فلا طائل تحت اجتلابه، وصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أهل لأن ينزل القرآن فيهم إلا أن هذه الأخبار ضعيفة موضوعة.

)فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نظرة وسرورا[11] وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا[12] متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا[13] ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا[14](تفريع على قوله)يوفون بالنذر(إلى)قمطريرا(.

وفي هذا التفريع تلوين للحديث عن جزاء الأبرار وأهل الشكور، وهذا برزخ للتخلص إلى عود الكلام على حسن جزاءهم أن الله وقاهم شر ذلك اليوم وهو الشر لمستطير المذكور آنفا، وقاهم إياه جزاء على خوفهم إياه وأنه لقاهم نظرة وسرورا جزاء على ما فعلوا من خير.

وأدمج في ذلك قوله)بما صبروا(الجامع لأحوال التقوى والعمل الصالح كله لأن جميعه لا يخلوا عن تحمل النفس لترك محبوب أو فعل ما فيه كلفة، ومن ذلك إطعام الطعام على حبه.

و)لقاهم(معناه: جعلهم يلقون نضرة وسرورا، أي جعل لهم نظرة وهي حسن البشرة، وذلك يحصل من فرح النفس ورفاهية العيش قال تعالى)وجوه يومئذ ناضرة(فمثل إلقاء النضرة على وجوههم بزج أحد إلى لقاء أحد على طريقة التمثيل.

وضمير الغائبة و)نضرة(مفعولا)لقى(من باب كسا.

وبين)وقاهم(و)لقاهم(الجناس المحرف.

وجملة)وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا(، عطف على جملة) فوقاهم(وجملة)ولقاهم(لتماثل الجمل الثلاث في الفعلية والمضي وهما محسنان من محسنات الوصل.

والحرير: اسم لخيوط من مفرزات دودة مخصوصة، وتقدم الكلام عليه في سورة فاطر.

وكان الجزاء برفاهية العيش إذ جعلهم في أحسن المساكن وهو الجنة، وكساهم أحسن الملابس وهو الحرير الذي لا يلبسه إلا أهل فرط اليسار، فجمع لهم حسن الظرف الخارج وحسن الظرف المباشر وهو اللباس.

والمراد بالحرير هنا: ما ينسج منه.

ومتكئين: حال من ضمير الجمع في)جزاهم(، أي هم في الجنة متكئون على الأرائك.

والاتكاء: جلسة بين الجلوس والاضطجاع يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجليه وهي جلسة ارتياح، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم أما أنا فلا آكل متكئا وتقدم ذلك في سورة يوسف عند قوله تعالى) وأعتدت لهن متكئا(.

والأرائك: جمع أريكة بوزن سفينة. والأريكة: سرير عليه وسادة معها ستر وهو حجلته، والحجلة بفتحتين وبتقديم الحاء المهملة على

الجيم: كلة تنصب فوق السرير لتقي الحر والشمس، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حجلة.
وقيل: كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو يسمى أريكة وإن لم تكن له حجلة، وفي الإتقان عن ابن الجوزي: أن الأريكة السرير بالحبشية فزاده السيوطي على أبيات ابن السبكي وابن حجر في جمع المعرب في القرآن.
وجملة)لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا(حال ثانية من ضمير الغائب في)جزاهم(أو صفة)جنة(.
والمراد بالشمس: حر أشعتها، فنفي رؤية الشمس في قوله)لا يرون فيها شمسا(فيكون نفي رؤية الشمس كناية عن نفي وجود الشمس الذي يلزمه انتفاء حر شعاعها فهو من الكناية التلويحية كقوله:
ولا ترى الضب فيها ينجحر أي لا ضب بها فتراه ولا يكون انجحاره.
والزمهرير: اسمك للبرد القوي في لغة الحجاز، والزمهرير: اسم البرد.
والمعنى: أن هواء الجنة معتدل لا ألم فيه بحال. وفي كلام الرابعة من نساء حديث أم زرع زوجي كليل تهامة، ولا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة .
وقال ثعلب: الزمهرير اسم القمر في لغة طيء، وأنشد:
وليلة ظلامها قد اعـتـكـر قطعتها
والزمهرير ما زهر والمعنى على هذا: أنهم لا يرون في الجنة ضوء الشمس ولا ضوء القمر، أي ضوء النهار وضوء الليل لأن ضياء الجنة من نور واحد خاص بها. وهذا معنى آخر غير نفي الحر والبرد.
ومن الناس من يقول: المراد بالشمس حقيقتها وبالزمهرير البرد وأن في الكلام احتباكا، والتقدير: لا يرون فيها شمسا ولا قمرا ولا حرا ولا زمهريرا وجعلوه مثالا للاحتباك في المحسنات البديعية، ولعل مراده: أن المعنى أن نورها معتدل وهواءها معتدل.
)ودانية عليهم ظلالها(انتصب)دانية(عطفا على)متكئين(لأن هذا حال سببي من أحوال المتكئين، أي ظلال شجر الجنة قريبة منهم. و)ظلالها(فاعل)دانية(وضمير)ظلالها(عائد إلى)جنة(.
ودنو الظلال: قربها منهم وإذ لم يعهد وصف الظل بالقرب يظهر أن دنو الظلال كناية عن تدلي الأدواح التي من شأنها أن تظلل الجنات في معتاد الدنيا ولكن الجنة لا شمس فيها فيستظل من حرها، فتعين أن تركيب)دانية عليهم ظلالها(مثل يطلق على تدلي أفنان الجنة لأن الظل المظلل للشخص لا يتفاوت بدنو ولا بعد، وقد يكون)ظلالها(مجازا مرسلا عن الأفنان بعلاقة اللزوم.

والمعنى: أن أدواح الجنة قريبة من مجالسهم وذلك مما يزيدها بهجة وحسنا وهو في معنى قوله تعالى)قطوفها دانية(.
ولذلك عطف عليه جملة)وذللت قطوفها تذليلا(، أي سخرت لهم قطوف تلك الألواح وسهلت لهم بحيث لا التواء فيها ولا صلابة تتعب قاطفها ولا يتمطون إليها بل يجتنونها بأسهل تناول.
فاستعير التذليل للتيسير كما يقال: فرس ذلول: أي مطواع لراكبه، وبقرة ذلول، أي ممرنة على العمل، وتقدم في سورة البقرة.
والقطوف: جمع قطف بكسر القاف وسكون الطاء، وهو العنقود من التمر أو العنب، سمي قطفا بصيغة من صيغ المفعول مثل ذبح، لأنه يقصد قطفه فإطلاق القطف عليه مجاز باعتبار المآل شاع في الكلام. وضمير)قطوفها(عائد إلى)جنة(أو إلى)ظلالها(باعتبار الظلال كناية عن الأشجار.
و)تذليلا(مصدر مؤكد لذلك، أي تذليلا شديدا منتهيا.
)ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا[15] قواريرا من فضة قدروها تقديرا[16](عطف على جملة)يشربون من كأس(الخ كما اقتضاه التناسب بين جملة)يشربون(وجملة)يطاف عليهم(في الفعلية والمضارعية، وذلك من أحسن أحوال الوصل، عاد الكلام إلى صفة مجالس شرابهم.
وهذه الجملة بيان لما أجمل في جملة)إن الأبرار يشربون من كأس(. وإنما عطف عليها لما فيها من مغايرة مع الجملة المعطوف عليها من صفة آنية الشراب، فلهذه المناسبة أعقب ذكر مجالس أهل الجنة ومتكآتهم، بذكر ما يستتبعه مما تعارفه أهل الدنيا من أحوال أهل البذخ والترف واللذات بشرب الخمر إذ يدير عليهم آنية الخمر سقاة. وإذ قد كان ذلك معروفا ولم تكن حاجة إلى ذكر فاعل الطواف فبني للنائب.

صفحة : 4659

وهذا وعد لهم بإعطاء متمناهم في الدنيا مع مزيد عليه من نعيم الجنة ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر .
والطواف: مشي مكرر حول شيء أو بين أشياء، فلما كان أهل المتكأ جماعة كان دوران السقاء بهم طوافا. وقد سموا سقي الخمر: إدارة الخمر أو إدارة الكأس. والساقي: مدير الكأس، أو مدير الجام أو نحو ذلك.

والآنية: جمع إناء ممدودا بوزن أفعلة مثل كساء وأكسية ووعاء وأوعية اجتمع في أول الجمع همزتان مزيدة وأصلية فخففت ثانيتهما ألفا.

والإناء: اسم لكل وعاء يرتفق به، وقال الراغب: ما يوضع فيه الشيء اه فيظهر انه يطلق على كل وعاء يقصد للاستعمال والمداولة للأطعمة والأشربة ونحوهما سواء كان من خشب أو معدن أو فخار أو أديم أو زجاج، يوضع فيه ما يشرب. أو يؤكل، أو يطبخ فيه، والظاهر أنه لا يطلق على ما يجعل للخزن فليست القربة بإناء ولا الباطية بإناء، والكأس إناء والكوز إناء والإبريق إناء والصحفة إناء.

والمراد هنا آنية مجالس شرابهم كما يدل عليه ذكر الأكواب وذلك في عموم الآنية وما يوضع معه من نقل أو شواء أو نحو ذلك كما قال تعالى في آية الزخرف)يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب(.

وتشمل الآنية الكؤوس وذكر الآنية بعد)كأس(من قوله)إن الأبرار يشربون من كأس(من ذكر العام بعد الخاص إلا إذا أريد الكأس بالخمر.

والأكواب: جمع كوب بضم الكاف بعده واو ساكنة. والكوب: كوز لا عروة له ولا خرطوم له، وتقدم في سورة الزخرف.

وعطف)أكواب(على)آنية(من عطف الخاص على العام لأن الأكواب تحمل فيها الخمر لإعادة ملء الكؤوس. ووصفت هنا بأنها من فضة، أي تأتيهم آنيتهم من فضة في بعض الأوقات ومن ذهب في أوقات أخرى كما دل عليه قوله في سورة الزخرف)يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب(لأن للذهب حسنا وللفضة حسنا فجعلت آنيتهم من المعدنين النفيسين لئلا يفوتهم ما في كل من الحسن والجمال، أو يطاف عليهم بآنية من فضة وآنية من ذهب متنوعة متزاوجة لأن ذلك أبهج منظرا مثل ما قاله مرة)وحلوا أساور من فضة(، ومرة)يحلون فيها ما أساور من ذهب(وذلك لإدخال المسرة على أنفسهم بحسن المناظر فإنهم كانوا يتمنونها في الدنيا لعزة وجودها أو وجود الكثير منها، وأوثر ذكر آنية الفضة هنا لمناسبة تشبيهها بالقوارير في البياض.

والقوارير: جمع قارورة، وأصل القارورة إناء شبه كوز، قيل: لا تسمى قارورة إلا إذا كانت من زجاج، وقيل مطلقا وهو الذي ابتدأ به صاحب القاموس.

وسميت قارورة اشتقاقا من القرار وهو المكث في المكان وهذا وزن غريب.

والغالب أن اسم القارورة للإناء من الزجاج، وقد يطلق على ما كان من زجاج وإن لم يكن إناء كما في قوله تعالى)قال إنه صرح ممرد من قوارير(وقد فسر قوله)قواريرا(في هذه الآية بأنها شبيهة بالقوارير في صفاء اللون والرقة حتى كأنها تشف عما قريب.
والتنافس في رقة آنية الخمر معروف عند شاربيها قال الأعشى:
تريك القذى من دونها وهي دونه إذا ذاقها من ذاقها يتـمـطـق وفعل)كانت(هنا تشبيه بليغ، والمعنى: إنها مثل القوارير في شفيفها، وقرينة ذلك قوله)من فضة(، أي هي من جنس الفضة في لون القوارير لأن قوله)من فضة(حقيقة فإنه قال قبله)بآنية من فضة(.
ولفظ)قوارير(الثاني، يجوز أن بكون تأكيدا لفظيا لنضيره لزيادة تحقيق أن لها رقة الزجاج فيكون الوقف على)قوارير(الأول.
ويجوز أن يكون تكريرا لإفادة التصنيف فإن حسن التنسيق في آنية الشراب من مكملات رونق مجلسه، فيكون التكرير مثل ما في قوله تعالى)والملك صفا صفا(وقول الناس: قرأت الكتاب بابا بابا فيكون الوقف على)قوارير(الثاني.
وكتب في المصحف)قواريرا قواريرا(بألف آخر تلك الكلمتين التي هي علامة تنوين.
وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر)قواريرا(الأول والثاني منونين وتنوين الأول لمراعاة الكلمات الواقعة في الفواصل السابقة واللاحقة من قوله)كافورا(إلى قوله)تقديرا(وتنوين الثاني للمزاوجة مع نظيره وهؤلاء وقفوا عليهما بالألف مثل أخواتهما وقد تقدم نظيره في قوله تعالى)سلاسلا وأغلالا(.

وقرأ ابن كثير وخلف ورويس عن يعقوب)قواريرا(الأول بالتنوين ووقفوا عليه بالألف وهو جار على التوجيه الذي وجهنا به قراءة نافع والكسائي. وقرأ)قواريرا(الثاني بغير تنوين على الأصل ولم تراع المزاوجة ووقفا عليه بالسكون.
وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم بترك التنوين فيهما لمنع الصرف وعدم مراعاة الفواصل ولا المزاوجة.
والقراءات رواية متواترة لا يناكدها رسم للمصحف فلعل الذين كتبوا المصاحف لم تبلغهم إلا قراءة أهل المدينة.
وحدث خلف عن يحيى بن آدم عن ابن إدريس قال في المصاحف الأول ثبت)قواريرا(الأول بالألف والثاني بغير ألف، يعني المصاحف

التي في الكوفة فإن عبد الله بن إدريس كوفي. وقال أبو عبيد: رأيت في مصحف عثمان)قواريرا(الأول بالألف وكان الثاني مكتوبا بالألف فحكت فرأيت أثرها هناك بينا. وهذا كلام لا يفيد إذ لو صح لما كان يعرف من الذي كتبه بالألف، ولا من الذي محا الألف ولا متى كان ذلك فيما بين زمن كتابة المصاحف وزمن أبي عبيد، ولا يدري ماذا عني بمصحف عثمان أهو مصحفه الذي اختص به أم هو مصحف من المصاحف التي نسخت في خلافته ووزعها على الأمصار؟.

وقرأ يعقوب بغير تنوين فيهما في الوصل.

وأما في الوقف فحمزة وقف عليهما بدون ألف. وهشام عن ابن عامر وقفا عليهما بالألف على أنه صلة للفتحة، أي إشباع للفتحة ووقف أبو عمر وحفص وابن ذكوان عن ابن عامر ورويس عن يعقوب على الأول بالألف وعلى الثاني بدون ألف ووجهه ما وجهت به قراءة ابن كثير وخلف.

وقوله)قدرها تقديرا(يجوز أن يكون ضمير الجمع عائد إلى)الأبرار(أو)عباد الله(الذي عادت إليه الضمائر المتقدمة في قوله)يفجرونها(و)يوفون(إلى آخر الضمائر فيكون معنى التقدير رغبتهم أن تجيء على وفق ما يشتهون.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى نائب الفاعل المحذوف المفهوم من بناء)يطاف(للنائب، أي الطائفون عليهم بها قدروا الآنية والأكواب، أي قدروا ما فيها من الشراب على حسب ما يطلبه كل شارب منهم ومآله إلى معنى الاحتمال الأول. وكان مما يعد في العادة من حذق الساقي أن يعطي كل أحد من الشرب ما يناسب رغبته.

و)تقديرا(مفعول مطلق مؤكد لعامله للدلالة على وفاء التقدير وعدم تجاوزه المطلوب ولا تقصيره عنه.

)ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا[17] عينا فيها تسمى سلسبيلا[18](أتبع وصف الآنية ومحاسنها بوصف الشراب الذي يحويه وطيبه، فالكأس كأس الخمر وهي من جملة عموم الآنية المذكورة فيما تقدم ولا تسمى آنية الخمر كأسا إلا إذا فيها خمر فكون الخمر فيها وهو مصحح تسميتها كأسا، ولذلك حسن تعديه فعل السقي إلى الكأس لأن مفهوم الكأس يتقوم بما في الإناء من الخمر، ومثل قول هذا قول الأعشى:

وكأس شربت على لـذة وأخرى تداويت منها بها يريد: وخمر شربت.

والقول في إطلاق الكأس على الإناء أو على ما فيه كالقول في نظيره المتقدم في قوله)إن الإبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا(.
ومعنى الآية أن هذه سقية أخرى، أي مرة يشربون من كأس مزاجها الكافور ومرة يسقون كأسا مزاجها الزنجبيل.
وضمير)فيها(للجنة من قوله)جنة وحريرا(.
وزنجبيل: كلمة معربة وأصلها بالكاف الأعجمية عوض الجيم. قال الجواليقي والثعالبي: هي فارسية، وهو اسم لجذور مثل جذور السعد بضم السين وسكون العين تكون في الأرض كالجزر الدقيق واللفت الدقيق لونها إلى بياض لها نبات له زهر، وهي ذات رائحة عطرية طيبة وطعمها شبيه بطعم الفلفل، وهو ينبت ببلاد الصين والسند وعمان والشحر، وهو أصناف أحسنها ما ينبت ببلاد الصين، ويدخل في الأدوية والطبخ كالأفاوية ورائحته بهارية حريف. وهو منبه ويستعمل منقوعا في الماء ومربى بالسكر.
وقد عرفه العرب وذكره شعراء العرب في طيب الرائحة.
أي يمزجون الخمر بالماء المنقوع فيه الزنجبيل لطيب رائحته وحس طعمه.
وانتصب)عينا(على البدل من)زنجبيلا(كما تقدم في قوله)كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله(.
ومعنى كون الزنجبيل عينا: أن منقوعة أو الشراب المستخرج من كثير كالعين على نحو قوله تعالى)وأنهار من لبن لم يتغير طعمه(، أي هو كثير جدا وكان يعرف في الدنيا بالعزة.

صفحة : 4661

و)سلسبيل(: وصف قبل مشتق من السلاسة وهي السهولة واللين فيقال: ماء سلسل، أي عذب بارد قيل زيدت فيه الباء والياء أي زيدتا في أصل الوضع على غير قياس .
قال التبريزي في شرح الحماسة في قول البعيث بن حريث:
خيال لأم السلسبيل ودونهـا مسيرة شهر للبريد المذبذب قال أبو العلاء: السلسبيل الماء السهل المساغ. وعندي أن هذا الوصف ركب من مادتي السلاسلة والسبالة، يقال: سبلت السماء، إذا أمطرت، فسبيل فعيل بمعنى مفعول، ركب من كلمتي السلاسلة والسبيل لإرادة سهولة شربه ووفرة جريه. وهذا من الاشتقاق الأكبر وليس اشتقاق تصريفي.

فهذا وصف من لغة العرب عند محققي أهل اللغة. وقال ابن الإعرابي: لم اسمع هذه اللفظة إلا في القرآن، فهو عنده من مبتكرات القرآن الجارية على أساليب الكلام العربي، وفي حاشية الهمذاني على الكشاف نسبة بيت البعث المذكور آنفا مع بيتين بعده إلى أمية بن أبي الصلت وهو عزو غريب لم يقله غيره.

ومعنى)تسمى(على هذا الوجه، أنها توصف بهذا الوصف حتى صار كالعلم لها كما قال تعالى)ليسمون الملائكة تسمية الأنثى(أي يصفونهم بأنهم إناث، ومنه قوله تعالى)هل تعلم له سميا(أي لا مثيل له. فليس المراد أنه علم.

ومن المفسرين من جعل التسمية على ظاهرها وجعل) سلسبيلا(علما على هذه العين، وهو أنسب بقوله تعالى)تسمى(. وعلى قول ابن الأعرابي والجمهور لا إشكال في تنوين)سلسبيلا(. وأما الجواليقي: إنه أعجمي سمي به، يكون تنوينه للمزاوجة مثل تنوين)سلاسلا(.

وهذا الوصف ينحل في السمع إلى كلمتين: سل، سبيلا، أي اطلب طريقا. وقد فسره بذلك بعض المفسرين وذكر أنه جعل علما لهذه العين من قبيل العلم المنقول عن جملة مثل: تأبط شرا، وذرى حبا. وفي الكشاف أن هذا تكلف وابتداع.

)ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا[19] (هذا طواف آخر غير طواف السقاة المذكور آنفا بقوله)ويطاف عليهم بآنية من فضة(الخ فهذا طواف لأداء الخدمة فيشمل طواف السقاة وغيرهم.

و)ولدان(: جمع وليد، وأصل وليد فعيل بمعنى مفعول ويطلق الوليد على الصبي مجازا مشهورا بعلاقة ما كان، لقصد تقريب عهده بالولادة، وأحسن ما يتخذ للخدمة الولدان لأنهم أخف حركة وأسرع مشيا ولأن المخدوم لا يتحرج إذا أمرهم أو نهاهم.

ووصفوا بأنهم)مخلدون(للاحتراس مما يوهمه اشتقاق)ولدان(من أنهم يشبون ويكتهلون، أي لا تتغير صفاتهم فهم ولدان دوما وإلا فإن خلود الذوات في الجنة معلوم فما كان ذكره إلا لأنه تخليد خاص.

وقال أبو عبيدة)مخلدون(: محلون بالخلدة بوزن قردة. واحدها خلد كقفل وهو اسم للقرط في لغة حمير.

وشبهوا باللؤلؤ المنثور تشبيها مقيدا فيه المشبه بحال خاص لأنهم شبهوا به في حسن المنظر مع التفرق.

وتركيب)إذا رأيتهم حسبتهم(مفيد للتشبيه المراد به التشابه والخطاب في)رأيت(خطاب لغير معين، أي إذا رآه الرائي.

والقول في معنى الطواف تقدم عند قوله تعالى)ويطاف عليهم بآنية من فضة(الآية.
)وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا[20](الخطاب لغير معين، و)ثم(إشارة إلى المكان ولا يكون إلا ظرفا والمشار إليه هنا ما جرى ذكره أعني الجنة المذكورة في قوله)وجزاهم بما صبروا جنة(.
وفعل)رأيت(الأول منزل منزلة اللازم يدل على حصول الرؤية فقط لا تعلقها بمرئي، أي إذا وجهت نظرك. و)رأيت(الثاني جواب)إذا(، أي إذا فتحت عينك ترى نعيما.
والتقييد ب)إذا(أفاد معنى الشرطية فدل على أن رؤية النعيم لا تتخلف عن بصر المبصر هنالك فأفاد معنى: لا ترى إلا نعيما، أي بخلاف ما يرى في جهات الدنيا.
وفي قوله)وملكا كبيرا(تشبيه بليغ، أي مثل أحوال الملك الكبير المتنعم ربه.
وفائدة هذا التشبيه تقريب المشبه لمدارك العقول.
والكبير مستعار للتعظيم وهو زائد على النعيم بما فيه من رفعة وتذليل للمصاعب.
)عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة(هذه أشياء من شعار الملوك في عرف الناس زمانئذ، فهذا مرتبط بقوله)وملكا كبيرا(.

صفحة : 4662

وقرأ نافع وحمزة وأبو جعفر)عاليهم(بسكون الياء على أن الكلام جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لجملة)رأيت نعيما وملكا كبيرا(، ف)عاليهم(مبتدأ و)ثياب سندس(فاعله ساد مسد الخبر وقد عمل في فاعله وإن لم يكن معتمدا على نفي أو استفهام و وصف، وهي لغة خبير بنو لهب وتكون الجملة في موضع البيان لجملة)رأيت نعيما(.
وقرأ بقية العشرة)عاليهم(بفتح التحتية على أنه حال مفرد ل)الأبرار(، أي تلك حالة أهل الملك الكبير.
وإضافة)ثياب(إلى)سندس(بيانية مثل: خاتم ذهب، وثوب خز. أي منه.
والسندس: الديباج الرقيق.
والإستبرق: الديباج الغليظ وتقدما عند قوله تعالى)ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق(في سورة الكهف وهما معربان.

فأما السندس فمعرب عن اللغة الهندية وأصله)سندون(بنون في آخره، قيل: إن سبب هذه التسمية أنه جلب إلى الإسكندر، وقيل له: إن اسمه)سندون(فصيره للغة اليونان سندوس لأنهم يكثرون تنهية الأسماء بحرف السين وصيره العرب سندسا. وفي اللسان: أن السندس يتخذ من المرعزي كذا ضبطه مصححه، والمعروف المرعز كما في التذكرة وشفاء الغليل. وفي التذكرة المرعز، ما نعم وطال من الصوف اه. فلعله صوف حيوان خاص فيه طول أو هو من نوع الشعر، والظاهر أنه لا يكون إلا أخضر اللون لقول يزيد بن حذاق العبدي يصف مرعى فرسه:

وداويتها حتى شتت حبشية كأن عليها سندسا وسدوسا أي في أرض شديدة الخضرة كلون الحبشي. وفي اللسان: السدوس الطيلسان الأخضر. ولقول أبي تمام يرثي محمد بن حميد النبهاني الطوسي:

تردى ثياب الموت حمرا فما أتـى لها الليل إلا وهي من سندس خضر وأما الإستبرق فنسج من نسج الفرس واسمه فارسي، وأصله في الفارسية: استقره.

والمعنى: أن فوقهم ثيابا من الصنفين يلبسون هذا وذاك جمعا بين محاسن كليهما، وهي أفخر لباس الملوك وأهل الثروة.

ولون الأخضر أمتع للعين وكان من شعار الملوك. قال النابغة يمدح ملوك غسان:

يصونون أجسادا قديما نعيمـهـا بخالصة الأردان خضر المناكب والظاهر أن السندس كان لا يصبغ إلا أخضر اللون.

وقرأ نافع وحفص)خضر(بالرفع على الصفة ل)ثياب(. و)إستبرق(بالرفع أيضا على أنه معطوف على)ثياب(بقيد كونها من سندس فمعنى عاليهم إستبرق: أن الإستبرق لباسهم.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم)خضر(بالجر نعتا ل)سندس(، و)إستبرق(بالرفع عطفا على)ثياب(.

وقرأ ابن عامر وأبو عمروا وأبو جعفر ويعقوب)خضر(بالرفع و)إستبرق(بالجر عطفا على)سندس(بتقدير: وثياب إستبرق.

وقرأ حمزة والكسائي)خضر(بالجر نعتا ل)سندس(باعتبار أنه بيان للثياب فهو في معنى الجمع. وقرأ و)إستبرق(بالجر عطفا على)سندس(.

والأساور: جمع سور وهو حلي شكله أسطواني فارغ الوسط يلبسه النساء في معاصمهن ولا يلبسه الرجال إلا الملوك، وقد ود في الحديث ذكر السواري كسرى.

والمعنى: أن حال رجال أهل الجنة حال الملوك ومعلوم أن النساء يتخلين بأصناف الحلي.
ووصفت الأساور هنا بأنها)من فضة(. وفي سورة الكهف بأنها)من ذهب(في قوله)يحلون فيها من أساور من ذهب(، أي مرة يحلون هذه ومرة أخرى، أو يحلونهما جميعا بأن تجعل متزاوجة لأن ذلك أبهج منظرا كما ذكرناه في تفسير قوله)كانت قواريرا قواريرا من فضة(.
)وسقاهم ربهم شرابا طهورا [21](هذا احتراس مما يوهمه شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدنيا ومن المغول وسوء القول والهذيان، فعبر عن ذلك بكون شرابهم طهورا بصيغة المبالغة في الطهارة وهي النزاهة من الخبائث، أي منزها عما في غيره من الخباثة والفساد.
وأسند سقيه إلى ربهم إظهارا لكرامتهم، أي أمر هو بسقيهم كما يقال: أطعمهم رب الدار وسقاهم.
)إن هذا كان جزاء وكان لكم سعيكم مشكورا [22](هذا الكلام مقبول قول محذوف قرينته الخطاب إذ ليس بصلح لهذا الخطاب مما تقدم من الكلام إلا أن يكون المخاطبون هم الأبرار الموصوف نعيمهم.

والقول المحذوف يقدر فعلا في موضع الحال من ضمير الغائب قس)سقاهم(، نحو: يقال لهم، أو يقول لهم ربهم، أو يقدر اسما هو حال من ذلك الضمير نحو: مقولا لهم هذا اللفظ، أو قائلا هذا اللفظ.
والإشارة إلى ما يكون حاضرا لديهم من ألوان النعيم الموصوف فيما مضى من الآيات.
والمقصود من ذلك الثناء عليهم بما أسلفوا من تقوى الله وتكرمتهم بذلك وتنشيط أنفسكم بأن ما أنعم به عليهم هو حق لهم جزاء على عملهم.
وإقحام فعل)كان(للدلالة على تحقيق كونه جزاء لا منا عليهم بما لم يستحقوا، فإن من تمام الإكرام عند الكرام أن يتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المكرم ويزيل عنه ما يعرض من خجل ونحوه، أي هو جزاء حقا لا مبالغة في ذلك.

وعطف على ذلك قوله)وكأن سعيكم مشكورا(علاوة على إيناسهم بأن ما أغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوا بأن سعيهم الذي كان النعيم جزاء عليه، هو سعي مشكور، أي مشكور ساعيه، فأسند المشكور إلى السعي على طريقة المجاز العقلي مثل قولهم: سيل مفعم.

ولك أن تجعل)مشكورا(مفعولا حقيقة عقلية لكن على طريقة الحذف والإيصال، أي مشكورا عليه.

وإقحام فعل)كان(كإقحام نظيره آنفا.

)إنا نحن نزلنا عليك تنزيلا[23] فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثما أو كفورا[24](من هنا يبتدئ ما لا خلاف في أنه مكي من هذه السورة.

وعلى كلا القولين فهذا استئناف ابتدائي ويجيء على قول الجمهور أن السورة كلها مكية وهو الأرجح، أنه استئناف للانتقال من الاستدلال على ثبوت البعث بالحجة والترهيب والوعيد للكافرين به والترغيب والوعد للمؤمنين به بمرهبات ومرغبات هي من الأحوال التي تكون بعد البعث، فلما استوفى ذلك ثني عنان الكلام إلى تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والربط على قلبه لدفاع أن تلحقه آثار الغم على تصلب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أنزل عليه مما شأنه أن يوهن العزيمة البشرية، فذكره الله بأنه نزل عليه الكتاب لئلا يعبأ بتكذيبهم.

وفي إيراد هذا بعد طول الكلام في أحوال الآخرة، قضاء لحق الاعتناء بأحوال الناس في الدنيا فابتدئ بحال أشرف الناس وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بحال الذين دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين من)يحبون العاجلة(و)من اتخذ إلى ربه سبيلا(فأدخلهم في رحمته.

وتأكيد الخبر ب)أن(للاهتمام به.

وتأكيد الضمير المتصل بضمير منفصل في قوله)إنا نحن(لتقرير مدلول الضمير تأكيدا لفظيا للتنبيه على عظمة ذلك الضمير ليفضي بع إلى زيادة الاهتمام بالخبر إذ يتقرر أنه فعل من ذلك الضميران له لأنه لا يفعل إلا فعلا منوطا بحكمة وأقصى الصواب.

وهذا من الكناية الرمزية. وبعد فالخبر بمجموعه مستعمل في لازم معناه وهو التثبيت والتأييد فمجموعه كناية رمزية.

وإيثار فعل)نزلنا(الدال على تنزيله منجما آيات وسورا تنزيلا مفرقا إدماج للإيمان إلى أن ذلك كان من حكمة الله تعالى التي أومأ إليها تأكيد الخبر ب)أن(وتأكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، فأجمع فيه تأكيد على تأكيد وذلك يفيد مفاد القصر إذ ليس الحصر

والتخصيص إلا تأكيدا على تأكيد كما قال السكاكي، فالمعنى: ما نزل عليك القرآن إلا أنا.
وفيه تعريض بالمشركين الذين قالوا)لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة(فجعلوا تنزيله مفرقا شبهة في أنه ليس من عند الله.
والمعنى: ما أنزله منجما إلا أنا واقتضت حكمتي أن أنزله عليك منجما.
وفرع على هذا التمهيد أمره بالصبر على أعباء الرسالة وما يلقاه فيها من أذى المشركين، وشد عزيمته أن لا تخور.
وسمى ذلك حكما لأن الرسالة عند الله لا خيرة للمرسل في قبولها والاضطلاع بأمورها، ولأن ما يحف بها من مصاعب إصلاح الأمة وحملها على ما فيه خيرها في العاجل والآجل، وتلقي أصناف الأذى في خلال ذلك حتى يتم ما أمر الله به، كالحكم على الرسول بقبول ما يبلغ منتهى الطاقة إلى أجل معين عند الله.
وعدي فعل)اصبر(باللام لتضمين الصبر معنى الخضوع والطاعة للأمر الشاق، وقد يعدى بحرف)على(كما قال تعالى)واصبر على ما يقولون(. ومناسبة مقام الكلام ترجح إحدى التعديتين كما تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى)ولربك فاصبر(في سورة المدثر.

صفحة : 4664

ولما كان من ضروب إعراضهم عن قبول دعوته ضرب فيه رغبات منهم مثل أن يترك قرعهم بقوارع التنزيل من تأفين رأيهم وتحقير دينهم وأصنامهم، وربما عرضوا عليه الصهر معهم، أو بذل المال منهم، أعقب أمره بالصبر على ما هو من ضروب الإعراض من صلابة وشدة، بأن نهاه عن أن يطيعهم في الضرب الآخر من ضروب الإعراض الواقع في قالب اللين والرغبة.
وفي هذا النهي تأكيد للأمر بالصبر لأن النهي عنه يشمل كل ما يرفع موجبات الصبر المراد هنا.
والمقصود من هذا النهي تأييسهم من استجابته لهم حين يقرأ عليهم هذه الآية لأنهم يحسبون أن ما عرضوه عليه سيكون صارفا له عما هو قائم به من الدعوة إذ هم بعداء عن إدراك ماهية الرسالة ونزاهة الرسول صلى الله عليه وسلم.
والطاعة: امتثال الطلب بفعل المطلوب وبالكف عن المنهي عنه فقد كان المشركون يعمدون إلى الطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل ما يرغبون، مثل طرد ضعفاء المؤمنين من المجلس، والإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله بما يشايع أحوالهم، وأن

يكف عما لا يريدون وقوعه من تحقير آلهتهم، والجهر بصلاته، فحذره الله من الاستماع إلى قولهم وإياسهم من حصول مرغوبهم.

ومقتضى الظاهر أن يقول: ولا تطعهم، أو ولا تطع منهم أحدا، فعدل عنه إلى)آثما أو كفورا(للإشارة بالوصفين إلى أن طاعتهم تفضي إلى ارتكاب إثم أو كفر، لأنهم في ذلك يأمرونه وينهونه غالبا فهم لا يمرون إلا بما يلائم صفاتهم.

فالمراد بالآثم والكفور: الصنفان من الموصوفين وتعليق الطاعة المنهي عنها بهذين النوعين مشعر بأن الوصفين علة في النهي.

والآثم والكفور متلازمان فكان ذكر أحد الوصفين مغنيا عن الآخر ولكن جمع بينهما لتشويه حال المتصف بهما قال تعالى)والله لا يحب كل كفار أثيم(.

وفي ذكر هذين الوصفين إشارة أيضا إلى زعيمين من زعماء الكفر والعناد وهما عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، لأن العتبة اشتهر بارتكاب المآثم والفسوق، والوليد اشتهر بشدة الشكيمة في الكفر والعتو. وقد كانا كافرين فأشير إلى كل واحد منهما بما هو علم فيه بين بقية المشركين من كثرة المآثم لأولهما. والمبالغة في الكفر لثانيهما، فلذلك صيغت له صيغة المبالغة)كفور(.

قيل عرض عتبة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوة الناس إلى الإسلام ويزوجه ابنته وكانت من أجمل نساء قريش. وعرض الوليد علية أن يعطيه من المال ما يرضيه ويرجع عن الدعوة، وكان الوليد من أكثر قريش مالا وهو الذي قال الله في شأنه)وجعلت له مالا ممدودا(. فيكون في إيثار هذين الوصفين بالذكر إدماج لذمهما والتلميح لقصتهما.

وأيا ما كان فحرف)أو(لم يعد أصل معناه من عطف تشريك أحد شيئين أو أشياء في خبر أو طلب، وهذا التشريك يفيد تخييرا، أو إباحة، أو تقسيما، أو شكا، أو تشكيكا بحسب المواقع وبحسب عوامل الإعراب لتدخل)أو(التي تضمر بعدها)أن(فتنصب المضارع. وكون المشرك بها واحدا من متعدد ملازما لمواقعها كلها.

فمعنى الآية نهي عن طاعة أحد هذين الموصوفين ويعلم أن طاعة كليهما منهي عنها بدلالة الفحوى لأنه إذا أطاعهما معا فقد تحقق منه طاعة أحدهما وزيادة.

وموقع)منهم(موقع الحال من)آثما(فإنه صفة)آثما(فلما قدمت الصفة على الموصوف صارت حالا.

و)من(للتبعيض. والضمير المجرور بها عائد للمشركين، ولم يتقدم لهم ذكر لأنهم معلومون من سياق ادعوة أو لأنهم المفهوم من قوله)إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا(أي لا كما يزعم المشركون

أنك جئت به من تلقاء نفسك، ومن قوله)فاصبر لحكم ربك(، أي على أذى المشركين.
ويؤول معناه: ولا تطع أحدا من المشركين.
)واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا[25] ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا[26](أي أقبل على شأنك من الدعوة إلى الله وذكر الله بأنواع الذكر. وهذا إرشاد إلى ما فيه عون له على الصبر على ما يقولون.

صفحة : 4665

والمراد بالبكرة والأصيل استغراق أوقات النهار، أي لا يصدك إعراضهم عن معاودة الدعوة وتكريرها طرفي النهار. ويدخل في ذكر الله الصلوات مثل قوله)وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين(. وكذلك النوافل التي هي من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم بين مفروض منها وغير مفروض. فالأمر في قوله)واذكر(مستعمل في مطلق الطلب من وجوب ونفل.
وذكر اسم الرب يشمل تبليغ الدعوة ويشمل عبادة الله في الصلوات المفروضة والنوافل ويشمل الموعظة بتخويف عقابه ورجاء ثوابه.
وقوله)بكرة وأصيلا(يشمل أوقات النهار كلها المحدودة منها كأوقات الصلوات وغير المحدود كأوقات النوافل، والدعاء والاستغفار.
و)بكرة(هي أول النهار،)وأصيلا(عشيا.
وقوله)ومن الليل فاسجد له(إشارة إلى أن الليل وقت تفرغ من بث الدعوة كما تقدم في قوله)قم الليل إلا قليلا(إلى قوله)علم أن لن تحصوه فتاب عليكم(الآية وهذا خاص بصلاة الليل فرضا ونفلا.
وقوله)وسبحه(جملة معطوفة على جملة)من الليل فاسجد له(فتعين أن التسبيح التنفل.
والتسبيح: التنزيه بالقول وبالاعتقاد، ويشمل الصلوات والأقوال الطيبة والتدبر في دلائل صفات الله وكمالاته، وغلب إطلاق مادة التسبيح على الصلاة النافلة، وقال تعالى)وسبح بحمد ربك حين تقوم(، أي من الليل. وعن عبد الملك بن حبيب:)وسبحه(هنا صلاة التطوع في الليل، وقوله)طويلا(صفة)ليلا(وحيث وصف الليل بالطول بعد الأمر بالتسبيح فيه، علم أن)ليلا(أريد به أزمان الليل لأنه مجموع الوقت المقابل للنهار، لأنه لو أريد ذلك المقدار كله لم

يكن في وصفه بالطول جدوى، فتعين أن وصف الطول تقييد للأمر بالتسبيح، أي سبحه أكثر الليل، فهو في معنى قوله تعالى)قم الليل إلا قليلا(إلى)أو زد عليه(أو يتنازعه كل من)اسجد(و)سبحه(.
وانتصب)ليلا(على الظرفية ل)سبحه(.
وعن ابن عباس وابن زيد: أن هاتين الآيتين إشارة إلى الصلوات الخمس وأوقاتها بناء أن الأصيل يطلق على وقت الظهر فيكون قوله)وسبحه(إشارة إلى قيام الليل.
وهذه الآية جاءت على وفق قوله تعالى)ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين(وقوله تعالى)واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون(.
)إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا[27](تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله)ولا تطع منهم آثما أو كفورا(، أي لأن خلقهم الانصباب على الدنيا مع الإعراض عن الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث فلو أعطاهم لتخلق بخلقهم قال تعالى)ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء(الآية.
فموقع)إن(موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية كما نبه عليه الشيخ عبد القاهر.
و)هؤلاء(إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم، وقد استقريت من القرآن أنه إذا أطلق)هؤلاء(دون سبق ما يكون مشارا إليه فالمقصود به المشركون، وقد ذكرت ذلك في تفسير قوله تعالى)فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين(في سورة الأنعام وقوله تعالى)فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء(في سورة هود.
وقد تنزه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محبة الدنيا فقال ما لي وللدنيا فليس له محبة لأمورها عدا النساء والطيب كما قال حبب إلي من دنياكم النساء والطيب .
فأما النساء فالميل إليهن مركوز في طبع الذكور، وما بالطبع لا يتخلف، وفي الأنس بهن انتعاش للروح فتناوله محمود إذا وقع على الوجه المبرأ من الإيقاع في فساد وما هو الأمثل تناول الطعام وشرب الماء قال تعالى)ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية(.
وأما الطيب فلأنه مناسب للتزكية النفسية.
وصيغة المضارع في)يحبون(تدل على تكرر ذلك، أي أن ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة والعاجلة: صفة لموصوف محذوف معلوم من المقام تقديره: الحياة العاجلة، أو الدار العاجلة. والمراد بها مدة الحياة الدنيا.

وكثر في القرآن إطلاق العاجلة على الدنيا كقوله)كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة(فشاع بين المسلمين تسمية الدنيا بالعاجلة.
ومتعلق)يحبون(مضاف محذوف، تقديره: نعيم أو منافع لأن الحب لا يتعلق بذات الدنيا.
وفي إيثار ذكر الدنيا بوصف العاجلة توطئة للمقصود من الذم لأن وصف العاجلة يؤذن بأنهم آثروها لأنها عاجلة. وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رضوا بالدون لأنه عاجل وليس ذلك من شيم أهل التبصر، فقوله)ويذرون وراءهم يوما ثقيلا(واقع موقع التكميل لمناط ذمهم وتحميقهم لأنهم لو أحبوا الدنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين قال تعالى حكاية لقول الناصحين لقارون)وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا(. وهذا نظير قوله تعالى)يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون(إذ كان مناط الذم فيه هو أن قصروا أنفسهم على علم أمور الدنيا مع الإعراض عن العلم بالآخرة.
ومثلوا بحال من يترك شيئا وراءه فهو لا يسعى إليه وإنما يسعى إلى ما بين يديه.
وإنما أعرضوا عنه لأنهم لا يؤمنون بحلوله فكيف يسعون إليه.
وصيغة المضارع في)يذرون(تقتضي أنهم مستمرون على ذلك وأن ذلك متجدد فيهم ومتكرر لا يتخلفون عن ذلك الترك لأنهم لا يؤمنون بحلول ذلك اليوم، فالمسلمون لا يذرون وراءهم هذا اليوم لأنهم لا يخلون من عمل له على تفاوت بينهم في التقوى.
واليوم الثقيل: هو يوم القيامة، وصف بالثقيل على وجه الاستعارة لشدة ما يحصل فيه من المتاعب والكروب فهو كالشيء الثقيل الذي لا يستطاع حمله.
والثقل: مستعار للشدة والعسر قال تعالى)ثقلت في السماوات والأرض(وقال)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا(.
)نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا[28]
(لما كان الإخبار عنهم بأنهم)يذرون ورائهم يوما ثقيلا(يتضمن أنهم ينكرون وقوع ذلك اليوم كما قدمناه وكان الباعث لهم على إنكاره شبهة استحالة إعادة الأجساد بعد بلاها وفنائها، وكان الكلام السابق مسوقا مساق الذم لهم والإنكار عليهم جيء هنا بما هو دليل للإنكار عليهم وإبطال لشبهتهم ببيان إمكان إعادة خلقهم يعيده الذي خلقهم

أول مرة كما قال تعالى)فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة(وغير ذلك من الآيات الحائمة حول هذا المعنى.
وافتتاح الجملة بالمبتدإ المخبر عنه بالخبر الفعلي دون أن تفتتح ب)خلقناهم(أو نحن خالقون، لإفادة تقوي الخبر وتحقيقه بالنظر إلى المعنيين بهذا الكلام وإن لم يكن خطابا لهم ولكنهم هم المقصود منه.
وتقوية الحكم بناء على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة من يشك في أن الله خلقهم حيث لم يجرؤوا على موجب العلم فأنكروا أن الله يعيد الخلق بعد البلى فكأنهم يسندون الخلق الأول لغيره. وتقوي الحكم يترتب عليه أنه إذا شاء بدل أمثالهم بإعادة أجسادهم فلذلك لم يحتج إلى تأكيد جملة)وإذا شئنا بدلنا أمثالهم(استغناء بتولد معناها عن معنى التي قبلها وإن كان هو أولى بالتقوية على مقتضى الظاهر. وهذا التقوي هنا مشعر بأن كلاما يعقبه هو مصب التقوي، ونظيره في التقوي والتفريع قوله تعالى)نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون(إلى قوله)وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم(فإن المفرع هو)أفرأيتم ما تمنون(وما اتصل به. وجملة)فلولا تصدقون(معترضة وقد مضى في سورة الواقعة.
فأمثالهم: هي الأجساد الثانية إذ هي أمثال لأجسادهم الموجودة حين التنزيل.
والشد: الإحكام وإتقان ارتباط أجزاء الجسد بعضها ببعض بواسطة العظام والأعصاب والعروق إذ بذلك يستقل الجسم.
والأسر: الربط وأطلق هنا على الإحكام والإتقان على وجه الاستعارة.
والمعنى: أحكمنا ربط أجزاء أجسامهم فكانت مشدودا بعضها على بعض.
وقوله:)ولو شئنا بدلنا أمثالهم(إخبار بأن الله قادر على أن يبدلهم بناس آخرين.
فحذف مفعول)شئنا(لدلالة جواب)إذا(عليه كما هو الشأن في فعل المشيئة غالبا.
واجتلاب)إذا(في هذا التعليق لأن شأن)إذا(أن يفيد اليقين بوقوع ما قيد بها بخلاف حرف)إن(فهو إيماء إلى أن حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع.

فيجوز أن يكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله)نحن خلقناهم(الخ، ويحمل الشرط على التحقق قال تعالى)وإن الدين لواقع(.
ويجوز أن يكون قوله)وإذا شئنا بدلنا أمثالهم(تهديدا لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث، أي لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقا آخر مثلهم كقوله تعالى)إن يشأ يذهبكم ويأتي بخلق جديد(.
ويكون)إذا(مراد به تحقق التلازم بين شرط)إذا(وجوابها، أي الجملة المضاف إليها، والجملة المتعلق بها.
وفعل التبديل يقتضي مبدلا ومبدلا به وأيهما اعتبرته في موضع الآخر صح لأن كل مبدل هو أيضا مبدل به ذلك الشيء، ولا سيما إذا لم يكن في المقام غرض ببيان المرغوب في اقتناءه والمسموح ببذله من الشيئين المستبدلين، فحذف من الكلام هنا متعلق) بدلنا(وهو المجرور بالباء لأنه أولى بالحدث، وأبقي المفعول.
وقد تقدم نظيره في سورة الواقعة في قوله)على أن نبدل أمثالكم(، ومنه قوله تعالى)إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم(في سورة المعارج فالتقدير: بدلنا منهم.
والأمثال: جمع مثل وهو المماثل في ذات أو صفة، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم وهو التبديل الذي سيكون في المعاد.
ويجوز أن يراد أمثالهم في أنهم أمم، على الوجه الأول فهو يدل على أن البعث يحصل بخلق أجسام على مثال الأجساد التي كانت في الحياة الدنيا للأرواح التي كانت فيها.
وانتصب)تبديلا(على المفعول المطلق الموكد لعامله للدلالة على أنه تبديل حقيقي، وللتوصل بالتنوين إلى تعظيمه وعجوبته.
)إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا[29](استئناف ابتدائي للانتقال من بسط التذكير والاستدلال إلى فذلكة الغرض وحوصلته، إشعارا بانتهاء المقصود وتنبيها إلى فائدته، ووجه الانتفاع به، والحث على التدبر فيه، واستثمار ثمرته، وباعتبار ما تفرع عن هذه الجملة من قوله)فمن شاء اتخذ(الخ يقوى موقع الفذلكة للجملة وتأكيد الكلام بحرف)إن(لأن حال المخاطبين عدم اهتمامهم بها فهم ينكرون أنها تذكرة.
والإشارة إلى الآيات المتقدمة أو إلى السورة ولذلك أتي باسم الإشارة المؤنث.
والتذكرة: مصدر ذكره مثل التزكية ، أي أكلمه كلاما يذكره به ما عسى أن يكون نسيه أطلقت هنا على الموعظة بالإقلاع عن عمل سيء والإقبال على عمل صالح وعلى وضوح الخير والشر لمن تذكر، أي تبصر بتشبيه حالة المعرض عن الخير المشغول عنه بحالة الناسي له لأن شأنه ألا يفرط فيه إلا من كان ناسيا لما فيه من نفع له.

 وفرع عليه الحث على سلوك سبيل مرضاة الله بقوله)فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا(، أي ليس بعد هذه التذكرة إلا العمل بها إذا شاء المتذكر أن يعمل بها.
 ففي قوله)من شاء(حث على المبادرة بذلك لأن مشيئة المرء في مكنته فلا يمنعه منها إلا سوء تدبيره.
 وهذا حث وتحريض فيه تعريض للمشركين بأنهم أبوا أن يتذكروا عنادا وحسدا.
 واتخاذ السبيل: سلوكه، عبر عن السلوك بالاتخاذ على وجه الاستعارة بتشبيه ففي قوله)اتخذ إلى ربه سبيلا(استعارتان لأن السبيل مستعار لسبب الفوز بالنعيم والزلفى.
 ويتعلق قوله)إلى ربه(ب)سبيلا(، أي سبيلا مبلغة إلى الله، ولا يختلف العقلاء في شرف ما يوصل إلى الرب أي إلى إكرامه لأن ذلك قرارة الخيرات ولذلك عبر برب مضافا إلى ضمير)من شاء(إذ سعادة العبد في الحظوة عند ربه.
 وهذه السبيل هي التوبة فالتائب مثل الذي كان ضالا، أو آبقا فاهتدى إلى الطريق التي يرجع منها إلى مقصده، أو سلك الطريق إلى مولاه.
 وقد تقدم نظير هذه الآية في سورة المزمل.
)وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما[30](

صفحة : 4668

 لما ناط اختيارهم سبيل مرضاة الله بمشيئتهم أعقبه بالتنبيه إلى الإقبال على طلب مرضاة الله للتوسل برضاه إلى تيسير سلوك سبل الخير لهم لأنهم إذا كانوا منه بمحل الرضى والعناية لطف بهم ويسر لهم ما يعسر على النفوس من المصابرة على ترك الشهوات المهلكة، قال تعالى)فسنيسره لليسرى(فإذا لم يسعوا إلى مرضاة ربهم وكلهم إلى أحوالهم التي تعودوها فاقتحمت بهم مهامه العماية إذ هم محفوفون بأسباب الضلال بما استقرت عليه جبلاتهم من إيثار الشهوات والاندفاع مع عصائب الضلالات، وهو الذي أفاده قوله تعالى)فسنيسره للعسرى(، أي نتركه وشأنه فتتيسر عليه العسرى، أي تلحق به بلا تكلف ومجاهدة.
 فجملة)وما تشاءون إلا أن يشاء الله(يجوز أن تكون عطفا على جملة)فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا(أو حالا من)من يشاء(وهي على كلا والوجهين تتميم واحتراس.

وحذف مفعول)تشاءون(لإفادة العموم، والتقدير: وما تشاءون شيئا أو مشيئا وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة، أي ما تشاءون شيئا في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال.

وقد علل ارتباط حصول مشيئتهم بمشيئة الله، بأن الله عليم حكيم، أي عليم بوسائل إيجاد مشيئتهم الخير، حكيم بدقائق ذلك مما لا تبلغ إلى معرفة دقائقه بالكنه عقول الناس، لأن هنالك تصرفات علوية لا يبلغ الناس مبلغ الاطلاع على تفصيلها ولكن حسبهم الاهتداء بآثارها وتزكية أنفسهم للصد عن الإعراض عن التدبر فيها.

و)ما(نافية، والاستثناء من عموم الأشياء المشيئة وأحوالها وأزمانها، ولما كان ما بعد أداة الاستثناء حرف مصدر تعين أن المستثنى يقدر مصدرا، أي إلا شيء الله بمعنى مشيئته ، وهو صالح لاعتبار المعنى المصدري ولاعتبار الحالة، ولاعتبار الزمان، لأن المصدر صالح لإرادة الثلاثة باختلاف التأويل فإن قدر مضاف كان المعنى: إلا حال مشيئة الله، أو إلا زمن مشيئته، وإن لم يقدر مضاف كان المعنى: لا مشيئة لكم في الحقيقة إلا تبعا لمشيئة الله.

وإيثار اجتلاب)أن(المصدرية من إعجاز القرآن.

ويجوز أن يكون فعلا)تشاءون(و)يشاء الله(منزلين منزلة اللازم فلا يقدر لهما مفعولان على طريقة قول البحتري:

أن يرى مبصر ويسمع واع ويكون الاستثناء من أحوال، أي وما تحصل مشيئتكم من حال من الأحوال إلا في حال حصول مشيئة الله. وفي هذا كله إشارة إلى دقة كنه مشيئة العبد تجاه مشيئة الله وهو المعنى الذي جمع الأشعري التعبير عنه بالكسب، فقيل فيه أدق من كسب الأشعري . ففي الآية تنبيه الناس إلى هذا المعنى الخفي ليرقبوه في أنفسهم فيجدوا آثاره الدالة عليه قائمة متوافرة، ولهذا أطنب وصف هذه المشيئة بالتذييل بقوله)إن الله كان عليما حكيما(فهو تذييل أو تعليل لجملة)يدخل من يشاء في رحمته(، أي لأنه واجب له العلم والحكمة فهو أعلم، فمن شاء أن يدخله في رحمته ومن شاء أبعده عنها.

وهذا إطناب لم يقع مثله في قوله تعالى في سورة عبس)كلا إن هذه تذكرة فمن شاء ذكره(لأن حصول التذكر من التذكرة أقرب وأمكن، من العمل بها المعبر عنه بالسبيل الموصلة إلى الله تعالى فلذلك صرفت العناية والاهتمام إلى ما يلوح بوسيلة اتخاذ تلك السبيل.

وفعل)كان(يدل على أن وصفه تعالى بالعلم والحكمة وصف ذاتي لأنهما واجبان له.

وقد حصل من صدر هذه الآية ونهايتها ثبوت مشيئتين: إحداهما مشيئة العباد، والأخرى مشيئة الله، وقد جمعتهما هذه الآية فكانت أصلا للجمع بين متعارض الآيات القرآنية المقتضي بعضها بانفراد نوط التكاليف بمشيئة العباد وثوابهم وعقابهم على الأفعال التي شاءوها لأنفسهم، والمقتضي بعضها الآخر مشيئة الله في أفعال عباده.

فأما مشيئة العباد فهي إذا حصلت تحصل مباشرة بانفعال النفوس لفاعلية الترغيب والترهيب، وأما مشيئة الله انفعال النفوس فالمراد بها آثار المشيئة الإلهية التي إن حصلت فحصلت مشيئة العبد علمنا أن الله شاء لعبده ذلك وتلك الآثار هي مجموع أمور تتظاهر وتتجمع فتحصل منها مشيئة العبد.

وتلك الآثار هي ما في نظام العالم والبشر من آثار قدرة الله تعالى وخلقه من تأثير الزمان والمكان وتكوين الخلقة وتركيب الجسم والعقل، ومدى قابلية التفهم والفهم وتسلط المجتمع والبيئة والدعاية والتلقين على جميع ذلك، مما في ذلك كله من إصابة أو خطأ، فإذا استتبت أسباب قبول الهدى من مجموع تلك الآثار وتلاءم بعضها مع بعض أو رجح خيرها على شرها عرفنا مشيئة الله لأن تلك مشيئته من مجموع نظام العالم ولأنه تعالى عالم بأنها تستب لفلان، فعلمه بتوفرها مع كونها آثار نظامه في الخلق وهو معنى مشيئته، وإذا تعاكست وتنافر بعضها مع بعض ولم يرجح خيرها على شرها بل رجح شرها على خيرها بالنسبة للفرد من الناس تعطل وصول الخير إلى نفسه فلم يشأه، عرفنا أن الله لم يشأ له قبول الخير وعرفنا أن الله عالم بما حف بذلك الفرد، فذلك معنى أن الله لم يشأ له الخير، أو بعبارة أخرى أنه شاء له أن يشاء الشر، ولا مخلص للعبد من هذه الربقة إلا إذا توجهت إليه عناية من الله ولطف فكون كائنات إذا دخلت تلك الكائنات فيما هو حاف بالعبد من الأسباب ولأحوال غيرت أحوالها وقلبت آثارهما رأسا على عقب، فصار العبد إلى صلاح بعد أن كان مغمورا بالفساد فتتهيأ للعبد حالة جديدة مخالفة لما كان حافا به، مثل ما حصل لعمر بن الخطاب من قبول عظيم الهدى وتوغله فيه في حين كان متلبسا بسابغ الضلالة والعناد.

فمثل هذا يكون تكرمة من الله للعبد وعناية به، وإنما تحصل هذه العناية بإرادة من الله خاصة: إما لأن حكمته اقتضت ذلك للخروج بالناس من شر إلى خير كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين وإما بإجابة دعوة داع استجيب له فقد أسلم عمر بن الخطاب عقب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة ودخل في الإسلام عقب قول النبي صلى الله عليه وسلم له أما آن لك يا ابن الخطاب أن تسلم(ألا ترى أن الهداية العظمى التي أوتيها محمد صلى الله عليه وسلم كانت أثرا من دعوة إبراهيم عليه السلام بقوله)ربنا وابعث فيهم رسولا منهم(الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا دعوة إبراهيم .

فهذا ما أمكن من بيان هاتين المشيئتين بحسب المستطاع ولعل في ذلك ما يفسر قول الشيخ أبي الحسن الأشعري في معنى الكسب والاستطاعة إنها سلامة الأسباب والآلات .

وبهذا بطل مذهب الجبرية لأن الآية أثبتت مشيئة للناس وجعلت مشيئة الله شرطا فيها لأن الاستثناء في قوة الشرط، فللإنسان مشيئته لا محالة.

وأما مذهب المعتزلة فغير بعيد من قول الأشعري إلا في العبارة بالخلق أو بالكسب، وعبارة الأشعري أرشق وأعلق بالأدب مع الله الخالق، وإلا في تحقيق معنى مشيئة الله، والفرق بينها وبين الأمر أو عدم الفرق وتفصيله في علم الكلام.

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب)وما تشاءون(بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وخلف بياء الغائب عائدا إلى)من شاء(.

)يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما[31] (يجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة)وما تشاءون إلا أن يشاء الله(إذ يتساءل السامع على أثر مشيئة الله في حال)من اتخذ إلى ربه سبيلا(ومن لم يتخذ إليه سبيلا، فيجاب بأنه يدخل في رحمته من شاء أن يتخذ إليه سبيلا وأنه أعد لمن لم يتخذ إليه سبيلا عذابا أليما وأولئك هم الظالمون.

ويجوز أن تكون الجملة خبر)إن(في قوله)إن الله(وتكون جملة)كان عليما حكيما(معترضة بين اسم)إن(وخبرها أوحالا، وهي على التقديرين منبئة بأن إجراء وصفي العليم الحكيم على اسم الجلالة مراد به التنبيه على أن فعله كله من جزاء برحمة أو بعذاب جار على حسب علمه وحكمته.

وانتصب)الظالمين(على أنه مفعول لفعل محذوف يدل عليه المذكور على طريقة الاشتغال والتقدير: أوعد الظالمين، أو كافأ، أو نحو ذلك مما يقدره السامع مناسبا للفعل المذكور بعده.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المرسلات

لم ترد لها تسمية صريحة عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن يضاف لفظ سورة إلى جملتها الأولى.

صفحة : 4670

وسميت في عهد الصحابة سورة)والمرسلات عرفا(ففي حديث عبد الله بن مسعود في الصحيحين بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عرفا فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ خرجت علينا حية الحديث.
وفي الصحيح عن ابن عباس قال قرأت سورة والمرسلات عرفا فسمعتني أم الفضل امرأة العباس فبكت وقالت: بني أذكرتني بقرائتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب .
وسميت)سورة المرسلات(، روى أبو داود عن ابن مسعود كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ النظائر السورتين في ركعة الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة ثم قال وعم يتساءلون والمرسلات في ركعة فجعل هذه الألفاظ بدلا من قوله السورتين وسماها المرسلات لأن الواو التي في كلامه واو العطف مثل أخواتها في كلامه.
واشتهرت في المصاحف باسم)المرسلات(وكذلك في التفاسير وفي صحيح البخاري.
وذكر الخفاجي وسعد الله الشهير بسعدي في حاشيتيهما على البيضاوي أنها تسمى)سورة العرف(ولم يسنداه، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.
وفي الإتقان عن كتاب ابن الضريس عن ابن عباس في عد السور التي نزلت بمكة فذكرها باسم)المرسلات(. وفيه عن دلائل النبوة للبيهقي عن عكرمة والحسن في عد السور التي نزلت بمكة فذكرها باسم)المرسلات(.
وهي مكية عند جمهور المفسرين من السلف، وذلك ظاهر حديث ابن مسعود المذكور آنفا، وهو يقتضي أنها من أوائل سور القرآن نزولا لأنها نزلت والنبي صلى الله عليه وسلم مختف في غار بمنى مع بعض أصحابه.
وعن ابن عباس وقتادة: أن آية)وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون(مدنية نزلت في المنافقين، ومحمل ذلك أنه تأويل ممن رواه عنه نظرا إلى أن الكفار الصرحاء لا يؤمرن بالصلاة، وليس

في ذلك حجة لكون الآية مدنية فإن الضمير في قوله)وإذا قيل لهم(وارد على طريقة الضمائر قبله وكلها عائدة إلى الكفار وهم المشركون. ومعنى)قيل لهم اركعوا(: كناية عن أن يقال لهم أسلموا. ونظيره قوله تعالى)وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون(فهي في المشركين وقوله)قالوا لم نك من المصلين(إلى قوله)وكنا نكذب بيوم الدين(.

وعن مقاتل نزلت)وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون(في شأن وفد ثقيف حين أسلموا بعد غزوة هوازن وأتوا المدينة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: لا نجبي فإنها مسبة علينا. فقال لهم: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود.

وهذا أيضا أضعف، وإذا صح ذلك فإنما أراد مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم الآية.

وهي السورة الثالثة والثلاثون في عداد ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

وأتفق العادون على عد آيها خمسين.

أغراضها

اشتملت على الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا ووصف بعض أشراط ذلك.

والاستدلال على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإنسان وخلق الأرض.

ووعد منكريه بعذاب الآخرة ووصف أهواله.

والتعريض بعذاب لهم في الدنيا كما استؤصلت أمم مكذبة من قبل. ومقابلة ذلك بجزاء الكرامة للمؤمنين.

وإعادة الدعوة إلى الإسلام والتصديق بالقرآن لظهور دلائله.

)والمرسلات عرفا[1] فالعاصفات عصفا[2] والناشرات نشرا[3] فالفارقات فرقا[4] فالملقيات ذكرا[5] عذرا أو نذرا[6] إنما توعدون لواقع[7](قسم بمخلوقات عظيمة دالة على عظيم علم الله تعالى وقدرته.

والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر، وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقي المقسم عليه.

فيجوز أن يكون المراد بموصوفات هذه الصفات نوعا واحدا، ويجوز أن يكون نوعين أو أكثر من المخلوقات العظيمة. ومشى صاحب الكشاف على أن المقسم بها كلهم ملائكة.

ولم يختلف أهل التأويل أن)الملقيات ذكرا(للملائكة.

وقال الجمهور: العاصفات: الرياح ولم يحك الطبري فيه مخالفا. وقال القرطبي: قيل العاصفات: الملائكة.

و)الفارقات(لم يحك الطبري إلا أنهم الملائكة أو الرسل. وحكى القرطبي عن مجاهد: أنها الرياح.
وفيما عدا هذه من الصفات اختلف المتأولون فمنهم من حملوها على أنها الملائكة ومنهم من حمل على أنها الرياح.

صفحة : 4671

فالمرسلات قال ابن مسعود وأبو هريرة ومقاتل وأبو صالح والكلبي ومسروق: هي الملائكة. وقال ابن عباس وقتادة: هي الرياح، ونقل هذا عن ابن مسعود أيضا ولعله يجيز التأويلين وهو الأوفق بعطفها بالفاء.
والناشرات قال ابن عباس والضحاك وأبو صالح: الملائكة. وقال ابن مسعود ومجاهد الرياح وهو عن أبي صالح أيضا.
ويتحصل من هذا أن الله أقسم بجنسين من مخلوقاته العظيمة مثل قوله)والسماء ذات البروج واليوم الموعود(، ومثله تكرر في القرآن.
ويتجه في توزيعها أن الصفات التي عطفت بالفاء تابعة لجنس ما عطفت هي عليه، والتي عطفت بالواو يترجح أنها صفات جنس آخر.
فالأرجح أن المرسلات والعاصفات صفتان للرياح، وأن ما بعدها صفات للملائكة، والواو الثانية للعطف وليست حرف قسم. ومناسبة الجمع بين هذين الجنسين في القسم أن كليهما من الموجودات العلوية لأن الأصل في العطف بالواو أن يكون المعطوف بها ذاتا غير المعطوف عليه. وما جاء بخلاف ذلك فهو خلاف الأصل مثل قول الشاعر أنشده الفراء.

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة في المزدحم أراد صفات ممدوح واحد.
ولنتكلم على هذه الصفات: فأما المرسلات فإذا جعل وصفا للملائكة كان المعني بهم المرسلين إلى الرسل والأنبياء مثل جبريل في إرساله بالوحي وغيره من الملائكة الذين يبعثهم الله إلى بعض أنبيائه بتعليم أو خبر أو نصر كما في قوله تعالى عن زكريا)فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب(الآية، أو المرسلات بتنفيذ أمر الله بالعذاب مثل المرسلين إلى قوم لوط، و)عرفا(حال مفيدة معنى التشبيه البليغ، أي مثل عرف الفرس في تتابع الشعر بعضه ببعض، يقال: هم كعرف الضبع، إذا تألبوا، ويقال: جاءوا عرفا واحدا. وهو صالح لوصف الملائكة ولوصف الريح.

وفسر)عرفا(بأنه اسم، أي الشعر الذي على رقبة الفرس ونصبه على الحال على طريقة التشبيه البليغ أي كالعرف في تتابع البعض لبعض وفسر بأنه مصدر بمعنى المفعول، أي معروف)ضد المنكر(، وأن نصبه على المفعول لأجله، أي لأجل الإرشاد والصلاح.

)فالعاصفات(تفريع على)المرسلات(، أي ترسل فتعصف، والعصف يطلق على قوة هبوب الريح فإن أريد بالمرسلات وصف الرياح فالعصف حقيقة وإن أريد بالمرسلات وصف الملائكة فالعصف تشبيه لنزولهم في السرعة بشدة الريح وذلك في المبادرة في سرعة الوصول بتنفيذ ما أمروا به.

و)عصفا(مؤكد للوصف تأكيدا لتحقيق الوصف، إذ لا داعي لإرادة رفع احتمال المجاز.

والنشر: حقيقته ضد الطي ويكثر استعماله مجازا في الإظهار والإيضاح وفي الإخراج.

فالناشرات إذا جعل وصفا للملائكة جاز أن يكون نشرهم الوحي أي تكرير نزولهم لذلك، وأن يكون النشر كناية عن الوضوح، أي بالشرائع البينة.

وإذ جعل وصفا للرياح فهو نشر السحاب في الأجواء فيكون عطفه بالواو دون الفاء للتنبيه على أنه معطوف على)المرسلات(لا على)العاصفات(لأن العصف حالة مضرة والنشر حالة نفع.

والقول في تأكيد نشرا وتنوينه كالقول في)عصفا(.

والفرق: التمييز بين الأشياء، فإذا كان وصفا للملائكة فهو صالح للفرق الحقيقي مثل تمييز أهل الجنة عن أهل النار يوم الحساب، وتمييز الأمم المعذبة في الدنيا عن الذين نجاهم الله من العذاب، مثل قوم نوح عن نوح، وعاد عن هود، وقوم لوط عن لوط وأهله عدا امرأته، وصالح للفرق المجازي، وهو أنهم يأتون بالوحي الذي يفرق بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.

وإن جعل وصفا للرياح فهو من آثار النشر، أي فرقها جماعات السحب على البلاد.

ولتفرع الفرق بمعنييه عن النشر بمعاينة عطف)الفارقات(على)الناشرات(بالفاء.

وأكد بالمفعول المطلق كما أكد ما قبله في قوله)عصفا(و)نشرا(، وتنوينه كذلك.

والملقيات: الملائكة الذين يبلغون الوحي وهو الذكر.

والإلقاء مستعار لتبليغ الذكر من العالم العلوي إلى أهل الأرض بتشبيهه بإلقاء شيء من اليد إلى الأرض.

وإلقاء الذكر تبليغ المواعظ إلى الرسل ليبلغوها إلى الناس وهذا الإلقاء متفرع على الفرق لأنهم يخصون كل ذكر بمن هو محتاج

إليه، فذكر الكفار بالتهديد والوعيد بالعذاب، وذكر المؤمنين بالثناء والوعد بالنعيم.

صفحة : 4672

وهذا معنى)عذرا أو نذرا(. فالعذر: الإعلام بقبول إيمان المؤمنين بعد الكفر، وتوبة التائبين بعد الذنب.
والنذر: اسم مصدر أنذر، إذا حذر.
و)عذرا(قرأه الجمهور بسكون الذال، وقرأه روح عن يعقوب بضمها على الاتباع لحركة العين.
وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب)نذرا(بضم الذال وهو الغالب فيه.
وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بإسكان الذال على الوجهين المذكورين في)عذرا(، وعلى كلتا القراءتين فهو اسم مصدر بمعنى الإنذار.
وانتصب)عذرا أو نذرا(على بدل الاشتمال من)ذكرا(. و)أو(في قوله)أو نذرا(للتقسيم.
وجملة)إن ما توعدون لواقع(جواب لقسم وزيدت تأكيدا بأن لتقوية تحقيق وقوع الجواب.
و)إنما(كلمتان هما)إن(التي هي حرف تأكيد و)ما(الموصولة وليست هي)إنما(التي هي أداة حصر، والتي)ما(فيها زائدة. وقد كتبت هذه متصلة)إن(ب)ما(لأنهم لم يكونوا يفرقون في الرسم بين الحالتين، والرسم اصطلاح، ورسم المصحف سنة في المصاحف ونحن نكتبها مفصولة في التفسير وغيره.
و)ما توعدون(: هو البعث للجزاء وهم يعلمون الصلة فلذلك جيء في التعبير عنه بالموصولية.
والخطاب للمشركين، أي ما توعدكم الله به من العقاب بعد البعث واقع لا محالة وإن شككتم فيه أو نفيتموه.
والواقع: الثابت: وأصل الوقع الساقط على الأرض فاستعير للشيء المحقق تشبيها بالمستقر.
)فإذا النجوم طمست[8] وإذا السماء فرجت[9] وإذا الجبال نسفت[10] وإذا الرسل أقتت[11] لأي يوم أجلت[12] ليوم الفصل[13] وما أدراك ما يوم الفصل[14](الفاء للتفريع على قوله)إن ما توعدون لواقع(لأنه لما أفاد وقوع البعث وكان المخاطبون ينكرونه ويتعللون بعدم التعجيل بوقوعه، بين لهم ما يحصل قبله وزيادة في تهويله عليهم. والإنذار بأنه مؤخر إلى أن تحصل تلك الأحداث العظيمة، وفيه

كناية رمزية على تحقيق وقوعه لأن الأخبار عن أمارات حلول ما يوعدون ويستلزم التحذير من التهاون به، ولذلك ختمت هذه الأخبار بقوله)ويل يومئذ للمكذبين(.

وكررت كلمة)إذا(في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعد حروف العطف مع إغناء حرف العطف عن إعادة)إذا(كما في قوله)فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان(الآية، ففادة الاهتمام بمضمون كل جملة من هذه الجمل ليكون مضمونها مستقلا في جعله علامة على وقوع ما يوعدون.

وطمس النجوم: زوال نورها، وأن نور معظم ما يلوح للناس من النجوم سببه انعكاس أشعة الشمس عليها حين احتجاب ضوء الشمس على الجانب المظلم من الأرض، فطمس النجوم يقتضي طمس نور الشمس، أي زوال التهابها بأن تبرد حرارتها، أو بأن تعلو سطحها طبقة رمادية بسبب انفجارات من داخلها، أو تتصادم مع أجرام سماوية أخرى لاختلال نظام الجاذبية فتندك وتتكسر قطعا فيزول التهابها.

ومعنى)فرجت(تفرق ما كان ملتحما من هيكلها، يقال: فرج الباب إذا فتحه. والفرجة: الفتحة في الجدار ونحوه. فإذا أريد بالسماء الجنس الصادق بجميع السماوات على طريقة العموم الحقيقي، أو الصادق بسماوات مشهورة على طريقة العموم العرفي وهي السماوات السبع التي يعبر أهل الهيئة عنها بالكواكب السيارة جاز أن يكون فرج السماوات حدوث أخاديد عظيمة في الكواكب زيادة عن طمس نورها.

وإذا أريد بالسماء فرد معين معهود وهي ما نشاهده كالقبة الزرقاء في النهار وهي كرة الهواء، فمعنى فرجت: فساد عناصر الجو بحيث تصير فيه طرائق مختلفة الألوان تبدو كأنها شقوق في كرة الهواء كما في قوله تعالى)إذا السماء انشقت(وكل ذلك مفض إلى انقراض العالم الدنيوي بجميع نظامه ومجموع أجسامه.

والنسف: قلع أجزاء الشيء بعضها عن بعض وتفريقها مثل الهدم.

ونسف الجبال: دكها ومصيرها ترابا مفرقا، كما قال تعالى)وكانت الجبال كثيبا مهيلا(.

وبناء هذه الأفعال الثلاثة بصيغة المبني للمجهول لأن المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا بتعيين فاعله على أنه من المعلوم أن فاعلها هو الله تعالى إذ لا يقدر عليه غيره.

وجملة)وإذا الرسل أقتت(عطف على الجمل المتقدمة فهي تقييد لوقت حادث يحصل وهي مما جعل مضمونها علامة على وقوع ما يوعدون به فيلزم أن يكون مضمونها مستقبل الحصول وفي نظم هذه الجملة غموض ودقة. فأما)أقتت(فأصله وقتت بالواو في أوله، يقال: وقت وقتا، إذا عين وقتا لعمل ما، مشتقا من الوقت وهو الزمان، فلما بني للمجهول ضمت الواو وهو ضم لازم احتراز من ضمة)ولا تنسوا الفضل بينكم(لأن ضمة الواو ضمة عارضة، فجاز إبدالها همزة لأن الضم على الواو ثقيل فعدل عن الواو إلى الهمزة. وقرأه الجمهور)أقتت(بهمزة وتشديد القاف. وقرأه أبو عمرو وحده بالواو وتشديد القاف، وقرأه أبو جعفر بالواو وتخفيف القاف.

وشأن)إذا(أن تكون لمستقبل الزمان فهذا التأقيت للرسل توقيت سيكون في المستقبل، وهو علامة على أن ما يوعدون يحصل مع العلامات الأخرى.

ولا خلاف في أن)أقتت(مشتق من الوقت كما علمت آنفا، وأصل اشتقاق هذا الفعل المبني للمجهول أن يكون معناه: جعلت وقتا، وهو أصل إسناد الفعل إلى مرفوعه، وقد يكون بمعنى: وقت لها وقت على طريقة الحذف والإيصال.

وإذا كان)إذا(ظرفا للمستقبل وكان تأجيل الرسل قد حصل قبل نزول هذه الآية، تعين تأويل)أقتت(على معنى: حان وقتها، أي الوقت المعين للرسل وهو الوقت الذي أخبرهم الله بأن ينذروا أممهم بأنه يحل في المستقبل غير المعين، وذلك عليه قوله)لأي يوم أجلت ليوم الفصل(فإن التأجيل يفسر التوقيت.

وقد اختلفت أقوال المفسرين الأولين في محمل معنى هذه الآية فعن ابن عباس أقتت: جمعت أي ليوم القيامة قال تعالى)يوم يجمع الله الرسل(، وعن مجاهد والنخعي)أقتت(أجلت. قال أبو علي الفارسي: أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتا.

قال في الكشاف: والوجه أن يكون معنى)وقتت(بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره يوم القيامة اه. وهذا صريح في أنه يقال: وقت بمعنى أحضر في الوقت المعين، وسلمه شراح الكشاف وهو معنى مغفول عنه في بعض كتب اللغة أو مطوي بخفاء في بعضها.

ويجيء على القول أن يكون قوله)لأي يوم أجلت(استئاافا، وتجعل)أي(اسم استفهام مستعمل للتهويل كما درج عليه جمهور المفسرين الذين صرحوا ولم يجملوا. والذي يظهر لي أن تكون)أي(موصولة دالة على التعظيم والتهويل وهو ما يعبر عنه بالدال على معنى الكمال وتكون صفة لموصوف محذوف يدل عليه ما أضيفت إليه)أي(وتقديره: ليوم أي يوم، أي ليوم عظيم. ويكون معنى) أقتت(حضر ميقاتها الذي وقت لها، وهو قول ابن عباس جمعت،

وفي اللسان عن الفران: أقتت جمعت لوقتها، وذلك قول الله تعالى)يوم يجمع الله الرسل(وقوله)فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا(.

ويكون اللام في قوله)لأي يوم أجلت(لام التعليل، أي جمعت لأجل اليوم الذي أجلت إليه، وجملة)أجلت(صفة ليوم، وحذف العائد لظهوره، أي أجلت إليه.

وقوله)ليوم الفصل(بدل من)لأي يوم أجلت(بإعادة الحرف الذي جر به المبدل منه كقوله تعالى)تكون لنا عيدنا لأولنا وآخرنا(أي أحضرت الرسل ليوم عظيم هو يوم الفصل.

والظاهر أن المبدل منه والبدل دليلا على جواب)إذا(من قوله) فإذا النجوم طمست(الخ، إذ يعلم أن المعنى إذا حصل جميع ما ذكر فذلك وقوع ما توعدون.

وجملة)لأي يوم أجلت ليوم الفصل(قد علمت آنفا الوجه الوجيه في معناها. ومن المفسرين من جعلها مقول محذوف: يقال يوم القيامة، ولا داعي إليه.

والفصل: تمييز الحق من الباطل بالقضاء والجزاء إذ بذلك يزول الالتباس والاشتباه والتمويه الذي كان لأهل الضلال في الدنيا فتتضح الحقائق على ما هي عليه في الواقع.

وجملة)وما أدراك ما يوم الفصل(في موضع الحال من يوم الفصل، والواو واو الحال والرابط لجملة الحال إعادة اسم صاحب الحال عوضا عن ضميره، مثل:)القارعة ما القارعة(. والأصل: وما أدراك ما هو، وإنما أظهر في مقام الإضمار لتقوية استحضار يوم الفصل قصدا لتهويله.

و)ما(استفهامية مبتدأ و)أدراك(خبر، أي أعلمك. و)ما يوم الفصل(استفهام علق به فعل)أدراك(عن العمل في مفعولين، و)ما(الاستفهامية مبتدأ أيضا و)يوم الفصل(خبر عنها والاستفهامان مستعملان في معنى التهويل والتعجيب.

صفحة : 4674

)ويل يومئذ للمكذبين[15](حمل هذه الجملة عن نظائرها الآتية في هذه السورة يقتضي أن تجعل استئنافا لقصد تهديد المشركين الذين يسمعون القرآن، وتهويل يوم الفصل في نفوسهم ليحذروه، وهو متصل في المعنى بجملة)إن ما توعدون لواقع(اتصال أجزاء النظم، فموقع جملة)ويل يومئذ للمكذبين(ابتداء الكلام، وموقع جملة)إذا النجوم طمست(التأخر، وإنما قدمت لتؤذن بمعنى الشرط. وقد

حصل من تغيير النظم على هذا الوجه أن صارت جملة)ويل يومئذ للمكذبين(بمنزلة التذييل، فحصل في هذا النظم أسلوب رائع، ومعان بدائع. وبعض المفسرين جعل هذه الجملة جواب)إذا(، أي يتعلق) إذا(بالاستقرار الذي في الخبر وهو)للمكذبين(. والتقدير: إذا حصل كذا وكذا حل الويل للمكذبين وهو كالبيان لقوله)إن ما توعدون لواقع(، فيحصل تأكيد الوعيد، ولا يرد على هذا عرو الجواب عن الفاء الرابطة للجواب لأن جواب)إذا(جواب صوري وإنما هو متعلق) إذا(عومل معاملة الجواب في المعنى.

ثم أن هذه الجملة صالحة لمعنى الخبرية ولمعنى الإنشاء لأن تركيب)ويل له(يستعمل إنشاء بكثرة.

والويل: أشد السوء والشر.

وعلى جملة الأول يكون المراد بالمكذبين كذبوا بالقرآن وعلى الوجه الثاني في معنى الجملة جميع الذين كذبوا الرسل وجاءوهم به، وبذلك العموم أفادت الجملة مفاد التذييل، ويشمل ذلك المشركين الذين كذبوا بالقرآن والبعث إذ هم المقصود من هذه المواعظ وهم الموجه إليهم هذا الكلام فخوطبوا بقوله)إنما توعدون لواقع(.

)ألم نهلك الأولين[16](استئناف بخطاب موجه إلى المشركين الموجودين الذين أنكروا البعث معترض بين أجزاء كلام المخاطب به أهل الشرك في المحشر.

ويتضمن استدلالا على المشركين الذين في الدنيا، بأن الله انتقم من الذين كفروا بيوم البعث من الأمم سابقهم ولاحقهم ليحذروا أن يحل بهم ما حل بأولئك الأولين والآخرين.

والاستفهام للتقرير استدلالا على إمكان البعث بطريقة قياس التمثيل.

والمراد بالأولين الموصوفون بالأولية أي السبق في الزمان، وهذا يقر به كل جيل منهم مسبوق بجيل كفروا.

فالتعريف في)الأولين(تعريف العهد، والمراد بالأولين جميع أمم الشرك الذين قالوا قبل مشركي عصر النبوة.

والإهلاك: الإعدام والإماتة. وإهلاك الأولين له حالتان حالة غير اعتيادية تنشأ عن غضب الله تعالى، وهو إهلاك الاستئصال مثل إهلاك عاد وثمود، وحالة اعتيادية وهي ما سن الله عليه نظام هذا العالم من حياة وموت.

وكلتا الحالتين يصح أن تكون مرادا هنا، فأما الحالة غير الاعتيادية فهي تذكير بالنظر الدال على أن الله لا يرضى عن الذين كذبوا بالبعث.

وأما الحالة الاعتيادية فدليل على الذي أحيا الناس يميتهم فلا يتعذر أن يعيد إحياءهم.
)ثم نتبعهم الآخرين[17] كذلك نفعل بالمجرمين[18](حرف) ثم(للتراخي الرتبي لأن التهديد أهم من الإخبار عن أهل المحشر، لأنه الغرض من سوق هذا كله، ولأن إهلاك الآخرين اشد من إهلاك الأولين لأنه مسبوق بإهلاك آخر.
ووقعت جملة)كذلك نفعل بالمجرمين(موقع البيان لجملة)ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين(، وهو كالتذييل يبين سبب وقوع إهلاك الأولين وأنه سبب لإيقاع الإهلاك بكل مجرم، أي تلك سنة الله في معاملة المجرمين فلا محيص لكم عنها.
وذكر وصف)المجرمين(إيماء إلى أن سبب عقابهم بالإهلاك هو إجرامهم.
والإشارة في قوله)كذلك(إلى الفعل المأخوذ من)نفعل(، أي مثل ذلك الفعل نفعل.
و)المجرمون(من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن قال تعالى)إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون(وسيأتي في هذه السورة)كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون(.
)ويل يومئذ للمكذبين[19](تقرير لنظيره المتقدم تأكيدا للتهديد وإعادة لمعناه.
والتهديد: من مقامات التكرير كقول الحارث بن عياد:
قربا مربط النعامة مني الذي كرره مرارا متوالية في قصيدته اللامية التي أثارت حرب البسوس.
فعلى الوجه الأول في موقع جملة)ويل يومئذ للمكذبين(يقدر الكلام المعوض عنه تنوين)يومئذ(يوم إذ يقال لهم)ألم نهلك الأولين(.

والمراد بالمكذبين: المخاطبون فهو إظهار في مقام الإضمار لتسجيل أنهم مكذبون، والمعنى: ويل يومئذ لكم.
وعلى الوجه الثاني في موقع الجملة يقدر المحذوف المعرض عنه التنوين: يوم إذ النجوم طمست الخ، فتكون الجملة تأكيدا لفظيا لنظيرتها التي تقدمت. والمراد بالمكذبين جميع المكذبين الشامل للسامعين.
وعلى الاعتبارين فتقرير معنى الجملتين حاصل لأن اليوم يوم واحد ولأن المكذبين يصدق بالأحياء وبأهل المحشر.

)ألم نخلقكم من ماء مهين[20] فجعلناه في قرار مكين[21] إلى قدر معلوم[22] فقدرنا فنعم القادرون[23](تقرير أيضا يجري فيه ما تقدم في قوله)ألم نهلك الأولين(، جيء به على طريقة تعداد الخطاب في مقام التوبيخ والتقريع.

وكل من التقرير والتقريع في مقتضيات ترك العطف لشبهه بالتكرير في أنه تكرير معنى وإن لم يكن تكرير لفظ، والتكرير شبيه بالأعداد المسرودة فكان حقه ترك العطف فيه.

وقد جاء هنا التقرير على ثبوت الإيجاد بعد العدم إيجادا متقنا دالا على كمال الحكمة والقدرة ليفضى بذلك التقرير إلى التوبيخ على إنكار البعث والإعادة وإلى إثبات البعث بإمكانه بإعادة الخلق كما بدئ أول مرة وكفى بذلك مرجحا لوقوع هذا الممكن لأن القدرة تجري على وفق الإرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن على عدمه.

والماء: هو ماء الرجل. والمهين: الضعيف فعيل من مهن، إذا ضعف، وميمه أصلية وليس هو من مادة هان.

وهذا الوصف كناية رمزية عن عظيم قدرة الله تعالى إذ خلق من هذا الماء الضعيف إنسانا شديد القوة عقلا وجسما.

وحرف)من(للابتداء لأن تكوين الإنسان نشأ من ذلك الماء كما تقول هذه النخلة من نواة توزرية.

وجعل خلق الإنسان من ماء الرجل لأنه لا يتم تخلقه إلا بذلك الماء إذا لاقى بويضات الدم في الرحم، فاقتصرت الآية على ما هو مشهور بين الناس لأنهم لا يعلمون أكثر من ذلك، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم تكوين الجنين من ماء المرأة وماء الرجل.

وقوله)فجعلناه في قرار مكين(تفصيل لكيفية الخلق على سبيل الإدماج مع مناسبته لأن له دخلا في تبيين إن كان الإعادة إذ شديد القدرة لا يعجزه شيء، ولذلك ذيله بقوله)فنعم القادرون(على التفسيرين الآتيين.

والقرار: محل القرور والمكث.

ومكين: صفة ل)قرار(، أي مكان متمكن في ذلك فهو فعيل من مكن مكانة، إذا ثبت ورسخ.

ووصف القرار بالمكين على طريقة المجاز العقلي، أي مكين الحال والمستقر فيه. فالتقدير: مكين فيه. والمراد بالقرار المكين: الرحم.

والقدر: بفتح الدال المقدار المعين المضبوط، والمراد مقدار من الزمان وهو مدة الحمل.

وقرأ نافع والكسائي وأبو جعفر)فقدرنا(بتشديد الدال. وقرأه الباقون بتخفيف الدال من قدر المتعدي وهما بمعنى واحد، يقال: قدر بالتشديد تقديرا فهو مقدر، وقدر بالتخفيف قدرا فهو قادر، إذا جعل الشيء على مقدار مناسب لما جعل له.

والمعنى: فقدرنا الخلق كقوله تعالى)من نطفة خلقه فقدره(وقوله)وخلق كل شيء فقدره تقديرا(.
والفاء في قوله)فقدرنا(للتفريع على قوله فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم(، أي جعلناه في الرحم إلى انتهاء أمد الحمل فقدرنا أطوار خلقكم حتى أخرجناكم أطفالا.
والفاء في)فنعم القادرون(للتفريع على)قدرنا(أي تفريع إنشاء ثناء، أي فدل تقديرنا على أننا نعم القادرون، أي كان تقديرنا تقدير أفضل قادر، وهذا تنويه بذلك الخلق العجيب بالقدرة.
و)القادرون(: اسم فاعل من قدر اللازم إذا كان ذا قدرة وبذلك يكون الكلام تأسيسا لا تأكيدا، أي فنعم القادرون على الأشياء.
وعلامة الجمع للتعظيم مثل نون)قدرنا(فإن القدرة لما أتت بما هو مقتضى الحكمة كانت قدرة جديرة بالمدح.
)ويل يومئذ للمكذبين[24](هو نحو ما تقدم في نظيره الموالي هو له.
)ألم نجعل الأرض كفاتا[25] أحياء وأمواتا[26] وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا[27](

صفحة : 4676

جاء هذا التقرير على سنن سابقيه في عدم العطف لأنه على طريقة التكرير للتوبيخ، وهو تقرير لهم بما أنعم الله به عليهم من خلق الأرض بما فيها مما فيه منافعهم كما قال تعالى)متاع لكم ولأنعامكم(.
ومحل الامتنان هو قوله)أحياء(، وأما قوله)وأمواتا(فتتميم وإدماج.
وكفات: اسم للشيء الذي يكفت فيه، أي يجمع ويضم فيه، فهو اسم جاء على صيغة الفعال من كفت، إذا جمع، ومنه سمي الوعاء: كفاتا، كما سمي ما يعي الشيء: وعاء، وما يضم الشيء: الضمام.
و)أحياء(مفعول)كفاتا(لأن)كفاتا(فيه معنى الفعل كأنه قيل كافتة أحياء. وقد يقولون منصوب بفعل مقدر دل عليه)كفاتا(وكل ذلك متقارب.
و)أمواتا(عطف عليه وهو إدماج وتتميم لأن فيه مشاهدة الملازمة بين الأحياء والأموات تدل على أن الحياة هي المقصود من الخلقة.
وهذا تقرير لهم بالاعتراف بالأحوال المشاهدة في الأرض الدالة على تفرد الله تعالى بالإلهية.
وتنوين)أحياء وأمواتا(للتعظيم مرادا به التكثير ولذلك لم يؤت بهما معرفين باللام، وفائدة ذكر هذين الجمعين ما في معنييهما من التذكير بالحياة والموت.

وقد تصدى الكلام لإثبات البعث بشواهد ثلاثة: أحدهما: بحال الأمم البائدة في انقراضها.
الثاني: بحال تكوين الإنسان.
الثالث: مصير الكل إلى الأرض وفي كل ذلك إبطال لإحالتهم وقوع البعث لأنهم زعموا استحالته فأبطلت دعواهم بإثبات إمكان البعث فإنه إذا ثبت الإمكان بطلت الاستحالة فلم يبق إلا النظر في أدلة ترجيح وقوع ذلك الممكن.
وفي الآية امتنان بجعل الأرض صالحة لدفن الأموات، وقد ألهم الله لذلك ابن آدم حين قتل أخاه كما تقدم ذكره في سورة المائدة، فيؤخذ من الآية وجوب الدفن في الأرض إلا إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو كان الإرساء يضر بالراكبين أو يخاف تعفن الجثة فإنها يرمى بها في البحر وتثقل بشيء لترسب إلى غريق الماء. وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مجوس الهند، وكان يفعله بعض الرومان، ولا وضعه لكواسر الطير كما كان يفعل مجوس الفرس، وكان أهل الجاهلية يتمدحون بالميت الذي تأكله السباع أو الضباع وهو الذي يموت في فلاة، قال تأبط:
لا تدفنوني إن دفني مـحـرم عليكم
ولكن خامري أم عامر وهذا من جهالة الجاهلية وكفران النعمة.
واحتج ابن القاسم من أصحاب مالك بهذه الآية لكون القبر حرزا فأوجب القطع على من سرق من القبر كفنا أو ما يبلغ ربع دينار، وقال مالك: القبر حوز للميت كما أن البيت حوز للحي.
وفي مفاتيح الغيب عن تفسير القفال: أن ربيعة استدل بها على ذلك.
والرواسي: جمع رأس، أي جبالا رواسي، أي ثوابت في الأرض قال السموأل:
رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى
النجم فرع لا ينال طـويل وجمع على فواعل لوقوعه صفة لمذكور غير عاقل وهذا امتنان بخلق الجبال لأنهم كانوا يأوون إليها وينتفعون بما فيها من كلأ وشجر قال تعالى)والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم(.
والشامخات: المرتفعات.
وعطف)وأسقيناكم ماء فراتا(لمناسبة ذكر الجبال لأنها تنحدر منها المياه تجري في أسافلها وهي الأودية وتقر في قرارات وحياض وبحيرات.
والفرات: العذب وهو ماء المطر.

وتنوين)شامخات(و)ماء فراتا(للتعظيم لدلالة ذلك على عظيم القدرة.
)ويل يومئذ للمكذبين[28](تكرير للتوبيخ والتقريع مثل نظيرة الواقع ثانيا في هذه السورة.
)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون[29] انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب[30] لا ظليل ولا يغني من اللهب[31](هذا خطاب للمكذبين في يوم الحشر فهو مقول قول محذوف دل عليه صيغة الخطاب بالانطلاق دون وجود مخاطب يؤمر به الآن.
والضمير المقدر مع القول المحذوف عائد إلى المكذبين، أي يقال للمكذبين.
والأمر بانطلاقهم مستعمل في التسخير لأنهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسرا.
وما كانوا به يكذبون هو جهنم وعبر عنه بالموصول وصلته لما تتضمنه الصلة من النداء على خطئهم وضلالهم على طريقة قول عبده بن الطبيب:

إن الذين ترونـهـم إخـوانـكـم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا وجملة)انطلقوا إلى ظل(إلى آخرها، بدل اشتمال أو مطابق من جملة)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون(.
وأعيد فعل)انطلقوا(على طريقة التكرير لقصد التوبيخ أو الإهانة والدفع، ولأجله أعيد فعل)انطلقوا(، وحرف)إلى(.
ومقتضى الظاهر أن يقال انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ظل ذي ثلاث شعب، فإعادة العامل في البدل للتأكيد في مقام التقريع.
وأريد بالظل دخان جهنم لكثافته، فعبر عنه بالظل تهكما بهم لأنهم يتشوقون ظلا يأوون إلى برده.
وأفرد ظل هنا لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا متراصين تحته لأن ذلك التراص يزيدهم ألما.
وقرأ الجمهور)انطلقوا(الثاني بكسر اللام مثل)انطلقوا(الأول، وقرأه رويس عن يعقوب بفتح اللام على صيغة الفعل الماضي على معنى أنهم أمروا بالانطلاق إلى النار فانطلقوا إلى دخانها، وإنما لم يعطف بالفاء لقصد الاستئناف ليكون خبرا آخر عن حالهم.
والشعب: اسم جمع شعبة وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، أي ذي ثلاث طوائف وأريد بها طوائف من الدخان فإن النار إذا

عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها.
فوصف الدخان بأنه ذو ثلاث شعب لأنه يكون كذلك يوم القيامة. وقد قيل في سبب ذلك: إن شعبة منه عن اليمين وشعبة عن اليسار وشعبة من فوق، قال الفخر: وأقول هذا غير مستبعد لأن الغضب عن يمينه والشهوة عن شماله والقوة الشيطانية في دماغه، ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الإنسان في عقائده وفي أعماله ليس إلا هذه الثلاثة، ويمكن أن يقال ها هنا ثلاث درجات وهي: الحس، والخيال، والوهم. وهي مانعة للروح من الاستنارة بأنوار عالم القدس اه.
والظليل: القوي في ظلاله، اشتق له وصف من اسمه لإفادة كماله فيما يراد منه مثل: ليل أليل، وشعر شاعر، أي ليس هو مثل ظل المؤمنين قال تعالى)وندخلهم ظلا ظليلا(. وفي هذا تحسير لهم وهو في معنى قوله تعالى)وظل من يحموم لا بارد ولا كريم(.
وجر)ظليل(على النعت ل)ظل(، وأقحمت)لا(فصارت من جملة الوصف ولا يظهر فيها إعراب كما تقدم في قوله تعالى)إنها بقرة لا فارض ولا بكر(وشأن لا إذا أدخلت في الوصف أن تكرر فلذلك أعيدت في قوله)ولا يغني من اللهب(.
والإغناء: جعل الغير غنيا، أي غير محتاج في ذلك الغرض، وتعديته ب)من(على معنى البدلية أو لتضمينه معنى:يبعد، ومثله قوله تعالى)وما أغني عنكم من الله من شيء(. وبذلك سلب عن هذا الظل خصائص الظلال لأن شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألم الحر.
)إنها ترمي بشرر كالقصر[32] كأنه جمالات صفر[33](يجوز أن يكون هذا من تمام ما يقال للمكذبين الذين قيل لهم)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون(، فإنهم بعد أن حصل لهم اليأس مما ينفس عنهم ما يلقون من العذاب، وقيل لهم: انطلقوا إلى دخان جهنم ربما شاهدوا ساعتئذ جهنم تقذف بشررها فيروعهم المنظر، أو يشاهدونها عن بعد لا تتضح منه الأشياء وتظهر عليهم مخائل توقعهم أنهم بالغون إليه فيزداد روعا وتهويلا، فيقال لهم: أن جهنم ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر.
ويجوز أن يكون اعتراضا في أثناء حكاية حالهم، أو في ختام حكاية حالهم.
فضمير)إنها(عائد إلى جهنم التي دل عليها قوله)ما كنت به تكذبون(كما يقال للذي يساق إلى القتل وقد رأى رجلا بيده سيف فاضطرب لرويته فيقال له: إنه الجلاد.

وإجراء تلك الأوصاف في الإخبار عنها لزيادة الترويع والتهويل، فإن كانوا يرون ذلك الشرر لقربهم منه فوصفه لهم لتأكيد الترويع والتهويل بتظاهر السمع مع الرؤية. وإن كانوا على بعد منه فالوصف للكشف عن حاله الفظيعة.
وتأكيد الخبر ب)إن(للاهتمام به لأنهم حينئذ لا يشكون في ذلك سواء رأوه أو أخبروا به.
والشرر: اسم جمع شررة: وهي القطعة المشتعلة من دقيق الحطب يدفعها لهب النار في الهواء من شدة التهاب النار.

والقصر: البناء العالي. والتعريف فيه للجنس، أي كالقصور لأنه شبه به جمع، وهذا التعريف مثل تعريف الكتاب في قوله تعالى)وأنزلنا معهم الكتاب(، أي الكتب. وعن ابن عباس: الكتاب أكثر من الكتب، أي كل شررة كقصر، وهذا تشبيه في عظم حجمه.
وقوله)كأنه جمالات صفر(تشبيه في حجمه ولونه وحركته في تطايره بجمالات صفر. وضمير)كأنه(عائد إلى شرر.
والجمالات: بكسر الجيم جمع جمالة وهي اسم جمع طائفة من الجمال، أي تشبه طوائف من الجمال متوزعة فرقا، وهذا تشبيه مركب لأنه تشبيه في هيئة الحجم مع لونه مع حركته. والصفرة: لون الشرر إذا ابتعد عن لهيب ناره.
وقرأ الجمهور)جمالات(بكسر الجيم وألف بعد اللام فهو جمع جمالة. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف) جمالة(بكسر الجيم بدون ألف بعد اللام وهو جمع جمل مثل حجر وحجارة.
وقرأه رويس عن يعقوب)جمالات(بضم الجيم وألف بعد اللام جمع جمالة بالضم وهي حبل تشد به السفينة، ويسمى القلس بقاف مفتوحة ولام ساكنة والتقدير: كأن الواحدة منها جمالة، و)صفر(على هذه القراءة نعت ل)جمالات(أو ل)شرر(.
قال صاحب الكشاف: وقال أبو العلاء يعني المعري في صفة نار قوم مدحهم بالكرم:
حمراء ساطعة الذوائب في الدجى
ترمي بكل شرارة كـطـراف شبه الشرارة بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله حمراء توطئة لها ومناداة عليها وتنبيها للسامعين على مكانها، ولقد

عمي جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا)كأنه جمالات صفر(فإنه بمنزلة قوله كبيت أحمر وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء فأبعد الله إغرابه في طرافه وما نفخ شدقيه من استطرافه اه.

وأقول: هذا الكلام ظن سوء بالمعري لم يشم من كلامه، ولا نسبه إليه أحد من أهل نبزه وملامه، زاد به الزمخشري في طنبور أصحاب النقمة، لنبز المعري ولمزه نغمة.

قال الفخر: كان الأولى لصاحب الكشاف أن لا يذكر ذلك أي لأنه ظن سواء بلا دليل .

وقال الطيبي: وليس كذلك لأنه لا يخفى على مثل المعري: أن الكلام بآخره لأن الله شبه الشرارة: أولا حين تنفصل عن النار بالقصر في العظم، وثانيا حين تأخذ في الارتفاع والانبساط فتنشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات في التفرق واللون والعظم والثقل، ونظر في ذلك إلى الحيوان وأن تلك الحركات اختيارية وكل ذلك مفقود في بيته.

)ويل يومئذ للمكذبين[34](تكرير لقصد تهديد المشركين الأحياء والقول فيه كالقول في نظيره الواقع ثانيا في هذه السورة.

)هذا يوم لا ينطقون[35] ولا يؤذن لهم فيعتذرون[36](إن كانت الإشارة على ظاهرها كان المشار إليه هو اليوم الحاضر وهو يوم الفصل فتكون الجملة من تمام ما يقال لهم في ذلك اليوم بعد قوله)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون(فيكون في الانتقال من خطابهم بقوله)انطلقوا(إلى إجراء ضمائر الغيبة عليهم، التفات يزيده حسنا أنهم قد استحقوا الإعراض عنهم بعد إهانتهم بخطاب)انطلقوا(.

وهذا الوجه أنسب بقوله تعالى بعده)هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين(، وموقع الجملة على هذا التأويل موقع تكرير التوبيخ الذي أفاده قوله)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون(وهو من جملة ما يقال لهم في ذلك اليوم، واسم الإشارة مستعمل في حقيقته للقريب.

وإن كانت الإشارة إلى المذكور في اللفظ وهو يوم الفصل المتحدث عنه بأن فيه الويل للمكذبين، كان هذا الكلام موجها إلى الذين خوطبوا بالقرن كلهم إنذارا للمشركين منهم وإنعاما على المؤمنين، فكانت ضمائر الغيبة جارية على أصلها وكانت عائدة على المكذبين من قوله)ويل يومئذ للمكذبين(وتكون الجملة معترضة بين جملة)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون(، وجملة)هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين(. واسم الإشارة الذي هو إشارة إلى القريب

مستعمل في مشار إليه بعيد باعتبار قرب الحديث عنه على ضرب من المجاز أو التسامح.
واسم الإشارة مبتدأ و)يوم لا ينطقون(خبر عنه.

صفحة : 4679

وجملة)لا ينطقون(مضاف إليها)يوم(، أي هو يوم يعرف بمدلول هذه الجملة، وعدم تنوين)يوم(لأجل إضافته إلى الجملة كما يضاف)حين(. والأفصح في هذه الأزمان ونحوه إذا أضيف إلى جملة مفتتحة ب)لا(النافية أن يكون معربا، وهو لغة مضر العليا. وأما مضر السفلى فهم يبنونه على الفتح دائما.
وعطف)ولا يؤذن لهم فيعتذرون(على جملة)لا ينطقون(، أي لا يؤذن إذنا يتفرع عليه اعتذارهم، أي لا يؤذن لهم في الاعتذار. فالاعتذار هو المقصود بالنفي، وجعل نفي الإذن لهم توطئة لنفي اعتذارهم، ولذلك جاء)فيعتذرون(مرفوعا ولم يجيء منصوبا على جوانب النفي إذ ليس المقصود نفي الإذن وترتب نفي اعتذارهم على نفي الإذن لهم إذ لا محصول لذلك، فلذلك لم يكن نصب) فيعتذرون(مساويا للرفع بل ولا جائزا بخلاف نحو)لا يقضى عليهم فيموتوا(فإن نفي القضاء عليهم وهم في العذاب مقصود لذاته لأنه استمرار في عذابهم ثم أجيب بأنه لو قضي عليهم لماتوا، أي فقدوا الإحساس، فمعنى الجوابية هنالك مما يقصد. ولذا فلا حاجة هنا إلى ما ادعاه أبو البقاء أن)فيعتذرون(استئناف تقديره: فهم يعتذرون، ولا إلى ما قاله ابن عطية تبعا للطبري: إنه ينصب لأجل تشابه رؤوس الآيات، وبعد فإن مناط النصب في جواب النفي قصد المتكلم جعل الفعل جوابا للنفي لا مجرد وجود فعل مضارع بعد فعل منفي.
واعلم أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين الآيات التي جاء فيها ما يقضي أنهم يعتذرون نحو قوله تعالى)قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل(لأن وقت انتفاء نطقهم يوم الفصل.
وأما نطقهم المحكي في قوله)ربنا أمتنا اثنتين(فذلك صراخهم في جهنم بعد انقضاء يوم الفصل، وبنحو هذا أجاب ابن عباس نافع بن الأزرق حين قال نافع: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال الله)ولا يتساءلون(، وقال)وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون(فقال ابن عباس: لا يتساءلون في النفخة الأولى حين نفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض فلا يتساءلون حينئذ، ثم في النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. والذي يجمع

الجواب عن تلك الآيات وعن أمثالها هو أنه يجب التنبيه إلى مسألة الوحدات في تحقق التناقض.
)ويل يومئذ للمكذبين[37](تكرير لتهديد المشركين متصل بقوله)هذا يوم لا ينطقون(الآية على أول الوجهين في موقع ذلك، أو هو وارد لمناسبة قوله)هذا يوم لا ينطقون(على ثاني الوجهين المذكورين فيه فيكون تكريرا لنظيره الواقع بعد قوله)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون(إلى قوله)صفر(اقتضى تكريره عقبه أن جملة)هذا يوم لا ينطقون(الخ تتضمن حالة من أحوالهم يوم الحشر لم يسبق ذكرها فكان تكرير)ويل يومئذ للمكذبين(بعدها لوجود مقتضي تكرير الوعيد للسامعين.
)هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين[38] فإن كان لكم كيد فكيدون[39](تكرير لتوبيخهم بعد جملة)انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون(، شيع به القول الصادر بطردهم وتحقيرهم، فإن المطرود يشيع بالتوبيخ، فهو مما يقال لهم يومئذ، ولم تعطف بالواو لأنها وقعت موقع التذييل للطرد، وذلك من مقتضيات الفصل سواء كان التكرير بإعادة اللفظ والمعنى، أم كان بإعادة المعنى والغرض.
والإشارة إلى المشهد الذي يشاهدونه من حضور الناس ومعدات العرض والحساب لفصل القضاء بالجزاء.
والإخبار عن اسم الإشارة بأنه يوم الفصل باعتبار أنهم يتصورون ما كانوا يسمعون في الدنيا من محاجة عليهم لإثبات يوم يكون فيه الفصل وكانوا ينكرون ذلك اليوم وما يتعذرون بما يقع فيه، فصارت صورة ذلك اليوم حاضرة في تصورهم دون إيمانهم به فكانوا الآن متهيئين لأن يوقنوا بأن هذا هو اليوم الذي كانوا يوعدون بحلوله، وقد عرف ذلك اليوم من قبل بأنه يوم الفصل، أي القضاء وقد رأوا أهبة القضاء.
وجملة)جمعناكم والأولين(بيان للفصل بأنه الفصل في الناس كلهم لجزاء المحسنين والمسيئين كلهم، فلا جرم جمع في ذلك اليوم الأولون والآخرون قال تعالى)قل أن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم(.

صفحة : 4680

والمخاطبون بضمير)جمعناكم(: المشركون الذين سبق الكلام لتهديدهم وهم المكذبون بالقرآن، لأن عطف)والأولين(على الضمير يمنع من أن يكون الضمير لجميع المكذبين مثل الضمائر التي قبله،

لأن الأولين من جملة المكذبين فلا يقال لهم: جمعناكم والأولين، فتعين أن يختص بالمكذبين بالقرآن.

والمعني: جمعناكم والسابقين قبلكم من المكذبين.

وقد أنذروا بما حل بالأولين أمثالهم من عذاب الدنيا في قوله) ألم نهلك الأولين(. فأريد توقيفهم يومئذ على صدق ما كانوا ينذرون به في الحياة الدنيا من مصيرهم إلى ما صار إليه أمثالهم، فلذلك لم يتعلق الغرض بذكر الأمم التي جاءت من بعدهم.

وباعتبار هذا الضمير فرع عليه قوله)فإن كان لكم كيد فكيدون(فكان تخلصا إلى توبيخ الحاضرين على ما يكيدون به للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين قال تعالى)إنهم يكدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا(وأن كيدهم زائل وأن سوء العقبى عليهم.

وفرع على ذلك)فإن كان لكم كيد فكيدون(، أي فإن كان لكم كيد اليوم كما كان لكم في الدنيا، أي كيد بديني ورسولي فافعلوه.

والأمر للتعجيز، والشرط للتوبيخ والتذكير بسوء صنيعهم في الدنيا، والتسجيل عليهم بالعجز عن الكيد يومئذ حيث مكنوا من البحث عما عسى أن يكون لهم من الكيد فإذا لم يستطيعوه بعد ذلك فقد سجل عليهم العجز، وهذا من العذاب الذي يعذبونه إذ هو من نوع العذاب النفساني وهو أوقع على العاقل من العذاب الجسماني.

)ويل يومئذ للمكذبين[40](تكرير للوعيد والتهديد وهو متصل بما قبله كاتصال نظيره المذكور آنفا.

)إن المتقين في ظلال وعيون[41] وفواكه مما يشتهون[42] كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون[43] إنا كذلك نجزي المحسنين[44](يجوز أن يكون هذا ختام الكلام الذي هو تقريع للمشركين حكي لهم فيه نعيم المؤمنين الذي لا يشاهده المشركون لبعدهم عن مكانه فيحكي لهم يومئذ فيما يقال لهم ليكون ذلك أشد حسرة عليهم وتنديما لهم على ما فرطوا فيه مما بادر إليه المتقون المؤمنون ففازوا، فيكون هذا من جملة القول الذي حذف فعله عند قوله)انطلقوا(الخ.

ويجوز أن يكون هذا ابتداء كلام مستأنف انتقل به إلى ذكر نعيم المؤمنين المتقين تنويها بشأنهم وتعريضا لترغيب من المشركين الموجودين في الإقلاع عنه لينالوا كرامة المتقين.

وظلال: جمع ظل، وهي ظلال كثيرة لكثرة شجر الجنة كثرة المستظلين بظلها، ولأن كل واحد منهم ظلا يتمتع فيه هو ومن إليه، وذلك أوقع في النعيم.

والتعريف في)المتقين(للاستغراق فلكل واحد من المتقين كون في ظلال.

و)في(للظرفية وهي ظرفية حقيقية بالنسبة للظلال لأن المستظل يكون مظروفا في الظل، وظرفية مجازية بالنسبة للعيون والفواكه تشبيها لكثرة ما حولهم من العيون والفواكه بإحاطة الظروف، وقوله)مما يشتهون(صفة)فواكه(. وجمع)فواكه(الفواكه وغيرها، فالتبعيض الذي دل عليه حرف)من(تبعيض من أصناف الشهوات لا من أصناف الفواكه فأفاد أن تلك الفواكه مضمومة إلى ملاذ أخرى مما اشتهوه.

وجملة)كلوا واشربوا(مقول قول محذوف، وذلك المحذوف من موقع الحال من)المتقين(، والتقدير: مقولا لهم كلوا واشربوا.

والمقصود من ذلك القول كرامتهم بعرض تناول النعيم عليهم كما يفعله المضيف بضيوفه فالأمر في)كلوا واشربوا(مستعمل في العرض.

و)هنيئا(دعاء تكريم كما يقال للشارب أو الطعام في الدنيا: هنيئا مريئا، كقوله تعالى)فكلوه هنيئا مريئا(في سورة النساء.

و)هنيئا(وصف لموصوف غير مذكور دل عليه فعل)كلوا واشربوا(وذلك الموصوف مفعول مطلق من)كلوا واشربوا(مبين للنوع لقصد الدعاء مثل: سقيا، ورعيا بالدعاء بالخير، وتبا وسحقا في ضده.

والباء في)بما كنتم تعملون(للسببية، أي لإفادة تسبب ما بعدها في وقوع متعلقه، أي كلوا واشربوا بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة وذلك من إكرامهم بأن جعل ذلك الإنعام حقا لهم.

صفحة : 4681

وجملة)إنا كذلك نجزي المحسنين(ويجوز أن تكون مما يقال للمتقين بعد أن قيل لهم كلوا واشربوا الخ مسوقة إليهم مساق زيادة الكرامة بالثناء عليهم، أي هذا النعيم الذي أنعمت به عليكم هو سنتنا في جزاء المحسنين فإذا قد كنتم من المحسنين فذلك جزاء لكم نلتوه بأنكم من أصحاب الحق في مثله، ففي هذا هز من أعطاف المنعم عليهم.

والمعنى عليه: أن هذه الجملة تقال لكل متق منهم، أو لكل جماعة منهم مجتمعة على نعيم الجنة، وليعلموا أيضا أن أمثالهم في الجنات الأخرى لهم من الجزاء مثل ما هم ينعمون به.

ويجوز أن تكون الجملة موجهة إلى المكذبين الموجودين بعد أن وصف لهم ما ينعم به المتقون إثر قوله)إن المتقين في ظلال

وعيون(الخ، قصد منها التعريض بأن حرمانهم من مثل ذلك النعيم هم الذين قضوا به على أنفسهم إذ أبوا أن يكونوا من المحسنين تكملة لتنديمهم وتحسيرهم الذي بودئوا به من قوله)إن المتقين في ظلال وعيون(إلى آخره، أي إنا كذلك نجزي المحسنين دون أمثالكم المسيئين.
ووقع الجملة على كلا الاعتبارين موقع التعليل لما قبلها على كلا التقديرين فيما قبلها، ومن أجل الإشعار بهذا التعليل افتتحت ب)إن(مع خلو المقام عن التردد في الخبر إذ الموقف يومئذ موقف الصدق والحقيقة، فلذلك كانت)إن(متمحضة لإفادة الاهتمام بالخبر وحينئذ تصير مغنية غناء فاء التسبب وتفيد مفاد التعليل والربط كما تقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى)إن البقر تشابه علينا(وتفصيله عند قوله)إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة(في سورة آل عمران.
والإشارة بقوله)كذلك(إلى النعيم المشاهد إن كانت الجملة التي فيها إشارة موجهة إلى المتقين، أو الإشارة إلى النعيم الموصوف في قوله)في ظلال وعيون(إن كانت الجملة المشتملة على اسم الإشارة موجهة إلى المكذبين.
والجملة على كل تقدير تفيد معنى التذييل بما اشتملت عليه من شبه عموم كذلك، ومن عموم المحسنين، فاجتمع فيها التعليل التذييل.
)ويل يومئذ للمكذبين(هي على الوجه الأول في جملة)إن المتقين في ظلال وعيون(تكرير لنظائرها. واليوم المضاف إلى)إذ(ذات تنوين العوض هو يوم صدور تلك المقالة.
وأما على الوجه الثاني من جملة)إن المتقين في ظلال وعيون(الخ فهي متصلة بتلك الجملة لمقابلة ذكر نعيم المؤمنين المطنب في وصفه بذكر ضده للمشركين بإيجاز حاصل من كلمة)ويل(لتحصل مقابلة الشيء بضده ولتكون هذه الجملة تأكيدا لنظائرها، واليوم المضاف إلى)إذ(يوم غير مذكور ولكنه مما يقتضيه كون المتقين في ظلال وعيون وفواكه ليعلم بأن ذلك يكون لهم في يوم القيامة.
)كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون[46](خطاب للمشركين الموجودين الذين خوطبوا بقوله تعالى)إن ما توعدون لواقع(وهو استئناف ناشئ عن قوله)إنا كذلك نجزي المحسنين(إذ يثير في نفوس المكذبين المخاطبين بهذه القوارع ما يكثره خطوره في نفوسهم من أنهم في هذه الدنيا في نعمة محققة وأن ما يوعدون به غير واقع فقيل لهم)كلوا وتمتعوا قليلا(.

فالأمر في قوله)كلوا وتمتعوا(مستعمل في الإمهال والإنذار، أي ليس أكلكم وتمتعكم بلذات الدنيا بشيء لأنه تمتع قليل ثم مأواكم العذاب الأبدي قال تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد(.
وجملة)إنكم مجرمون(خبر مستعمل في التهديد والوعيد بالسوء، أي أن إجرامكم مهو بكم إلى العذاب، وذلك مستفاد من مقابلة وصفهم بالإجرام بوصف)المتقين(بالإحسان إذ الجزاء من جنس العمل، فالجملة واقعة موقع التعليل.
وتأكيد الخبر ب)إن(لرد إنكارهم كونهم مجرمين.
)ويل يومئذ للمكذبين[47](هو مثل نظيره المذكور ثانيا في هذه السورة.
ويزيد على ذلك بأن له ارتباطا خاصا بجملة)كلوا وتمتعوا قليلا(لما في)تمتعوا قليلا(من الكناية عن ترقب سوء عاقبة لهم فيقع قوله)ويل يومئذ للمكذبين(موقع البيان لتلك الكناية، أي كلوا وتمتعوا قليلا الآن وويل لكم يوم القيامة.
)وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون[48](

صفحة : 4682

يجوز أن يكون عطفا على قوله)للمكذبين(، والتقدير: والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، فإن)ال(الداخلة على الأوصاف المشتقة بمنزلة اسم الموصول غالبا، ولذلك جعلها النحاة في عداد أسماء الموصول وجعلوا الوصف الداخلة عليه صلة لها.
ويجوز أن يكون عطفا على جملة)كلوا وتمتعوا قليلا(والانتقال من الخطاب إلى الغيبة التفات.
وعلى كلا الوجهين فهو من الإدماج لينعى عليهم مخالفتهم المسلمين في الأعمال الدالة على الإيمان الباطن فهو كناية عن عدم إيمانهم لأن الصلاة عماد الدين ولذلك عبر عن المشركين ب)الذين هم عن صلاتهم ساهون(.
والمعنى: إذا قيل لهم آمنوا واركعوا لا يؤمنون ولا يركعون كما كني عن عدم الإيمان لما حكي عنهم في الآخرة)ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين(إلى آخره.
ويجوز أن يكون عطفا على قوله)إنكم مجرمون(.

وعلى الوجوه كلها يفيد تهديدهم لأنه معطوف على التكذيب أو على الإجرام، وكلاهما سبب للتهديد بجزاء السوء في يوم الفصل.

وليس في الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لعدم تعين معنى المصلين للذين يقيمون الصلاة.

)ويل يومئذ للمكذبين[49](هذه الجملة مثل نظيرها الموالية هي له، إذ يجوز أن تكون متصلة بقوله)وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون(ويكون التعبير ب)المكذبين(إظهار في مقام الإضمار لقصد وصفهم بالتكذيب. والتقدير: ويل يومئذ لهم أو لكم فهي تهديد ناشئ عن جملة)وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون(، ويكون اليوم المشار إليه ب)يومئذ(الزمان الذي يفيده)إذا(من قوله)وإذا قيل لهم اركعوا(الذي يجازى فيه بالويل للمجرمين الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، أي لا يؤمنون، وتفيد مع ذلك تقريرا وتأكيدا لنظيرها المذكور ثانيا في هذه السورة.

)فبأي حديث بعده يؤمنون[50](الفاء فصيحة تنبئ عن شرط مقدر تقديره: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي حديث بعده يؤمنون، وقد دل على تعيين هذا المقدر ما تكرر في آيات)ويل يومئذ للمكذبين(فإن تكذيبهم بالقرآن وما جاء فيه من وقوع البعث.

والاستفهام مستعمل في الإنكار التعجيبي من حالهم، أي إذا لم يصدقوا بالقرآن مع وضوح حجته فلا يؤمنون بحديث غيره.

والمقصود أن القرآن بالغ الغاية في وضوح الدلالة ونهوض الحجة فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلام يسمعونه عقب ذلك.

وقوله)بعده(يجوز أن يجعل صفة حديث فهو ظرف مستقر، والمراد بالبعدية: تأخر الزمان، ويقدر معنى بالغ أو مسموع بعد بلوغ القرآن أو سماعه سواء كان حديثا موجودا قبل نزول القرآن، أو حديثا يوجد بعد القرآن، فليس المعنى أنهم يؤمنون بحديث جاء قبل القرآن مثل التوراة والإنجيل وغيرهما من المواعظ والأخبار، بل المراد أنهم لا يؤمنون بحديث غيره بعد أن لم يؤمنوا بالقرآن لأنه لا يقع إليهم كلام أوضح دلالة وحجة من القرآن.

ويجوز أن يكون)بعده(متعلقا ب)يؤمنون(فهو ظرف لغو ويبقى لفظ)حديث(منفيا بلا قيد وصف أنه بعد القرآن، والمعنى: لا يؤمنون بعد القرآن بكل حديث.

وضمير بعده عائد إلى القرآن ولم يتقدم ما يدل عليه في هذه السورة ليكون معادا للضمير ولكنه اعتبر كالمذكور لأنه ملحوظ لأذهانهم كل يوم من أيام دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم به.

وتقدم نظير هذه الآية في أواخر سورة الأعراف فضمه إلى ما هنا.

ويجوز أن يكون ضمير بعده عائدا إلى القول المأخوذ من) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون(فإن أمرهم بالركوع الذي هو كناية عن الإيمان كان بأقوال القرآن.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة)سورة النبإ(لوقوع كلمة)النبأ(في أولها.

وسميت في بعض المصاحف وفي صحيح البخاري وفي تفسير ابن عطية والكشاف)سورة عم يتساءلون(. وفي تفسير القرطبي سماها)سورة عم(، أي بدون زيادة)يتساءلون(تسمية لها بأول جملة فيها.

وتسمى)سورة التساؤل(لوقوع)يتساءلون(في أولها. وتسمى) سورة المعصرات(لقوله تعالى فيها)وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا(. فهذه خمسة أسماء. واقتصر الإتقان على أربعة أسماء: عم، والنبأ، والتساؤل، والمعصرات.

وهي مكية بالاتفاق .

وعدت السورة الثمانين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد ، نزلت بعد سورة المعارج وقبل سورة النازعات.

وفي ما روي عن ابن عباس والحسن ما يقتضي أن هذه السورة نزلت في أول البعث، روي عن ابن عباس كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت)عم يتساءلون(.

وعن الحسن لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم جعلوا يتساءلون بينهم فأنزل الله)عم يتساءلون عن النبأ العظيم(يعني الخبر العظيم.

وعد آيها أصحاب العدد من أهل المدينة والشام والبصرة أربعين. وعدها أهل مكة وأهل الكوفة إحدى وأربعين آية.

أغراضها

اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومع ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضا عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه.

وتهديدهم على استهزائهم.

وفيها إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي من أعظم من خلق الإنسان بعد موته وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.
ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.
وصفة يوم الحشر إنذارا للذين جحدوا به والإيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث.
وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس.
)عم يتساءلون[1] عن النبأ العظيم[2] الذي هم فيه مختلفون[3](.
افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم افتتاح تشويق ثم تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ومن تشويق بطريقة الأجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن.
وإذا كان هذا الافتتاح مؤذنا بعظيم أمر كان مؤذنا بالتصدي لقول فصل فيه، ولما كان في ذلك إشعار بأهم ما فيه خوضهم يومئذ يجعل افتتاح الكلام به من براعة الاستهلال.
ولفظ)عم(مركب من كلمتين هما حرف)عن(الجار، و)ما(التي هي اسم استفهام بمعنى: أي شيء، ويتعلق)عم(بفعل) يتساءلون(فهذا مركب. وأصل ترتيبه: يتساءلون عن ما، فقدم اسم الاستفهام لأنه لا يقع إلا في صدر الكلام المستفهم به، وإذا قد كان اسم الاستفهام مقترنا بحرف الجر الذي تعدى به الفعل إلى اسم الاستفهام وكان الحرف لا ينفصل عن مجروره قدما معا فصار عما يتساءلون.
وقد جرى الاستعمال الفصيح على أن)ما(الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر يحذف الألف المختومة هي به تفرقة بينها وبين) ما(الموصولة.
وعلى ذلك جرى استعمال نطقهم، فلما كتبوا المصاحف جروا على تلك التفرقة في النطق فكتبوا)ما(الاستفهامية بدون ألف حيثما وقعت مثل قوله تعالى)فيم أنت من ذكراها( )فبم تبشرون( )لم أذنت لهم( )عم يتساءلون( )مم خلق(فلذلك لم يقرأها أحد بإثبات الألف ألا في الشاذ.
ولما بقيت كلمة)ما(بعد حذف ألفها على حرف واحد جروا في رسم المصحف على أن ميمها الباقية تكتب متصلة بحرف)عن(لأن)ما(لما حذف ألفها بقيت على حرف واحد فأشبه حروف التهجي، فلما كان حرف الجر الذي قبل)ما(مختوما بنون والتقت النون مع

ميم)ما(، والعرب ينطقون بالنون الساكنة التي بعدها ميم ميما ويدغمونها فيها، فلما حذفت النون في النطق جرى رسمهم على كتابة الكلمة محذوفة النون تبعا للنطق، ونظيره قوله تعالى)مم خلق(وهو اصطلاح حسن.
والتساؤل: تفاعل وحقيقة صيغة التفاعل تفيد صدور معنى المادة المشتقة منها من الفاعل إلى المفعول وصدور مثله من المفعول إلى الفاعل، وترد كثيرا لإفادة تكرر وقوع ما اشتقت منه نحو قولهم: ساءل، بمعنى: سأل، قال النابغة:
أسائل عن سعدى وقد مر بعدنـا
على عرصات الدار سبع كوامل وقال رويشد بن كثير الطائي:
يأيها الراكب المزجي مطيتـه سائل
بني أسد ما هذه الصوت وتجيء لإفادة قوة صدور الفعل من الفاعل نحو قولهم: عافاك الله، وذلك إما كناية أو مجاز ومحمله في الآية على جواز الاحتمالات الثلاثة وذلك من إرادة المعنى الكنائي مع المعنى الصريح، أو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وكلا الاعتبارين صحيح في الكلام البليغ فلا وجه لمنعه.

فيجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها بأن يسأل بعضهم بعضا سؤال متطلع للعلم لأنهم حينئذ لم يزالوا في شك من صحة ما أنبئوا به ثم استقر أمرهم على الإنكار.
ويجوز أن تكون مستعملة في المجاز الصوري يتظاهرون بالسؤال وهم موقنون بانتفاء وقوع ما يتساءلون عنه على طريقة استعمال فعل يحذر في قوله تعالى)يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة(فيكونون قصدوا بالسؤال الاستهزاء.
وذهب المفسرون فريقين في كلتا الطريقتين يرجح كل فريق ما ذهب إليه. والوجه حمل الآية على كلتيهما لأن المشركين كانوا متفاوتين في التكذيب، فعن ابن عباس لما نزل القرآن كانت قريش يتحدثون فيما بينهم فمنهم مصدق ومنهم مكذب .
وعن الحسن وقتادة مثل قول ابن عباس، وقيل هو سؤال استهزاء أو تعجب وإنما هم موقنون بالتكذيب.
فأما التساؤل الحقيقي فأن يسأل أحد منهم غيره عن بعض أحوال هذا النبأ فيسأل المسؤول سائله سؤالا عن حال آخر من أحوال النبأ، إذ يخطر لكل واحد في ذلك خاطر غير الذي خطر للآخر فيسأل سؤال مستثبت، أو سؤال كشف عم معتقده، أو ما

يوصف به المخبر بهذا النبأ كما قال بعضهم لبعض)افترى على الله كذبا أم به جنة(وقال بعض آخر)أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون(إلى قوله)إن هذا إلا أساطير الأولين(.

وأما التساؤل الصوري فأن يسأل بعضهم بعضا عن هذا الخبر سؤال تهكم واستهزاء فيقول أحدهم: هل بلغك خبر البعث؟ ويقول له الآخر: هل سمعت ما قال؟ فإطلاق لفظ التساؤل حقيقي لأنه موضوع لمثل تلك المساءلة وقصدهم منه غير حقيقي بل تهكمي.

والاستفهام بما في قوله)عم يتساءلون(ليس استفهاما حقيقيا بل هو مستعمل في التشويق إلى تلقي الخبر نحو قوله تعالى)هل أنبئكم على من تنزل الشياطين(.

والموجه إليه الاستفهام من قبيل خطاب غير المعين.

وضمير يتساءلون يجوز أن يكون ضمير جماعة الغائبين مرادا به المشركون ولم يسبق لهم ذكر في هذا الكلام ولكن ذكرهم متكرر في القرآن فصاروا معروفين بالقصد من بعض ضمائره وإشاراته المبهمة، كالضمير في قوله تعالى)حتى توارت بالحجاب(يعني الشمس)كلا إذا بلغت التراقي( )يعني الروح(، فإن جعلت الكلام من باب الالتفات فالضمير ضمير جماعة المخاطبين.

ولما كان الاستفهام مستعملا في غير طلب الفهم حسن تعقيبه بالجواب عنه بقوله)عن النبأ العظيم(فجوابه مستعمل بيانا لما أريد بالاستفهام من الإجمال لقصد التفخيم فبين جانب التفخيم ونظيره قوله تعالى)هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم(، فكأنه قيل هم يتساءلون عن النبأ العظيم ومنه قول حسان بن ثابت:

لمن الدار أقفـرت بـمـعـان بين أعلى اليرموك والصمـان

3ذاك معنى لآل جفنة في الدهر وحـق تـقـلـب الأزمــان والنبأ: الخبر، قيل مطلقا فيكون مرادفا للفظ الخبر وهو الذي جرى عليه إطلاق القاموس والصحاح واللسان.

وقال الراغب: النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ويكون صادقا اه. وهذا فرق حسن ولا أحسب البلغاء جروا إلا على نحو ما قال الراغب فلا يقال: للخبر عن الأمور المعتادة نبأ وذلك ما تدل عليه موارد استعمال لفظ النبأ في كلام البلغاء، وأحسب أن الذين أطلقوا مرادفة النبأ للخبر راعوا ما يقع في بعض كلام الناس من تسامح بإطلاق النبأ بمعنى مطلق الخبر لضرب من التأويل أو المجاز المرسل بالإطلاق والتقييد، فكثر ذلك في الكلام كثرة عسر معها تحديد مواقع الكلمتين ولكن أبلغ الكلام لا يليق تخريجه إلا على أدق

مواقع الاستعمال. وتقدم عند قوله تعالى)ولقد جاءك من نبأ المرسلين(في سورة الأنعام وقوله)قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون(.
والعظيم حقيقته: كبير الجسم ويستعار للأمر المهم لأن أهمية المعنى تتخيل بكبر الجسم في أنها تقع عند مدكرها كمرأى الجسم الكبير في مرأى العين وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.
ووصف)النبأ(ب) العظيم(هنا زيادة في التنويه به لأن كونه واردا من عالم الغيب زاده عظمة أوصال وأهوال، فوصف النبأ بالعظيم باعتبار ما وصف فيه من أحوال البعث في ما نزل من آيات القرآن قبل هذا. ونظيره قوله تعالى)قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون(في سورة ص~.

صفحة : 4685

والتعريف في)النبأ(تعريف الجنس فيشمل كل نبأ عظيم أنبأهم الرسول صلى الله عليه وسلم به، وأول ذلك إنباؤه بأن القرآن كلام الله، وما تضمنه القرآن من إبطال الشرك، ومن إثبات بعث الناس يوم القيامة، فما يروى عن بعض السلف من تعيين نبأ خاص يحمل على التمثيل. فعن ابن عباس: هو القرآن، وعن مجاهد وقتادة: هو البعث يوم القيامة.
وسوق الاستدلال بقوله)ألم نجعل الأرض مهادا(إلى قوله)وجنات ألفافا(يدل دلالة بينة على أن المراد من)النبأ العظيم(الإنباء بأن الله واحد لا شريك له.
وضمير)هم فيه مختلفون(يجري فيه الوجهان المتقدمان في قوله)يتساءلون(. واختلافهم في النبأ اختلافهم فيما يصفونه به، كقول بعضهم)إن هذا إلا أساطير الأولين(وقول بعضهم: هذا كلام مجنون، وقول بعضهم: هذا كذب، وبعضهم: هذا سحر، وهم أيضا مختلفون في مراتب إنكاره. فمنهم من يقطع بإنكار البعث مثل الذين حكى الله عنهم بقوله)وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد افترى على الله كذبا أم به جنة(، ومنهم من يشكون فيه كالذين حكى الله عنهم بقوله)قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين(على أحد التفسيرين.
وجيء بالجملة الاسمية في صلة الموصول دون أن يقول: الذي يختلفون فيه أو نحو ذلك، لتفيد الجملة الاسمية أن الاختلاف في

أمر هذا النبأ متمكن منهم ودائم فيهم لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات.

وتقديم)عنه(على)معرضون(للاهتمام بالمجرور وللإشعار بأن الاختلاف ما كان من حقه أن يتعلق به، مع ما في التقديم من الرعاية على الفاصلة.

)كلا سيعلمون[4]( )كلا(حرف ردع وإبطال لشيء يسبقه غالبا في الكلام يقتضي ردع المنسوب إليه وإبطال ما نسب إليه، وهو هنا ردع للذين يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون على ما يحتمله التساؤل من المعاني المتقدمة، وإبطال لما تضمنته جملة)يتساءلون(من تساؤل معلوم للسامعين.

فموقع الجملة موقع الجواب عن السؤال ولذلك فصلت ولم تعطف لأن ذلك طريقة السؤال والجواب.

والكلام وإن كان إخبارا عنهم فإنهم المقصودون به فالردع موجه إليهم بهذا الاعتبار.

والمعنى: إبطال الاختلاف في ذلك النبأ وإنكار التساؤل عنه ذلك التساؤل الذي أرادوا به الاستهزاء وإنكار الوقوع، وذلك يثبت وقوع ما جاء به النبأ وأنه حق لأن إبطال إنكار وقوعه يفضي إلى إثبات وقوعه.

والغالب في استعمال)كلا(أن تعقب بكلام يبين ما أجملته من الردع والإبطال فلذلك عقبت هنا بقوله)سيعلمون(وهو زيادة في إبطال كلامهم بتحقيق أنهم سيوقنون بوقوعه ويعاقبون على إنكاره، فهما علمان يحصلان لهم بعد الموت: علم بحق وقوع البعث، وعلم في العقاب عليه.

ولذلك حذف مفعول)سيعلمون(ليعم المعلومين فإنهم عند الموت يرون ما سيصيرون إليه فقد جاء في الحديث الصحيح إن الكافر يرى مقعده فيقال له: هذا مقعدك حتى تبعث ، وفي الحديث القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، وذلك من مشاهد روح المقبور وهي من المكاشفات الروحية وفسر بها قوله تعالى)لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين(.

فتضمن هذا الإبطال وما بعده إعلاما بأن يوم البعث واقع، وتضمن وعيدا وقد وقع تأكيده بحرف الاستقبال الذي شأنه إفادة تقريب المستقبل.

ومن محاسن هذا الأسلوب في الوعيد أن فيه إيهاما بأنهم سيعلمون جواب سؤالهم الذي أرادوا به الإحالة والتهكم، وصوروه في صورة طلب الجواب فهذا الجواب من باب قول الناس: الجواب ما ترى لا ما تسمع.

)ثم كلا سيعلمون[5](

ارتقاء في الوعيد والتهديد فإن)ثم(لما عطفت الجملة فهي للترتيب الرتبي، وهو أن مدلول الجملة التي بعدها أرقى رتبة في الغرض من مضمون الجملة التي قبلها، ولما كانت الجملة التي بعد)ثم(مثل الجملة التي قبل)ثم(تعين أن يكون مضمون الجملة التي بعد)ثم(أرقى درجة من مضمون نظيرها. ومعنى ارتقاء الرتبة أن مضمون ما بعد)ثم(أقوى من مضمون الجملة التي قبل)ثم(، وهذا المضمون هو الوعيد، فلما أستفيد تحقيق وقوع المتوعد به بما أفاده التوكيد اللفظي إذ الجملة التي بعد)ثم(أكدت الجملة التي قبلها تعين انصراف معنى ارتقاء رتبة معنى الجملة الثانية هو أن المتوعد به الثاني أعظم مما يحسبون.

وضمير)سيعلمون(في الموضوعين يجري على نحو ما تقدم في ضمير)يتساءلون(وضمير)فيه مختلفون(.

)ألم نجعل الأرض مهادا[6](لما كان أعظم نبأ جاءهم به القرآن إبطال إلهية أصنامهم وإثبات إعادة خلق أجسامهم، وهم الأصلان اللذان أثارا تكذيبهم بأنه من عند الله وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وترويجهم تكذيبه، جاء هذا الاستئناف بيانا لإجمال قوله)عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون(.

وسيجيء بعده تكملته بقوله)إن يوم الفصل كان ميقاتا(.

وجمع الله لهم في هذه الآيات للاستدلال على الوحدانية بالانفراد بالخلق. وعلى إمكان إعادة الأجساد للبعث بعد البلى بأنها لا تبلغ مبلغ أيجاد المخلوقات العظيمة.

ولكون الجملة في موقع الدليل لم تعطف على ما قبلها.

والكلام موجه إلى منكري البعث وهم الموجه إليهم الاستفهام فهو من قبيل الالتفات لأن توجيه الكلام في قوة ضمير المخاطب بدليل عطف)وخلقناكم أزواجا(عليه.

والاستفهام في)ألم نجعل(تقريري وهو تقرير على النفي كما هو غالب صيغ الاستفهام التقريري أن يكون بعده نفي والأكثر كونه بحرف)لم(، وذلك النفي كالإعذار للمقرر إن كان يريد أن ينكر وإنما المقصود التقرير بوقوع جعل الأرض مهادا لا بنفيه بحرف النفي لمجرد تأكيد معنى التقرير.

فالمعنى: أجعلنا الأرض مهادا ولذلك سيعطف عليه)وخلقناكم أزواجا(وتقدم عند قوله تعالى)ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض(في سورة البقرة. ولا يسعهم إلا الإقرار به قال تعالى)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله(،

وحاصل الاستدلال بالخلق الأول لمخلوقات عظيمة أنه يدل على إمكان الخلق الثاني لمخلوقات هي دون المخلوقات الأولى قال تعالى)لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس( )أي(الثاني) ولكن أكثر الناس لا يعلمون(.

وجعل الأرض: خلقها على تلك الحالة لأن كونها مهادا أمر حاصل فيها من ابتداء خلقها ومن أزمان حصول ذلك لها من قبل خلق الإنسان لا يعلمه إلا الله.

والمعنى: أنه خلقها في حال أنها كالمهاد فالكلام تشبيه بليغ.

والتعبير ب)نجعل(دون: نخلق، لأن كونها مهادا حالة من أحوالها عند خلقها أو بعده بخلاف فعل الخلق فإنه يتعدى إلى الذات غالبا أو إلى الوصف المقوم للذات نحو)الذي خلق الموت والحياة(.

والمهاد: بكسر الميم الفراش الممهد الموطأ؛ وزنة الفعال فيه تدل على أن أصله مصدر سمي به للمبالغة. وفي القاموس: إن المهاد يراد في المهد الذي يجعل للصبي. وعلى كل فهو تشبيه للأرض به إذ جعل سطحها ميسرا للجلوس عليها والاضطجاع وبالأحرى المشي، وذلك دليل على إبداع الخلق والتيسير على الناس، فهو استدلال يتضمن امتنانا وفي ذلك الامتنان إشعار بحكمة الله تعالى إذ جعل الأرض ملائمة للمخلوقات التي عليها فإن الذي صنع هذا الصنع لا يعجزه أن يخلق الأجسام مرة ثانية بعد بلاها.

والغرض من الامتنان هنا تذكيرهم بفضل الله لعلهم أن يرعوا عن المكابرة ويقلبوا على النظر فيما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله تعالى.

ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أن البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع عند الخوض في أمر البعث، أي بعث أهل القبور.

وجعل الأرض مهادا يتضمن الاستدلال بأصل خلق الأرض على طريقة الإيجاز ولذلك لم يتعرض إليه بعد عند التعرض لخلق السماوات.

)والجبال أوتادا[7](

عطف على)الأرض مهادا(فالواو عاطفة)الجبال(على)الأرض(، وعاطفة)أوتادا(على)مهادا(، وهذا من العطف على معمولي عامل واحد وهو وارد في الكلام الفصيح وجائز باتفاق النحويين لأن حرف العطف قائم مقام العامل.

والأوتاد: جمع وتد بفتح الواو وكسر المثناة الفوقية. والوتد: عود غليظ شيئا، أسفله أدق من أعلاه يدق في الأرض لتشد به أطناب الخيمة وللخيمة أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها. والإخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ أي كالأوتاد.

ومناسبة ذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض وتشبيهها بالمهاد الذي يكون داخل البيت فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت على طريقة المكنية فشبهت جبال الأرض بأوتاد البيت تخييلا للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده.

وأيضا فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل الأرض مهادا فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مستملحا بمنزلة حسن الاعتذار، فيجوز أن تكون الجبال مشبهة بالأوتاد في مجرد الصورة مع هذا التخييل كقولهم: رأيت أسودا غابها الرماح. ويجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح أو تزلزلها بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمة لتعديل سبح الأرض في الكرة الهوائية إذ نتو الجبال على الكرة الأرضية يجعلها تكسر تيار الكرة الهوائية المحيطة بالأرض فيعتدل تياره حتى تكون حركة الأرض في كرة الهواء غير سريعة.

على أن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمة في الجبال فمنها مسايل الأدوية، وقرارات المياه في سفوحها، ومراعي أنعامهم، ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقها العدو. ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض.

فكانت جملة)والجبال أوتادا(إدماجا معترضا بين جملة)ألم نجعل الأرض مهادا(وجملة)وخلقناكم أزواجا(.

)وخلقناكم أزواجا[8](معطوف على التقرير الذي في قوله)ألم نجعل الأرض مهادا(. والتقدير: وأخلقناكم أزواجا، فكان التقرير هنا على أصله إذ المقرر عليه هو وقوع الخلق فلذلك لم يقل: ألم نخلقكم أزواجا.

وعبر هنا بفعل الخلق دون الجعل لأنه تكوين ذواتهم فهو أدق من الجعل. وضمير الخطاب للمشركين الذين وجه إليهم التقرير بقوله) ألم نجعل الأرض مهادا(، وهو التفات من طريق الغيبة إلى طريق الخطاب.

والمعطوف عليه وإن كان فعلا مضارعا فدخول)لم(عليه صيره في معنى الماضي لما هو مقرر من أن)لم(تقلب معنى المضارع إلى الماضي فلذلك حسن عطف)خلقناكم(على)ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا(والكل تقرير على شيء مضى.

وإنما عدل عن أن يكون الفعل فعلا مضارعا مثل المعطوف هو عليه لأن صيغة المضارع تستعمل لقصد استحضار الصورة للفعل كما في قوله تعالى)فتثير سحابا(، فالإتيان بالمضارع في)ألم نجعل الأرض مهادا(يفيد استدعاء إعمال النظر في خلق الأرض والجبال إذ هي مرئيات لهم. والأكثر أن يغفل الناظرون عن التأمل في دقائقها لتعودهم بمشاهدتها من قبل سن التفكر، فإن الأرض تحت أقدامهم لا يكادون ينظرون فيها بله أن يتفكروا في صنعها، والجبال يشغلهم عن التفكر في صنعها شغلهم بتجشم صعودها والسير في وعرها وحراسة سوائمهم من أن تضل شعابها وصرف النظر إلى مسالك العدو وعند الاعتلاء وعند الاعتلاء إلى مراقبها، فأوثر الفعل المضارع مع ذكر المصنوعات الحرية بدقة التأمل واستخلاص الاستدلال ليكون إقرارهم مما قرروا به على بصيرة فلا يجدوا إلى الإنكار سبيلا.

وجيء بفعل المضي في قوله)وخلقناكم أزواجا(وما بعده لأن مفاعيل فعل)خلقنا(وما عطف عليه ليست مشاهدة لهم.

وذكر لهم من المصنوعات ما هو شديد الاتصال بالناس من الأشياء التي تتوارد أحوالها على مدركاتهم دواما، فإقرارهم بها أيسر لأن دلالتها قريبة من البديهي. وقد أعقب الاستدلال بخلق الأرض وجبالها بالاستدلال بخلق الناس للجمع بين إثبات التفرد بالخلق وبين الدلالة على إمكان إعادتهم، والدليل في خلق الناس على الإبداع العظيم الذي الخلق الثاني من نوعه أمكن في نفوس المستدل عليهم قال تعالى)وفي أنفسكم أفلا تبصرون(. وللمناسبة التي قدمنا ذكرها في توجيه الابتداء بخلق الأرض في الاستدلال فهي أن من الأرض يخرج الناس للبعث فكذلك تني بالاستدلال بخلق الناس الأول لأنهم الذين سيعاد خلقهم يوم البعث وهم الذين يخرجون من الأرض، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى)ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا(.

وانتصب)أزواجا(على الحال من ضمير الخطاب في)خلقناكم(لأن المقصود الاستدلال بخلق الناس وبكون الناس أزواجا، فلما كان المناسب لفعل خلقنا أن يتعدى إلى الذوات جيء بمفعوله ضمير ذوات الناس، ولما كان المناسب لكونهم أزواجا أن يساق مساق أيجاد الأحوال جيء به حالا من ضمير الخطاب في)خلقناكم(، ولو صرح له بفعل لقيل: وخلقناكم وجعلناكم أزواجا، على نحو ما تقدم

في قوله)ألم نجعل الأرض مهادا(ومما يأتي من قوله)وجعلنا نومكم سباتا(.
والأزواج: جمع زوج وهو اسم للعدد الذي يكرر الواحد تكريرة واحدة وقد وصف به كما يوصف بأسماء العدد في نحو قول لبيد: حتى إذا سلخا جمادى ستة ثم غلب الزواج على كل من الذكر وأنثاه من الإنسان والحيوان، فقوله)أزواجا(أفاد أن يكون الذكر زوجا للأنثى والعكس، فالذكر زوج لأنثاه والأنثى زوج لذكرها، وتقدم ذلك عند قوله تعالى)وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة(في سورة البقرة.
وفي قوله)وخلقناكم أزواجا(إيماء إلى ما في ذلك الخلق من حكمة إيجاد قوة التناسل من اقتران الذكر بالأنثى وهو مناط الإيماء إلى الاستدلال على إمكان إعادة الأجساد فإن القادر على إيجاد هذا التكوين العجيب ابتداء بقوة التناسل قادر على أيجاد مثله بمثل تلك الدقة أو أدق.
وفيه استدلال على عظيم قدرة الله وحكمته، وامتنان على الناس بأنه خلقهم، وأنه خلقهم بحالة تجعل لكل واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون له زوجا ليحصل التعاون والتشارك في الأنس والتنعم، قال تعالى)وجعل منها زوجها ليسكن إليها(ولذلك صيغ هذا التقرير بتعليق فعل)خلقنا(بضمير الناس. وجعل)أزواجا(حالا منه ليحصل بذلك الاعتبار بكلا الأمرين دون أن يقال: وخلقنا لكم أزواجا.
وفي ذلك حمل لهم على الشكر بالإقبال على النظر فيما بلغ إليهم عن الله الذي أسعفهم بهذه النعم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعريض بأن إعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية ومكابرتهم فيما بلغهم من ذلك كفران لنعمة واهب النعم.
)وجعلنا نومكم سباتا[9](انتقل من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم وخص منها الحالة التي هي أقوى أحوالهم المعروفة شبها بالموت الذي يعقبه البعث وهي حالة متكررة لا يخلون من الشعور بما فيها من العبرة لأن تدبير نظام النوم وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حال بحال الموت وما يعقبه من البعث.
وأوثر فعل)جعلنا(لأن النوم كيفية يناسبها فعل الجعل لا فعل الخلق المناسب للذوات كما تقدم في قوله)ألم نجعل الأرض مهادا(وكذلك قوله)وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا(.
فإضافة نوم إلى ضمير المخاطبين ليست للتقييد لإخراج نوم غير الإنسان فإن نوم الحيوان كله سبات، ولكن الإضافة لزيادة التنبيه للاستدلال، أي أن دليل البعث قائم بين في النوم الذي هو من أحوالكم، وأيضا لأن في وصفه بسبات امتنانا، والامتنان خاص بهم قال تعالى)هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه(.

والسبات: بضم السين وتخفيف الباء أسم مصدر بمعنى السبت، أي القطع، أي جعلناه لكم قطعا لعمل الجسد بحيث لا بد للبدن منه، وإلى هذا أشار ابن الاعرابي وابن قتيبة إذ جعلا المعنى: وجعلنا نومكم راحة، فهو تفسير وإنما أوثر لفظ)سبات(لما فيه من الإشعار بالقطع عن العمل ليقابله قوله بعده)وجعلنا النهار معاشا(كما سيأتي.

صفحة : 4689

ويطلق السبات على النوم الخفيف، وليس مرادا في هذه الآية إذ لا يستقيم أن يكون المعنى: وجعلنا نومكم نوما، ولا نوما خفيفا.
وفي تفسير الفخر: طعن بعض الملاحدة في هذه الآية فقالوا: السبات هو النوم فالمعنى: وجعلنا نومكم نوما. وأخذ في تأويلها وجوها ثلاثة من أقوال المفسرين لا يستقيم منها إلا ما قاله ابن الأعرابي أن السبات القطع كما قال تعالى)من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه(وهو المعنى الأصلي لتصاريف مادة سبت.
وأنكر أبن الأنباري وابن سيده أن يكون فعل سبت بمعنى استراح، أي ليس معنى اللفظ، فمن فسر السبات بالراحة أراد تفسير حاصل المعنى.
وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكدحون له في نهارهم فالله تعالى جعل النوم حاصلا للإنسان بدون اختياره، فالنوم يلجئ الإنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه الهصبي الذي ركنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجد العصب قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها، بحيث لو تعلقت رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم وذلك لطف بالإنسان بحيث يحصل له ما به منفعة مداركه قسرا عليه لئلا يتهاون به، ولذلك قيل: إن أقل الناس نوما أقصرهم عمرا وكذلك الحيوان.
)وجعلنا الليل لباسا [10](من إتمام الاستدلال الذي قبله وما فيه من المنة لأن كون الليل لباسا حالة مهيئة لتكيف النوم ومعينة على هنائه والانتفاع به لأن الليل ظلمة عارضة في الجو من مزايلة ضوء الشمس عن جزء من كرة الأرض وبتلك الظلمة تحتجب المرئيات عن الإبصار فيعسر المشي والعمل والشغل وينحط النشاط فتتهيأ الأعصاب للخمول ثم يغشاها النوم فيحصل السبات بهذه المقدمات العجيبة، فلا جرم كان نظام الليل آية على انفراد الله تعالى بالخلق وبديع تقديره.

وكان دليلا على أن إعادة الأجسام بعد الفناء غير متعذرة عليه تعالى فلو تأمل المنكرون فيها لعلموا أن الله قادر على البعث فلما كذبوا خبر الرسول صلى الله عليه وسلم به، وفي ذلك امتنان عليهم بهذا النظام الذي فيه اللطف بهم وراحة حياتهم لو قدروه حق قدره لشكروه وما أشركوا، فكان تذكر حالة الليل سريع الخطورة بالأذهان عند ذكر حالة النوم فكان ذكر النوم مناسبة للانتقال إلى الاستدلال بحالة الليل على حسب أفهام السامعين.

والمعني من جعل الليل لباسا يحوم حول وصف حالة خاصة بالليل عبر عنها باللباس.

فيجوز أن يكون اللباس محمولا على معنى الاسم وهو المشهور في إطلاقه، أي ما يلبسه الإنسان من الثياب فيكون وصف الليل به على تقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ، أي جعلنا الليل للإنسان كاللباس له، فيجوز أن يكون وجه الشبه هو التغشية. وتحته ثلاثة معان: أحدها: أن الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس، فالإنسان في الليل يختلي بشؤونه التي لا يرتكبها في النهار لأنه لا يحب أن تراها الأبصار، وفي ذلك تعريض بإبطال أصل من أصول الدهريين أن الليل رب الظلمة وهو معتقد المجوس وهم الذين يعتقدون أن المخلوقات كلها مصنوعة من أصلين أي إلهين: إله النور وهو صانع الخير، وإله الظلمة وهو صانع الشر. ويقال لهم الثنوية لأنهم أثبتوا إلهين اثنين، وهم فرق مختلفة المذاهب في تقرير كيفية حدوث العالم عن ذينك الأصلين، وأشهر هذه الفرق فرقة تسمى المانوية نسبة إلى رجل يقال له)ماني(فارسي قبل الإسلام، وفرقة تسمى مزدكية نسبة إلى رجل يقال له)مزدك(فارسي قبل الإسلام. وقد أخذ أبو الطيب معنى هذا التعريض بقوله:

وكم لظلام الليل عندك من يد   تخبر

أن المانوية تـكـذب المعنى الثاني من معنيي وجه الشبه باللباس: أنه المشابهة في الرفق باللابس والملاءمة لراحته، فلما كان الليل راحة للإنسان وكان محيطا بجميع حواسه وأعصابه شبه باللباس في ذلك. ونسب مجمل هذا المعنى إلى سعيد بن جبير السدي وقتادة إذ فسروا)سباتا(سكنا.

صفحة : 4690

المعنى الثالث: أن وجه الشبه باللباس هو الوقاية، فالليل يقي الإنسان من الأخطار والاعتداء عليه، فكان العرب لا يغير بعضهم على بعض في الليل وإنما تقع الغارة صباحا ولذلك إذا غير عليهم

يصرخ الرجل بقومه بقوله: يا صباحاه. ويقال، صبحهم العدو. وكانوا إذ أقاموا حرسا على الربى ناظورة على ما عسى أن يطرقهم من الأعداء يقيمونه نهارا فإذا أظلم الليل نزل الحرس، كما قال لبيد يذكر ذلك ويذكر فرسه:

حتى إذا ألقت يدا في كـافـر وأجن عورات الثغور ظلامها

أسهلت وانتصبت كجذع منيفة جرداء يحصر دونها جرامها)وجعلنا النهار معاشا[11](لما ذكر خلق نظام الليل قوبل بخلق نظام النهار، فالنهار: الزمان الذي يكون فيه ضوء الشمس منتشرا على جزء كبير من الكرة الأرضية. وفيه عبرة بدقة الصنع وإحكامه إذ جعل نظامان مختلفان منشؤهما سطوع نور الشمس واحتجابه فوق الأرض، وهما نعمتان للبشر مختلفتان في الأسباب والآثار؛ فنعمة الليل راجعة إلى الراحة والهدوء، ونعمة النهار راجعة إلى العمل والسعي، لأن النهار يعقب الليل فيكون الإنسان قد استجد راحته واستعاد نشاطه ويتمكن من مختلف الأعمال بسبب إبصار الشخوص والطرق.

ولما كان معظم العمل في النهار لأجل المعاش أخبر عن النهار بأنه معاش وقد أشعر ذكر النهار بعد ذكر كل من النوم والليل بملاحظة أن النهار ابتداء وقت اليقظة التي هي ضد النوم فصارت مقابلتهما بالنهار في تقدير: وجعلنا النهار واليقظة فيه معاشا، ففي الكلام اكتفاء دلت عليه المقابلة، وبذلك حصل بين الجمل الثلاث مطابقتان من المحسنات البديعة لفظا وضمنا.

والمعاش: يطلق مصدر عاش إذا حيي، فالمعاش: الحياة ويطلق اسما لما به عيش الإنسان من طعام وشراب على غير قياس.

والمعنيان صالحان للآية إذ يكون المعنى: وجعلنا النهار حياة لكم، شبهت اليقظة فيه الحياة، أو يكون المعنى وجعلنا النهار معيشة لكم، والإخبار عنه بأنه معيشة مجاز أيضا بعلاقة السببية لأن النهار سبب للعمل الذي هو سبب لحصول المعيشة وذلك يقابل جعل الليل سباتا بمعنى الانقطاع عن العمل، قال تعالى)ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله(.

ففي مقابلة السبات بالمعاش على هذين الاعتبارين مطابقتان من المحسنات.

)وبنينا فوقكم سبعا شدادا[12](ناسب بعد ذكر الليل وانهار وهما من مظاهر الأفق المسمى سماء أن يتبع ذلك وما سبقه من خلق العالم السفلي بذكر خلق العوالم العلوية.

والبناء: جعل الجاعل أو صنع الصانع بيتا أو قصرا من حجارة وطين أو من أثواب، أو من أدم على وجه الأرض، وهو مصدر بني فبيت

المدر مبني، والخيمة مبنية، والطراف والقبة من الأدم مبنيان. والبناء يستلزم الإعلاء على الأرض فليس الحفر بناء ولا نقر الصخور في الجبال بناء. قال الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتنا دعائمه أعز وأطـول فذكر الدعائم وهي من أجزاء الخيمة.

واستعير فعل)بنينا(في هذه الآية لمعنى: خلقنا ما هو عال فوق الناس، لأن تكوينه عاليا يشبه البناء.

ولذلك كان قوله)فوقكم(إيماء إلى وجه الشبه في إطلاق فعل)بنينا(وليس ذلك تجريدا للاستعارة لأن الفوقية لا تختص بالمبنيات، مع ما فيه من تنبيه النفوس للاعتبار والنظر في تلك السبع الشداد.

والمراد بالسبع الشداد: السماوات، فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف للعلم به كقوله تعالى)حملناكم في الجارية(، ولذلك جاء الوصف باسم العدد المؤنث إذ التقدير: سبع سماوات.

فيجوز أن يراد بالسبع الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ وهي: زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر. وهذا ترتيبها بحسب ارتفاع بعضها فوق بعض بما دل عليه خسوف بعضها ببعض حين يحول بينه وبين ضوء الشمس التي تكتسب بقية الكواكب النور من شعاع الشمس.

صفحة : 4691

وهذا المحمل هو الأظهر لأن العبرة بها أظفر لأن المخاطبين لا يرون السماوات السبع ويرون هذه السيارات ويعهدونها دون غيرها من السيارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد. وهي ستورن و نبتون و أورانوس وهي في علم الله تعالى لا محالة لقوله)ألا يعلم من خلق(وأن الله لا يقول إلا حقا وصدقا ويقرب للناس المعاني بقدر أفهامهم رحمة بهم.

فأما الأرض فقد عدت أخيرا في الكواكب السيارة وحذف القمر من الكواكب لتبين أن حركته تابعة لحركة الأرض إلا أن هذا لا دخل له في الاستدلال لأن الاستدلال وقع بما هو معلوم مسلم يومئذ والكل من صنع الله.

ويجوز أن يراد بالسماوات السبع طبقات علوية يعلمها الله تعالى وقد اقتنع الناس منذ القدم بأنها سبع سماوات.

وشداد: جمع شديدة، وهي الموصوفة بالشدة، والشدة: القوة.

والمعنى: أنها متينة الخلق قوية الأجرام لا يختل أمرها ولا تنقص على مر الأزمان.

)وجعلنا سراجا وهاجا [13](ذكر السماوات يناسبه ذكر أعظم ما يشاهده الناس في فضائها وذلك الشمس، ففي ذلك مع العبرة بخلقها عبرة في كونها على تلك الصفة ومنة على الناس باستفادتهم من نورها فوائد جمة.

والسراج: حقيقته المصباح الذي يستضاء به وهو إناء يجعل فيه زيت وفي الزيت خرقة مفتولة تسمى الذبالة تشعل بنار فتضيء ما دام فيها بلل الزيت.

والكلام على التشبيه البليغ والغرض من التشبيه تقريب صفة المشبه إلى الأذهان كما تقدم في سورة نوح.

وزيد ذلك التقريب بوصف السراج بالوهاج، أي الشديد السنا.

والوهاج: أصله الشديد الوهج)بفتح الواو وفتح الهاء، ويقال بفتح الواو وسكون الهاء(وهو الاتقاد يقال: وهجت النار إذا اضطرمت اضطراما شديدا.

ويطلق الوهاج على المتلألئ المضيء وهو المراد هنا لأن وصف وهاج أجري على سراج، أي سراجا شديد الإضاءة، ولا يقال سراج ملتهب.

قال الراغب: الوهج حصول الضوء والحر من النار. وفي الأساس عد قولهم: سراج وهاج في قسم الحقيقة. وعليه جرى قوله في الكشاف متلالئا وقادا . وتوهجت النار، إذ تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها فإذن يكون التعبير عن الشمس بالسراج في هذه الآية هو موقع التشبيه.

ولذلك أوثر فعل)جعلنا(دون: خلقنا، لأن كونها سراجا وهاجا حالة من أحوالها وإنما يعلق فعل الخلق بالذوات.

فالمعنى: وجعلنا لكم سراجا وهاجا أو وجعلنا في السبع الشداد سراجا وهاجا على نحو قوله تعالى)ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا(وقوله)تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا(سواء قدرت ضمير)فيها(عائدا إلى)السماء(أو إلى)البروج(لأن البروج هي بروج السماء.

وقوله)سراجا(اسم جنس فقد يراد به الواحد من ذلك الجنس فيحتمل أن يراد الشمس أو القمر.

)وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا[14] لنخرج به حبا ونباتا[15] وجنات ألفافا[16](استدلالا بحالة أخرى من الأحوال التي أودعها الله تعالى في نظام الموجودات وجعلها منشأ شبيها بحياة بعد شبيه بموت أو اقتراب منه ومنشأ تخلق موجودات من ذرات دقيقة. وتلك حالة إنزال ماء المطر من الأسحبة على الأرض فتنبت الأرض به سنابل حب وشجرا وكلأ، وتلك كلها فيها حياة قريبة من حياة

الإنسان والحيوان وهي حياة النماء فيكون ذلك دليلا للناس على تصور حالة البعث بعد الموت بدليل من التقريب الدال على إمكانه حتى تضمحل من نفوس المكابرين شبه إحالة البعث.

وهذا الذي أشير إليه هنا قد صرح به في مواضع من القرآن كقوله تعالى)وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج(، ففي الآية استدلالان بإنزال الماء من السحاب، واستدلال بالإنبات، وفي هذا أيضا منة على المعرضين على النظر في دلائل صنع الله التي هي دواع لشكر المنعم بها لما فيها من منافع للناس من رزقهم ورزق أنعامهم، ومن تنعمهم وجمال مرائيهم فإنهم لو شكروا المنعم بها لكانوا عندما يبلغهم عنه أنه يدعوهم إلى النظر في الأدلة مستعدين للنظر، بتوقع أن تكون الدعوة البالغة إليهم صادقة العزو إلى الله فما خفيت عنهم الدلالة.

صفحة : 4692

ومناسبة الانتقال من ذكر السماوات إلى ذكر السحاب والمطر قوية.

والمعصرات: بضم الميم وكسر الصاد السحابات التي تحمل ماء المطر واحدثها معصرة اسم فاعل من: أعصرت السحابة، إذا آن لها أن تعصر، أي تنزل إنزالا شبيها بالعصر. فهمزة)أعصر(تفيد معنى الحينونة وهو استعمال موجود وتسمى همزة التهيئة كما في قولهم: أجز الزرع، إذا حان له أن يجز بزاي في آخره ، وأحصد إذا حان وقت حصاده. ويظهر من كلام صاحب الكشاف أن همزة الحينونة تفيد معنى التهيؤ لقبول الفعل وتفيد معنى التهيؤ لإصدار الفعل فإنه ذكر: أعصرت الجارية، أي حان وقت أن تصير تحيض، وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب: أركب المهر، إذا حان أن يركب، وأقطف الكرم، إذا حان أن يقطف. ثم ذكر: أقطف القوم: حان أن يقطفوا كرومهم، وأنتجت الخيل: حان وقت نتاجها.

وفي تفسير ابن عطية عند قوله تعالى)ألم تر أن الله يزجي سحابا(الآية من سورة النور، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاما جاء بالريح عصر بعضه بعضا فيخرج الودق منه، ومن ذلك قوله)وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا(ومن ذلك قول حسان:

كلتاهما حلب العصير فحاطني

بزجاجة أرخاهما للمفصل أراد حسان الخمر والماء الذي مزجت به، أي هذه من عصير العنب وهذه من عصير السحاب، فسر هذا

التفسير قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن العنبري للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان اه.

والثجاج: المنصب بقوة وهو فعال من ثج القاصر إذا انصب، يقال ثج الماء، إذا انصب بقوة، فهو فعل قاصر. وقد يسند الثج إلى السحاب، يقال: ثج السحاب يثج بضم الثاء، إذا صب الماء، فهو حينئذ فعل متعد.

ووصف الماء هنا بالثجاج للامتنان.

وقد بينت حكمة إنزال المطر من السحاب بأن الله جعله لإنبات النبات من الأرض جمعا بين الامتنان والإيماء إلى دليل تقريب البعث ليحصل إقرارهم بالبعث وشكر الصانع.

وجيء بفعل)لنخرج(دون نحو: لننبت، لأن المقصود الإيماء إلى تصوير كيفية بعث الناس من الأرض إذ ذلك المقصد الأول من هذا الكلام ألا ترى أنه لما كان المقصد الأول من آية سورة ق هو الامتنان جيء بفعل)أنبتنا(في قوله)وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات(الآية، ثم أتبع ثانيا بالاستدلال به على البعث بقوله) كذلك الخروج(. والبعث خروج من الأرض قال تعالى)ومنها نخرجكم تارة أخرى(في سورة طه.

واحب: اسم جمع حبة وهي البرزة. والمراد بالحب هنا: الحب المقتات للناس مثل: الحنطة، والشعير، والسلت، والذرة، والأرز، والقطنية، وهي الحبوب التي هي ثمرة السنابل ونحوها.

والنبات أصله اسم مصدر نبت الزرع، قال تعالى)والله أنبتكم من الأرض نباتا(. وأطلق النبات على النابت من إطلاق المصدر على الفاعل وأصله المبالغة ثم شاع استعماله فنسيت المبالغة.

والمراد به هنا: النبات الذي لا يؤكل حبه بل الذي ينتفع بذاته وهو ما تأكله الأنعام والدواب مثل التبن والقرط والفصفصة والحشيش وغير ذلك.

وجعلت الجنات مفعولا ل)نخرج(على تقدير مضاف، أي نخل جنات أو شجر جنات، لأن الجنات جمع جنة وهي قطعة من الأرض المغروسة نخلا أو نخلا وكرما، أو بجميع الشجر المثمر مثل التين والرمان كما جاء في مواضع من القرآن، وهي استعمالات مختلفة باختلاف المنابت.

ووجه إيثار لفظ)جنات(أن فيه إيماء إلى إتمام المنة لأنهم كانوا يحبون الجنات والحدائق لما فيها من التنعم بالظلال والثمار والمياه وجمال المنظر، ولذلك أتبعت بوصف)ألفافا(لأنه يزيدها حسنا، وإن كان الفلاحون عندنا يفضلون التباعد بين الأشجار لأن ذلك أوفر لكمية الثمار لأن تباعدها أسعد لها بتخلل الهواء وشعاع الشمس، لكن مساق الآية هنا الامتنان بما فيه نعيم الناس.

وألفاف: اسم جمع لا واحد له من لفظه وهو مثل أو زاع وأخياف، أي كل جنة ملتفة، أي ملتفة الشجر بعضه ببعض.
فوصف الجنة بألفاف مبني على المجاز العقلي لأن الالتفاف في أشجارها ولكن لما كانت الأشجار لا يلتف بعضها على بعض في الغالب إلا إذا جمعتها جنة أسند ألفاف إلى جنات بطريق الوصف. ولعله من مبتكرات القرآن إذا لم أر شاهدا عليه من كلام العرب قبل القرآن.

صفحة : 4693

وقيل ألفاف جمع لف بكسر اللام بوزن جذع، أي كل جنة منها لف بكسر اللام ولم يأتوا بشاهد عليه. وذكر في الكشاف أن صاحب الإقليد ذكر بيتا أنشده الحسن بن علي الطوسي ولم يعزه إلى قائل. وفي الكشاف زعم ابن قتيبة: أنه لفاء ولف ثم ألفاف أي أن ألفافا جمع الجمع قال وما أظنه واجدا له نظيرا أي لا يجمع فعل جمعا على أفعال، أي لا نظير له إذ لا يقال خضر وأخضار وحمر وأحمار. يريد أنه لا يخرج الكلام الفصيح على استعمال لم يثبت ورود نظيره في كلام العرب مع وجود تأويل له على وجه وارد.
فكان أظهر الوجوه أن)ألفافا(اسم جمع لا واحد له من لفظه.
وبهذا الاستدلال والامتنان ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية وتضمنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك.
وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار. ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السماوات وبخاصة الشمس ثم نزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا وذلك من رد العجز على الصدر.
)إن يوم الفصل كان ميقاتا[17] يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا[18](هذا بيان لما أجمله قوله)عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون(وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها

السورة وهيأت للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله)لنخرج به حبا ونباتا(الخ، لأن ذلك شبه بإخراج أجساد الناس للبعث كما قال تعالى)فأنبتنا به جنات وحب الحصيد(إلى قوله)كذلك الخروج(في سورة ق~.

وهو استئناف بياني أعقب به قوله)لنخرج به حبا ونباتا(الآية فيما قصد به من الإيماء إلى دليل البعث.

وأكد الكلام بحرف التأكيد لأن فيه إبطالا لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل.

ويوم الفصل: يوم البعث للجزاء.

والفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني المتشابهة والملتبسة فلذلك أطلق على الحكم، وقد يضاف إليه فيقال: فصل القضاء، أي نوع من الفصل لأن القضاء يميز الحق من الظلم.

فالجزاء على الأعمال فصل بين الناس بعضهم من بعض.

وأوثر التعبير عنه بيوم الفصل لإثبات شيئين: أحدهما: أنه بين ثبوت ما جحدوه من البعث والجزاء وذلك فصل بين الصدق وكذبهم.

وثانيهما: القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اعتدى به بعضهم على بعض.

وإقحام فعل)كان(لإفادة أن توقيته متأصل في علم الله لما اقتضته حكمته تعالى التي هو أعلم بها وأن استعجالهم به لا يقدمه على ميقاته.

وتقدم)يوم الفصل(غير مرة أخراها في سورة المرسلات.

ووصف القرآن بالفصل يأتي في قوله تعالى)إنه لقول فصل(في سورة الطارق.

والميقات: مفعال مشتق من الوقت، والوقت: الزمان المحدد في عمل ما، ولذلك لا يستعمل لفظ وقت إلا مقيدا بإضافة أو نحوها نحو وقت الصلاة.

فالميقات جاء على زنة اسم الآلة وأريد به نفس الوقت المحدد به شيء مثل ميعاد وميلاد، في الخروج عن كونه اسم آلة ألى جعله اسما لنفس ما أشتق منه. والسياق دل على متعلق ميقات، أي كان ميقاتا للبعث والجزاء.

فكونه)ميقاتا(كناية تلويحية عن تحقيق وقوعه إذ التوقيت لا يكون إلا بزمن محقق الوقوع ولو تأخر وأبطأ.

وهذا رد لسؤالهم تعجيله وعن سبب تأخيره، سؤالا يريدون منه الاستهزاء بخبره.

والمعنى: أن ليس تأخر وقوعه دالا على انتفاء حصوله.

والمعنى: ليس تكذيبكم به مما يحملنا على تغيير إبانه المحدد له ولكن الله مستدرجكم مدة.
وفي هذا إنذار لهم بأنه لا يدرى لعله يحصل قريبا قال تعالى)لا تأتيكم إلا بغتة(وقال)قل عسى أن يكون قريبا(.
و)يوم ينفخ في الصور(بدل من يوم الفصل.
وأضيف)يوم(إلى جملة)ينفخ في الصور(فانتصب)يوم(على الظرفية وفتحته فتحة إعراب لأنه أضيف إلى جملة أولها معرب وهو المضارع.

صفحة : 4694

وفائدة هذا البدل حصول التفصيل لبعض أحوال الفصل وبعض أهوال يوم الفصل.
والصور: البوق. وهو قرن ثور فارغ الوسط مضيق بعض فراغه ويتخذ من الخشب أو من النحاس، ينفخ فيه النافخ فيخرج منه الصوت قويا لنداء الناس إلى الاجتماع، وأكثر ما ينادى به الجيش والجموع المنتشرة لتجتمع إلى عمل يريده الآمر بالنفخ.
وبني)ينفخ(إلى النائب لعدم تعلق الغرض بمعرفة النافخ وإنما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم وصورة حصوله.
والنفخ في الصور يجوز أن يكون تمثيلا لهيئة دعاء الناس وبعثهم إلى الحشر بهيئة جمع الجيش المتفرق لراحة أو تتبع عدو فلا يلبثون أن يتجمعوا عند مقر أميرهم.
ويجوز أن يكون نفخ يحصل به الإحياء لا تعلم صفته فإن أحوال الآخرة ليست على أحوال الدنيا، فيكون النفخ هذا معبرا به عن أمر التكوين الخاص وهو تكوين الأجساد بعد بلاها وبث أرواحها في بقاياها. وقد ورد في الآثار إن الملك الموكل بهذا النفخ هو إسرافيل، وقد تقدم ذكر ذلك غير مرة.
وعطف)تأتون(بالفاء لإفادة تعقيب النفخ بمجيئهم إلى الحساب.
والإتيان: الحضور بالمكان الذي يمشي إليه الماشي فالإتيان هو الحصول.
وحذف ما يحصل بين النفخ في الصور وبين حضورهم لزيادة الإيذان بسرعة حصول الإتيان حتى كأنه يحصل عند النفخ في الصور فتحيون فتسيرون فتأتون.
وأفواجا حال من ضمير)تأتون(، والأفواج: جمع فوج بفتح الفاء وسكون الواو، والفوج: الجماعة المتصاحبة من أناس مقسمين

باختلاف الأغراض، فتكون الأمم أفواجا، ويكون الصالحون وغيرهم أفواجا قال تعالى)كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها(الآية.
والمعنى: فتأتون مقسمين طوائف وجماعات، وهذا التقسيم بحسب الأحوال كالمؤمنين والكافرين وكل أولئك أقسام ومراتب.
)وفتحت السماء فكانت أبوابا[19](جملة هي حال من ضمير) تأتون(.
والتقدير: وقد فتحت السماء، أي قد حصل النفخ قبل ذلك أو معه.
ويجوز أن تكون معطوفة على جملة)ينفخ في الصور(فيعتبر)يوم(مضافا إلى هذه الجملة على حد قوله تعالى)ويوم تشقق السماء بالغمام(. والتعبير بالفعل الماضي على هذا الوجه لتحقيق وقوع هذا التفتيح حتى كأنه قد مضى وقوعه.
وفتح السماء: انشقاقها بنزول الملائكة من بعض السماوات التي هي مقرهم نزولا يحضرون به لتنفيذ أمر الجزاء كما قال تعالى) ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن(.
وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب) وفتحت(بتشديد الفوقية، وهو مبالغة في فعل الفتح بكثرة الفتح أو شدته إشارة إلى أنه فتح عظيم لأن شق السماء لا يقدر عليه إلا الله.
وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الفوقية على أصل الفعل ومجرد تعلق الفتح بالسماء مشعر بأنه فتح شديد.
وفي الفتح عبرة لأن السماوات كانت ملتئمة فإذا فسد التئامها وتخللتها مفاتح كان معه انخرام نظام العالم الفاني قال تعالى)إذا السماء انشقت(إلى قوله يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه(.
فالتفتح والفتح سواء في المعنى المقصود، وهو تهويل)يوم الفصل(.
وفرع على انفتاح السماء بفاء التعقيب)فكانت أبوابا(، أي ذات أبواب.
فقوله)أبوابا(تشبيه بليغ، أي كالأبواب وحينئذ لا يبقى حاجز بين سكان السماوات وبين الناس كما تقدم في قوله تعالى)تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة(.
والأخبار عن السماء بأنها أبواب جرى على طريق المبالغة في الوصف بذات أبواب للدلالة على كثرة المفاتح فيها حتى كأنها هي أبواب وقريب منه قوله تعالى)وفجرنا الأرض عيونا(حيث أسند التفجير إلى لفظ الأرض، وجيء باسم العيون تمييزا، وهذا يناسب معنى قراءة التشديد ويؤكده، ويقيد معنى قراءة التخفيف ويبينه.

و)كانت(بمعنى: صارت.
ومعنى الصيرورة في معاني)كان(وأخواتها الأربع وهي: ظل، وبات، وأمسى، وأصبح، وقرينة ذلك أنه مفرع على)فتحت(ونظيره قوله تعالى)فإذا أنشقت السماء فكانت وردة كالدهان(.
والأبواب: جمع باب، وهو الفرجة التي يدخل منها في حائل من سور أو جدار أو حجاب أو خيمة، وتقدم في قوله تعالى)وغلقت الأبواب(في سورة يوسف وقوله)ادخلوا عليهم الباب(في سور العقود.

صفحة : 4695

)وسيرت الجبال فكانت سرابا[20](التسيير: جعل الشيء سائرا، أي ماشيا. وأطلق هنا على النقل من المكان، أي نقلت الجبال وقلعت من مقارها بسرعة بزلازل أو نحوها كما دل عليه قوله تعالى)يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا(، حتى كأنها تسير من مكان إلى آخر وهو نقل يصحبه تفتيت كما دل عليه تعقيبه بقوله)فكانت سرابا(لأن ظاهر التعقيب أن لا تكون معه مهلة، أي فكانت كالسراب في أنها لا شيء.
والقول في بناء)سيرت(للمجهول كالقول في)وفتحت السماء(.
وكذلك قوله)فكانت سرابا(وهو كقوله)فكانت أبوابا(.
والسراب: ما يلوح في الصحاري مما يشبه الماء وليس بماء ولكنه حالة في الجو القريب تنشأ من تراكم أبخرة على سطح الأرض. وقد تقدم عند قوله تعالى)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا(في سورة النور.
)إن جهنم كانت مرصادا[21] للطغين مئابا[22] لبثين فيها أحقابا [23](يجوز أن تكون جملة)إن جهنم كانت مرصادا(في موضع خبر ثان ل)إن(من قوله)إن يوم الفصل كان ميقاتا(والتقدير: إن يوم الفصل إن جهنم كانت مرصادا فيه للطاغين، والعائد محذوف دل عليه قوله)مرصادا(أي مرصادا فيه، أي في ذلك اليوم لأن معنى المرصاد مقترب من معنى الميقات إذ كلاهما محدد لجزاء الطاغين.
ودخول حرف)إن(في خبر)إن(يفيد تأكيدا على التأكيد الذي أفاده حرف التأكيد الداخل على قوله)يوم الفصل(على حد قول جرير:
إن الخليفة إن الله سـربـلـه سربال ملك به تزجى الخواتيم ومنه قوله تعالى)إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل

بينهم يوم القيامة(كما تقدم في سورة الحج. وتكون الجملة من تمام ما خوطبوا به بقوله)يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا(.
والتعبير ب)الطاغين(إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بوصف الطغيان لأن مقتضى الظاهر أن يقول)لكم مئابا(.
ويجوز أن تكون مستأنفة أستئنافا بيانيا عن جملة)إن يوم الفصل كان ميقاتا(وما لحق بها لأن ذلك مما يثير في نفوس السامعين تطلب ماذا سيكون بعد تلك الأهوال فأجيب بمضمون)إن جهنم كانت مرصادا(الآية. وعليه فليس في قوله)للطاغين(تخريج على خلاف مقتضى الظاهر.
وابتدئ بذكر جهنم لأن المقام مقام تهديد إذ ابتدئت السورة بذكر تكذيب المشركين بالبعث ولما سنذكره من ترتيب نظم هذه الجمل.
وجهنم: اسم لدار العذاب في الآخرة. قيل وهو اسم معرب فلعله معرب عن العبرانية أو عن لغة أخرى سامية، وقد تقدم عند قوله تعالى)فحسبه جهنم ولبئس المهاد(في سورة البقرة.
والمرصاد: مكان الرصد، أي الرقابة، وهو بوزن مفعال الذي غلب في اسم آلة الفعل مثل مضمار للموضع الذي تضمر فيه الخيل، ومنهاج للموضع الذي ينهج منه.
والمعنى: أن جهنم موضع يرصد منه الموكلون بها، ويترقبون من يزجي إليها من أهل الطغيان كما يترقب أهل المرصاد من يأتيه من عدو.
ويجوز أن يكون مرصاد مصدرا على وزن المفعال، أي رصدا. والإخبار به عن جهنم للمبالغة حتى كأنها أصل الرصد، أي لا تفلت أحدا ممن حق عليهم دخولها.
ويجوز أن يكون مرصاد زنة مبالغة للراصد الشديد الرصد مثل صفة مغيار ومعطار، وصفت به جهنم على طريقة الاستعارة ولم تلحقه)ها(التأنيث لأن جهنم شبهت بالواحد من الرصد بتحريك الصاد، وهو الواحد من الحرس الذي يقف بالمرصد إذ لا يكون الحارس إلا رجلا.
ومتعلق)مرصادا(محذوف دل عليه قوله)للطاغين مئابا(.
والتقدير: مرصادا للطاغين، وهذا أحسن لأن قرائن السورة قصار فيحسن الوقف عند)مرصادا(لتكون قرينة.
ولك أن تجعل للطاغين متعلقا ب)مرصادا(وتجعل متعلق) مئابا(مقدرا دل عليه)للطاغين(فيكون كالتضمين في الشعر إذ كانت بقية لما في القرينة الأولى في القرينة الموالية فتكون القرينة طويلة.
ولو شئت أن تجعل للطاغين متنازعا فيه بين)مرصادا(أو)مئابا(فلا مانع من ذلك معنى.

وأقحم)كانت(دون أن يقال: إن جهنم مرصاد للدلالة على أن جعلها مرصادا أمر مقدر لها كما تقدم في قوله)إن يوم الفصل كان ميقاتا(. وفيه إيماء إلى سعة علم الله تعالى حيث أعد في أزله عقابا للطاغين.

ومئابا: مكان الأوب وهو الرجوع، أطلق على المقر والمسكن إطلاقا أصله كناية ثم شاع استعماله فصار اسما للموضع الذي يستقر به المرء.

ونصب)مئابا(على الحال من)جهنم(أو على أنه خبر ثان لفعل) كانت(أو على أنه بدل اشتمال من)مرصادا(لأن الرصد يشتمل على أشياء مقصودة منها أن يكونوا صائرين إلى جهنم.

و)للطاغين(متعلق ب)مئابا(قدم عليه لإدخال الروع على المشركين الذين بشركهم طغوا على الله، وهذا أحسن كما علمت آنفا. ولك أن تجعله متعلقا ب)مرصادا(أو متنازعا فيه بين)مرصادا(أو متنازعا فيه بين)مرصادا(و)مئابا(كما علمت آنفا.

والطغيان: تجاوز الحد في عدم الاكتراث بحق الغير والكبر، والتعريف فيه للعهد فالمراد به المشركون المخاطبون بقوله)فتأتون أفواجا(فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى سبب جعل جهنم لهم لأن الشرك أقصى الطغيان إذ المشركون بالله أعرضوا عن عبادته ومتكبرون على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث أنفوا من قبول دعوته وهم المقصود من معظم ما في هذه السورة كما يصرح به قوله)إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا(. هذا وأن المسلمين المستخفين بحقوق الله، أو المعتدين على الناس بغير حق، واحتقارا لا لمجرد غلبة الشهوة لهم حظ من هذا الوعيد بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر.

واللابث: المقيم بالمكان. وانتصب)لابثين(على الحال من الطاغين.

وقرأه الجمهور)لابثين(على صيغة جمع لابث. وقرأه حمزة وروح عن يعقوب)لبثين(على صيغة جمع)لبث(من أمثلة المبالغة مثل حذر على خلاف فيه، أو من الصفة المشبهة فتقتضي أن اللبث شأنه كالذي يجثم في مكان لا ينفك عنه.

وأحقاب: جمع حقب بضمتين، وهو زمن طويل نحو الثمانين سنة، وتقدم في قوله)أو أمضي حقبا(في سورة الكهف.

وجمعه هنا مراد به الطول العظيم لأن أكثر استعمال الحقب والأحقاب أن يكون في حيث يراد توالي الأزمان ويبين هذا الآيات

الأخرى الدالة على خلود المشركين، فجاءت هذه الآية على المعروف الشائع في الكلام كناية به عن الدوام دون انتهاء.
وليس فيه دلالة على أن لهذا اللبث نهاية حتى يحتاج إلى دعوى نسخ ذلك بآيات الخلود وهو وهم لأن الأخبار لا تنسخ، أو يحتاج إلى جعل الآية لعصاة المؤمنين، فإن ذلك ليس من شأن القرآن المكي الأول إذ قد كان المؤمنون أيامئذ صالحين مخلصين مجدين في أعمالهم.
)لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا[24] إلا حميما و غساقا[25] جزاء وفاقا[26](.
هذه الجملة يجوز أن تكون حالا ثانية من)الطاغية(أو حالا أولى من الضمير في)لابثين(، وأن تكون خبرا ثالثا ل)كانت مرصادا(.
وضمير)فيها(على هذه الوجود عائد إلى)جهنم(.
ويجوز أن تكون صفة ل)أحقابا(، أي لا يذوقون في تلك الأحقاب بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا. فضمير)فيها(على هذا الوجه عائد إلى الأحقاب.
وحقيقة الذوق: إدراك طعم الطعام والشراب. ويطلق على الإحساس بغير الطعوم مجازيا. وشاع في كلامهم، يقال: ذاق الألم، وعلى وجدان النفس كقوله تعالى)ليذوق وبال أمره(. وقد أستعمل هنا في معنييه حيث نصب)بردا(و)شرابا(.
والبرد: ضد الحر، وهو تنفيس للذين عذابهم الحر، أي لا يغاثون بنسيم بارد، والبرد ألذ ما يطلبه المحرور. وعن مجاهد والسدي وأبي عبيدة ونفر قليل تفسير البرد بالنوم وأنشدوا شاهدين غير واضحين، وأيا ما كان فحمل الآية عليه تكلف لا داعي إليه، وعطف)ولا شرابا(يناكده. والشراب: ما يشرب والمراد به الماء الذي يزيل العطش. والحميم: الماء الشديد الحرارة.
والغساق: قرأه الجمهور بتخفيف السين. وقرأه حمزة والكسائي وحفص بتشديد السين وهما لغتان فيه. ومعناه الصديد الذي يسيل من جروح الحرق وهو المهل، وتقدما في سورة ص~.
واستثناء)حميما وغساقا(من)بردا(أو)شرابا(على طريقة اللف والنشر المرتب، وهو استثناء منقطع لأن الحميم ليس من جنس البرد في شيء إذ هو شديد الحر. ولأن الغساق ليس من جنس الشراب، إذ ليس المهل من جنس الشراب.
والمعنى: يذوقون الحميم إذ يراق على أجسادهم، والغساق إذ يسيل على مواضع الحرق فيزيد ألمهم.
وصورة الاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده في الصورة.

و)جزاء(منصوب على الحال من ضمير)يذوقون(، أي حالة كون ذلك جزاء، أي مجازي به، فالحال هنا مصدر مؤول بمعنى الوصف وهو أبلغ من الوصف.

و)الوفاق(مصدر وافق وهو مؤول بالوصف، أي موافقا للعمل الذي جوزوا عليه، وهو التكذيب بالبعث وتكذيب القرآن كما دل عليه التعليل بعده بقوله)إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا(.

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر، وهما أصلان: أحدهما عدمي وهو إنكار البعث، والآخر وجودي وهو نسبتهم الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن للكذب، فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي وهو حرمانهم من البرد والشراب، وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي وهو الحميم يراق على أجسادهم والغساق يمر على جراحهم.

)إنهم كانوا لا يرجون حسابا[27] وكذبوا بآيتنا كذابا[28](موقع هذه الجملة موقع التعليل لجملة)إن جهنم كانت مرصادا(إلى قوله) جزاء وفاقا(، ولذلك فصلت.

وضمير)إنهم(عائد إلى)الطاغين(.

وحرف)أن(للاهتمام بالخبر وليست لرد الإنكار إذ ل ينكر أحد أنهم لا يرجون حسابا وأنهم مكذبون بالقرآن، وشأن)إن(إذا قصد بها مجرد الاهتمام أن تكون قائمة مقام فاء التفريع مفيدة للتعليل، وتقدم ذلك عند قوله تعالى)إنك أنت العليم الحكيم(وقوله)إن البقر تشابه علينا(في سورة البقرة فالجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة)فذوقوا(.

وقد علمت مناسبة جزاءهم لجرمهم عند قوله آنفا)جزاء وفاقا(مما يزيد وجه التعليل وضوحا.

وقوله)لا يرجون حسابا(نفي لرجائهم وقوع الجزاء.

والرجاء أشتهر في ترقب الأمر المحبوب، والحساب ليس خيرا لهم حتى يجعل نفي ترقبه من قبيل نفي الرجاء فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بمادة التوقع الذي هو ترقب الأمر المكروه، فيظهر أن وجه العدول عن التعبير بمادة التوقع إلى التعبير بمادة الرجاء أن الله لما أخبر عن جزاء الطاغين وعذابهم تلقى المسلمون ذلك بالمسرة وعلموا أنهم ناجون مما سيلقاه الطاغون فكانوا مترقبين يوم الحساب ترقب رجاء، فنفي رجاء يوم الحساب عن المشركين جامع بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه، وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه بطريقة الكناية التعريضية تعريضا بالمسلمين وهي أيضا تلويحية لما في لازم مدلول الكلام من الخفاء.

ومن المفسرين من فسر)يرجون(بمعنى: يخافون، وهو تفسير بحاصل المعنى، وليس تفسيرا للفظ.
وفعل)كانوا(دال على أن انتفاء رجائهم الحساب وصف متمكن من نفوسهم وهم كائنون عليه، وليس المراد بفعل)كانوا(أنهم كانوا كذلك فانقضى لأن هذه الجملة إخبار عنهم في حين نزول الآية وهم في الدنيا وليست مما يقال لهم أو عنهم يوم القيامة.
وجيء بفعل)يرجون(مضارعا للدلالة على استمرار انتفاء ما عبر عنه بالرجاء، وذلك لأنهم كلما أعيد لهم ذكر يوم الحساب جددوا إنكاره وكرروا شبهاتهم على نفي إمكانه لأنهم قالوا)إن نظن إل ظنا وما نحن بمستيقنين(.
والحساب: العد، أي عد الأعمال والتوقيف على جزائها، أي لا يرجون وقوع حساب على أعمال العباد يوم الحشر.
و)كذبوا(عطف على)لا يرجون(، أي وإنهم كذبوا بآياتنا، أي بآيات القرآن.
والمعنى: كذبوا ما اشتملت عليه الآيات من إثبات الوحدانية ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
ولكون تكذيبهم بذلك قد استقر في نفوسهم ولم يترددوا فيه جيء في جانبه بالفعل الماضي لأنهم قالوا)قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب(.
وكذاب: بكسر الكاف وتشديد الذال مصدر كذب. والفعال بكسر أوله وتشديد عينه فعل مثل التفعيل، ونظائره: القصار مصدر قصر، والقضاء مصدر قضى، والخراق مصدر خرق المضاعف، والفسار مصدر فسر. وعن الفراء أن أصل هذا المصدر من اللغة اليمنية، يريد: وتكلم به العرب، فقد أنشدوا لبعض بني كلاب:
لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي
وعن حوج قضاؤها من شفائيا وأوثر هذا المصدر هنا دون التكذيب لمراعاة التماثل في فواصل هذه السورة، فإنها على نحو ألف التأسيس في القوافي، والفواصل كالأسجاع ويحسن في الأسجاع ما يحسن في القوافي.
وفي الكشاف: وفعال فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره.

صفحة : 4698

وأنتصب)كذابا(على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله لإفادة شدة تكذيبهم بالآيات.

)وكل شيء أحصيناه كتابا[29](اعتراض بين الجمل التي سيقت مساق التعليل وبين جملة)فذوقوا(. وفائدة هذا الاعتراض المبادة بإعلامهم أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم فلا يدع شيئا من سيئاتهم إلا يحاسبهم عليه ما ذكر هنا وما لم يذكر؛ كأنه قيل : إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا، وفعلوا مما عدا ذلك وكل ذلك محصي عندنا.

ونصب)كل(على المفعولية ل)أحصيناه(على طريقة الاشتغال بضميره.

والإحصاء: حساب الأشياء لضبط عددها، فالإحصاء كناية عن الضبط والتحصيل.

وانتصب)كتابا(على المفعولية المطلقة ل)إن جهنم كانت مرصادا(وما أتصل بها، فهو مصدر بمعنى الكتابة، وهو كناية عن شدة الضبط لأن الأمور المكتوبة مصونة عن النسيان والإغفال، فباعتبار كونه كناية عن الضبط جاء مفعولا مطلقا ل)أحصينا(.

)فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا[30](الفاء للتفريغ والتسبب على جملة)إن جهنم كانت مرصادا(وما أتصل بها، ولما غير أسلوب الخبر إلى الخطاب بعد أن كان جاريا بطريق الغيبة، ولم يكن مضمون الخبر مما يجري في الدنيا فيظن أنه خطاب تهديد للمشركين تعين أن يكون المفرع قولا محذوفا دل عليه فعل) ذوقوا(الذي لا يقال إلا يوم الجزاء، فالتقدير: فيقال لهم ذوقوا إلى آخره، ولهذا فليس في ضمير الخطاب التفات فالمفرع بالفاء هو فعل القول المحذوف.

والأمر في)ذوقوا(مستعمل في التوبيخ والتقريع.

وفرع على)فذوقوا(ما يزيد تنكيدهم وتحسيرهم بإعلامهم بأن الله سيزيدهم عذابا فوق ما هم فيه.

والزيادة: ضم شيء إلى غيره من جنس واحد أو غرض واحد، قال تعالى)فزادتهم رجسا إلى رجسهم(وقال)ولا تزد الظالمين إلا تبارا(، أي لا تزدهم على ما هم فيه من المساوي إلا الإهلاك.

فالزيادة المنفية في قوله)فلن نزيدكم إلا عذابا(يجوز أن تكون زيادة نوع آخر من عذاب يكون حاصلا لهم كما في قوله تعالى) زدناهم عذابا فوق العذاب(.

ويجوز أن تكون زيادة من نوع ما هم فيه من العذاب بتكريره في المستقبل.

والمعنى: فسنزيدكم عذابا زيادة مستمرة في أزمنة المستقبل، فصيغ التعبير عن هذا المعنى بهذا التركيب الدقيق، إذ أبتدئ بنفي الزيادة بحرف تأبيد النفي وأردف الاستثناء المقتضي ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى فصارت دلالة الاستثناء على معنى:

سنزيدكم عذابا مؤبدا. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده وهو أسلوب طريف من التأكيد إذ ليس فيه إعادة لفظ فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل.

ولما كان المقصود الوعيد بزيادة العذاب في المستقبل جيء في أسلوب نفيه بحرف نفي المستقبل، وهو)لن(المفيد تأكيد النسبة المنفية وهي ما دل عليه مجموع النفي والاستثناء، فإن قيد تأبيد نفي الزيادة الذي يفيده حرف)لن(في جانب المستثنى منه يسري إلى إثبات زيادة العذاب في جانب المستثنى، فيكون معنى جملة الاستثناء: سنزيدكم عذابا أبدا، وهو معنى الخلود في العذاب. وفي هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس وذلك أشد حزنا وغما بما يوهمهم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له أتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد، فكان ذلك حزنا فوق حزن، فهذا منوال هذا النظم وهو مؤذن بشدة الغضب.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي برزة الأسلمي وأبي هريرة: أن هذه الآية أشد ما نزل في أهل النار، وقد أسند هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عن أبي برزة الأسلمي.
سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار؟ فقال: قول الله تعالى)فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا(.
وفي سنده جسر بن فرقد وهو ضعيف جدا.

وفي ابن عطية: أن أبا هريرة رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر ابن عطية سنده، وتعدد طرقه يكسبه قوة.

)إن للمتقين مفازا[31] حدائق وأعنابا[32] وكواعب أترابا[33] وكأسا دهاقا[34] لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا[35] جزاء من ربك عطاء حسابا[36](جرى هذا الانتقال على عادة القرآن في تعقيب الإنذار للمنذرين بتبشير من هم أهل للتبشير.

فانتقل من ترهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتقين فيما أعد لهم في الآخرة من كرامة ومن سلامة مما وقع فيه أهل الشرك.

فالجملة متصلة بجملة)إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا(وهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا مقتضى الانتقال.

وافتتاحها بحرف)إن(للدلالة على الاهتمام بالخبر لئلا يشك فيه أحد.

والمقصود من المتقين المؤمنون الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه لأنهم المقصود من مقابلتهم بالطاغين المشركين.

والمفاز: مكان الفوز وهو الظفر بالخير ونيل المطلوب. ويجوز أن يكون مصدرا ميميا بمعنى الفوز، وتنوينه للتعظيم.

وتقديم خبر)إن(على اسمها للاهتمام به تنويها للمتقين.

والمراد بالمفاز: الجنة ونعيمها. وأوثرت كلمة)مفازا(على كلمة: الجنة، لأن اشتقاقه إثارة الندامة في نفوس المخاطبين بقوله) فتأتون أفواجا(وبقوله)فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا(.

وأبدل)حدائق(من)مفازا(بدل بعض من كل باعتبار أنه بعض من مكان الفوز، أو بدل اشتمال باعتبار معنى الفوز.

والحدائق: جمع حديقة وهي الجنة من النخيل والأشجار ذوات الساق المحوطة بحائط أو جدار أو حضائر.

والأعناب: جمع عنب وهو اسم يطلق على شجرة الكرم ويطلق على ثمرها.

والكواكب: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن خمس عشرة سنة ونحوها. ووصفت بكاعب لأنها تكعب ثديها، أي صار كالكعب، أي استدار ونتأ، يقال: كعب بتشديد العين. ولما كان كاعب وصفا خاصا بالمرأة لم تلحقه هاء التأنيث وجمع على فواعل.

والأتراب: جمع ترب بكسر فسكون: وهو المساوي غيره في السن، وأكثر ما يطلق على الإناث. قيل هو مشتق من التراب فقيل لأنه حين يولد يقع على التراب مثل الآخر، أو لأن الترب ينشأ مع لدته في سن الصبا يلعب بالتراب.

وقيل مشتق من الترائب تشبيها في التساوي بالترائب وهي ضلوع الصدر فإنها متساوية.

وتقدم الأتراب في قوله تعالى)عربا أترابا(في الواقعة، فيجوز أن يكون وصفهم بالأتراب بالنسبة بينهن في تساوي السن لزيادة الحسن، أي لا تفوت واحدة منهن غيرها، أي فلا تكون النفس إلى إحداهن أميل منها إلى الأخرى فتكون بعضهن أقل مسرة في نفس الرجل.

ويجوز أن يكون هذا الوصف بالنسبة بينهن وبين أزواجهن لأن ذلك أحب إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا لأنه أوفق بطرح التكلف بين الزوجين وذلك أحلى المعاشرة.

والكأس: إناء معد لشرب الخمر وهو اسم مؤنث تكون من زجاج ومن فضة ومن ذهب، وربما ذكر في كتب اللغة أن الكأس الزجاجة فيها الشراب، ولم أقف على أن لها شكلا معينا يميزها عن القدح وعن الكوب وعن الكوز، ولم أجد في قواميس اللغة التعريف

بالكأس بأنها: إناء الخمر وأنها الإناء ما دام فيه الشراب. وهذا يقتضي أنها لا تختص بصنف من الآنية.
وقد يطلقون على الخمر اسم الكأس وأريد بالكأس الجنس إذ المعنى وأكؤسا. وعدل عن صيفة الجمع لأن كأسا بالإفراد أخف من أكؤس وكؤوس ولأن هذا المركب جرى مجرى المثل كما سيأتي.
ودهاق: اسم مصدر دهق من باب جعل، أو اسم مصدر أدهق، ولكونه في الأصل مصدرا لم يقترن بعلامة تأنيث.
والدهق والإدهاق ملء الإناء من كثرة ما صب فيه.
ووصف الكأس بالدهق من إطلاق المصدر على المفعول كالخلق بمعنى المخلوق فإن الكأس مدهقة لا داهقة.
ومركب)كأس دهاق(يجري مجرى المثل قال عكرمة: قال ابن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأسا دهاقا، ولذلك أفرد)كأسا(، ومعناه مملوءة خمرا، أي دون تقتير لأن الخمر كانت عزيزة فلا يكيل الحانوي للشارب إلا بمقدار فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسر للشارب.

وقوله)لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا(يجوز أن يكون الضمير المجرور عائدا إلى الكأس، فتكون)في(للظرفية المجازية بتشبيه تناول الندامى للشراب من الكأس بحلولهم في الكأس على طريق المكنية، وحف)في(تخييل أو تكون)في(للتعليل كما في الحديث دخلت أمرأة النار في هرة الحديث، أي من أجل هرة. والمعنى: لا يسمعون لغوا ولا كذابا منها أو عندها، فتكون الجملة صفة ثانية ل)كأسا(. والمقصود منها أن خمر الجنة سليمة مما تسببه خمر الدنيا من آثار العربدة من هذيان، وكذب وسباب، واللغو والكذب من العيوب التي تعرض لمن تدب الخمر في رؤوسهم، أي فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة في الدنيا قبل تحريم الخمر ولا تأتي الخمر على كمالاتهم النفسية كما تأتي عليها خمر الدنيا.
وكان العرب يمدحون من يمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر، قال عمارة بن الوليد:
ولسنا بشرب أم عمرو إذا انتشوا
ثياب الندامى بينهم كالغـنـائم
ولكننا يا أم عمـرو نـديمـنـا بمنزلة الريان لـيس بـعـائم وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال:

فإن الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما ويجوز أن يعود ضمير)فيها(إلى)مفازا(باعتبار تأويله بالجنة لوقوعه في مقابلة)جهنم(من قوله)إن جهنم كانت مرصادا(أو لأنه أبدل)حدائق(من)مفازا(. وهذا المعنى نشأ عن أسلوب نظم الكلام حيث قدم)حدائق وأعنابا) الخ، وأخر)وكأسا دهاقا(حتى إذا جاء ضمير فيها بعد ذلك جاز إرجاعه إلى الكأس وإلى المفاز كما علمت. وهذا من بديع الإيجاز مع وفرة المعاني مما عددناه من وجوه الإعجاز من جانب الأسلوب في المقدمة العاشرة من هذا التفسير، أي لا يسمعون في الجنة الكلام السافل ولا الكذب. فلما أحاط بأهل جهنم أشد الأذى بجميع حواسهم من جراء حرق النار وسقيهم الحميم والغساق لينال العذاب بواطنهم كما نال ظاهر أجسادهم، كذلك نفى عن أهل الجنة أقل الأذى وهو أذى سماع ما يكرهه الناس فإن ذلك أقل الأذى.

وكني عن انتفاء اللغو والكذاب عن شاربي خمر الجنة بأنهم لا يسمعون اللغو والكذاب فيها لأنه لو كان فيها لغو وكذب لسمعوه وهذا من باب قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدي بمناره أي لا منار فيه فيهتدى به، وهو نوع من لطيف الكناية، والذي في الآية أحسن مما وقع في بيت امرئ القيس ونحوه لأن فيه إيماء إلى أن أهل الجنة منزهة أسماعهم عن سقط القول وسفل الكلام كما في قوله في سورة الواقعة)لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما(.

واللغو: الكلام الباطل والهذيان وسقط القول الذي لا يورد عن روية ولا تفكير.

والكذاب: تقدم معناه آنفا.

وقرأ الجمهور)كذابا(هنا مشددا. وقرأه الكسائي هنا بتخفيف الذال. وانتصب)جزاء(على الحال من)مفازا(.

وأصل الجزاء مصدر جزى، ويطلق على المجازي به من إطلاق المصدر على المفعول، فالجزاء هنا المجازى به وهو الحدائق والجنات والكواعب والكأس.

والجزاء: إعطاء شيء عوضا على عمل. ويجوز أن يجعل الجزاء على أصل معناه المصدري وينتصب على المفعول المطلق الآتي بدلا من فعل مقدر. والتقدير: جزينا المتقين.

وإضافة رب إلى ضمير المخاطب مراد به النبي صلى الله عليه وسلم للإيماء إلى أن جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لأن إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل أيمانهم به وعملهم بما هداهم إليه.

و)من(ابتدائية، أي صادرا من لدن الله، وذلك تنويه بكرم هذا الجزاء وعظم شأنه.
ووصف الجزاء بعطاء وهو أسم لما يعطى، أي يتفضل به بدون عوض للإشارة إلى أن ما جوزوا به أوفر مما عملوه، فكان ما ذكر للمتقين من المفاز وما فيه جزاء شكرا لهم وعطاء كرما من الله تعالى وكرامة لهذه الأمة إذ جعل ثوابها أضعافا.
وحسابا: اسم مصدر حسب بفتح السين يحسب بضمنها، إذا عد أشياء وجميع ما تصرف من مادة حسب متفرع عن معنى العد وتقدير المقدار، فوقع)حسابا(صفة)جزاء(، أي هو جزاء كثير مقدر على أعمالهم.
والتنوين فيه للتكثير، والوصف باسم المصدر للمبالغة وهو بمعنى المفعول، أي محسوبا مقدرا بحسب أعمالهم، وهذا مقابل ما وقع في جزاء الطاغين من قوله)جزاء وفاقا(.

صفحة : 4701

وهذا الحساب مجمل هنا يبينه قوله تعالى)من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها(وقوله)مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة(.
وليس هذا الحساب للاحتراز عن تجاوز الحد المعين، فلذلك استعمال آخر كما في قوله تعالى)إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب(ولكل آية مقامها الذي يجري عليه استعمال كلماتها فلا تعارض بين الآيتين.
ويجوز أن يكون)حسابا(اسم مصدر أحسبه، إذا أعطاه ما كفاه، فهو بمعنى إحسابا، فإن الكفاية يطلق عليها حسب بسكون السين فإنه إذا أعطاه ما كفاه قال: حسبي.
)رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن(قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر برفع)رب(ورفع)الرحمن(، وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بخفضهما، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بخفض)رب(ورفع)الرحمن(، فأما قراءة رفع الاسمين ف)رب(خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير يعود على قوله)من ربك(على طريقة حذف المسد إليه حذفا سماه السكاكي حذفا لاتباع الاستعمال الوارد على تركه، أي في المقام الذي يجري استعمال البلغاء فيه على حذف المسند إليه، وذلك إذا جرى في الكلام وصف ونحوه لموصوف ثم ورد ما يصلح أن يكون خبرا عنه أو أن يكون نعتا له فيختار

المتكلم أن يجعله خبرا لا نعتا، فيقدر ضمير المنعوت ويأتي بخبر عنه وهو ما يسمى بالنعت المقطوع.
والمعنى: إن ربك هو ربهم لأنه رب السماوات والأرض وما بينهما ولكن المشركين عبدوا غيره جهلا وكفرا لنعمته. و)الرحمن(خبر ثان.
وأما قراءة جر الاسمين فهي جارية على أن)رب السماوات(نعت ل)ربك(من قوله)جزاء من ربك(و)الرحمن(نعت ثان.
والرب: المالك المتصرف بالتدبير ورعي الرفق والرحمة، والمراد بالسماوات والأرض وما بينهما مسماها مع ما فيها من الموجودات لأن اسم المكان قد يراد به ساكنه كما في قوله تعالى)فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها(في سورة الحج، فأن الظلم من صفات سكان القرية لا صفة لذاتها، والخواء على عروشها من أحوال ذات القرية لا من أحوال سكانها، فكان إطلاق القرية مرادا به كلا المعنيين.
والمراد بما بين السماوات والأرض: ما على الأرض من كائنات وما في السماوات من الملائكة وما لا يعلمه بالتفصيل إلا الله وما في الجو من المكونات حية وغيرها من أسحبة وأمطار وموجودات سابحة في الهواء.
و)ما(موصولة وهي من صيغ العموم، وقد استفيد من ذلك تعميم ربوبيته على جميع المصنوعات.
وأتبع وصف)رب السماوات(بذكر اسم من أسمائه الحسنى وهو اسم)الرحمن) وخص بالذكر دون غيره من الأسماء الحسنى لأن في معناه إيماء إلى أن ما يفيضه من خير على المتقين في الجنة هو عطاء رحمان بهم.
وفي ذكر هذه الصفة الجليلة تعريض بالمشركين إذ أنكروا اسم الرحمن الوارد في القرآن كما حكى الله عنهم بقوله)وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن(.
)لا يملكون منه خطابا[37](يجوز أن تكون هذه الجملة حالا من) ما بينهما(لأن ما بين السماوات والأرض يشمل ما في ذلك من المخلوقات العاقلة ، أو المزعوم لها العقل مثل الأصنام، فيتوهم أن من تلك المخلوقات من يستطيع خطاب الله ومراجعته.
ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا لإبطال مزاعم المشركين أو للاحتراس لدفع توهم أن ما تشعر به صلة رب من الرفق بالمربوبين في تدبير شؤونهم يسيغ إقدامهم على خطاب الرب.
والملك في قوله)لا يملكون منه خطابا) معناه القدرة والاستطاعة لأن المالك يتصرف فيما يملكه حسب رغبته لا رغبة غيره فلا يحتاج إلى إذن غيره.
فنفي الملك نفي الاستطاعة.

وقوله)منه(حال من)خطابا(. وأصله صفة لخطاب فلما تقدم على موصوفه صار حالا.
وحرف)من(اتصالية وهي ضرب من الابتدائية مجازية كقوله تعالى)إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء(، ف)من(الأولى اتصالية والثانية لتوكيد النص. ومنه قولهم: لست منك ولست مني وقوله تعالى)ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء(، أي لا يستطيعون خطابا يبلغونه إلى الله.
وضمير)لا يملكون(عائد إلى)ما(الموصولة في قوله)وما بينهما(لأنها صادقة على جميعهم.

صفحة : 4702

والخطاب: الكلام الموجه لحاضر لدى المتكلم أو كالحاضر المتضمن إخبارا أو طلبا أو إنشاء مدح أو ذم.
وفعل)يملكون(يعم لوقوعه في سياق النفي كما تعم النكرة المنفية. و)خطابا(عام أيضا وكلاهما من العام المخصوص بمخصص منفصل كقوله عقب هذه الآية)لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صوابا(وقوله)يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه(وقوله)من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه(وقوله)ولا يشفعون إلا لمن ارتضى(.
والغرض من ذكر هذا إبطال اعتذار المشركين حين استشعروا شناعة عبادتهم الأصنام التي شهر القرآن بها فقالوا)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(، وقالوا)ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(.
)يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا[38]( )يوم(متعلق بقوله)لا يملكون منه خطابا(، أي لا يتكلم أحد يومئذ إلا من أذن له الله.
وجملة)لا يتكلمون(مؤكدة لجملة)لا يملكون منه خطابا(أعيدت بمعناها لتقرير المعنى إذ كان المقام حقيقا، فالتقرير لقصد التوصل به إلى الدلالة على إبطال زعم المشركين شفاعة أصنامهم لهم عند الله، وهي دلالة بطريق الفحوى فإنه إذا نفي تكلمهم بدون إذن نفيت شفاعتهم إذ الشفاعة كلام من له وجاهة وقبول عند سامعه.
وليبنى عليها الاستثناء لبعد المستثنى والمستثنى منه بمتعلقات)يملكون(من مجرور ومفعول به، وظرف، وجملة أضيف لها.
وضمير)يتكلمون(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)يملكون(.
والقول في تخصيص)لا يتكلمون(مثل القول في تخصيص)لا يملكون منه خطابا(وقوله)إلا من أذن له الرحمن(استثناء من

ضمير)لا يتكلمون(وإذ قد كان مؤكدا لضمير)لا يملكون(فالاستثناء منه يفهم الاستثناء من المؤكد به.
والقيام: الوقوف وهو حالة الاستعداد للعمل الجد وهو من أحوال العبودية الحق التي لا تستحق إلى لله تعالى. وفي الحديث من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار ، أي لأن ذلك من الكبرياء المختصة بالله تعالى.
والروح: اختلف في المراد منه اختلافا أثاره عطف الملائكة عليه فقيل هو جبريل.
وتخصيصه بالذكر قبل ذكر الملائكة المعطوف عليه لتشريف قدره بإبلاغ الشريعة، وقيل المراد: أرواح بني آدم.
واللام لتعريف الجنس: فالمفرد معها والجمع سواء. والمعنى: يوم تحضر الأرواح لتودع في أجسادها، وعليه يكون فعل)يقوم(مستعملا في حقيقته ومجازه.
)والملائكة(عطف على)الروح(، أي ويقوم الملائكة صفا.
والصف اسم للأشياء الكائنة في مكان بجانب بعضها بعضا كالخط. وقد تقدم في قوله تعالى)ثم ائتوا صفا(في سورة طه وفي قوله)فاذكروا اسم الله عليها صواف(في سورة الحج، وهو تسمية بالمصدر من إطلاق المصدر على اسم الفاعل وأصله للمبالغة ثم صار اسما. وإنما يصطف الناس في المقامات التي يكون فيها أمر عظيم فصف الملائكة تعظيم لله وخضوع له.
والإذن: اسم للكلام الذي يفيد إباحة فعل للمأذون، وهو مشتق من: أذن له، إذا استمع إليه قال تعالى)وأذنت لربها وحقت(، أي استمعت وطاعت لإرادة الله. وأذن: فعل مشتق من اسم الأذن وهي جارحة السمع، فأصل معنى أذن له: أمال أذنه، أي سمعه إليه يقال: أذن يأذن أذنا كفرح، ثم استعمل في لازم السمع وهو الرضى بالمسموع فصار أذن بمعنى رضي بما يطلب منه أو ما شأنه أن يطلب منه، وأباح فعله، ومصدره إذن بكسر الهمزة وسكون الذال فكأن اختلاف صيغة المصدرين لقصد التفرقة بين المعنيين.
ومتعلق)أذن(محذوف دل عليه)لا يتكلمون(، أي من أذن له في الكلام.
ومعنى أذن الرحمان: أن من يريد التكلم لا يستطيعه أو تعتريه رهبة فلا يقدم على الكلام حتى يستأذن الله فأذن له، وإنما يستأذنه إذا ألهمه الله للاستئذان فإن الإلهام إذن عند أهل المكاشفات في العامل الأخروي فإذا ألقى الله في النفس أن يستأذن استأذن الله فأذن له كما ورد في حديث الشفاعة من إحجام الأنبياء عن الاستشفاع للناس حتى يأتوا محمد صلى الله عليه وسلم قال في الحديث فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي عز وجل ثم

يفتح الله علي من محامد وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقول: ارفع رأسك تشفع وتشفع .

صفحة : 4703

وقد أشار إلى هذا قوله تعالى)ولا يشفعون إلا لمن ارتضى(، أي لمن علموا أن الله ارتضى قبول الشفاعة فيه وهم يعلمون ذلك بإلهام هو من قبيل الوحي لأن الإلهام في ذلك العالم لا يعتريه الخطأ.

وجملة)وقال صوابا(يجوز أن تكون في موضع الحال من اسم الموصول، أي وقد قال المأذون له في الكلام صوابا، أي بإذن الله له في الكلام إذا علم أنه سيتكلم بما يرضي الله.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة)أذن له الرحمن(، أي وإلا من قال صوابا فعلم أن من لا يقول الصواب لا يؤذن له.

وفعل)وقال صوابا(مستعمل في معنى المضارع، أي ويقول صوابا، فعبر عنه بالماضي لإفادة تحقق ذلك، أي في علم الله.

وإطلاق صفة)الرحمن(على مقام الجلالة إيماء إلى أن إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار.

)ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا[39](استئناف ابتدائي كالفذلكة لما تقدم من وعيد ووعد، وإنذار وتبشير، سيق مساق التنويه ب)يوم الفصل(الذي ابتدئ الكلام عليه من قوله)إن يوم الفصل كان ميقاتا(. والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب وهو نتيجة أعمال الناس من يوم وجود الإنسان في الأرض.

فوصف اليوم بالحق يجوز أن يراد به الثابت الواقع كما في قوله تعالى)وإن الدين لواقع(وقوله آنفا)إن يوم الفصل كان ميقاتا(، فيكون)الحق(بمعنى الثابت مثل ما في قوله تعالى)واقترب الوعد الحق(.

ويجوز أن يراد بالحق ما قابل الباطل، أي العدل وفصل القضاء فيكون وصف اليوم به على وجه المجاز العقلي إذ الحق يقع فيه واليوم ظرف له قال تعالى)يوم القيامة يفصل بينكم(.

ويجوز أن يكون الحق بمعنى الحقيق بمسمى اليوم لأنه شاع إطلاق اسم اليوم على اليوم الذي يكون فيه نصر قبيلة على أخرى مثل: يوم حليمة، ويوم بعاث. والمعنى: ذلك اليوم الذي يحق له أن يقال: يوم، وليس كأيام انتصار الناس بعضهم على بعض في الدنيا

فيكون كقوله تعالى)ذلك يوم التغابن(، فهو يوم انتقام الله من أعدائه الذين كفروا نعمته وأشركوا به عبيده في الإلهية ويكون وصف الحق بمثل المعنى الذي في قوله تعالى)الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به(، أي التلاوة الحقيقية باسم التلاوة وهي التلاوة بفهم معاني المتلو وأغراضه.

والإشارة بقوله)ذلك(إلى اليوم المتقدم في قوله)إن يوم الفصل كان ميقاتا(. ومفاد اسم الإشارة في مثل هذا المقام التنبيه على أن المشار إليه حقيق بما سيوصف به بسبب ما سبق من حكاية شؤونه كما في قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(بعد قوله) هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب(إلى قوله)وبالآخرة هم يوقنون(، فلأجل جميع ما وصف به)يوم الفصل(كان حقيقا بأن يوصف بأنه) اليوم الحق(وما تفرع عن ذلك من قوله)فمن شاء اتخذ إلى ربه مئابا(.

وتعريف)اليوم(باللام للدلالة على معنى الكمال، أي هو الأعظم من بين ما يعده الناس من أيام النصر للمنتصرين لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم ويعطى كل واحد منهم ما هو أهله من خير أو شر فكأن ما عداه من الأيام المشهورة في تاريخ البشر غير ثابت الوقوع.

وفرع عليه)فمن شاء اتخذ إلى ربه مئابا(بفاء الفصيحة لإفصاحها عن شرط مقدر ناشئ عن الكلام السابق. والتقدير: فإذا علمتم ذلك كله فمن شاء اتخاذ مآب عند ربه فليتخذه، أي فقد بان لكم ما في ذلك اليوم من خير وشر فليختر صاحب المشيئة ما يليق به للمصير في ذلك اليوم. والتقدير: مآبا فيه، أي في اليوم.

وهذا التفريع من أبدع الموعظة بالترغيب والترهيب عند ما تسنح الفرصة للواعظ من تهيؤ النفوس لقبول الموعظة.

والاتخاذ: مبالغة في الأخذ، أي أخذ أخذا يشبه المطاوعة في التمكن، فالتاء فيه ليست للمطاوعة الحقيقية بل هي مجاز وصارت بمنزلة الأصلية.

والاتخاذ: الاكتساب والجعل، أي ليقتن مكانا بأن يؤمن ويعمل صالحا لينال مكانا عند الله لأن المآب عنده لا يكون إلا خيرا.

فقوله)إلى ربه(دل على أنه مآب خير لأن الله لا يرضى إلا بالخير.

والمآب يكون اسم مكان من آب، إذا رجع فيطلق على المسكين لأن المرء يؤوب إلى مسكنه، ويكون مصدرا ميميا وهو الأوب، أي الرجوع كقوله تعالى)إليه أدعو وإليه مآب(، أي رجوعي، أي فليجعل أوبا مناسبا للقاء ربه، أي أوبا حسنا.

)إنا أنذرناكم عذابا قريبا(اعتراض بين)مئابا(وبين)يوم ينظر المرء ما قدمت يداه(كيفما كان موقع ذلك الظرف حسبما يأتي.

والمقصود من هذه الجملة الإعذار للمخاطبين بقوارع هذه السورة بحيث لم يبق بينهم وبين العلم بأسباب النجاة وضدها شبهة ولا خفاء.

فالخبر وهو)إنا أنذرناكم عذابا قريبا(مستعمل في قطع العذر وليس مستعملا في إفادة الحكم لأن كون ما سبق إنذارا أمر معلوم للمخاطبين. وافتتح الخبر بحرف التأكيد للمبالغة في الإعذار بتنزيلهم منزلة من يتردد في ذلك.

وجعل المسند فعلا مسندا إلى الضمير المنفصل لإفادة تقوي الحكم، مع تمثيل المتكلم في مثل المتبري من تبعة ما عسى أن يلحق المخاطبين من ضر ان لم يأخذوا حذرهم مما أنذرهم به كما يقول النذير عند العرب بعد الإنذار بالعدو أنا النذير العريان .

والإنذار: الإخبار بحصول ما يسوء في مستقبل قريب.

وعبر عنه بالمضي لأن أعظم الإنذار قد حصل بما تقدم من قوله)إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مئابا(إلى قوله)فلن نزيدكم إلا عذابا(.

وقرب العذاب مستعمل مجازا في تحققه وإلا فإنه بحسب العرف بعيد، قال تعالى)إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا(، أي لتحققه فهو كالقريب على أن العذاب يصدق بعذاب الآخرة وهو ما تقدم الإنذار به، ويصدق بعذاب الدنيا من القتل والأسر في غزوات المسلمين لأهل الشرك. وعن مقاتل: هو قتل قريش ببدر. ويشمل عذاب يوم الفتح ويوم حنين كما ورد لفظ العذاب لذلك في قوله تعالى) يعذبهم الله بأيديكم(وقوله)وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك(.

)يوم ينظر، المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا[40](يجوز أن يتعلق بفعل)اتخذ إلى ربه مئابا(فيكون)يوم ينظر(ظرفا لغوا متعلقا ب)أنذرناكم(.

ويجوز أن يكون بدلا من)يوم يقوم الروح والملائكة صفا(لأن قيام الملائكة صفا حضور لمحاسبة الناس وتنفيذ فصل القضاء عليهم وذلك حين ينظر المرء ما قدمت يداه، أي ما عمله سالفا فهو بدل من الظرف تابع له في موقعه.

وعلى كلا الوجهين فجملة)إنا أنذرناكم عذابا قريبا(معترضة بين الظرف ومتعلقه أو بينه وبين ما أبدل منه.

والمرء: اسم للرجل إذ هو اسم مؤنثه امرأة.
والاقتصار على المرء جري على غالب استعمال العرب في كلامهم، فالكلام خرج مخرج الغالب في التخاطب لأن المرأة كانت بمعزل عن المشاركة في شؤون ما كان خارج البيت.
والمراد: ينظر الإنسان من ذكر أو أنثى، ما قدمت يداه. وهذا يعلم من استقراء الشريعة الدال على عموم التكاليف للرجال والنساء إلا ما خص منها بأحد الصنفين لأن الرجل هو المستحضر في أذهان المتخاطبين عند التخاطب.
وتعريف)المرء(للاستغراق مثل)إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات(.
وفعل)ينظر(يجوز أن يكون من نظر العين أي البصر، والمعنى: يوم يرى المرء ما قدمت يداه. ومعنى نظر المرء ما قدمت يداه: حصول جزاء عمله له، فعبر عنه بالنظر لأن الجزاء لا يخلو من أن يكون مرئيا لصاحبه من خير أو شر، فإطلاق النظر هنا على الوجدان على وجه المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق ونظيره قوله تعالى)ليروا أعمالهم(، وقد جاءت الحقيقة في قوله تعالى)يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا(الآية. و)ما(موصولة صلتها جملة)قدمت يداه(.
ويجوز أن يكون من نظر الفكر، وأصله مجاز شاع حتى لحق بالمعاني الحقيقية كما يقال: هو بخير النظرين، ومنه التنظر: توقع الشيء، أي يوم يترقب ويتأمل ما قدمت يداه، وتكون)ما(على هذا الوجه استفهامية وفعل)ينظر(معلقا عن العمل بسبب الاستفهام، والمعنى: ينظر المرء جواب من يسأل: ما قدمت يداه؟ ويجوز أن يكون من الانتظار كقوله تعالى)هل ينظرون إلا تأويله(.
وتعريف)المرء(تعريف الجنس المفيد للاستغراق.
والتقديم: تسبيق الشيء والابتداء به.

و)ما قدمت يداه(هو ما أسلفه من الأعمال في الدنيا من خير أو شر فلا يختص بما عمله من السيئات فقد قال تعالى)يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء(الآية.
وقوله)ما قدمت يداه(إما مجاز مرسل بإطلاق اليدين على جميع آلات الأعمال وإما أن يكون بطريقة التمثيل بتشبيه هيئة العامل لأعماله المختلفة بهيئة الصانع للمصنوعات بيديه كما قالوا في المثل يداك أوكتا ولو كان ذلك على قول بلسانه أو مشي برجليه.

ولا يحسن أن يجعل ذكر اليدين من التغليب لأن خصوصية التغليب دون خصوصية التمثيلية.
وشمل)ما قدمت يداه(الخير والشر.
وخص بالذكر من عموم المرء الإنسان الكافر الذي يقول)يا ليتني كنت ترابا(لأن السورة أقيمت على إنذار منكري البعث فكان ذلك وجه تخصيصه بالذكر، أي يوم يتمنى الكافر أنه لم يخلق من الأحياء فضلا عن أصحاب العقول المكلفين بالشرائع، أي يتمنى أن يكون غير مدرك ولا حساس بأن يكون أقل شيء مما لا إدراك له وهو التراب، وذلك تلهف وتندم على ما قدمت يداه من الكفر.
وقد كانوا يقولون)أإذا كنا ترابا ورفاتا إنا لمبعوثون(فجعل الله عقابهم بالتحسر وتمني أن يكونوا من جنس التراب.
وذكر وصف الكافر يفهم منه أن المؤمن ليس كذلك لأن المؤمن وإن عمل بعض السيئات وتوقع العقاب على سيئاته فهو يرجو أن تكون عاقبته إلى النعيم وقد قال الله تعالى)يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا(وقال)ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره(، فالمؤمنون يرون ثواب الإيمان وهو أعظم ثواب وثواب حسناتهم على تفاوتهم فيها ويرجون المصير إلى ذلك الثواب وما يرونه من سيئاتهم لا يطغي على ثواب حسناتهم، فهم كلهم يرجون المصير إلى النعيم، وقد ضرب الله لهم أو لمن يقاربهم مثلا بقوله)وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون(على ما في تفسيرها من وجوه.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة النازعات
سميت في المصاحف وأكثر التفاسير)سورة النازعات(بإضافة سورة إلى النازعات بدون واو، جعل لفظ)النازعات(علما عليها لأنه لم يذكر في غيرها. وعنونت في كتاب التفسير من صحيح البخاري في كثير من كتب المفسرين بسورة)والنازعات(بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها.
وقال سعد الله الشهير بسعدي والخفاجي: إنها تسمى)سورة الساهرة(لوقوع لفظ)الساهرة(في أثنائها ولم يقع في غيرها من السور.
وقالا: تسمى سورة الطامة أي لوقوع لفظ الطامة فيها ولم يقع في غيرها ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم.

ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عنون اسمها)سورة فالمدبرات(وهو غريب، لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها.
وهي مكية بالاتفاق.
وهي معدودة الحادية والثمانين في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار.
وعدد آيها خمس وأربعون عند الجمهور، وعدها أهل الكوفة ستا وأربعين آية.

أغراضها
اشتملت على إثبات البعث والجزاء، وإبطال إحالة المشركين وقوعه.
وتهويل يومه وما يعتري الناس حينئذ من الوهل.
وإبطال قول المشركين بتعذر الإحياء بعد انعدام الأجساد.
وعرض بأن نكرانهم إياه منبعث عن طغيانهم فكان الطغيان صادا لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقبين حياة بعد هذه الحياة الدنيا بأن جعل مثل طغيانهم كطغيان فرعون وإعراضه عن دعوة موسى عليه السلام وإن لهم في ذلك عبرة، وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
وانعطف الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث بأن خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.
وأدمج في ذلك إلفات إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله تعالى.
وأدمج فيه امتنان في خلق هذا العالم من فوائد يجتنونها وأنه إذا حل عالم الآخرة وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاء على الأعمال بالعقاب والثواب.

وكشف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إياه وجعلهم ذلك أمارة على انتفائه فلذلك يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعيين وقت الساعة سؤال تعنت، وأن شأن الرسول أن يذكرهم بها وليس شأنه تعيين إبانها، وأنها يوشك أن تحل فيعلمونها عيانا وكأنهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلا جزءا من النهار.
)والنزعات غرقا[1] والناشطات نشطا[2] والسابحات سبحا[3] فالسابقات سبقا[4] فالمدبرات أمرا[5] يوم ترجف الراجفة[6] تتبعها

الرادفة[7]قلوب يومئذ واجفة[8] أبصرها خاشعة[9](ابتدئت بالقسم بمخلوقات ذات صفات عظيمة قسما مراد منه تحقيق ما بعده من الخبر وفي هذا القسم تهويل المقسم به.

وهذه الأمور الخمسة المقسم بها جموع جرى لفظها على صيغة الجمع بألف وتاء لأنها في تأويل جماعات تتحقق فيها الصفات المجموعة، فهي جماعات، نازعا، ناشطات، سابحات، سابقات، مدبرات، فتلك صفات لموصوفات محذوفة تدل عليها الأوصاف الصالحة لها.

فيجوز أن تكون صفات لموصوفات من نوع واحد له أصناف تميها تلك الصفات.

ويجوز أن تكون صفات لموصوفات مختلفة الأنواع بأن تكون كل صفة خاصية من خواص نوع من الموجودات العظيمة قوامه بتلك الصفة.

والذي يقتضيه غالب الاستعمال أن المتعاطفات بالواو صفات مستقلة لموصوفات مختلفة أنواع أو أصناف، أو لموصوف واحد له أحوال متعددة، وأن المعطوفات بالفاء صفات متفرعة عن الوصف الذي عطفت عليه بالفاء، فهي صفات متعددة متفرع بعضها عن بعض لموصوف واحد فيكون قسما بتلك الأحوال العظيمة باعتبار موصوفاتها.

وللسلف من المفسرين أقوال في تعيين موصوفات هذه الأوصاف وفي تفسير معاني الأوصاف. وأحسن الوجوه على الجملة أن كل صفة مما عطف بالواو مرادا بها موصوف غير المراد بموصوف الصفة الأخرى، وأن كل صفة عطفت بالفاء أن تكون حال أخرى للموصوف المعطوف بالواو كما تقدم. وسنعتمد في ذلك أظهر الوجوه وأنظمها ونذكر ما في ذلك من الاختلاف ليكون الناظر على سعة بصيرة.

وهذا الإجمال مقصود لتذهب أفهام السامعين كل مذهب ممكن، فتكثر خطور المعاني في الأذهان، وتتكرر الموعظة والعبرة باعتبار وقع كل معنى في نفس له فيها أشد وقع وذلك من وفرة المعاني مع إيجاز الألفاظ.

فالنازعات: وصف مشتق من النزع ومعاني النزع كثيرة كلها ترجع إلى الإخراج والجذب فمنه حقيقة ومنه مجاز.

فيحتمل أن يكون)النازعات(جماعة من الملائكة وهو الموكلون بقبض الأرواح، فالنزع هو إخراج الروح من الجسد شبه بنزع الدلو من البئر أو الركية ومنهم قولهم في المحتضر وهو في النزع. وأجريت صفتهم على صيغة التأنيث بتأويل الجماعة أو الطوائف كقوله تعالى)قالت الأعراب آمنا(.

وروي هذا عن علي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومسروق وابن جبير والسدي فأقسم الله بالملائكة لأنها من أشرف المخلوقات، وخصها بهذا الوصف الذي هو من تصرفاتها تذكيرا للمشركين إذ هم في غفلة عن الآخرة وما بعد الموت، ولأنهم شديد تعلقهم بالحياة كما قال تعالى لما ذكر اليهود)ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا(فالمشركين مثل في حب الحياة ففي القسم بملائكة قبض الأرواح عظة لهم وعبرة.

والقسم على هذا الوجه مناسب للغرض ألأهم من السورة وهو إثبات البعث لأن الموت أول منازل الآخرة فهذا من براعة الاستهلال.

وغرقا: اسم مصدر أغرق، وأصله إغراقا، جيء به مجردا عن الهمزة فعومل معاملة المصدر الثلاثي المتعدي مع أنه لا يوجد غرق متعديا ولا أن مصدره مفتوح عين الكلمة لكنه لما جعل عوضا عن مصدر أغرق وحذفت منه الزوائد قدر فعله بعد حذف الزوائد متعديا.

ولو قلنا: إنه سكنت عينه تخفيفا ورعيا للمزاوجة مع نشطا، وسبحا، وسبقا، وأمرا، لكان أرقب لأن متحرك الوسط يخفف بالسكون، وهذا مصدر محذوف هو مفعول مطلق للنازعات، أي نزعا غرقا، أي مغرقا، أي تنزع الأرواح من أقاصي الأجساد.

ويجوز أن تكون)النازعات(صفة للنجوم، أي تنزع من أفق إلى أفق، أي تسير، يقال: ينزع إلى الأمر الفلاني، أي يميل ويشتاق.

وغرقا: تشبيه لغروب النجوم بالغرق في الماء وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش، وهو على هذا متعين لأن يكون مصدر غرق وأن تسكين عينه تخفيف.

والقسم بالنجوم في هذه الحالة لأنها مظهر من مظاهر القدرة الربانية كقوله تعالى)والنجم إذا هوى(.

ويحتمل أن تكون)النازعات(جماعات الرماة بالسهام في الغزو يقال: نزع في القوس، إذا مدها عند وضع السهم فيها. وروي هذا عن عكرمة وعطاء.

والغرق: الإغراق، أي استيفاء مد القوس بإغراق السهم فيها فيكون قسما بالرماة من المسلمين الغزاة لشرفهم بأن غزوهم لتأييد دين الله، ولم تكن للمسلمين وهم بمكة يومئذ غزوات ولا كانوا يرجونها، فالقسم بها إنذار للمشركين بغزوة بدر التي كان فيها خضد

شوكتهم، فيكون من دلائل النبوءة ووعد وعده الله رسوله صلى الله عليه وسلم.

والناشطات: يجوز أن تكون الموصوفات بالنشاط، وهو قوة الانطلاق للعمل كالسير السريع. ويطلق النشاط على سير الثور الوحشي وسير البعير لقوة ذلك، فيكون الموصوف إما الكواكب السيارة على وجه التشبيه لدوام تنقلها في دوائرها وإما إبل الغزو، وإما الملائكة التي تسرع إلى تنفيذ ما أمر الله به من أمر التكوين وكلاهما على وجه الحقيقة، وأياما كان فعطفها على)النازعات(عطف نوع على نوع أو عطف صنف على صنف.

و)نشطا(مصدر جاء على مصدر فعل المتعدي من باب نصر فتعين أن)الناشطات(فاعلات النشط فهو متعد.

وقد يكون مفضيا لإرادة النشاط الحقيقي لا المجازي. ويجوز أن يكون التأكيد لتحقيق الوصف لا لرفع احتمال المجاز.

وعن ابن عباس: الناشطات الملائكة تنشط نفوس المؤمنين، وعنه هي نفوس المؤمنين تنشط للخروج.

و)السابحات(صفة من السبح المجازي، وأصل السبح العوم وهو تنقل الجسم على وجه الماء مباشرة وهو هنا مستعار لسرعة الانتقال، فيجوز أن يكون المراد الملائكة السائرين في أجواء السماوات وآفاق الأرض، وروي عن علي بن ابي طالب.

ويجوز أن يراد خيل الغزاة حين هجومها على العدو سريعة كسرعة السابح في الماء كالسابحات في قول امريء القيس يصف فرسا:

مسح اذ ما السابحات على الوغى
أثرن الغبار بالكديد المـركـل وقيل:)السابحات(النجوم، وهو جار على قول من فسر النازعات بالنجوم .)وسبحا(مصدر مؤكد لإفادة التحقيق من التوسل إلى تنويه للتعظيم. وعطف)فالسابقات(بالفاء يؤذن بأن هذه الصفة متفرعة عن التي قبلها لأنهم يعطفون بالفاء الصفات التي من شأنها أن يتفرع بعضها عن بعض كما تقدم في قوله تعالى)والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا(وقول ابن زيابة:

يا لهف زيابة للحارث الص ابخ
فـالـغـائم فـالآيب فلذلك)فالسابقات(هي السابقات من السابحات.

والسبق: تجاوز السائر من يسير معه ووصوله إلى المكان المسير إليه قبله. ويطلق السبق على سرعة الوصول من دون وجود سائر مع السابق قال تعالى)فاستبقوا الخيرات(وقال)أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون(.

ويطلق السبق على الغلب والقهر، ومنه قوله تعالى)أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم(وقول مرة بن عداء الفقعسي:

كأنك لم تسبق من الدهـر لـيلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب فقوله تعالى)فالسابقات سبقا(يصلح للحمل على هذه المعاني على اختلاف محامل وصف السابحات بما يناسب كل احتمال على حياله بأن يراد السائرات سيرا سريعا فيما تعلمه. أو المبادرات. وإذا كان)السابحات(بمعنى الخيل كان) السابقات(إن حمل على معنى المسرعات كناية عن عدم مبالاة الفرسان بعدوهم وحرصهم على الوصول إلى أرض العدو، أو على معنى غلبهم أعداءهم.

وأكد بالمصدر المرافد لمعناه وهو)سبقا(للتأكيد ودلالة التنكير على عظم ذلك السبق.

والمدبرات: الموصوفة بالتدبير.

والتدبير: جولان الفكر في عواقب الأشياء وبإجراء الأعمال على ما يليق بما توجد له فإن كانت السابحات جماعات الملائكة، فمعنى تدبيرها تنفيذ ما نيط بعدتها على أكمل ما أذنت به فعبرت عن ذلك بالتدبير للأمور لأنه يشبه فعل المدبر المتثبت.

صفحة : 4708

وإن كانت السابحات خيل الغزاة فالمراد بالتدبير: تدبير مكائد الحرب من كر، وفر، وغارة، وقتل، وأسير، ولحاق للفارين، أو ثبات بالمكان. وإسناد التدبير إلى السابحات على هذا الوجه مجاز عقلي لأن التدبير للفرسان وإنما الخيل وسائل لتنفيذ التدبير، كما قال تعالى)وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق(، فأسند الإيتان إلى ضمير)كل ضامر(من الإبل لأن إتيان الحجيج من الفجاح العميقة يكون بسير الإبل.

وفي هذا المجاز إيماء إلى حذق الخيل وسرعة فهمها مقاصد فرسانها حتى كأنها هي المدبرة لما دبره فرسانها.

والأمر: الشأن والغرض المهم وتنوينه للتعظيم، وإفراده لإرادة الجنس أي أمورا.

وينتظم من مجموع صفات)النازعات، والناشطات، والسابحات(إذا فهم منها جماعات الرماة والجمالة والفرسان أن يكون إشارة إلى أصناف المقاتلين من مشاة وهم الرماة بالقسي، وفرسان على الخيل وكانت الرماة تمشي قدام الفرسان تنضح عنهم بالنبال حتى يبلغوا إلى مكان الملحمة. قال أنيف بن زبان الطائي:

وتحت نحور الخيل حرشف رجله تتاح لغرات القلوب نبـالـهـا ولتحمل الآية لهذه الاحتمالات كانت تعريضا

بتهديد المشركين بحرب تشن عليهم وهي غزوة فتح مكة أو غزوة بدر مثل سورة والعاديات وأضرابها، وهي من دلائل نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم إذ كانت هذه التهديدات صريحها وتعريضها في مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة والمسلمون في ضعف فحصل من هذا القسم تعريض بعذاب في الدنيا.

وجملة)يوم ترجف الراجفة(إلى)خاشعة(جواب القسم وصريح الكلام موعظة. والمقصود منه لازمه وهو وقوع البعث لأن القلوب لا تكون إلا في أجسام. وقد علم أن المراد ب)يوم ترجف الراجفة(هو يوم القيامة لأنه قد عرف بمثل هذه الأحوال في آيات كثيرة مما سبق نزوله مثل قوله)إذا رجت الأرض(فكان في هذا الجواب تهويل ليوم البعث وفي طيه تحقيق وقوعه فحصل إيجاز في الكلام جامع بين الإنذار بوقوعه والتحذير مما يجري فيه.

و)يوم ترجف الراجفة(ظرف متعلق ب)واجفة(فآل إلى أن المقسم عليه المراد تحقيقه هو وقوع البعث بأسلوب أوقع في نفوس السامعين المنكرين من أسلوب التصريح بجواب القسم، إذ دل على المقسم عليه بعض أحواله التي هي من أهواله فكان في جواب القسم إنذار.

ولم تقرن جملة الجواب بلام جواب القسم لبعد ما بين الجواب وبين القسم بطول جملة القسم، فيظهر لي من استعمال البلغاء أنه إذا بعد ما بين القسم وبين الجواب لا يأتون بلام القسم في الجواب، ومن ذلك قوله تعالى)والسماء ذات البروج(إلى)قتل أصحاب الأخدود(. ومثله كثير في القرآن فلا يؤتى بلام القسم في جوابه إلا إذا كان الجواب مواليا لجملة القسم نحو)وتالله لأكيدن أصنامكم( )فوربك لنسألنهم أجمعين(، ولأن جواب القسم إذا كان جملة اسمية لم يكثر اقترانه بلام الجواب ولم أر التصريح بجوازه ولا بمنعه، وإن كان صاحب المغني استظهر في مبحث لام الجواب في قوله تعالى)ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير(أن اللام لم جواب القسم محذوف وليست لام جواب)لو(بدليل كون الجملة اسمية، والاسمية قليلة من جواب)لو(فلم ير جملة الجواب إذا كانت اسمية أن تقترن باللام. وجعل صاحب الكشاف تبعا للفراء وغيره جواب القسم محذوفا تقديره:لتبعثن.

وقدم الظرف على متعلقه لأن ذلك الظرف هو الأهم في جواب القسم لأنه المقصود إثبات وقوعه، فتقديم الظرف للاهتمام به والعناية به فإنه لما أكد الكلام بالقسم شمل التأكيد متعلقات الخبر التي منها ذلك الظرف، والتأكيد اهتمام، ثم أكد ذلك الظرف في الأثناء بقوله)يومئذ(الذي هو يوم ترجف الراجفة فحصلت عناية عظيمة بهذا الخبر.

والرجف: الاضطراب والاهتزاز وفعله من باب نصر. وظاهر كلام أهل اللغة أنه فعل قاصر ولم أر من قال: إنه يستعمل متعديا، فلذلك يجوز أن يكون إسناد)ترجف(إلى)الراجفة(حقيقيا، فالمراد ب)الراجفة(: الأرض لأنها تضطرب وتهتز بالزلازل التي تحصل عند فناء العالم الدنيوي والمصير إلى العالم الأخروي قال تعالى)يوم ترجف الأرض والجبال(وقال)إذا رجت الأرض رجا(وتأنيث) الراجفة(لأنها الأرض، وحينئذ فمعنى)تتبعها الرادفة(أن رجفة أخرى تتبع الرجفة السابقة لأن صفة)الراجفة(تقتضي وقوع رجفة، فالرادفة رجفة ثانية تتبع الرجفة الأولى.

ويجوز أن يكون إسناد)ترجف(إلى)الراجفة(مجازا عقليا، أطلق) الراجفة(على سبب الرجف.

فالمراد ب)الراجفة(: الصيحة والزلزلة التي ترجف الأرض بسببها جعلت هي الراجفة مبالغة كقولهم: عيشة راضية، وهذا هو المناسب لقوله)تتبعها الرادفة(أي تتبع تلك الراجفة، أي مسببة الرجف رادفة، أي واقعة بعدها.

ويجوز أن يكون الرجف مستعارا لشدة الصوت فشبه الصوت الشديد بالرجف وهو التزلزل.

وتأنيث)الراجفة(على هذا لتأويلها بالواقعة أو الحادثة.

و)تتبعها الرادفة(: التالية، يقال: ردف بمعنى تبع، والرديف: التابع لغيره، قال تعالى)أني ممدكم بثلاثة آلاف من الملائكة مردفين(، أي تتبع الرجفة الأولى ثانية، فالمراد: رادفة من جنسها وهما النفختان اللتان في قوله تعالى)ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون(.

وجملة)تتبعها الرادفة(حال من)الراجفة(.

وتنكير)قلوب(للتكثير، أي قلوب كثيرة ولذلك وقع مبتدأ وهو نكرة لإرادة النوعية.

والمراد: قلوب المشركين الذين كانوا يجحدون البعث فإنهم إذا قاموا فعلموا أن ما وعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به حق توقعوا ما كان يحذرهم منه من عقاب إنكار البعث والشرك وغير ذلك من أحوالهم.

فأما قلوب المؤمنين فإن فيها اطمئنانا متفاوتا بحسب تفاوتهم في التقوى.

والخوف يومئذ وإن كان لا يخلو منه أحد إلا أن أشده خوف الذين يوقنون بسوء المصير ويعلمون أنهم كانوا ضالين في الحياة الدنيا.
والواجفة: المضطربة من الخوف، يقال: وجف كضرب وجفا ووجيفا ووجوفا، إذا اضطرب.
و)واجفة(خبر)قلوب(.
وجملة)أبصارها خاشعة(خبر ثان عن)قلوب(وقد زاد المراد من الوجيف بيانا قوله)أبصارها خاشعة(، أي أبصار أصحاب القلوب.
والخشوع حقيقته: الخضوع والتذلل، وهو هيئة للإنسان، ووصف الأبصار به مجاز في الانخفاض والنظر من طرف خفي من شدة الهلع والخوف من فظيع ما تشاهده من سوء المعاملة قال تعالى)خشعا أبصارهم(في سورة اقتربت الساعة. ومثله قوله تعالى)ووجوه يومئذ باسرة(.
وإضافة)أبصار(إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة لأن الأبصار لأصحاب القلوب وكلاهما من جوارح الأجساد مثل قوله)إلا عشية أو ضحاها(.
)يقولن أإنا لمردودون في الحافرة[10] إذا كنا عظاما نخرة[11] (استئناف إما ابتدائي بعد جملة القسم وجوابه، لإفادة أن هؤلاء هم الذين سيكونون أصحاب القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة يوم ترجف الراجفة.
وإما استئناف بياني لأن القسم وما بعده من الوعيد يثير سؤالا في نفس السامع عن الداعي لهذا القسم فأجيب ب)يقولون أئنا لمردودون في الحافرة(، أي منكرون البعث، ولذلك سلك في حكاية هذا القول أسلوب الغيبة شأن التحدث عن غير حاضر.
وضمير)يقولون(عائد إلى معلوم من السياق وهم الذين شهروا بهذه المقالة ولا يخفون على المطلع على أحوالهم ومخاطباتهم وهم المشركون في تكذيبهم بالبعث.
والمساق إليه الكلام كل من يتأتى منه سماعه من المسلمين وغيرهم.
ويجوز أن يكون الكلام مسوقا إلى منكري البعث على طريقة الالتفاف.
وحكي مقالهم بصيغة المضارع لإفادة أنهم مستمرون عليه وأنه متجدد فيهم لا يرعوون عنه.
وللإشعار بما في المضارع من استحضار حالتهم بتكرير هذا القول ليكون ذلك كناية عن التعجيب من قولهم هذا كقوله تعالى)فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط(.
وقد علم السامع أنهم ما كرروا هذا القول إلا وقد قالوه فيما مضى.

وهذه المقالة صادرة منهم وهم في الدنيا فليس ضمير) يقولون(بعائد إلى)قلوب(من قوله تعالى)قلوب يومئذ واجفة(.

وكانت عادتهم أن يلقوا الكلام الذي ينكرون فيه البعث بأسلوب الاستفهام إظهارا لأنفسهم في مظهر المتردد السائل لقصد التهكم والتعجب من الأمر المستفهم عنه. والمقصود: التكذيب لزعمهم أن حجة استحالة البعث ناهضة.

وجعل الاستفهام التعجبي داخلا على جملة اسمية مؤكدة ب)إن(وبلام الابتداء وتلك ثلاثة مؤكدات مقوية للخبر لإفادة أنهم أتوا بما يفيد التعجب من الخبر ومن شدة يقين المسلمين به، فهم يتعجبون من تصديق هذا الخبر فضلا عن تحقيقه والإيقان به.

والمردود: الشيء المرجع إلى صاحبه بعد الانتفاع به مثل العارية ورد ثمن المبيع عند التفاسخ أو التقايل، أي لمرجعون إلى الحياة، أي إنا لمبعوثون من قبورنا.

والمراد ب)الحافرة(: الحالة القديمة، يعني الحياة.

وإطلاقات)الحافرة(كثيرة في كلام العرب لا تتميز الحقيقة منها عن المجاز، والأظهر ما في الكشاف: يقال: رجع فلان إلى حافرته، أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها، أي أثر فيها بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفرا أي لأن قدميه جعلتا فيها أثرا مثل الحفر، وأشار إلى أن وصف الطريق بأنها حافرة على معنى ذات حفر، وجوز أن يكون على المجاز العقلي كقولهم: عيشة راضية، أي راض عائشها، ويقولون: رجع إلى الحافرة، تمثيلا لمن كان في حالة ففارقها، ثم رجع إليها فصار: رجع في الحافرة، ورد إلى الحافرة، جاريا مجرى المثل.

ومنه قول الشاعر وهو عمران بن حطان حسبما ظن ابن السيد البطليوسي في شرح أدب الكتاب:

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من سفه وعار ومن الأمثال قولهم النقد عند الحافرة أي إعطاء سبق الرهان للسباق عند وصوله إلى الأمد المعين للرهان.

يريد: أرجوعا إلى حافرة.

وظرف)إذا(في قوله)إذا كنا عظاما نخرة(وهو مناط التعجب وادعاء الاستحالة، أي إذا صرنا عظاما بالية فكيف نرجع أحياء.

و)إذا(متعلق ب)مردودون(.

و)نخرة(صفة مشتقة من قولهم: نخر العظم، إذا بلي فصار فارغ الوسط كالقصبة. وتأنيث)نخرة(لأن موصوفه جمع تكسير، فوصفه يجري على التأنيث في الاستعمال.
هي همزة)إذا(. وقرأه بقية العشرة)أإذا(بهمزتين إحداهما مفتوحة همزة الاستفهام والثانية مكسورة هي همزة)إذا(.
وهذا الاستفهام إنكاري مؤكد للاستفهام الأول للدلالة على أن هذه الحالة جديرة بزيادة إنكار الإرجاع إلى الحياة بعد الموت، فهما إنكاران لإظهار شدة إحالته.
وقرأ الجمهور)نخرة(بدون ألف بعد النون. وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب وخلف)ناخرة(بالألف.
)قالوا تلك إذا كرة خاسرة[12]( )قالوا(بدل اشتمال من جملة) يقولون أئنا لمردودون في الحافرة(.
وأعيد فعل القول لمقاصد منها الدلالة على أن قولهم هذا في غرض آخر غير القول الأول فالقول الأول قصدهم منهم الإنكار والإبطال، والقول الثاني قصدوا منه الاستهزاء والتورك لأنهم لا يؤمنون بتلك الكرة فوصفهم إياها ب)خاسرة(من باب الفرض والتقدير، أي لو حصلت كرة لكانت خاسرة ومنها دفع توهم أن تكون جملة تلك)إذن كرة خاسرة(استئنافا من جانب الله تعالى.
وعبر عن قولهم هذا بصيغة الماضي دون المضارع على عكس) يقولون أئنا لمردودون في الحافرة(لأن هذه المقالة قالوها استهزاء فليست مما يتكرر منهم بخلاف قولهم)أئنا لمردودون في الحافرة(فإنه حجة ناهضة في زعمهم، فهذا مما يتكرر منهم في كل مقام. وبذلك لم يكن المقصود التعجب من قولهم هذا لأن التعجب ينقضي الإنكار وكون كرتهم، أي عودتهم إلى الحياة عودة خاسرة أمر محقق لا ينكر لأنهم يعودون إلى الحياة خاسرين لا محالة.
و)تلك(إشارة إلى الردة المستفادة من)مردودون(والإشارة إليه باسم الإشارة للمؤنث للإخبار عنه ب)كرة(.
و)إذن(جواب للكلام المتقدم، والتقدير: إذن تلك كرة خاسرة، فقدم)تلك(على حرف الجواب للعناية بالإشارة.
والكرة: الواحدة من الكر، وهو الرجوع بعد الذهاب، أي رجعة.
والخسران: أصله نقص مال التجارة التي هي لطلب الربح، أي بزيادة المال فاستعير هنا لمصادفة المكروه غير المتوقع.

ووصف الكرة بالخاسرة مجاز عقلي للمبالغة لأن الخاسر أصحابها. والمعنى: إنا إذن خاسرون لتكذيبنا وتبين صدق الذي أنذرنا بتلك الرجعة.

)فإنما هي زجرة واحدة[13] فإذا هم بالساهرة[14](الفاء فصيحة للتفريع على ما يفيده قولهم)أينا لمردودون في الحافرة إذا كنا عظاما نخرة(من إحالتهم الحياة بعد البلى والفناء.

فتقدير الكلام: فلا عجب في ذلك فما هي إلا زجرة واحدة فإذا أنتم حاضرون في الحشر.

وضمير)هي(ضمير القصة وهو ضمير الشأن. واختير الضمير المؤنث ليحسن عوده إلى زجره. وهذا من أحسن استعمالات ضمير الشأن. والقصر حقيقي مراد منه تأكيد الخبر بتنزيل السامع منزلة من يعتقد أن زجرة واحدة غير كافية في إحيائهم.

وفاء)فإذا هم بالساهرة(للتفريع على جملة)إنما هي زجرة واحدة(. و)إذا(للمفاجأة، أي الحصول دون تأخير فحصل تأكيد معنى التفريع الذي أفادته الفاء وذلك يفيد عدم الترتب بين الزجرة والحصول في الساهرة.

والزجرة: المرة من الزجر، وهو الكلام الذي فيه أمر أو نهي في حالة غضب. يقال: زجر البعير، إذا صاح له لينهض أو يسير، وعبر بها هنا عن أمر الله بتكوين أجساد الناس الأموات تصويرا لما فيه من معنى التسخير لتعجيل التكون. وفيه مناسبة لإحياء ما كان هامدا كما يبعث البعير البارك بزجرة ينهض بها سريعا خوفا من زاجره، وقد عبر عن ذلك بالصيحة في قوله تعالى)يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج(وهو الذي عبر عنه بالنفخ في الصور.

ووصفت الزجرة بواحدة تأكيدا لما في صيغة المرة من معنى الوحدة لئلا يتوهم أن إفراده للنوعية، وهذه الزجرة هي النفخة الثانية التي في قوله تعالى)ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون(، فهي ثانية التي قبلها، وهي الرادفة التي تقدم ذكرها آنفا وإنما أريد بكونها واحدة أنها لا تتبع بثانية لها، وقد وصفت بواحدة في سورة الحاقة بهذا الاعتبار.

والساهرة: الأرض المستوية البيضاء التي لا نبات فيها يختار مثلها لاجتماع الجموع ووضع المغانم. وأريد بها أرض يجعلها الله لجمع الناس للحشر.

والإتيان ب)إذا(الفجائية للدلالة على سرعة حضورهم بهذا المكان عقب البعث.

وعطفها بالفاء لتحقيق ذلك المعنى الذي أفادته)إذا(لأن الجمع بين المفاجأة والتفريغ أشد ما يعبر به عن السرعة مع إيجاز اللفظ.

والمعنى: أن الله يأمر بأمر التكوين بخلق أجساد تحل فيها الأرواح التي كانت في الدنيا فتحضر في موقف الحشر للحساب بسرعة.

)هل أتيك حديث موسى[15] إذ ناديه ربه بالواد المقدس طوى [16]اذهب إلى فرعون إنه طغى[17] فقل هل لك إلى أن تزكى[18] وأهديك إلى ربك فتخشى[19](هذه الآية اعتراض بين جملة)فإنما هي زجرة واحدة(وبين جملة)أأنتم أشد خلقا(الذي هو الحجة على إثبات البعث ثم الإنذار بما بعده دعت إلى استطراده مناسبة التهديد لمنكري ما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من البعث لتماثل حال المشركين في طغيانهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بحال فرعون وقومه وتماثل حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه بحال موسى عليه السلام مع فرعون ليحصل من ذكر قصة موسى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وموعظة للمشركين وأئمتهم مثل أبي جهل وأمية بن خلف وأضرابهما لقوله في آخرها)إن في ذلك لعبرة لمن يخشى(و)هل أتاك(استفهام صوري يقصد من أمثاله تشويق السامع إلى الخير من غير قصد إلى استعلام المخاطب عن سابق علمه بذلك الخبر، فسواء في ذلك علمه من قبل أو لم يعلمه، ولذلك لا ينتظر المتكلم بهذا الاستفهام جوابا عنه من المسؤول بل يعقب الاستفهام بتفصيل ما أوهم الاستفهام عنه بهذا الاستفهام كناية عن أهمية الخبر بحيث إنه مما يتساءل الناس عن علمه.

ولذلك لا تستعمل العرب في مثله من حروف الاستفهام غير)هل(لأنها تدل على طلب تحقيق المستفهم عنه، فهي في الاستفهام مثل)قد(في الإخبار، والاستفهام معها حاصل بتقدير همزة استفهام، فالمستفهم بها يستفهم عن تحقيق الأمر، ومن قبيله قولهم في الاستفهام: أليس قد علمت كذا فيأتون ب)قد(مع فعل النفي المقترن باستفهام إنكار من غير أن يكون علم المخاطب محققا عند المتكلم.

والخطاب لغير معين فالكلام موعظة ويتبعه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم.

و)أتاك(معناه: بلغك، استعير الإتيان لحصول العلم تشبيها للمعقول بالمحسوس كأن الحصول مجيء إنسان على وجه التصريحية، أو كأن الخبر الحاصل إنسان أثبت له الإتيان على طريقة الاستعارة المكنية، قال النابغة:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني والحديث: الخبر، وأصله فعيل بمعنى فاعل من حدث الأمر إذا طرأ وكان، أي الحادث من أحوال الناس وإنما يطلق على الخبر بتقدير مضاف لا يذكر لكثرة الاستعمال تقديره خبر الحديث، أي خبر الحادث.

و)إذا(اسم زمان، واستعمل هنا في الماضي وهو بدل من)حديث موسى(بدل اشتمال لأن حديثه يشتمل على كلام الله إياه وغير ذلك.

وكما جاز أن تكون)إذا(بدلا من المفعول به في قوله تعالى)واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء(يجوز أن تكون بدلا من الفاعل وغيره، واقتصار ابن هشام وغيره على أنها تكون مفعولا به أو بدلا من المفعول به اقتصار على أكثر موارد استعمالها إذا خرجت عن الظرفية، فقد جوز في الكشاف وقوع)إذ(مبتدأ في قراءة من قرأ)لمن من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا(في سورة آل عمران.وأضيف)إذ(إلى جملة)ناداه ربه(. والمعنى: هل أتاك خبر زمان نادى فيه موسى ربه.

والواد: المكان المنخفض بين الجبال.

والمقدس: المطهر. والمراد به التطهير المعنوي وهو التشريف والتبريك لأجل ما نزل فيه من كلام الله دون توسط ملك يبلغ الكلام إلى موسى عليه السلام، وذلك تقديس خاص، ولذلك قال الله له في الآية الأخرى)فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس(.

وطوى:اسم مكان ولعله هو نوع من الأدوية يشبه البئر المطوية، وقد سمي مكان بظاهر مكة ذا طوى بضم الطاء وبفتحها وكسرها. وتقدم في سورة طه. وهذا واد في جانب جبل الطور في برية سينا في جانبه الغربي.

وقرأ الجمهور)طوى(بلا تنوين على أنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث بتأويل البقعة، أو للعدل عن طاو، أو للعجمة. وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف منونا باعتباره اسم واد مذكر اللفظ.

وجملة)اذهب إلى فرعون(بيان لجملة)ناداه ربه(.

وجملة)إنه طغى(تعليل للأمر في قوله)اذهب(، ولذلك افتتحت بحرف)إن(الذي هو للاهتمام ويفيد مفاد التعليل.

والطغيان إفراط التكبر وتقدم عند قوله)للطاغين مئابا(في سورة النبأ.

وفرعون: لقب ملك القبط بمصر في القديم، وهو اسم معرب عن اللغة العبرانية ولا يعلم هل هو اسم للملك في لغة القبط ولم يطلقه القرآن إلا على ملك مصر الذي أرسل إليه موسى، وأطلق على الذي في زمن يوسف اسم الملك، وقد تقدم الكلام عليه عند

قوله تعالى)ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه(في سورة الأعراف.
و)هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك(عرض وترغيب قال تعالى)فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(.
وقوله)هل لك(تركيب جرى مجرى المثل فلا يغير عن هذا التركيب لأنه قصد به الإيجاز يقال: هل لك إلى كذا؟ وهل لك في كذا؟ وهو كلام يقصد منه العرض بقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل؟ ومنه قول كعب:
ألا بلغا عني بـجـيرا رسـالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا بضم تاء)قلت(. وقول بجير أخيه في جوابه عن أبياته:
من مبلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحـزم و)لك(خبر مبتدأ محذوف تقديره: هل لك رغبة في كذا؟ فحذف)رغبة(واكتفي بدلالة حرف)في(عليه، وقالوا: هل لك إلى كذا؟ على تقدير: هل لك ميل؟ فحذف)ميل(لدلالة)إلى(عليه.

صفحة : 4713

قال الطيبي: قال ابن جني: متى كان فعل من الأفعال في معنى فعل آخر فكثيرا ما يجرى أحدهما مجرى صاحبه فيعول به في الاستعمال إليه)كذا(ويحتذى به في تصرفه حذو صاحبه وإن كان طريق الاستعمال والعرف ضد مأخذه، ألا ترى إلى قوله تعالى)هل لك إلا أن تزكى(وأنت إنما تقول: هل لك في كذا؟ لكنه لما دخله معنى: آخذ بك إلى كذا أو أدعوك إليه، قال)هل لك إلا أن تزكى(. وقوله تعالى)أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم(لا يقال: رفث إلى المرأة، إنما يقال: رفثت بها، ومعها، لكن لما كان الرفث بمعنى الإفضاء عدي ب)إلى(وهذا من أسد مذاهب العربية لأنه موضع يملك فيه المعنى عنان الكلام فيأخذه إليه اه. قيل ليس هذا من باب التضمين بل من باب المجاز والقرينة الجارة.
و)تزكى(قرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بتشديد الزاي على اعتبار أن أصله: تتزكى، بتاءين، فقلبت التاء المجاورة للزاي زايا لتقارب مخرجيهما وأدغمت في الزاي. وقرأه الباقون بتخفيف الزاي على أنه حذفت إحدى التائين اقتصارا للتخفيف.
وفعل)تزكى(على القراءتين أصله: تتزكى بتاءين مضارع تزكى مطاوع زكاه، أي جعله زكيا.

والزكاة: الزيادة، وتطلق على الزيادة في الخير النفساني قال تعالى)قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها(، وهو مجاز شائع ساوى الحقيقة ولذلك لا يحتاج إلى قرينة.

والمعنى: حثه على أن يستعد لتخليص نفسه من العقيدة الضالة التي هي خبث مجازي في النفس فيقبل إرشاد من يرشده إلى ما به زيادة الخير فإن فعل المطاوعة يؤذن بفعل فاعل يعالج نفسه ويروضها إذ كان لم يهتد أن يزكي نفسه بنفسه.

ولذلك أعقبه بعطف)وأهديك إلى ربك فتخشى(أي إن كان فيك إعداد نفسك للتزكية يكن إرشادي إياك فتخشى، فكان ترتيب الجمل في الذكر مراعى فيه ترتبها في الحصول فلذلك لم يحتج إلى عطفه بفاء التفريغ، إذ كثيرا ما يستغنى بالعطف بالواو مع إرادة الترتيب عن العطف بحرف الترتيب لأن الواو تفيد الترتيب بالقرينة، ويستغنى بالعطف عن ذكر حرف التفسير في العطف التفسيري الذي يكون الواو فيه بمعنى)أي(التفسيرية فإن)أن تزكى وأهديك(في قوة المفرد. والتقدير: هل لك في التزكية وهدايتي إياك فخشيتك الله تعالى.

والهداية: الدلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب إذا قبلها المهدي.

وتفريع)فتخشى(على)أهديك(إشارة إلى أن خشية الله لا تكون إلا بالمعرفة قال تعالى)إنما يخشى الله من عباده العلماء(، أي العلماء به، أي يخشاه خشية كاملة لا خطأ فيها ولا تقصير.

قال الطيبي: وعن الواسطي: أوائل العلم الخشية، ثم الإجلال، ثم التعظيم، ثم الهيبة، ثم الفناء.

وفي الاقتصار على ذكر الخشية إيجاز بليغ لأن الخشية ملاك كل خير. وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل .

وذكر له الإله الحق بوصف)ربك(دون أن يذكر اسم الله العلم أو غيره من طرق التعريف إلطافا في الدعوة إلى التوحيد وتجنبا لاستطارة نفسه نفورا، لأنه لا يعرف في لغة فرعون اسم الله تعالى، ولو عرفه له باسمه في لغة إسرائيل لنفر لأن فرعون كان يعبد آلهة باطلة، فكان في قوله إلى ربك وفرعون يعلم أن له ربا إطماع له أن يرشده موسى إلى ما لا ينافي عقائده فيصغي إليه سمعه حتى إذا سمع قوله وحجته داخله الإيمان الحق مدرجا، ففي هذا الأسلوب استنزال لطائره.

والخشية: الخوف فإذا أطلقت في لسان الشرع يراد بها خشية الله تعالى ولهذا نزل فعلها هنا منزلة اللازم فلم يذكر له مفعول لأن

المخشي معلوم مثل فعل الإيمان في لسان الشرع يقال: آمن فلان، وفلان مؤمن أي مؤمن بالله ووحدانيته.
)فأريه الآية الكبرى[20] فكذب وعصى[21] ثم أدبر يسعى[22] فحشر فنادى[23] فقال أنا ربكم الأعلى[24](

صفحة : 4714

الفاء في قوله)فأراه الآية الكبرى(فصيحة وتفريع على محذوف يقتضيه قوله)اذهب إلى فرعون(. والتقدير: فذهب فدعاه فكذبه فأراه الآية الكبرى، وذلك لأن قوله)إنه طغى(يؤذن بأنه سيلاقي دعوة موسى بالاحتقار والإنكار لأن الطغيان مظنة ذينك، فعرض موسى عليه إظهار آية تدل على صدق دعوته لعله يوقن كما قال تعالى)قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين(فتلك هي الآية الكبرى المراد هنا.
والآية: حقيقتها العلامة والأمارة، وتطلق على الحجة المثبتة لأنها علامة على ثبوت الحق، وتطلق على معجزة الرسول لأنها دليل على صدق الرسول وهو المراد هنا.
وأعقب فعل)فأراه الآية الكبرى(بفعل)فكذب(للدلالة على شدة عناده ومكابرته حتى أنه رأى الآية فلم يتردد ولم يتمهل حتى ينظر في الدلالة بل بادر إلى التكذيب والعصيان.
والمراد بعصيانه عصيان أمر الله أن يوحده أو أن يطلق بني إسرائيل من استعبادهم وتسخيرهم للخدمة في بلاده.
وعطف)ثم أدبر يسعى(ب)ثم(للدلالة على التراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، فأفادت)ثم(أن مضمون الجملة المعطوف بها أعلى رتبة في الغرض الذي تضمنته الجملة قبلها، أي أنه ارتقى من التكذيب والعصيان إلى ما هو أشد وهو الإدبار والسعي والدعاء الإلهية لنفسه، أي بعد أن فكر مليا لم يقتنع بالتكذيب والعصيان فخشي أنه إن سكت ربما تروج دعوة موسى بين الناس فأراد الحيطة لدفعها وتحذير الناس منها.
والإدبار والسعي مستعملان في معنييهما المجازيين فإن حقيقة الإدبار هو المشي إلى الجهة التي هي خلف الماشي بأن يكون متوجها إلى جهة ثم يتوجه إلى جهة تعاكسها. وهو هنا مستعار للإعراض عن دعوة الداعي مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لمسيلمة لما أبى الإيمان ولئن أدبرت ليعقرنك الله .
وأما السعي فحقيقته: شدة المشي، وهو هنا مستعار للحرص والاجتهاد في أمره الناس بعدم الإصغاء لكلام موسى، وجمع السحرة

لمعارضة معجزته إذ حسبها سحرا كما قال تعالى)فتولى فرعون فجمع كيده(.
والعمل الذي يسعى إليه يبينه قوله تعالى)فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى(فثلاثتها مرتبة على)يسعى(.
فجملة)فحشر(عطف على جملة)يسعى(لأن فرعون بذل حرصه ليقنع رعيته بأنه الرب الأعلى خشية شيوع دعوة موسى لعبادة الرب الحق.
ويجوز أن يكون)أدبر(على حقيقته، أي ترك ذلك المجمع بأن قام معرضا إعلانا بغضبه على موسى ويكون)يسعى(مستعملا في حقيقته أيضا، أي قام يشتد في مشيه وهي مشية الغاضب المعرض.
والحشر: جمع الناس، وهذا الحشر هو المبين في قوله تعالى)قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم(.
وحذف مفعول)حشر(لظهوره لأن الذين يحشرون هم أهل مدينته من كل صنف.
وعطف)فنادى(بالفاء لإفادة أنه أعلن هذا القول لهم بفور حضورهم لفرط حرصه على إبلاغ ذلك إليهم.
والنداء: حقيقته جهر الصوت بدعوة أحد ليحضر ولذلك كانت حروف النداء نائبة مناب)أدعو(فنصبت الاسم الواقع بعدها. ويطلق النداء على رفع الصوت دون طلب حضور مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم كقول الحريري في المقامة الثلاثين فحين جلس كأنه أبن ماء السماء، نادى مناد من قبل الأحماء الخ وحذف مفعول)نادى(كما حذف مفعول)حشر(.
وإسناد الحشر والنداء إلى فرعون مجاز عقلي لأنه لا يباشر بنفسه حشر الناس ولا نداءهم ولكن يأمر أتباعه وجنده، وإنما أسند إليه لأنه الذي أمر به كقولهم: بنى المنصور بغداد.
والقول الذي نادى به هو تذكير قومه بمعتقدهم فيه فإنهم كانوا يعتبرون ملك مصر إلها لأن الكهنة يخبرونهم بأنه أبن آمون رع الذي يجعلونه إلها ومظهره الشمس.
وصيغة الحصر في)أنا ربكم(لرد دعوة موسى.
وقوله)فقال أنا ربكم الأعلى(بدل من جملة)فنادى(بدلا مطابقا بإعادة حرف العطف، وهو الفاء لأن البدل قد يقترن بمثل العامل في المبدل منه لقصد التأكيد كما في قوله تعالى)ومن النخل من طلعها قنوان دانية(وتقدم في سورة الأنعام.
ويجوز أن تكون جملة)فقال أنا ربكم(عطفا على جملة) يسعى(على أن يكون فرعون أمر بهذا القول في أنحاء مملكته، وليس قاصرا على إعلانه في الحشر الذين حشرهم حول قصره.

فوصف نفسه بالرب الأعلى لأنه أبن آمون رع وهو الرب الأعلى، فأبنه هو القائم بوصفه، أو لأنه كان في عصر اعتقاده: أن فرعون رب الأرباب المتعددة عندهم فصفة)الأعلى(صفة كاشفة.
)فأخذه الله نكال الآخرة والأولى[25] إن في ذلك لعبرة لمن يخشى[26](جملة)فأخذه الله نكال الآخرة والأولى(مفرعة عن الجمل التي قبلها، أي كان ما ذكر من تكذيبه وعصيانه وكيده سببا لأن أخذه الله، وهذا هو المقصود من سوق القصة وهو مناط موعظة المشركين وإنذارهم، مع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته.
وحقيقة الأخذ: التناول باليد، ويستعار كثيرا للمقدرة والغلبة كما قال تعالى)فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر(وقال)فأخذهم أخذة رابية(.
والمعنى: فلم يفلت من عقاب الله.
والنكال: اسم مصدر نكل به تنكيلا وهو مثل السلام، بمعنى التسليم ومعنى النكال: إيقاع أذى شديد على الغير من التشهير بذلك بحيث ينكل أي يرد ويصرف من يشاهده عن أن يأتي بمثل ما عومل به المنكل به، فهو مشتق من النكول وهو النكوص والهروب، قال تعالى)فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها(في سورة البقرة.
وانتصب)نكال(على المفعولية المطلقة لفعل)أخذه(مبين نوع الأخذ بنوعين منه لأن الأخذ يقع بأحوال كثيرة.
وإضافة)نكال(إلى)الآخرة والأولى(على معنى)في(.
فالنكال في الأولى هو الغرق، والنكال في الآخرة هو عذاب جهنم.
وقد استعمل النكال في حقيقته ومجازه لأن ما حصل لفرعون في الدنيا هو نكال حقيقي وما يصيبه في الآخرة أطلق عليه النكال لأنه يشبه النكال في شدة التعذيب ولا يحصل به نكال يوم القيامة.
وورود فعل)اخذه(بصيغة المضي مع أن عذاب الآخرة مستقبل ليوم الجزاء مراعا فيه أنه لما مات ابتدأ يذوق العذاب حين يرى منزلته التي سيؤول إليها يوم الجزاء كما ورد في الحديث.
وتقديم)الآخرة(على)الأولى(في الذكر لأن أمر الآخرة أعظم.
وجاء في آخر القصة بحوصلة وفذلكة لما تقدم فقال)إن في ذلك لعبرة لمن يخشى(فهم من معنى البيان لمضمون جملة)هل أتاك حديث موسى(الآيات.
والإشارة بقوله)في ذلك(إلى)حديث موسى(.

والعبرة: الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها أو عاقبة أمثالها. وهي مشتقة من العبر، وهو الانتقال من ضفة واد أو نهر إلى ضفته الأخرى.

والمراد بالعبرة هنا الموعظة.

وتنوين)عبرة(للتعظيم لأن في هذه القصة مواعظ كثيرة من جهات هي مثلات للأعمال وعواقبها، ومراقبة الله وخشيته، وما يترتب على ذلك وعلى ضده من خير وشر في الدنيا والآخرة وجعل ذلك عبرة لمن يخشى، أي من تخالط نفسه خشية الله لأن الذين يخشون الله هم أهل المعرفة الذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها، قال تعالى)إنما يخشى الله من عباده العلماء(وقال)وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون(. والخشية تقدمت قريبا في قوله)وأهديك إلى ربك فتخشى(.

وفي هذا تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا بأهل للانتفاع بمثل هذا كما لم ينتفع بمثله فرعون وقومه.

وفي القصة كلها تعريض بسادة قريش من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر، وقد علم المسلمون مضرب هذا المثل فكان أبو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمة.

وتأكيد الخبر ب)أن(بلام الابتداء لتنزيل السامعين الذين سيقت لهم القصة منزلة من ينكر ما فيها من المواعظ لعدم جريهم على الاعتبار والاتعاظ بما فيها من المواعظ.

)أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها[27] رفع سمكها فسواها[28] وأغطش ليلها وأخرج ضحاها[29](

صفحة : 4716

انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم الذي هو تخويف وتهديد على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إبطال شبهتهم على نفي البعث وهي قوله)أينا لمردودون في الحافرة(وما أعقبوه به من التهكم المبني على توهم إحالة البعث. وإذ قد فرضوا استحالة عودة الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا)أينا لمردودون(جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض فقيل لهم)أأنتم أشد خلقا أم السماء(، فلذلك قيل لهم هنا أأنتم بضميرهم ولم يقل: آالإنسان أشد خلقا، وما هم إلا من الإنسان، فالخطاب موجه إلى المشركين الذين عبر عنهم آنفا بضمائر الغيبة من قوله)يقولون(إلى قوله)فإذا هم بالساهرة(، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب.

فالجملة مستأنفة لقصد الجواب عن شبهتهم لأن حكاية شبهتهم ب)يقولون أينا(إلى آخره، تقتضي ترقب جواب عن ذلك القول كما تقدم الإيماء إليه عند قوله)يقولون أينا لمردودون(.

والاستفهام تقريري. والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم، أي من خلق نوعهم وهو نوع الإنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدر على ما هو أعظم من ذلك قال تعالى)لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون(، ذلك أن نظرهم العقلي غيمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه محالا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة.

و)أشد(: اسم تفضيل، والمفضل عليه محذوف يدل عليه قوله)أم السماء(.

ومعنى)أشد(: أصعب، و)خلقا(مصدر منتصب على التمييز لنسبة اسدية إليهم، أي أشد من جهة خلق الله إياكم أشد أم خلقه السماء، فالتمييز محول عن المبتدأ.

و)السماء(يجوز أن يراد به الجنس وتعريفه تعريف الجنس، أي السماوات وهي محجوبة عن مشاهدة الناس فيكون الاستفهام التقريري مبنيا على ما هو مشتهر بين الناس من عظمة السماوات تنزيلا للمعقول منزل المحسوس.

ويجوز أن يراد به سماء معينة وهي المسماة بالسماء الدنيا التي تلوح فيها أضواء النجوم فتعريفه تعريف العهد، وهي الكرة الفضائية المحيطة بالأرض ويبدو فيها ضوء النهار وظلمة الليل، فيكون الاستفهام التقريري مبنيا على ما هو مشاهد لهم. وهذا أنسب بقوله)وأغطش ليلها واخرج ضحاها(لعد احتياجه إلى التأويل.

وجملة)بناها(يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان شدة خلق السماء، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله)أم السماء(، لأنه في تقدير: أم السماء أشد خلقا. وقد جعلت كلمة)بناها(فاصلة فيكون الوقف عندها ولا ضير في ذلك إذ لا لبس في المعنى لأن) بناها) جملة و)أم(المعادلة لا يقع بعدها الا اسم مفرد.

والبناء: جعل بيت أو دار من حجارة، أو آجر أو أدم، أو أثواب من نسيج الشعر، مشدودة شققه بعضها إلى بعض بغرز أو خياطة ومقامة على دعائم، فما كان من ذلك بأدم يسمى قبة وما كان بأثواب يسمى خيمة وخباء.

وبناء السماء: خلقها، استعير له فعل البناء لمشابهتها البيوت في الارتفاع.

وجملة)رفع سمكها فسواها(مبينة لجملة)بناها(أو بدل اشتمال منها. وسلك طريق الإجمال ثم التفصيل لزيادة التصوير.
والسمك: بفتح السين وسكون الميم: الرفع في الفضاء كما اقتصر عليه الراغب سواء اتصل المرفوع بالأرض أو لم يتصل بها وهو مصدر سمك.
والرفع: جعل جسم)معتليا وهو مرادف للسمك فتعدية فعل) رفع(إلى)السمك(للمبالغة في الرفع، أي رفع رفعها أي جعله رفيعا، وهو من قبيل قولهم: ليل اليل، وشعر شاعر، وظل ظليل.
والتسوية: التعديل وعدم التفاوت وهي جعل الأشياء سواء، أي متماثلة وأصلها أن تتعلق بأشياء وقد تتعلق باسم شيء واحد على معنى تعديل جهاته ونواحيه ومنه قوله هنا)فسواها(، أي عدل أجزاءها وذلك بأن أتقن صنعها فلا ترى فيها تفاوتا.
والفاء في)فسواها(للتعقيب.
وتسوية السماء حصلت مع حصول سمكها، فالتعقيب فيه مثل التعقيب في قوله)فنادى فقال أنا ربكم الأعلى(.
وجملة)وأغطش ليلها(معطوفة على جملة)بناها(وليست معطوفة على)رفع سمكها(لأن إغطاش وإخراج الضحى ليس مما يبين به البناء.

صفحة : 4717

والإغطاش: جعله غاطشا، أي ظلاما يقال: غطش الليل من باب ضرب، أي أظلم.
والمعنى: أنه خص الليل بالظلمة وجعله ظلاما، أي جعل ليلها ظلاما، وهو قريب من قوله)رفع سمكها(من باب قولهم: ليل أليل.
وإخراج الضحى: إبراز نور الضحى، وأصل الإخراج النقل من مكان حاو، واستعير للإظهار استعارة شائعة.
والضحى: بروز ضوء الشمس بعد طلوعها وبعد احمرار شعاعها، فالضحى هو نور الشمس الخالص وسمي به وقته على تقدير مضاف كما في قوله تعالى)وأن يحشر الناس ضحى(يدل لذلك قوله تعالى)والشمس وضحاها(، أي نورها الواضح.
وإنما جعل إظهار النور إخراج لأن النور طاريء بعد الظلمة، إذ الظلمة عدم وهو أسبق، والنور محتاج إلى السبب الذي ينيره.
وإضافة)ليل(و)ضحى(إلى ضمير)السماء(إن كان السماء الدنيا فلأنهما يلوحان للناس في جو السماء فيلوح الضحى أشعة منتشرة من السماء صادرة من جهة مطلع الشمس فتقع الأشعة على وجه

الأرض ثم إذا انحجبت الشمس بدورة الأرض في اليوم والليلة أخذ الظلام يحل محل ما يتقلص من شعاع الشمس في الأفق إلى أن يصير ليلا حالكا محيطا بقسم من الكرة الأرضية.

وإن كان السماء جنسا للسماوات فإضافة ليل وضحى إلى السماوات لأنهما يلوحان في جهاتها.

)والأرض بعد ذلك دحاها[30]أخرج منها ماءها ومرعاها[31] والجبال أرساها[32](انتقل الكلام من الاستدلال بخلق السماء إلى الاستدلال بخلق الأرض لأن الأرض أقرب إلى مشاهدتهم وما يوجد على الأرض أقرب إلى علمهم بالتفصيل أو الإجمال القريب من التفصيل.

ولأجل الاهتمام بدلالة خلق الأرض وما تحتوي عليه من قدم اسم)الأرض(على فعله وفاعله فانتصب على طريقة الاشتغال، والاشتغال يتضمن تأكيدا باعتبار الفعل المقدر العامل في المشتغل عنه الدال عليه الفعل الظاهر المشتغل بضمير الاسم المقدم.

والدحو والدحي يقال: دحوت ودحيت. واقتصر الجوهري على الواوي وهو الجاري في كلام المفسرين هو: البسط والمد بتسوية.

والمعنى: خلقها مدحوة، أي مبسوطة مسواة.

والإشارة من قوله)بعد ذلك(إلى ما يفهم من)بناها رفع سمكها فسواها(، أي بعد أن خلق السماء خلق الأرض مدحوة.

والبعدية ظاهرها: تأخر زمان حصول الفعل، وهذه الآية أظهر في الدلالة على أن الأرض خلقت بعد السماوات وهو قول قتادة ومقاتل والسدي، وهو الذي تؤيده أدلة علم الهيئة. وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى)هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات(في سورة البقرة، وما ورد من الآيات مما ظاهره كظاهر آية سورة البقرة تأويله واضح.

ويجوز أن تكون البعدية مجازا في نزول رتبة ما أضيف إليه) بعد(عن رتبة ما ذكر قبله كقوله تعالى)عتل بعد ذلك زنيم(.

وجملة)أخرج منها ماءها ومرعاها(بدل اشتمال من جملة) دحاها(لأن المقصد من دحوها بمقتضى ما يكمل تيسير الانتفاع بها.

ولا يصح جعل جملة)أخرج منها ماءها(إلى آخرها بيانا لجملة) دحاها(لاختلاف معنى الفعلين.

والمرعى: مفعل من رعى يرعى، وهوهنا مصدر ميمي أطلق على المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، أي أخرج منها ما يرعى.

والرعي: حيقيته تناول الماشية الكلأ والحشيش والقصيل.

فالاقتصار على المرعى اكتفاء عن ذكر ما تخرجه الأرض من الثمار والحبوب لأن ذكر المرعى يدل على لطف الله بالعجماوات فيعرف منه أن اللطف بالإنسان أحرى بدلالة فحوى الخطاب، والقرينة على الاكتفاء قوله بعده)متاعا لكم ولأنعامكم(.

وقد دل بذكر الماء والمرعى على جميع ما تخرجه الأرض قوتا للناس وللحيوان حتى ما تعالج به الأطعمة من حطب للطبخ فإنه مما تنبت الأرض، وحتى الملح فإنه من الماء الذي على الأرض.
ونصب)الجبال(يجوز أن يكون على طريقة نصب)والأرض بعد ذلك دحاها(ويجوز أن يكون عطفا على)ماءها ومرعاها(ويكون المعنى: وأخرج منها جبالها، فتكون)ال(عوضا عن المضاف إليه مثل)فإن الجنة هي المأوى(أي مأوى من خاف مقام ربه فإن الجبال قطع من الأرض ناتئة على وجه الأرض.
وإرساء الجبال: إثباتها في الأرض، ويقال: رست السفينة، إذا شدت إلى الشاطئ فوقفت على الأنجر، ويوصف الجبل بالرسو حقيقة كما في الأساس، قال السمؤال أو عبد الملك بن عبد الرحيم يذكر جبلهم:

رسا أصله فوق الثرى وسما به   إلى النجم فرع لا ينال طـويل وإثبات الجبال: هو رسوخها بتغلغل صخورها وعروق أشجارها لأنها خلقت ذات صخور سائخة إلى باطن الأرض ولولا ذلك لزعزعتها الرياح، وخلقت تتخللها الصخور والأشجار ولولا ذلك لتهيلت أتربتها وزادها في ذلك أنها جعلت أحجامها متناسبة بأن خلقت متسعة القواعد ثم تتصاعد متضائقة.
ومن معنى إرسائها: أنها جعلت منحدرة ليتمكن الناس من الصعود فيها بسهولة كما يتمكن الراكب من ركوب السفينة الراسية ولو كانت في داخل البحر ما تمكن من ركوبها إلا بمشقة.
)متعا لكم ولأنعامكم[33]( )المتاع(يطلق على ما ينتفع به مدة، ففيه معنى التأجيل، وتقدم عند قوله)وأمتعتكم(في سورة النساء وهو هنا اسم مصدر متع، أي إعطاء للانتفاع زمانا، وتقدم بيانه عند قوله تعالى)ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين(في سورة الأعراف.
وانتصب)متاعا(على النيابة عن الفعل. والتقدير: متعناكم متاعا.
ولام)لكم ولأنعامكم(لام التقوية لأن المصدر فرع في العمل عن الفعل، وهو راجع إلى خلق الأرض والجبال، وذلك في الأرض ظاهر، وأما الجبال فلأنها معتصمهم من عدوهم، وفيها مراعي أنعامهم تكون في الجبال مأمونة من الغارة عليها من غرة. وهذا إدماج الامتنان في الاستدلال لإثارة شكرهم حق النعمة بأن يعبدوا المنعم وحده ولا يشركوا بعبادته غيره.

وفي قوله)والأرض بعد ذلك دحاها(إلى)ولأنعامكم(محسن الجمع ثم التقسيم.
)فإذا جاءت الطامة الكبرى[34] يوم يتذكر الإنسان ما سعى[35] وبرزت الجحيم لمن يرى[36] فأما من طغى[37] وآثر الحياة الدنيا[38] فأن الجحيم هي المأوى[39] وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى[40] فإن الجنة هي المأوى[41](يجوز أن يكون التفريع على الاستدلال الذي تضمنه قوله)أأنتم أشد خلقا أم السماء(الآيات، فإن إثبات البعث يقتضي الجزاء إذ هو حكمته. وإذا اقتضى الجزاء كان على العاقل أن يعمل لجزاء الحسنى ويجتنب ما يوقع في الشقاء وأن يهتم بالحياة الدائمة فيؤثرها ولا يكترث بنعيم زائل فيتورط في اتباعه، فلذلك فرع على دليل إثبات البعث تذكير بالجزاءين، وإرشاد إلى النجدين.
وإذا قد قدم قبل الاستدلال تحذير إجمالي بقوله)يوم ترجف الراجفة(الآية كما يذكر المطلوب قبل القياس في الجدل، جيء عقب الاستدلال بتفصيل ذلك التحذير مع قرنه بالتبشير لمن تحلى بضده فلذلك عبر عن البعث ابتداء بالراجفة لأنها مبدؤه، ثم بالزجرة، وأخيرا بالطامة الكبرى لما في هذين الوصفين من معنى يشمل الراجفة وما بعدها من الأهوال إلى أن يستقر كل فريق في مقره.
ومن تمام المناسبة للتذكير بيوم الجزاء وقوع عقب التذكير بخلق الأرض، والامتنان بما هيأ منها للإنسان متاعا به، للإشارة إلى أن ذلك ينتهي عندما يحين يوم البعث والجزاء.
ويجوز أن يجعل قوله)فإذا جاءت الطامة الكبرى(مفرعا على قوله)فإنما هي زجرة واحدة فذا هم بالساهرة(فإن الطامة هي الزجرة.
ومناط التفريع هو ما عقبه من التفصيل بقوله)فأما من طغى(الخ إذ ل يلتئم تفريع الشيء على نفسه.
و)إذا(ظرف للمستقبل فلذلك إذا وقع بعد الفعل الماضي صرف إلى الاستقبال، وإنما يؤتى بعد)إذا(بفعل المضي لزيادة تحقيق ما يفيده)إذا(من تحقق الوقوع.
والمجيء: هنا مجاز في الحصول والوقوع لأن الشيء الموقت المؤجل بأجل يشبه شخصا سائرا إلى غاية، فإذا حصل ذلك المؤجل عند أجله فكأنه السائر إلى إذا بلغ المكان المقصود.
والطامة: الحادثة، أو الوقعة التي تطم، أي تعلو وتغلب بمعنى تفوق أمثالها من نوعها بحيث يقل مثلها في نوعها، مأخوذ من طم الماء، إذا غمر الأشياء وهذا الوصف يؤذن بالشدة والهول إذ لا يقال مثله إلا في الأمور المهولة ثم بولغ في تشخيص هولها بأن وصفت

ب)الكبرى(فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن الحادثة من الأهوال.
والمراد بالطامة الكبرى: القيامة وقد وصفت بأوصاف عديدة في القرآن مثل الصاخة والقارعة والراجفة ووصفت بالكبرى.

صفحة : 4719

و)يوم يتذكر الإنسان ما سعى(بدل من جملة)فإذا جاءت الطامة الكبرى(بدا اشتمال لأن ما أضيف إليه يوم هو من الأحوال التي يشتمل عليها زمن مجيء الطامة وهو يوم القيامة ويوم الحساب.وتذكر الإنسان ما سعاه: أن يوقف على أعماله في كتابه لأن التذكر مطاوع ذكره.
والتذكر يقتضي سبق النسيان وهو انمحاء المعلوم من الحافظة.
والمعنى: يوم يذكر الإنسان فيتذكر، أي يعرض عليه عمله فيعترف به إذ ليس المقصود من التذكر إلا أثره، وهو الجزاء فكني بالتذكر عن الجزاء قال تعالى)قرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا(.
وتبريز الجحيم: إظهار لأهلها. وجيء بالفعل المضاعف لإفادة إظهار الجحيم لأنه إظهار لأجل الإرهاب.
والجحيم: جهنم. ولذلك قرن فعله بتاء التأنيث لأن جهنم مؤنثة في الاستعمال، أو هو بتأويل النار، والجحيم كل نار عظيمة في حفرة عميقة.
وبني فعل)برزت(للمجهول لعدم الغرض ببيان مبرزها إذ الموعظة في الإعلام بوقوع إبرازها يومئذ.
و)لمن يرى(، أي لكل راء، ففعل)يرى(منزل منزلة اللازم لأن المقصود لمن له بصر، كقول البحتري:
أن يرى مبصر ويسمع واع والفاء في قوله)فأما من طغى(رابطة الجواب)إذا(لأن جملة)من طغى(إلى آخرها جملة اسمية ليس فيها فعل يتعلق به)إذا(فلم يكن بين)إذا(وبين جوابها ارتباط لفظي فلذلك تجلب الفاء لربط الجواب في ظاهر اللفظ، وأما في المعنى فيعلم أن)إذا(ظرف يتعلق الاستقرار الذي بين المبتدأ والخبر.
و)أما(حرف تفصيل وشرط لأنها في معنى: مهما يكن شيء.
والطغيان تقدم معناه آنفاز والمراد هنا: طغى على أمر الله، كما دل عليه قوله)وأما من خاف مقام ربه(.

وقدم ذكر الطغيان على أيثار الحياة الدنيا لأن الطغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدنيا فلما كان مسببا عنه ذكر عقبه مراعاة للترتب الطبيعي.
والإيثار: تفضيل شيء على شيء في حال لا يتيسر فيها الجمع بين أحوال كل منهما.
ويعدى فعل الإيثار إلى اسم المأثور بتعديه الفعل إلى مفعوله، ويعدى إلى المأثور عليه بحرف)على(قال تعالى حكاية)لقد آثرك الله علينا(، وقد يترك ذكر المأثور يشير إليه كما إذا كان المأثور والمأثور عليه ضدين كما هنا لما هو شائع من المقابلة بين الحياة لدنيا والآخرة.
وقد يترك ذكر المأثور اكتفاء بذكر المأثور عليه إذا كان هو الأهم كقوله تعالى)ويؤثرون على أنفسهم(لظهور أن المراد يؤثرون الفقراء.
والمراد بالحياة الدنيا حظوظها ومنافعها الخاصة بها، أي التي لا تشاركها فيها حظوظ الآخرة، فالكلام على حذف مضاف، تقديره: نعيم الحياة.
ويفهم من فعل الإيثار أن معه نبذا لنعيم الآخرة. ويرجع إيثار الحياة الدنيا إلى إرضاء هوى النفس، وإنما يعرف كلا الحظين بالتوقيف الإلهي كما عرف الشرك وتكذيب الرسل والاعتداء على الناس والبطر والصلف وما يستتبعه ذلك من الأحوال الذميمة.
وملاك هذا الإيثار هو الطغيان على أمر الله، فإن سادتهم ومسيريهم يعلمون أن ما يدعوهم إليه الرسول هو الحق ولكنهم يكرهون متابعته استكبارا على أن يكونوا تبعا للغير فتضيع سيادتهم وقد زاد هذا المفاد بيانا قوله بعده)وأما من خاف مقام ربه(الآية. وبه يظهر أن مناط الذم في يثار الحياة الدنيا هو إيثارها على الآخرة، فأما الأخذ بحظوظ الحياة الدنيا التي لا يفيت الآخذ بها حظوظ الآخرة فذلك غير مذموم، وهو مقام كثير من عباد الله الصالحين حكاه الله تعالى عن صالحي بني إسرائيل من قولهم لقارون)وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ول تنس نصيبك من الدنيا(.
وقوله)من خاف مقام ربه(مقابل قوله)من طغى(لأن الخوف ضد الطغيان وقوله)نهى النفس عن الهوى(مقابل قوله)وآثر الحياة الدنيا(.
ونهي الخائف نفسه مستعار للانكفاف عن تناول ما تحبه النفس من المعاصي والهوى، فجعلت نفس الإنسان بمنزلة شخص آخر يدعوه إلى السيئات وهو ينهاه عن هذه الدعوة، وهذا يشبه ما

يسمى بالتجريد، يقولون: قالت له نفسه كذا فعصاها، ويقال: نهى قلبه، ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن أذينة:
وإذا وجدت لها وساوس سلـوة شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها

صفحة : 4720

والمراد ب)الهوى(ما تهواه النفس فهو مصدر بمعنى المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق، فهو ما ترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية مما يخالف الحق والنفع الكامل. وشاع الهوى في المرغوب الذميم ولذلك قيل في قوله تعالى)ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله(أن)بغير هدى(حال فمؤكدة ليست تقييدا إذ لا يكون الهوى إلا بغير هدى.
وتعريف)الهوى(تعريف الجنس.
والتعريف في)المأوى(الأول والثاني تعريف العهد، أي مأوى من طغى، ومأوى من خاف مقام ربه، وهو تعريف معن عن ذكر ما يضاف إليه)مأوى(ومثله شائع في الكلام كما في قوله: غض الطرف، أي الطرف المعهود من الأمر، أي غض طرفك. وقوله: واملأ السمع، أي سمعك وقوله تعالى)وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال(، أي على أعراف الحجاب، ولذلك فتقدير الكلام عند نحاة الصرة المأوى له أو مأواه عند نحاة الكوفة، ويسمي نحاة الكوفة الألف واللام هذه عوضا عن المضاف إليه وهي تسمية حسنة لوضوحها واختصارها، ويأبى ذلك البصريون، وهو خلاف ضئيل، إذ المعني متفق عليه.
والمأوى: اسم مكان من أوى، إذا رجه، فالمراد به: المقر والمسكن لأن المرء يذهب إلى قضاء شؤونه ثم يرجع إلى مسكنه.
و)مقام ربه(مجاز عن الجلال والمهابة وأصل المقام مكان القيام فكان أصله مكان ما يضاف هو إليه، ثم شاع إطلاقه على نفس ما يضاف إليه على طريقة الكناية بتعظيم المكان عن تعظيم صاحبه، مثل ألفاظ: جناب، وكنف، وذرى، قال تعالى)ولمن خاف مقام ربه جنتان(وقال)ذلك لمن خاف مقامي(وذلك من قبيل الكناية المطلوب بها نسبة إلى المكنى عنه فإن خوف مقام الله مراد به خوف الله والمراد بالنسبة ما يشمل التعلق بالمفعول.
وفي قوله)يوم يتذكر الإنسان ما سعى(إلى قوله)فإن الجنة هي المأوى(محسن الجمع مع التقسيم.
وتعريف)النفس(في قوله)ونهى النفس(هو مثل التعريف في)المأوى(.

وفي تعريف)أصحاب الجحيم(و)أصحاب الجنة(بطريق الموصول إيماء إلى أن الصلتين علتان في استحقاق ذلك المأوى.

)يسألونك عن الساعة أيان مرساها[42] فيم أنت من ذكراها[43] إلى ربك منتهاها[44] إنما أنت منذر من يخشاها[45](استئناف بياني منشؤه أن المشركين كانوا يسألون عن وقت حلول الساعة التي يتوعدهم بها النبي صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله عنهم غير مرة في القرآن كقوله)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(.

وكان سؤالهم استهزاء واستخفافا لأنهم عقدوا قلوبهم على استحالة وقوع الساعة وربما طلبوا التعجيل بوقوعها وأوهموا أنفسهم وأشياعهم أن تأخر وقوعها دليل على اليأس منها لأنهم يتوهمون أنهم إذا فعلوا ذلك مع الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان صادقا لحمي غضب الله مرسله سبحانه فبادر بإراءتهم العذاب وهم يتوهمون شؤون الخالق كشؤون الناس إذا غضب أحدهم عجل بالانتقام طيشا وحنقا قال تعالى)لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لم يجدوا من دونه موئلا(.

فلا جرم لما قضي حق الاستدلال على إمكان البعث بإقامة الدليل وضرب الأمثال، وعرض بعقاب الذين استخفوا بها في قوله)فإذا جاءت الطامة الكبرى(، كان ذلك مثارا لسؤالهم أن يقولوا: هل لمجيء هذه الطامة الكبرى وقت معلوم؟ فكان الحال مقتضيا هذا الاستئناف البياني قضاء لحق المقام وجوابا عن سابق الكلام.

فضمير)يسألون(عائد إلى المشركين أصحاب القلوب الواجفة والذين قالوا)أإنا لمردودون في الحافرة(.

وحكي فعل السؤال بصيغة المضارع للدلالة على تجدد هذا السؤال وتكرره.

والساعة: هي الطامة فذكر الساعة إظهار في مقام الإضمار لقصد استقلال الجملة بمدلولها مع تفنن في التعبير عنها بهذين الاسمين)الطامة(و)الساعة(.

و)أيان مرساها(جملة مبينة للسؤال.

و)أيان(اسم يستفهم به عن تعيين الوقت.

والاستفهام مستعمل في الاستبعاد كناية وهو أيضا كناية عن الاستحالة، و)مرساها(مصدر ميمي لفعل أرسى، والإرساء: جعل السفينة عند الشاطيء لقصد النزول منها. واستعير الإرساء للوقوع والحصول تشبيها للأمر المغيب حصوله بسفينة ماخرة البحر لا يعرف وصولها إلا إذا رست، وعليه ف)أيان(ترشيح للاستعارة، وتقدم نظير هذه في سورة الأعراف.

وقوله)فيم أنت من ذكراها(واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة باعتبار ما يظهر من حال سؤالهم عن الساعة من إرادة تعيين وقتها وصرف النظر عن إرادتهم به الاستهزاء، فهذا الجواب من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهو من تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيها له على أن الأولى به أن يهتم بغير ذلك، وهو مضمون قوله)إنما أنت منذر من يخشاها(. وهذا ما يسمى بالأسلوب الحكيم، ونظيره ما روي في الصحيح أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال له ماذا أعددت لها? ، أي كان الأولى لك أن تصرف عنايتك إلى الاستكثار من الحسنات إعدادا ليوم الساعة.

والخطاب وإن كان موجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فالمقصود بلوغه إلى مسامع المشركين فلذلك اعتبر اعتبار جواب عن كلامهم وذلك مقتضى فصل الجملة عن التي قبلها شأن الجواب والسؤال.

و)ما(في قوله)فيم(اسم استفهام بمعنى: أي شيء? مستعملة في التعجيب من سؤال السائلين عنها ثم توبيخهم. و)في(للظرفية المجازية بجعل المشركين في إحفائهم بالسؤال عن وقت الساعة كأنهم جعلوا النبي صلى الله عليه وسلم محوطا بذكر وقت الساعة، أي متلبسا به تلبس العالم بالمعلوم فدل على ذلك بحرف الظرفية على طريقة الاستعارة في الحرف.

وحذف ألف)ما(لوقوعها بعد حرف الجر مثل)عم يتساءلون(. و)فيم(خبر مقدم و)أنت(مبتدأ، و)من ذكراها(إما متعلق بالاستقرار الذي في الخبر أو هو حال من المبتدأ.

و)من(: إما مبينة للإبهام الذي في)ما(الاستفهامية، أي في شيء هو ذكراها، أي في شيء هو أن تذكرها، أي لست متصديا لشيء هو ذكرى الساعة، وإما صفة للمبتدأ فهي اتصالية وهي ضرب من الابتدائية ابتداؤها مجازي، أي لست في شيء يتصل بذكرى الساعة ويحوم حوله، أي ما أنت في شيء هو ذكر وقت الساعة، وعلى الثاني: ما أنت في صلة مع ذكر الساعة، أي لا ملابسة بينك وبين تعيين وقتها.

وتقديم)فيم(على المبتدأ للاهتمام به ليفيد أن مضمون الخبر هو مناط الإنكار بخلاف ما لو قيل: أأنت في شيء من ذكراها?
والذكرى: اسم مصدر الذكر، والمراد به هنا الذكر اللساني.

وجملة)إلى ربك منتهاها(في موقع العلة للإنكار الذي اقتضاه قوله)فيم أنت من ذكراها(ولذلك فصلت، وفي الكلام تقدير مضاف، والمعنى: إلى ربك علم منتهاها.

وتقديم المجرور على المبتدأ في قوله)إلى ربك منتهاها(لإفادة القصر، أي لا إليك، وهذا قصر صفة على موصوف.

والمنتهى: أصله مكان انتهاء السير، ثم أطلق على المصير لأن المصير لازم للانتهاء قال تعالى)وأن إلى ربك المنتهى(ثم توسع فيه فأطلق على العلم، أي لا يعلمها إلا الله، فقوله)منتهاها(هو في المعنى على حذف مضاف، أي علم وقت حصولها كما دل عليه قوله)أيان مرساها(.

ويجوز أن يكون)منتهاها(بمعنى بلوغ خبرها كما يقال: أنهيت إلى فلان حادثة كذا، وانتهى إلي نبأ كذا.

وقوله)إنما أنت منذر من يخشاها(استئناف بياني ناشئ عن جملة)فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها(وهو أن يسأل السامع عن وجه إكثار النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها وأنها قريبة، فأجيب بأن النبي صلى الله عليه وسلم حظه التحذير من بغتتها، وليس حظه الإعلام بتعيين وقتها، على أن المشركين قد اتخذوا إعراض القرآن عن تعيين وقتها حجة لهم على إحالتها لأنهم بجهلهم بالحقائق يحسبون أن من شأن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم الغيب ولذلك تكرر في القرآن تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كما في قوله تعالى)قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب(.

وأفادت)إنما(قصر المخاطب على صفة الإنذار، أي تخصيصه بحال الإنذار وهو قصر موصوف على صفة فهو قصر إضافي، أي بالنسبة إلى ما اعتقدوه فيه بما دل عليه إلحافهم في السؤال من كونه مطلعا على الغيب.

وقوله)منذر من يخشاها(قرأه الجمهور بإضافة)منذر(إلى)من يخشاها(. وقرأه أبو جعفر بتنوين)منذر(على أن)من يخشاها(مفعوله.

وفي إضافة)منذر(إلى)من يخشاها(أو نصبه به أيجاز حذف، تقديره: منذرها فينتذر من يخشاها، وقرينة ذلك حالية للعلم المتواتر من القرآن بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينذر جميع الناس لا يخص قوما دون آخرين فإن آيات الدعوة من القرآن ومقامات

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن إلا عامة، ولا يعرف من يخشى الساعة إلا بعد أن يؤمن المؤمن ولو عرف أحد بعينه أنه لا يؤمن أبدا لما وجهت إليه الدعوة، فتعين أن المراد: أنه لا ينتفع بالإنذار إلا من يخشى الساعة ومن عداه تمر الدعوة بسمعه فلا يأبه بها، فكان ذكر)من يخشاها(تنويها بشأن المؤمنين وإعلانا لمزيتهم وتحقيرا للذين بقوا على الكفر قال تعالى)وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير(.

وعلى هذا القانون يفهم لماذا وجه هذا الخطاب بالإيمان إلى ناس قد علم الله أنهم لا يؤمنون، وكشف الواقع على أنهم هلكوا ولم يؤمنوا مثل صناديد قريش أصحاب القليب قليب بدر مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة، ولماذا وجه الخطاب بطلب التقوى ممن علم الله أنه لا يتقي مثل دعار العرب الذين أسلموا ولم يتركوا العدوان والفواحش، ومثل أهل الردة الذين لم يكفروا منهم ولكنهم أصروا على منع الزكاة وقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، فمن مات منهم في ذلك فهو ممن لم يتق الله لأن ما في علم الله لا يبلغ الناس إلى علمه ولا تظهر نهايته إلا بعد الموت وهي المسألة المعروفة عند المتكلمين من أصحابنا بمسألة الموافاة.

)كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا عشية أو ضحاها[46](جواب عما تضمنه قوله)يسألونك عن الساعة أيان مرساها(باعتبار ظاهر حال السؤال من طلب المعرفة بوقت حلول الساعة واستبطاء وقوعها الذي يرمون به إلى تكذيب وقوعها، فأجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم، أي إن طال تأخر حصولها فإنها واقعة وأنهم يوم وقوعها كأنه ما لبثوا في انتظار إلا بعض يوم.

والعشية: معبر بها عن مدة يسيرة من زمان طويل على طريقة التشبيه، وهو مستفاد من)كأنهم(، فهو تشبيه حالهم بحالة من لم يلبث إلا عشية، وهذا التشبيه مقصود منه تقريب معنى التشبيه من المتعارف.

وقوله)أو ضحاها(تخيير في التشبيه على نحو قوله تعالى)أو كصيب من السماء(في سورة البقرة. وفي هذا العطف زيادة في تقليل المدة لأن حصة الضحى أقصر من حصة العشية.

وإضافة)ضحى(إلى ضمير)العشية(جرى على استعمال عربي شائع في كلامهم. قال الفراء: أضيف الضحى إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب يقولون:آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها، وأنشدني بعض بني عقيل:

نحن صبحنا عامرا في دارها   جردا تعادى طرفي نهارها عشية الهلال أو سرارها أراد عشية الهلال أو عشية سرار العشية، فهو أشد من:)آتيك الغداة أو عشيتها(اه.

ومسوغ الإضافة أن الضحى أسبق من العشية إذ لا تقع عشية إلا بعد مرور ضحى، فصار ضحى ذلك اليوم يعرف بالإضافة إلى عشية اليوم لأن العشية أقرب إلى علم الناس لأنهم يكونون في العشية بعد أن كانوا في الضحى، فالعشية أقرب والضحى أسبق.
وفي هذه الإضافة أيضا رعاية على الفواصل التي هي على حرف الهاء المفتوحة من)أيان مرساها(.
وبانتهاء هاته السورة انتهت سور طوال المفصل التي مبدؤها سورة الحجرات.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة عبس
سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة) سورة عبس(.
وفي أحكام ابن العربي عنونها سورة ابن أم مكتوم . ولم أر هذا لغيره. وقال الخفاجي: تسمى سورة الصاخة . وقال العيني في شرح صحيح البخاري تسمى سورة السفرة ، وتسمى سورة الأعمى ، وكل ذلك تسمية بألفاظ وقعت فيها لم تقع في غيرها من السور أو بصاحب القصة التي كانت سبب نزولها.
ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور التي لها أكثر من اسم وهو عبس.
وهي مكية بالاتفاق.
وقال في العارضة: لم يحقق العلماء تعيين النازل بمكة من النازل بالمدينة في الجملة ولا يحقق وقت إسلام ابن أم مكتوم اه. وهو مخالف لاتفاق أهل التفسير على أنها مكية فلا محصل لكلام ابن العربي.
وعدت الرابعة والعشرين في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة والنجم وقبل سورة القدر.

صفحة : 4723

وعدد آيها عند العادين من أهل المدينة وأهل مكة وأهل الكوفة اثنان وأربعون، وعند أهل البصرة إحدى وأربعون وعند أهل الشام أربعون.
وهي أولى السور من أواسط المفصل.
وسبب نزولها يأتي عند قوله تعالى)عبس وتولى(.

أغراضها

تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها كي لا يفيت الاهتمام بالمهم منها في بادئ الرأي مهما آخر مساويا في الأهمية أو أرجح. ولذلك يقول علماء أصول الفقه إن على المجتهد أن يبحث عن معارض الدليل الذي لاح له.

والإشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبع مواقعه.

وقرن ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين وسمو درجتهم عند الله تعالى.

والثناء على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه.

وانتقل من ذلك إلى وصف شدة الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبي صلى الله عليه وسلم عن الالتفات إلى رغبة ابن أم مكتوم.

والاستدلال على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضور ابن أم مكتوم وذلك كان من أعظم ما عني به القرآن من حيث إن إنكار البعث هو الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهما منهم بأنه يدعوا إلى المحال، فاستدل عليهم بالخلق الذي خلقه الإنسان، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة.

وأعقب الاستدلال بالإنذار بحلول الساعة والتحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين.

والتذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه.

والتنويه بضعفاء المؤمنين وعلو قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، وأنهم أحرياء بالتحقير والذم، وأنهم أصحاب الكفر والفجور.

)عبس وتولى[1] أن جاءه الأعمى[2] وما يدريك لعله يزكى[3] أو يذكر فتنفعه الذكرى[4](افتتاح هذه السورة بفعلين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم، فأما الضمائر فيبين إبهاما قوله)فأنت له تصدى(وأما الحادث فيتبين من ذكر الأعمى ومن استغنى.

وهذا الحادث سبب نزول هذه الآية من أولها إلى قوله)بررة(. وهو ما رواه مالك في الموطأ مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: أنزلت)عبس وتولى(في ابن أم مكتوم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: يا محمد استدنني، وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجال من عظماء المشركين فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه)أي عن ابن أم

مكتوم(ويقبل على الآخر، ويقول: يا أبا فلان هل ترى بما أقول بأسا فيقول)لا والدماء ما أرى بما تقول يأسى، فأنزلت)عبس وتولى(.
ورواه الترمذي مسندا عن عروة عن عائشة بقريب من هذا، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب.
وروى الطبري عن ابن عباس)أن ابن أم مكتوم جاء يقريء النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن ومثله عن قتادة.
وقال الواحدي وغيره كان النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل، والعباس بن عبد المطلب، وأبي بن خلف، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقبل على الوليد بن المغيرة يعرض عليهم الإسلام. ولا خلاف في أن المراد ب)الأعمى(هو ابن أم مكتوم. قيل: اسمه عبد الله وقيل اسمه عمرو، وهو الذي اعتمده في الإصابة، وهو ابن قيس بن زائدة من بني عامر بن لؤي من قريش .
وأمه عاتكة وكنية أم مكتوم لأن ابنها عبد الله ولد أعمى والأعمى يكنى عنه بمكتوم. ونسب إلى أمه لأنها أشرف بيتا من بيت أبيه لأن بني مخزوم من أهل بيوتات قريش فوق بني عامر بن لؤي. وهذا كما نسب عمرو بن المنذر ملك الحيرة إلى أمه هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار زيادة في تشريفه بوارثة الملك من قبل أبيه وأمه.
ووقع في الكشاف:أن أم مكتوم هي أم أبيه. وقال الطيبي: إنه وهم، وأسلم قديما وهاجر إلى المدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إليها، وتوفي بالقادسية في خلافة عمر بعد سنة أربع عشرة أو خمسة عشرة.
وفيه نزلت هذه السورة وآية)غير أولي الضرر(من سورة النساء.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويكرمه وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وكان مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم هو وبلال بن رباح.
والعبوس بضم العين: تقطيب الوجه وإظهار الغضب. ويقال: رجل عبوس بفتح العين، أي متقطب، قال تعالى)إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا(. وعبس من باب ضرب.
والتولي. أصله تحول الذات من مكانها، ويستعار لعدم اشتغال المرء بكلام يلقى إليه أو جلس يحل عنده، وهو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل ولعدم الإقبال على الزائر.

وحذف متعلق)تولى(لظهور أنه تول عن الذي مجيئه كان سبب التولي.
وعبر عن ابن أم مكتوم ب)الأعمى(ترقيقا للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون العتاب ملحوظا فيه أنه لما كان صاحب ضرارة فهو أجدر بالعناية به، لأن مثله يكون سريعا إلى انكسار خاطره.
و)أن جاءه الأعمى(مجرور بلام الجر محذوف مع)أن(وهو حذف مطرد وهو متعلق بفعلي)عبس وتولى(على طريقة التنازع.
والعلم بالحادثة يدل على أن المراد مجيء خاص وأعمى معهود.
وصيغة الخبر مستعملة في العتاب على الغفلة عن المقصود الذي تضمنه الخبر وهو اقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على الاعتناء بالحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو منه قبولها مع الذهول عن التأمل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب في علم الدين ممن آمن، ولما كان صدور ذلك من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثا على أن يترقب المعني من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب وهذا تلطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم ليقع العتاب في نفسه مدرجا وذلك أهون وقعا، ونظير هذا قوله)عفا الله عنك لم أذنت لهم(.
قال عياض: قال عون بن عبد الله والسمرقندي: أخبره الله بالعفو قبل أن يخبره بالذنب حتى سكن قلبه اه. فكذلك توجيه العتاب إليه مسندا إلى ضمير الغائب ثم جيء بضمائر الغيبة فذكر الأعمى تظهر المراد من القصة وأتضح المراد من ضمير الغيبة.
ثم جيء بضمائر الخطاب على طريقة الالتفات.
ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم رجا من ذلك المجلس أن يسلموا فيسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم فكان دخول ابن أم مكتوم قطعا لسلك الحديث وجعل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله استدنني، علمني، أرشدني، ويناديه ويكثر النداء والإلحاح فظهرت الكراهية في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم لعله لقطعه عليه كلامه وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون، وفي رواية الطبري أنه أستقرأ النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن.
وجملة)وما يدريك(الخ في موضع الحال.
وما يدريك مركبة من)ما(الاستفهامية وفعل الدراية المقترن بهمزة التعدية، أي ما يجعلك داريا أي عالما. ومثله)ما أدراك(كقوله)وما أدراك ما الحاقة(. ومنه)وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون(في سورة الأنعام.

والاستفهام في هذه التراكيب مراد منه التنبيه على مغفول عنه ثم تقع بعده جملة نحو)وما أدراك ما القارعة(ونحو قوله هنا)وما يدريك لعله يزكى(.

والمعنى أي شيء يجعلك داريا. وإنما يستعمل مثله لقصد الإجمال ثم التفصيل.

قال الراغب: ما ذكر ما أدراك في القرآن إلا وذكر بيانه بعده اه. قلت: فقد يبينه تفصيل مثل قوله هنا)وما يدريك لعله يزكى(وقوله)وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر(وقد يقه بعده ما فيه تهويل نحو)وما أدراك ما هيه(، أي ما يعلمك حقيقتها وقوله)وما أدراك ما الحاقة(أي أي شيء أعلمك جواب)ما الحاقة(.

وفعل)يدريك(معلق عن العمل في مفعوليه لورود حرف) لعل(بعده فإن)لعل(من موجبات تعليق أفعال القلوب على ما أثبته أبو علي الفارسي في التذكرة إلحاقا للترجي بالاستفهام في أنه طلب. فلما علق فعل)يدريك(عن العمل صار غير متعد إلى ثلاثة مفاعيل وبقي متعديا إلى مفعول واحد بهمزة التعددية التي فيها فصار ما بعده جملة مستأنفة.

والتذكر: حصول أثر التذكير، فهو خطور أمر معلوم في الذهن بعد نسيانه إذ هو مشتق من الذكر بضم الذال.

صفحة : 4725

والمعنى: انظر فقد يكون تزكيه مرجوا، أي إذا أقبلت عليه بالإرشاد زاد الإيمان رسوخا في نفسه وفعل خيرات كثيرة مما ترشده إليه فزاد تزكيه، فالمراد ب)يتزكى(تزكية زائدة على تزكية الإيمان بالتملي بفضائل شرائعه ومكارم أخلاقه مما يفيضه هديك عليه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة إذ الهدى الذي يزداد به المؤمنون رفعة وكمالا في درجات الإيمان هو كاهتداء الكافر إلى الأيمان لا سيما إذ الغاية من الاهتداءين واحدة.

و)يزكى(أصله: يتزكى، قلبت التاء زايا لتقارب مخرجيهما قصدل ليتأنى الإدغام وكذلك فعل في)يذكر(من الإدغام.

والتزكي: مطاوع زكاه، أي يحصل أثر التزكية في نفسه. وتقدم في سورة النازعات.

وجملة)أو يذكر(عطف على يزكى، أي ما يدريك أن يحصل أحد الأمرين وكلاهما مهم، أي تحصل الذكرى في نفسه بالإرشاد لما لم يكن يعلمه أو تذكر لما كان في غفلة عنه.
والذكرى: اسم مصدر التذكير.
وفي قوله تعالى)فتنفعه الذكرى(اكتفاء عن أن يقول: فينفعه التزكي وتنفعه الذكرى لظهور أن كليهما نفع له.
والذكرى: هو القرآن لأنه يذكر الناس بما يغفلون عنه قال تعالى) وما هو إلا ذكر للعالمين(فقد كان فيما سأل عنه ابن أم مكتوم آيات من القرآن.
وقرأ الجمهور)فتنفعه(بالرفع عطفا على)يذكر(. وقرأه عاصم بالنصب في جواب)لعله يزكى(.
)أما من استغنى فأنت له تصدى[6](تقدم الكلام على)أما(في سورة النازعات أنها بمعنى: مهما يكن شيء، فقوله)أما من استغنى(تفسيره مهما يكن الذي استغنى فأنت له تصدى، أي مهما يكن شيء فالذي استغنى تتصدى له، والمقصود: أنت تحرص على التصدي له، فجعل مضمون الجواب وهو التصدي له معلقا على وجود من استغنى وملازما له ملازمة التعليق الشرطي على طريقة المبالغة.
والاستغناء: عد الشخص نفسه غنيا في أمر يدل عليه السياق قول، أو فعل أو علم، فالسين والتاء للحسبان، أي حسب نفسه غنيا. وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التكبر والاعتزاز بالقوة.
فالمراد ب)من استغنى(هنا: من عد نفسه غنيا عن هديك بأن أعرض عن قبوله لأنه أجاب قول النبي صلى الله عليه وسلم له هل ترى بما أقول بأسا، بقوله: لا والدماء... كناية على أنه لا بأس به يريد ولكني غير محتاج إليه.
وليس المراد ب)من استغنى(من استغنى بالمال إذ ليس المقام في أيثار صاحب مال على فقير.
وهذا الذي تصدى النبي صلى الله عليه وسلم لدعوته وعرض القرآن عليه هو على أشهر الأقوال المروية عن سلف المفسرين الوليد بن المغيرة المخزومي كما تقدم.
والإتيان بضمير المخاطب مظهرا قبل السند الفعلي دون استتاره في الفعل يجوز أن يكون للتقوي كأنه قيل: تتصدى له تصديا، فمناط العتاب هو التصدي القوي.
ويجوز أن يكون مفيدا للاختصاص، أي فأنت لا غيرك تتصدى له، أي ذلك التصدي لا يليق بك. وهذا قريب من قولهم: مثلك لا يبخل، أي لو تصدى له غيرك لكان هونا، فأما أنت فلا يتصدى مثلك لمثله

فمناط العتاب هو أنه وقع من النبي صلى الله عليه وسلم في جليل قدره.
وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الصاد على إدغام إحدى التاءين في الصاد. والباقون بالفتح وتخفيف الصاد على حف إحدى التاءين.
والتصدي: التعرض، أطلق هنا على الإقبال الشديد مجازا.
)وما عليك ألا يزكى[7](جملة معترضة بين جملة)أما من استغنى(وجملة)وأما من جاءك يسعى(الآية، والواو اعتراضية.
و)ما(نافية و)عليك(خبر مقدم. والمبتدأ)أن لا يزكى(، والمعنى: عدم تزكيه ليس محمولا عليك، أي لست مؤاخذا بعدم اهتدائه حتى يزيد من الحرص على ترغيبه في الإيمان ما لم يكلفك الله به. وهذا رفق من الله برسوله صلى الله عليه وسلم.
)وأما من جاءك يسعى[8] وهو يخشى[9] فأنت عنه تلهى[10](عطف على جملة)أما من استغنى(اقتضى ذكره قصد المقابلة مع المعطوف عليها مقابلة الضدين إتماما للتقسيم. والمراد: هو ابن أم مكتوم، فحصل بمضمون هذه الجملة تأكيد لمضمون)عبس وتولى أن جاءه الأعمى(.

والسعي: شدة المشي، كني به عن الحرص على اللقاء فهو مقابل لحال من استغنى لأن استغناءه استغناء الممتعض عن التصدي له.
وجملة)وهو يخشى(في موضع الحال، وحذف مفعول)يخشى(لظهوره لأن الخشية في لسان الشرع تنصرف إلى خشية الله تعالى.
والمعنى: أنه جاء طلبا للتزكية لأن يخشى الله من التقصير في الاسترشاد. واختير الفعل المضارع لإفادته التجدد.
والقول في)فأنت عنه تلهى(كالقول في)فأنت له تصدى(.
والعبرة في هذه الآيات أن الله تعالى زاد نبيه صلى الله عليه وسلم علما عظيما من الحكمة النبوية، ورفع درجة علمه إلى أسمى ما تبلغ إليه عقول الحكماء رعاة الأمم، فنبهه إلى أن في معظم الأحوال أو جميعها نواحي صلاح ونفع قد تخفى لقلة اطرادها، ولا ينبغي ترك استقرائها عند الاشتغال بغيرها ولو ظنه الأهم، وأن ليس الإصلاح بسلوك طريقة واحدة للتدبير بأخذ قواعد كلية منضبطة تشبه قواعد العلوم يطبقها في الحوادث ويغضي عما يعارضها بأن

يسرع إلى ترجيح القوي على الضعيف مما فيه صفة الصلاح، بل شأن مقوم الأخلاق أن يكون بمثابة الطبيب بالنسبة إلى الطبائع والأمزجة فلا يجعل لجميع الأمزجة علاجا واحدا بل الأمر يختلف باختلاف الناس. وهذا غور عميق يخاض إليه من ساحل القاعدة الأصولية في باب الاجتهاد القائلة إن المجتهد إذا لاح له دليل يبحث عن المعارض والقاعدة القائلة إن الله تعالى حكما قبل الاجتهاد نصب عليه أمارة وكلف المجتهد بإصابته فإن أصابه فله أجران وإن أخطئه فله أجر واحد .

فإذا كان ذلك مقام المجتهدين من أهل العلم لأن مستطاعهم فإن غوره هو اللائق بمرتبة أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم فيما لم يرد له فيه وحي، فبحثه عن الحكم أوسع مدى من مدى أبحاث عموم المجتهدين، وتنقيبه على المعارض أعمق غورا من تناوشهم، لئلا يفوت سيد المجتهدين ما فيه من صلاح ولو ضعيفا، ما لم يكن إعماله يبطل ما في غيره من صلاح أقوى لأن اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في مواضع اجتهاده قائم مقام الوحي فيما لم يوح إليه فيه.

فالتزكية الحق هي المحور الذي يدور عليه حال ابن أم مكتوم وحال المشرك من حيث إنها مرغوبة للأول ومزهود فيها من الثاني، وهي مرمى اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتحصيلها للثاني والأمن على قرارها للأول بإقباله على الذي يتجافى عن دعوته، وإعراضه عن الذي يعلم من حاله أنه متزك بالإيمان.

وفي حاليهما حالان آخران سرهما من أسرار الحكمة التي لقنها الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو يخفى في معتاد نظر النظار فأنبأه الله به ليزيل عنه ستار ظاهر حاليهما، فإن ظاهر حاليهما قاض بصرف الاهتمام إلى أحدهما وهو المشرك لدعوته إلى الإيمان حين لاح من لين نفسه لسماع القرآن ما أطمع النبي صلى الله عليه وسلم بأنه قد اقترب من الإيمان فمحض توجيه كلامه إليه لأن هدي الناس إلى الإيمان أعظم غرض بعث النبي صلى الله عليه وسلم لأجله، فالاشتغال به يبدو أهم وأرجح من الاشتغال بمن هو مؤمن خالص، وذلك ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

غير أن وراء ذلك الظاهر حالا آخر كامنا علمه الله تعالى العالم بالخفيات ولم يوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم التنقيب عليه وهو حال مؤمن هو مظنة الازدياد من الخير، وحال كافر مصمم على الكفر تؤذن سوابقه بعناده وأنه لا يفيد فيه البرهان شيئا. وإن عميق التوسم في كلا الحالين قد يكشف للنبي صلى الله عليه وسلم بإعانة الله رجحان حال المؤمن المزداد من الرشد والهدي على حال الكافر الذي لا يغر ما أظهره من اللين مصانعة أو حياء

من المكابرة، فإن كان في إيمان الكافر نفع عظيم عام للأمة بزيادة عددها ونفع الخاص لذاته. وفي ازدياد من وسائل الخير وتزكية النفس نفع خاص له والرسول راع لآحاد الأمة ولمجموعها، فهو مخاطب بالحفاظ على مصالح المجموع ومصالح الآحاد بحيث لا يدحض مصالح الآحاد لأجل مصالح المجموع إلا إذا تعذر الجمع بين الصالح العام والصالح الخاص، بيد أن الكافر صاحب هذه القضية ينبيء دخيلته بضعف الرجاء في إيمانه لو أطيل التوسم في حاله، وبذلك تعطل الانتفاع بها عموما وخصوصا وتمخض أن لتزكية المؤمن صاحب القضية نفعا لخاصة نفسه ولا يخلو من عود تزكية بفائدة على الأمة بازدياد الكاملين من أفرادها.

صفحة : 4727

وقد حصل في هذا إشعار من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، بأن الاهتداء صنوف عديدة وله مراتب سامية، وليس الاهتداء مقتصرا على حصول الإيمان مراتب وميادين لسبق همم النفوس لا يغفل عن تعهدها بالتثبيت والرعي والإثمار، وذلك التعهد إعانة على تحصيل زيادة الإيمان.

وتلك سرائر لا يعلم حقها وفروقها إلا الله تعالى. فعلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو خليفة الله في خلقه أن يتوخاها بقدر المستطاع، فما أوحى الله إليه في شأنه اتبع ما يوحى إليه وما لم ينزل عليه وحي في شأنه فعليه أن يصرف اجتهاده كما أشار إليه قوله تعالى)ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول(.

فكان ذلك موقع هذه الوصية المفرغة في قالب المعاتبة للتنبيه إلى الاكتراث بتتبع تلك المراتب وغرس الإرشاد فيها على ما يرجى من طيب تربتها ليخرج منها نبات نافع للخاصة والعامة.

والحاصل أن الله تعالى أعلم رسوله صلى الله عليه وسلم أن ذلك المشرك الذي محضه نصحه لا يرجى منه صلاح، وأن ذلك المؤمن الذي استبقى العناية به إلى وقت آخر يزداد صلاحا تفيد المبادرة به، لأنه في حالة تلهفه على التلقي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد استعدادا منه في حين آخر.

فهذه الحادثة منوال ينسج عليها الاجتهاد النبوي إذا لم يرد له الوحي ليعلم أن من وراء الظواهر خبايا، وأن القرائن قد تستر الحقائق.

وفي ما قررنا ما يعرف به أن مرجع هذه الآية وقضيتها إلى تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فيما لم يوح إليه فيه. وأنه ما حاد عن رعاية أصول الاجتهاد قيد أنملة. وهي دليل لما تقرر في أصول الفقه من جواز الاجتهاد للنبي)ص 9 ووقوعه، وأنه جرى على قاعدة إعمال أرجح المصلحتين بحسب الظاهر، لأن السرائر موكولة إلى الله تعالى، وأن اجتهاده صلى الله عليه وسلم لا يخطيء بحسب ما نصبه الله من الأدلة، ولكنه قد يخالف ما في علم الله، وأن الله لا يقر رسوله صلى الله عليه وسلم على ما فيه مخالفة لما أراده الله في نفس الأمر.

ونظير هذه القضية قضية أسرى بدر التي حدثت بعد سنين من نزول هذه الآية والموقف فيهما متماثل.

وفي قوله تعالى)وما يدريك لعله يزكى(إيماء إلى عذر النبي صلى الله عليه وسلم في تأخيره إرشاد ابن أم مكتوم لما علمت من أنه يستعمل في التنبيه على أمر مغفول عنه، والمعنى: لعله يزكى تزكية عظيمة كانت نفسه متهيئة لها ساعتئذ إذ جاء مسترشدا حريصا، وهذه حالة خفية.

وكذلك عذره في الحرص على إرشاد المشرك بقوله)وما عليك أن لا يزكى(إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يخشى تبعة من فوات إيمان المشرك بسبب قطع المحاورة معه والإقبال على استجابة المؤمن المسترشد.

فإن قال قائل: فلماذا لم يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم.

قلنا: لأن العلم الذي يحصل عن تبين غفلة، أو إشعار بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تعطش ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر بين المسلمين وليحصل للنبي صلى الله عليه وسلم مزية كلا المقامين: مقام الاجتهاد، ومقام الإفادة.

وحكمة ذلك كله أن يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا المهيع من علي الاجتهاد لتكون نفسه غير غافلة عن مثله وليتأسى به علماء أمته وحكامها وولاة أمورها.

ونظير هذا ما ضربه الله لموسى عليه السلام من المثل في ملاقاة الخضر، وما جرى من المحاورة بينهما، وقول الخضر لموسى)وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا(ثم قوله له)ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا(. وقد سبق مثله في الشرائع السابقة كقوله في قصة نوح)يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح(وقوله لإبراهيم)لا ينال عهدي الظالمين(.

هذا ما لاح لي في تفسير هذه الآيات تأصيلا وتفصيلا، وهو بناء على أساس ما سبق إليه المفسرون من جعلهم مناط العتاب

مجموع ما في القصة من الإعراض عن إرشاد ابن أم مكتوم، ومن العبوس له، والتولي عنه، ومن التصدي القوي لدعوة المشرك والإقبال عليه.

صفحة : 4728

والأظهر عندي أن مناط العتاب الذي تؤتيه لهجة الآية والذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوته من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم مرحبا بمن عاتبني ربي لأجله إنما هو عتاب على العبوس والتولي، لا على ما حف بذلك من المبادرة بدعوة، وتأخير إرشاد، لأن ما سلكه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعي عتابا إذ ما سلك إلا سبيل الاجتهاد القويم لآن المقام الذي أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاه إرشادان لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر، هما: إرشاد كافر إلى الإسلام عساه أن يسلم. وإرشاد مؤمن إلى شعب الإسلام عساه أن يزداد تزكية.
وليس في حال المؤمن ما يفيت إيمانا وليس في تأخير إرشاده على نية التفرغ إليه بعد حين ما يناكد زيادة صلاحه فإن زيادة صلاحه مستمرة على ممر الأيام.
ومن القواعد المستقراة من تصاريف الشريعة والشاهدة بها العقول السليمة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، ونفي الضر الأكبر قبل نفي الضر الأصغر، فلم يسلك النبي صلى الله عليه وسلم إلا مسلك الاجتهاد المأمور به فيما لم يوح إليه فيه. وهو داخل تحت قوله تعالى لعموم الأمة)فاتقوا الله ما استطعتم(وهو القائل إنما أنا بشر وإنكم تختصمون ألي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع. فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما أقتطع له قطعة من نار ، وهو القائل أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وهو حديث صحيح المعنى وإن كان في إسناده تردد. فلا قبل له بعلم المغيبات إلا أن يطلعه الله على شيء منها، فلا يعلم أن هذا المشرك مضمر الكفر والعناد وأن الله يعلم أنه لا يؤمن ولا أن لذلك المؤمن في ذلك صفاء نفس وإشراق قلب لا يتهيآن له في كل وقت.
وبذلك يستبين أن ما أوحى الله به إلى نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة هو وحي له بأمر كان مغيبا عنه حين أقبل على دعوة المشرك وأرجأ إرشاد المؤمن. وليس في ظاهر حالهما ما يؤذن بباطنه وما أظهر الله فيها غيب علمه إلا لإظهار مزية مؤمن راسخ الإيمان وتسجيل كفر مشرك لا يرجى منه الأيمان، ومع ما

في ذلك من تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بما عمله الله من حسن لأدبه مع المؤمنين ورفع شأنهم أمام المشركين. فمناط المعاتبة هو العبوس للمؤمن بحضرة المشرك الذي يستصغر أمثال ابن أم مكتوم، فما وقع في خلال هذا العتاب من ذكر حال المؤمن والكافر إنما هو إدماج لأن في الحادثة فرصة من التنويه بسمو منزلة المؤمن لانطواء قلبه على أشعة تؤهله لأن يستنير بها ويفيضها على غيره جمعا بين المعاتبة والتعليم، على سنن هدي القرآن في المناسبات.

)كلا(إبطال وقد تقدم ذكر)كلا(في سورة مريم، وتقدم قريبا في سورة النبأ. وهو هنا إبطال لما جرى في الكلام السابق ولو بالمفهوم كما في قوله)وما يدريك لعله يزكى(. ولو بالتعريض أيضا كما في قوله)عبس وتولى(.

وعلى التفسير الثاني المتقدم ينصرف الإبطال إلى)عبس وتولى(خاصة.

ويجوز أن يكون تأكيدا لقوله)وما عليك أن لا يزكى(على التفسيرين، أي لا تظن أنك مسؤول عن مكابرته وعناده فقد بلغت ما أمرت بتبليغه.

)إنها تذكرة[11] فمن شاء ذكره[12] في صحف مكرمة[13] مرفوعة مطهرة[14] بأيدي سفرة[15] كرام بررة[16](استئناف بعد حرف الإبطال، وهو استئناف بياني لأن ما تقدم من العتاب ثم ما عقبه من الإبطال يثير في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم الحيرة في كيف يكون العمل في دعوة صناديد قريش إذا لم يتفرغ لهم لئلا ينفروا عن التدبر في القرآن، أو يثير في نفسه مخافة أن يكون قصر في شيء من واجب التبليغ.

وضمير)أنها(عائدة إلى الدعوة التي تضمنها قوله)فأنت له تصدى(.

ويجوز أن يكون المعنى: أن هذه الموعظة تذكرة لك وتنبيه لما غفلت عنه وليست ملاما وإنما يعاتب الحبيب حبيبه.

ويجوز عندي أن يكون)كلا إنها تذكرة(استئنافا ابتدائيا موجها إلى من كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه قبيل نزول السورة فإنه كان يعرض القرآن على الوليد بن المغيرة ومن معه، وكانوا لايستجيبون إلى ما دعاهم ولا يصدقون بالبعث، فتكون)كلا(إبطالا لما نعتوا به القرآن من أنه أساطير الأولين أو نحو ذلك.

فيكون ضمير)إنها تذكرة(عائدا إلى الآيات التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك المجلس ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن.
ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى عقبه)قتل الإنسان ما أكفره(الآيات حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث.
فكان تأنيث الضمير نكتة خصوصية لتحميل الكلام هذه المعاني.
والضمير الظاهر في قوله)ذكره(يجوز أن يعود إلى)تذكرة(لأن ما صدقها القرآن الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرضه على صناديد قريش قبيل نزول هذه السورة، أي فمن شاء ذكر القرآن وعمل به.
ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى الله تعالى فإن إعادة ضمير الغيبة على الله تعالى دون ذكر معاده في الكلام كثير في القرآن لأنه شؤونه تعالى وأحكامه نزل القرآن لأجلها فهو ملحوظ لكل سامع للقرآن، إي فمن شاء ذكر الله وتوخى مرضاته.
والذكر على كلا الوجهين: الذكر بالقلب، وهو توخي الوقوف عند الأمر والنهي. وتعدية فعل)ذكر(إلى ذلك الضمير على الوجهين على حذف مضاف يناسب المقام.
والذي اقتضى الإتيان بالضمير وكونه ضمير مذكر مراعاة الفواصل وهي:)تذكره، مطهره، سفره، برره(.
وجملة)فمن شاء ذكره(معترضة بين قوله)تذكرة(وقوله)في صحف(.
والفاء لتفريع مضمون الجملة على جملة)إنها تذكرة(فإن الجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الفاء قائما، فالفاء من جملة الاعتراض، أي هي تذكرة لك بالأصالة وينتفع بها من شاء أن يتذكر على حسب استعداده، أي يتذكر بها كل مسلم كقوله تعالى)وإنه لذكر لك ولقومك(.
وفي قوله)فمن شاء ذكره(تعريض بأن موعظة القرآن نافعة لكل أحد تجرد عن العناد والمكابرة، فمن لم يتعظ بها فلأنه لم يشأ أن يتعظ. وهذا كقوله تعالى)إنما أنت منذر من يخشاها(وقوله)لمن شاء منكم أن يستقيم(وقوله)وإنه لتذكرة للمتقين(ونحوه كثير، وقد تقدم قريب منه في قوله تعالى)فمن شاء أتخذ إلى ربه سبيلا(في سورة الإنسان.
والتذكرة: اسم لما يتذكر به الشيء إذا نسي. قال الراغب: وهي أعم من الدلالة والأمارة قال تعالى)فما لهم عن التذكرة معرضين(. وتقدم نظيره في سورة المدثر.
وكل من)تذكرة(و)ذكره(هو من الذكر القلبي الذي مصدره بضم الذال في الغالب، أي فمن شاء عمل به ولا ينسه.

والصحف: جمع صحيفة، وهي قطعة من أديم أو ورق أو خرقة يكتب فيها الكتاب، وقياس جمعها صحائف، وأما جمعها على صحف فمخالف للقياس، وهو الأفصح ولم يرد في القرآن إل صحف، وسيأتي في سورة الأعلى، وتطلق الصحيفة على ما يكتب فيه.

و)مطهرة(اسم مفعول من طهره إذا نظفه. والمراد هنا: الطهارة المجازية وهي الشرف، فيجوز أن يحمل الصحف على حقيقته فتكون أوصافها ب)مكرمة، مرفوعة، مطهرة(محمولة على المعاني المجازية وهي معاني الاعتناء بها كما قال تعالى)قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم(. وتشريفها كما قال تعالى)إن كتاب الأبرار لفي عليين(وقدسية معانيها كما قال تعالى)ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم(، وكان المراد بالصحف الأشياء التي كتب فيها القرآن من رقوق وقراطيس، وأكتاف، ولخاف، وجريد.

فقد روي أن كتاب الوحي كانوا يكتبون فيها كما جاء في خبر جمع أبي بكر للمصحف حين أمر بكتابته في رقوق أو قراطيس، ويكون إطلاق الصحف عليها تغليبا ويكون حرف)في(للظرفية الحقيقية ويكون المراد بالسفرة جمع سافر، أي كاتب، وروي عن ابن عباس. قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب سفر)بكسر السين(وللكاتب سافر لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه يقال: أسفر الصبح، إذا أضاء وقاله الفراء.

ويجوز أن يراد بالصحف كتب الرسل الذين قبل محمد صلى الله عليه وسلم مثل التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم عليه السلام. فتكون هذه الأوصاف تأييدا للقرآن بأن الكتب الإلهية السابقة جاءت بما جاء به. ومعنى كون هذه التذكرة في كتب الرسل السابقين: أن أمثال معانيها وأصولها في كتبهم، كما قال تعالى)إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى(وكما قال)وإنه لفي زبر الأولين(وكما قال)شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى(.

صفحة : 4730

ويجوز أن يراد بالصحف صحف مجازية، أي ذوات موجودة قدسية يتلقى جبريل عليه السلام منها القرآن الذي يؤمر بتبليغه للنبي صلى الله عليه وسلم، ويكون إطلاق الصحف عليها لشبهها بالصحف التي يكتب الناس فيها. ومعنى)مكرمة(عناية الله بها، ومعنى) مرفوعة(أنها من العالم العلوي، ومعنى)مطهرة(مقدسة مباركة، أي

هذه التذكرة مما تضمنه علم الله وما كتبه للملائكة في صحف قدسية.
وعلى الوجهين المذكورين في المراد بالصحف فسفرة يجوز أن يكون جمع سافر، مثل كاتب وكتبة، ويجوز أن يكون اسم جمع سفير، وهو المرسل في أمر مهم، فهو فعيل بمعنى فاعل، وقياس جمعه سفراء وتكون)في(للظرفية المجازية، أي المماثلة في المعاني.
وتاتي وجوه مناسبة في معنى)سفرة(، فالمناسب للوجه الأول أن يكون السفرة كتاب القرآن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أن يكون المراد قراء القرآن، وبه فسر قتادة وقال: هم بالنبطية القراء، وقال غيرهم: الوراقون باللغة العبرانية.
وقد عدت هذه الكلمة في عداد ما ورد في القرآن من المعرب كما في الإتقان عن ابن أبي حاتم، وقد أغفلها السيوطي فيما أستدركه على ابن السبكي وابن حجر في نظميهما في المعرب في القرآن أو قصد عدم ذكرها لوقوع الاختلاف في تعريبها.
والمناسبة للوجه الثاني: أن يكون محمله الرسل.
والمناسب، للوجه الثالث أن يكون محمله الملائكة لأنهم سفراء بين الله ورسله.
والمراد بأيديهم: حفظهم إياه إلى تبليغه، فمثل حال الملائكة بحال السفراء الذين يحملون بأيديهم الألوك والعهود وإما أن يراد: الرسل الذين كانت بأيديهم كتبهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام.
وإما أن يراد كتاب الوحي مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله بن عمرو بن العاص وعمر وعثمان وعلي وعامر بن فهيرة.
وكان بعض المسلمين يكتب ما يتلقاه من القرآن ليدرسه مثل ما ورد في حديث إسلام عمر بن الخطاب من عثوره على سورة طه مكتوبة عند أخته أم جميل فاطمة زوج سعيد بن زيد.
وفي وصفهم بالسفرة ثناء عليهم لأنهم يبلغون القرآن للناس وهم حفاظه ووعاته قال تعالى)بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم(فهذا معنى السفرة. وفيه بشارة بأنهم سينشرون الإسلام في الأمم وقد ظهر مما ذكرنا ما لكلمة)سفرة(من الوقع العظيم المعجز في هذا المقام.
ووصف)كرام(مما وصف به الملائكة في آيات أخرى كقوله تعالى)كراما كاتبين(.
ووصف البررة ورد صفة للملائكة في الحديث الصحيح قوله الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة .

والبررة : جمع بر، وهو الموصوف بكثرة البرور. وأصل بر مصدر بر يبر من باب فرح، ومصدره كالفرح، فهذا من باب الوصف بالمصدر مثل عدل وقد اختص البررة بجمع بر ولا يكون جمع بار.

والغالب في اصطلاح القرآن أن البررة الملائكة والأبرار الآدميون. قال الراغب لأن بررت أبلغ من إبرار إذ هو جمع بر، وأبرار جمع بار، وبر أبلغ من بار كما أن عدلا أبلغ من عادل .

وهذا تنويه بشأن القرآن لأن التنويه بالآيات الواردة في أول هذه السورة من حيث إنها بعض القرآن فأثني على القرآن بفضيلة أثره في التذكير والإرشاد، وبرفعة مكانته، وقدس مصدره، وكرم قراره، وطهارته، وفضائل حملته ومبلغيه، فإن تلك المدائح عائدة إلى القرآن بطريق الكناية.

)قتل الإنسان ما أكفره[17] من أي شيء خلقه[18] من نطفة خلقه فقدره[19] ثم السبيل يسره[20] ثم أماته فأقبره[21] ثم إذا شاء أنشره[22](استئناف ابتدائي نشأ عن ذكر من استغنى فإنه أريد به معين واحد أو أكثر، وذلك يبينه ما وقع من الكلام الذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين صناديد المشركين في المجلس الذي دخل فيه ابن أم مكتوم.

والمناسبة وصف القرآن بأنه تذكرة لمن شاء أن يتذكر، وإذ قد كان أكبر دواعيهم على التكذيب بالقرآن إنه أخبر عن البعث وطالبهم بالإيمان به كان الاستدلال على وقوع البعث أهم ما يعتنى به في هذا التذكير وذلك من أفنان قوله)فمن شاء ذكره(.

والذي عرف بقوله)من استغنى(يشمله العموم الذي أفاده تعريف)الإنسان(من قوله تعالى)قتل الإنسان ما أكفره(.

وفعل قتل فلانا أصله دعاء عليه بالقتل. والمفسرون الأولون جعلوا)قتل الإنسان(أنه لعن، رواه الضحاك عن ابن عباس وقوله مجاهد وقتادة وأبو مالك. قال في الكشاف دعاء عليه وهذا من أشنع دعواتهم ، أي فمورده غير مورود قوله تعالى)قاتلهم الله(وقولهم: قاتل الله فلانا يريدون التعجب من حاله، وهذا أمر مرجعه للاستعمال ولا داعي إلى حمله على التعجيب لأن قوله)ما أكفره(يغني عن ذلك.

والدعاء بالسوء من الله تعالى مستعمل في التحقير والتهديد لظهور أن حقيقة الدعاء لا تناسب الإلهية لأن الله هو الذي يتوجه إليه الناس بالدعاء.

وبناء)قتل(للمجهول متفرع على استعماله في الدعاء، إذ لا غرض في قاتل يقتله، وكثر في القرآن مبنيا للمجهول نحو)فقتل كيف قدر(.
وتعريف)الإنسان(يجوز أن يكون التعريف المسمى تعريف الجنس فيفيد استغراق جميع أفراد الجنس، وهو استغراق حقيقي، وقد يراد به استغراق معظم الأفراد بحسب القرائن فتولد بصيغة الاستغراق إدعاء لعدم الاعتداد بالقليل من الأفراد، ويسمى الاستغراق العرفي في اصطلاح علماء المعاني، ويسمى العام المراد به الخصوص في اصطلاح علماء الأصول والقرينة هنا ما بين به كفر الإنسان من قوله)من أي شيء خلقه(إلى قوله)ثم إذا شاء أنشره(، فيكون المراد من قوله)الإنسان(المشركين المنكرين البعث، وعلى ذلك جملة المفسرين، فإن معظم العرب يومئذ كافرون بالبعث.
قال مجاهد: ما كان في القرآن)قتل الإنسان(فإنما عني به الكافر. والأحكام التي يحكم بها على الأجناس يراد أنها غالبة على الجنس، فالاستغراق الذي يقضيه تعريف لفظ الجنس المحكوم عليه استغراق عرفي معناه ثبوت الحكم للجنس على الجملة، فلا يقتضي اتصاف جميع الأفراد به، بل قد يخلو عنه بعض الأفراد وقد يخلو عنه المتصف به في بعض الأحيان، فقوله)ما أكفره(تعجيب من كفر جنس الإنسان أو شدة كفره وإن كان القليل منه غير كافر.
فآل معنى الإنسان إلى الكفار من هذا الجنس وهم الغالب على نوع الإنسان.
فغالب الناس كفروا بالله من أقدم عصور التاريخ وتفشى الكفر بين أفراد الإنسان وانتصروا له وناضلوا عنه. ولا أعجب من كفر من ألهوا أعجز الموجودات من حجارة وخشب، أو نفوا أن يكون لهم رب خلقهم.
ويجوز أن يكون تعريف)الإنسان(تعريف العهد لشخص معين من الإنسان يعينه خبر سبب النزول، فقيل: أريد به أمية بن خلف، وكان ممن حواه المجلس الذي غشيه ابن أم مكتوم، وعندي أن الأولى أن يكون أراد به الوليد بن المغيرة.
وعن ابن عباس أن المراد عتبة بن أبي لهب، وذكر في ذلك قصة لا علاقة لها بخبر المجلس الذي غشيه ابن أم مكتوم، فتكون الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، والمناسبة ظاهرة.
وجملة)ما أكفره(تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاء التحقير والتهديد. وهذا تعجيب من شدة كفر هذا الإنسان.
ومعنى شدة الكفر أن كفره شديد كما، وكيفا، ومتى، لأنه كفر بوحدانية الله، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه صلى الله عليه وسلم، وأنه كفر قوي لأنه

اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرر التذكير والإنذار والتهديد.
وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حد المذمة، جامع للملامة، ولم يسمع مثلها قبلها، فهي من جوامع الكلم القرآنية.
وحذف المتعلق بلفظ)أكفره(لظهوره من لفظ)أكفر(وتقديره: ما أكفره بالله.
وفي قوله)قتل الإنسان ما أكفره(محسن الاتزان فإنه من بحر الرمل من عروضه الأولى المحذوفة.
وجملة)من أي شيء خلقه(بيان لجملة)قتل الإنسان ما أكفره(، لأن مفاد هذه الجملة الاستدلال على إبطال إحالتهم البعث وذلك الإنكار من أكبر أصول كفرهم.
وجيء في هذا الاستدلال بصورة سؤال وجواب للتشويق إلى مضمونه، ولذلك قرن الاستفهام بالجواب عنه على الطريقة المتقدمة في قوله تعالى)عم يتساءلون عن النبأ العظيم(.

صفحة : 4732

والاستفهام الصوري، وجعل المستفهم عنه تعيين الأمر الذي خلق الإنسان لأن المقام هنا ليس لإثبات أن الله خلق الإنسان، بل المقام لإثبات إمكان إعادة الخلق بتنظيره بالخلق الأول على طريقة قوله تعالى)أفعيينا بالخلق الأول(أي كما كان خلق الإنسان أول مرة من نطفة يكون خلقه ثاني مرة من كائن ما، ونظيره قوله تعالى)فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر(في سورة الطارق.
والضمير المستتر في قوله)خلقه(عائد إلى الله تعالى المعلوم من فعل الخلق لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله خالق الإنسان.
3 وقدم الجار والمجرور في قوله)من نطفة خلقه(محاكاة لتقديم المبين في السؤال الذي اقتضى تقديمه كونه استفهاما يستحق صدر الكلام، مع الاهتمام بتقديم ما منه الخلق، لما في تقديمه من التنبيه للاستدلال على عظيم حكمة الله تعالى إذ كون أبدع مخلوق معروف من أهون شيء وهو النطفة.
وإنما لم يستغن عن إعادة فعل خلقه في جملة الجواب مع العلم به بتقديم ذكر حاصله في السؤال لزيادة التنبيه على دقة ذلك الخلق البديع.

فذكر فعل)خلقه(الثاني في أسلوب المساواة ليس بإيجاز، وليس بإطناب.
والنطفة: الماء القليل، وهي فعلة بمعنى مفعولة كقولهم: قبضة حب، وغرفة ماء. وغلب إطلاق النطفة على الماء الذي منه التناسل، فذكرت النطفة لتعين ذكرها لأنها مادة خلق الحيوان للدلالة على أن صنع الله بديع فإمكان البعث حاصل، وليس في ذكر النطفة هنا إيماء الى تحقير أصل نشأة الإنسان لأن قصد ذلك محل نظر، على أن المقام هنا للدلالة على خلق عظيم وليس مقام زجر المتكبر.
وفرع على فعل)خلقه(فعل)فقدره(بفاء التفريع لأن التقدير هنا إيجاد الشيء على مقدار مضبوط منظم كقوله تعالى)وخلق كل شيء فقده تقديرا(، أي جعل التقدير من آثار الخلق لأنه خلقه متهيئا للنماء وما يلابسه من العقل والتصريف وتمكينه من النظر بعقله، والأعمال التي يريد إتيانها وذلك حاصل مع خلقه مدرجا مفرعا.
وهذا التفريع وما عطف عليه إدماج للامتنان من خلال الاستدلال.
وحرف)ثم(من قوله)ثم السبيل يسره(للتراخي الرتبي لأن تيسير سبيل العمل الإنساني أعجب في الدلالة على بديع صنع الله لأنه أثر العقل وهو أعظم ما في خلق الإنسان وهو أقوى في المنة.
والسبيل: الطريق، وهو مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرفاته تشبيها للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي تشبيه المحسوس بالمعقول.
ويجوز أن يكون مستعارا لمسقط المولود من بطن أمه فقد أطلق على ذلك الممر اسم السبيل في قولهم)السبيلان(فيكون هذا من استعمال اللفظ في مجازيه. وفيه مناسبة لقوله بعده)ثم أماته فأقبره(، ف)أماته(مقابل)خلقه(و)أقبره(مقابل)ثم السبيل يسره(لأن الإقبار إدخال في الأرض وهو ضد خروج المولود إلى الأرض.
والتيسير: التسهيل، و)السبيل(منصوب بفعل مضمر على طريق الاشتغال، والضمير عائد إلى)السبيل(. والتقدير: يسر السبيل له، كقوله)ولقد يسرنا القرآن للذكر(أي لذكر الناس.
وتقديم)السبيل(على فعله للاهتمام بالعبرة بتيسير السبيل بمعنييه المجازيين، وفيه رعاية للفواصل.
وكذلك عطف)ثم أماته(على)يسره(بحرف التراخي وهو لتراخي الرتبة فإن انقراض تلك القوى العقلية والحسية بالموت، بعد أن كانت راسخة زمنا ما، انقراض عجيب دون تدريج ولا انتظار زمان يساوي مدة بقائها، وهذا إدماج للدلالة على عظيم القدرة.

ومن المعلوم بالضرورة أن الكثير الذي لا يحصى من أفراد النوع الإنساني قد صار أمره إلى الموت وأن من هو حي آيل لا محالة، فالمعنى: ثم أماته ويميته.
فصيغة المضي في قوله)أماته(مستعملة في حقيقته وهو موت من مات، ومجازه وهو موت من سيموتون، لأن موتهم في المستقبل محقق. وذكر جملة)ثم أماته(توطئة وتمهيد لجملة) فأقبره(.
وإسناد الإماتة إلى الله تعالى حقيقة عقلية بحسب عرف الاستعمال. وهذا إدماج للامتنان في خلال الاستدلال كما أدمج)فقدره ثم السبيل يسره(فيما سبق.

صفحة : 4733

و)أقبره(جعله ذا قبر، وهو أخص من معنى قبره، أي أن الله سبب له أن يقبر. قال الفراء: أي جعله مقبورا، ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع ولا ممن يلقى في النواويس جمع ناووس صندوق من حجر أو خشب يوضع فيه الميت ويجعل في بيت أو نحوه .
والإقبار: تهيئة القبر ويقال: أقبره أيضا، إذا أمر بأن يقبر، ويقال: قبر الميت، إذا دفنه، فالمعنى: أن الله جعل الناس ذوي قبور.
وإسناد الإقبار إلى الله تعالى مجاز عقلي لأن الله ألهم الناس الدفن كما في قصة دفن أحد ابني آدم أخاه بإلهام تقليده لفعل غراب حفر لغراب آخر ميت حفرة فواراه فيها، وهي سورة العقود، فأسند الإقبار إلى الله لأنه ألهم الناس إياه. وأكد ذلك بما أمر في شرائعه من وجوب دفن الميت.
والقول في أن صيغة المضي مستعملة في حقيقتها ومجازها نظير القول في صيغة)أماته(.
وهذه كلها دلائل على عظيم قدرة الله تعالى وهم عدوها قاصرة على الخلق الثاني، وهي تتضمن منن على الناس في خلقهم وتسويتهم وإكمال قواهم أحياء، وإكرامهم أمواتا بالدفن لئلا يكون الإنسان كالشيء اللقي يجتنب بنو جنسه القرب منه ويهينه التقام السباع وتمزيق مخالب الطير والكلاب، فمحل المنة في قوله)ثم أماته(هو فيما فرع عليه بالفاء بقوله)فأقبره(وليست الإماتة وحدها منة.
وفي الآية دليل على أن وجوب دفن أموات الناس بالإقبار دون الحرق بالنار كما يفعل مجوس الهند، ودون الإلقاء لسباع الطير في

ساحات في الجبال محوطة بجدران دون سقف كما كان يفعله مجوس الفرس وكما كان يفعله أهل الجاهلية بموتى الحروب والغارات في الفيافي إذ لا يوارونهم بالتراب وكانوا يفتخرون بذلك ويتمنونه قال الشنفري:

لا تقبروني إن قبري محـرم عليكم

ولكن أبشري أم عامر يريد أن تأكله الضبع، وأبطل الإسلام ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم دفن شهداء المسلمين يوم أحد في قبور مشتركة، ووارى قتلى المشركين ببدر في قليب، قال عمرو بن معد يكرب قبل الإسلام:

آليت لا أدفن قتلاكـم فدخنوا المرء

وسرباله وجملة)ثم إذا شاء أنشره(رجوع إلى إثبات البعث وهي كالنتيجة عقب الاستدلال. ووقع قوله)إذا شاء(معترضا بين جملة) أماته(وجملة)أنشره(لرد توهم المشركين أن عدم التعجيل بالبعث دليل على انتفاء وقوعه في المستقبل و)إذا(ظرف للمستقبل ففعل المضي بعدها مؤول بالمستقبل. والمعنى: ثم حين يشاء ينشره، أي نشره حين تتعلق مشيئته بإنشاره.

وأنشره بعثه من الأرض وأصل النشر إخراج الشيء المخبأ يقال: نشر الثوب، إذ أزال طيه، ونشر الصحيفة، إذا فتحها ليقرأها. ومنه الحديث فنشروا التوراة .

وأما الإنشار بالهمزة فهو خاص بإخراج الميت من الأرض حيا وهو البعث، فيجوز أن يقال: نشر الميت، والعرب لم يكونوا يعتقدون إحياء الأموات إلا أن يكونوا قد قالوه في تخيلا تهم التوهمية. فيكون منه قول الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا

للميت النـاشـر ولذلك قال الله تعالى)ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين(.

وفي قوله)إذا شاء(رد لشبهتهم إذ كانوا يطلبون تعجيل البعث تحديا وتهكما ليجعلوا عدم الاستجابة بتعجيله دليلا على أنه لا يكون، فأعلمهم الله أنه يقع عندما يشاء الله وقوعه لا في الوقت الذي يسألونه لأنه موكول إلى حكمة الله واستفادة إبطال قولهم من طريق الكناية.

)كلا لما يقض ما أمره[23](تفسير هذه الآية معضل وكلمات المفسرين والمتأولين فيها بعضها جاف المنال، وبعضها جاف عن الاستعمال. ذلك أن المعروف في)كلا(أنه حرف ردع وزجر عن كلام سابق أو لاحق، وليس فيما تضمنه ما سبقها ولا فيما بعدها ما ظاهره أن يزجر عنه ولا أن يبطل، فتعين المصير إلى تأويل مورد) كلا(.

فأما الذين التزموا أن يكون حرف)كلا(للردع والزجر وهم الخليل وسيبويه وجمهور نحاة البصرة ويجيزون الوقوف عليها كما يجيزون الابتداء بها، فقد تأولوا هذه الآية وما أشبهها بتوجيه الإنكار إلى ما يوميء إليه الكلام السابق أو اللاحق دون صريحه ولا مضمونه.

فمنهم من يجعل الردع متوجها إلى ما قبل)كلا(مما يوميء إليه قوله تعالى)ثم إذا شاء أنشره(، أي إذا شاء الله، إذ يوميء إلى أن الكافر ينكر أن ينشره الله ويعتل بأنه لم ينشر أحد منذ القدم إلى الآن. وهذا الوجه هو الجاري على قول البصريين كما تقدم.
وموقع)كلا(على هذا التأويل موقع الجواب والإبطال، وموقع جملة)لما يقض ما أمره(موقع العلة للإبطال، أي لو قضى ما أمره الله به لعلم بطلان زعمه أنه لا ينشر.
وتأوله في الكشاف بأنه ردع للإنسان عما هو عليه أي مما ذكر قبله من شدة كفره واسترساله عليه دون إقلاع، يريد أنه زجر غير مضمون)ما أكفره(.
ومنهم من جعل الردع متوجها إلى ما بعد)كلا(مما يوميء إليه قوله تعالى)لما يقض ما أمره(، أي ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله الذي نبهه إليه بدعوة الرسل وبإيداع قوة التفكير فيه، ويتسروح هذا من كلام روي عن مجاهد، وهو أقرب لأن ما بعد)كلا(لما كان نفيا ناسب أن يجعل)كلا(تمهيدا للنفي.
وموقع)كلا(على هذا الوجه أنها جزء من استئناف.
وموقع جملة)لما يقض ما أمره(استئناف بياني نشأ عن مضمون جملة)من أي شيء خلقه(إلى قوله)أنشره(، أي إنما لا يهتد الكافر إلى دلالة الخلق الأول على إمكان الخلق الثاني، لأنه لم يقض حق النظر الذي أمره الله.
وأما الذين لم يلتزموا معنى الزجر في)كلا(وهم الكسائي القائل تكون)كلا(بمعنى حقا، ووافقه ثعلب وأبو حاتم السجستاني القائل تكون)كلا(بمعنى)ألا(الاستفتاحية.
والنضر بن شميل والفراء القائلان: تكون)كلا(حرف جواب بمعنى نعم.
فهؤلاء تأويل الكلام على رأيهم ظاهر.
وعن الفراء)كلا(تكون صلة هي حرفا زائدا للتأكيد كقولك: كلا ورب الكعبة اه. وهذا وجه إليه ولا يتأتى في هذه الآية.

فالوجه في موقع)كلا(هنا أنه يجوز أن تكون زجرا عما يفهم من قوله)ثم إذا شاء أنشره(المكنى به عن فساد استدلالهم بتأخيره على أنه لا يقع فيكون الكلام على هذا تأكيدا للإبطال الذي في قوله)كلا إنها تذكرة(باعتبار معناه الكنائي إن كان صريح معناه غير باطل فقوله)إذا شاء(مؤذن بأنه الآن لم يشأ وذلك مؤذ بإبطال أن يقع البعث عندما يسألون وقوعه، أي أنا لا نشاء انشارهم الآن وإنما ننشرهم عندما نشاء مما قدرنا أجله عند خلق العالم الأرضي.

وتكون جملة)لما يقض ما أمره(تعليلا للردع، أي الإنسان لم يستتم ما أجل الله لبقاء نوعه في هذا العالم من يوم تكوينه فلذلك لا ينشر الآن، ويكون المراد بالأمر في قوله)ما أمره(أمر التكوين، أي لم يستتم ما صدر به أمر تكوينه حين قيل لآدم)ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين(.

ويجوز أن يكون زجرا عما أفاده قوله)لما يقض ما أمره(وقدمت)كلا(في صدر الكلام الواردة لإبطاله للاهتمام بمبادرة الزجر.

وتقدم الكلام على)كلا(في سورة مريم وأحلت هنالك على ما هذا.

و)لما(حرف نفي يدل على نفي الفعل في الماضي مثل) لم(ويزيد بالدلالة على استمرار النفي إلى وقت التكلم كقوله تعالى)ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(.

والمقصود أنه مستمر على عدم قضاء ما أمره الله مما دعاه إليه.

والقضاء: فعل ما يجب على الإنسان كاملا لأن أصل القضاء مشتق من الإتمام فتضمن فعلا تاما، أي لم يزل الإنسان الكافر معرضا عن الإيمان الذي أمره الله به، وعن النظر في خلقه من نطفة ثم تطور أطوارا إلى الموت قال تعالى)فلينظر الإنسان مم خلق(، وما أمره من التدبر في القرآن ودلائله ومن إعمال عقله في الاستدلال على وحدانية الله تعالى ونفي الشرك عنه. ومن الدلائل نظره في كيفية خلقه فإنها دلائل قائمة بذاته فاستحق الردع والزجر.

والضمير المستتر في)أمره(عائد إلى ما عادت عليه الضمائر المستترة في خلقه، وقدره، وأماته، وأقبره، وأنشره)فلينظر الإنسان إلى طعامه[24] إنا صببنا الماء صبا[25] ثم شققنا الأرض شقا[26] فأنبتنا فيها حبا[27] وعنبا وقضبا[28] وزيتونا ونخلا[29] وحدائق غلبا[30] وفاكهة وأبا[31] متعا لكم ولأنعامكم[32](

صفحة : 4735

إما مفرع على قوله)لما يقض ما أمره(فيكون مما أمره الله به من النظر، وإما على قوله)ما أكفره(فيكون هذا النظر مما يبطل

ويزيل شدة كفر الإنسان. والفاء مع كونها للتفريع تفيد معنى الفصيحة، إذ التقدير: إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر إلى طعامه أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه. وهذا نظير الفاء في قوله تعالى)إن كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الإنسان مم خلق(، أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ فلينظر مم خلق ليهتدي بالنظر فيؤمن فينجو.

وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث انتقل إليه في معرض الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهمله وكان الانتقال من الاستدلال بما في خلق الإنسان من بديع الصنع من دلائل قائمة بنفسه في آية)من أي شيء خلقه(إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخا للاستدلال، وتفننا فيه، وتعريضا بالمنة على الإنسان في هذه الدلائل، ومن نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام.

وتعدية فعل النظر هنا بحرف)إلى(تدل على أنه من نظر العين إشارة إلى أن العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره. والمقصود التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض. وجعل المنظور إليه ذات الطعام مع أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به.

وذلك من أسلوب إناطة الأحكام بأسماء الذوات، والمراد أحوالها مثل قوله تعالى)حرمت عليكم الميتة(أي أكلها، فأمر الله الإنسان بالتفكير في أطوار تكون الحبوب والثمار التي بها طعامه، وقد وصف له تطور ذلك ليتأمل ما أودع إليه في ذلك من بديع التكوين سواء رأى ذلك ببصره أم لم يره، ولا يخلو أحد عن علم إجمالي بذلك، فيزيده هذا الوصف علما تفصيليا، وفي جميع تلك الأطوار تمثيل لإحياء الأجساد المستقرة في الأرض، فقد يكون هذا التمثيل في مجرد الهيئة الحاصلة بإحياء الأجساد، وقد يكون تمثيلا في جميع تلك الأطوار بأن تخرج الأجساد من الأرض كخروج النبات بأن يكون بذرها في الأرض ويرسل الله لها قوى لا نعلمها تشابه قوة الماء الذي به تحيا بذور النبات، قال تعالى)والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا(.

وفي تفسير ابن كثير عند قوله تعالى)وإذا النفوس زوجت(عن ابن حاتم بسنده إلى ابن عباس يسيل واد من أصل العرش فيما بين الصيحتين فينبت منه كل خلق بلي إنسان أو دابة ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم قد نبتوا على وجه الأرض، ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد اه. وأمور الآخرة لا تتصورها

الأفهام بالكنه وإنما يجزم العقل بأنها من الممكنات وهي مطيعة لتعلق القدرة التنجيزي.
والإنسان المذكور هنا هو الإنسان المذكور في قوله)قتل الإنسان ما أكفره(وإنما جيء باسمه الظاهر دون الضمير كما في قوله)من أي شيء خلقه(، لأن ذلك قريب من معاده وما هنا ابتداء كلام فعبر فيه بالاسم الظاهر للإيضاح.
وأدمج في ذلك منه عليه بالإمداد بالغذاء الذي به غخلاف ما يضمحل من قوته بسبب جهود العقل والتفكير الطبيعية التي لا يشعر بحصولها في داخل المزاج، وبسبب كد الأعمال البدنية والإفرازات، وتلك أسباب لتبخر القوى البدنية فيحتاج المزاج إلى تعويضها وإخلافها وذلك بالطعام والشراب.
وإنما تعلق النظر بالنظر مع أن الاستدلال هو بأحوال تكوين الطعام، إجراء للكلام على الإيجاز ويبينه ما في الجمل بعده من قوله)إنا صببنا الماء صبا(إلى آخرها.
فالتقدير: فلينظر الإنسان إلى خلق طعامه وتهيئة الما لإنمائه وشق الأرض وإنباته وإلى انتفاعه به وانتفاع مواشيه في بقاء حياتهم.
وقرأ الجمهور)إنا صببنا(بكسر همزة)انا(على أن الجملة بيان لجملة)فلينظر الإنسان إلى طعامه(لتفصيل ما اجمل هنالك على وجه الإيجاز. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بفتح الهمزة على أنه اسم بدل اشتمال من)طعامه(أو البدل الذي يسميه بعض النحويين بدل مفصل من مجمل.

صفحة : 4736

والصب: إلقاء صبرة متجمعة من أجزاء مائعة أو كالمائعة في وعاء غير الذي كانت فيه، يقال: صب الماء في الجرة، وصب القمح في الهري، وصب الدراهم في الكيس. وأصله: صب الماء، مثل نزول المطر وإفراغ الدلو.
والشق: الإبعاد بين ما كان متصلا، والمراد هنا شق سطح الأرض بخرق الماء فيه أو بآلة كالمحراث والمسحاة، أو بقوة حر الشمس في زمن الصيف لتتهيأ لقبول الأمطار في فصل الخريف والشتاء.
وإسناد الصب والشق والإنبات إلى ضمير الجلالة لأن الله مقدر نظام الأسباب المؤثرة في ذلك، ومحكم نواميسها وملهم الناس استعمالها.
فالإسناد مجاز عقلي في الأفعال الثلاثة. وقد شاع في) صببنا(و)أنبتنا(حتى ساوى الحقيقة العقلية.

وانتصب)صبا(و)شقا(على المفعول المطلق
ل)صببنا(و)شققنا(مؤكدا لعامله ليتأتى تنوينه لما في التنكير من الدلالة على التعظيم وتعظيم كل شيء بما يناسبه وهو تعظيم تعجب.

والفاء في قوله)فأنبتنا(للتفريع والتعقيب وهو في كل شيء بحسبه.

والحب أريد منه المقتات منه للإنسان، وقد تقدم في قوله تعالى) كمثل حبة أنبتت سبع سنابل(في سورة البقرة.

والعنب: ثمر الكرم، ويتخذ منه الخمر والخل، ويؤكل رطبا، ويتخذ منه الزبيب.

والقضب: الفصفصة الرطبة، سميت قضبا لأنها تعلف للدواب رطبة فتقضب، أي تقطع مرة بعد أخرى ولا تزال تخلف ما دام الماء ينزل عليها، وتسمى القت.

والزيتون: الثمر الذي يعصر منه الزيت المعروف.

والنخل: الشجر الذي ثمرته التمر وأطواره.

والحدائق: جمع حديقة وهي الجنة من نخل وكرم وشجر وفواكه، وعطفها على النخل من عطف الأعم على الأخص، ولأن في ذكر الحدائق إدماجا للامتنان بها لأنها مواضع تنزههم واخترافهم.

وإنما ذكر النخل دون ثمرته، وهو التمر، خلافا لما قرن به من الثمار والفواكه والكلأ، لأن منافع شجر النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمره، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورطب وبسر، ويأكلون جماره، ويشربون ماء عود النخلة إذا شق عنه، ويتخذون من نوى التمر علفا لإبلهم، وكل ذلك من الطعام، فضلا عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه، والحصر من سعفه، والحبال من ليفه، فذكر اسم الشجرة الجامعة لهذه المنافع أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال وإدماج الامتنان بوفرة النعم، وقد تقدم قريبا في سورة النبأ.

والغلب: جمع غلباء، وهي مؤنث الأغلب، وهو غليظ الرقبة، يقال غلب كفرح، يوصف به الإنسان والبعير، وهو هنا مستعار لغلظ أصول الشجر فوصف الحدائق به، إما على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ الأوداج والأعصاب فتكون استعارة، وإما على تقدير محذوف، أي غلب شجرها، فيكون نعتا سببيا وتكون الاستعارة في تشبيه كل شجرة بامرأة غليظة الرقبة، وذلك من محاسن الحدائق لأنها تكون قد استكملت قوة الأشجار كما في قوله)وجنات ألفافا(.

وخصت الحدائق بالذكر لأنها مواضع التنزه والاختراف، ولأنها تجمع أصنافا من الأشجار.

والفاكهة: الثمار التي تؤكل للتفكه لا للاقتيات، مثل الرطب والعنب الرطب والرمان واللوز.
والأب: بفتح الهمزة وتشديد الباء: الكلأ الذي ترعاه الأنعام، روي أن أبا بكر الصديق سئل عن الأب: ما هو? فقال أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به وروي أن عمر بن الخطاب قرأ يوما على المنبر)فأنبتنا فيها حبا(إلى) وأبا(فقال كل هذا قد عرفناه فما الأب? ثم رفع عصا كانت في يده وقال: هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك ياابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ابتغوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه . وفي صحيح البخاري عن عمر بعض هذا مختصرا.
والذي يظهر لي في انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول الأب وهما من خلص العرب لأحد سببين: إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسي من استعمالهم فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة فإن الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل أو في بعض الأزمان وتنسى في بعضها مثل اسم السكين عند الأوس والخزرج، فقد قال أنس بن مالك ما كنا نقول إلا المدية حتى سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن سليمان عليه السلام قال ائيتوني بالسكين اقسم الطفل بينهما نصفين .

وإما أن كلمة الأب تطلق على أشياء كثيرة منها النبت الذي ترعاه الأنعام، ومنها التبن، ومنها يابس الفاكهة، فكان إمساك أبي بكر وعمر عن بيان معناه لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين، وهل الأب مما يرجع إلى قوله)متاعا لكم(أو إلى قوله) ولأنعامكم(في جمع ما قسم قبله.
وذكر في الكشاف وجها آخر خاصا بكلام عمر فقال إن القوم كانت أكبر همتهم علكفة على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم، فأراد عمر أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان. وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له ولأنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك مما عدد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت، ثم وصى

الناس بأن يجروا على هذا السن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن اه . ولم يأت كلام الكشاف بأزيد من تقرير الإشكال.
وقوله)متاعا لكم(حال من المذكورات يعود إلى جميعها على قاعدة ورود الحال بعد مفردات متعاطفة، وهذا نوع من التنازل.
وقوله)ولأنعامكم(عطف قوله)لكم(.
والمتاع: ما ينتفع به زمنا ثم ينقطع، وفيه لف ونشر مشوش، والسامع يرجع كل شيء من المذكورات إلى ما يصلح له لظهوره. وهذه الحال واقعة موقع الإدماج أدمجت الموعظة والمنة في خلال الاستدلال.
)فإذا جاءت الصاخة[33] يوم يفر المرء من أخيه[34] وأمه وأبيه[35] وصاحبته وبنيه[36] لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه[37] وجوه يومئذ مسفرة[38] ضاحكة مستبشرة[39] ووجوه يومئذ عليها غبرة[40] ترهقها قترة[41] أولئك هم الكفرة الفجرة[42](الفاء للتفريع على اللوم والتوبيخ في قوله تعالى)قتل الإنسان ما أكفره(وما تبعه من الاستدلال على المشركين من قوله)من أي شيء خلقه(إلى قوله)إنا صببنا الماء صبا(، ففرع على ذلك إنذار بيوم الجزاء، مع مناسبة وقوع هذا الإنذار عقب التعريض والتصريح بالامتنان في قوله)إلى طعامه(وقوله)متاعا لكم ولأنعامكم(على نحو ما تقدم في قوله)فإذا جاءت الطامة الكبرى(من سورة النازعات.
والصاخة: صيحة شديدة من صيحات الإنسان تصخ الأسماع، أي تصمها، يقال: صخ يصخ قاصرا ومتعديا، ومضارعه يصخ بضم عينه في الحالين. وقد اختلف أهل اللغة في اشتقاقها اختلافا لا جدوى له، وما ذكرناه هو خلاصة قول الخليل والراغب وهو أحسن وأجرى على قياس اسم الفاعلمن الثلاثي، فالصاخة صارت في القرآن علما بالغلبة على حادثة يوم القيامة وانتهاء هذا العالم، وتحصل صيحات منها أصوات تزلزل الأرض واصطدام بعض الكواكب بالأرض مثلا، ونفخة الصور التي تبعث عندها الناس. و)إذا(ظرف وهو متعلق ب)جاءت الصاخة(وجوابه قوله)وجوه يومئذ مسفرة(الآيات.
والمجيء مستعمل في الحصول مجازا، شبه حصول يوم الجزاء بشخص جاء من مكان آخر.
و)يوم يفر المرء من أخيه(بدل من)إذا جاءت الصاخة(بدلا مطابقا.
والفرار: الهروب للتخلص من مخيف.
وحرف)من(هنا يجوز أن يكون بمعنى التعليل الذي يعدى به فعل الفرار إلى سبب الفرار حين يقال: فر من الأسد، وفر من العدو، وفر من الموت، ويجوز أن يكون بمعنى المجاوزة مثل)عن(.

وكون أقرب الناس للإنسان يفر منهم يقتضي هول ذلك اليوم بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهم أن الفرار منه ينجيه من الوقوع في مثله، إذ قد علم أنه كان مماثلا لهم فيما ارتكبوه من الأعمال فذكرت هنا أصناف من القرابة، فإن القرابة آصرة تكون لها في النفس معزة وحرص على سلامة صاحبها وكرامته. والألف يحدث في النفس حرصا على الملازمة والمقارنة، وكلا هذين الوجدانين يصد صاحبه عن المفارقة فما قولك في هول يغشى على هذين الوجدانين فلا يترك لهما مجالا في النفس.

ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه تدرجا في تهويل ذلك اليوم.

صفحة : 4738

فابتدىء بالأخ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا فينشأ بذلك إلف بينهما يستمر طول الحياة، ثم ارتقي من الأخ إلى الأبوين وهما أشد قربا لأبنيهما، وقدمت الأم في الذكر لأن إلف ابنها بها أقوى منه بأبيه وللرعي على الفاصلة، وانتقل إلى الزوجة والبنين وهما مجتمع عائلة الإنسان وأشد الناس قربا به وملازمة.

وأطنب بتعداد هؤلاء الأقرباء دون أن يقال: يوم يفر المرء من أقرب قرابته مثلا لإحضار صورة الهول في نفس السامع.

وكل من هؤلاء القرابة إذا قدرته هو الفار كان من ذكر معه مفرورا منه إلا قوله)وصاحبته(لظهور أن معناه والمرأة من صاحبها، ففيه اكتفاء، وإنما ذكرت بوصف الصاحبة الدال على القرب والملازمة دون وصف الزوج لأن المرأة قد تكون غير حسنة العشرة لزوجها فلا يكون فراره منها كناية عن شدة الهول فذكر بوصف الصاحبة.

والأقرب أن هذا فرار المؤمن من قرابته المشركين خشية أن يؤاخذ بتبعتهم إذ بقوا على الكفر.

وتعليق جار الأقرباء بفعل)يفر المرء(يقتضي أنهم قد وقعوا في عذاب يخشون تعديه إلى من يتصل بهم.

وقد اجتمع في قوله)يوم يفر المرء من أخيه(إلى آخره أبلغ ما يفيد هول ذلك اليوم بحيث لا يترك هوله للمرء بقية من رشده فإن نفس الفرار للخائف مسبة فيما تعارفوه لدلالته على جبن صاحبه وهم يتعيرون بالجبن وكونه يترك أعز الأعزة عليه مسبة عظمى.

وجملة)لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه(مستأنفة استئنافا ابتدائيا لزيادة تهويل اليوم، وتنوين)شأن(للتعظيم.
وحيث كان فرار المرء من الأقرباء الخمسة يقتضي فرار كل قريب من أولئك من مثله كان الاستئناف جامعا للجميع تصريحا بذلك المقتضى، فقال)لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه(أي عن الاشتغال بغيره من المذكورات بله الاشتغال عمن هو دون أولئك من القرابة والصحبة.
والشأن: الحال المهم.
وتقديم الخبر في قوله)لكل امريء(على المبتدأ ليتأتى تنكير) شأن(الدال على التعظيم لأن العرب لا يبتدئون بالنكرة في جملتها إلا بمسوغ من مسوغات عدها النحاة بضعة عشر مسوغا، ومنها تقديم الخبر على المبتدأ.
والإغناء: جعل الغير غنيا، أي غير محتاج لشيء في عرضه. وأصل الإغناء والغني: حصول النافع المحتاج إليه، قال تعالى)وما أغني عنكم من الله من شيء(وقال)وما أغنى عني ماليه(. وقد استعمل هنا في معنى الإشغال والإشغال أعم.
فاستعمل الإغناء الذي هو نفع في معنى الإشغال الأعم على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة إيماء إلى أن المؤمنين يشغلهم عن قرابتهم المشركين فرط النعيم ورفع الدرجات كما دل عليه قوله عقبه)وجوه يومئذ مسفرة(إلى آخر السورة.
وجملة)وجوه يومئذ مسفرة(جواب)إذا(أي إذا جاءت الصاخة كان الناس صنفين صنف وجوههم مسفرة وصنف وجوههم مغبرة.
وقدم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلاف قوله في سورة النازعات)فأما من طغى(ثم قوله)وأما من خاف مقام ربه(إلى آخره لأن هذه السورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين فكان حظ الفريقين مقصودا مسوقا إليه الكلام وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء، وذلك في قوله)وما يدريك لعله يزكى(إلى لآخره، ثم قوله)أما من استغنى فأنت له تصدى(.
وأما سورة النازعات فقد بنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله)يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة(فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب.
وتنكير)وجوه(الأول والثاني للتنويع، وذلك مسوغ وقوعهما مبتدأ.
وإعادة)يومئذ(لتأكيد الربط بين الشرط وجوابه ولطول الفصل بينهما والتقدير: وجوه مسفرة يوم يفر المرء من أخيه إلى آخره.

وقد أغنت إعادة)يومئذ(عن ربط الجواب بالفاء.
والمسفرة ذات الإسفار، والإسفار النور والضياء، يقال: أسفر الصبح، إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر، أي وجوه متهللة فرحا وعليها أثر النعيم.
و)ضاحكة(أي كناية عن السرور.
و)مستبشرة(معناه فرحة، والسين والتاء فيه للمبالغة مثل: استجاب، ويقال: بشر، أي فرح وسر، قال تعالى)قال يا بشراي هذا غلام(أي يا فرحتي.

صفحة : 4739

وإسناد الضحك والاستبشار إلى الوجوه مجاز عقلي لأن الوجوه محل ظهور الضحك والاستبشار، فهو من إسناد الفعل إلى مكانه، ولك أن تجعل الوجوه كناية عن الذوات كقوله تعالى)ويبقى وجه ربك(.
وهذه وجوه أهل الجنة المطمئنين بالا المكرمين عرضا وحضورا.
والغبرة بفتحتين الغبار كله، والمراد هنا إنها معفرة بالغبار إهانة من أثر الكبوات.
و)ترهقها(تغلب عليها وتعلوها.
والقترة: بفتحتين شبه دخان يغشى الوجه من الكرب والغم، كذا قال الراغب، وهو غير الغبرة كما تقتضيه الآية لئلا يكون من الإعادة، وهي خلاف الأصل ولا داعي إليها. وسوى بينهما الجوهري وتبعه ابن منظور وصاحب القاموس.
وهذه وجوه أهل الكفر، يعلم ذلك من سياق هذا التنويع، وقد صرح بذلك بقوله)أولئك هم الكفرة الفجرة(زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين.
وجيء باسم الإشارة لزيادة الإيضاح تشهيرا بالحالة التي سببت لهم ذلك.
وضمير الفصل هنا الإفادة التقوى.
وأتبع وصف)الكفرة(بوصف)الفجرة(مع أن وصف الكفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خساسة العمل فذكر وصفاهم الدالان عن مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل.
وذكر وصف)الفجرة(بدون عاطف يفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة التكوير

لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سماها تسمية صريحة. وفي حديث الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت . وليس هذا صريحا في التسمية لأن صفة يوم القيامة في جميع هذه السورة بل هو في الآيات الأول منها، فتعين أن المعنى: فليقرأ هذه الآيات، وعنونت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي)سورة إذا الشمس كورت(، وكذلك عنونها الطبري.

وأكثر التفاسير يسمونها)سورة التكوير(وكذلك تسميتها في المصاحف وهو اختصار لمدلول)كورت(.

وتسمى)سورة كورت(تسمية بحكاية لفظ وقع فيها. ولم يعدها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة السابعة في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى.

وعدد آيها تسع وعشرون.

أغراضها

اشتملت على تحقيق الجزاء صريحا.

وعلى إثبات البعث وابتدىء بوصف الأهوال التي تتقدمه وأنتقل إلى وصف أهوال تقع عقبه.

وعلى التنويه بشأن القرآن الذي كذبوا به لأنه أوعدهم بالبعث زيادة لتحقيق وقوع البحث إذ رموا النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون والقرآن بأنه يأتيه به شيطان.

)إذا الشمس كورت[1] وإذا النجوم انكدرت[2] وإذا الجبال سيرت[3] وإذا العشار عطلت[4] وإذا الوحوش حشرت[5] وإذا البحار سجرت[6] وإذا النفوس زوجت[7] وإذا الموءودة سئلت[8] بأي ذنب قتلت[9] وإذا الصحف نشرت[10] وإذا السماء كشطت[11] وإذا الجحيم سعرت[12] وإذا الجنة أزلفت[13] علمت نفس ما أحضرت[14](الافتتاح ب)إذا(افتتاح متشوق لأن)إذا(ظرف يستدعي متعلقا، ولأنه أيضا شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعند ما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة)إذا(.

وتعدد الجمل التي أضيف إليها اثنتي عشرة مرة، فإعادة كلمة)إذا(بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب، وهذا الإطناب اقتضاه قصد التهويل، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير، كما في قصيدة الحارث بن عباد البكري.

قربا مربط النعامة مني الخ وفي إعادة)إذا(إشارة إلى أن مضمون كل جملة من هذه الجمل الثنتي عشرة مستقل بحصول مضمون جملة الجواب عند حصوله بقطع النظر عن تفاوت زمان حصول الشروط فإن زمن سؤال الموءودة ونشر الصحف أقرب لعلم النفوس بما أحضرت أقرب من زمان تكوير الشمس وما عطف عليه مما يحصل قبل البعث.

وقد ذكر في هذه الآيات اثنا عشر حدثا فستة منها تحصل في آخر الحياة الدنيوية، وستة منها تحصل في الآخرة.

صفحة : 4740

وكانت الجمل التي جعلت شروطا ل)إذا(في هذه الآية مفتتحة بالمسند إليه المخبر عنه بمسند فعلي دون كونها جملا فعلية ودون تقدير أفعال محذوفة تفسرها الأفعال المذكورة وذلك يؤيد نحاة الكوفة بجواز وقوع شرط)إذا(جملة غير فعلية وهو الراجع لأن)إذا(غير عريقة في الشرط. وهذا الأسلوب لقصد الاهتمام بذكر ما أسندت إليه الأفعال التي يغلب أن تكون شروط ل)إذا(لأن الابتداء بها أدخل في التهويل والتشويق وليفيد ذلك التقديم على المسند الفعلي تقوي الحكم وتأكيده في جميع تلك الجمل ردا على إنكار منكريه فلذلك قيل)إذا الشمس كورت(ولم يقل: إذا كورت الشمس، وهكذا نظائره.

وجواب الشروط الاثني عشر هو قوله)علمت نفس ما أحضرت(وتتعلق به الظروف المشربة معنى الشرط.

وصيغة الماضي في الجمل الثنتي عشرة الواردة شروطا ل)إذا(مستعملة في معنى الاستقبال تنبيها على تحقق وقوع الشرط.

وتكوير الشمس: فساد جرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختل تركيبها فيختل لاختلاله نظام سيرها، ومن قولهم: كور العمامة، إذا أدخل بعضها في بعض ولفها، وقريب من هذا الإطلاق إطلاق الطي في قوله تعالى)يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب(.

وفسر)كورت(بمعنى غورت. رواه الطبري عن ابن جبير وقال: هي كلمة معربة عن الفارسية وأن أصلها بالفارسية كور بكر بضم الكاف الأولى وسكون الراء الأخيرة وعلى ذلك عدت هذه الكلمة مما وقع في القرآن من المعرب. وقد عدها ابن السبكي في نظمه الكلمات المعربة في القرآن.

وإذا زال ضوء الشمس انكدرت النجوم لأن معظمها يستنير من انعكاس نور الشمس عليها.

والانكدار: مطاوع كدره المضاعف على غير قياس، أي حصل للنجوم انكدار من تكدير الشمس لها حين زال عنها انعكاس نورها، فلذلك ذكر مطاوع كدر دون ذكر فاعل التكدير.

والكدرة: ضد الصفاء كتغير لون الماء ونحوه.

وفسر الانكدار بالتساقط والانقضاض، وأنشد قول العجاج يصف بازيا:

ابصر خربان فضاء فانكدر ومعنى تساقطها تساقط بعضها على بعض واصطدامها بسبب اختلال نظام الجاذبية الذي جعل الله لإمساكها إلى أمد معلوم.

وتسيير الجبال انتقالها من أماكنها بارتجاج الأرض وزلزالها. وتقدم في سورة النبأ.

والعشار جمع عشراء وهي الناقة الحامل إذ بلغت عشرة أشهر لحملها فقاربت أن تضع حملها لأن النوق تحمل عاما كاملا، والعشار أنفس مكاسب العرب ومعنى)عطلت(تركت لا ينتفع بها.

والكلام كناية عن ترك الناس أعمالهم لشدة الهول.

وعلى هذا الوجه يكون ذلك من أشراط الساعة في الأرض فيناسب)وإذا الوحوش حشرت(.

ويجوز أن تكون العشار مستعارة للأسحبة المحملة بالمطر، شبهت بالناقة العشراء. وهذا غير بعيد من الاستعمال، فهم يطلقون مثل هذه الاستعارة للسحاب. كما أطلقوا على السحابة اسم بكر في قول عنترة:

جادت عليه كل بمكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم فأطلق على السحابة الكثيرة الماء اسم البكر الحرة، أي الأصيلة من النوق وهي في حملها الأول.

ومعنى تعطيل الأسحبة أن يعرض لها ما يحبس مطرها عن النزول، أو معناه أن الأسحبة الثقال لا تتجمع ولا تحمل ماء، فمعنى تعطيلها تكونها، فيتوالى القحط على الأرض فيهلك الناس والأنعام. وعلى هذا الوجه فذلك من أشراط الساعة العلوية فيناسب تكوير الشمس وانكدار النجوم.

والوحوش: جمع وحش وهو الحيوان البري غير المتأنس بالناس. وحشرها: جمعها في مكان واحد، أي مكان من الأرض عند اقتراب فناء العالم فقد يكون سبب حشرها طوفانا يغمر الأرض من فيضان البحار فكلما غمر جزءا من الأرض فرت وحوشه حتى تجتمع في مكان واحد طالبة النجاة من الهلاك، ويشعر بهذا عطف)وإذا البحار سجرت(عليه.

وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدة الهول فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس، وليس هذا الحشر الذي يحشر الناس به للحساب بل هذا حشر في الدنيا وهو المناسب لما عد معه من الأشراط، وروي معناه عن أبي بن كعب.

صفحة : 4741

وتسجير البحار: فيضانها قال تعالى)والبحر المسجور(في سورة الطور. والمراد تجاوز مياهها معدل سطوحها واختلاط بعضها ببعض وذلك من آثار اختلال قوة كرة الهواء التي كانت ضاغطة عليها، وقد وقع في آية سورة الانفطار)وإذا البحار فجرت(وإذا حدث ذلك اختلط ماؤها برملها فتغير لونه.

يقال: سجر مضاعفا وسجر مخففا. وقرىء بهما فقرأه الجمهور مشددا. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب مخففا.

وقوله تعالى)وإذا النفوس زوجت(شروع في ذكر الأحوال الحاصلة في الآخرة يوم القيامة وقد أنتقل إلى ذكرها لأنها تحصل عقب الستة التي قبلها وابتدىء بأولها وهو تزويج النفوس، والتزويج: جعل الشيء زوجا لغيره بعد أن كان كلاهما فردا، والتزويج أيضا: جعل الأشياء أنواعا متماثلة قال تعالى)ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين(لأن الزوج يطلق على النوع والصنف من الأشياء والنفوس: جمع نفس، والنفس يطلق على الروح، قال تعالى)يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك(وقال)أخرجوا أنفسكم(.

وتطلق النفس على ذات الإنسان قال تعالى)ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق(وقال)هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم(وقال)فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم(أي فليسلم الداخل على أمثاله من الناس.

فيجوز أن يكون معنى النفوس هنا الأرواح، أي تزوج الأرواح بالأجساد المخصصة لها فيصير الروح زوجا مع الجسد بعد أن كان فردا لا جسم له في برزخ الأرواح، وكانت الأجساد بدون أرواح حين يعاد خلقها، أي وإذا أعطيت الأرواح للأجساد. وهذا هو البعث وهو المعنى المتبادر أولا، وروي عن عكرمة.

ويجوز أن يكون المعنى وإذا الأشخاص نوعت وصنفت فجعلت أصنافا: المؤمنون، والصالحون، والكفار، والفجار، قال تعالى)وكنتم

أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون(الآية.

ولعل قصد إفادة هذا التركيب لهذين المعنيين هو مقتضى العدول عن ذكر ما زوجت النفوس به. وأول منازل البعث اقتران الأرواح بأجسادها، ثم تقسيم الناس إلى مراتبهم للحشر، كما قال تعالى)ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون(ثم قال)وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا(ثم قال)وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا(الآية.

وقد ذكروا معاني أخرى لتزويج النفوس في هذه الآية غير مناسبة للسياق.

وبمناسبة ذكر تزويج النفوس بالأجساد خص سؤال الموءودة بالذكر دون غيره مما يسأل عنه المجرمون يوم الحساب. ذلك لأن إعادة الأرواح إلى الأجساد كان بعد مفارقتها بالموت، والموت إما بعارض جسدي من انحلال أو مرض وإما باعتداء عدواني من قتل أو قتال، وكان من أفظع الأعتداء على إزهاق الأرواح من أجسادها اعتداء الآباء على نفوس أطفالهم بالوأد، فإن الله جعل في الفطرة حرص الآباء على استحياء أبناءهم وجعل الأبوين سبب إيجاد الأبناء، فالوأد أفظع أعمال أهل الشرك. وسؤال الموءودة سؤال تعريضي مراد منه تهديد وائدها ورعبه بالعذاب.

وظاهر الآية أن سؤال الموءودة وعقوبة من وأدها أول ما يقضى فيه يوم القيامة كما يقتضي ذلك جعل هذا السؤال وقتا تعلم عنده كل نفس ما أحضرت فهو من أول ما يعلم به حين الجزاء.

والوأد: دفن الطفلة وهي حية: قيل هو مقلوب آداه، إذا أثقله لأنه إثقال الدفينة بالتراب. قال في الكشاف كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها البسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية يقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض .

وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتا رمت بها في الحفرة وإن ولدي ابنا حبسته اه.

وكانوا يفعلون ذلك خشية من إغارة العدو عليهم فيسبي نساءهم ولخشية الإملاق في سني الجدب لأن الذكر يحتال للكسب بالغارة وغيرها والأنثى عالة على أهلها، قال تعالى)ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق(وقال)وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون(. وإذ قد فشى فيهم كراهية ولادة الأنثى فقد نما في نفوسهم بغضها فتحركت فيها الخواطر الإجرامية فالرجل يكره أن تولد له أنثى لذلك، وامرأته تكره أن تولد لها أنثى خشية من فراق زوجها إياها وقد يهجر الرجل امرأته إذا ولدت أنثى.

وقد توارثت هذا الجهل أكثر الأمم على تفاوت بينهم فيه، ومن كلام بعضهم وقد ماتت ابنته نعم الصهر القبر .

ومن آثار هذا الشعور حرمان البنات من أموال آباءهن بأنواع من الحيل مثل وقف أموالهم على الذكور دون الإناث وقد قال مالك: إن ذلك من سنة الجاهلية، ورأى ذلك الحبس باطلا، وكان كثير من أقرباء الميت يلجئون بناته إلى إسقاط حقهن في ميراث أيهن لأخوتهن في فور الأسف على موت أبيهن فلا يمتنعن من ذلك ويرين الامتناع من ذلك عارا عليهن فإن لم يفعلن قطعهن أقرباؤهن.

وتعرف هذه المسألة في الفقه بهبة بنات القبائل. وبعضهم يعدها من الإكراه.

ولم يكن الوأد معمولا به عند جميع القبائل، قيل: أول من وأد البنات من القبائل ربيعة، وكانت كندة تئد البنات، وكان بنو تميم يفعلون ذلك، ووأد قيس أبن عاصم المنقري من بني تميم ثمان بنات له قبل إسلامه.

ولم يكن الوأد في قريش البتة. وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق من بني تميم يفتدي من يعلم أنه يريد وأد بنته من قومه بناقتين عشراوين وجمل فقيل: إنه افتدى ثلاثمائة وستين موءودة، وقيل وسبعين وفي الأغاني: وقيل أربعمائة.

وفي تفسير القرطبي: فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة ومثل هذا في كتاب الشعراء لأبن قتيبة وبين العددين بون بعيد فلعل في أحدهما تحريفا.

وفي توجيه السؤال إلى الموءودة)بأي ذنب قتلت(في ذلك الحشر إدخال الروع على من وأدها، وجعل سؤالها عن تعيين ذنب أوجب قتلها للتعريض بالتوبيخ والتخطئة للذي وأدها وليكون جوابها شهادة على من وأدها فيكون استحقاقه العقاب أشد وأظهر.

وجملة)بأي ذنب قتلت(بيان لجملة)سئلت(.

و)أي(اسم استفهام يطلب به تميز شيء من بين أشياء تشترك معه في حال.
والاستفهام في)بأي ذنب(تقريري، وإنما سئلت عن تعيين الذنب الموجب قتلها دون أن تسأل عن قاتلها لزيادة التهديد لأن السؤال عن تعيين الذنب مع تحقق الوائد الذي يسمع ذلك السؤال أن لا ذنب لها إشعار للوائد بأنه غير معذور فيما صنع بها.
وينتزع من قوله تعالى)سئلت بأي ذنب قتلت(الوارد في سياق نفي ذنب عن الموءودة يوجب قتلها استدلال على أن من ماتوا من أطفال المشركين لا يعتبرون مشركين مثل آباءهم، وأول من رأيته تعرض لهذا الاستدلال الزمخشري في الكشاف. وذكر أن ابن عباس استدل على هذا المعنى قال في الكشاف وفيه دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون وإذ أبكت الله الكافر ببراءة الموءودة من الذنب فما أقبح به وهو الذي لا يظلم مثقال ذرة أن يكر على هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل المبكت من العذاب السرمدي . وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فاحتج بهذه الآية اه. فأشار إلى ثلاثة أدلة: أحدها: دلالة الإشارة، أي لأن قوله تعالى) بأي ذنب قتلت(يشير إلى أنها لا ذنب لها، وهذا استدلال ضعيف لأن الذنب المنفي وجوده بطريقة الاستفهام المشوب بإنكار إنما هو الذنب الذي يخول لأبيها وأدها لا إثبات حرمتها وعصبة دمها فتلك قضية أخرى على تفصيل فيها.
الثاني: قاعدة إحالة فعل القبيح على الله تعالى على قاعدة التحسين والتقبيح عند المعتزلة وإحالتهم الظلم على الله إذا عذب أحدا بدون فعله، وهو أصل مختلف فيه بين الأشاعرة والمعتزلة. فعندنا أن تصرف الله في عبيده لا يوصف بالظلم خلافا لهم على أن هذا الدليل مبني على أساس الدليل الأول وقد علمت أنه غير سالم من النقض.

الثالث: ما نسبه إلى ابن عباس وهو يشير إلى ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة أنه قال: قال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب بقول الله تعالى)وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت(. وقد أجيب عن القول المروي عن ابن عباس بأنه لم يبلغ مبلغ الصحة. وهذه مسألة من أصول الدين لا يكتفى فيها إلا بالدليل القاطع.

واعلم أن الأحاديث الصحيحة في حكم أطفال المشركين متعارضة، فروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد أو ذراري المشركين. فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، وهذا الجواب يحتمل الوقت عن الجواب، أي الله أعلم بحالهم كقول موسى عليه السلام)علمها عند ربي في كتاب(جوابا لقول فرعون)فما بال القرون الأولى(. ويحتمل أن المعنى الله أعلم بحال كل واحد منهم لو كبر ماذا يكون عاملا من كفر أو إيمان، أي فيعامله بما علم من حاله.

وأخرج البخاري ومسلم ببعض اختلاف في اللفظ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه الحديث. زاد في رواية مسلم ثم يقول أي أبو هريرة إقرأوا)فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم(فيقتضي أنهم يولدون على فطرة الإسلام حتي يدخل عليه من أبويه أو قريبه أو قرينه ما يغيره عن ذلك وهذا أظهر ما يستدل به في هذه المسألة.

قال المازري في المعلم: فاضطرب العلماء فيهم. والأحاديث وردت ظواهرها مختلفة واختلاف هذه الظواهر سبب اضطراب العلماء في ذلك والقطع ههنا يبعد اه.

وقول أبي هريرة: وأقرأوا)فطرة الله التي فطر الناس عليها(الخ مصباح ينير وجه الجمع بين هذه الأخبار: وقد ورد في حديث الرؤيا عن سمرة بن جندب ما هو صريح في ذلك إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الرجل الذي في الروضة فأنه إبراهيم عليه السلام وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة. قال سمرة فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين . واختلفت أقوال العلماء في أولاد المشركين فقال ابن المبارك وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وإسحاق بن راهويه والشافعي هم في مشيئة الله. والصحيح الذي عليه المحققون والجمهور أنهم في الجنة وهو ظاهر قول أبي هريرة. وذهب الأزارقة إلى أن أولاد المشركين تبع لآبائهم، وقال أبو عبيد سألت محمد بن الحسن عن حديث كل مولود يولد على الفطرة فقال كان ذلك أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض وقبل أن يفرض الجهاد. قال أبو عبيد: كأنه يعني أنه لو ولد على الفطرة لم يرثاه لأنه مسلم وهما كافران فلما فرضت الفرائض على خلاف ذلك جاز أن يسمى كافرا وعلم أنه يولد على دينهما.

وهنالك أقوال أخرى كثيرة غيرة معزوة إلى معين ولا مستندة لأثر صحيح.

وذكر المازري: أن أطفال الأنبياء في الجنة بإجماع وأن جمهور العلماء على أن أطفال بقية المؤمنين في الجنة وبعض العلماء وقف فيهم، وقال النووي: أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة.

وقرأ الجمهور)قتلت(بتخفيف المثناة الأولى، وقرأه أبو جعفر بتشديدها، وهي تفيد معنى أنه قتل شديد فضيع.

ونشر الصحف حقيقته: فتح طيات الصحيفة، أو إطلاق التفافها لتقرأ كتابتها وتقدم في قوله)أن يؤتى صحفا منشرة(في سورة المدثر، وعند قوله)كتابا يلقاه منشورا(في سورة الإسراء.

والمراد: صحف الأعمال، وهي إما صحف حقيقية مخالفة للصحف المألوفة، وإما مجازية أطلقت على أشياء فيها إحصاء أعمال الناس، وقد تقدم غير مرة.

وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب)نشرت(بتخفيف الشين. وقرأه الجمهور بتشديد الشين للتكثير لكثرة الصحف المنشورة.

والكشط: إزالة الإهاب عن الحيوان الميت وهو أعم من السلخ لأن السلخ لا يقال إلا في إزالة أهاب البقر والغنم دون إزالة إهاب الإبل فإنه كشط ولا يقال سلخ، والظاهر أن المراد إزالة تقع في يوم القيانة لأنها ذكرت في أثناء أحداث يوم القيامة بعد قوله)وإذا النفوس زوجت وإذا الموءودة سئلت(وقوله)وإذا الصحف نشرت(.

فالظاهر أن السماء تبقى منشقة منفطرة تعرج الملائكة بينها وبين أرض المحشر حتى يتم الحساب فإذا قضي الحساب أزيلت السماء من مكانها فالسماء مكشوطة والمكشوط عنه هو عالم الخلود، ويكون)كشطت(إستعارة للإزالة.

ويجوز أن يكون هذا من الأحداث التي جعلت أشراطا للساعة وأخر ذكره لمناسبة ذكر نشر الصحف لأن الصحف تنشرها الملائكة وهم من أهل السماء فيكون هذا الكشط من قبيل الانشقاق في قوله تعالى)إذا السماء انشقت(والانفطار في قوله تعالى)إذا السماء انفطرت(إلى قوله)علمت نفس ما قدمت وأخرت(فيكون الكشط لبعض جزاء السماء والمكشوط عنه بعض آخر، فيكون من قبيل قوله تعالى)لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط(ومن قبيل الطي في قوله تعالى)يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده(لأن

ظاهره اتصال طي السماء بإعادة الخلق، وتصير الأشراط التي تحصل قبل البعث سبعة والأحداث التي تقع بعد البعث خمسة.
والجحيم أصله: النار ذات الطبقات من الوقود من حطب ونحوه بعضها فوق بعض، وصار علما بالغلبة على جهنم دار العذاب في الآخرة في اصطلاح القرآن. وتسعيرها أو إسعارها: إيقادها، أي هيأت لعذاب من حق عليهم العذاب.
وقرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ورويس عن يعقوب)سعرت(بتشديد العين مبالغ في الإسعار. وقرأه الباقون بالتخفيف.
وقوبلت بالجنة دار النعيم واسم الجنة علم بالغلبة على دار النعيم، و)أزلفت(قربت، والزلفى: القرب، أي قربت الجنة من أهلها، أي جعلت بالقرب من محشرهم بحيث لا تعب عليهم في الوصول إليها وذلك كرامة لهم.
وأعلم أن تقديم المسند إليه في الجمل الثنتى عشرة المفتتحات بكلمة)إذا(من قوله)إذا الشمس كورت(إلى هنا، والإخبار عنه بالمسند الفعلي مع إمكان أن يقال: إذا كورت الشمس وإذا انكدرت النجوم، وهكذا كما قال)فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان(إن ذلك التقديم لإفادة الاهتمام بتلك الأخبار المجعولة علامات ليوم البعث توسلا بالاهتمام بأشراطه إلى الاهتمام به وتحقيق وقوعه.
وإن إطالة ذكر تلك الجمل تشويق للجواب الواقع بعدها بقوله) علمت نفس ما أحضرت(.
وجملة)علمت نفس ما أحضرت(يتنازع التعلق به كلمات) إذا(المتكررة.
وعن عمر بن الخطاب إنه قرأ أول هذه السورة فلما بلغ)علمت نفس ما أحضرت(قال: لهذا أجريت القصة أي هو جواب القسم ومعنى)علمت(إنها تعلم بما أحضرت فتعلمه.
وقوله)نفس(نكرة في سياق الشرط مراد بها العموم، أي علمت كل نفس ما أحضرت، واستفادة العموم من النكرة في سياق الإثبات تحصل من القرينة الدالة على عدم القصد إلى واحد من الجنس، والقرينة هنا وقوع لفظ نفس في جواب هذه الشروط التي لا يخطر بالبال أن تكون شروطا لشخص واحد، وقد قال تعالى) يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء(.
والإحضار: جعل الشيء حاضرا.
ومعنى)علمت نفس ما أحضرت(حصول اليقين بما لم يكن لها من علم من حقائق الأعمال التي كان علمها بها أشتاتا: بعضه معلوم على غير وجهه، وبعضه معلوم صورته مجهولة عواقبه، وبعضه

مغفول عنه. فنزل العلم الذي كان حاصلا للناس في الحياة الدنيا منزلة عدم العلم، وأثبت العلم لهم في ذلك اليوم علم أعمالهم من خير أو شر فيعلم ما لم يكن له به علم مما يحقره من أعماله ويتذكر ما كان قد علمه من قبل، وتذكر المنسي والمغفول عنه نوع من العلم.

وما أحضرته هو ما أسلفته من الأعمال. ولما كانت الأعمال تظهر آثارها من ثواب وعقاب يومئذ عبر عن ظهور آثارها بالإحضار لشببه به كما يحضر الزاد للمسافر ففي فعل)أحضرت(استعارة. ويطلق على ذلك الإعداد كقول النبي صلى الله عليه وسلم للذي سأله متى الساعة ماذا أعددت لها .

وأسند الإحضار إلى النفوس لأنها الفاعلة للأعمال التي يظهر جزاؤها يومئذ فهذا الإسناد من إسناد فعل الشيء إلى سبب فعله، فحصل هنا مجازان: مجاز لغوي، ومجاز عقلي، وحقيقتهما في قوله تعالى)يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من شر(.

صفحة : 4745

وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها حاصلة عند حصول مجموع الشروط التي ذكرت في الجمل الثنتي عشرة لأن بعض الأحوال التي تضمنتها الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها وهي الأحوال الستة المذكورة أخيرا، وبعض الأحوال حاصل من قبل بقليل وهي الأحوال الستة المذكورة أولا. فنزل القريب منزلة المقارن، فلذلك جعل الجميع شروطا ل)إذا(.

)فلا أقسم بالخنس[15] الجوار الكنس[16] واليل إذا عسعس [17] والصبح إذا تنفس[18] إنه لقول رسول كريم[19] ذي قوة عند ذي العرش مكين[20] مطاع ثم أمين[21] الفاء لتفريع القسم وجوابه على الكلام السابق للإشارة إلى ما تقدم من الكلام هو بمنزلة التمهيد لما بعد الفاء فإن الكلام السابق أفاد تحقيق وقوع البعث والجزاء وهم قد أنكروه وكذبوا القرآن الذي أنذرهم به، فلما قضي حق الإنذار به وذكر أشراطه فرع عنه تصديق القرآن الذي أنذرهم بهوإنه موحى به من عند الله.

فالتفريع هنا تفريع معنى وتفريع ذكر معا، وقد جاء تفريع القسم لمجرد تفريع ذكر كلام على كلام آخر كقول زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله

رجال بنوه من قريش وجرهم عقب نسيب معلقته الذي لا يتفرع

عن معانيه ما بعد القسم وإنما قصد به إن ما تقدم من الكلام إنما هو للإقبال على ما بعد الفاء، وبذلك يظهر تفوق التفريع الذي في هذه الآية على تفريع بيت زهير: ومعنى)لا أقسم(: إيقاع القسم، وقد عدت)لا(زائدة، وتقدم عند قوله تعالى)فلا أقسم بمواقع النجوم(في سورة الواقعة.

والقسم مراد به تأكيد الخبر وتحقيقه، وأدمج فيف أوصاف الأشياء المقسم بها للدلالة على تمام قدرة الله تعالى.

و)الخنس(: جمع خانسة، وهي التي تخنس، أي تختفي، يقال: خنست البقرة والظبية، إذا اختفت في الكناس.

و)الجواري(: جمع جارية، وهي التي تجري، أي تسير سيرا حثيثا.

و)الكنس(: جمع كانسة، يقال: كنس الظبي، إذا دخل كناسه بكسر الكاف وهو البيت الذي يتخذه للمبيت.

وهذه الصفات أريد بها صفات مجازية لأن الجمهور على أن المراد بموصوفاتها الكواكب، وصفن بذلك لأنها تكون في النهار مختفية عن الأنظار فشبهت بالوحشية المختفية في شجر ونحوه، فقيل: الخنس وهو من بديع التشبيه، لأن الخنوس اختفاء الوحش عن أنظار الصيادين ونحوهم دون السكون في كناس. وكذلك الكواكب لأنها لا ترى في النهار لغلبة شعاع الشمس على أفقها وهي مع ذلك موجودة في مطالعها.

فشبه طلوع الكوكب بخروج الوحشية من كناسها، وشبه تنقل مرآها للناظر بجري الوحشية عند خروجها من كناسها صباحا، قال لبيد:

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت بكرت تزل عن الثرى أزلامها

وشبه غروبها بعد سيرها بكنوس الوحشية في كناسها وهو تشبيه بديع فكان قوله)بالخنس(استعارة وكان)الجواري الكنس(ترشيحين للاستعارة.

وقد حصل من مجموع الأوصاف الثلاث ما يشبه اللغز يحسب به أن الموصوفات ظباء أو وحوش لأن تلك الصفات حقائقها من أحوال الوحوش، والألغاز طريقة مستملحة عند بلغاء العرب وهي عزيزة في كلامهم، قال بعض شعرائهم وهو من شواهد العربية

فقلت أعيراني القدوم لعلني أخط بها قبرا لأبيض ماجد أراد أنه يصنع بها غمدا لسيف صقيل مهند.

وعن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن عباس: حمل هذه الأوصاف على حقائقها المشهورة، وإن الله أقسم بالظباء وبقر الوحش.

والمعروف في أقسام القرآن أن تكون بالأشياء العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى أو الأشياء المباركة.

ثم عطف القسم ب)الليل(على القسم ب)الكواكب(لمناسبة جريان الكواكب في الليل، ولأن تعاقب الليل والنهار من أجل مظاهر الحكمة الإلهية في هذا العالم.
وعسعس الليل عسعاسا وعسة، قال مجاهد عن ابن عباس: أقبل بظلامه، وقال مجاهد أيضا عن ابن عباس معناه: أدبر ظلامه، وقال زيد بن أسلم وجزم به الفراء وحكى عليه الإجماع. وقال المبرد والخليل هو من الأضداد يقال: عسعس، إذ أقبل ظلامه، وعسعس، إذا أدبر ظلامه. قال ابن عطية: قال المبرد: أقسم الله بإقبال الليل وإدباره معا اه.

صفحة : 4746

وبذلك يكون إيثار هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقسم به فيهما لأنهما من مظاهر القدرة إذ يعقب الظلام الضياء ثم يعقب الضياء الظلام، وهذا إيجاز.
وعطف عليه القسم بالصبح حين تنفسه، أي انشقاق ضوئه لمناسبة ذكر الليل، ولأن تنفس الصبح من مظاهر بديع النظام الذي جعله الله في هذا العالم.
والتنفس: حقيقته خروج النفس من الحيوان، أستعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النفس على طريقة الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفس مع تشبيه النسيم بالأنفاس.
وضمير)إنه(عائد إلى القرآن ولم يسبق له ذكر ولكنه معلوم من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث فإنه مما أخبرهم به القرآن وكذبوا بالقرآن لأجل ذلك.
والرسول الكريم يجوز أن يراد به جبريل عليه السلام، وصف جبريل برسول لأنه مرسل من الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن.
وإضافة)قول(إلى)رسول(إما لأدنى ملابسة بأن جبريل يبلغ ألفاظ القرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيحكيها كم أمره الله تعالى فهو قائلها، أي صادرة منه ألفاظها.
وفي التعبير عن جبريل بوصف)رسول(إيماء إلى أن القول الذي يبلغه هو رسالة من الله مأمور بإبلاغها كما هي.

قال ابن عطية: وقال آخرون الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم في الآية كلها اه. ولم يعين اسم أحد ممن قالوا هذا من المفسرين.

وأستطرد في خلال الثناء على القرآن الثناء على الملك المرسل به تنويها بالقرآن فإجراء أوصاف الثناء على)رسول(للتنويه به أيضا، وللكناية على أن ما نزل به صدق لأن كمال القائل يدل على صدق القول.

ووصف)رسول(بخمسة أوصاف: الأول:)كريم(وهو النفيس في نوعه.

والوصفان الثاني والثالث:)ذي قوة عند ذي العرش مكين(. فالقوة حقيقتها مقدرة الذات على الأعمال العظيمة التي لا يقدر عليها غالبا. ومن أوصافه تعالى)القوي(، ومنها مقدرة الذات من إنسان أو حيوان على كثير من الأعمال التي لا يقدر عليها أبناء نوعه.

وضدها الضعف قال تعالى)الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعف وشيبة(.

وتطلق القوة مجازا على ثبات النفس على مرادها والإقدام ورباطة الجأش. قال تعالى)يا يحيى خذ الكتاب بقوة(وقال)خذوا ما آتيناكم بقوة(، فوصف جبريل ب)ذي قوة(يجوز أن يكون شدة المقدرة كما وصف بذلك في قوله تعالى)ذو مرة(، ويجوز أن يكون من القوة المجازية وهي الثبات في إيداء ما أرسل به كقوله تعالى)علمه شديد القوى(لأن المناسب للتعليم هو قوة النفس، وأما إذا كان المراد محمد صلى الله عليه وسلم فوصفه ب)ذي قوة عند ذي العرش(يراد بها المعنى المجازي وهو الكرامة والاستجابة له.

والمكين: فعيل، صفة مشبهة من مكن بضم الكاف مكانة إذا علت رتبته عند غيره، قال تعالى في قصة يوسف مع الملك)فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين(.

وتوسيط قوله)عند ذي العرش(بين)ذي قوة(و)مكين(ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي هو ذو قوة عند الله، أي جعل الله مقدرة جبريل تخوله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزلفى.

ووصف النبي صلى الله عليه وسلم بذلك على نحو ما تقدم.

والعندية عندية تعظيم وعناية، ف)عند(للمكان المجازي الذي هو بمعنى الاختصاص والزلفى.

وعدل على اسم الجلالة إلى)ذي العرش(بالنسبة إلى جبريل لتمثيل حال جبريل ومكانته عند الله بحالة الأمير الماضي في تنفيذ أمر الملك وهو بمحل الكرامة لديه.

وأما بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فللإشارة إلى عظيم شأنه إذ كان ذا قوة عند أعظم موجود شأنا.
الوصف الرابع)مطاع(أن يطيعه من معه من الملائكة كما يطيع الجيش قائدهم، أو النبي صلى الله عليه وسلم مطاع: أي مأمور الناس بطاعة ما يأمرهم به.

صفحة : 4747

و)ثم(بفتح التاء اسم إشارة إلى المكان، والمشار إليه هو المكان المجازي الذي دل عليه قوله)عند ذي العرش(فيجوز تعلق الظرف ب)مطاع(وهو أنسب لإجراء الوصف على جبريل، أي مطاع في الملأ الأعلى فيما يأمر به الملائكة والنبي صلى الله عليه وسلم مطاع في العالم العلوي، أي مقرر عند الله أن يطاع فيما يأمر به.
ويجوز أن يتعلق ب)أمين(، وتقديمه على متعلقه للاهتمام بذلك المكان، فوصف جبريل به ظاهر أيضا، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم به بأنه مقررة أمانته في الملأ الأعلى.
والأمين: الذي يحفظ ما عهد له به حتى يؤديه دون نقص ولا تغيير، وهو فعيل أما بمعنى مفعول، أي مأمون من أمنه على كذا. وعلى هذا يقال: امرأة أمين، ولا يقال: أمينة، وأما صفة مشبهة من: آمن بضم الميم إذا صارت الأمانة سجيته، وعلى هذا الوجه يقال: امرأة أمينة، ومنه قول الفقهاء في المرأة المشتكية أضرار زوجها: يجعلان عند أمينة وأمين.
)وما صاحبكم بمجنون[22](عطف على جملة)إنه لقول رسول كريم(فهو داخل في خبر القسم جوابا ثانيا عن القسم، والمعنى: وما هو أي القرآن بقول مجنون كما تزعمون. فبعد أن أثنى الله على القرآن بأنه قول رسول مرسل من الله وكان قد تضمن ذلك ثناء على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه صادق فيما بلغه عن الله تعالى، أعقبه بإبطال بهتان المشركين فيما اختلقوه على النبي صلى الله عليه وسلم من قولهم)معلم مجنون(وقولهم)أفترى على الله كذبا أم به جنة(، فأبطل قولهم إبطالا مؤكدا ومؤيدا، فتأكيده بالقسم وبزيادة الباء بعد النفي، وتأييده بما أومأ إليه وصفة بأن الذي بلغه وصاحبهم، فإن وصف صاحب كناية عن كونهم يعلمون خلقه وعقله ويعلمون أنه ليس بمجنون، إذ شأن الصاحب أن لا تخفى دقائق حواله على أصحابه.
والمعنى: نفي أن يكون القرآن من وساوس المجانين، فسلامة مبلغه من الجنون تقتضي سلامة قوله عن أن يكون وسوسة.

ويجري على ما تقدم من القول بأن المراد ب)رسول كريم(النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون قوله)صاحبكم(هنا إظهارا في مقام الإضمار للتعريض بأنه معروف عندهم بصحة العقل وأصالة الرأي.

والصاحب حقيقته: ذو الصحبة، وهي الملازمة في أحوال التجمع والانفراد للمؤانسة والموافقة، ومنه قيل للزوج: صاحبة وللمسافر مع غيره صاحب، قال امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وقال تعالى حكاية عن يوسف)يا صاحبي السجن(، وقال الحريري في المقامة الحادية والعشرين ولا لكم مني إلا صحبة السفينة .

وقد يتوسعون في إطلاقه على المخالط في أحوال كثيرة ولو في الشر، كقول الحجاج يخاطب الخوارج ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدر، واستبطنتم الكفر . وقول الفضل اللهيبي:

كل له نية في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلـونـا والمعنى: أن الذي تخاصمونه وتكذبونه وتصفونه بالجنون ليس بمجنون وأنكم مخالطوه وملازموه وتعلمون حقيقته فما قولكم عليه إنه مجنون إلا لقصد البهتان وإساءة السمعة.

فهذا موقع هذه الجملة مع ما قبلها وما بعدها، والقصد من ذلك إثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم ولا يخطر بالبال أنها مسوقة في معرض الموازنة والمفاضلة بين جبريل ومحمد عليهما السلام والشهادة لهما بمزاياهما حتى يشم من وفرة الصفات المجراة على جبريل أنه أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم.ولا أن المبالغة في أوصاف جبريل مع الاقتصاد في أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم تؤذن بتفضيل أولهما على الثاني.

ومن أسمج الكلام وأضعف الاستدلال قول صاحب الكشاف وناهيك بهذا دليلا على جلالة مكانة جبريل عليه السلام ومباينة منزلته لمنزلة أفضل الإنس محمد صلى الله عليه وسلم إذا وازنت بين الذكرين وقايست بين قوله)إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين(، وبين قوله)وما صاحبكم بمجنون(اه.

صفحة : 4748

وكيف انصرف نظره عن سياق الآية في الرد على أقوال المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقولوا في جبريل شيئا لأن الزمخشري رام أن ينتزع من الآية دليلا لمذهب أصحاب الاعتزال من تفضيل الملائكة على الأنبياء، وهي مسألة لها مجال

آخر، على أنك قد علمت إن الصفات التي أجريت على)رسول(في قوله تعالى)إنه لقول رسول كريم(إلى قوله)آمين(غير متعين انصرافها إلى جبريل فإنها محتملة الانصراف إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد يطغى عليه حب الاستدلال لعقائد أهل الاعتزال طغيانا يرمي بفهمه في مهاوي الضآلة، وهل يسمح بال ذي مسكن من علم بمجاري كلام العقلاء أن يتصدى متصد لبيان فضل أحد بأن ينفي عنه إنه مجنون، وهذا كله مبني على تفسير)رسول كريم(بجبريل فأما إن أريد به محمد صلى الله عليه وسلم أو هو وجبريل عليهما السلام فهذا مقتلع من جذره.

ولا يخفى إن العدول عن اسم النبي العلم إلى)صاحبكم(لما يؤذن به)صاحبكم(من كونهم على علم بأحواله، وأما العدول عن ضميره إن كان المراد ب)رسول(خصوص النبي صلى الله عليه وسلم فمن الإظهار في مقام الإضمار للوجه المذكور وإذا أريد ب)رسول(كلاهما فذكر)صاحبكم(لتخصيص الكلام به.

)ولقد رآه بالأفق المبين[23](عطف على جملة)وما صاحبكم بمجنون(.

والمناسبة بين الجملتين إن المشركين كانوا إذا بلغهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر أنه نزل عليه جبريل بالوحي من وقت غار حراء فما بعده استهزأوا وقالوا: إن ذلك الذي يتراءى له هو جني، فكذبهم الله بنفي الجنون عنه ثم بتحقيق أنه إنما رأى جبريل القوي الأمين. فضمير الرفع عائد إلى صاحب من قوله)وما صاحبكم(وضمير النصب عائد إلى)رسول كريم(، وسياق الكرم يبين معاد الرائي والمرئي.

و)الأفق(: الفضاء الذي يبدو للعين من الكرة الهوائية بين طرفي مطلع الشمس ومغربها من حيث يلوح ضوء الفجر ويبدو شفق الغروب وهو يلوح كأنه قبة زرقاء والمعنى رآه ما بين السماء والأرض.

و)المبين(: وصف الأفق، أي للأفق الواضح البين.

والمقصود من هذا الوصف نعت الأفق الذي تراءى منه جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام بأنه أفق واضح بين لا تشتبه فيه المرئيات ولا يتخيل فيه الخيال، وجعلت تلك الصفة علامة على ان المرئي ملك وليس بخيال لأن الأخيلة التي يتخيلها المجانين إنما يتخيلونها على الأرض تابعة لهم على ما تعودوه من وقت الصحة، وقد وصف النبي عليه الصلاة والسلام الملك الذي رآه عند نزول سورة المدثر بأنه على كرسي جالس بين السماء والأرض، ولهذا تكرر ذكر ظهور الملك بالأفق في سورة النجم في قوله تعالى) علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى

فكان قاب قوسين أو أدنى(إلى أن قال)أفتمارونه علي ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى(الآيات، قيل رأى النبي جبريل عليهما السلام بمكة من جهة جبل أجياد من شرقيه.

)وما هو على الغيب بضنين[24](الضمير عائد إلى)صاحبكم(كما يقتضيه السياق فإن المشركين لم يدعوا أن جبريل ضنين على الغيب، وإنما ادعوا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ظلما وزورا، ولقرب المعاد.

والغيب: ما غاب عن عيان الناس، أو عن علمهم وهو تسمية للمصدر.

والمراد ما أستأثر الله بعلمه إلا أن يطلع عليه بعض أنبياءه، ومنه وحي الشرائع، والعلم بصفات الله تعالى وشؤونه، ومشاهدة ملك الوحي، وتقدم في قوله تعالى)الذين يؤمنون بالغيب(في سورة البقرة.

وكتبت كلمة)بضنين(في مصاحف الأمصار بضاد ساقطة كما اتفق عليه القراء.

وحكي عن أبي عبيد، قال الطبري: هو ما عليه مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به.

وفي الكشاف هو في مصحف أبي بالضاد وفي مصحف ابن مسعود بالظاء وقد اختصر الشاطبي في منظومته في الرسم على رسمه الضاد إذ قال: الضاد في)بضنين(تجمع البشرا وقد اختلف القراء في قراءته فقرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف وروح عن يعقوب بالضاد الساقطة التي تخرج من حافة اللسان مما يلي الأضراس وهي القراءة الموافقة لرسم المصحف الإمام.

صفحة : 4749

وقرأه الباقون بالظاء المشالة التي تخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وذكر في الكشاف أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بهما، وذلك مما لا يحتاج إلى التنبيه، لأن القراءتين ما كانتا متواترتين إلا وقد رويتا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والضاد والظاء حرفان مختلفان والكلمات المؤلفة من أحدهما مختلفة المعاني غالبا إلا نحو حضض بضادين ساقطتين وحظظ بظاءين مشالين وحضظ بضاد ساقطة بعدها ظاء مشالة وثلاثتها بضم

الحاء وفتح ما بعد الحاء. فقد قالوا: إنها لغات في كلمة ذات معنى واحد وهو اسم صمغ يقال له: خولان.

ولا شك أن الذين قرأوه بالظاء المشالة من أهل القراءات المتواترة وهم ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب قد رووه متواترا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك فلا يقدح في قراءتهم كونها مخالفة لجميع نسخ مصاحف الأمصار لأن تواتر القراءة أقوى من تواتر الخط إن اعتبر للخط تواتر.

وما ذكر من شرط موافقة القراءة لما في مصحف عثمان لتكون قراءة صحيحة تجوز القراءة بها، إنما هو بالنسبة للقراءات التي لم ترو متواترة كما بينا في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير.

وقد اعتذر أبو عبيدة عن اتفاق مصاحف الإمام على كتابتها بالضاد مع وجود الاختلاف فيها بين الضاد والظاء في القراءات المتواترة، بأن قال ليس هذا بخلاف الكتاب لأن الضاد والظاء لا يختلف خطهما في المصاحف إلا بزيادة رأس إحداهما على رأس الأخرى فهذا قد يتشابه ويتدانى اه.

يريد بهذا الكلام أن ما رسم في المصحف الإمام ليس مخالفة من كتاب المصاحف للقراءات المتواترة، أي أنهم يراعون اختلاف القراءات المتواترة فيكتبون بعض نسخ المصاحف على اعتبار اختلاف القراءات وهو الغالب. وههنا اشتبه الرسم فجاءت الظاء دقيقة الرأس.

ولا أرى للاعتذار لأنه لما كانت القراءتان متواترتين عن النبي صلى الله عليه وسلم اعتمد كتاب المصاحف على إحداهما وهي التي قرأ بها جمهور الصحابة وخاصة عثمان بن عفان، وأوكلوا القراءة الأخرى إلى حفظ القارئين.

وإذا تواترت قراءة)بضنين(بالضاد الساقطة و)بظنين(بالظاء المشالة علمنا أن الله أنزله بالوجهين وأنه أراد كلا المعنيين.

فأما معنى)ضنين(بالضاد الساقطة فهو البخيل الذي لا يعطي ما عنده مشتق من الضن بالضاد مصدر ضن، وإذا بخل، ومضارعه بالفتح والكسر.

فيجوز أن يكون على معناه الحقيقي، أي وما صاحبكم ببخيل أي بما يوحى إليه وما يخبر به عن الأمور الغيبية طلبا للانتفاع بما يخبر به بحيث لا ينبئكم عنه إلا بعوض تعطونه، وذلك كناية عن نفي أن يكون كاهنا أو عرافا يتلقى الأخبار عن الجن إذا كان المشركون يترددون على الكهان ويزعمون أنهم يخبرون بالمغيبات، قال تعالى) وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون(فأقام لهم الفرق بين حال الكهان وحال النبي صلى الله

عليه وسلم بالإشارة إلى أن النبي لا يسألهم عوضا عما يخبرهم به وإن الكاهن يأخذ ما يخبر به ما يسمونه حلوانا، فيكون هذا المعنى من قبيل قوله تعالى)قل ما أسألكم عليه من أجر( )وما أسألكم عليه من أجر(ونحو ذلك.
ويجوز أن يكون)ضنين(مجازا مرسلا في الكتمان بعلاقة اللزوم لآن الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم، أي ما هو بكاتم الغيب، أي ما يوحى إليه، وذلك أنهم كانوا يقولون)ايت بقرآن غير هذا أو بدله(وقالوا)ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه(.
ويتعلق)على الغيب(بقوله)بضنين(.
وحرف)على(على هذا الوجه بمعنى الباء مثل قوله تعالى)حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق(أي حقيق بي، أو لتضمين)ضنين(معنى حريص، والحرص: شدة البخل وما محمد بكاتم شيئا من الغيب فما أخبركم به فهو عين ما أوحيناه إليه. وقد يكون البخيل على هذه كناية عن كاتم وهو كناية بمرتبة أخرى عن عدم التغيير. والمعنى: وما صاحبكم بكاتم شيئا من الغيب، أي ما أخبركم به فهو الحق.

وأما معنى)ظنين(بالظاء المشالة فهو فعيل بمعنى مفعول مشتق من الظن بمعنى التهمة، أي مظنون. ويراد إنه مظنون به سوء، أي أن يكون كاذبا فيما يخبر به عن الغيب، وكثر حذف مفعول ظنين بهذا المعنى في الكلام حتى صار الظن يطلق بمعنى التهمة فعدي إلى مفعول واحد. وأصل ذلك أنهم يقولون: ظن به سوءا، فيتعدى إلى متعلقه الأول بحرف باء الجر فلما كثر استعماله حذفوا الباء ووصلوا الفعل بالمجرور فصار مفعولا فقالوا ظنه: بمعنى: اتهمه، يقال: سرق لي كذا وظننت فلانا.
وحرف)على(في هذا الوجه للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الظرفية نحو)أو أجد على النار هدى(، أي ما هو بمتهم في أمر الغيب وهو الوحي أن لا يكون كما بلغه، أي أن ما بلغه هو الغيب لا ريب فيه، وعكسه قولهم: ائتمنه على كذا.
)وما هو بقول شيطان رجيم[25](عطف على)إنه لقول رسول كريم(، وهذا رجوع ما أقسم عليه من أن القرآن قول رسول كريم، بعد أن استطرد بينهما بتلك المستطردات الدالة على زيادة كمال هذا القول بقدسية مصدره ومكانة حامله عند الله وصدق متلقيه منه

عن رؤيا محققة لا تخيل فيها، فكان التخلص إلى العود لتنزيه القرآن بمناسبة ذكر الغيب في قوله تعالى)وما هو على الغيب بضنين(.

فإن القرآن من أمر الغيب الذي أوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه كثير من الأخبار عن أمور الغيب الجنة والنار ونحو ذلك.

وقد علم أن الضمير عائد إلى القرآن لأنه اخبر عن الضمير بالقول الذي هو من جنس الكلام إذ قال)وما هو بقول شيطان رجيم(فكان المخبر عنه من قبيل الأقوال لا محالة، فلا يتوهم أن الضمير عائد إلى ما عاد إليه ضمير)وما هو على الغيب بضنين(.

وهذا إبطال لقول المشركين فيه: إنه كاهن، فإنهم كانوا يزعمون إن الكهان تأتيهم الشياطين بأخبار الغيب، قال تعالى)وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون(وقال)وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون(وقال)هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تتنزل على كل أفاك أثيم(وهم كانوا يزعمون أن الكاهن كان يتلقى عن شيطانه ويسمون شيطانه رئيا.

وفي حديث فترة الوحي ونزول سورة والضحى: إن حمالة الحطب امرأة أبي لهب وهي أم جميل بنت حرب قالت للنبي صلى الله عليه وسلم أرى شيطانك قد قلاك .

ورجيم فعيل بمعنى مفعول، أي مرجوم. والمرجوم: المبعد الذي يتباعد الناس من شره فإذا أقبل عليهم رجموه فهو وصف كاشف للشيطان لأنه لا يكون إلا متبرأ منه.

)فأين تذهبون[26](جملة)فأين تذهبون(معترضة بين جملة)وما هو بقول شيطان رجيم(وقوله)إن هو إلا ذكر للعالمين(.

والفاء لتفريغ التوبيخ والتعجيز على الحجج المتقدمة المثبتة أن القرآن لا يجوز أن يكون كلام كاهن وأنه وحي من الله بواسطة الملك.

وهذا من اقتران الجملة المعترضة بالفاء كما تقدم في قوله تعالى)فمن شاء ذكره(في سورة عبس.

و)أين(اسم استفهام عن المكان. وهو استفهام إنكاري عن مكان ذهابهم، أي طريق ضلالهم، تمثيلا لحالهم في سلوك طرق الباطل بحال من ظل الطريق الجادة فيسأله السائل منكرا عليه سلوكه، أي أعدل عن هذا الطريق فإنه مضلة.

ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في التعجيز عن طلب طريق يسلكونه إلى مقصدهم من الطعن في القرآن.

والمعنى: أنه قد سدت عليكم طرق بهتانكم إذ اتضح بالحجة الدامغة بطلان ادعاءكم أن القرآن كلام مجنون أو كلام كاهن، فماذا تدعون بعد ذلك.

واعلم أن جملة)أين تذهبون(قد أرسلت مثلا، ولعله من مبتكرات القرآن وكنت رأيت في كلام بعضهم: أين يذهب بك، لمن كان في خطأ وعماية.

)إن هو إلا ذكر للعالمين[27] لمن شاء منكم أن يستقيم[28](

بعد أن أفاقهم من ضلالتهم أرشدهم إلى حقيقة القرآن بقوله) إن هو إلا ذكر للعالمين(، وهذه الجملة تتنزل منزلة المؤكدة لجملة)وما هو بقول شيطان رجيم(ولذلك جردت على العاطف، ذلك أن القصر المستفاد من النفي والاستثناء في قوله)إن هو إلا ذكر للعالمين(يفيد قصر القرآن على صفة الذكر، أي لا غير ذلك وهو قصر إضافي قصد منه إبطال أن يكون قول شاعر، أو قول كاهن، أو قول مجنون، فمن جملة ما أفاده القصر نفي أن يكون قول شيطان رجيم، وبذلك كان فيه تأكيد لجملة)وما هو بقول شيطان رجيم(.

والذكر اسم يجمع معاني الدعاء والوعظ بحسن الأعمال والزجر عن الباطل وعن الضلال، أي ما القرآن إلا تذكير لجميع الناس ينتفعون به في صلاح اعتقادهم، وطاعة الله ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه.

ف)العالمين(يعم كل البشر لأنهم مدعوون للاهتداء به ومستفيدون مما جاء فيه.

فإن قلت: القرآن يشتمل على أحاديث الأنبياء والأمم وهو أيضا معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف قصر على كونه ذكرا.

قلت: القصر الإضافي لا يقصد منه إلا تخصيص الصفة بالموصوف بالنسبة إلى صفة أخرى خاصة، على أنك لك أن تجعل القصر حقيقيا مفيدا قصر القرآن على الذكر دون غير ذلك من الصفات، فإن ما اشتمل عليه من القصص والأخبار مقصود به الموعظة والعبرة كما بينت ذلك في المقدمة السابعة.

وأما إعجازه فله مدخل عظيم في التذكير لأن إعجازه دليل على أنه ليس بكلام من صنع البشر، وإذا علم ذلك وقع اليقين بأنه حق.

وأبدل من)للعالمين(قوله)لمن شاء منكم أن يستقيم(بدل بعض من كل، وأعيد مع البدل حرف الجر العامل مثله في المبدل منه لتأكيد العامل كقوله تعالى)ومن النخل من طلعها قنوان(وقوله) قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم(، وتقدم في سورة الأنعام. والخطاب في قوله)منكم(للذين

خوطبوا بقوله)فأين تذهبون(وإذا كان القرآن ذكرا لهم وهم من جملة العالمين كان ذكر)لمن شاء منكم أن يستقيم(من بقية العالمين أيضا بحكم قياس المساواة، ففي الكلام كناية عن ذلك.
وفائدة هذا الإبدال التنبيه على أن الذين تذكروا بالقرآن وهم المسلمون قد شاؤوا الاستقامة لأنفسهم فنصحوا أنفسهم، وهو ثناء عليهم.
وفي مفهوم الصلة تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن ما حل بينهم وبين التذكر به إلا أنهم لم يشاؤوا أن يستقيموا، بل رضوا لأنفسهم بالاعوجاج، أي سوء العمل والاعتقاد، ليعلم السامعون أن دوام أولئك على الضلال ليس لقصور القرآن عن هديهم بل لأنهم أبوا أن يهتدوا به، إما للمكابرة فقد كانوا يقولون)قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينكم حجاب(وإما للإعراض عن تلقيه)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(.
والاستقامة مستعارة لصلاح العمل الباطني، وهو الاعتقاد، والظاهري هو الأفعال والأقوال تشبيها للعمل بخط مستقيم تشبيه معقول بمحسوس. ثم إن الذين لم يشاؤوا أن يستقيموا هم الكافرون بالقرآن وهم المسوق لهم الكلام، ويلحق بهم على مقادير متفاوتة كل من فرط بالاهتداء بشيء من القرآن من المسلمين فإنه ما شاء أن يستقيم لما فرط منه في أحوال أو أزمان أو أمكنة.
وفي هذه الآية إشارة بينة على أن من الخطأ أن يوزن حال الدين الإسلامي بميزان أحوال بعض المسلمين أو معظمهم كما يفعله بعض أهل الأنظار القاصرة من الغربيين وغيرهم إذ يجعلون وجهة نظرهم التأمل في حالة الأمم الإسلامية ويستخلصون من استقرائها أحكاما كلية يجعلونها قضايا لفلسفتهم في كنه الديانة الإسلامية.
وهذه الآية صريحة في إثبات المشيئة للإنسان العاقل فيما يأتي ويدع، وأنه لا عذر له إذا قال: هذا أمر قدر، وهذا مكتوب عند الله، فإن تلك كلمات يضعونها في غير محالها، وبذلك يبطل قول الجبرية، ويثبت للعبد كسب أو قدرة على اختلاف التعبير.
)وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين[29](يجوز أن تكون تذييلا أو اعتراضا في آخر الكلام.

ويجوز أن تكون حالا. والمقصود التكميل والاحتراس في معنى لمن شاء منكم أن يستقسم، أي ولمن شاء له ذلك من العالمين،

وتقدم في آخر سورة الإنسان قوله تعالى)إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما(.

والفرق بينهما أن في هذه الآية وصف الله تعالى ب)رب العالمين(وهو مفيد التعليل لارتباط مشيئة من شاء الاستقامة من العالمين لمشيئة الله ذلك لأنه رب العالمين فهو الخالق فيهم دواعي المشيئة وأسباب حصولها المتسلسلة وهو الذي أرشدهم للاستقامة على الحق، وبهذا الوصف ظهر مزيد الاتصال بين مشيئة الناس الاستقامة بالقرآن وبين كون القرآن ذكرا للعالمين.

وأما آية سورة الإنسان فقد ذيلت)بأن الله كان عليما حكيما(أي فهو بعلمه وحكمته ينوط مشيئته لهم الاستقامة بمواضع صلاحيتهم لها فيفيد أن من لم يشأ أن يتخذ إلى ربه سبيلا قد حرمه الله تعالى من مشيئته الخير بعلمه وحكمته كناية عن شقائهم.

و)ما(نافية، والاستثناء من مصادر محذوفة دل عليها قوله)إلا أن يشاء الله(وتقدم بيان ذلك في سورة الإنسان.

وفي هذه الآية وآية سورة الإنسان إفصاح عن شرف أهل الاستقامة بكونهم بمحل العناية من ربهم إذا شاء لهم الاستقامة وهيأهم لها، وهذه العناية بمعنى عظيم تحير أهل العلم في الكشف عنها، فمنهم من تطوح به إلى الجبر ومنهم من ارتمى في وهدة القدر، ومنهم من اعتدل فجزم بقوة للعباد حادثة يكون بها اختيارهم لسلوك الخير أو الشر فسماها بعض هؤلاء قدرة حادثة وبعضهم سماها كسبا. وحملوا ما خالف ذلك من ظواهر الآيات والأخبار على مقام تعليم الله عباده التأدب مع جلاله.

وهذا أقصى ما بلغت إلية الأفهام القويمة في مجامل متعارض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ومن ورائه سلك دقيق يشده قد تقصر عنه الأفهام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفطار

سميت هذه السورة)سورة الانفطار(في المصاحف ومعظم التفاسير.

وفي حديث رواه الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت . قال الترمذي: حديث حسن غريب. وقد عرفت ما فيه من الاحتمال في أول سورة التكوير.

وسميت في بعض التفاسير)سورة إذا السماء انفطرت(وبهذا الاسم عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه. ولم يعدها صاحب الإتقان مع السور ذات أكثر من اسم وهو الانفطار .
ووجه التسمية وقوع جملة)إذا السماء انفطرت(في أولها فعرفت بها.
وسميت في قليل من التفاسير)سورة انفطرت(، وقيل تسمى) سورة المنفطرة(أي السماء المنفطرة.
وهي مكية بالاتفاق.
وهي معدودة الثانية والثمانين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة النازعات وقبل سورة الانشقاق.
وعدد آيها تسع عشرة آية.

أغراضها
واشتملت هذه السورة على: إثبات البعث، وذكر أهوال تتقدمه.
وإيقاظ المشركين للنظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله تعالى وعن النظر في دلائل وقوع البعث والجزاء.
والأعلام بأن الأعمال محصاة. وبيان جزاء الأعمال خيرها وشرها.
وإنذار الناس بأن لا يحسبوا شيئا ينجيهم من جزاء الله إياهم على سيء أعمالهم.
)إذا السماء انفطرت[1] وإذا الكواكب انتثرت[2] وإذا البحار فجرت[3] وإذا القبور بعثرت[4] علمت نفس ما قدمت وأخرت [5](الافتتاح ب)إذا(افتتاح مشوق لما يرد بعدها من متعلقها الذي هو جواب ما في)إذا(من معنى الشرط كما تقدم في أول سورة إذا الشمس كورت، سوى أن الجمل المتعاطفة المضاف إليها هي هنا أقل من اللآتي في سورة التكوير لأن المقام لم يقتض تطويل الإنطاب كما اقتضاه المقام في سورة التكوير وإن كان في كلتيهما مقتض الإنطاب لكنه متفاوت لأن سورة التكوير من أول السور نزولا كما علمت آنفا.
وأما سورة الانفطار فبينها وبين سورة التكوير أربع وسبعون سورة تكرر في بعضها إثبات البعث والجزاء والإنذار وتقرر عند المخاطبين فأغنى تطويل الإطناب والتهويل.
و)إذا(ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط.
والمعربون يقولون: خافض لشرطه منصوب بجوابه، وهي عبارة عن حسنة جامعة.

والقول في الجمل التي أضيف إليها)إذا(من كونها جملا مفتتحة بمسند إليه مخبر عنه بمسند فعلي دون أن يؤتى بالجملة الفعلية ودون تقدير أفعال محذوفة قبل الأسماء، لقصد الاهتمام بالمسند إليه وتقوية الخبر.

وكذلك القول في تكرير كلمة)إذا(بعد حروف العطف كالقول في جمل)إذا الشمس كورت(.

وانفطرت: مطاوع فطر، إذا جعل الشيء مفطورا، أي مشقوقا ذا فطور، وتقدم في سورة الملك.

وهذا الانفطار: انفراج يقع فيما يسمى بالسماء وهو ما يشبه القبة في نظر الرائي يراه تسير فيه الكواكب في أسمات مضبوطة تسمى بالأفلاك تشاهد بالليل، ويعرف سمتها في النهار، ومشاهدتها في صورة متماثلة مع تعاقب القرون تدل على تجانس ما هي مصورة منه فإذا اختل ذلك وتخللته أجسام أو عناصر غريبة من أصل نظامه تفككت تلك الطباق ولاح فيها تشقق فكان علامة على انحلال النظام المتعلق بها كله.

والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق أيضا في سورة الانشقاق وهو حدث يكون قبل يوم البعث وأنه من أشراط الساعة لأنه يحصل عند إفساد النظام الذي أقام الله عليه حركات الكواكب وحركة الأرض وذلك يقتضيه قرنه بانتثار الكواكب وتفجر البحار وتبعثر القبور.

وأما الكشط الذي تقدم في سورة التكوير في قوله)وإذا السماء كشطت(فذلك عرض آخر يعرض للسماوات يوم الحشر فهو من قبيل الله تعالى)ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا(.

والانتثار: مطاوع النثر ضد الجمع وضد الضم، فالنثر هو رمي أشياء على الأرض بتفرق.

وأما التفرق في الهواء فإطلاق النثر عليه مجاز كما في قوله تعالى)فجعلناه هباء منثورا(. فانتثار الكواكب مستعار لتفرق هيئات اجتماعها المعروفة في مواقعها، أو مستعار لخروجها من دوائر أفلاكها وسموتها فتبدو مضطربة في الفضاء بعد أن كانت تلوح كأنها قارة، فانتثارها تبددها وتفرق مجتمعها، وذلك من آثار اختلال قوة الجاذبية التي أقيم عليها نظام العالم الشمسي.

وتفجير البحار انطلاق مائها من مستواه وفيضانه على ما حولها من الأرضين كما يتفجر ماء العين حين حفرها لفساد كرة الهواء التي هي ضاغطة على مياه البحار وبذلك التفجير يعم الماء على الأرض فيهلك ما عليها ويختل سطحها.

ومعنى)بعثرت(: انقلب باطنها ظاهرها، والبعثرة: الانقلاب، ويقال: بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض. قال في الكشاف بعثر مركب من البعث من راء ضمت إليه. وقال البيضاوي قيل: إن بعثر مركب من بعث وراء الإثارة كبسمل اه. ونقل مثله عن السهيلي. وأن بعثر منحوت من بعث وإثارة مثل بسمل، وحوقل، فيكون في بعثر معنى فعلين بعث وأثار، أي أخرج وقلب، فكأنه قلب لأجل إخراج ما في المقلوب.

والذي اقتصر عليه أيمة اللغة أن معنى بعثر: قلب بعض شيء على بعضه.

وبعثرت القبور: حالة من حالات الانقلاب الأرضي والخسف خصت بالذكر من بين حالات الأرض لما فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألقت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر من جثث كاملة ورفات، فإن كان البعث عن عدم كما مال إليه بعض العلماء أو عن تفريق كما رآه بعض آخر، فإن بعث الأجساد الكاملة يجوز أن يختص بالبعث عن تفريق ويختص بعث الأجساد البالية والرمم بالكون عن عدم.

وجملة)علمت نفس ما قدمت وأخرت(جواب لما في)إذا(من معنى الشرط، ويتنازع التعلق به جميع ما ذكر من كلمات)إذا(الأربع. وهذا العلم كناية عن الحساب على ما قدمت النفوس وأخرت.

وعلم النفوس بما قدمت وأخرت يحصل بعد حصول ما تضمنته جمل الشرط ب)إذا(إذ لا يلزم في ربط المشروط بشرطه أن يكون حصوله مقارنا لحصول شرطه لأن الشروط اللغوية أسباب وأمارات وليست عللا، وقد تقدم بيان ذلك في سورة التكوير.

وصيغة الماضي في قوله)انفطرت(وما عطف عليه مستعمله في المستقبل تشبيها لتحقيق وقوع المستقبل بحصول الشيء في الماضي.

وإثبات العلم للناس بما قدموا وأخروا عند حصول تلك الشروط لعدم الاعتداد بعلمهم بذلك الذي كان في الحياة الدنيا، فنزل منزلة عدم العلم كما تقدم بيانه في قوله)علمت نفس ما أحضرت(في سورة التكوير.

و)نفس(مراد به العموم على نحو ما تقدم في)علمت نفس ما أحضرت(في سورة التكوير.